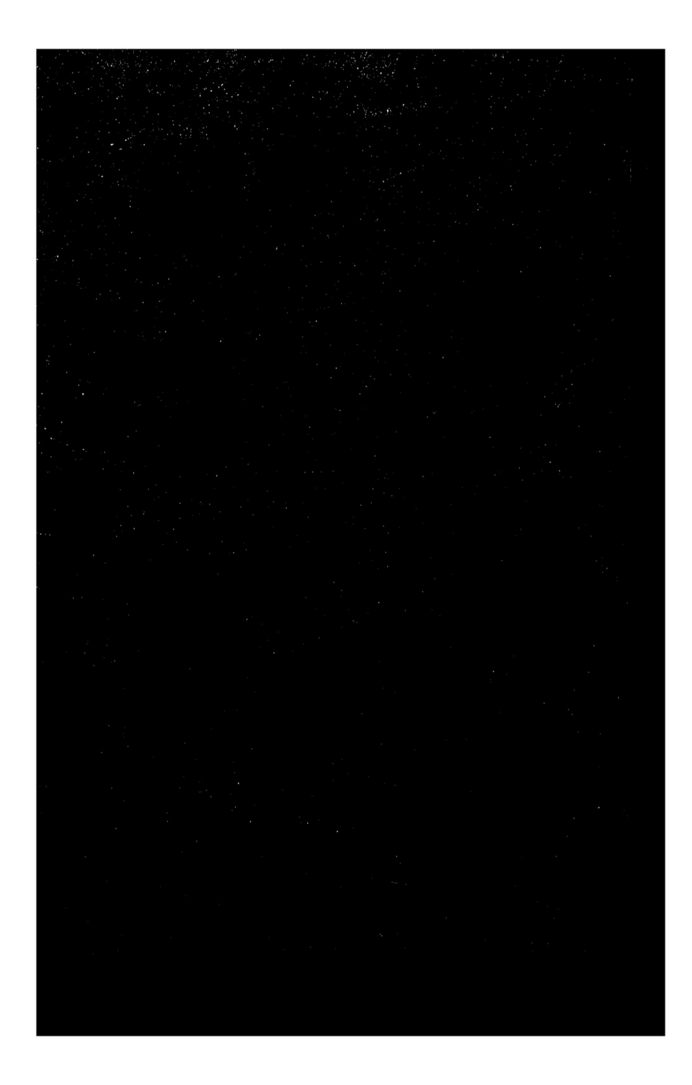


كتاب الشعب



للحافظ ابن كثير

٧٠٠-٧٧٤هـ

تحقيق

د. محمد إبراهيم البنا · محمد أحمد عاشور · عبد العزيز غنيم

المجلد الخامس

دار الشعب

٩٢ شارع قصر العيني بالقاهرة

تليفون ٣١٨١٠

تفسير سورة الاسراء

وهى مكية

قال الإمام البخارى : حدثنا آدم بن أبى إياس ، حدثنا شعبة ، عن أبى إسحاق قال : سمعت عبد الرحمن بن يزيد ، سمعت ابن مسعود رضى الله عنه قال فى بنى إسرائيل ، والكهف ، ومريم : إنهن من العِتَاق الأول ، وهُنّ من تِلادى (١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا حماد بن زيد ، عن مَرْوانَ أبى لبابة ، سمعت عائشة تقول : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم حتى نقول : مايريد أن يُفطِرَ ، ويفطرُ حتى نقول : ما يريد أن يصومَ ، وكان يقرأ كل ليلة : « بنى إسرائيل » ، « والزّمَر (٢) » .

بسم الله الرحمن الرحيم

سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ (١)

يمجد تعالى نفسه ، ويعظم شأنه ، لقدرته على مالا يقدر عليه أحد سواه ، فلا إله غيره ، (الذى أسرى بعبده) ، يعنى محمداً — صلوات الله وسلامه عليه — (ليلا) ، أى : فى جُنح الليل ،(من المسجد الحرام) ، وهو مسجد مكة ، (إلى المسجد الأقصى)،وهو بيت المقدس الذى هو إيلياء (٣) ، معدن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل . ولهذا جُمعوا له هنالك كلهم ، فأمَّهم فى مَحِلَّتهم ودارهم ، فدل على أنه هو الإمام الأعظم ، والرئيس المقدم ، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين .

وقوله : (الذى باركنا حوله) ، أى : فى الزروع والثمار ، (لنريه) ، أى : محمداً ، (من آياتنا) ، أى : العظام ، كما قال تعالى : (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) (٤) .

وسنذكر من ذلك ما وردت به السنة من الأحاديث عنه ، صلوات الله عليه وسلامه .

---

(١) العتاق : جمع عتيق ، والعتيق : القديم . وأراد بالعتاق الأول : السور التى أنزلت أولا بمكة ، وأنها من أول ما تعلمه صلى الله عليه وسلم من القرآن . وهذا معنى قوله عليه السلام أيضاً : « وهن من تلادى » ، فالتالد : هو القديم أيضاً . هذا والحديث أخرجه البخارى فى تفسير سورة بنى إسرائيل : ١٠٣/٦ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ١٨٩/٦ .

(٣) إيلياء والقدس : اسمان لمسمى واحد ، وهو المدينة التى بها المسجد الأقصى .

(٤) سورة النجم ، آية : ١٨ .

وقوله : (إنه هو السميع البصير) ، أى : السميع لأقوال عباده ، مؤمنهم وكافرهم ، مصدقهم ومكذبهم ، البصير بهم ، فيعطى كُلاً ما يستحقه فى الدنيا والآخرة .

* * *

ذكر الأحاديث الواردة فى الإسراء ، رواية أنس بن مالك

[قال الإمام أبو عبد الله البخارى : حدثنى عبد العزيز بن عبد الله ، حدثنا سليمان — هو ابن بلال — عن شريك ابن عبد الله قال : سمعت أنس بن مالك] يقول : ليلةَ أُسرىَ برسول الله صلى الله عليه وسلم من مسجد الكعبة إنه جاءه ثلاثة نفر ، قبل أن يوحى إليه وهو نائم فى المسجد الحرام ، فقال أولهم : أيّهم هو ؟ فقال أوسطهم : هو خيرهم ؛ فقال آخرهم : خذوا خيرهم . فكانت تلك الليلة ، فلم يرهم حتى أتوه ليلةً أخرى فيما يرى قلبه ، وتنام عيناه(١) ولا ينام قلبه — وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم — فلم يكلّموه حتى احتملوه فوضعوه عند بئر زمزم ، فتولاّه منهم جبريل ، فشق جبريل ما بين نحره إلى لَبّته (٢) ، حتى فَرَغ من صدره وجوفه ، فغسله من ماء زمزم بيده ، حتى أنقى جَوفَه . ثم أتىَ بطَسْت من ذهب فيه تَورٌ (٣) من ذهب محشُوًا إيماناً وحكمة ، فحَشَا به صدره ولغاديده — يعنى عروق حلقه — ثم أطبقه . ثم عَرَج به إلى السماء الدنيا ، فضرب باباً من أبوابها ، فناداه أهل السماء : من هذا ؟ فقال : جبريل . قالوا : ومن معك ؟ قال : معى محمد . قالوا : وقد بُعث إليه ؟(٤) قال : نعم . قالوا : مرحباً(٥) به وأهلا به ، يستبشر به أهل السماء ، لا يعلم أهل السماء بما يريد الله به فى الأرض حتى يُعلمَهم .

ووجد (٦) فى السماء الدنيا آدم ، فقال له جبريل : هذا أبوك آدم ، فسلّم عليه . فسلَّمَ عليه ، وردّ عليه آدم فقال : مرحباً وأهلا بابنى ، نعْمَ الابن أنتَ . فإذا هو فى السماء الدنيا بنهرين يَطّرِدَان (٧) ، فقال : ما هذان النهران يا جبريل ؟ قال : هذا النيل والفرات عُنصرُهما (٨) . ثم مضى به فى السماء ، فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد ، فضرب يده فإذا هو مسك أذفر (٩) ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذى خبَأ لك ربك .

ثم عَرَج إلى السماء الثانية ، فقالت الملائكة له مثل ما قالت له الأولى : مَنْ هذا ؟ قال : جبريل . قالوا : ومن معك ؟ قال : محمد . قالوا : وقد بعث إليه ؟ قال : نعم . قالوا : مرحبا واهلا وسهلا (١٠)

---

(١) كذا لفظ مخطوطة الأزهر ، وفى الصحيح : « وتنام عينه » .
(٢) اللبة — بفتح اللام — : موضع النحر .
(٣) التور — بفتح فسكون — : إناء .
(٤) لفظة « إليه » ليست فى الصحيح .
(٥) لفظ الصحيح : « فرحبا » . بالفاء .
(٦) لفظ الصحيح : « فوجد » .
(٧) أى : يجريان .
(٨) المنصر ، بضم العين وفتح الصاد ، وقد تضم : الأصل .
(٩) مضى تفسير هذه الكلمة فى : ٤٢٣/٤ .
(١٠) كلمة « وسهلا » ليست فى الصحيح .

ثم عرّج به إلى السماء الثالثة ، فقالوا له مثل ما قالت الأولى والثانية : ثم عرّج به إلى السماء الرابعة فقالوا له مثل ذلك . ثم عرج به إلى السماء الخامسة فقالوا له مثل ذلك . ثم عرّج به إلى السماء السادسة فقالوا له مثل ذلك ؛ ثم عرج به إلى السماء السابعة فقالوا له مثل ذلك . كل سماء فيها أنبياء قد سماهم ، قد وَعَيْتُ(١) منهم إدريس في الثانية ، وهارون في الرابعة ، وآخرَ في الخامسة لم أحفظ اسمه ، وإبراهيم في السادسة ، وموسى في السابعة بتفضيل كلام الله — فقال موسى : « ربّ لم أظنّ أن يُرفع عليّ أحدٌ » ؛ ثم علا به فوق ذلك ، بما لا يعلمه إلا الله عز وجل ، حتى جاء سدرة المنتهى ، ودنا الجبّار ربّ العزة فتدلى ، حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى الله إليه فيما يُوحى : خمسين صلاة على أمتك كلّ يوم وليلة . ثم هَبَطَ به حتى بلغ موسى ، فاحتبسه موسى فقال : يا محمد ، ماذا عَهِد إليك ربك ؟ قال : عَهِد إليّ خمسين صلاة كل يوم وليلة ؛ قال : إن أمتك لا تستطيع ذلك ، فارجع فليخفّف عنك ربّك وعنهم . فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم إلى جبريل ، كأنه يستشيره في ذلك ، فأشار إليه جبريل : أنْ نعم ، إن شئت . فعلا به إلى الجبار تعالى [فقال] وهو في مكانه : « يارب ، خفف عنا، فإن أمتي لا تستطيع هذا » ، فوضع عنه عشر صلوات . ثم رجع إلى موسى فاحتبسه ، فلم يزل يردّده موسى [إلى ربه] حتى صارت إلى خمس صلوات . ثم احتبسه موسى عند الخمس فقال : يا محمد ، والله لقد راودت بني إسرائيل قومي على أدنى من هذا ، فضعفُوا فتركوه ، فأمتك أضعف أجساداً وقلوباً وأبداناً وأبصاراً وأسماعاً ، فارجع فليخفّف عنك ربك ، كُلّ ذلك يلتفت النبي صلى الله عليه وسلم إلى جبريلَ ليُشير عليه ، ولا يكرَه ذلك جبريلُ ، فرفعه عند الخامسة فقال : « يارب ، إن أمتي ضعفاءُ أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبدانهم ، فخفف عنا . فقال الجبار : يا محمد ؛ قال : لبيك وسعدَيك ، قال : إنه لا يُبدّل القول لديّ ؛ كما فرضتُ عليك في أم الكتاب : « كل (٢) حسنة بعشر أمثالها ، فهي خمسون في أم الكتاب ، وهي خمس عليك » فرجع إلى موسى فقال : كيف فعلت ؟ فقال : خفف عنا ، أعطانا بكل حسنة عشر أمثالها . فقال موسى : قد والله راودتُ بني إسرائيل [على] أدنى من ذلك فتركوه ، فارجع إلى ربك فليخفف عنك أيضا . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا موسى ، قد — والله — استحييتُ من ربي مما أختلف (٣) إليه ، قال : فاهبط باسم الله . فاستيقظ (٤) وهو في المسجد الحرام ؛

هكذا ساقه البخاري في « كتاب التوحيد (٥) » ، ورواه في « صفة (٦) النبي صلى الله عليه وسلم » ، عن إسماعيل ابن أبي أويس ، عن أخيه أبي بكر عبد الحميد ، عن سُليمان بن بلال .

ورواه مسلم ، عن هارون بن سعيد ، عن ابن وهب ، عن سليمان — قال : « فزاد ونقص ، وقدمَ وأخر (٧) » ؛

---

(١) لفظ الصحيح : « فأوعيت منهم » وفي رواية : « فوعيت منهم » .

(٢) لفظ الصحيح : « قال : فكل حسنة » .

(٣) أي : أتردد عليه .

(٤) لفظ الصحيح : « قال : واستيقظ » .

(٥) البخاري ، كتاب التوحيد ، باب قوله : (وكلم الله موسى تكليماً) : ١٨٢/٩ — ١٨٤ .

(٦) البخاري ، كتاب الأنبياء ، باب « صفة النبي صلى الله عليه وسلم » : ٢٣٢/٤ .

(٧) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب « الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم » : ١٠٢/١ .

وهو كما قاله مسلم رحمه الله ؛ فان شريك بن عبد الله بن أبي نَمِر اضطرب فى هذا الحديث،وساء حفظه ولم يضبطه ، كما سيأتى بيانه فى الأحاديث الأخر .

ومنهم من يجعل هذا مناما توطئة لما وقع بعد ذلك ، والله أعلم .

[وقد قال الحافظ أبو بكر (١)] البيهقى : « فى حديث » شريك « زيادة تفرد بها ، على مذهب من زعم أنه صلى الله عليه وسلم رأى ربه ، يعنى قوله : « ثم دنا الجبار ربّ العزة فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى » ــ قال : وقول عائشة وابن مسعود وأبى هريرة ــ فى حملهم هذه الآيات على رؤيته جبريل ــ أصح (٢) .

وهذا الذى قاله البيهقى هو الحق فى هذه المسألة ؛ فان أبا ذر قال : يا رسول الله ، هل رأيت ربك ؟ قال : نور أنّى أراه . وفى رواية : رأيت نورا » . أخرجه مسلم (٣) رحمه الله .

وقوله : (ثم دنا فتدلى) ، إنما هو جبريل عليه السلام ، كما ثبت ذلك فى الصحيحين ، عن عائشة أم المؤمنين ، وعن ابن مسعود ، وكذلك هو فى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنهم ، ولا يعرف لهم مخالف من الصحابة فى تفسير هذه [الآية] بهذا (٤) .

[وقال] الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا حماد بن سلمة ، أخبرنا ثابت البُنَانى ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أتيتُ بالبراق ، وهو دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل ، يضع حافره عند منتهى طرفه ، فركبته فسار بى حتى أتيت بيت المقدس ، فربطت الدابة بالحلقة التى يربط فيها الأنبياء ، ثم دخلت فصليت فيه ركعتين ، ثم خرجت . فأتانى جبريل باناء من خمر وإناء من لبن ، فاخترت اللبن ــ قال جبريل : أصبت الفطرة . قال : ثم عَرَج بى إلى السماء الدنيا ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من أنت ؟ قال : جبريل . فقيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : وقد أرسل إليه ؟ [قال : قد أرسل إليه (٥)] . ففتح لنا ، فاذا أنا بآدم ؛ فرحب ودعا لى بخير .

ثم عَرَج بنا إلى السماء الثانية ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من أنت ؟ قال : جبريل . فقيل : ومن معك ؟ قال : محمد . فقيل : وقد ارسل إليه ؟ قال : قد أرسل إليه . ففتح لنا فاذا أنا بابنى الخالة يحيى وعيسى ، فرحبا بى ودعوا لى بخير .

ثم عَرَج بنا إلى السماء الثالثة ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من أنت ؟ قال : جبريل . فقيل : ومن معك ؟ فقال : محمد . فقيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : قد أرسل إليه . ففتح لنا ، فاذا أنا بيوسف ، وإذا هو قد أعطى شطر الحسن ، فرحب ودعا لى بخير .

---

(١) ما بين القوسين من الطبعات السابقة .

(٢) دلائل النبوة للبيهقى مخطوط بدار الكتب رقم ٧٠١ حديث ، الجزء الثانى ، ورقة : ١٩٩ .

(٣) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب « فى قوله عليه السلام : نور أنى أراه » : ١/١١١ .

(٤) ينظر البخارى ، تفسير سورة النجم : ٦/١٧٦ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « فى ذكر سدرة المنتهى » : ١/١٠٩ .

(٥) ما بين القوسين ساقط من مخطوطة الأزهر ، أثبتناه من المسند .

ثم عَرَج بنا إلى السماء الرابعة ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من أنت ؟ فقال : جبريل ، فقيل : ومن معك ؟ قال : محمد . فقيل : قد أرسل إليه ؟ قال : قد بعث(١) إليه . ففتح الباب فاذا أنا بادريس ، فرحب ودعا لى بخير ، ثم [قال(٢)] يقول الله : (ورفعناه مكانا عليا) .

ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من أنت ؟ فقال : جبريل ، فقيل : من معك ؟ فقال : محمد . فقيل : قد أرسل إليه : قال : قد بعث إليه . ففُتِح لنا ، فاذا أنا بهارون ، فرحب ودعا لى بخير .

ثم عَرَج بنا إلى السماء السادسة ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من أنت ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ، قال : محمد ، فقيل : وقد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه : ففتح لنا ، فاذا أنا بموسى ، فرحب ودعا لى بخير .

ثم عَرَج بنا إلى السماء السابعة ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من أنت ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد : فقيل : وقد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه . ففتح لنا ، فاذا أنا بابراهيم ، وإذا هو مستند إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كلَّ يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه .

ثم ذهب بى إلى سدرة المنتهى ، فاذا ورقها كآذان الفيلة ، وإذا ثمرها كالقلال(٣) ، فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيَّرت ، فما أحد من خلق الله تعالى يستطيع أن يصفها من حسنها — قال : فأوحى الله إلىَّ ما أوحى ، وفرض على فى كل يوم وليلة خمسين صلاة ، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى — قال : ما فرض ربك على أمتك ؟ قال : قلت : خمسين صلاة فى كل يوم وليلة — قال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فان أمتك لا تطيق ذلك ، وإنى قد بلوت بنى إسرائيل وخبَرتهم . قال : فرجعت إلى ربى فقلت : أىْ ربِّ ، خفف عن أمتى . فحط عنى خمسا . فرجعت إلى موسى فقال : ما فعلت ؟ قلت : قد حطَّ عنى خمسا . قال : إن أمتك لا تطيق ذلك ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك . قال : فلم أزل أرجع بين ربى وبين موسى ، ويحطّ عنى خمسا خمسا حتى قال : « يا محمد ، هى خمس صلوات فى كل يوم وليلة ، بكل صلاة عشر ، فتلك خمسون صلاة . ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت حسنة ، فان عملها كتبت عشرا . ومن هم بسيئة ولم يعملها لم تكتب ، فان عملها كتبت سيئة واحدة » . فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته ، فقال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك ، فان أمتك لا تطيق ذلك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد رجعت إلى ربى حتى استحييت(٤) » .

ورواه مسلم(٥) عن شَيبان بن فرّوخ ، عن حماد بن سَلَمة بهذا السياق ، وهو أصح من سياق شريك .

قال البيهقى : وفى هذا السياق دليل على أن المعراج كان ليلة أسرى به عليه الصلاة والسلام من مكة إلى بيت المقدس(٦) ، وهذا الذى قاله هو الحق الذى لا شك فيه ولا مرْية .

---

(١) لفظ المسند : « قال : قد أرسل إليه » .
(٢) ما بين القوسين من المسند .
(٣) مضى تفسير هذه الكلمة فى : ٣٧٨/٤ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ١٤٨/٣ ، ١٤٩ .
(٥) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب « الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم » : ١/ ٩٩ — ١٠١ .
(٦) دلائل النبوة ، مخطوطة دار الكتب ، ورقة : ١٢٠ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن قتادة ، عن أنس رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم أُتِيَ بالبراق ليلة أسرىَ به مُسْرَجاً ملجما ليركبه ، فاستصعب عليه ، فقال له جبريل : ما يحملك على هذا ؟ فوالله ما ركبك قط أكرم على الله منه ، قال : فارفضّ عرقاً (١).

ورواه الترمذي ، عن إسحاق بن منصور ، عن عبد الرزاق ، وقال : « غريب لا نعرفه إلا من حديثه (٢) ».

وقال أحمد أيضا : حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا صفوان ، حدثني راشد بن سعد وعبد الرحمن بن جبير ، عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما عرج بي ربي عز وجل ، مررت بقوم لهم أظفار من نحاس ، يخمشون وجوههم وصدورهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ، ويقعون في أعراضهم (٣) »

وأخرجه أبو داود ، من حديث صفوان بن عمرو ، به . ومن وجه آخر ليس فيه أنس (٤) ، فالله أعلم .

وقال أيضا : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان ، عن سليمان التيمي ، عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مررت ليلة أسرى بي على موسى عليه السلام قائما يصلي في قبره (٥) ».

ورواه مسلم من حديث حماد بن سلمة ، عن سليمان بن طَرْخان التَّيمي وثابت البُناني ، كلاهما عن أنس (٦).

قال النسائي : وهذا أصح من رواية من قال : سليمان عن ثابت ، عن أنس .

وقال أبو يعلى الموصلي في مسنده : حدثنا وهب بن بقية ، حدثنا خالد ، عن التيمي ، عن أنس قال : أخبرني بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : أن النبي صلى الله عليه وسلم ليلةَ أسرىَ به مَرّ على موسى وهو يصلي في في قبره .

وقال أبو يعلى : حدثنا إبراهيم بن محمد بن عَرْعَرة ، حدثنا معتمر ، عن أبيه قال : سمعت أنسا : أن النبي صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به مَرّ بموسى وهو يصلي في قبره — قال أنس : ذُكر أنه حمل على البراق ، فأوثق الدابة — أو قال : الفرس — قال أبو بكر : صفها لي . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هي كذه وذه (٧) » فقال: أشهد أنك رسول الله ، وكان أبو بكر رضي الله عنه قد رآها (٨) .

وقال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو البزار في مسنده : حدثنا سلمة بن شبيب ، حدثنا سعيد بن منصور ، حدثنا الحارث بن عبيد ، عن أبي عمران الجوني ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [بينا أنا نائم] إذ جاء جبريل عليه السلام ، فوكز بين كتفي ، فقمت إلى شجرة فيها كَوَكْرَيِ الطير ، فقعد في أحدهما

---

(١) مسند الإمام أحمد : ١٦٤/٣ . وارفض عرقا : جرى عرقه وسال .
(٢) تحفة الأحوذي تفسير سوره الإسراء الحديث ٥١٣٨ : ٥٦٣/٨ ، ٥٦٤ .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٢٢٤/٣ .
(٤) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب « في الغيبة » .
(٥) مسند الإمام أحمد : ١٢٠/٣ .
(٦) مسلم ، كتاب الفضائل ، باب « من فضائل موسى عليه السلام » : ١٠٢/٧ .
(٧) كذا في الخصائص الكبرى للسيوطي ، والطبعات السابقة . وفي مخطوطة الأزهر مكان « هي كذه وذه » : « وذكر كلمة » .
(٨) اخرجه السيوطي في الخصائص الكبرى ، عن أبي يعلى والبيهقي : ٣٨٩/١ .

وقعدت فى الآخر ، فسَمَتْ وارتفعت حتى سدت الخافقين وأنا أقلب طرفى ، ولو شئت أن أمس السماء لمسست ، فالتفت إلى جبريل عليه السلام كأنه حلْس (١) لاطّ ، فعرفت فضل علمه بالله على ، وفتح لى باب من أبواب السماء فرأيت النور الأعظم ، وإذا دون الحجاب رفرف الدر والياقوت ، وأوحى إلى ما شاء الله أن يوحى — ثم قال : هذا الحديث لا نعلم رواه إلا أنس ، ولا نعلم رواه عن أبى عمران الجونى إلا الحارث بن عبيد ، وكان رجلا مشهوراً من أهل البصرة .

ورواه الحافظ البيهقى فى « الدلائل » عن أبى بكر القاضى ، عن أبى جعفر محمد بن على بن دُحَيم ، عن محمد ابن الحسين بن أبى الحُنَين ، عن سعيد بن منصور ، فذكر بسنده مثله ، ثم قال : وقال غيره فى هذا الحديث فى آخره : « ولُطّ دونى — أو قال : دون الحجاب رفرفُ الدرّ والياقوت » ؛ ثم قال : هكذا رواه الحارث بن عبيد ؛ ورواه حماد ابن سلمة ، عن أبى عمران الجونى ، عن محمد بن عمير بن عطارد : أن النبى صلى الله عليه وسلم كان فى ملإ من أصحابه ، فجاءه جبريل ، فنكت فى ظهره ، فذهب به إلى الشجرة وفيها مثل وكرى الطير ، فقعد فى أحدهما وقعد جبريل فى الآخر ، فنَشَأَت (٢) بنا حتى بلغَتْ الأفق ، فلو بسطت يدى إلى السماء لنلتها ، فدلى بسبَب وهبط النور ، فوقع جبريل مغشيا عليه كأنه حلْس ، فعرفت فضل خشيته على خشيتى . فأوحىَ إلى : نبيا ملكا أو نبيا عبدا ؟ وإلى الجنة ما أنت (٣) ؟ فأومأ إلىّ جبريل وهو مضطجع : أن تواضع — قال قلت : لا بل نبياً عبداً (٤) .

قلت : وهذا إن صح يقتضى أنها واقعة غير ليلة الإسراء ، فانه لم يذكر فيها بيت المقدس ، ولا الصعود إلى السماء ، فهى كائنة غير ما نحن فيه ، والله أعلم .

وقال البزار أيضا : حدثنا عمرو بن عيسى ، حدثنا أبو بحر ، حدثنا شعبة ، عن قتادة ، عن أنس رضى الله عنه : أن محمدا صلى الله عليه وسلم رأى ربه عز وجل : هذا غريب .

وقال أبو جعفر بن جرير : حدثنا يونس ، حدثنا عبد الله بن وهب ، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن الزهرى ، عن أبيه ، عن عبد الرحمن بن هاشم بن عتبة بن أبى وقاص ، عن أنس بن مالك قال : لما جاء جبريل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبراق فكأنها أمَرّت (٥) ذنبها ، فقال لها جبريل : مه يا براق ؛ فوالله إنْ (٦) ركبك مثله ؛ وسار

---

(١) الحلس — بكسر فسكون — : الكساء الذى يلى ظهر البعير تحت القتب . ولط بالأمر يلطه لطاً : لزمه . والعرب تشبه بالحلس إذا أريد الدلالة على لزوم الأمر وعدم مفارقته ، ومنه قوله عليه السلام : « كونوا أحلاس بيوتكم » ؛ أى الزموها . وقول أبى بكر : « كن حلس بيتك » ، أى الزمه ، وقول بنى فزارة لأبى بكر : « نحن أحلاس الخيل » ؛ يريدون : ملازمتهم لظهورها . والمعنى : أن جبريل عليه السلام لزم مكانه ، وكان مثله مثل الكساء الذى يلى ظهر البعير فهو ملتصق ، لا يفارقه .

(٢) أى : ارتفعت بهم .

(٣) لفظ الدلائل : « أو إلى » بذكر همزة الاستفهام .

(٤) دلائل النبوة البيهقى ، مخطوط بدار الكتب برقم ٧٠١ حديث ، الجزء الثانى ، ورقة : ١١١ .

(٥) كذا فى مخطوطة الأزهر ، ومثله فى دلائل النبوة للبيهقى . وفى تفسير الطبرى : « ضربت بذنبها » . ومعنى « أمرت ذنبها » : لوته . ومنه قيل « المستمر » ، وهو من يدعى البكرة الصعبة ليذللها : « أمرها بذنبها » ، أى صرفها شقاً لشق ، حتى يذللها بذلك ، فإذا ذلت بالإمرار أرسلها إلى الرائض . فكأنه قد كان من البراق مثل هذه الحركة فى ذيلها ذات اليمين وذات الشمال .

(٦) يعنى : ما ركبك مثله . فإن : أداة نفى .

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاذا هو (١) بعجوز على جانب الطريق ، فقال : ما هذه يا جبريل ؟ قال : سرْ يا محمد ، قال : فسار ما شاء الله أن يسير ، فاذا شيء يدعوه متنحيا عن الطريق يقول : هَلُمَّ يا محمد . فقال له جبريل : سر يا محمد، فسار ما شاء الله أن يسير ، قال : فلقيه خَلْق من الخَلْق (٢) فقالوا : السلام عليك يا أولُ ، السلام عليك يا آخرُ ، السلام عليك يا حاشر ، فقال له جبريل : اردد السلام يا محمد . فرد السلام ، ثم لقيه الثانية فقال له مثل مقالته الأولى ، ثم الثالثة كذلك ، حتى انتهى إلى بيت المقدس : فعرض عليه الماء والخمر واللبن ، فتناول رسول الله صلى الله عليه وسلم اللبن ، فقال له جبريل : أصبت الفطرة ، ولو شربت الماء لغرقْتَ وغرقَتْ أمتك ، ولو شربت الخمر لغَوَيْت ولغَوَتْ أمتك ، ثم بُعث له آدم فمن دونه من الأنبياء عليهم السلام ، فأمَّهم رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الليلة ، ثم قال له جبريل : أما العجوز التي رأيت على جانب الطريق ، فلم يبق من الدنيا إلا ما بقي(٣) من عمر تلك العجوز : وأما الذي أراد أن تميل إليه ، فذاك عدو الله إبليس ، أراد أن تميل إليه . وأما الذين سلموا عليك فابراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام(٤) .

وهكذا رواه الحافظ البيهقي في « دلائل النبوة » من حديث ابن وهب ، وفي بعض ألفاظه نكارة وغرابة(٥) .

طريق أخرى عن أنس بن مالك ، وفيها غرابة ونكارة جداً ، وهي في سنن النسائي المجتَبَى ، ولم أرها في الكبير قال : أخبرنا عمرو بن هشام ، حدثنا مَخْلَد ــ هو ابن الحسين ــ عن سعيد بن عبد العزيز ، حدثنا يزيد بن أبي مالك ، حدثنا أنس بن مالك : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « أتيت بدابة فوق الحمار ودون البغل ، خَطْوها عند مُنْتَهى طَرْفها ، فركبتُ ومعي جبريل عليه السلام ، فسرتُ فقال : انزل فصلّ . فصليتُ، فقال : أتدري أين صليتَ ؟ [صليتَ بطَيْبَةَ وإليها المُهَاجَرُ(٦) . ثم قال : انزل فصل . فصليتُ، فقال : أتدري أين صليتَ ؟ (٧)] صليتَ بطور سَيْناء ، حيث كلّم الله موسى . ثم قال : انزل فصلّ . فصليتُ، فقال : أتدري أين صليتَ ؟ صليتَ ببيت لحم ، حيث ولد عيسى عليه السلام . ثم دخلت بيت المقدس فجُمع لي الأنبياءُ عليهم السلام ، فقدّمني جبريل حتى أمَمْتهم [ثم صَعِدَ بي إلى السماء الدنيا ، فاذا فيها آدم عليه السلام(٧)] ، ثم صعد بي إلى السماء الثانية فاذا فيها ابنا الخالة : عيسى ويحيى عليهما السلام . ثم صَعِد بي إلى السماء الثالثة فاذا فيها يوسف عليه السلام . ثم صَعِدَ بي إلى السماء الرابعة فاذا فيها هارون عليه السلام . ثم صَعِد بي إلى السماء الخامسة فاذا فيها إدريس عليه السلام . ثم صعد بي إلى السماء السادسة فاذا فيها موسى عليه السلام . ثم صعد بي إلى السماء السابعة ، فاذا فيها إبراهيم عليه السلام . ثم صعد بي فوق سبع سموات، وأتيت سِدْرَةَ المنتهى، فغشيتْني ضَبَابة فخررتُ ساجداً ، فقيل لي : إني يوم خلقت السموات والأرض ، فرضتُ

(١) لفظ الطبرى : « فإذا هو بعجوز ناء عن الطريق ، أي على بجنب الطريق ــ قال أبو جعفر : ينبغي أن يقول « نائية » ، ولكن أسقط منها التأنيث » . وكأن ابن كثير قد اختصر ذلك .

(٢) كذا في مخطوطة الأزهر ، ومثله في دلائل النبوة للبيهقي ، وفي تفسير الطبرى : « خلق من الخلائق » .

(٣) لفظ الطبرى : « إلا بقدر ما بقي » .

(٤) تفسير الطبرى : ١٥/ ٥ ، ٦ .

(٥) دلائل النبوة للبيهقي ، مخطوط دار الكتب ، الجزء الثاني ، ورقة : ١٠٧ .

(٦) المهاجر ــ بفتح الجيم ــ : بمعنى المهاجرة . وطيبة : هي المدينة .

(٧) ما بين القوسين سقط من مخطوطة الأزهر ، والمثبت من سنن النسائي .

عليك وعلى أمتك خمسين صلاة ، فقم بها أنت وأمتك ، [فرجعتُ إلى إبراهيم فلم يسألني عن شيء ، ثم أتيت موسى فقال : كم فرض الله عليك وعلى أمتك ؟] (١) قلت : خمسين صلاة ، قال : فإنك لا تستطيع أن تقوم بها ، لا أنت ولا أمتك ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فرجعت إلى ربي فخفّف عني عشراً ، ثم أتيت موسى فأمرني بالرجوع ، فرجعت فخفف عني عشراً ، ثم رُدّتْ إلى خمس صلوات ، قال : فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فإنه فرض على بني إسرائيل صلاتين ، فما قاموا بهما ، فرجعت إلى ربي عز وجل فسألته التخفيف ، فقال : إني يوم خلقت السموات والأرض فرضتُ عليك وعلى أمتك خمسين صلاة ، فخمس بخمسين ، فقم بها أنت وأمتك ، فعرفت أنها من الله عز وجل صِرّى(٢)، فرجعت إلى موسى عليه السلام فقال : ارجع ، فعرفت أنها من الله صِرّى – يقول : أى حَتْمٌ – فلم أرجع (٣) » .

طريق أخرى ، وقال ابن أبي حاتم : حدثني أبي ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا خالد بن يزيد بن أبي مالك ، عن أبيه ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : لما كان ليلةَ أُسرِيَ برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس ، أتاه جبريل بدابة فوق الحمار ودون البغل ، حمله جبريل عليها ، ينتهي خفها حيث ينتهي طرفها ، فلما بلغ بيت المقدس وبلغ المكان الذي يقال له « باب محمد صلى الله عليه وسلم » ، أتى إلى الحجر الذي ثَمَّةَ ، فغمزه جبريل بأصبعه فثقبه ثم ربطها . ثم صعد فلما استويا في صرْحَة (٤) المسجد ، قال جبريل : يا محمد ، هل سألت ربك أن يريك الحور العين ؟ فقال : نعم . فقال : فانطلقْ إلى أولئك النسوة ، فَسَلِّم عليهن وهُنَّ جلوس عن يسار الصخرة ، قال : فأتيتهن فسلمتُ عليهن ، فردَدْنَ عليَّ السلام ، فقلت : من أنتن ؟ فقلن : نحن خَيْرات حسان ، نساء قوم أبرار ، نُقُّوا (٥) فلم يَدْرَنوا ، وأقاموا فلم يظعنوا ، وخلدوا فلم يموتوا ، قال : ثم انصرفت ، فلم ألبث إلا يسيراً حتى اجتمع ناس كثير ، ثم أذّن مؤذن ، وأقيمت الصلاة – قال : فقمنا صفوفا ننتظر من يؤُمنا ، فأخذ بيدي جبريلُ عليه السلام ، فقدّمني فصليت بهم . فلما انصرفت قال جبريل : يا محمد ، أتدري من صلى خلفك ؟ قال : قلت : لا ، قال : صلى خلفك كلّ نبي بعثه الله عز وجل .

قال : ثم أخذ بيدي جبريل فصعد بي إلى السماء ، فلما انتهينا إلى الباب استفتح فقالوا : من أنت ؟ قال : أنا جبريل . قالوا : ومن معك ؟ قال : محمد . قالوا : وقد بعث ؟ قال : نعم . قال : ففتحوا له وقالوا : مرحباً بك وبمن معك . قال : فلما استوى على ظهرها إذا فيها آدم ، فقال لي جبريل : يا محمد ، ألا تسلم على أبيك آدم ؟ قال : قلت : بلى . فأتيته فسلمت عليه ، فرد عليّ وقال : مرحبا بابني والنبي الصالح . قال : ثم عَرَج بي إلى السماء الثانية فاستفتح ، قالوا : من أنت ؟ قال : جبريل ، قالوا : ومن معك ؟ قال : محمد . قالوا : وقد بعث ؟ قال : نعم . ففتحوا له وقالوا : مرحباً بك وبمن معك ، فاذا فيها عيسى وابن خالته يحيى عليهما السلام ، قال : ثم عرج بي إلى السماء الثالثة فاستفتح ،

---

(١) مابين القوسين سقط من مخطوطة الأزهر ، والمثبت عن سنن النسائي .

(٢) صرى – بكسر الصاد المهملة ، وفتح الراء المشددة ، آخرها ألف مقصورة – أي : عزيمة باقية لا تقبل النسخ .

(٣) سنن النسائي ، كتاب الصلاة ، باب « فرض الصلاة ، واختلاف الناقلين في إسناد حديث أنس بن مالك رضي الله عنه واختلاف ألفاظهم فيه » : ١/٢٢١ – ٢٢٣ .

(٤) صرحة المسجد : ساحته .

(٥) أي : طهروا .

قالوا : من أنت ؟ قال : جبريل : قالوا : ومن معك ؟ قال : محمد . قالوا : وقد بعث ؟ قال : نعم . ففتحوا وقالوا : مرحباً بك وبمن معك . فاذا فيها يوسف عليه السلام ، ثم عرج بي إلى السماء الرابعة فاستفتح ، قالوا : من أنت ؟ قال : جبريل ، قالوا : ومن معك ؟ قال : محمد . قالوا : وقد بعث ؟ قال : نعم . ففتحوا له وقالوا : مرحباً بك وبمن معك . فإذا فيها إدريس عليه السلام ــ قال : فعرج بي إلى السماء الخامسة فاستفتح،قالوا : من أنت ؟ قال : جبريل . قالوا : ومن معك ؟ قال : محمد .قالوا : وقد بعث ؟ قال : نعم . ففتحوا وقالوا : مرحباً بك وبمن معك . فإذا فيها هارون عليه السلام . قال : ثم عَرَّج بي إلى السماء السادسة فاستفتح ، قالوا : من أنت ؟ قال : جبريل . قالوا : ومن معك ؟ قال : محمد . قالوا : وقد بعث؟ قال : نعم . ففتحوا وقالوا : مرحباً بك وبمن معك. فإذا فيها [موسى عليه السلام . ثم عَرَّج بي إلى السماء السابعة،فاستفتح جبريل ، فقالوا : من أنت ؟ قال : جبريل . قالوا : ومن معك ؟ قال : محمد . قالوا : وقد بُعث إليه ؟ قال : نعم . ففتحوا له وقالوا : مرحباً بك وبمن معك ، فإذا فيها] إبراهيم عليه السلام . فقال جبريل : يا محمد ، ألا تسلم على أبيك إبراهيم ؟ قال : قلت : بلى . فأتيته فسلمت عليه ، فرد على السلام ، وقال : مرحباً بك يابني ، والنبي الصالح .

ثم انطلق بي على ظهر السماء السابعة ، حتى انتهى بي إلى نهر عليه خيام الياقوت واللؤلؤ والزبرجد ، وعليه طير خُضْر ، أنْعَمُ طير رأيت . فقلت : ياجبريل ، إن هذا الطير لناعم ؟ قال : يامحمد ، آكله أنعم منه . ثم قال : يامحمد ، أتدرى أيّ نهر هذا ؟ قال : قلت : لا . قال : هذا الكوثر الذى أعطاك الله إياه . فإذا فيه آنية الذهب والفضة ، يجرى على رَضْرَاض (١) من الياقوت والزمرّد ، ماؤه أشد بياضاً من اللبن . قال : فأخذت منه آنية من الذهب ، فاغترفت من ذلك الماء فشربت ، فإذا هو أحلى من العسل ، وأشد رائحة من المسك . ثم انطلق بي حتى انتهيت إلى الشجرة ، فغشيتنى سحابة فيها من كل لون ، فرفضنى (٢) جبريل ، وخررت ساجدا لله عز وجل ، فقال الله لى : يا محمد ، إنى يوم خلقت السموات والأرض فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة ، فقم بها أنت وأمتك . قال : ثم انجلت عنى السحابة وأخذ بيدى جبريل ، فانصرفت سريعا فأتيت على إبراهيم فلم يقل لى شيئاً ، ثم أتيت على موسى ، فقال : ما صنعت يامحمد ؟ فقلت : فرض ربى علىّ وعلى أمتى خمسين صلاة . قال : فلن تستطيعها أنت ولاأمتك،فارجع إلى ربك فاسأله أن يخفف عنك . فرجعت سريعاً حتى انتهيت إلى الشجرة ، فغشيتنى السحابة ، ورفضنى جبريل ، وخررت ساجدا ، وقلت : ربّ ، إنك فرضت علىّ وعلى أمتى خمسين صلاة ، ولن أستطيعها أنا ولا أمتى ، فخفف عنا . قال : قد وضعت عنكم عشرا . قال : ثم انجلت عنى السحابة ، وأخذ بيدى جبريل وانصرفت سريعاً ، حتى أتيت على إبراهيم فلم يقل لى شيئاً . ثم أتيت على موسى فقال لى:ما صنعت يا محمد ؟ فقلت : وضع ربى عنى عشرا . فقال : أربعون صلاة ! لن تستطيعها أنت ولا أمتك ، فارجع إلى ربك فاسأله أن يخفف عنكم ــ فذكر الحديث كذلك إلى خمس صلوات ، وخمس بخمسين ثم أمره موسى أن يرجع فيسأل التخفيف ، فقلت : إنى قد استحييت منه تعالى .

---

(١) الرضراض : الحصى الصغار .

(٢) أى : تركنى .

قال : ثم انحدر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل : مالى لم آت على سماء إلا رحبوا بى وضحكوا إلىّ ، غير رجل واحد ، فسلمت عليه فرد على السلام فرحب بى ولم يضحك إلىّ . قال : يا محمد ، ذاك مالك خازن جهنم ، لم يضحك منذ خُلق ، ولو ضحك إلى أحد لضحك إليك .

قال : ثم ركب منصرفا ، فبينا هو فى بعض طريقه مرّ بعير لقريش تحمل طعاما ، منها جمل عليه غرارتان : غرارة سوداء ، وغرارة بيضاء ، فلما حاذى بالعير نفرت منه واستدارت ، وصرع ذلك البعير وانكسر .

ثم إنه مضى فأصبح ، فأخبر عماكان ، فلما سمع المشركون قوله أتوا أبا بكر فقالوا : ياأبا بكر ، هل لك فى صاحبك ؟ يخبر أنه أتى فى ليلته هذه مسيرة شهر ، ثم رجع فى ليلته . فقال أبو بكر رضى الله عنه : إن كان قاله فقد صدق ، وإنا لنصدقه فيما هو أبعد من هذا ، نصدقه على خبر السماء

فقال المشركون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ما علامة ما تقول ؟ قال : مررت بعير لقريش ، وهى فى مكان كذا وكذا ، فنفرت العير منا واستدارت ، وفيها [بعير عليه] غرارتان : غرارة سوداء ، وغرارة بيضاء ، فصرع فانكسر .

فلما قدمت العير سألوهم ، فأخبروهم الخبر على مثل ما حدثهم النبى صلى الله عليه وسلم ، ومن ذلك سمى أبو بكر الصديق .

وسألوه وقالوا : هل كان معك فيمن حضر موسى وعيسى ؟ قال : نعم . قالوا : فصفهم . قال : نعم ، أما موسى فرجل آدم ، كأنه من رجال أزْد عمان ، وأما عيسى فرجل ربعة ، سَبْط ، تعلوه حمرة ، كأنما يتحادر من شعره الجُمَان(١) .

هذا سياق فيه غرائب عجيبة .

* * *

رواية أنس رضى الله عنه ، عن مالك بن صعصعة ، قال الإمام أحمد :

حدثنا عفان ، حدثنا همّام قال : سمعت قتادة يحدّث عن أنس بن مالك : أن مالك بن صَعْصَعَة حدثه : أن نبى الله صلى الله عليه وسلم حدثهم عن ليلة أُسْرِىَ به ، قال : بينما أنا فى الحَطِيم — وربما قال قتادة : فى الحِجْر — مضطجعا ، إذ أتانى آت — فجعل يقول لصاحبه الأوسط بين الثلاثة — قال : فأتانى فَقَدّ — وسمعت قتادة يقول : فشق — ما بين هذه إلى هذه — وقال قتادة : فقلت للجارود وهو إلى جنبى : ما يعنى ؟ قال : من ثُغْرة نحره إلى شعْرته ، وقد سمعته يقول : من قَصّته (٢) إلى شعْرته — قال : فاستخرج قلبى — قال : فأُتيتُ بطسْت من ذهب مملوء إيمانا وحكمة ، فغسل قلبى ثم حُشِى ، ثم أعيد . ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض — قال فقال الجارود : وهو البراق يا أبا حمزة ؟ قال : نعم ، يقع خطوه عند أقصى طرْفه — قال : فحملت عليه ، فانطلق بى جبريل عليه السلام ، حتى أتى بى

---

(١) الجمان : اللؤلؤ . والحديث أخرجه السيوطى فى الخصائص الكبرى عن ابن أبى حاتم : ١/٣٨٣ — ٣٨٧ .

(٢) كذا ، ومثله فى المسند . وفى النهاية لابن الأثير : « وفى حديث المبعث : (أتانى آت فقد من قصى إلى شعرق) ، القص والقصص : عظم الصدر المغروز فيه شرا سيف الأضلاع فى وسطه » . هذا ولم نجد « قصة » بالتاء ، ولعل الصواب : « من قصه » .

إلى السماء الدنيا ، فاستفتح فقيل : من هذا ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : أو قد أرسل إليه ؟ قال : نعم . فقيل : مرحباً به ، ولنعم المجيء جاء — قال : ففتح فلما خلصت فإذا فيها آدم عليه السلام ، فقال : هذا أبوك آدم ، فسلّم عليه . فسلمت عليه ، فرّد السلام ، ثم قال : مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح .

ثم صعد حتى أتى السماء الثانية ، فاستفتح فقيل : من هذا ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : أو قد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحبا به ولنعم المجيء جاء — قال : ففتح ، فلما خلصت ، فاذا يحيى وعيسى ، وهما ابنا الخالة ، قال : هذا يحيى وعيسى ، فسلم عليهما . قال : فسلمتُ فردّا السلام ، ثم قالا : مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح .

ثم صعد حتى أتى السماء الثالثة فاستفتح ، فقيل : من هذا ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : أو قد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحباً به ولنعم المجيء جاء — قال : ففتح فلما خلصت فإذا يوسف [(١)] عليه السلام : قال : هذا يوسف — قال : فسلمت عليه فرد السلام ، ثم قال : : مرحبا بالأخ الصالح و النبي الصالح .

ثم صعد حتى أتى السماء الرابعة ، فاستفتح فقيل : من هذا ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد : قيل : أو قد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحباً به ، ولنعم المجيء جاء — قال : ففتح ، فلما خلصت فإذا إدريس ، قال : هذا إدريس [فسلم عليه[(٢)]] قال : فسلمت عليه . فرد السلام ، ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح .

قال : ثم صعد حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح ، فقيل : من هذا ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ؟ قيل : أو قد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحباً به ، ولنعم المجيء جاء — [قال : ففتح[(٢)]] ، فلما خلصت فاذا هارون عليه السلام ، قال : هذا هارون فسلّم عليه . فسلمت عليه فردّ السلام ، ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبيّ الصالح .

قال : ثم صعد حتى أتى السماء السادسة فاستفتح ، فقيل : من هذا ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : أو قد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحباً به ولنعم المجيء جاء . ففتح ، فلما خلصت فإذا أنا بموسى قال : هذا موسى عليه السلام [فسلم عليه][(٢)] . فسلمت عليه فرد السلام ، ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح — قال : فلما تجاوزته بكى . قيل له : ما يبكيك ؟ قال : أبكي لأن غلاما بعث بعدي ، يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي .

قال : ثم صعد حتى أتى السماء السابعة فاستفتح ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : أو قد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحباً به ولنعم المجيء جاء . قال : ففتح فلما خلصت فإذا إبراهيم عليه السلام ، فقال : هذا إبراهيم فسلم عليه . قال : فسلمت عليه فرد السلام ، ثم قال : مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح .

---

(١) فى المخطوطة : « فلما خلصت فإذا إدريس عليه السلام — قال : هذا إدريس » ، وعلى هامشها : « لعله يوسف » . والصواب : « يوسف » ، كما فى المسند .

(٢) ما بين القوسين من مسند الإمام أحمد .

قال : ثم رفعت إلى سدرة المنتهى ، فإذا نَبِقها مثل قلال (١) هَجَر ، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة ، فقال : هذه سدرة المنتهى . قال : وإذا أربعة أنهار : نهران باطنان ونهران ظاهران ، فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : أما الباطنان فنهران في الجنة ، وأما الظاهران فالنيل والفرات .

قال : ثم رُفع إلى البيت المعمور .

قال قتادة : وحدثني الحسن ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه رأى البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف مَلَك ، ثم لا يعودون فيه .

ثم رجع إلى حديث أنس [قال : ثم] أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل — قال : فأخذت اللبن ، قال : هذه الفطرة ، وأنت عليها وأمتك .

قال : ثم فرضت الصلاة خمسين صلاة كل يوم — قال : فنزلت حتى انتهيت إلى (٢) موسى ، قال : ما فرض ربك على أمتك ؟ قال : قلت : خمسين صلاة كل يوم . قال : إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة ، وإني قد خَبَرْتُ الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف عن أمتك — قال : فرجعتُ فوضع عني عشرا قال : فرجعت إلى موسى ، فقال : بم أمرت ؟ قلت : بأربعين صلاة كلّ يوم . قال : إن أمتك لا تستطيع أربعين صلاة كل يوم ، وإني قد خبرت الناس قبلك ، وعالجتُ بني إسرائيل أشد المعالجة ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك قال : فرجعت فوضع عني عشراً أخر . فرجعت إلى موسى فقال : بم أمرت ؟ فقلت : أمرت بثلاثين صلاة . قال : إن أمتك لا تستطيع ثلاثين صلاة كل يوم ، وإني قد خبَرت الناس [قبلك] ، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك . قال : فرجعت فوضع عني عشراً أخر ، فرجعت إلى موسى فقال : بم أمرت ؟ قلت : بعشرين صلاة كل يوم . فقال : إن أمتك لا تستطيع لعشرين صلاة كلّ يوم ، وإني قد خَبَرتُ الناس قبلك ، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك . قال : فرجعت فوضع عني عشراً أخر ، فرجعت إلى موسى فقال : بم أمرت ؟ فقلت : أمرت بعشر صلوات في كل يوم . فقال : إن أمتك لا تستطيع لعشر صلوات كلّ يوم ، وإني قد خبرت الناس قبلك ، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك . قال : فرجعت فأمرت بخمس صلوات كلّ يوم ، فرجعت إلى موسى فقال : بم أمرتَ ؟ فقلت : أمرتُ بخمس صلوات كلّ يوم . فقال : إن أمتك لا تستطيع لخمس صلوات [كل يوم] ، وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك . قال : قلت : لقد سألت ربي حتى استحييت [منه] ولكني أرضى وأسلم . فنفذت ، فنادى مناد : قد أمضيت فريضتي ، وخفَّفت عن عبادي (٣) » .

وأخرجاه في الصحيحين ، من حديث قتادة ، بنحوه (٤) .

* * *

رواية أنس عن أبي ذر : قال البخاري : حدثنا يحيى بن بكير ، حدثنا الليث ، عن يونس ، عن ابن شهاب ، عن أنس بن مالك قال : كان أبو ذر رضي الله عنه يحدّث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « فُرِج سقفُ

---

(١) مضى تفسير هذه الكلمة في : ٣٧٨/٤ .

(٢) لفظ المسند : « قال : فرجعت فمررت على موسى عليه السلام ، قال : بماذا أمرت ؟ قال : بخمسين صلاة كل يوم » .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٢٠٨/٤ — ٢١٠ .

(٤) البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب « ذكر الملائكة » : ١٣٣/٤ — ١٣٥ ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفرض الصلوات » : ١٠٣/١ — ١٠٥ .

بيتى وأنا بمكة ، فنزل جبريل ففرج [صدرى ، ثم غسله بماء زمزم ، ثم جاء بطَسْتٍ من ذهب ممتلىء حكمة وإيمانا ، فأفرغه] فى صدرى ، ثم أطبقه . ثم أخذ بيدى فعَرَّج بى إلى السماء ، فلما جئت إلى السماء [الدنيا (١)] قال جبريل لخازن السماء : افتح . قال : من هذا ؟ قال : جبريل . قال : هل معك أحد ؟ قال : نعم ، معى محمد . قال : أرسل إليه ؟ قال : نعم : فلما فتح علَوْنا السماء الدنيا وإذا رجل قاعد على يمينه أسودة(٢) وعلى يساره أسودة ، فإذا نظر قبل يمينه ضحك ، وإذا نظر قِبَل شماله بكى . فقال : مرحباً بالنبى الصالح والابن الصالح . قلت لجبريل : من هذا ؟ قال : هذا آدم ، وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نَسَمُ(٣) بنيه ، فأهل اليمين منهم أهل الجنة ، والأسودة التى عن شماله أهل النار : فإذا نظر عن يمينه ضحك ، وإذا نظر عن شماله بكى .

ثم عرج بى إلى السماء الثانية فقال لخازنها : افتح . فقال له خازنها مثل ما قال له الأول ، ففتح ــ قال أنس : فذكر أنه وجد فى السموات آدم ، وإدريس ، وموسى ، وعيسى ، وإبراهيم ، ولم يثبت كيف منازلهم ، غير أنه ذكر انه وجد آدم فى السماء الدنيا ، وإبراهيم فى السماء السادسة ــ قال أنس : فلما مر جبريل(٤) بالنبى صلى الله عليه وسلم بإدريس قال : مرحبا بالنبى الصالح والأخ الصالح . فقلت : من هذا ؟ فقال : هذا إدريس . ثم مررت بموسى فقال : مرحبا بالنبى الصالح والأخ الصالح . قلت : من هذا ؟ قال : موسى . ثم مررت بعيسى فقال : مرحبا بالنبى الصالح والأخ الصالح . قلت : من هذا ؟ قال عيسى ابن مريم . ثم مررت بإبراهيم فقال : مرحبا بالنبى الصالح والابن الصالح . قلت : من هذا ؟ قال : هذا إبراهيم ــ قال الزهرى : فأخبرنى ابن حزم : أن ابن عباس وأبا حبة الأنصارى كانا يقولان : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ثم عَرَّج بى حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام ــ قال ابن حزم وأنس بن مالك : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ففرض الله على أمتى خمسين صلاة ، فرجعت بذلك حتى مررت على موسى فقال : ما فرض الله على أمتك ؟ قلت : فرض خمسين صلاة . قال : فارجع إلى ربك ، فإن أمتك لا تطيق ذلك . فرجعتُ [فوضع شطرها ، فرجعت إلى موسى ، قلت : وَضَع شطرها . فقال : ارجع إلى ربك ، فان أمتك لا تطيق : فرجعت فوضع شَطْرها . فرجعت إليه فقال : ارجع إلى ربك ، فإن أمتك لا تطيق ذلك . فراجعته(٥)] فقال : هى خمس وهى خمسون ، لا يبدل القول لدىّ . فرجعت إلى موسى فقال : ارجع إلى ربك . قلت : قد استحييت من ربى . ثم انطلق بى حتى انتهى إلى سدرة المنتهى ، فغشيها ألوان لا أدرى ما هى ، ثم أدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ

---

(١) ما بين القوسين عن الصحيحين .

(٢) أسودة : جمع سواد ، وهو : كل شخص من إنسان وغيره .

(٣) فى المخطوطة : « وعن شماله نطف بنيه » . والمثبت عن الصحيحين . والنسم ــ بفتحتين ــ : جمع نسمة ، وهى النفس .

(٤) هذا لفظ البخارى ، ولفظ مسلم : « فلما مر جبريل ورسول الله صلى الله عليه وسلم بإدريس » . ومعنى لفظ البخارى : « فلما مر جبريل مع النبى صلى الله عليه وسلم على إدريس » ، فالباء بمعنى « مع » .

(٥) ما بين القوسين سقط من المخطوطة ، والمثبت من البخارى .

اللؤلؤ(١) ، وإذا ترابها المسك » .

هذا لفظ البخارى فى « كتاب الصلاة (٢) » ، ورواه فى ذكر بنى إسرائيل ، وفى الحج ، وفى أحاديث الأنبياء من طرق أخر ، عن يونس ، به . ورواه مسلم فى صحيحه فى « كتاب الإيمان » منه ، عن حرملة ، عن ابن وهب ، عن يونس ، به نحوه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا همام ، عن قتادة ، عن عبد الله بن شقيق قال : قلت لأبى ذر : لو رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم لسألتُه . قال : وما كنت تسأله ؟ قال : كنت أسأله : هل رأى ربه ؟ فقال : إنى قد سألته فقال : إنى قد رأيته نوراً أنىّ أراه (٣) » .

هكذا قد وقع فى رواية الإمام أحمد . وأخرجه مسلم فى صحيحه ، عن أبى بكر بن أبى شيبة ، عن وكيع ، عن يزيد بن إبراهيم ، عن قتادة ، عن عبد الله بن شقيق : [عن أبى ذر قال : سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل رأيت ربك ؟ قال : نور أنّى أراه .

وعن محمد بن بشار ، عن معاذ بن هشام ، حدثنا أبى ، عن قتادة ، عن عبد الله بن شقيق] (٤) قال : قلت لأبى ذر : لو رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم لسألتهُ . فقال : عن أىّ شىء كنت تسأله ؟ قال : كنت أسأله : هل رأيت ربك ؟ قال أبو ذر : قد سألت فقال : رأيت نوراً (٥) .

* * *

رواية أنس ، عن أبىّ بن كعب الأنصارى رضى الله عنه ، قال عبدالله بن الإمام أحمد : حدثنا محمد بن إسحاق ابن محمد المُسَيَّبى ، حدثنا أنس بن عياض ، عن يونس بن يزيد (٦) قال : قال ابن شهاب : قال أنس بن مالك : كان أبىّ بن كعب يحدّث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « فُرِج سقف بيتى وأنا بمكة ، فنزل جبريل ففَرَّج صدرى ثم غسله من ماء زمزم ، ثم جاء بطَسْت من ذهب ممتلىء حكمة وإيمانا ، فأفرغها فى صدرى ثم أطبقه ، ثم أخذ بيدى فعَرَج بى إلى السماء . فلما جاء السماء الدنيا [فافتتح فقال : من هذا ؟ قال : جبريل ، قال : هل معك أحد ؟ قال : نعم ، معى محمد . قال : أرسل إليه ؟ قال : نعم ، فافتح . فلما علونا السماء الدنيا] (٧) إذا رجل عن يمينه أسودَةٌ وعن يساره أسودة ، فإذا نظر عن يمينه ضحك ، وإذا نظر قبل شماله بكى(٨) — قال : مرحبا بالنبى الصالح

---

(١) كذا فى مخطوطة الأزهر ، وهو موافق للفظ مسلم ، وفى البخارى : « حبايل اللؤلؤ » . والجنابذ — كما فى النهاية : جمع جنبذة ، وهى : القبة . وقال ابن الأثير فى مادة حبل : « وفى صفة الجنة « فإذا فيها حبائل اللؤلؤ » هكذا جاء فى البخارى ، والمعروف « جنابذ اللؤلؤ » ، فإن صحت الرواية فيكون أراد به مواضع مرتفعة كحبال الرمل ، كأنه جمع حبالة ، وحبالة جمع حبل ، وهو جمع على غير قياس » .

(٢) البخارى ، كتاب الصلاة ، باب « كيف فرضت الصلوات فى الإسراء » : ٩٧/١ ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، « باب الإسراء » : ١٠٢/١ ، ١٠٣ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ١٤٧/٥ .

(٤) ما بين القوسين سقط من مخطوطة الأزهر . والمثبت من الطبعات السابقة .

(٥) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب فى قوله عليه السلام : « نور أنى أراه » : ١١١/١ .

(٦) فى المسند : « يونس بن زيد » . وهو خطأ ، والصواب ما هنا . وينظر ترجمة « يونس بن يزيد » فى التهذيب : ٤٥٠/١١ .

(٧) ما بين القوسين المعقوفين سقط من تفسير ابن كثير ، أثبتناه عن مسند الإمام أحمد ، وهو سقط نظر .

(٨) لفظ المسند : « وإذا نظر قبل يمينه تبسم ، وإذا نظر قبل يساره بكى » .

والابن الصالح ؛ قال:قلت لجبريل : من هذا ؟ قال : هذا آدم ، وهذه الأسودة عن يمينه وشماله نَسَمُ بنيه، فأهل اليمين هم أهل الجنة ، والأسودة التي عن شماله هم أهل النار : فاذا نظر قبَل يمينه ضحك ، وإذا نظر قبل شماله بكى ـ قال : ثم عَرَج بي جبريل حتى أتى السماء الثانية ، فقال لخازنها : افتح . فقال له خازنها مثل ما قال خازن السماء الدنيا ففتح له ـ قال أنس : فذكر أنه وجد فى السموات: آدم ، وإدريس ، وموسى ،وعيسى ،وإبراهيم ، ولم يُثبِتْ لى كيف منازلهم ؟ غير أنه ذكر أنه وجد آدم عليه السلام فى السماء الدنيا ، وإبراهيم فى السماءالسادسة ـ قال أنس : فلما مر جبريل عليه السلام ورسول الله صلى الله عليه وسلم بادريس قال : مرحبا بالنبي الصالح والأخ الصالح . قال قلت : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا إدريس . قال : ثم مررت بموسى ، فقال : مرحبا بالنبي الصالح والأخ الصالح ، فقلت : من هذا ؟ قال : هذا موسى . ثم مررت بعيسى فقال : مرحبا بالنبي الصالح والأخ الصالح . قلت: من هذا ؟ قال : هذا عيسى ابن مريم . قال : ثم مررت بابراهيم فقال : مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح .قلت : من هذا ؟ قال : هذا إبراهيم ـ قال ابن شهاب : وأخبرنى ابنُ حزم : أن ابن عباس وأبا حبَّة الأنصارى كانا يقولان : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثم عُرج بى حتى ظهرت لمستوى أسمع صريف الأقلام . قال ابن حزم وأنس ابن مالك : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فرض الله على أمتى خمسين صلاة ، قال : فرجعت بذلك حتى أمرّ على موسى ، فقال موسى : ماذا فرض ربك على أمتك ؟ قلت : فرض عليهم خمسين صلاة . فقال لى موسى : راجع ربك ؛ فإن أمتك لا تطيق ذلك . قال : فراجعت ربى . فوضع شطرها ، فرجعت إلى موسى فأخبرته فقال : ارجع إلى ربك ؛ فإن أمتك لا تطيق ذلك ، فرجعت فقال : هى خمس وهى خمسون . لا يبدل القول لدىّ . قال : فرجعت إلى موسى فقال : راجع ربك . فقلت : قد استحييت من ربى . قال : ثم انطلق بى حتى أتى سدرة المنتهى، قال : فغشيها ألوان ما أدرى ما هى ؟ قال : ثم أدخلت الجنة فاذا فيها جنَابذ اللؤلؤ ، وإذا ترابها المسك .

هكذا رواه عبد الله بن أحمد فى مسند (١) أبيه : وليس هو فى شيء من الكتب الستة ، وقد تقدم فى الصحيحين من طريق يونس ، عن الزهرى ، عن أبي ذر ، مثل هذا السياق سواء ، فالله أعلم .

* * *

رواية بُرَيدة بن الحُصَيب الأسلمى، قال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا عبد الرحمن بن المتوكل ويعقوب بن إبراهيم واللفظ له ـ قالا : حدثنا أبو تُميلة ، أخبرنا الزبير بن جنادة ، عن عبد الله بن بُرَيدة ، عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما كان ليلة أسرى به قال : فأتى جبريل الصخرة التي ببيت المقدس ، فوضع إصبعه فيها فخرقها ، فشدّ بها البراق » .

ثم قال البزار : لانعلم رواه عن الزبير بن جُنادة إلا أبو تُميلة ، ولا نعلم هذا الحديث إلا عن بريدة . وقد رواه الترمذى فى التفسير من جامعه ، عن يعقوب بن إبراهيم الدورقى ، به ، وقال : غريب . (٢)

* * *

رواية جابر بن عبد الله رضى الله عنه ، قال الإمام أحمد : حدثنا يعقوب ، حدثنا أبى ، عن صالح ، عن ابن شهاب قال : قال أبو سلمة : سمعت جابر بن عبد الله يحدّث : أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لما كذّبتنى

(١) مسند الإمام أحمد : ١٤٣/٥ ، ١٤٤ .

(٢) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة « بنى إسرائيل » ، الحديث ٥١٣٩ : ٥٦٥/٨

قريش حين أسرى بى إلى بيت المقدس ، قمت فى الحِجْر فجلّى الله لى بيت المقدس ، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه (١) » .

أخرجاه فى الصحيحين من طرق ، عن الزهرى ، به (٢) .

وقال البيهقى : أخبرنا أحمد بن الحسن القاضى ، حدثنا أبو العباس الأصم ، حدثنا العباس بن محمد الدُّورى ، حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا أبى ، عن صالح بن كيسان ، عن ابن شهاب قال : سمعت سعيد بن المسيّب يقول : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين انتهى إلى بيت المقدس ، لَقِى فيه إبراهيم وموسى وعيسى ، وإنه أُتِى بقدَحَين : قدَح من لبن وقدَح خمر ، فنظر إليهما ، ثم أخذ قدح اللبن . فقال جبريل : أصبتَ ، هُدِيتَ للفطرة لو أخذت الخمر لغَوَت أمتك . ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ، فأخبر أنه أُسرِىَ به ، فافتتن ناس كثير كانوا قد صلوا معه .

قال ابنُ شهاب : قال أبو سلمة بن عبد الرحمن : فتجهز — أو كلمة نحوها — ناس من قريش إلى أبى بكر فقالوا : هل لك فى صاحبك ؟ يزعم أنه جاء إلى بيت المقدس ثم رجع إلى مكة فى ليلة واحدة ! فقال أبو بكر : أَوَقال ذلك؟ قالوا : نعم . قال : فأشهد لئن كان قال ذلك لقد صدق . قالوا : فتصدقه بأن يأتى الشام فى ليلة واحدة ثم يرجع إلى مكة قبل أن يصبح ؟ قال : نعم ، إنى أصدقه بأبعدَ من ذلك ، أصدقه بخبر السماء . قال أبو سلمة : فبها سُمّى أبو بكر : الصديقَ .

قال أبو سلمة : فسمعت جابر بن عبد الله يحدّث أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لما كذبتنى قريش حين أسرى بى إلى بيت المقدس ، قمت فى الحِجْر ، فجلّى الله لى بيت المقدس ، فطفِقتُ أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه (٣) » .

* * *

رواية حذيفة بن اليمان رضى الله عنه ، قال الإمام أحمد : ثنا أبو النضر ، ثنا شيبان ، عن عاصم ، عن زرّ بن حُبَيْش قال : أتيت على حذيفة بن اليمان وهو يحدث عن ليلةَ أُسرِىَ بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وهو يقول : فانطلقنا حتى أتينا بيت المقدس . فلم يدخلاه — قال قلت : بل دَخَلَه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ليلتئذ وصلّى فيه . قال : ما اسمك يا أصلع ، فإنى أعرف وجهك ولا أدرى ما اسمك ؟ قال قلت : أنا زرّ بن حُبَيْش . قال : فما علمك بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلّى فيه ليلتئذ ؟ قال قلت : القرآنُ يخبرنى بذلك . قال : من تكلم بالقرآن فَلَجَ (٤)، اقرأ . قال فقلت : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) . قال : يا أصلع ، هل تجد « صلّى فيه » ؟ قلت : لا . قال : والله ما صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلتئذ ، ولو صلى فيه لكتب عليكم صلاة فيه ، كما

(١) مسند الإمام أحمد : ٣/٣٧٧ .

(٢) البخارى ، تفسير سورة بنى إسرائيل : ٦/١٠٤ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم ١/١٠٨ .

(٣) دلائل النبوة للبيهقى ، مخطوط بدار الكتب برقم ٧٠١ حديث ، الجزء الثانى ، ورقة : ١٠٥ ، ١٠٦ .

(٤) أى : غلب . ولفظ الترمذى : « من احتج بالقرآن فقد أفلح — قال سفيان : يقول : قد احتج ، وربما قال : قد فلج » .

كتب عليكم صلاة فى البيت العتيق ، والله ما زايلا البراق حتى فتحت لهما أبواب السماء ، فرأيا الجنة والنار ووعد الآخرة أجمع ، ثم عادا عَوْدهما[1] على بدئهما . قال : ثم ضحك حتى رأيت نواجذه . قال : وتحدثوا أنه ربَطه لا يفر منه[2] ، وإنما سَخَّره له عالم الغيب والشهادة . قلت : أبا عبد الله ، أىّ دابة البراقُ ؟ قال : دابة أبيض طويل هكذا ، خَطْوه مَدّ البصر[3] .

ورواه أبو داود الطيالسى ، عن حماد بن سلمة ، عن عاصم ، به . ورواه الترمذى والنسائى فى التفسير ، من حديث عاصم ــ وهو ابن أبى النَّجُود ــ به ، وقال الترمذى[4] : حسن صحيح .

وهذا الذى قاله حذيفة رضى الله عنه نفى ، وما أثبته غيره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من ربط الدابة بالحلقة ومن الصلاة بالبيت المقدّس ، مما سبق وما سيأتى مقدّم على قوله[5] ، والله أعلم بالصواب .

* * *

رواية أبى سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدرى ، قال الحافظ أبو بكر البيهقى فى كتاب « دلائل النبوة » : أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ ، حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ، حدثنا أبو بكر يحيى بن أبى طالب ، حدثنا عبد الوهاب بن عطاء ، أخبرنا أبو محمد راشد الحِمَّانى ، عن أبى هارون العَبْدى ، عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال له أصحابه : يا رسول الله ، أخبرنا عن ليلة أسرى بك فيها ، قال : قال الله عز وجل : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله ، لنريه من آياتنا ، إنه هو السميع البصير) ، قال : فأخبرهم فقال : « فبينا أنا نائم عشاء فى المسجد الحرام ، إذ أتانى آت فأيقظنى ، فاستيقظت فلم أر شيئا ، وإذا أنا بكهيئة خيال ، فأتبعته بصرى حتى خرجت من المسجد ، فاذا أنا بدابة أدنى فى شبْهه بدوابكم هذه ، بغالكم هذه ، مضطرب الأذنين ، يقال له : البراق . وكانت الأنبياء تركبه قبلى ، يقع حافره عند مَدّ بصره ، فركبته . فبينما أنا أسير عليه ، إذ دعانى داع عن يمينى : يا محمد ، انظرنى أسألك ، يا محمد ، انظرنى أسألك . فلم أجبه ولم أقُم[6] عليه ، [فبينا أنا أسير عليه ، إذ دعانى داع عن يسارى : يا محمد ، انظرنى أسألك ، فلم أجبه ولم أقم عليه] . فبينا أنا أسير ، إذ أنا بامرأة حاسرة عن ذراعيها ، وعليها من كل زينة خلقها الله ، فقالت : يا محمد ، انظرنى أسألك . فلم ألتفت إليها ولم أقم عليها ، حتى أتيت بيت المقدس ، فأوثقت دابتى بالحلقة التى كانت الأنبياء توثقها بها . فأتانى جبريل عليه السلام بإناءين : أحدهما خمر ، والآخر لبن ، فشربت اللبن ، وتركت الخمر ، فقال جبريل : أصبت الفطرة . فقلت : الله أكبر ، الله أكبر . فقال جبريل : ما رأيتَ فى وَجْهك[7] هذا ؟ قال : فقلت : بينما أنا أسير ، إذ دعانى داع عن يمينى : يا محمد ، انظرنى أسألك . فلم أجبه ولم أقم عليه . قال : ذاك داعى اليهود ، أما إنك لو أجبتَه ــ أو : وقفت عليه ــ لتهوّدت أمتك . قال : فبينا أنا أسير ، إذ دعانى داع عن يسارى قال : يا محمد ،

---

(١) يقال : « رجع عوداً على بدء ، وعوده على بدئه » ، أى : لم يقطع ذهابه حتى وصله برجوعه .

(٢) لفظ المسند : « ويحدثون أنه لربطه ليفر منه » . ولفظ الترمذى : « ويتحدثون أنه ربطه لما ليفر منه » .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٣٨٧/٥ . وينظر أيضاً المسند : ٣٩٢/٥ ، ٣٩٤ .

(٤) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة بنى إسرائيل ، الحديث ٥١٥٥ : ٥٨٢/٨ – ٥٨٤ .

(٥) هذا التعقيب نسبه الحافظ أبو العلى إلى البيهقى ، ينظر تحفة الأحوذى : ٥٨٤/٨ .

(٦) يقال : « قام فلان على الشيء » : إذا ثبت عليه وتمسك به . يريد : لم أثبت فى مكانى عنده .

(٧) الوجه هنا بمعنى الجهة والناحية .

انظرنى أسألك . فلم ألتفت إليه ولم أقم عليه . قال : ذاك داعى النصارى ، أما إنك لو أجبته لتنصرت أمتك ، قال : فبينا أنا أسير إذا أنا بامرأة حاسرة عن ذراعيها ، عليها من كل زينة خلقها الله تعالى تقول : يا محمد ، انظرنى أسألك . فلم أجبها ولم أقم عليها . قال : تلك الدنيا ، أما إنك لو أجبتها أو أقمت عليها ، لاختارت أمتك الدنيا على الآخرة .

قال : ثم دخلت أنا وجبريل بيت المقدس ، فصلى كل واحد منا ركعتين .

ثم أتيت بالمعراج الذى تعرج عليه أرواح بنى آدم ، فلم ير الخلائق أحسن من المعراج ، أما رأيت الميت حين يُشَقّ بصره طامحا إلى السماء ، فانما يَشُقّ بصره طامحا إلى السماء عُجْبُه بالمعراج . قال : فصعدت أنا وجبريل فاذا أنا بملك يقال له : « إسماعيل » ، وهو صاحب سماء الدنيا ، وبين يديه سبعون ألف ملك ، مع كل ملك جُنْدُه مائة ألف مَلَك — قال : وقال الله : (وما يعلم جنود ربك إلا هو) — فاستفتح جبريل باب السماء ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : أو قد بعث إليه ؟ قال : نعم . فاذا أنا بآدم كهيئته يوم خلقه الله تعالى على صورته ، تعرض عليه أرواح ذريته المؤمنين ، فيقول : روح طيبة ، ونفس طيبة ، اجعلوها فى عليّين . ثم تعرض عليه أرواح ذريته الفُجّار ، فيقول : روح خبيثة ونفس خبيثة ، اجعلوها فى سجّين .

ثم مضيتُ هُنَيَّةً ، فاذا أنا بأخونة(١) عليها لحم مُشَرّح ، ليس يقربها أحد ، وإذا [أنا] بأخونة أخرى عليها لحم قد أرْوَح وأنتن ، عندها أناس يأكلون منها ، قلت : يا جبريل ، من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء من أمتك ، يتركون الحلال ويأتون الحرام .

قال : ثم مَضَيتُ هنيّة فاذا أنا بأقوام بطونهم أمثال البيوت ، كلما نهض أحدهم خرّ يقول : اللهم ، لا تُقم الساعة — قال : وهم على سابلة آل فرعون ، قال : فتجىء السابلة فتطؤهم ، قال : فسمعتهم يضجون إلى الله عز وجل ، قال : قلت : يا جبريل ، من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء من أمتك (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس) .

قال : ثم مضيت هُنَيَّةً فاذا أنا بأقوام مشافرهم كمشافر الإبل — قال : فتفتح على أفواههم ويلقمون من ذلك الحمر ، ثم يخرج من أسافلهم . فسمعتهم يضجون إلى الله عز وجل . فقلت : من هؤلاء ياجبريل ؟ قال : هؤلاء من أمتك (الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا) — قال : ثم مضيت هنية فإذا أنا بنساء يعلقن بثُدِيِّهن ، فسمعتهن يضججن إلى الله عز وجل قلت : ياجبريل ، من هؤلاء النساء ؟ قال : هؤلاء الزناة من أمتك .

قال : ثم مضيت هنية فإذا أنا بأقوام يقطع من جنوبهم اللحم ، فَيُلْقَمُونَه ، فيقال له : كل كما كنت تأكل من لحم أخيك . قلت : يا جبريل ، من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الهمازون من أمتك اللمازون .

قال : ثم صعدنا إلى السماء الثانية ، فاذا أنا برجل أحسنَ ما خلق الله عز وجل ، قد فَضَل الناس فى الحسن كالقمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، قلت : يا جبريل ، من هذا ؟ قال : هذا أخوك يوسف ومعه نفر من قومه ، فسلمت عليه وسلم علىّ .

---

(١) بعده فى الدلائل : « يعنى الخوان المائدة التى يؤكل عليها ... » .

ثم صَعِدت إلى السماء الثالثة ، فاذا أنا بيحى وعيسى عليهما السلام ، ومعهما نفر من قومهما ، فسلمت عليهما وسلما عليّ .

ثم صعدت إلى السماء الرابعة ، فاذا أنا بادريس قد رفعه الله مكانا عليا ، فسلمت عليه وسلّم عليّ :

قال : ثم صَعِدتُ إلى السماء الخامسة فاذا بهارون ، ونصف لحيته بيضاء ونصفها سوداء ، تكاد لحيته تصيب سُرّته من طولها ، قلت : يا جبريل ، من هذا ؟ قال : هذا المحبَّب فى قومه ، هذا هارون بن عمران ومعه نفر من قومه ، فسلمت عليه وسلم عليّ .

ثم صَعِدتُ إلى السماء السادسة ، فاذا أنا بموسى بن عمران ، رجلٌ آدم كثير الشعر ، لو كان عليه قميصان لنفذ شعرُه دون القميص ، فاذا (١) هو يقول : يزعم الناس أنى أكرم على الله من هذا ، بل هذا أكرم على الله تعالى منى : قال : قلت : يا جبريل ، من هذا ؟ قال : هذا أخوك موسى بن عمران عليه السلام ، ومعه نفر من قومه : فسَلَّمْتُ عليه وسلم علي .

ثم صَعِدتُ إلى السماء السابعة ، فاذا أنا بأبينا إبراهيم خليل الرحمن ساند ظهرَه إلى البيت المعمور كأحسن الرجال ، قلت : يا جبريل ، من هذا ؟ قال : هذا أبوك خليل الرحمن ومعه نفر من قومه ، فسلمت عليه وسلّم عليّ ، وإذا [أنا] بأمتى شطرين ، شطر عليهم ثياب بيض كأنها القراطيس ، وشطر عليهم ثياب رُمْدٌ — قال : فدخلتُ البيتَ المعمور ، ودخل معى الذين عليهم الثياب البيض ، وحُجِبَ الآخرون الذين عليهم ثيابٌ رُمْدٌ ، وهم على خير ، فصليت أنا ومن معى فى البيت المعمور ، ثم خرجت أنا ومن معى — قال : والبيت المعمور يُصلى فيه كل يوم سبعون ألف ملك ، لا يعودون فيه إلى يوم القيامة .

قال : ثم دُفِعَتْ لى سدرة المنتهى ، فاذا كل ورقة منها تكاد أن تغطّى هذه الأمة ، وإذا فيها عين تجرى يقال لها : سلسبيل ، فينشق منها نهران ، أحدهما : الكوثر ، والآخر يقال له : نهر الرحمة . فاغتسلت فيه ، فغُفِر لى ما تقدم من ذنبى وما تأخر .

ثم إنى دفعت إلى الجنة ، فاستقبلتنى جارية ، فقلت : لمن أنت يا جارية ؟ فقالت : لزيد بن حارثة ، وإذا [أنا] بأنهار من [ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار (٢) من] عسل مصفى ، وإذا رمانها كأنه الدِّلاء (٣) عِظَماً ، وإذا أنا بطير ها كأنها بُخْتيّكم (٤) هذه — فقال عندها صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى قد أعد لعباده الصالحين مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خَطَر على قلب بشر .

قال : ثم عُرِضَت عليّ النار ، فاذا فيها غضب الله وزجره ونقمته ، لو طُرِح فيها الحجارة والحديد لأكلتها ، ثم أغلقَتْ دونى

ثم إنى دُفعت إلى سدْرَة المنتهى ، فتغشانى (٥) فكان بينى وبينه قاب قوسين أو أدنى — قال : ونزل على كل ورقة ملك من الملائكة — قال : وفُرِضت على خمسون . وقال : لك بكل حسنة عشر ، إذا هممت بالحسنة فلم تعملها كتبت لك حسنةٌ ، فاذا عملتها كتبت لك عشراً . وإذا هممت بالسيئة فلم تعملها لم يكتب عليك شيء ، فإن عملتها كُتِبَتْ عليك سيئة واحدة ،

---

(١) لفظ الدلائل : « لنفذ شعره دون القميص إذا وهو يقول » ، وضبط لفظ الإذ هكذا : بكسر الهمزة وتشديد الدال .

(٢) ما بين القوسين من الدلائل .

(٣) الدلاء : جمع دلو .

(٤) البختى : جمل طويل العنق .

(٥) لفظ الدلائل : « فتغشى لى » .

ثم دُفعتُ إلى موسى فقال : بم أمرك ربك ؟ قلت : بخمسين صلاة ؛ قال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك ، فان أمتك لا يطيقون ذلك ، ومتى لا [تطيقه] تكفر . فرجعت إلى ربى فقلت : يا رب ، خفِّف عن أمتى ، فانها أضعف الأمم . فوضع عنى عشراً ، وجعلها أربعين . فما زلت أختلف بين موسى وربى ، كلما أتيت عليه قال لى مثل مقالته ، حتى رجعت إليه فقال لى: بم أمرت ؟ فقلت : أمرت بعشر صلوات ؛ قال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك . فرجعت إلى ربى فقلت : أىْ ربِّ ، خفف عن أمتى فانها أضعف الأمم ؛ فوضع عنى خمساً ، وجعلها خمساً . فنادانى مَلَكٌ عندها : تَمَّمتُ فريضتى ، وخفَّفتُ عن عبادى ، وأعطيتهم بكل حسنة عَشْرَ أمثالها .

ثم رجعت إلى موسى فقال : بم أمرت ؟ فقلت : بخمس صلوات ؛ قال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فانه لا يَئُوده شىء ، فاسأله التخفيف لأمتك ؛ فقلت : رجعتُ إلى ربى حتى استحييته ؛ ثم أصبح بمكة يخبرهم بالأعاجيب : إنى أتيت البارحة بيتَ المقدس ، وعُرج بى إلى السماء ، ورأيت كذا وكذا ؛ فقال أبو جهل — يعنى ابن هشام — : ألا تعجبون مما يقول محمد ؟ يزعم أنه أتى البارحة بيت المقدس ، ثم أصبح فينا ؛ وأحدنا يضرب مطيته مصعدة شهرا ومُقْفلةً شهرا ، فهذا مسيرة شهرين فى ليلة واحدة ! قال : فأخبرَهم بعير لقريش : « لما كنت فى مصعدى رأيتُها فى مكان كذا وكذا ، وأنها نفرت ، فلما رجعتُ رأيتها عند العقبة » ؛ وأخبرهم بكل رجل وبعيره كذا وكذا ، ومتاعه كذا وكذا ؛ فقال أبو جهل : يخبرنا بأشياء . فقال رجل من المشركين : أنا أعلم الناس ببيت المقدس ، وكيف بناؤه ؟ وكيف هيئته ؟ وكيف قربه من الجبل ؟ [فان يك محمد صادقا فسأخبركم ، وإن يك كاذباً فسأخبركم . فجاء ذلك المشرك فقال : يا محمد ، أنا أعلم الناس ببيت المقدس ، فأخبرنى : كيف بناؤه ؟ وكيف هيئته ؟ وكيف قربه من الجبل[١] ؟] قال: فرُفع لرسول الله صلى الله عليه وسلم بيت المقدس من مقعده ، فنظر إليه كنظر أحدنا إلى بيته : بناؤه كذا وكذا ، وهيئته كذا وكذا ، وقربه من الجبل كذا وكذا . فقال الآخر : صدقت . فرجع إلى أصحابه فقال : صدق محمد فيما قال — أو نحو هذا الكلام[٢] .

وكذا رواه الإمام أبو جعفر بن جرير بطوله ، عن محمد بن عبد الأعلى ، عن محمد بن ثَوْر ، عن معمر ، عن أبى هارون العَبْدى — وعن الحسن بن يحيى ، عن عبد الرزاق، عن معمر ، عن أبى هارون العبدى ، به . ورواه أيضاً من حديث محمد بن إسحاق : حدثنى رَوح بن القاسم ، عن أبى هارون ، به نحو سياقه المتقدم[٣] .

ورواه ابن أبى حاتم ، عن أبيه ، عن أحمد بن عبدة ، عن أبى عبد الصمد عبد العزيز بن عبد الصمد ، عن أبى هارون العَبْدى ، عن أبى سعيد الخدرى ، فذكره بسياق طويل حَسَن أنيق ، أجودَ مما ساقه غيره ، على غرابته وما فيه من النَّكارة .

ثم ذكره البيهقى[٤] أيضا من رواية نوح بن قيس الحُدّانى وهشيم ومعمر ، عن أبى هارون العبدى — واسمه عمارة ابن جُوَين — وهو مُضَعَّف عند الأئمة .

---

(١) ما بين القوسين عن الدلائل .

(٢) دلائل النبوة البيهقى ، مخطوط بدار الكتب برقم ٧٠١ حديث ، الجزء الثانى ، ورقة : ١٢١ — ١٢٦ .

(٣) تفسير الطبرى : ١٥/١٠ — ١٢ .

(٤) دلائل النبوة للبيهقى ، الجزء الثانى ، ورقة رقم : ١٣١ .

وإنما سقنا حديثه هاهنا لما فى حديثه من الشواهد لغيره ، ولما رواه البيهقى :

أخبرنا أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن ، أنبأنا أبو نعيم أحمد بن محمد بن إبراهيم البزاز ، حدثنا أبو حامد ابن بلال ، حدثنا أبو الأزهر ، حدثنا يزيد بن أبى حكيم قال : رأيت فى النوم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قلت : يا رسول الله ، رجل من أمتك يقال له « سفيان الثورى » ، لا بأس به ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا بأس به » — حدثنا عن أبى هارون العبدى ، عن أبى سعيد الخدرى ، عنك ليلة أسرى بك ، قلت : « رأيتُ فى السماء ... » ، فحدثته بالحديث ؟ فقال لى : نعم ، فقلت له : يا رسول الله ، إن ناسا من أمتك يحدثون عنك فى السُّرَى بعجائب ؟ فقال لى : ذلك حديث القصاص .

* * *

رواية شدّاد بن أوس ، قال الإمام أبو إسماعيل محمد بن إسماعيل الترمذى : حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن العلاء ابن الضحاك الزبيدى ، حدثنا عمرو بن الحارث ، عن عبد الله بن سالم الأشعرى ، عن محمد بن الوليد بن عامر الزبيدى ، حدثنا الوليد بن عبد الرحمن ، عن جُبَير بن نفير ، حدثنا شدّاد بن أوس قال : قلنا : يا رسول الله ، كيف أسرى بك ؟ قال : صليت لأصحابى صلاة العتمة بمكة معتما — قال : فأتانى جبريل عليه السلام بدابة أبيض — أو قال : بيضاء — فوق الحمار ودون البغل ، فقال : اركب ، فاستصعبت علىّ ، فرَازها (١) بأذنها ، ثم حملنى عليها . فانطلقتْ تهوى بنا يقع حافرها حيث أدرك طَرْفها، حتى بلغنا أرضاً ذات نخل ، فأنزلنى فقال : صل . فصليتُ ، ثم ركبنا فقال : أتدرى أين صليت ؟ قلت : الله أعلم . قال : صليتَ بيثرب ، صليت بطَيبة . فانطلقتْ تهوى بنا يقع حافرها حيث أدرك طرفها . ثم بلغنا أرضا فقال : انزل . [فنزلت]، ثم قال : صل . فصليتُ ، ثم ركبنا فقال : أتدرى أين صليتَ ؟ قلت : الله أعلم . قال : صليت بمدين، صليت عند شجرة موسى . ثم انطلقت تهوى بنا يقع حافرها حيث أدرك طرفها ، ثم بلغنا أرضا ، بدت لنا قصور ، فقال : انزل . فنزلت ، فقال : صل . فصليتُ ، ثم ركبنا فقال : أتدرى أين صليتَ ؟ قلت : الله أعلم . قال : صليتَ ببيت لحم حيث ولد عيسى المسيح ابن مريم . ثم انطلق بى حتى دخلنا المدينة من بابها اليمانى ، فأتى قبلة المسجد ، فربط فيه دابته ، ودخلنا المسجد من باب فيه تميل الشمس والقمر ، فصليت من المسجد حيث شاء الله ، وأخذنى من العطش أشدّ ما أخذنى ، فأتيتُ بإناءين ، فى أحدهما لبن وفى الآخر عسل ، أرسِلَ إلىّ بهما جميعا ، فعدلتُ(٢) بينهما ، ثم هدانى الله عز وجل ، فأخذت اللبن فشربْت حتى قرَعت(٣) به جبينى ، وبين يدى شيخ متكىء على مثواة (٤) له ، فقال : أخذ صاحبك الفطرة ، إنه ليهدَى . ثم انطلق بى حتى أتينا الوادى الذى فيه المدينة ، فإذا جهنم [تنكشف] عن مثل الزرابى (٥) ، قلت : يا رسول الله ، كيف وجدتها ؟ قال : مثل

---

(١) أى : اختبرها . يقال : « رزت ما عند فلان » ، إذا اختبرته وامتحنته ، لأعرف هل يخاف لأمتى إذا منعنى منه أم لا ؟
(٢) أى : وازنت بينهما .
(٣) أى : ضربت به جبينى ، وهذا كناية عن شرب جميع ما فيه .
(٤) كذا فى مخطوطة الأزهر . وفى الدلائل « مرآة » . وفى الخصائص الكبرى للسيوطى : « منبر » .
(٥) كذا فى مخطوطة الأزهر ، ومثله فى الدلائل .

الحَمْئة السَّخِنة (١) . ثم انصرف بى ، فمررنا بعير لقريش بمكان كذا وكذا ، قد أضلّوا بعيرا لهم ، قد جمعه فلان ، فسلمت عليهم ، فقال بعضهم: هذا صوت محمد . ثم أتيت أصحابى قبل الصبح بمكة ، فأتانى أبو بكر رضى الله عنه فقال : يا رسول الله ، أين كنت الليلة ؟ فقد التمستك فى مَظَانّك : فقال : علمت أنى أتيتُ بيتَ المقدس الليلة ؟ فقال : يا رسول الله ، إنه مسيرةُ شهر فصفه لى . قال : ففُتِح لى صراط كأنى أنظر إليه ، لا يسألنى عن شىء إلا أنبأته عنه . قال أبو بكر : أشهد أنك رسول الله . فقال المشركون : انظروا إلى ابن أبى كبشة ، يزعم أنه أتى بيت المقدس الليلة ! قال : فقال : إن من آية ما أقول لكم أنى مررت بعير لكم بمكان كذا وكذا ، قد أضلوا بعيرا لهم ، فجمعه فلان ، وإن مسيرهم ينزلون بكذا ثم بكذا ، ويأتونكم يوم كذا وكذا ، يقدمهم جمل آدم ، عليه مسح أسود وغرارتان سوداوان . فلما كان ذلك اليوم أشرف الناس ينظرون ، حتى كان قريب من نصف النهار ، حتى أقبلت العير يقدّمهم ذلك الجمل ، الذى وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

هكذا رواه البيهقى من طريقين ، عن أبى إسماعيل الترمذى ، به ؛ ثم قال بعد تمامه : «هذا إسناد صحيح ، وروى ذلك مفرقا فى أحاديث غيره ، ونحن نذكر من ذلك إن شاء الله ما حضرنا (٢) » ؛ ثم ساق أحاديث كثيرة فى الإسراء كالشاهد لهذا الحديث . وقد روى هذا الحديث عن « شدّاد بن أوس » بطوله الإمامُ أبو محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم فى تفسيره ، عن أبيه ، عن إسحاق بن إبراهيم بن العلاء الزبيدى ، به ؛ ولا شك أن هذا الحديث — أعنى الحديث المروى عن شداد بن أوس — مشتمل على أشياء منها ما هو صحيح كما ذكره البيهقى ، ومنها ما هو منكر ، كالصلاة فى بيت لحم ، وسؤال الصديق عن نعت بيت المقدس ، وغير ذلك ؛ والله أعلم .

* * *

رواية عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال الإمام أحمد :

حدثنا عثمان بن محمد ، حدثنا جرير ، عن قابوس ، عن أبيه قال : حدثنا ابن عباس قال : ليلةَ أسرىَ بنبىّ الله صلى الله عليه وسلم دخل (٣) الجنة ، فسمع فى جانبها وَجْساً (٤) فقال : يا جبريل ، ما هذا ؟ قال : هذا بلال المؤذن . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جاء إلى الناس : قد أفلح بلال ، قد رأيت له كذا وكذا — قال : فلقيه موسى عليه السلام فرحّب به ، وقال : مرحبا بالنبى الأمى ، قال : وهو رجل آدم طويل ، سَبْط (٥) شعره مع أذنيه أو فوقهما ، فقال : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا موسى . [قال : فمضى ، فلقيه عيسى فرحب به ، وقال : من هذا جبريل ؟ قال : هذا عيسى ؛ قال :] (٦) فمضى ، فلقيه شيخ جليل مُتَهيِّب (٧) فرحب به وسلّم عليه ، وكلهم يسلم عليه ، قال : من هذا ياجبريل ؟ قال : هذا أبوك إبراهيم . قال : ونظر فى النار ، فإذا قوم يأكلون الجيف ، قال : من

---

(١) الحمة — بفتح الحاء وتشديد الميم — : عين ماء حار .
(٢) دلائل النبوة للبيهقى ، مخطوط بدار الكتب برقم ٧٠١ حديث ، الجزء الثانى ، ورقة : ١٠٣ ، ١٠٤ .
(٣) فى المسند : « ودخل » .
(٤) فى المخطوطة : « فسمع فى جانبها وخشا » . وهو خطأ ، والصواب من المسند . وقال ابن الأثير فى النهاية — وذكره — : « الوجس : الصوت الخفى ، وتوجس بالشىء : أحس به فتسمع له » .
(٥) السبط من الشعر : المنبسط المسترسل .
(٦) ما بين القوسين سقط من تفسير ابن كثير . وقد أثبتناه من المسند .
(٧) لفظ المسند : « مهيب » .

هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحم الناس . ورأى رجلا أحمر أزرق جداً ، قال : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا عاقر الناقة ، قال : فلما(١) أتى النبي صلى الله عليه وسلم المسجد الأقصى قام يصلي ، [فالتفت ثم التفت(٢)] فإذا النبيون أجمعون يصلون معه ، فلما انصرف جيء بقدحين ، أحدهما عن اليمين والآخر عن الشمال ، في أحدهما لبن وفي الآخر عسل ، فأخذ اللبن فشرب منه ، فقال الذي كان معه القدح : أصبت الفطرة (٣) . إسناده صحيح ، ولم يخرجوه .

طريق أخرى ، وقال الإمام أحمد :

حدثنا حسن ، حدثنا ثابت أبو زيد ، حدثنا هلال ، حدثني عكرمة ، عن ابن عباس قال : أسرى بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس ، ثم جاء من ليلته فحدثهم بمسيره وبعلامة بيت المقدس وبعيرهم ، فقال ناس : «نحن لا نصدق محمداً بما يقول» ! فارتدوا كفاراً ، فضرب الله رقابهم مع أبي جهل . وقال أبو جهل : يخوفنا محمد بشجرة الزقوم ، هاتوا تمرا وزبدا فتزقموا (٤) . ورأى الدجال في صورته رؤيا عين ليس برؤيا منام ، وعيسى وموسى وإبراهيم ، فسئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الدجال ، فقال : رأيته فيلمانياً(٥) أقمر هجاناً ، إحدى عينيه قائمة(٦) كأنها كوكب دري ، كأن شعر رأسه أغصان شجرة : ورأيت عيسى أبيض ، جعد (٧) الرأس ، حديد البصر ، مبطن الخلق . ورأيت موسى أسحم (٨) آدم ، كثير الشعر ، شديد الخلق . ونظرت إلى إبراهيم فلم أنظر إلى إرب منه (٩) إلا نظرت إليه مني ، حتى كأنه صاحبكم — قال جبريل : سلم على مالك . فسلمت عليه (١٠) » .

ورواه النسائي من حديث أبي زيد ثابت بن يزيد ، عن هلال — وهو ابن خباب — به ، وهو إسناد صحيح (١١) .

طريق أخرى ، وقال البيهقي : أنبأنا أبو عبد الله الحافظ ، أنبأنا أبو بكر الشافعي ، أنبأنا إسحاق بن الحسن ، حدثنا الحسين بن محمد ، حدثنا شيبان ، عن قتادة ، عن أبي العالية قال : حدثنا ابن عم نبيكم صلى الله عليه وسلم ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : رأيت ليلة أسري بي موسى بن عمران ، رجلا طوالا جعدا ، كأنه من رجال شنوءة ، ورأيت عيسى ابن مريم ، مربوع الخلق ، إلى الحمرة والبياض ، سبط الرأس . وأري مالكا خازن جهنم

---

(١) لفظ المسند : « فلما دخل النبي .... » .

(٢) مابين القوسين سقط من تفسير ابن كثير ، وقد أثبتناه من المسند .

(٣) مسند الإمام أحمد : ١/٢٥٧ .

(٤) أي : كلوا .

(٥) الفيلم — بفتح الفاء واللام بينهما ياء ساكنة : العظيم الجثة ، والفيلماني : منسوب إليه بزيادة الألف والنون للمبالغة . والأقمر : الشديد البياض . والهجان : الأبيض .

(٦) العين القائمة : هي الباقية في موضعها صحيحة ، وإنما ذهب نظرها وإبصارها .

(٧) أي : جعد الشعر ، وهو ضد السبط المسترسل . والمبطن : الضامر البطن .

(٨) الأسحم : الأسود ، وهو الآدم .

(٩) الإرب — بكسر فسكون — : العضو ، وجمعه آراب . ولفظ المسند : « فلا أنظر إلى إرب من آرابه » .

(١٠) مسند الإمام أحمد : ١/٣٧٤ .

(١١) وقعت هذه الفقرة ، من قوله « ورواه النسائي » في مخطوطة الأزهر في غير موضعها ، وذلك بعد الحديثين التاليين من البيهقي ، وقبل حديث مسند الإمام أحمد ، فألحقناها بهذا الموضع . وهي كذلك في الطبعات السابقة على الصواب .

والدجال ، فى آيات أراهن الله إياه ، قال : (فلا تكن فى مرية من لقائه) — فكان قتادة يفسرها : أن نبى الله قد لقى موسى ، (وجعلناه هدى لبنى إسرائيل) — قال : جعل الله موسى هدى لبنى إسرائيل .

رواه مسلم فى الصحيح عن عبد بن حميد ، عن يونس بن محمد ، عن شيبان ، وأخرجاه من حديث شعبة ، عن قتادة مختصرا (١)

طريق أخرى ، قال [البيهقى (٢) : أخبرنا على بن أحمد بن عَبْدان ، أنبأنا أحمد بن عبيد الصفار ، حدثنا دُبَيْس المعدِّل ، حدثنا عفان قال : حدثنا] حماد بن سلمة ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما أسرى بى ، مرَّت بى رائحة طيبة ، فقلت: ما هذه الرائحة ؟ قالوا : ماشطةُ بنت فرعون وأولادها ، سقط مُشطُها من يدها ، فقالت : باسم الله . فقالت ابنة فرعون : أبى ؟ قالت : ربى وربك ورب أبيك . قالت : أولك ربٌ غير أبى ؟ قالت: نعم ، ربىّ وربك وربّ أبيك الله . قال : فدعاها فقال : ألكِ رب غيرى ؟ قالت : نعم ، ربى وربك الله عز وجل . قال : فأمر بِنَقُرَةٍ من نحاس فأحميت ، ثم أمر بها لتلقى فيها ، قالت : إن لى [إليك] حاجة . قال : ماهى ؟ قالت : تجمع عظامى وعظام ولدى فى موضع . قال : ذاك لك ، لما لك علينا من الحق . قال : فأمر بهم فألقوا واحداً واحداً ،حتى بلَغَ رضيعاً فيهم ، فقال : يا أمَّه ، قَعِى ولا تقَاعَسى ؛ فإنك على الحق . قال : وتكلم أربعة وهم صغار : هذا ، وشاهد يوسف ، وصاحب جُريج ، وعيسى ابن مريم عليه السلام (٣) .

إسناد لا بأس به ، ولم يخرجوه .

طريق أخرى ، وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر وروح المعنى قالا : حدثنا عوف ، عن زُرارة بن أوفى ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما كان ليلةَ أسرىَ بى وأصبحت (٤) بمكة ، فَظعت [بأمرى (٥)] وعرفت أن الناس مكذبىّ » . فقعد معتزلا حزيناً ، فمر به عدو الله أبو جهل ، فجاء حتى جلس إليه ، فقال له كالمستهزئ : هل كان من شىء ؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم . قال : وما هو ؟ قال : إنى أسرىَ بى الليلة . قال : إلى أين ؟ قال : إلى بيت المقدس . قال : ثم أصبحتَ بين ظهرانينا ؟! قال : نعم . قال : فلم يُرِه أنه يكذبه مخافَةَ أن يجحده الحديثَ إن دعا قومه إليه . فقال : أرأيت إن دعوتُ قومك أتحدثهم بما حدثتنى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم . قال : هيا معشر بنى كعب بن لؤى . قال : فانتفضت إليه المجالس وجاءوا حتى جلسوا إليهما . قال : حدِّثْ قومك بما حدثتنى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى أسرىَ بى الليلة ، فقالوا : إلى أين ؟ قال : إلى بيت المقدس . قالوا : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟! قال : نعم . قال : فمن بين مصفق ، ومن بين واضع يدَه على رأسه متعجباً للكذب — زَعَمَ — قالوا : وتستطيعُ أن تنعت [لنا] المسجد ؟ — وفى القوم من

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى ، مخطوط بدار الكتب رقم ٧٠١ حديث ، الجزء الثانى ، ورقة : ١٢٠ .

(٢) ما بين القوسين عن الدلائل .

(٣) دلائل النبوة ، الجزء الثانى ، ورقة : ١٢١ .

(٤) فى المخطوطة : « فأصبحت » . والمثبت عن المسند ، والنهاية لابن الأثير .

(٥) ما بين القوسين عن المسند . ومعنى « فظعت بأمرى » : اشتد على وهبته .

قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد ــ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فذهبت أنعت ، فما زلتُ أنعتُ حتى التبس على بعض النعت ــ قال : فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه ، حتى وضع دون دار عقيل ــ أو : عقال ــ فنعتّه ، وأنا أنظر إليه ــ قال : وكان مع هذا نعت لم أحفظه ــ يقول عوف (١) ــ قال : فقال القوم : أما النعت فوالله لقد أصاب (٢) » وأخرجه النسائي من حديث عوف [بن أبي جميلة ــ وهو الأعرابي ــ به . ورواه البيهقي من حديث النضر بن شميل وهوذة ، عن عوف] (٣) وهو ابن أبي جميلة الأعرابي ، أحد الأئمة الثقات (٤) ، به .

* * *

رواية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قال الحافظ أبو بكر البيهقي : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب ، حدثنا السرى بن خزيمة ، حدثنا يوسف بن بهلول ، حدثنا عبد الله بن نمير ، عن مالك بن مغْوَل ، عن الزبير بن عدى ، عن طلحة بن مُصرّف ، عن مُرّة الهَمْدانى ، عن عبد الله بن مسعود قال : لما أسرىَ برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانتهى إلى سدرة المنتهى ، وهى فى السماء السادسة ، وإليها ينتهى ما يُصعَد به حتى يقبض منها ، وإليها ينتهى ما يهبَط [به] من فوقها حتى يقبض [منها] ، (إذ يغشى السدرة ما يغشى) ــ قال : غشيها فراش من ذهب ، وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلوات الخمس ، وخواتيم سورة البقرة ، وغفر لمن لا يشرك بالله المقحمَاتُ ، يعنى الكبائر .

ورواه مسلم فى صحيحه ، عن محمد بن عبد الله بن نُمَير وزهير بن حرب كلاهما ، عن عبد الله بن نمير ، به . ثم قال البيهقي : « وهذا الذى ذكره عبد الله بن مسعود طرَف من حديث المعراج ، وقد رواه أنس بن مالك عن مالك ابن صعصعة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم عن أبي ذر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم رواه مرة مرسلا دون ذكرهما(٥) » . ثم إن البيهقي ساق الأحاديث الثلاثة كما تقدّم .

قلت : وقد رُوى عن ابن مسعود بأبسط من هذا ، وفيه غرابة ، وذلك فيما رواه « الحسن بن عرفة » فى جزئه (٦) المشهور . حدثنا مروان بن معاوية ، عن قنَان بن عبد الله النّهمى ، حدثنا أبو ظَبْيَان الجَنْبى قال: كنا جلوسا عند أبي عبيدة بن عبد الله ــ يعنى ابن مسعود ــ ومحمد بن سعد بن أبي وقاص ، وهما جالسان ، فقال محمد بن سعد لأبي عبيدة : حدثنا عن أبيك ليلةَ أسرى بمحمد صلى الله عليه وسلم . فقال أبو عبيدة : لا ، بل حدثنا أنت عن أبيك . فقال محمد : لو سألتنى قبل أن أسألك لفعلت ! قال : فأنشأ أبو عبيدة يحدّث يعنى عن أبيه كما سئل ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتانى جبريل بدابة فوق الحمار ودون البغل ، فحملنى عليه ، ثم انطلق يهوى بنا كلما صَعد عقبة استوت رجلاه كذلك مع يديه ، وإذا هبط استوت يداه مع رجليه ، حتى مررنا برجل طوَال سبْط آدم ،

(١) كذا فى مخطوطة الأزهر . ولفظ الدلائل : « نعت لم يحفظه عوف » .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٣٠٩/١ .
(٣) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة .
(٤) دلائل النبوة للبيهقي ، الجزء الثانى ، ورقة : ١٠٨ .
(٥) دلائل النبوة للبيهقي ، الجزء الثانى ، ورقة : ١١٢ ، ١١٣ .
(٦) هو أبو على الحسن بن عرفة العبدى البغدادى المؤدب . سمع إسماعيل بن عياش وطبقته ، كان يقول : «كتب عنى خمسة قرون » . وقد عمر طويلا ، توفى سنة ٢٥٧ عن ١٠٧ سنين ، قال عنه النسائى : لا بأس به . وأما جزؤه فقد ذكر فيه حديثه عن شيوخه . ينظر فهرسة ابن خير : ١٧٧ .

كأنه من رجال أزدشنوءة ، وهو يقول–فيرفع صوته يقول – : أكرمتهُ وفضلته . قال : فدّفعنا (١) إليه فسلمنا عليه، فرد السلام ، فقال : من هذا معك يا جبريل ؟ قال : هذا أحمد . قال : مرحباً بالنبي الأمى العربى ، الذى بلغ رسالة ربه ونصح لأمته . قال : ثم اندفعنا فقلت : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا موسى بن عمران . قال قلت : ومن يعاتب ؟ قال : يعاتب ربه فيك ! قلت : فيرفع صوته على ربه ؟! قال: إن الله قد عرف له حدّته: قال : ثم اندفعنا حتى مررنا بشجرة كأن ثمرها السُّرُج (٢) تحتها شيخ وعياله، قال فقال لى جبريل: اعمدْ إلى أبيك إبراهيم : فدفعنا إليه فسلمنا عليه فرد السلام ، فقال إبراهيم : من هذا معك يا جبريل ؟ قال : هذا ابنك أحمد . قال : فقال : مرحباً بالنبي الأمى ، الذى بلغ رسالة ربه ونصح لأمته ، يا بنى ، إنك لاقٍ ربك الليلة ، وإن أمتك آخرُ الأمم وأضعفها ، فإن استطعت أن تكون حاجتك أو جُلّها فى أمتك فافعل . قال : ثم اندفعنا حتى انتهينا إلى المسجد الأقصى ، فنزلت فربطت الدابة بالحلقة التى فى باب المسجد التى كانت الأنبياء تربط بها . ثم دخلت المسجد فعرفت النبيين من بين راكع وقائم وساجد – قال : ثم أتيت بكأسين من عسل ولبن ، فأخذت اللبن فشربتُ ، فضرب جبريل عليه السلام منكبى وقال : أصبت الفطرة وربِّ محمد – قال : ثم أقيمت الصلاة فأممتهم ، ثم انصرفنا فأقبلنا » .

إسناد غريب ولم يخرجوه ، فيه من الغرائب : سؤال الأنبياء عنه عليه السلام ابتداءً ، ثم سؤاله عنهم بعد انصرافه ، والمشهور فى الصحاح كما تقدم : أنّ جبريل كان يعلمه بهم أولا ليسلم عليهم سلام معرفة . وفيه أنه اجتمع بالأنبياء عليهم السلام قبل دخوله المسجد ، والصحيح أنه إنما اجتمع بهم فى السموات ، ثم نزل إلى بيت المقدس ثانيا وهم معه ، وصلى بهم فيه ، ثم إنه ركب البراق وكر راجعاً إلى مكة ، والله أعلم .

طريق أخرى ، قال الإمام أحمد : حدثنا هُشَيم ، أخبرنا العوام ، عن جَبَلة بن سُحَيم ، عن مُؤثر بن عَفَازة ، عن ابن مسعود ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : لقيتُ ليلةَ أسرى بى إبراهيم وموسى وعيسى ، فتذاكروا أمر الساعة – قال : فردوا أمرهم إلى إبراهيم عليه السلام فقال : لا علم لى بها . فردوا أمرهم إلى موسى فقال : لا علم لى بها ، فردوا أمرهم إلى عيسى فقال : أما وَجْبَتُها فلا يعلم بها أحد إلا الله عز وجل ، وفيما عَهِد إلى ربى أنّ الدجال خارج – قال : ومعى قضيبان ، فإذا رآنى ذاب كما يذوب الرصاص ، قال : فيهلكه الله إذا رآنى ، حتى إن الحجر والشجر يقول : « يا مسلم ، إن تحتى كافراً ، فتعال فاقتله » – قال : فيهلكهم الله ، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم – قال : فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حَدَب ينسلون فيطئون بلادهم ، فلا يأتون على شىء إلا أهلكوه ، ولا يمرّون على ماء إلا شربوه – قال : ثم يرجع الناس إلىّ فيشكونهم ، فأدعو الله عليهم ، فيهلكهم ويميتهم ، حتى تجوى الأرض من نَتْن ريحهم – أى : تُنْتن – قال : فينزل الله المطر ، فيجرف أجسادهم حتى يقذفهم فى البحر .

---

(١) أى : ذهبنا إليه . ومنه : « دفع من عرفات » ، أى : ابتدأ السير ، ودفع نفسه منها ونحاها ، أو دفع ناقته وحملها على السير .

(٢) كذا فى مخطوطة الأزهر : « السرج » بالجيم . ولعله جمع سراج – بكسر السين – وهو المصباح الزاهر الذى يسرج بالليل ، ويجمع على سرج ، بضم السين والراء . وإذا كانت « السرح » ، بالحاء المهملة المفتوحة والسين الساكنة ، فهو شجر كبار عظام طوال لا ترعى ، وإنما يستظل به ، له ثمر أصفر ، ويكون التقدير : كأن ثمرها ثمر السرح . والله أعلم .

ففيما عهد إلى ربى : أن ذلك إذا كان كذلك أن الساعة كالحامل المُتِمّ ، لا يدرى أهلها متى تفجؤهم بولادها ، ليلا أو نهارا (١) .

وأخرجه ابن ماجه ، عن بندار ، عن يزيد بن هارون ، عن العوام بن حَوْشب (١) .

* * *

رواية عبد الرحمن بن قُرْط ، أخي عبد الله بن قرط الثمالي ، قال سعيد بن منصور : حدثنا مسكين بن ميمون مؤذن مسجد الرملة ، حدثني عُرْوَة بن رُوَيم ، عن عبد الرحمن بن قُرط : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلةَ أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، كان بين زمزم والمقام ، جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره ، فطارا به حتى بلغ السموات العلى . فلما رجع قال : سمعت تسبيحاً فى السموات العلى مع تسبيح كثير ، سبحت السموات العلى من ذى المهابة مشفقات من ذى العلوِّ بما علا ، سبحان العلى الأعلى ، سبحانه وتعالى (٢) .

ويذكر هذا الحديث عند قوله تعالى من هذه السورة : (تسبح له السموات السبع) ... الآية .

* * *

رواية عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن أبى سنان ، عن عُبَيد بن آدم وأبى مريم وأبى شعيب : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان بالجابية ، فذكر فتح بيت المقدس ـ قال : قال أبو سلمة (٣) : فحدثنى أبو سنان ، عن عُبَيد بن آدم قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول لكعب : أين ترى أن أصلى ؟ قال : إن أخذت عَنّى صليتَ خلف الصخرة ، فكانت القدس كلها بين يديك ـ فقال عمر رضى الله عنه : ضاهيتَ اليهودية ، [لا (٤)] ولكن أصلى حيث صَلّى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم . فتقدم إلى القبلة فصلى ، ثم جاء فبسط رداءه ، وكنس الكناسة فى ردائه ، وكنس الناس (٥) .

فلم يعظم الصخرة تعظيما (٦) يصلى وراءها وهى بين يديه ، كما أشار به كعب الأحبار ، وهو من قوم يعظمونها حتى جعلوها قبلتهم . ولكن مَنّ الله عليه بالإسلام ، فهُدى إلى الحق . ولهذا لما أشار بذلك قال له أمير المؤمنين : « ضاهيتَ اليهودية » ، ولا أهانها إهانة النصارى الذين كانوا قد جعلوها مَزْبلة من أجل أنها قبلة اليهود ، ولكن أماط الأذى ، وكنس عنها الكناسة بردائه . وهذا شبيه بما جاء فى صحيح مسلم ، عن أبى مرثد الغَنَوِىّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تجلسوا على القبور ، ولا تصلوا إليها (٧) » .

---

(١) تقدم الحديث عند الآية ١٥٩ من سورة النساء ، وخرجناه هنالك ، وشرحنا غريبه . ينظر : ٣/٤٠٩ ، ٤١٠ .

(٢) أخرجه الطبرانى ، كما سيأتى عند قوله تعالى : (تسبح له السموات السبع) ، الآية : ٤٤ من هذه السورة . وقد ساق ابن الأثير هذا الحديث فى ترجمة عبد الرحمن بن قرط ، ينظر أسد الغابة : ٣/٤٩٠ بتحقيقنا .

هذا وقد كان فى المخطوطة : « من بين زمزم والمقام » . فأثبتنا « كان » موضع « من » ، وذلك عن أسد الغابة ، والسياقة الثانية لهذا الحديث .

(٣) أبو سلمة هو : حماد بن سلمة .

(٤) ما بين القوسين عن مسند الإمام أحمد .

(٥) مسند الإمام أحمد : ١/٣٨ .

(٦) هذا نص الطبعات السابقة . ولفظ مخطوطة الأزهر بعد حديث المسند : « الصخرة تعظيماً » وفوق كلمة « تعظيماً » وسم الناسخ : « حش » .

(٧) أخرجه مسلم فى كتاب الجنائز ، باب « النهى عن الجلوس على القبر والصلاة إليه » : ٣/٦٢ .

* * *

رواية أبي هريرة رضي الله عنه ، وهي مطولة جداً ، وفيها غرابة ، قال الإمام أبو جعفر بن جرير في تفسير « سورة سبحان » :

حدثنا علي بن سهل ، حدثنا حجاج ، حدثنا أبو جعفر الرازي ، عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية الرياحي ، عن أبي هريرة — أو غيره ، شك أبو جعفر — في قول الله عز وجل : (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، الذي باركنا حوله ، لنريه من آياتنا ، إنه هو السميع البصير) — قال : جاء جبريل [إلى النبي صلى الله عليه وسلم ومعه ميكائيل ، فقال جبريل] (١) لميكائيل : ائتني بطَست من ماء زمزم ، كيما أطهر قلبه وأشرح له صدره . قال : فشَقّ عنه بطنه ، فغسله ثلاث مرات ، واختلف إليه ميكائيل بثلاث طِساس (٢) من ماء زمزم ، فشرح صدره ونزع ما كان فيه من غل ، وملأه حلماً وعلماً ، وإيمانا ويقينا وإسلاما ، وختم بين كتفيه بخاتم النبوة .

ثم أتاه بفرس فحمل عليه ، كلّ خطوة منه منتهى بصره — أو : أقصى بصره — قال : فسار وسار معه جبريل عليهما السلام ، قال : فأتى على قوم يزرعون في يوم ويحصدون في يوم ، كلما حصدوا عاد كما كان ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يا جبريل ، ما هذا ؟ قال : هؤلاء المجاهدون في سبيل الله ، تضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف ، وما أنفقوا من شيء فهو يخلفه ، وهو خير الرازقين .

ثم أتى على قوم تُرضَخ رءوسهم بالصخر ، كلما رُضِخت عادت كما كانت ، ولا يُفَتَّر عنهم من ذلك شيء ، فقال : ما هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين تتثاقل رءوسهم عن الصلاة المكتوبة .

ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع وعلى أدبارهم رقاع ، يسرحون كما تسرح الإبل والنعم ، ويأكلون الضّريع (٣) والزقوم ورَضْفَ جهنم وحجارتها ، قال : ما هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم ، وما ظلمهم الله شيئاً ، وما الله بظلام للعبيد .

ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج في قدر ، ولحم آخرُ نيءٌ في قدر خبيث ، فجعلوا يأكلون من النيء الخبيث ويدَعون النضيج الطيب ، فقال : ما هؤلاء يا جبريل ؟ فقال : هذا الرجل من أمتك ، تكون عنده المرأة الحلال الطيب ، فيأتي امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يصبح ، [والمرأة تقوم من عند زوجها حلالاً طيبا ، فتأتي رجلا خبيثا فتبيت معه حتى تصبح (٤)] .

قال : ثم أتى على خشبة على الطريق ، لا يمر بها ثوب إلا شقته ، ولا شيء إلا خرقته ، قال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا مثل أقوام من أمتك ، يقعدون على الطريق يقطعونه ، ثم تلا : (ولا تقعدوا بكل صراط توعدون)

---

(١) ما بين القوسين سقط من مخطوطة الأزهر ، وقد أثبتناه من تفسير الطبري .

(٢) طساس : جمع طست .

(٣) الضريع : نبت بالحجاز له شوك كبار . أما الزقوم فهو ما وصف الله في كتابه العزيز فقال : (إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم . طلعها كأنه رءوس الشياطين) .

(٤) سقط من مخطوطة الأزهر ، أثبتناه من تفسير الطبري .

قال : ثم أتى على رجل قد جمع حُزْمة [حطب] عظيمة لا يستطيع حَمْلها ، وهو يزيد عليها ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟ فقال : هذا الرجل من أمتك يكون عليه أمانات الناس لا يقدر على أدائها ، وهو يريد أن يحمل(١) عليها .

ثم أتى على قوم تُقرَض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد ، كلما قرضت عادت كما كانت ، لا يُفتَر عنهم من ذلك شيء ، قال : ما هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء خطباء الفتنة (٢) .

ثم أتى على جحر صغير يخرج منه ثور عظيم ، فجعل الثور يريد أن يرجع من [حيث](٣) خرج ، فلا يستطيع ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟ فقال : هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ، ثم يندم عليها فلا يستطيع أن يردها .

ثم أتى على واد فوجد ريحاً طيبة باردة ، وريح مسك ، وسمع صوتا ، فقال : يا جبريل ، ما هذه الريح الطيبة الباردة ؟ وما هذا المسك ؟ وما هذا الصوت ؟ قال : هذا صوت الجنة ، تقول : يا رب ، آتني ما وعدتني فقد كثرت غُرَفي ، وإستبرقي وحريري وسندسي ، وعبقريّ(٤) ولؤلؤي ومرجاني ، وفضّتي وذهبي ، وأكوابي وصحافي وأباريقي ومراكبي (٥) ، وعسلي ومائي وخمري ولبني فآتني ما وعدتني . فقال : لك كل مسلم ومسلمة ، ومؤمن ومؤمنة ، ومن آمن بي وبرسلي وعمل صالحا ولم يشرك بي ، ولم يتخذ من دوني أندادا . ومن خشيني فهو آمن ، ومن سألني أعطيته ، ومن أقرضني جزيته ، ومن توكل على كفيته ، إني أنا الله ، لا إله إلا أنا ، لا أخلف الميعاد ، وقد أفلح المؤمنون وتبارك الله أحسن الخالقين . قالت : قد رضيت .

قال : ثم أتى على واد فسمع صوتاً منكراً ، ووجد ريحاً منتنة ، فقال : ما هذه الريح يا جبريل ؟ وما هذا الصوت ؟ فقال : هذا صوت جهنم ، تقول : يا رب ، آتني ما وعدتني ، فقد كثرت سلاسلي وأغلالي ، وسعيري وحميمي ، وضريعي ، وغسّاقي وعذابي ، وقد بَعُد قعري واشتد حري ، فآتني كل ما وعدتني . فقال : لك كل مشرك ومشركة ، وكافر وكافرة ، وكل خبيث وخبيثة ، وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب . قالت : قد رضيت .

قال : ثم سار حتى أتى بيت المقدس ، فنزل فربط فرسه إلى صخرة ، ثم دخل فصلى مع الملائكة ، فلما قضيت الصلاة قالوا : يا جبريل ، من هذا معك ؟ قال : محمد صلى الله عليه وسلم . قالوا : اوقد أرسل محمد ؟ قال : نعم . قالوا : حيّاه الله من أخ ومن خليفة ، فنعم الأخ ونعم الخليفة ، ونعم المجيء جاء .

قال : ثم لقي أرواح الأنبياء ، فأثنوا على ربهم ، فقال إبراهيم : الحمد لله الذي اتخذني خليلا ، وأعطاني ملكا عظيما ، وجعلني أمّة قانتا يُؤتَمّ بي ، وأنقذني من النار ، وجعلها علي برداً وسلاما . ثم إن موسى عليه السلام أثنى على ربه عز وجل فقال : الحمد لله الذي كلمني تكليما ، وجعل هلاك آل فرعون ونجاة بني إسرائيل على يدي ، وجعل من أمتي قوما يهدون بالحق وبه يعدلون . ثم إن داود عليه السلام أثنى على ربه فقال : الحمد لله الذي جعل لي ملكا عظيما ، وعلمني الزبور ، وألان لي الحديد ، وسخر لي الجبال يسبّحن والطير ، وأعطاني الحكمة وفصل الخطاب . ثم إن سليمان عليه السلام

---

(١) لفظ الطبري : « وهو يزيد عليها » ويريد أن يحملها » . وما في الدر المنثور للسيوطي : ٤/ ١٤٤ ، موافق لما هنا .

(٢) بعده في تفسير الطبري : « يقولون مالا يفعلون » .

(٣) لفظ مخطوطة الأزهر : « من موضع خرج » ، ولا يستقيم عربية . والمثبت من تفسير الطبري .

(٤) العبقري : الديباج . وقيل : البسط الموشية .

(٥) في تفسير الطبري : « وفواكهي » . والمثبت من المخطوطة والدر المنثور : ٤/ ١٤٤ .

أثنى على ربه فقال : الحمد لله الذى سخر لى الرياح ، وسخر لى الشياطين يعملون لى ما شئت من محاريب وتماثيل ، وجفان كالجواب [١] وقدور راسيات ، وعلمنى منطق الطير ، وآتانى من كل شىء فضلا ، وسخر لى جنود الشياطين والإنس والطير ، وفضلنى على كثير من عباده المؤمنين ، وآتانى ملكا عظيما لا ينبغى لأحد من بعدى ، وجعل ملكى ملكا طيبا ليس فيه حساب . ثم إن عيسى عليه السلام أثنى على ربه عز وجل فقال : الحمد لله الذى جعلنى كلمته ، وجعل مثلى مثل آدم ، خلقه من تراب ثم قال له «كن» فيكون ، وعلمنى الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، وجعلنى أخلق من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا باذن الله ، وجعلنى أبرىء الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذنه ، ورفعنى وطهرنى ، وأعاذنى وأمى من الشيطان الرجيم ، فلم يكن للشيطان علينا سبيل . قال : ثم إن محمداً صلى الله عليه وسلم أثنى على ربه عز وجل فقال : فكلكم أثنى على ربه ، وإنى مثن على ربى فقال : الحمد لله الذى أرسلنى رحمة للعالمين ، وكافة للناس بشيرا ونذيرا ، وأنزل على الفرقان فيه بيان لكل شىء ، وجعل أمتى خير أمة أخرجت للناس ، وجعل أمتى أمةً وسطا ، وجعل أمتى هم الأولين وهم الآخرين ، وشرح لى صدرى ، ووضع عنى وزرى ، ورفع لى ذكرى ، وجعلنى فاتحا وخاتما . فقال إبراهيم : بهذا فضلكم محمدٌ صلى الله عليه وسلم .

قال أبو جعفر الرازى : خاتم النبوة ، فاتح بالشفاعة يوم القيامة .

ثم أتى بآنية ثلاثة مغطاة أفواهها ، فأتى بإناء منها فيه ماء فقيل : اشرب : فشرب منه يسيرا ، ثم دفع إليه إناء آخر فيه لبن ، فقيل له : اشرب . فشرب منه حتى روى . ثم دفع إليه إناء آخر فيه خمر فقيل له : اشرب . فقال : لا أريده قد رويت . فقال له جبريل : أما إنها ستحرم على أمتك ، ولو شربت منها لم يتبعك من أمتك إلا قليل .

قال : ثم صعد به إلى السماء فاستفتح ، فقيل : من هذا يا جبريل ؟ فقال : محمد . قالوا : أو قد أرسل ؟ قال : نعم . قالوا : حياه الله من أخ ومن خليفة ، فنعم الأخ ونعم الخليفة ، ونعم المجىء جاء . فدخل فإذا هو برجل تام الخلق ، لم ينقص من خلقه شىء كما ينقص من خلق الناس ، عن يمينه باب يخرج منه ريح طيبة ، وعن شماله باب يخرج منه ريح خبيثة ، إذا نظر إلى الباب الذى عن يمينه ضحك واستبشر ، وإذا نظر إلى الباب الذى عن يساره بكى وحزن ، فقلت : يا جبريل ، من هذا الشيخ التام الخلق الذى لم ينقص من خلقه شىء ؟ وما هذان البابان ؟ فقال : هذا أبوك آدم ، وهذا الباب الذى عن يمينه باب الجنة ، إذا نظر إلى من يدخل من ذريته ضحك واستبشر ، والباب الذى عن شماله باب جهنم ، إذا نظر إلى من يدخله من ذريته بكى وحزن .

ثم صعد به جبريل إلى السماء الثانية فاستفتح ، فقيل : من هذا معك ؟ فقال : محمد رسول الله : قالوا : أو قد أرسل محمد ؟ قال : نعم . قالوا : حياه الله من أخ ومن خليفة ، فلنعم الأخ ولنعم الخليفة ، ونعم المجىء جاء . قال : فدخل ، فإذا هو بشابين فقال : يا جبريل ، من هذان الشابان ؟ قال : هذا عيسى ابن مريم ، ويحيى بن زكريا ، ابنا الخالة عليهما السلام .

---

(١) الجوابى : الحياض الكبيرة ، سميت بذلك لأن الماء يجبى فيها ، أى : يجمع .

قال : فصعد به إلى السماء الثالثة فاستفتح ، فقالوا : من هذا ؟ قال : جبريل : قالوا : ومن معك ؟ قال : محمد . قالوا : أو قد أرسل ؟ قال : نعم : قالوا : حياه الله من أخ ومن خليفة ، فنعم الأخ ونعم الخليفة ، ونعم المجيء جاء . قال : فدخل فإذا هو برجل قد فُضّل على الناس فى الحسن ، كما فُضّل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، قال : من هذا يا جبريل الذى فضل على الناس فى الحسن ؟ قال : هذا أخوك يوسف عليه السلام .

قال : ثم صعد به إلى السماء الرابعة فاستفتح ، فقالوا : من هذا ؟ قال : جبريل : قالوا : ومن معك ؟ قال : محمد . قالوا : أو قد أرسل ؟ قال : نعم : قالوا : حياه الله من أخ ومن خليفة ، فنعم الأخ ونعم الخليفة ، ونعم المجيء جاء . قال : فدخل ، فإذا هو برجل ، قال : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا إدريس ، رفعه الله مكاناً علياً .

ثم صعد به إلى السماء الخامسة فاستفتح ، فقالوا : من هذا ؟ قال : جبريل . قالوا: ومن معك ؟ قال : محمد . قالوا : أو قد أرسل ؟ قال : نعم : قالوا :حياه الله من أخ و [من] خليفة ، فنعم الأخ ونعم الخليفة ، ونعم المجيء جاء : ثم دخل فإذا هو برجل جالس وحوله قوم يقص عليهم ، قال : من هذا يا جبريل ؟ ومن هؤلاء حوله ؟ قال : هذا هارون المحبب [فى قومه] ، وهؤلاء بنو إسرائيل .

ثم صَعِد به إلى السماء السادسة فاستفتح ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل : قالوا : ومن معك ؟ قال: محمد . قالوا : أو قد أرسل ؟ قال : نعم: قالوا : حياه الله من أخ ومن خليفة ، فنعم الأخ ونعم الخليفة ، ونعم المجيء . فإذا هو برجل جالس ، فجاوزه فبكى الرجل ، فقال : يا جبريل ، من هذا ؟ قال : موسى . قال : فما باله يبكى ؟ قال : زعم بنو إسرائيل أنى أكرم بنى آدم على الله عز وجل ، وهذا رجل من بنى آدم قد خلفنى فى دنيا ،وأنا فى أخرى ، فلو أنه بنفسه لم أبال ، ولكن مع كل نبي أمته .

قال : ثم صَعد به إلى السماء السابعة فاستفتح ، فقيل له : من هذا ؟ قال : جبريل : قيل : ومن معك ؟ قال: محمد : قالوا: أو قد أرسل ؟ قال : نعم : قالوا : حياه الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجيء جاء : قال : فدخل ، فإذا هو برجل أشمط [(١)] جالس عند باب الجنة على كرسى ، وعنده قوم جلوس بيض الوجوه أمثال القراطيس[(٢)] ، وقوم فى ألوانهم شيء ، فقام هؤلاء الذين فى ألوانهم شيء فدخلوا نهراً فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خلص من ألوانهم شيء ، ثم دخلوا نهراً آخر فاغتسلوا فيه ، فخرجوا وقد خلص [من] ألوانهم [شيء ، ثم دخلوا نهراً آخر فاغتسلوا فيه ، فخرجوا وقد خلصت ألوانهم[(٣)]] فصارت مثل ألوان أصحابهم ، فجاءوا فجلسوا إلى أصحابهم ، فقال : يا جبريل ، من هذا الأشمط ؟ ثم من هؤلاء البيض الوجوه ؟ ومن هؤلاء الذين فى ألوانهم شيء ؟ وما هذه الأنهار التى دخلوا فيها فجاءوا وقد صَفَت ألوانهم ؟ قال : هذا أبوك إبراهيم، أول من شَمِطَ على الأرض .

(١) أى : أشيب ، والشمط — بفتحتين — : بياض الرأس يخالط سواده .

(٢) يشبه بالقرطاس فى بياضه ، ومنه قولهم : دابة قرطاسى ، إذا كان أبيض بياضاً لا يخالطه شية . ويقال للجارية البيضاء المديدة القامة : قرطاس .

(٣) ما بين القوسين من الطبعات السابقة وتفسير الطبرى ، على أن عبارة الطبرى : « فخرجوا وقد خلص من ألوانهم شيء ، فصارت ... » .

وأما هؤلاء البيض الوجوه فقوم لم يَلْبسوا إيمانهم بظلم . وأما هؤلاء الذين فى ألوانهم شىء ، فقوم خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً ، فتابوا فتاب الله عليهم . وأما الأنهار فأولها رحمة الله ، والثانى نعمة الله ، والثالث سقاهم ربهم شرابا طهوراً .

قال : ثم انتهى إلى السدرة فقيل له : هذه السِّدرة ينتهى إليها كل أحد خلا من أمتك على سنتك : فإذا هى شجرة يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفًّى ، وهى شجرة يسير الراكب فى ظلها سبعين عاما لا يقطعها ، والورقة منها مُغَطِّية للأمة كلها — قال : فغشيها نور الخلّاق عز وجل ، وغشيتها الملائكة أمثال الغربان حين يقعن على الشجرة ، قال : فكلمه تعالى عند ذلك ، قال له : سل . قال : إنك اتخذت إبراهيم خليلا ، وأعطيته ملكا عظيما ، وكلمت موسى تكليما ، وأعطيت داود ملكا عظيما ، وألنت له الحديد ، وسخرت له [الجبال ، وأعطيت سليمان ملكا ، وسخرت له الجن والإنس والشياطين ، وسخرت له (١)] الرياح ، وأعطيته ملكا عظيما لا ينبغى لأحد من بعده . وعلمت عيسى التوراة والإنجيل ، وجعلته يُبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى باذنك ، وأعذته وأمه من الشيطان الرجيم ، فلم يكن للشيطان عليهما سبيل . فقال له ربه عز وجل : وقد اتخذتك خليلا — وهو مكتوب فى التوراة : حبيب الرحمن — وأرسلتك إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً ، وشرحتُ لك صدرك ، ووضعت عنك وزرك . ورفعت لك ذكرك ، فلا أُذكر إلا ذُكرت معى ، وجعلت أمتك خير أمة أخرجت للناس ، وجعلت أمتك أمة وسطا ، وجعلت أمتك هم الأولين والآخرين ، وجعلت أمتك لا تجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدى ورسولى ، وجعلت من أمتك أقواما قلوبهم أناجيلهم ، وجعلتك أول النبيين خلقاً وآخرهم بعثاً ، وأولهم يقضى له . وأعطيتك سبعاً من المثانى لم يعطها نبى قبلك ، وأعطيتك خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم أعطها نبيا قبلك ، وأعطيتك الكوثر ، وأعطيتك ثمانية أسهم : الاسلام ، والهجرة ، والجهاد ، والصدقة ، والصلاة ، وصوم رمضان ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر . وجعلتك فاتحاً وخاتماً . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : فَضَّلنى ربى بست : أعطانى فواتح الكلام وخواتيمه ، وجوامع الحديث ، وأرسلنى إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً . وقذف فى قلوب عَدُوِّى الرعب من مسيرة شهر ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وجعلت لى الأرض كلها طهورا ومسجدا .

قال : وفرض عليه خمسين صلاة . فلما رجع إلى موسى قال : بم أمرت يا محمد ؟ قال : بخمسين صلاة . قال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فإن أمتك أضعف الأمم ، فقد لقيت من بنى إسرائيل شدة ، قال : فرجع النبى صلى الله عليه وسلم إلى ربه عز وجل فسأله التخفيف ، فوضع عنه عشراً . ثم رجع إلى موسى فقال : بكم أمرت ؟ قال : بأربعين . قال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فإن أمتك أضعف الأمم ، وقد لقيت من بنى إسرائيل شدة : قال : فرجع النبى صلى الله عليه وسلم إلى ربه فسأله التخفيف ، فوضع عنه عشرا . فرجع إلى موسى فقال : بكم أمرت ؟ قال : أمرت بثلاثين . فقال له موسى : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فإن أمتك أضعف الأمم ، وقد لقيت من بنى إسرائيل شدة . قال : فرجع إلى ربه فسأله التخفيف ، فوضع عنه عشراً . فرجع إلى موسى فقال : بكم أمرت ؟ قال : أمرت بعشرين .

---

(١) ما بين القوسين سقط من مخطوطة الأزهر ، أثبتناه من الطبعات السابقة .

قال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فإن أمتك أضعف الأمم ، وقد لقيت من بنى إسرائيل شدة . قال : فرجع إلى ربه فسأله التخفيف ، فوضع عنه عشرا . فرجع إلى موسى فقال : بكم أمرت ؟ قال : أمرت بعشر . قال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فإن أمتك أضعف الأمم ، وقد لقيتُ من بني إسرائيل شدة . قال : فرجع على حياء إلى ربه ، فسأله التخفيف فوضع عنه خمساً . فرجع إلى موسى فقال : بكم أمرت ؟ قال : بخمس . فقال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ؛ فإن أمتك أضعف الأمم ، وقد لقيتُ من بنى إسرائيل شدة ، قال : قد رجعت إلى ربى حتى استحييت ، فما أنا راجع إليه ، قيل : أما إنك كما صبّرت نفسك على خمس صلوات ، فإنهن يُجزين عنك خمسين صلاة ، فإن كل حسنة بعشر أمثالها ، قال : فرضى محمد صلى الله عليه وسلم كل الرضا . قال : وكان موسى عليه السلام من أشدّهم عليه حين مر به ، وخيرهم له حين رجع إليه(١) .

ثم رواه ابن جرير عن محمد بن عبيد الله ، عن أبى النضر هاشم بن القاسم ، عن أبى جعفر الرازى ، عن الربيع بن أنس ، عن أبى العالية أو غيره ــ شك أبو جعفر ــ عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فذكره بمعناه(٢) .

وقد رواه الحافظ أبو بكر البيهقى عن أبى سعيد المالينى ، عن ابن عدى ، عن محمد بن الحسن السكونى البالسى بالرملة ، حدثنا على بن سهل . . . فذكر مثل مارواه ابن جرير ، عنه . وذكر البيهقى أن الحاكم أبا عبد الله رواه عن إسماعيل بن محمد بن الفضل بن محمد الشعرانى ، عن جده ، عن إبراهيم بن حمزة الزبيرى ، عن حاتم بن إسماعيل ، حدثنى عيسى بن ماهان ــ يعنى أبا جعفر الرازى ــ عن الربيع بن أنس ، عن أبى العالية ، عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فذكره(٣) .

وقال ابن أبى حاتم : ذكر أبو زرعة ، حدثنا محمد بن عبد الله بن نمير ، حدثنا يونس بن بكير ، حدثنا عيسى بن عبد الله التميمى ــ يعنى أبا جعفر الرازى(٤) ــ عن الربيع بن أنس البكرى ، عن أبى العالية أو غيره ــ شك عيسى ــ عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : [قال] الله : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام) . . . فذكر الحديث بطوله كنحو مما سقناه .

قلت : « أبو جعفر الرازى» ، قال فيه الحافظ أبو زرعة . « الرازى يَهم فى الحديث كثيراً » . وقد ضعّفه غيره أيضاً ، ووثّقه(٥) بعضهم . والأظهر أنه سيء الحفظ ، ففيما تفرد به نظر . وهذا الحديث فى بعض ألفاظه غرابة ونكارة شديدة ، وفيه شيء من حديث المنام من رواية سَمُرة بن جُنْدَب فى المنام الطويل عند البخارى ، ويشبه أن يكون مجموعاً من أحاديث شتى ، أو منام وقصة أخرى غير الإسراء ، والله أعلم .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٥/٦ ــ ١٠ .
(٢) تفسير الطبرى : ١٥ / ١٠ .
(٣) دلائل النبوة ، مخطوط بدار الكتب برقم ٧٠١ حديث ، الجزء الثانى ، ورقة : ١٢٦ ــ ١٣٠ .
(٤) هو عيسى بن عبد الله بن ماهان التميمى أبو جعفر الرازى . ينظر ترجمته فى الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٣/١/٢٨٠ .
(٥) ينظر ترجمته فى ميزان الاعتدال للذهبى : ٣/٣١٩ ، ٣٢٠ .

وقد روى البخارى ومسلم فى الصحيحين من حديث عبد الرزاق : أنبأنا معمر ، عن الزهرى ، أخبرنى سعيد بن المسيب ، عن أبى هريرة قال : قال النبىّ صلى الله عليه وسلم حين أسرى به : لقيت موسى ، قال : فنَعَتَه ، فإذا رجل حسبته قال — : مضطرب ، رَجْلُ الرأس ، كأنه من رجال شنوءة قال : ولقيت عيسى — فنَعَته النبى صلى الله عليه وسلم — : ربعة أحمر ، كأنما خرج من ديماس — يعنى حَمّام — قال : و رأيت إبراهيم ، وأنا أشبه ولده به ، قال : وأتيت بإناءين فى أحدهما لبن وفى الآخر خمر ، قيل لى : خذ أيهما شئت . فأخذت اللبن فشربت ، فقيل لى : هُديت الفطرة — أو : أصبت الفطرةَ — أَمَا إنك لو أخذتَ الخمر غَوَت أمتك » . وأخرجاه من وجه آخر ، عن الزهرى ، به نحوه(١)

وفى صحيح مسلم ، عن محمد بن رافع (٢) ، عن حُجَين بن المثنى ، عن عبد العزيز بن أبى سلمة ، عن عبد الله بن الفضل الهاشمى ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد رأيتنى فى الحِجْر وقريش تسألنى عن مَسْرَاى ، فسألونى عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها(٣) ، فكُربت كَربا(٤) ما كُربتُ مثله قط . فرفعه الله لى أنظر إليه ، ماسألونى عن شىء إلا أنبأتهم به . وقد رأيتنى فى جماعة من الأنبياء وإذا موسى قائم يصلى ، وإذا رجل ضَرْب(٥) جَعْد كأنه من رجال شَنُوءة ، وإذا عيسى ابن مريم قائم يصلى أقربُ الناس به شبها عروةُ ابن مسعود الثقفى ، وإذا إبراهيم قائم يصلى أشبه الناس به صاحبكم — يعنى نفسه — فحانت الصلاة فأممتهم ، فلما فرغت قال قائل : يامحمد ، هذا مالك صاحب النار ، [فسلم عليه](٦) فالتفت إليه ، فبدأنى بالسلام (٧) » .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا حجاج بن منهال ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن على بن زيد ، عن أبى الصلت عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رأيت ليلة أسرىَ بى لما انتهينا إلى السماء السابعة ، فنظرت فوقُ فإذا رعد وبرق وصواعق — قال : وأتيت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيّات تُرَى من خارج بطونهم ، فقلت : من هؤلاء ياجبريل ؟ قال : هؤلاء أَكَلَةُ الربا . فلما نزلت إلى السماء الدنيا نظرت أسفل منى فإذا أنا برَهَج ودخان وأصوات ، فقلت : ماهذا ياجبريل ؟ قال : هذه الشياطين يُحوّمون على أعين بنى آدم أن لايتفكروا فى ملكوت السموات والأرض ، ولولا ذلك لرأوا العجائب » .

ورواه الإمام أحمد عن حسن وعفان ، كلاهما عن حماد بن سلمة (٨) ، به . ورواه ابن ماجه من حديث حماد ، به .

* * *

---

(١) تقدم الحديث عند الآية ١٥٩ من سورة النساء ، ينظر : ٢/٤١٨ . وخرجناه هنالك وشرحنا غريبه .

(٢) كذا فى مخطوطة الأزهر ، وفى صحيح مسلم : « زهير بن حرب » ، مكان « محمد بن رافع » . والذى فى التهذيب ٩/١٦١ ، ٢/٢١٦ أن محمد بن رافع يروى عن حجين بن المثنى . فالله أعلم .

(٣) أى : لم أحفظها ولم أضبطها ، لانشغالى بأمر منها .

(٤) لفظ مسلم : « فكربت كربة » .

(٥) الضرب من الرجال — بفتح فسكون — : الخفيف اللحم الممشوق .

(٦) ما بين القوسين عند مسلم .

(٧) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب « فى ذكر المسيح ابن مريم والمسيح الدجال » : ١/١٠٨ ، ١٠٩ .

(٨) تقدم حديث الإمام أحمد عند تفسير الآية ١٨٥ من سورة الأعراف ، ٣/٥١٩ ، وشرح غريبه هنالك . وقال ابن كثير معقبا : « على بن زيد بن جدعان : له منكرات » . وأما حديث ابن ماجه فهو فى كتاب التجارات ، باب « التغليظ فى الربا » ، الحديث ٢٢٧٣ : ٢/٧٦٣ .

رواية جماعة من الصحابة ممن تقدم وغيرهم، قال الحافظ البيهقي : أخبرنا أبو عبدالله، يعني الحاكم ، أخبرنا عبدان بن يزيد بن يعقوب الدقاق بهمذان ، حدثنا إبراهيم بن الحسين الهمذاني ، حدثنا أبو محمد هو إسماعيل بن موسى الفزاري — حدثنا عُمَر بن سعد النَّصْري ، من بني نَصْر بن قُعَين ، حدثني عبد العزيز ، وليث بن أبي سليم وسليمان الأعمش ، وعطاء بن السائب — بعضهم يزيد في الحديث على بعض — عن علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس — ومحمد بن إسحاق ابن يسار ، عمن حدثه عن ابن عباس — وعن سليم بن[1] مسلم العقيلي ، عن عامر الشعبي ، عن عبد الله بن مسعود — وجويبر ، عن الضحاك بن مزاحم قالوا : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت أم هانيء راقداً ، وقد صلى العشاء الآخرة — قال أبو عبد الله الحاكم : قال لنا هذا الشيخ . . . وذكر الحديث ، فكتب المتن من نسخة مسموعة منه ، فذكر حديثا طويلا ، يذكر فيه عدد الدرج والملائكة وغير ذلك مما لاينكر شيء منها في قدرة الله إن صحت الرواية .

قال البيهقي : فيما ذكرنا قبل في حديث أبي هارون العبدي في إثبات الإسراء والمعراج كفاية ، وبالله التوفيق[2]

قلت : وقد أرسل هذا الحديث غير واحد من التابعين وأئمة المفسرين ، رحمة الله عليهم أجمعين

* * *

رواية عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، قال البيهقي : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، أخبرني مكرم[3] بن أحمد القاضي ، حدثنا إبراهيم بن الهيثم البلدي[4] ، حدثنا محمد بن كثير الصنعاني ، حدثنا معمر بن راشد ، عن الزهري ، عن عروة ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : لما أسري بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الأقصى ، أصبح يُحَدِّث الناس بذلك ، فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه ، وسعَوا بذلك إلى أبي بكر ، فقالوا : هل لك في صاحبك ؟ يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس ! فقال : أو قال ذلك ؟ قالوا : نعم . قال : لئن كان قال ذلك ، لقد صدق ، قالوا : تصدقه أنه ذهب [الليلة] إلى بيت المقدس ، وجاء قبل أن يصبح ؟ . قال : نعم ، إني لأصدقه بما هو أبعد من ذلك ، أصدقه بخبر السماء في غَدْوة أو رَوْحة . فلذلك سمي أبو بكر : الصديق ، رضي الله عنه[5] .

* * *

رواية أم هانيء بنت أبي طالب رضي الله عنها ، قال محمد بن إسحاق : حدثني محمد بن السائب[6] الكلبي ، عن أبي صالح باذان[7] ، عن أم هانيء بنت أبي طالب في مَسْرَى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها كانت تقول : ما أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وهو في بيتي ، نائم عندي تلك الليلة ، فصلى العشاء الآخرة ثم نام ونمنا ، فلما كان قبيل الفجر أهبَّنا[8] رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما صلى الصبح وصلينا معه قال : ياأم هانيء ، لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادي ، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه ، ثم صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين[9] .

---

(١) في الدلائل : « وعن سليم أو مسلم » .
(٢) دلائل النبوة للبيهقي ، مخطوط بدار الكتب رقم ٧٠١ حديث ، الجزء الثاني ، ورقة : ١٣٠ ، ١٣١ .
(٣) في الدلائل : « أخبرني أبو مكرم » . ولم نجد له ترجمة .
(٤) في المخطوطة : « إبراهيم بن الهيثم البكري » . والصواب عن الدلائل واللباب : ١٤١/١ .
(٥) دلائل النبوة للبيهقي ، الجزء الثاني ، ورقة : ١٠٦ .
(٦) في المخطوطة : « حدثني محمد بن محمد السائب » . وهو خطأ . ينظر ترجمة « محمد بن السائب » في التهذيب ١٧٨/٩ .
(٧) يقال « باذام » ، و « باذان » ، بالنون والميم . ينظر التهذيب ٤١٦/١ .
(٨) أي : أيقظنا .
(٩) سيرة ابن هشام : ٤٠٢/١ . وتفسير الطبري : ٣/١٥ .

الكلبي : متروك بمرة ساقط ـ لكن رواه أبو يعلى فى مسنده عن محمد بن إسماعيل الأنصارى، عن ضَمْرَة بن ربيعة ، عن يحيى بن أبى عمرو السَّيبانى ، عن أبى صالح ، عن أم هانىء بأبسط من هذا السياق، فليكتب هاهنا — وروى الحافظ أبو القاسم الطبرانى من حديث عبد الأعلى بن أبى المُساور ، عن عكرمة ، عن أم هانىء قالت : بات رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرىَ به فى بيتى ، فَفَقَدته من الليل، فامتنعَ منى النوم مخافة أن يكون عرّض له بعضُ قريش ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن جبريل عليه السلام أتانى فأخذ بيدى فأخرجنى ، فإذا على الباب [دابة] دون البغل وفوق الحمار ، فحملنى عليها ثم انطلق حتى انتهى بى إلى بيت المقدس ، فأرانى إبراهيم يشبه خَلْقُه خَلْقِى ، ويشبه خَلقى خلقَه ، وأرانى موسى آدم طويلا سَبْط الشعر ، شبهته برجال أَزْد شنوءة(١) ـ وأرانى عيسى ابن مريم رَبْعة أبيض يضْربُ إلى الحمرة ، شبهته بعُروة بن مسعود الثقفى ـ وأرانى الدجال ممسوح العين اليمنى ، شبهته بقَطَن بن عبد العزى — قال : وأنا أريد أنا أخرج إلى قريش ، فأخبرهم بما رأيت ـ فأخذتُ بثوبه فقلت : إنى أذكِّرك الله، إنك تأتى قوماً يكذبونك وينكرون مقالتك ، فأخاف أن يَسْطُوا بك ـ قالت : فضرب ثوبه من يدى ، ثم خرج إليهم فأتاهم وهم جلوس، فأخبرهم ماأخبرنى . فقام جُبَيْر(٢) بن مُطعِم فقال: يامحمد: لوكنت شاباً كما كنت، ماتكلمت بما تكلمت به وأنت بين ظهرانينا ـ فقال رجل من القوم : يامحمد ، هل مررت بإبل لنا فى مكان كذا وكذا ؟ قال : نعم ، والله قد وجدتهم أضلّوا بعيرا لهم ، فهم فى طَلَبه ـ قال : فهل مررت بإبل لبنى فلان ؟ قال : نعم ، وجدتهم فى مكان كذا وكذا ، وقد انكسرت لهم ناقة حمراء ، وعندهم قصعة من ماء ، فشربتُ مافيها ـ قالوا : فأخبرنا عِدّتها وما فيها من الرعاة [قال : قدكنت عن عدتها مشغولا ـ فنام فأُتِىَ بالإبل فعدها وعلم مافيها من الرعاة(٣)] ـ ثم أتى قريشاً فقال لهم : سألتمونى عن إبل بنى فلان ، فهى كذا وكذا ، وفيها من الرعاة فلان وفلان ـ وسألتمونى عن إبل بنى فلان ، فهى كذا وكذا ، وفيها من الرعاة ابن أبى قحافة وفلان وفلان ، وهى مُصَبِّحتكم من الغداة على الثنية ـ قال : فقعدوا على الثنية ينظرون أصَدَقهم ما قال ؟ فاستقبلوا الإبل فسألوهم : هل ضل لكم بعير؟ قالوا: نعم ـ فسألوا الآخر : هل انكسرت لكم ناقة حمراء؟ قالوا : نعم . قالوا : فهل كان عندكم قصعة؟ قال أبو بكر : أنا والله وضعتها فما شربها أحد ، ولا أهراقوه فى الأرض . فصدقه أبو بكر وآمن به ، فسمى يومئذ الصديق(٤) .

فصل

وإذا حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث صحيحها وحسنها وضعيفها ، يحصل مضمون مااتفقت عليه من مَسْرَى رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس ، وأنه مرة واحدة ، وإن اختلفت عبارات الرواة فى أدائه ، أو زاد بعضهم أو نقص منه ، فإن الخطأ جائز على من عدا الأنبياء عليهم السلام ـ ومن جعل من الناس كلّ رواية خالفت الأخرى مرة على حدة ، فأثبت إسراءات متعددة ، فقد أبعد وأغرب . وهرب إلى غير مَهْرَب ، ولم يحصل على مطلب ،

(١) فقد كانوا طوالا .

(٢) الذى فى الخصائص الكبرى للسيوطى أنه : مطعم بن عدى .

(٣) ما بين القوسين سقط من مخطوطة الأزهر ، أثبتناه من الخصائص الكبرى للسيوطى .

(٤) الخصائص الكبرى للسيوطى : ٤٣٩/١ — ٤٤١ ، وفى هذا الأثر مخالفات كثيرة .

وقد صرح بعضهم من المتأخرين بأنه عليه السلام أسرىَ به مرة من مكة إلى بيت المقدس فقط ، ومرة من مكة إلى السماء فقط ، ومرة إلى بيت المقدس ومنه إلى السماء : وفرحَ بهذا المسلك ، وأنه قد ظفر بشيء يخلص به من الإشكالات . وهذا بعيد جدا ، ولم ينقل هذا عن أحد من السلف ، ولو تعدد هذا التعدد لأخبر النبي صلى الله عليه وسلم به أمته ، ولنقلته الناس على التعدد والتكرر .

قال موسى بن عقبة ، عن الزهرى : كان الإسراء قبل الهجرة بسنة : وكذا قال عروة .

وقال السدى : بستة عشر شهرا

والحق أنه عليه السلام أسرى به يقظة لامناما من مكة إلى بيت المقدس ، راكباً البراق ، فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند الباب ، ودخله فصلى فى قبلته تحيةَ المسجد ركعتين . ثم أتى المعراج ــ وهو كالسلم ذو دَرَج يرقى فيها ــ فَصَعَدَ فيه إلى السماء الدنيا ، ثم إلى بقية السموات السبع ، فتلقاه من كل سماء مقرّبوها ، وسلم عليه الأنبياء الذين فى السموات بحسب منازلهم ودرجاتهم ، حتى مرّ بموسى الكليم فى السادسة ، وإبراهيم الخليل فى السابعة ، ثم جاوز منزلتهما صلى الله عليه وسلم وعليهما وعلى سائر الأنبياء ، حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صَرِيفَ الأقلام ، أى : أقلام القَدَر بما هو كائن ، ورأى سدرة المنتهى وغَشيها من أمر الله تعالى عظمة عظيمة ، من فَرَاش من ذَهَب ، وألوان متعددة ، وغشيتها الملائكة ، ورأى هنالك جبريل على صورته ، له ستمائة جناح ، ورأى رفرفاً أخضر قد سد الأفق . ورأى البيت المعمور ، وإبراهيم الخليل بانى الكعبة الأرضية مسندا ظهره إليه ، لأنه الكعبة السماوية يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة يتعبدون فيه ، ثم لايعودون إليه إلى يوم القيامة : ورأى الجنة والنار ، وفرض الله عليه هنالك الصلوات خمسين ، ثم خففها إلى خمس ، رحمة منه ولطفاً بعباده : وفى هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها . ثم هبط إلى البيت المقدس ، وهبط معه الأنبياء فصلى بهم فيه لما حانت الصلاة ، ويحتمل أنها الصبح من يومئذ : ومن الناس من يزعم أنه أمّهم فى السماء : والذى تظاهرت به الروايات أنه بيت المقدس ، ولكن فى بعضها أنه كان أول دخوله إليه : والظاهر أنه بعد رجوعه إليه ، لأنه لما مرّ بهم فى منازلهم جعل يسأل عنهم جبريل واحداً واحداً ، وهو يخبره بهم ، وهذا هو اللائق لأنه كان أولا مطلوبا إلى الجناب العلوى ، ليفرض عليه وعلى [أمته] مايشاء الله تعالى : ثم لما فرغ من الذى أريد به ، اجتمع هو وإخوانه من النبيين ، ثم أظهر شرفه وفضله عليهم بتقديمه فى الإمامة ، وذلك عن إشارة جبريل عليه السلام له فى ذلك . ثم خرج من بيت المقدس فركِبَ البُرَاق وعاد إلى مكة بغَلَس ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وأما عرض الآنية عليه من اللبن والعسل ، أو اللبن والخمر ، أو اللبن والماء ، أو الجميع ــ فقد ورد أنه فى البيت المقدس ، وجاء أنه فى السماء : ويحتمل أن يكون هاهنا وهاهنا ، لأنه كالضيافة للقادم ، والله أعلم .

ثم اختلف الناس : هل كان الاسراء ببدنه عليه السلام وروحه ؟ أو بروحه فقط ؟ على قولين ، فالأكثرون من العلماء على أنه أسرى ببدنه وروحه يقظةً لا مناما ، ولا يُنْكر أن يكونَ رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى قبل ذلك مناما ، ثم رآه بعده يقظة ؛ لأنه عليه السلام كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ؛ والدليل على هذا قوله : (سبحان الذى أسرى بعبده) ؛ فالتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام ، ولو كان مناما لم يكن فيه كبير شيء ولم يكن مستعظما ، ولما بادرت كفارُ قريش إلى تكذيبه ، ولما ارتد جماعة ممن كان قد أسلم : وأيضا فإن العبد عبارة

عن مجموع الروح والجسد ، وقد قال : (أسرى بعبده ليلا) ، وقد قال تعالى : (وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس (١)) — قال ابن عباس : هى رؤيا عين ، أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم . رواه (٢) البخارى ، وقال تعالى : (مازاغ البصر وماطغى (٣)) ، والبصر من آلات الذات لا الروح . وأيضا فإنه حمل على البراق ، وهو دابة بيضاء برّاقة لها لمعان ، وإنما يكون هذا للبدن لا للروح ، لأنها لا تحتاج فى حركتها إلى مركب تركب عليه ، والله أعلم .

وقال آخرون : بل أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم بروحه لا بجسده — قال محمد بن إسحاق بن يسار فى السيرة : حدثنى يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس : أن معاوية بن أبى سفيان كان إذا سُئِل عن مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : كانت رؤيا من الله صادقة .

وحدثنى بعض آل أبى بكر أن عائشة كانت تقول : مافُقِد جسدُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن أسرى بروحه .

قال ابن إسحاق : فلم يُنْكَر ذلك من قولها ، لقول الحسن : إن هذه الآية نزلت (وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس) ، ولقول الله فى الخبر عن إبراهيم : (إنى أرى فى المنام أنى أذبحك ، فانظر ماذا ترى) ، ثم مضى على ذلك . فعرفت أن الوحى يأتى للأنبياء من الله أيقاظا ونياما .

فكان (٤) رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « تنام عيناى ، وقلبى يقظان » : فالله أعلم أىّ ذلك كان قد جاءه ، وعاين فيه من الله ما عاين ، على أىّ حالاته كان ، نائما أو يقظان ، كلّ ذلك حق وصدق : انتهى كلام ابن إسحاق (٥) .

وقد تعقبه أبو جعفر بن جرير فى تفسيره بالرد والانكار والتشنيع ، بأن هذا خلاف ظاهر سياق القرآن ، وذكر من الأدلة على رده بعض ما تقدم (٦) ، والله أعلم .

فائدة حسنة جليلة

روى الحافظ أبو نُعيم الأصبهانى فى كتاب « دلائل النبوة (٧) » ، من طريق محمد بن عمر الواقدى : حدثنى مالك بن أبى الرجال ، عن عمرو بن عبد الله [عن ، محمد] بن كعب القرظى ، قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم دحيةَ بن خليفة إلى قيصر — فذكر وروده عليه وقدومه إليه ، وفى السياق دلالة عظيمة على وُفُور عقل هرقل — ثم استدعى من بالشام من التجار ، فجىء بأبى سفيان صخر بن حرب وأصحابه ، فسألهم عن تلك المسائل المشهورة التى رواها البخارى ومسلم ، كما سيأتى بيانه ، وجعل أبو سفيان يجتهد أن يحقرَ أمره ويُصَغِّره عنده — قال فى هذا السياق ، عن أبى سفيان : والله ما منعنى أن أقول عليه قولا أسقطهُ من عينه إلا أنى أكره أن أكذبَ عنده كذبةً يأخذها على ،

---

(١) سورة الإسراء ، آية : ٦٠ .
(٢) البخارى ، تفسير سورة الإسراء : ٦/١٠٧ ، ١٠٨ .
(٣) سورة النجم ، آية : ١٧ .
(٤) هذا من كلام ابن إسحاق . وانتهى قبله أثر الحسن .
(٥) سيرة ابن هشام : ١/٣٩٩ ، ٤٠٠ . وتفسير الطبرى : ١٥/١٣ .
(٦) تفسير الطبرى : ١٥/١٣ ، ١٤ .
(٧) لم نجد هذا الأثر فى طبعة حيدر أباد ، ولعله مما سقط فى هذه الطبعة ، والله أعلم .

ولا يصدقني بشيء ؛ قال : حتى ذكرت قوله ليلة أسرى به ، قال : فقلت : أيها الملك ، ألا أخبرك خبراً تعرف أنه قد كذب ؟ قال : وما هو ؟ قال : قلت : إنه يزعم لنا أنه خرج من أرضنا أرض الحرم في ليلة ، فجاء بمسجدكم هذا مسجد إيلياء ، ورجع إلينا تلك الليلة قبل الصباح ؛ قال : وبطريق إيلياء عند رأس قيصر ؟ فقال : بطريق إيلياء ، قد علمت تلك الليلة ؟ قال : فنظر قيصر وقال : وما علمك بهذا ؟ قال : إني كنت لا أنام ليلة حتى أغلق أبواب المسجد ، فلما كان تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلبني ، فاستعنت عليه بعمالي ومن يحضرني كلهم فعالجته فغلبني ، فلم نستطع أن نحركه ، كأنما نزاول به جبلا . فدعوتُ إليه النجاجرة فنظروا إليه [فقالوا] : إن هذا باب سقط عليه النِّجاف(١) والبنيان ، ولا نستطيع أن نحركه حتى نصبح فننظر من أين أُتي : قال : فرجعت وتركت البابين مفتوحين ؛ فلما أصبحت غدوتُ عليهما ، فإذا الحجر الذي في زاوية (٢) المسجد مثقوب ، وإذا فيه أثر مربط الدابة ـ قال فقلت لأصحابي : ما حبس هذا الباب الليلة إلا على نبي ، وقد صلى (٣) الليلة في مسجدنا ... وذكر تمام الحديث

فائدة

قال الحافظ أبو الخطاب عمر بن دحية في كتابه : « التنوير في مولد السراج المنير » ـ وقد ذكر حديث الاسراء من طريق أنس ، وتكلم عليه فأجاد وأفاد ـ ثم قال : وقد تواترت الروايات في حديث الإسراء عن عمر بن الخطاب ، وعلي ، وابن مسعود ، وأبي ذر ، ومالك بن صعصعة ، وأبي هريرة ، وأبي سعيد ، وابن عباس ، وشداد بن أوس ، وأبي بن كعب ، وعبد الرحمن بن قُرْط ، وأبي حَبَّة وأبي ليلى الأنصاريين ، وعبد الله بن عمرو ، وجابر ، وحذيفة ، وبريدة ، وأبي أيوب ، وأبي أمامة ، وسمُرة بن جندب ، وأبي الحمراء ، وصهيب الرومي ، وأم هانىء ، وعائشة وأسماء ابنتي أبي بكر الصديق ، رضي الله عنهم أجمعين ؛ منهم من ساقه بطوله ، ومنهم من اختصره على ما وقع في المسانيد ، وإن لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحة ، فحديث الاسراء أجمع عليه المسلمون ، واعترض فيه الزنادقة الملحدون ؛ (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ، ولو كره الكافرون) .

وَءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾

لما ذكر تعالى أنه أسرى بعبده محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ عطف بذكر موسى عبده وكليمه أيضاً ؛ فإنه تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد عليهما السلام ، وبين ذكر التوراة والقرآن ، ولهذا قال بعد ذكر الإسراء : (وآتينا موسى الكتاب) ، يعني التوراة ، (وجعلناه) ، أي : الكتاب (هدى) ، أي : هادياً (لبني إسرائيل ، ألا يتخذوا (٤)) أي : لئلا يتخذوا ، (من دوني وكيلا) ، أي : وليا ولا نصيراً ولا معبوداً دوني ؛ لأن الله تعالى أنزل على كل نبي أرسله أن يعبده وحده لا شريك له .

---

(١) النجاف ـ بكسر النون ـ : أسكفه الباب ، وهي عتبته . والنجاف أيضا : أعلى الباب . وهو المقصود هنا .

(٢) في المخطوطة : « الذي من ورائه المسجد » . والمثبت من الطبعات السابقة .

(٣) في المخطوطة : « وقد وصل الليلة » . والمثبت أيضاً من الطبعات السابقة .

(٤) كذا في مخطوطة الأزهر : (يتخذوا) ، بالياء . يقول أبو حيان في البحر المحيط ٧/٦ : « وقرأ ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وعيسى ، وأبو رجاء ، وأبو عمرو من السبعة : (يتخذوا) ، بالياء على الغيبة ، وباقي السبعة بتاء الخطاب » .

ثم قال : (ذرية من حملنا مع نوح)، تقديره: ياذرية من حملنا مع نوح : فيه تهييج وتنبيه على المنة ، أى : يا سلالة من نجينا فحملنا مع نوح فى السفينة ، تشبهوا بأبيكم ، (إنه كان عبدا شكوراً) ، فاذكروا أنتم نعمتى عليكم بارسالى إليكم محمداً صلى الله عليه وسلم . وقد ورد فى الحديث وفى الأثر عن السلف : أن نوحاً عليه السلام كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله ، فلهذا سمى عبداً شكوراً .

قال الطبرانى : حدثنا على بن عبد العزيز ، حدثنا أبو نعيم ، حدثنا سفيان ، عن أبى حصين ، عن عبد الله بن سنان ، عن سعد بن مسعود الثقفى قال : إنما سمى نوح عبداً شكوراً ، لأنه كان إذا أكل أو شرب حمد الله

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا أبو أسامة ، حدثنا زكريا بن أبى زائدة ، عن سعيد بن أبى بردة ، عن أنس ابن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة ، فيحمد الله عليها (١) » .

وهكذا رواه مسلم ، والترمذى ، والنسائى ، من طريق أبى أسامة ، به (٢) .

وقال مالك ، عن زيد بن أسلم : كان يحمد الله على كل حال .

وقد ذكر البخارى هنا حديث أبى زرعة ، عن أبى هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أنا سيد الناس يوم القيامة — بطوله ، وفيه — : فيأتون نوحا فيقولون : يا نوح ، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ، وقد سماك الله عبدا شكورا ، اشفع لنا إلى ربك ... » وذكر الحديث بكماله (٣) .

وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾

يقول تعالى : إنه قضى إلى بنى إسرائيل فى الكتاب ، أى : تقدم إليهم وأخبرهم فى الكتاب الذى أنزله عليهم : أنهم سيفسدون فى الأرض مرتين ويعلون علوا كبيرا ، أى : يتجبرون ويطغون ويفجرون على الناس ، كما قال تعالى : (وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين(٤)) : أى : تقدمنا إليه وأخبرناه بذلك ، وأعلمناه به ،

---

(١) مسند الإمام أحمد : ١١٧/٣ .

(٢) مسلم ، كتاب الذكر ، باب « استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب » : ٨٧/٨ . وتحفة الأحوذى ، أبواب الأطعمة ، باب « فى الحمد على الطعام إذا فرغ منه » ، الحديث ١٨٧٦ : ٥/٥٣٦ — ٥٣٧ ، وقال الترمذى : « هذا حديث حسن » .

(٣) البخارى ، كتاب التفسير ، تفسير سورة بنى إسرائيل : ١٠٥/٦ ، ١٠٦ ، وكتاب الأنبياء ، باب قول الله تعالى : (إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه ...) : ١٦٣/٤ ، ١٦٤ .

(٤) سورة الحجر ، آية : ٦٦ .

وقوله : (فإذا جاء وعد أولاهما) ، أى : أولى الإفسادتين ، (بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد) ، أى : سلطنا عليكم جندا من خلقنا أولى بأس شديد ، أى : قوة وعُدّة وسلطة شديدة ، (فجاسوا خلال الديار) ، أى : تملكوا بلادكم وسلكوا خلال بيوتكم ، أى : بينها ووسطها ، وانصرفوا ذاهبين وجائين ، لا يخافون أحدا ، (وكان وعدا مفعولا) .

وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف فى هؤلاء المسلطين عليهم : من هم ؟ فعن ابن عباس وقتادة : أنه جالوت الجزَرىّ وجنوده ، سُلّط عليهم أولا ، ثم أديلوا عليه بعد ذلك ، وقتل داود جالوت ، ولهذا قال : (ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا (١)) .

وعن سعيد بن جُبير : أنه ملك الموصل سنجاريب وجنوده . وعنه أيضاً ، وعن غيره : أنه بختنصر ملك بابل .

وقد ذكر ابن أبى حاتم له قصة عجيبة فى كيفية ترَقّيه من حال إلى حال ، إلى أن ملك البلاد ، وأنه كان فقيرا مُقعَداً ضعيفاً يستعطى الناس ويستطعمهم ، ثم آل به الحال إلى ما آل ، وأنه سار إلى بلاد بيت المقدس ، فقتل بها خلقا كثيرا من بنى إسرائيل .

وقد روى ابن جرير فى هذا المكان حديثا أسنده عن حذيفة مرفوعا مطولا (٢) ، وهو حديث موضوع لا محالة ، لا يستريب فى ذلك من عنده أدنى معرفة بالحديث !! والعَجَب كلّ العجب كيف راج عليه مع إمامته وجلالة قدره ! وقد صرّح شيخنا الحافظ العلامة أبو الحجاج المزّى رحمه الله بأنه موضوع مكذوب ، وكتب ذلك على حاشية الكتاب .

وقد وردت فى هذا آثار كثيرة إسرائيلية لم أر تطويل الكتاب بذكرها ، لأن منها ماهو موضوع ، من وضع زنادقتهم ، ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحا ، ونحن فى غُنية عنها ، ولله الحمد . وفيما قص الله تعالى علينا فى كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله ، ولم يُحوجْنا الله ولا رسوله إليهم . وقد أخبر الله تعالى أنهم لما بغوا وطغوا سلط عليهم عدوهم ، فاستباح بَيْضَتَهم ، وسلك خلال بيوتهم وأذلهم وقهرهم ، جزاء وفاقا ، وما ربك بظلام للعبيد ، فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقا من الأنبياء والعلماء .

وقد روى ابن جرير : حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرنى سليمان بن بلال ، عن يحيى ابن سعيد قال : سمعت سعيد بن المسيب يقول : ظهر بُختَنَصّر على الشام ، فخرب بيت المقدس وقتلهم . ثم أتى دمشق فوجد بها دما يغلى على كِبأ (٣) ، فسألهم : ماهذا الدم ؟ فقالوا : أدركنا آباءنا على هذا ، وكلما ظهر عليه الكِبا ظهر . قال : فقتَل على ذلك الدم سبعين ألفا من المسلمين (٤) وغيرهم ، فسكن .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٥/٢٢ .
(٢) تفسير الطبرى : ١٥/١٧ – ١٨ .
(٣) الكبا – بكسر الكاف – : الكناسة ، وجمعه أكباء .
(٤) يعنى بالمسلمين هنا : مؤمنى اليهود .

وهذا صحيح إلى سعيد بن المسيب ، وهذا هو المشهور ، وأنه قتل أشرافهم وعلماءهم ، حتى إنه لم يبق [من] يحفظ التوراة ، وأخذ معه خلقا منهم أسرى من أبناء الأنبياء وغيرهم ، وجرت أمور وكوائن يطول ذكرها . ولو وجدنا ماهو صحيح أوما يقاربه ، لجاز كتابته وروايته ، والله أعلم .

ثم قال تعالى : (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها) ، أى : فعليها . كما قال تعالى : (من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها (١)) .

وقوله : (فاذا جاء وعد الآخرة) ، أى : المرة الآخرة ، أى : إذا أفسدتم المرة الثانية وجاء أعداؤكم ، (ليسوءوا وجوهكم) ، أى : يهينوكم ويقهروكم ، (وليدخلوا المسجد) ، أى : بيت المقدس ، (كما دخلوه أول مرة) ، أى : فى التى جاسوا فيها خلال الديار ، (وليتبروا) ، أى : يدمروا ويخربوا (ما علوا) ، أى : ما ظهروا عليه (تتبيرا . عسى ربكم أن يرحمكم) ، أى : فيصرفهم عنكم ، (وإن عدتم عدنا) ، أى : متى عدتم إلى الإفساد (عدنا) إلى الإدالة عليكم فى الدنيا ، مع ماندخره لكم فى الآخرة من العذاب والنكال ، ولهذا قال : (وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا) ، أى : مستقرا ومَحْصَراً وسجنا لا مَحيدَ لهم عنه .

قال ابن عباس : (حصيرا) ، أى : سجناً .

وقال مجاهد : يحصرون فيها . وكذا قال غيره .

وقال الحسن : فراش ومهادٌ .

وقال قتادة : قد عاد بنو إسرائيل ، فسلط الله عليهم هذا الحى ، محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، يأخذون منهم الجزية عن يد وهم صاغرون (٢) .

إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾

يمدح تعالى كتابه العزيز الذى أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو القرآن ، بأنه يهدى لأقوم الطرق وأوضح السبل ، (ويبشر المؤمنين) به ، (الذين يعملون الصالحات) على مقتضاه ، (أن لهم أجرا كبيرا) ، أى : يوم القيامة ، (وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة) ، أى : ويبشر الذين لا يؤمنون بالآخرة أن (لهم عذابا أليما) ، أى : يوم القيامة ، كما قال تعالى : (فبشرهم بعذاب أليم (٣)) .

وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾

يخبر تعالى عن عَجلَة الإنسان ، ودعائه فى بعض الأحيان على نفسه أو ولده أو ماله (بالشر) ، أى : بالموت أو الهلاك والدمار واللعنة ونحو ذلك ، فلو استجاب له ربه لهلك بدعائه ، كما قال تعالى : (ولو يعجل الله للناس الشر

(١) سورة فصلت ، آية : ٤٦ .
(٢) ينظر هذه الآثار جميعاً فى تفسير الطبرى : ١٥/٣٥ — ٣٦ .
(٣) سورة آل عمران ، آية : ٢١ .

استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم (١)) ، وكذا فسره ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة : وقد تقدم فى هذا الحديثُ : « لا تدعوا على أنفسكم ولا على أموالكم ، أن توافقوا من الله ساعة إجابة يستجيب فيها (٢) » .

وإنما يحمل ابن آدم على ذلك عجلته وقلقه ، ولهذا قال تعالى : (وكان الإنسان عجولا) .

وقد ذكر سلمان الفارسى وابن عباس رضى الله عنهما هاهنا قصة آدم عليه السلام ، حين همّ بالنهوض قائما قبل أن تَصِل الروح إلى رجليه ، وذلك أنه جاءته النفخة من قبل رأسه ، فلما وصلت إلى دماغه عَطَس ، فقال : الحمد لله . فقال الله : يرحمك ربُّك يا آدم : فلما وصلت إلى عينيه فَتَحَهما ، فلما سرت إلى أعضائه وجسده جعل ينظر إليه ويعجبه ، فهمّ بالنهوض قبل أن تصل إلى رجليه فلم يستطع ، وقال : يا رب ، عَجِّل قبل الليل(٣) .

وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾

يمتن تعالى على خلقه بآياته العظام ، فمنها مخالفته بين الليل والنهار ؛ ليسكنوا فى الليل وينتشروا فى النهار ، للمعايش والصناعات والأعمال والأسفار ، وليعلموا عدد الأيام والجمع والشهور والأعوام ، ويعرفوا مُضىّ الآجال المضروبة للديون والعبادات والمعاملات والإجارات وغير ذلك ، ولهذا قال : (لتبتغوا فضلا من ربكم) ، أى : فى معايشكم وأسفاركم ونحو ذلك ، (ولتعلموا عدد السنين والحساب) ، فإنه لو كان الزمان كلّه نسقا واحداً وأسلوباً متساوياً ، لما عُرِف شىء من ذلك ، كما قال تعالى : (قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء ؟ أفلا تسمعون • قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه؟ أفلا تبصرون • ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون (٤)) ، وقال تعالى : (تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجاً وقمرا منيرا . وهو الذى جعل الليل والنهار خلفةً لمن أراد أن يذّكّر أو أراد شكورا (٥)) ؛ وقال تعالى : (وله اختلاف الليل والنهار (٦)) ، وقال : (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ، وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار (٧)) . وقال تعالى : (فالق الإصباح وجاعل (٨) الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ، ذلك تقدير العزيز العليم (٩)) ، وقال تعالى : (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ؛ والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم (١٠)) .

---

(١) سورة يونس ، آية : ١١ .
(٢) تقدم هذا الحديث عند الآية ١١ من سورة يونس : ٤/١٨٨ ، وخرجناه هنالك .
(٣) تفسير الطبرى : ١٥/٣٧ ، ٣٨ .
(٤) سورة القصص ، الآيات : ٧١ — ٧٣ .
(٥) سورة الفرقان ، آية : ٦١ ، ٦٢ .
(٦) سورة « المؤمنون » ، آية : ٨٠ .
(٧) سورة الزمر ، آية : ٥ .
(٨) كذا فى مخطوطة الأزهر ، وهى قراءة واردة نبهنا عليها فى سورة الأنعام : ٣/٢٩٧ .
(٩) سورة الأنعام ، آية : ٩٦ .
(١٠) سورة يس ، آية : ٣٧ ، ٣٨ .

ثم إنه تعالى جعل لليل آية ، أى : علامة يعرف بها ، وهى الظلام وظهور القمر فيه ، وللنهار علامة ، وهى النور وظهور الشمس النيرة فيه ، وفاوت بين ضياء القمر وبرهان الشمس ليعرف هذا من هذا ، كما قال تعالى : (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا ، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك إلا بالحق) ، إلى قوله : (لآيات لقوم يتقون(١)) ، كما قال تعالى : (يسألونك عن الأهلة ، قل : هى مواقيت للناس والحج(٢)) ..... الآية .

قال ابن جريج ، عن عبد الله بن كثير فى قوله : (فمحونا آية الليل ، وجعلنا آية النهار مبصرة) ، قال : ظلمة الليل وسُدْفَة (٣) النهار .

وقال ابن جريج ، عن مجاهد : الشمس آية النهار ، والقمر آية الليل — (فمحونا آية الليل) ، قال : السواد الذى فى القمر ، وكذلك خلقه الله تعالى .

وقال ابن جريج : قال ابن عباس : كان القمر يضىء كما تضىء الشمس ، والقمر آية الليل ، والشمس آية النهار ، (فمحونا آية الليل) : السواد الذى فى القمر .

وقد روى أبو جعفر بن جرير من طرق متعددة جيدة : أن ابن الكَوَّاء سأل على بن أبى طالب فقال : يا أمير المؤمنين ، ماهذه اللطخة التى فى القمر ؟ فقال : ويحك : أما تقرأ القرآن ؟ فمحونا آية الليل ، فهذه مَحْوُه .

وقال قتادة فى قوله : (فمحونا آية الليل) : كنا نُحَدَّث أن محو آية الليل : سوادُ القمر الذى فيه (وجعلنا آية النهار مبصرة) ، أى : منيرة ، وخلق الشمس أنورَ من القمر وأعظم .

وقال ابن أبى نَجيح ، عن ابن عباس : (وجعلنا الليل والنهار آيتين) ، قال : ليلا ونهارا ، كذلك خلقهما الله عز وجل (٤) .

وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾

يقول تعالى بعد ذكر الزمان ، [وذكر] ما يقع فيه من أعمال بنى آدم : (وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه) ، وطائره : هو ما طار عنه من عمله كما قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد : من خير وشر ، يُلْزَم به ويجازى عليه — (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره • ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره(٥)) ، وقال تعالى : (عن اليمين وعن الشمال قعيد •

(١) سورة يونس ، آية : ٥ ، ٦ .

(٢) سورة البقرة ، آية : ١٨٩ .

(٣) تفسير الطبرى : ١٥ / ٣٨ . هذا والسدفة المراد بها هنا : الضوء ، وهى كذلك فى لغة قيس ، وأما فى لغة تميم فهى الظلمة ، فهى من الأضداد .

(٤) ينظر هذه الآثار فى تفسير الطبرى : ١٥/٣٨ .

(٥) سورة الزلزلة ، آية : ٧ ، ٨ .

ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد(١)) ، وقال تعالى : (وإن عليكم لحافظين . كراما كاتبين . يعلمون ما تفعلون . إن الأبرار لفى نعيم . وإن الفجار لفى جحيم (٢)) . وقال : (إنما تجزون ما كنتم تعملون(٣)) ، وقال : (من يعمل سوءا يجز به (٤)) .

والمقصود أن عمل ابن آدم محفوظ عليه ، قليله وكثيره ، ويكتب عليه ليلا ونهارا ، صباحا ومساء .

وقال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة ، حدثنا ابن لَهيعة ، عن أبى الزبير ، عن جابر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لَطَائِرُ كلِّ إنسان فى عنقه . قال ابن لهيعة : يعنى الطِّيَرَة(٥) .

وهذا القول من ابن لهيعة فى تفسير هذا الحديث ، غريبٌ جداً ، والله أعلم.

وقوله : (ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا) ، أى : نجمع له عمله كله فى كتاب يُعطاه يوم القيامة ، إما بيمينه إن كان سعيدا ، أو بشماله إن كان شقيا . (منشورا) ، أى: مفتوحا يقرؤه هو وغيره ، فيه جميع عمله من أول عمره إلى آخره : (ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر * بل الإنسان على نفسه بصيرة * ولو ألقى معاذيره (٦)) ، ولهذا قال تعالى : (اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) ، أى : إنك تعلم أنك لم تظلم ولم يكتب عليك غير ما عملت ، لأنك ذكرت جميع ما كان منك ، ولا ينسى أحد شيئا مما كان منه ، وكل أحد يقرأ كتابه من كاتب وأمى .

وقوله : (ألزمناه طائره فى عنقه) ، إنما ذكر العنق ، لأنه عضو لا نظير له فى الجسد ، ومن ألزم بشىء فيه فلا محيد له عنه ، كما قال الشاعر (٧) :

اذهَبْ بها ، اذهَبْ بهَا طُوِّقتها طَوقَ الحَمَامَه

قال قتادة ، عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه، عن نبى الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا عدوى ولا طيرَة ، وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه » . كذا رواه ابن جرير (٨) .

---

(١) سورة « ق » ، آية : ١٧ ، ١٨ .
(٢) سورة الانفطار ، الآيات : ١٠ — ١٤ .
(٣) سورة الطور ، آية : ١٦ .
(٤) سورة النساء ، آية : ١٢٣ .
(٥) مسند الإمام أحمد : ٣/٣٦٠ .
(٦) سورة القيامة ، الآيات : ١٣ — ١٥ .
(٧) هو أبو أحمد بن جحش ، من السابقين إلى الإسلام والهجرة . وقد ذكر البيت ابن إسحاق ، فى أبيات أخر . ينظر سيرة ابن هشام : ١/٥٠٠ .

ويقول السهيلى فى الروض الأنف ٢/١٤ ، ١٥ : وقوله لأبى سفيان : « طوقتها طوق الحمامة » ، منتزع من قول النبى صلى الله عليه وسلم : « من غصب شبراً من أرض طوقه يوم القيامة من سبع أرضين » . وقال : « طوق الحمامة » ؛ لأن طوقها لا يفارقها ولا تلقيه عن نفسها أبداً ، كما يفعل من لبس طوقاً من الآدميين . ففى هذا البيت من السمانة وحلاوة الإشارة وملاحة الاستعارة مالا مزيد عليه » .

(٨) تفسير الطبرى : ١٥/٣٩ .

وقد رواه الإمام عبد بن حُميد رحمه الله فى مسنده متصلا ، فقال : حدثنا الحسن بن موسى ، حدثنا ابن لهيعة ، عن أبى الزبير ، عن جابر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « طَيْرُ كلّ عبد فى عنقه » .

وقال الإمام احمد : حدثنا على بن إسحاق ، حدثنا عبد الله ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنى يزيد : أن أبا الخير حدثه : أنه سمع عقبة بن عامر يُحدّث عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ليس من عمل يوم إلا وهو يُختم عليه ، فاذا مرض المؤمن قالت الملائكة : يا ربنا ، عبدك فلان ، قد حَبَسْتَه ؟ فيقول الرب جل جلاله : اختموا له على مثل عمله ، حتى يبرأ أو يموت (١) » .

إسناد جيد قوى ، ولم يخرجوه .

وقال معمر ، عن قتادة : (ألزمناه طائره فى عنقه) ، قال : عمله — (ونخرج له يوم القيامة) ، قال : نخرج ذلك العمل (كتابا يلقاه منشورا) — قال معمر : وتلا الحسن البصرى : (عن اليمين وعن الشمال قعيد) ، يا ابن آدم ، بسطت لك صحيفتك ، ووُكّل بك ملكان كريمان ، أحدهما عن يمينك والآخر عن يسارك ، فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأما الذى عن يسارك فيحفظ سيئاتك ، فاعمل ماشئت ، أقلل أو أكثر ، حتى إذا متّ طُويت صحيفتك فجعلت فى عنقك معك فى قبرك ، حتى تخرج يوم القيامة كتابا تلقاه منشورا ، (اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) ، قد عدل — والله — عليك من جعلك حَسِيب نفسك (٢) .

هذا من حسن كلام الحسن ، رحمه الله .

﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾

يخبر تعالى أن من اهتدى واتبع الحق واقتفى آثار النبوة ، فانما يُحصّل عاقبة ذلك الحميدة لنفسه ، (ومن ضل) ، أى : عن الحق ، وزاغ عن سبيل الرشاد ، فإنما يجنى على نفسه ، وإنما يعود وبال ذلك عليه .

ثم قال : (ولا تزر وازرة وزر أخرى) ، أى : لا يحملُ أحدٌ ذنبَ أحد ، ولا يجنى جان إلا على نفسه ، كما قال تعالى : (وإن تدع مُثقَلَة إلى حملها لا يُحمل منه شيء (٣)) .

ولا منافاة بين هذا وبين قوله تعالى : (وليحملُنّ أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم (٤)) ، وقوله : (ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم (٥)) ؛ فان الدعاة عليهم إثم ضلالهم فى أنفسهم ، وإثم آخر بسبب ما أضلوا مَن أضلوا من غير أن ينقص من أوزار أولئك ، ولا يحملوا عنهم شيئا : وهذا من عَدْل الله ورحمته بعباده :

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٤/١٤٦ .
(٢) تفسير الطبرى : ١٥/٣٩ ، ٤٠ .
(٣) سورة فاطر ، آية : ١٨ .
(٤) سورة العنكبوت ، آية : ١٣ .
(٥) سورة النحل ، آية : ٢٥ .

وكذا قوله : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) : إخبار عن عدله تعالى ، وأنه لا يُعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه بارسال الرسول إليه ، كما قال تعالى : (كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا : بلى ، قد جاءنا نذير ، فكذبنا وقلنا : ما نزل الله من شىء ، إن أنتم إلا فى ضلال كبير (١)) ، وكذا قوله : (وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً ، حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها ، وقال لهم خزنتها : ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا : بلى ، ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين (٢)) ، وقال تعالى : (وهم يصطرخون فيها : ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل ، أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير ؟ فذوقوا فما للظالمين من نصير (٣)) ، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى لا يدخل أحدا النار إلا بعد إرسال الرسول إليه ، ومن ثمَّ طعن جماعة من العلماء فى اللفظة التى جاءت مُقْحَمَةً فى صحيح البخارى ، عند قوله تعالى : (إن رحمة الله قريب من المحسنين) :

حدثنا عُبَيد الله بن سعد ، حدثنا يعقوب ، حدثنا أبى ، عن صالح بن كيسان ، عن الأعرج باسناده إلى أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « اختصمت الجنة والنار » ... فذكر الحديث إلى أن قال : « وأما الجنة فلا يظلم الله مِنْ خلقه أحداً ، وإنه ينشىء للنار خلقا فيلقون فيها ، فتقول : هل من مزيد ؟ ثلاثا » ... وذكر تمام الحديث (٤) .

فان هذا إنما جاء فى الجنة لأنها دار فضل ، وأما النار فإنها دار عدل ، لا يدخلها أحد إلا بعد الإعذار إليه ، وقيام الحجة عليه ، وقد تكلم جماعة من (٥) الحفاظ فى هذه اللفظة ، وقالوا : لعله انقلب على الراوى ، بدليل ما أخرجاه فى الصحيحين — واللفظ للبخارى — من حديث عبد الرزاق ، عن معمر ، عن همام ، عن أبى هريرة قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « تحاجت الجنة والنار » ، فذكر الحديث إلى أن قال : « فأما النار فلا تمتلىء حتى يضع فيها قدمه ، فتقول : قَطْ ، قَطْ ، فهنالك تمتلىء ويُزْوَى بعضها إلى بعض ، ولا يظلم الله من خلقه أحداً ، وأما الجنة فينشىء الله لها خلقا (٦) » .

بقى هاهنا مسألة قد اختلف الأئمة رحمهم الله تعالى فيها ، قديما وحديثا ، وهى الولدانُ الذين ماتوا وهم صغار وآباؤهم كفار ، ماذا حكمهم ؟ وكذا المجنون والأصم والشيخ الخَرِف ، ومن مات فى الفَتْرة ولم تبلغه الدعوة . وقد ورد فى شأنهم أحاديث أنا ذاكرها لك بعون الله وتوفيقه ، ثم نذكر فصلاً ملخصا من كلام الأئمة فى ذلك ، والله المستعان .

* * *

فالحديث الأول عن الأسود بن سَرِيع ، قال الإمام أحمد :

---

(١) سورة الملك ، آية ٨ ، ٩ .

(٢) سورة الزمر ، آية ٧١ .

(٣) سورة فاطر ، آية ٣٧ .

(٤) البخارى ، كتاب التوحيد ، باب ماجاء فى قول الله تعالى : (إن رحمة الله قريب من المحسنين) : ٩/١٦٤ .

(٥) ينظر فتح البارى : ١٣/٣٣٩ .

(٦) البخارى ، تفسير سورة « ق » : ٦/١٧٣ ، ومسلم ، كتاب الجنة ، باب « النار يدخلها الجبارون ، والجنة يدخلها الضعفاء » : ٨/١٥١ .

حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا معاذ بن هشام ، حدثنى أبى ، عن قتادة ، عن الأحنف بن قيس ، عن الأسود بن سريع أن نبى الله صلى الله عليه وسلم قال : « أربعة يحتجون يوم القيامة : رجل أصم لا يسمع شيئاً ، ورجل أحمق ، ورجل هرم ، ورجل مات فى فَتْرة . فأما الأصم فيقول : رب ، قد جاء الإسلام وما أسمع شيئاً . وأما الأحمق فيقول : رب ، لقد جاء الإسلام والصبيان يَحْذِفونى[1] بالبعر ، وأما الهرم فيقول : رب ، لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئاً ، وأما الذى مات في الفترة فيقول : رب ، ما أتانى لك رسول . فيأخذ مواثيقهم ليُطيعُنَّه . فيرسل إليهم أن ادخلوا النار ، فوالذى نفس محمد بيده ، لو دخلوها لكانت عليهم بردا وسلاما[2] .

وبالإسناد عن قتادة ، عن الحسن ، عن أبى رافع ، عن أبى هريرة ، مثل هذا الحديث غير أنه قال فى آخره : « من دخلها كانت عليه برداً وسلاما ، ومن لم يدخلها يسحب إليها » .

وكذا رواه إسحاق بن راهويه ، عن معاذ بن هشام ، ورواه البيهقى فى كتاب الاعتقاد ، من حديث حنبل[3] بن إسحاق ، عن على بن عبد الله المدينى ، به وقال : هذا إسناد صحيح . وكذا رواه حماد بن سلمة ، عن على بن زيد ، عن أبى رافع ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أربعة كلهم يدلى على الله بحجة » فذكر نحوه ،

ورواه ابن جرير ، من حديث معمر ، عن همام ، عن أبى هريرة ، فذكره موقوفاً ، ثم قال أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا[4]) .

وكذا رواه معمر ، عن عبد الله بن طاوس ، عن أبيه ، عن أبى هريرة موقوفاً .

* * *

الحديث الثانى عن أنس بن مالك ، قال أبو داود الطيالسى :

حدثنا الربيع ، عن يزيد بن أبان قال : قلنا لأنس : يا أبا حمزة ، ما تقول فى أطفال المشركين؟ فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لم يكن لهم سيئات فيعذبوا بها ، فيكونوا من أهل النار ، ولم يكن لهم حسنات فيجازوا بها فيكونوا من ملوك أهل الجنة ، هم من خدم أهل الجنة » .

الحديث الثالث عن أنس أيضا ، قال الحافظ أبو يعلى : حدثنا أبو خيثمة ، حدثنا جرير ، عن ليث ، عن عبد الوارث عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يؤتى بأربعة يوم القيامة : بالمولود ، والمعتوه ، ومن مات فى الفترة ، والشيخ الفانى [الهِمِّ][5] ، كلهم يتكلم بحجته ، فيقول الرب تبارك وتعالى لعُنُق[6] [من النار] : ابرز . ويقول لهم : إنى كنت أبعث إلى عبادى رسلا من أنفسهم ، وإنى رسول نفسى إليكم ، ادخلوا هذه . قال : فيقول من كتب عليه الشقاء : يارب ، أنىَّ ندخلها ومنها كنا نفر ؟ قال : ومن كتبت [عليه] السعادة يمضى فيقتحم فيها مسرعاً ، قال : فيقول الله تعالى : أنتم لرسلى أشد تكذيباً ومعصية . فيدخل هؤلاء الجنة ، وهؤلاء النار .

---

(١) أى : يضربوننى به .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٤/٢٤ .
(٣) كذا فى مخطوطة الأزهر ، ولم نجد لحنبل هذا ترجمة .
(٤) تفسير الطبرى : ١٥/٤١ .
(٥) تقدم تفسير هذه الكلمة فى : ٤/٩٨ .
(٦) تقدم تفسير هذه الكلمة أيضا فى : ٤/٤٢٤ .

وهكذا رواه الحافظ أبو بكر البزار ، عن يوسف بن موسى ، عن جرير بن عبد الحميد ، بإسناده مثله .

* * *

الحديث الرابع عن البراء بن عازب رضى الله عنه ، قال الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده أيضاً : حدثنا القاسم بن أبى شيبة ، حدثنا عبد الله ــ يعنى ابن داود ــ عن عمر بن ذر ، عن يزيد بن أمية ، عن البراء قال : [سُئل] رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أطفال المسلمين ، قال : هم مع آبائهم . وسئل عن أولاد المشركين فقال : هم مع آبائهم . فقيل : يا رسول الله ، ما يعملون ؟ قال : الله أعلم بهم .

ورواه عمر بن ذر ، عن يزيد بن أمية ، عن رجل ، عن البراء ، عن عائشة ، فذكره .

* * *

الحديث الخامس عن ثوبان ، قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار فى مسنده : حدثنا إبراهيم ابن سعيد الجوهرى ، حدثنا ريحان بن سعيد ، حدثنا عباد بن منصور ، عن أيوب ، عن أبى قلابة ، عن أبى أسماء ، عن ثوبان : أن نبى الله صلى الله عليه وسلم عَظَّم شأن المسألة ، قال : إذا كان يوم القيامة ، جاء أهل الجاهلية يحملون أوثانهم على ظهورهم ، فيسألهم ربهم ، فيقولون : ربنا لم ترسل إلينا رسولا ، ولم يأتنا لك أمر ، ولو أرسلت إلينا رسولا لكنا أطوع عبادك ، فيقول لهم ربهم : أرأيتم إن أمرتكم بأمر تطيعونى ؟ فيقولون : نعم . فيأمرهم أن يعمدوا إلى جهنم فيدخلوها ، فينطلقون حتى إذا دنوا منها وجدوا لها تغيظاً وزفيراً ، فرجعوا إلى ربهم فيقولون : ربنا أخرجناـ أو : أجِرْنا ـ منها ، فيقول لهم : ألم تزعموا أنى إن أمرتكم بأمر تطيعونى ؟ فيأخذ على ذلك مواثيقهم . فيقول : اعمدوا إليها ، فادخلوها . فينطلقون حتى إذا رأوها فَرِقوا ورجعوا ، فقالوا : ربنا فَرِقنا منها ، ولا نستطيع أن ندخلها . فيقول : ادخلوها داخرين . فقال نبى الله صلى الله عليه وسلم : لو دخلوها أول مرة كانت عليهم برداً وسلاما . ثم قال البزار : ومتن هذا الحديث غير معروف إلا من هذا الوجه ، لم يروه عن أيوب إلا عباد ، ولا عن عباد إلا ريحان بن سعيد .

قلت : وقد ذكره ابن حبان فى ثقاته . وقال يحيى بن معين والنسائى : لا بأس به ، ولم يرضه أبو داود . وقال أبو حاتم : شيخ لا بأس به ، يكتب حديثه ولا يحتج به .

* * *

الحديث السادس ، عن أبى سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدرى ، قال الإمام محمد بن يحيى الذهلى (١) :

حدثنا سعيد بن سليمان ، عن فضيل بن مرزوق ، عن عطية ، عن أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الهالك فى الفترة والمعتوه والمولود ، يقول الهالك فى الفترة : لم يأتنى كتاب . ويقول المعتوه : رب ، لم تجعل لى عقلا أعقل به خيرا ولا شرا . ويقول المولود : رب ، لم أدرك العقل . فترفع لهم نار فيقال لهم : ردوها ، قال : فيردها من كان فى علم الله سعيدا لو أدرك العمل ، ويمسك عنها [من كان] فى علم الله شقياً لو أدرك العمل . فيقول : إياى عصيتم ، فكيف لو أن رسلى أتتكم ؟ .

---

(١) كان أحد الأئمة الأعلام ، سمع عبد الرحمن بن مهدى وطبقته ، وأكثر الترحال ، وصنف التصانيف ، وكان الإمام أحمد يجله ويعظمه . يقول أبو حاتم : «كان إمام أهل زمانه» . وقال أبو بكر بن أبى داود : «هو أمير المؤمنين فى الحديث» . وهو الذى جمع حديث الزهرى . وقد روى عنه أنه قال : «أنفقت على العلم مائة وخمسين ألفا» . ومن مصنفاته : «كتاب علل حديث الزهرى» . ينظر العبر للذهبى : ١٧/٢ ، وفهرسة ابن خير : ٢٠٣ ، والخلاصة .

وكذا رواه البزار ، عن محمد بن عمر بن هياج الكوفي ، عن عبيد الله بن موسى ، عن فضيل بن مرزوق ، به .
ثم قال : لا يعرف من حديث أبي سعيد إلا من طريقه ، عن عطية ، عنه ، وقال في آخره : « فيقول الله : إياي عصيتم ،
فكيف برسلي بالغيب ؟ » .

* * *

الحديث السابع ، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه ، قال هشام [1] بن عمّار ، ومحمد بن المبارك الصّوري [2] :
حدثنا عَمْرو بن واقد ، عن يونس بن حَلْبَس ، عن أبي إدريس الخولاني ، عن معاذ بن جبل ، عن نبي الله صلى الله
عليه وسلم قال : « يؤتى يوم القيامة بالممسوخ عقلا ، وبالهالك في الفترة ، وبالهالك صغيراً ، فيقول الممسوخ : يارب ،
لو آتيتني عقلا ما كان من آتيته عقلا بأسعد مني — وذكر في الهالك في الفَتْرة والصغير نحو ذلك — فيقول الرب عز وجل :
إني آمركم بأمر فتطيعوني ؟ فيقولون : نعم . فيقول : اذهبوا فادخلوا النار — قال : ولو دخلوها ما ضرتهم — فتخرج
عليهم قوابض ، فيظنون أنها قد أهلكت ما خلق الله من شيء ، فيرجعون سراعا ، ثم يأمرهم الثانية فيرجعون [كذلك] ،
فيقول الرب عز وجل : قبل أن أخلقكم علمت ما أنتم عاملون ، وعلى علمي خلقتكم ، وإلى علمي تصيرون ، ضُمّيهم .
فتأخذهم النار » .

* * *

الحديث الثامن عن أبي هريرة رضي الله عنه : قد تقدم روايته مندرجةً مع رواية الأسود بن سَرِيع رضي الله عنه .

وفي الصحيحين ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كل مولود يولد على الفطرة ،
فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ، كما تُنْتَج البهيمة بهيمةً جمعاء ، هل تحسّون فيها من جدعاء [3] ؟ .

وفي رواية قالوا : يا رسول الله ، أفرأيت من يموت صغيراً ؟ قال : الله أعلم بما كانوا عاملين [4] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا موسى بن داود ، حدثنا عبد الرحمن بن ثابت ، عن عطاء بن قُرَّة ، عن عبد الله
ابن ضَمْرة ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم — فيما أعلم ، شك موسى — قال : ذَرَارِيّ
المسلمين في الجنة ، يكفلهم إبراهيم عليه السلام [5] » .

وفي صحيح مسلم ، عن عياض بن حمار ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن الله عز وجل أنه قال :
« إني خلقت عبادي حُنَفَاء [6] — وفي رواية لغيره : مسلمين .

* * *

---

(١) هو أبو الوليد هشام بن عمار السلمي ، خطيب دمشق وقارئها وفقيهها ومحدثها . روى عن مالك وطبقته . وله مسند . توفي في المحرم سنة ٢٤٥ هـ . ينظر العبر للذهبي : ١/٤٤٥ ، وفهرسة ابن خير : ١٥٢ ، ١٥٣ .

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن المبارك الصوري الحافظ ، قال يحيى بن معين : كان شيخ دمشق بعد أبي مسهر . توفي سنة : ٢١٥هـ

(٣) تقدم الحديث في سورة النساء ، عند الآية : ١١٩ ، وخرجناه هنالك وشرحنا غريبه . ينظر : ٢/٣٦٨ .

(٤) مسلم ، كتاب القدر ، باب « معنى كل مولود يولد على الفطرة » : ٨/٥٣ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٢/٣٢٦ .

(٦) تقدم الحديث في سورة النساء ، عند الآية : ١١٩ ، وخرجناه هنالك ، ينظر : ٢ ٣٦٨ .

الحديث التاسع عن سمرة رضى الله عنه ، رواه الحافظ أبو بكر البَرْقانىّ (١) فى كتابه « المستخرج على البخارى » من حديث عوف الأعرابى ، عن أبى رجاء العَطَاردى ، عن سَمُرة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : كل مولود يولد على الفطرة . فناداه الناس : يا رسول الله ، وأولاد المشركين ؟ قال : وأولاد المشركين .

وقال الطبرانى : حدثنا عبد الله بن أحمد ، حدثنا عقبة بن مُكْرَم الضّبى ، عن عيسى بن شُعَيب ، عن عَبّاد ابن منصور ، عن أبى رجاء ، عن سمرة قال : سألنا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن أطفال المشركين فقال : هم خدم أهل الجنة .

* * *

الحديث العاشر ، عن عم حسناء ، قال أحمد :

[حدثنا (٢) إسحاق ، يعنى الأزرق] أخبرنا روح ، حدثنا عوف ، عن حسناء بنت معاوية ، من بنى صُرَيم قالت : حدثنى عمى قال : قلت : يا رسول الله ، من فى الجنة ؟ قال : النبى فى الجنة ، والشهيد فى الجنة ، والمولود فى الجنة ، والوئيد فى الجنة (٣) .

* * *

فمن العلماء من ذهب إلى التوقف فيهم لهذا الحديث ، ومنهم من جَزَم لهم بالجنة ، لحديث سَمُرة بن جندب فى صحيح البخارى : أنه عليه الصلاة والسلام قال فى جملة ذلك المنام ، حين مَرّ على ذلك الشيخ تحت الشجرة وحوله ولدان ، فقال له جبريل : هذا إبراهيم عليه السلام ، وهؤلاء أولاد المسلمين وأولاد المشركين ، قالوا : يا رسول الله ، وأولاد المشركين ؟ قال : نعم ، وأولاد المشركين .

ومنهم من جزم لهم بالنار ، لقوله عليه السلام : هم مع آبائهم .

ومنهم من ذهب إلى أنهم يمتحنون يوم القيامة فى العَرَصات ، فمن أطاع دخل الجنة وانكشف علم الله فيهم بسابق السعادة ، ومن عصى دخل النار داخراً ، وانكشف علم الله فيه بسابق الشقاوة .

وهذا القول يجمع بين الأدلة كلها ، وقد صرحت به الأحاديث المتقدمة المتعاضدة الشاهد بعضها لبعض : وهذا القول هو الذى حكاه الشيخ أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعرى رحمه الله ، عن أهل السنة والجماعة : وهو الذى نصره الحافظ أبو بكر البيهقى رحمه الله فى «كتاب الاعتقاد» ; وكذلك غيره من مُحقِّقى العلماء والحفاظ النقاد .

وقد ذكر الشيخ أبو عمر بن عبد البر النَّمَرىّ بعد ماتقدم من أحاديث الامتحان ، ثم قال : وأحاديث هذا الباب ليست قوية ، ولا تقوم بها حجة ، وأهل العلم ينكرونها ؛ لأن الآخرة دار جزاء وليست دار عمل ولا ابتلاء ، وكيف يكلفون دخول النار وليس ذلك فى وسع المخلوقين ، والله لا يكلف نفساً إلا وسعها ؟ !

---

(١) هو أبو بكر أحمد بن محمد بن أحمد بن غالب الخوارزمى الفقيه الشافعى . كان ثبتا ورعا ، صنف مسندا ضمنه ما اشتمل عليه الصحيحان وقد ذكر هذا المصنف ابن خير فى فهرسته ، فقال : «كتاب فيه الأحاديث الموالى من المسند الصحيح ، على شرط كتاب البخارى ومسلم ، مما وقع فى الكتابين أو أحدهما» . توفى رحمه الله سنة ٤٢٥ ، ينظر العبر للذهبى : ٣/١٥٦ .

(٢) مابين القوسين سقط من تفسير ابن كثير ، ولا بد منه ، وقد أثبتناه من مسند الإمام أحمد ، وأسد الغابة ، ترجمة «عم حسناء بنت معاوية الصريمية» : ٥/٣٤١ ط الوهبية .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٥/٥٨ .

والجواب عما قال : أن أحاديث هذا الباب منها ما هو صحيح ، كما قد نص على ذلك غير واحد من أئمة العلماء ، ومنها ماهو حسن ، ومنها ماهو ضعيف يتقوّى بالصحيح والحسن ، وإذا كانت أحاديث الباب الواحد متعاضدة على هذا النمط ، أفادت الحجة عند الناظر فيها . وأما قوله : « إن الآخرة دار جزاء » ، فلا شك أنها دار جزاء ، ولا ينافي التكليفَ في عرصاتها قبل دخول الجنة أو النار ، كما حكاه الشيخ أبو الحسَن الأشعري عن مذهب أهل السنة والجماعة ، من امتحان الأطفال ، وقد قال الله تعالى : (يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون (١)) ، وقد ثبتت السنة في الصحاح وغيرها : أن المؤمنين يسجدون لله يومَ القيامة ، وأما المنافق فلا يستطيع ذلك ويعود ظهره طَبَقاً (٢) [واحداً] كلما أراد السجود خرّ لقفاه .

وفي الصحيحين في الرجل الذي يكون آخر أهل النار خروجا منها : أن الله يأخذ عهودَه ومواثيقه أن لا يسألَ غيرَ ما هو فيه ، ويتكرر ذلك مراراً ، ويقول الله تعالى : يا ابن آدم ، ما أغدَرَكَ ! ثم يأذن له في دخول الجنة (٣) .

وأما قوله : « وكيف يكلفهم دخول النار ، وليس ذلك في وسعهم ؟ » ، فليس هذا بمانع من صحة الحديث ، فان الله يأمر العباد يوم القيامة بالجواز على الصراط ، وهو جسر على جهنم أحَدّ من السيف وأدقّ من الشعرة ، ويمر المؤمنون عليه بحسب أعمالهم كالبرق وكالريح وكأجاويد الخيل والرّكاب ، [ومنهم] الساعي ومنهم الماشي ، ومنهم من يحبو حبواً ، ومنهم المكدُوش (٤) على وَجْهِه في النار (٥) وليس ماورد في أولئك بأعظم من هذا ، بل هذا أطم وأعظم . وأيضاً فقد ثبتت السنة بأن الدجال يكون معه جنة ونار ، وقد أمر الشارع المؤمنين الذين يدركونه أن يشرب أحدهم من الذي يرى أنه نار ، فانه يكون عليه بردا وسلاما ، فهذا نظير ذلك ؛ وأيضا فان الله تعالى أمر بني إسرائيل أن يقتلوا أنفسهم ، فقتل بعضهم بعضا حتى قتلوا فيما قيل في غداة واحدة سبعين ألفا ، يقتل الرجل أباه وأخاه ، وهم في عَمَايَة غمامة أرسلها الله عليهم ، وذلك عقوبة لهم على عبادتهم العجل ، وهذا أيضا شاق على النفوس جدا لا يتقاصر عما ورد في الحديث المذكور ، والله أعلم .

فصل

فاذا تقرر هذا ، فقد اختلف الناس في وِلدان المشركين على أقوال :

أحدها : أنهم في الجنة ، واحتجوا بحديث سَمُرة أنه عليه السلام رأى مع إبراهيم أولاد المسلمين وأولاد المشركين وبما تقدم في رواية أحمد ، عن حسناء ، عن عمها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «والمولود في الجنة» . وهذا استدلال صحيح ، ولكن أحاديث الامتحان أخص منه ؛ فمن علم الله منه أنه يطيع جعل روحه في البرزخ مع إبراهيم

---

(١) سورة القلم ، آية : ٤٢ .

(٢) البخاري ، تفسير سورة (ن والقلم) : ٦/١٩٨ ، وكتاب التوحيد : ٩/١٥٩ .

والطبق — بفتحتين : فقار الظهر ، واحدتها طبقة ، يريد أنه صار فقارهم كله كالفقارة الواحدة ، فلا يقدرون على السجود .

(٣) البخاري ، كتاب الأذان ، باب « فضل السجود » : ١/٢٠٥ ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « آخر أهل النار خروجا » : ١/١١٩ ، ١٢٠ .

(٤) المكدوش : المطرود . ويروى المكدوس — بالسين — ، وهو : المدفوع .

(٥) البخاري ، كتاب التوحيد : ٩/١٥٩ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « أدنى أهل الجنة منزلة فيها » : ١/١٢٥ .

وأولاد المسلمين الذين ماتوا على الفطرة ، ومن علم منه أنه لا يجيب ، فأمره إلى الله تعالى ، ويوم القيامة يكون فى النار كما دلت عليه أحاديث الامتحان ، ونقله الأشعرى عن أهل السنة ، ثم مِن هؤلاء القائلين بأنهم فى الجنة مَن يجعلهم مستقلين فيها ، ومنهم مَن يجعلهم خدماً لهم ، كما جاء فى حديث على بن زيد ، عن أنس ، عند أبى داود الطيالسى وهو ضعيف ، والله أعلم :

القول الثانى : أنهم مع آبائهم فى النار ، واستدل عليه [بما رواه] الإمام أحمد بن حنبل ، عن أبى المغيرة : حدثنا عتبة بن ضَمْرة بن حبيب ، حدثنى عبدَ الله بن أبى قيس مولى غُطَيف ، أنه أتى عائشة فسألها عن ذَرَارى الكفار فقالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هم تبَع لآبائهم ، فقلت : يا رسول الله ، بلا عمل ؟ فقال : الله أعلم بما كانوا عاملين (١) .

وأخرجه أبو داود من حديث محمد بن حرب ، عن محمد بن زياد الألهانى ، سمعت عبد الله بن أبى قيس ، سمعت عائشة تقول : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذَرَارِىّ المؤمنين ، قال : هم من آبائهم ، قلت : فذرارى المشركين ؟ قال : هم من آبائهم ، قلت : بلا عمل ؟ قال : الله أعلم بما كانوا عاملين (٢) :

ورواه أحمد أيضاً ، عن وكيع ، عن أبى عَقِيل يحيى بن المتوكل ــ وهو متروك ــ عن مولاته بهية ، عن عائشة أنها ذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم أطفال المشركين فقال : إن شئت أسمعتك تضَاغيَهم (٣) فى النار (٤) .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد : حدثنا عثمان بن أبى شيبة ، عن محمد بن فضيل بن غَزْوان ، عن محمد بن عثمان عن زاذان ، عن على رضى الله عنه قال : سألت خديجة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ولدين لها ماتا فى الجاهلية ، فقال : هما فى النار ، قال : فلما رأى الكراهية فى وجهها [قال] : لو رأيت مكانهما لأبغضتهما : قالت : فولدى منك ؟ قال : [قال : فى الجنة ، قال : ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥)] : إن المؤمنين وأولادهم فى الجنة ، وإن المشركين وأولادهم فى النار ، ثم قرأ : (والذين آمنوا وأتبعناهم ذرياتهم (٦) بإيمان [ألحقنا بهم ذريتهم (٧)] .

وهذا حديث غريب ، فإن محمد بن عثمان هذا مجهول الحال ، وشيخه زاذان لم يدرك علياً ، والله أعلم .

وروى أبو داود من حديث ابن أبى زائدة ، عن أبيه ، عن الشعبى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الوائدةُ والموءودةُ فى النار ، ثم قال الشعبى : حدثنى [به] علقمة ، عن أبى وائل ، عن ابن مسعود (٨) .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٦/٨٤ .

(٢) سنن أبى داود ، كتاب السنة ، باب « فى ذرارى المشركين » ، الحديث ٤٧١٢ : ٤/٢٢٩ .

(٣) أى : صياحهم وبكاءهم .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٦/٢٠٨ .

(٥) مابين القوسين من مسند الإمام أحمد .

(٦) كذا فى مخطوطة الأزهر ، وهى قراءة ثابتة عن أبى عمرو ، ينظر البحر المحيط لأبى حيان : ٨/١٤٩ . وما بين القوسين من مسند الإمام أحمد .

(٧) مسند الإمام أحمد : ١/١٣٤ ، ١٣٥ .

(٨) سنن أبى داود ، كتاب السنة ، باب فى ذرارى المشركين ، الحديث ٤٧١٧ : ٤/٢٣٠ .

وقد رواه جماعة ، عن داود بن أبي هند ، عن الشعبي ، عن علقمة ، عن سلمة بن قيس الأشجعي قال : أتيت أنا وأخي النبيّ صلى الله عليه وسلم فقلنا : إن أمنا ماتت في الجاهلية ، وكانت تَقْرِى الضيف وتصل الرحم ، وإنها وأدت أختا لنا في الجاهلية لم تبلغ الحِنْث(١). فقال: الوائدة والموءودة في النار ، إلا أن تدرك الوائدة الإسلام، فتسلم . وهذا إسناد حسن .

والقول الثالث : التوقف فيهم ، واعتمدوا على قوله صلى الله عليه وسلم : « الله أعلم بما كانوا عاملين » : وهو في الصحيحين من حديث جعفر بن أبي إياس ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين قال : « الله أعلم بما كانوا عاملين » . [وكذلك هو في الصحيحين ، من حديث الزهرى ، عن عطاء بن يزيد — وعن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه سُئل عن أطفال المشركين ، فقال : « الله أعلم بما كانوا عاملين »] .

ومنهم من جعلهم من أهل الأعراف . وهذا القول يرجع إلى قول من ذهب إلى أنهم من أهل الجنة ، لأن الأعراف ليس دار قرار ، ومآل أهلها إلى الجنة كما تقدم تقرير ذلك في « سورة الأعراف » ، والله أعلم .

فصل

وليعلم أن هذا الخلاف مخصوص بأطفال المشركين ، فأما ولدان المؤمنين فلا خلاف بين العلماء — كما حكاه القاضي أبو يعلى بن الفراء الحنبلي ، عن الإمام أحمد أنه قال : لا يختلف فيهم أنهم من أهل الجنة : وهذا هو المشهور بين الناس، وهو الذي نقطع به إن شاء الله عز وجل. فأما ماذكره الشيخ أبو عمر بن عبد البر، عن بعض العلماء: أنهم توقفوا في ذلك ، وأن الولدان كلهم تحت مشيئة الله عز وجل — قال أبو عمر : ذهب إلى هذا القول جماعة من أهل الفقه والحديث منهم: حماد بن زيد ، وحماد بن سلمة، وابن المبارك ، وإسحاق بن راهويه وغيرهم ، قالوا : وهو يشبه ما رسم مالك في مُوطئه في أبواب القدر ، وما أورده من الأحاديث في ذلك ، وعلى ذلك أكثر أصحابه : وليس عن مالك فيه شيء منصوص ، إلا أن المتأخرين من أصحابه ذهبوا إلى أن أطفال المسلمين في الجنة ، وأطفال المشركين خاصة في المشيئة . انتهى كلامه ، وهو غريب جدا .

وقد ذكر أبو عبد الله القرطبي في كتاب « التذكرة (٢) » نحو ذلك أيضا ، والله أعلم .

وقد ذكروا في ذلك حديث عائشة بنت طلحة ، عن عائشة أم المؤمنين قالت : دعي النبي صلى الله عليه وسلم إلى جنازة صبي من الأنصار ، فقلت : يا رسول الله ، طوبى له عصفور من عصافير الجنة . لم يعمل السوء ولم يدركه ، فقال : أو غير ذلك يا عائشة ، إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم ، وخلق النار وخلق لها أهلا وهم في أصلاب آبائهم . رواه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه (٣) .

---

(١) أى : الإدراك .

(٢) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي : ٥١١ — ٥١٧ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٤١/٦ ، ٢٠٨ . ومسلم ، كتاب القدر ، باب « معنى كل مولود يولد على الفطرة ، وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين » : ٥٤/٨ ، ٥٥ . وسنن أبي داود ، كتاب السنة ، باب « في ذرارى المشركين » ، الحديث ٤٧١٣ : ٢٢٩/٤ . والنسائي ، كتاب الجنائز ، باب « الصلاة على الصبيان » : ٥٧/٧ . وسنن ابن ماجة ، المقدمة ، باب « في القدر » الحديث ٨٢ : ٣٢/١ .

ولما كان الكلام فى هذه المسألة يحتاج إلى دلائل صحيحة جيدة ، وقد يتكلم فيها من لا علم عنده عن الشارع ، كره جماعة من العلماء الكلام فيها ، روى ذلك عن ابن عباس ، والقاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق ، ومحمد ابن الحنفية وغيرهم . وأخرج ابن حبان فى صحيحه ، عن جرير بن حازم : سمعت أبا رجاء العطاردى ، سمعت ابن عباس وهو على المنبر يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يزال أمر هذه الأمة مواتيا ــ أو : مقارباً ــ مالم يتكلموا فى الولدان والقدر .

قال ابن حبان : يعنى أطفال المشركين .

وهكذا رواه أبو بكر البزار ، من طريق جرير بن حازم ، به . ثم قال : وقد رواه جماعة عن أبى رجاء ، عن ابن عباس موقوفا .

﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا (١٦) ﴾

اختلف القراء فى قراءة قوله : (أمرنا) ــ فالمشهور قراءة التخفيف . واختلف المفسرون فى معناها ، فقيل : معناه أمرنا مترفيها ففسقوا فيها أمراً قدرياً ، كقوله تعالى : (أتاها أمرنا ليلا أو نهارا) ، فإن الله لا يأمر بالفحشاء . قالوا : معناه أنه سخرهم إلى فعل الفواحش ، فاستحقوا العذاب .

وقيل : معناه أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش ، فاستحقوا العقوبة . رواه ابن جريج عن ابن عباس (١) ، وقاله سعيد بن جبير أيضاً .

وقال ابن جرير : « وقد يحتمل أن يكون معناه : جعلناهم أمراء » .

قلت : إنما يجىء هذا على قراءة من قرأ (أمّرنا مترفيها) ؛ قال على بن طلحة ، عن ابن عباس قوله : (أمّرنا مترفيها ففسقوا فيها) ، يقول : سلطنا أشرارها فعصوا فيها ، فإذا فعلوا ذلك أهلكتهم بالعذاب ، وهو قوله : (وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها) . وكذا قال أبو العالية ، ومجاهد ، والربيع بن أنس .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : (وإذا أردنا أن نهلك قرية آمرنا مترفيها ففسقوا فيها) ، يقول : أكثرنا عددهم (١) . وكذا قال عكرمة ، والحسن ، والضحاك ، وقتادة . وعن مالك ، عن الزهرى : (آمرنا مترفيها) : أكثرنا .

وقد استشهد بعضهم بالحديث الذى رواه الإمام أحمد حيث قال : حدثنا روح بن عبادة ، حدثنا أبو نعامة العدوى ، عن مسلم بن بُدَيل ، عن إياس بن زهير ، عن سُوَيد بن هُبَيرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « خير مال امرىء له مُهرة مأمورة ، أو سِكّة مأبورة (٢) » .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٥/٤٢ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٥/١٧٠ . وقد تقدم الحديث فى سورة « آل عمران » عند تفسير الآية ١٤ ، ينظر : ٢/١٧ .

قال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام رحمه الله فى كتابه الغريب : المأمورة كثيرة النسل ؛ والسكة : الطريقة المصطفة من النخل ؛ والمأبورة من التأبير ، وقال بعضهم : إنما جاء هذا متناسبا كقوله : « مأزورات غير مأجورات[1] » .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾

يقول تعالى منذراً كفار قريش فى تكذيبهم رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ، بأنه قد أهلك أمما من المكذبين للرسل من بعد نوح ، ودل هذا على أن القرون التى كانت بين آدم ونوح على الإسلام ، كما قاله ابن عباس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون ، كلهم على الإسلام .

ومعناه أنكم أيها المكذبون لستم أكرم على الله منهم ، وقد كذبتم أشرف الرسل وأكرم الخلائق ، فعقوبتكم أولى وأحرى .

وقوله : (وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيرا) ، أى : هو عالم بجميع أعمالهم ، خيرها وشرها ، لا يخفى عليه منها خافية .

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه ما كل من طلب الدنيا وما فيها من النعيم يحصل له ، بل إنما يحصل لمن أراد الله ما يشاء .

وهذه مقيدة لإطلاق ماسواها من الآيات ، فإنه قال : (عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم) ، أى : فى الدار الآخرة ، (يصلاها) ، أى : يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه ، (ملموما) ، أى : حال كونه ملموما على سوء تصرفه وصنيعه ، إذ اختار الفانى على الباقى ، (مدحوراً) ، مبعداً مقصيا حقيراً ذليلا مهانا .

قال الإمام أحمد : حدثنا حسين ، حدثنا ذُوَيد ، عن أبى إسحاق ، عن زرعة ، عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له[2] » .

وقوله : (ومن أراد الآخرة) ، أى : أراد الدار الآخرة وما فيها من النعيم والسرور (وسعى لها سعيها) ، أى : طلب ذلك من طريقه ، وهو متابعة الرسول ، (وهو مؤمن) ، أى : وقلبه مؤمن ، أى : مصدق بالثواب والجزاء ، (فأولئك كان سعيهم مشكوراً) .

---

(١) يريد أن يقول : إن الأصل فيها « مؤمَرة » ، — بضم الميم ، وسكون الهمزة ، وفتح الميم — اسم مفعول من آمر ، فأتبعوة المأبورة ، فأتوا به على وزن مفعولة ، تزويجا للفظين . والازدواج عادة عربية ، مثل قوله عليه السلام : (ارجعن مأزورات غير مأجورات) ، وإنما هو : موزورات ، بالواو ، فأبدلوا الواو همزة ليزدوج اللفظ مع (مأجورات) .

(٢) مسند الإمام أحمد ٦/ ٧١ .

﴿كُلًّا نُمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١)﴾

[يقول تعالى(١): (كلا)، أى: كل واحد من الفريقين الذين أرادوا الدنيا والذين أرادوا الآخرة، نمدهم فيما فيه (من عطاء ربك)، أى: هو المتصرف الحاكم الذى لا يجورُ، فيعطى كُلاً ما يستحقه من السعادة والشقاوة، فلا راد لحكمه، ولا مانع لما أعطى، ولا مغيّر لما أراد. ولهذا قال: (وماكان عطاء ربك محظوراً)، أى: لا يمنعه أحدٌ ولا يرده راد.

قال قتادة: (وماكان عطاء ربك محظوراً)، أى: منقوصا (٢).

وقال الحسن وغيره: أى ممنوعا.

ثم قال تعالى: (انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض)، أى: فى الدنيا، فمنهم الغنى والفقير وبين ذلك، والحسن والقبيح وبين ذلك، ومن يموت صغيرا، ومن يُعمَّر حتى يبقى شيخا كبيرا، وبين ذلك، (وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا)، أى: ولتَفَاوُتُهم فى الدار الآخرة أكبرُ من الدنيا؛ فإن منهم من يكون فى الدركات فى جهنم وسلاسلها وأغلالها، ومنهم من يكون فى الدرجات العُلَى ونعيمها وسرورها. ثم أهل الدركات يتفاوتون فيما هم فيه، كما أن أهل الدرجات يتفاوتون؛ فإن الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض. وفى الصحيحين: «ان أهل الدرجات العُلَى ليرون أهلَ عِلّيين، كما ترون الكوكب الغابر فى أفق السماء (٣)» ــ ولهذا قال تعالى: (وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا).

وفى الطبرانى، من رواية زاذان، عن سلمان مرفوعا: «ما من عبد يريد أن يرتفع فى الدنيا درجةً فارتفع إلا وضعه الله فى الآخرة أكبر منها»، ثم قرأ: (وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا (٤))].

﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا (٢٢)﴾

يقول تعالى: والمراد المكلفون من الأمة، لا تجعل أيها المكلف فى عبادتك ربك له شريكا، (فتقعد ملموما) على إشراكك (مخذولا)، لأن الرب تعالى لا ينصرك، بل يكلك إلى الذى عبَدْتَ معه، وهو لا يملك لك ضرًّا ولا نفعا، لأن مالك الضر والنفع هو الله وحده، لا شريك له، وقد قال الإمام أحمد:

حدثنا أبو أحمد الزبيرى، حدثنا بشير بن سلمان (٥)، عن سيَّار أبى الحكم (٦)، عن طارق بن شهاب، عن

---

(١) سقط تفسير هاتين الآيتين من مخطوطة الأزهر، وقد اعتمدنا فى التحقيق على الطبعات السابقة.

(٢) تفسير الطبرى: ١٥/٤٥.

(٣) تقدم هذا الحديث عند تفسير الآية ٦٩ من سورة النساء، وخرجناه هنالك، وشرحنا غريبه. ينظر: ٢/٣١٢.

(٤) إلى هنا ينتهى السقط.

(٥) بعده فى المسند: «كان ينزل مسجد المطمورة».

(٦) فى سنن أبى داود: «سيار أبى حمزة». وفى التهذيب ٤/٢٩٣ فى ترجمة سيار: أنه أبو حمزة. وذكر الحافظ أن من روى عن سيار هذا بشير بن إسماعيل، وأنه كان يقول فيه: «أبو الحكم»، قال الحافظ: وهو وهم.
هذا والصواب أن يقال فى «بشير»: أنه «أبو إسماعيل»، لا ابن إسماعيل، وأحسبه خطأ وقع فى التهذيب من الناسخ أو الطابع. فهو بشير بن سلمان، وكنيته أبو إسماعيل، وقد نبه على ذلك أيضا الحافظ أبو العلى، صاحب تحفة الأحوذى.

عبد الله – هو ابن مسعود – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أصابته فاقة فأنزلها بالناس (١) لم تُسَدّ فاقته ، ومن أنزلها بالله أوشك الله له بالغنى ، إما أجَلٌ [عاجل (٢)] وإما غنى عاجل (٣) .

ورواه أبو داود ، والترمذى من حديث بشير بن سلمان ، به ، وقال الترمذى : حسن صحيح [غريب (٤)] »

* وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾

يقول تعالى آمرا بعبادته وحده لاشريك له ؛ فإن القضاء هاهنا بمعنى الأمر .

قال مجاهد : (وقضى) ، يعنى : وصى . وكذا قرأ ذلك أُبَىّ بن كعب ، وعبد الله بن مسعود ، والضحاك بن مزاحم : (ووصى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه) ، ولهذا قرن بعبادته بر الوالدين فقال : (وبالوالدين إحسانا) ، أى : وأمر بالوالدين إحسانا ، كما قال فى الآية الأخرى : (أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير (٥)) .

وقوله : (إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما ، فلا تقل لهما : أف) ، [أى : لا تسمعهما قولا سيئا ، حتى ولا التأفيف الذى هو أدنى مراتب القول السيىء] ، (ولا تنهرهما) ، أى : ولا يصدر منك إليهما فعل قبيح ، كما قال عطاء بن أبى رباح فى قوله : (ولا تنهرهما) ، أى : لا تَنْفُض (٦) يدك على والديك .

ولما نهاه عن القول القبيح والفعل القبيح ، أمره بالقول الحسن والفعل الحسن ، فقال : (وقل لهما قولا كريما ،) أى : لينا طيبا حسنا بأدب وتوقير وتعظيم .

(واخفض لهما جناح الذل من الرحمة) ، أى : تواضع لهما بفعلك ، (وقل : رب ارحمهما) ، أى : فى كبرهما وعند وفاتهما (كما ربيانى صغيراً) .

قال ابن عباس : ثم أنزل الله : (ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى (٧)) .

---

(١) أى : عرضها عليهم وأظهرها ، بطريق الشكاية لهم ، وطلب إزالة فاقته منهم .
(٢) مابين القوسين من مسند الإمام أحمد . ولفظ سنن أبى داود : « إما بموت آجل » وهى رواية وردت فى المسند أيضا : ١/٤٤٢ ، وقد قيل فى شرحه : « بموت قريب له غنى فيرثه » !
(٣) مسند الإمام أحمد : ١/٤٠٧
(٤) سنن أبى داود ، كتاب الزكاة ، باب فى الاستعفاف ، الحديث ١٦٤٥ : ٢/١٢٢ . وتحفة الأحوذى ، أبواب الزهد ، باب « ماجاء فى هم الدنيا وحبها » ، الحديث ٢٤٢٨ : ٦/٦١٧ – ٦١٩
(٥) سورة لقمان ، آية : ١٤ .
(٦) تفسير الطبرى : ١٥/٤٨ . ولفظه : « لاتنغض » . بالغين المعجمة ، ويبدو أن الصواب بالفاء ، فالنفض أعم فى الدلالة على الحركة ؛ ذلك أن النغض قاصر على حركة الرأس .
(٧) تفسير الطبرى : ١٥/٥٠ .

وقد جاء في بر الوالدين أحاديث كثيرة ، منها الحديث المروى من طرق عن أنس وغيره : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما صَعَد المنبر قال : « آمين ، آمين ، آمين . فقالوا : يا رسول الله ، علام أمَّنت ؟ قال : أتاني جبريل فقال : يا محمد ، رغم أنف امرىء ذُكِرتَ عنده فلم يصلِّ عليك ، فقل : آمين . فقلت : آمين . ثم قال : رَغِم أنف امرىء دخل عليه شهر رمضان ثم خرج ولم يُغفَر له ، قل : آمين . فقلت : آمين . ثم قال : رَغِم أنف امرىء أدرك أبويه أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة ، قل : آمين . فقلت : آمين .

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا هشيم ، حدثنا على بن زيد ، أخبرنا زرارة بن أوفى ، عن مالك بن الحارث ـ رَجُل منهم ـ أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « من ضم يتيما بين أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يستغنى عنه ، وجبت له الجنة البتة . ومن أعتق امرأ مسلماً كان فكاكه من النار ، يجزى بكل عضو منه عضوا منه » :

ثم قال : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، سمعت على بن زيد ـ فذكر معناه ، إلا أنه قال : عن رجل من قومه يقال له : مالك أو ابن مالك ، وزاد : ومن أدرك والديه أو أحدهما ، فدخل النار ، فأبعده الله (١) :

حديث آخر ، وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، أخبرنا على بن زيد ، عن زرارة بن أوفى ، عن مالك بن عمرو القشيرى : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من أعتق رقبة مسلمة ، فهى فداؤه من النار ، مكان كل عظم من عظامه مُحَرَّره بعظم من عظامه ، ومن أدرك أحد والديه ثم لم يغفر له ، فأبعده الله عز وجل . ومن ضم يتيما بين أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يغنيه الله ، وجبت له الجنة (٢) » .

حديث آخر ، وقال الإمام أحمد : حدثنا حجاج ومحمد بن جعفر قالا : حدثنا شعبة ، عن قتادة ، سمعت زرارة ابن أوفى يحدث عن [أبي بن] مالك القشيرى قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم « من أدرك والديه أو أحدهما ثم دخل النار من بعد ذلك ، فأبعده الله وأسحقه (٣) » .

ورواه أبو داود الطيالسى عن شعبة ، به : وفيه زيادات أخر .

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا أبو عوانة ، حدثنا سُهَيل بن أبي صالح ، عن أبيه ، عن أبي هريرة رضى الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « رَغِم أنفُ ، ثم رَغِم أنفُ ، ثم رغم أنفُ رجل أدرك والديه ، أحدهما أو كلاهما عند الكبر ، ولم يدخل الجنة (٤) .

صحيح من هذا الوجه ، ولم يخرجه سوى مسلم ، من حديث أبي عوانة وجرير وسليمان بن بلال ، عن سهيل ، به (٥) .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٣٤٤/٤ ، ٢٩/٥ .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٣٤٤/٤
(٣) مسند الإمام أحمد : ٣٤٤/٤ ، ٢٩/٥ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٣٤٦/٢ .
(٥) مسلم ، كتاب البر ، باب « رغم أنف من أدرك أبويه ... » : ٥/٨ ، ٦ .

حديث آخر ، وقال الإمام أحمد : حدثنا ربعيّ بن إبراهيم — قال أحمد : وهو أخو إسماعيل بن عُلَيَّة ، وكان يُفَضَّل على أخيه — عن عبد الرحمن بن إسحاق ، عن سعيد بن أبي سعيد (١) ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رغم أنف رجل ذُكِرتُ عنده فلم يصلّ عليّ ! ورغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان، فانسلخ قبل أن يغفر له ! ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبرَ فلم يدخلاه الجنة — قال ربعي : لا أعلمه إلا قال : أو أحدهما (٢) » .

ورواه الترمذى ، عن أحمد بن إبراهيم الدَّوْرَقى ، عن ربعيّ بن إبراهيم ، ثم قال : غريب من هذا الوجه (٣) .

حديث آخر ، وقال الإمام أحمد : حدثنا يونس بن محمد ، حدثنا عبد الرحمن بن الغَسِيل ، حدثنا أسيد بن على ، عن أبيه على بن عُبَيد ، عن أبي أسيد وهو مالك بن ربيعة الساعدى قال : بينا أنا جالس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ جاءه رجل من الأنصار فقال : يا رسول الله، هل بقى عليّ من بر أبويّ شيء بعد موتهما أبرهما به ؟ قال : نعم ، خصال أربع : الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما ، وإكرام صديقهما ، وصلة الرحم التى لا رحم لك إلا من قبلهما ، فهو الذى بقى عليك بعد موتهما (٤) من برهما .

ورواه أبو داود وابن ماجه ، من حديث عبد الرحمن بن سليمان — وهو ابن الغسيل — به (٥) .

حديث آخر ، وقال الإمام أحمد : حدثنا روح ، حدثنا ابن جُرَيج ، أخبرنى محمد بن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن معاوية بن جاهمة السلمى : أن جاهمة جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، أردت الغزو ، وجئتك أستشيرك ؟ فقال : فهل لك من أم ؟ قال : نعم . فقال : الزمها (٦) ، فإن الجنة تحت رجليها ، ثم الثانية ثم الثالثة ، فى مقاعد شتى ، كمثل هذا القول (٧) .

ورواه النسائى وابن ماجه ، من حديث ابن جريج ، به .

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا خلف بن الوليد ، حدثنا ابن عياش ، عن بَحِير بن سعد ، عن خالد ابن معدان ، عن المقدام بن معد يكرب الكندى، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إن الله يوصيكم بآبائكم ، إن الله

---

(١) فى مسند الإمام أحمد : « عن سعيد ، عن أبي سعيد » . والصواب ما فى تفسير ابن كثير ، وهو : سعيد بن أبي سعيد المقبرى ، يكنى أبا سعيد ، يروى عن أبي هريرة . وقد ورد على الصواب أيضا فى سنن الترمذى .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٢/٢٥٤ .

(٣) تحفة الأحوذى ، أبواب الدعوات ، الحديث ٣٦١٣ : ٩/٥٣٠ ، ٥٣١ ، وقال الحافظ أبو العلى صاحب تحفة الأحوذى « وأخرجه ابن حبان فى صحيحه ، والبزار فى مسنده ، والحاكم فى مستدركه ، وقال : صحيح » .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٣/٤٩٧ ، ٤٩٨ .

والمقصود بالصلاة على الوالدين فى هذا الحديث الدعاء لهما .

(٥) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب فى بر الوالدين . وسنن ابن ماجه ، كتاب الأدب ، باب « صل من كان أبوك يصل » الحديث ٣٦٦٤ : ٢/١٢٠٨ ، ١٢٠٩ .

(٦) يبدو أن أمه كانت فى حاجة إلى رعاية ، لمرض أو شيخوخة .

(٧) مسند الإمام أحمد : ٣/٤٢٩

يوصيكم بأمهاتكم ، إن الله يوصيكم بأمهاتكم ، إن الله يوصيكم بامهاتكم ، إن الله يوصيكم بالأقرب فالأقرب (١) »

وقد أخرجه ابن ماجه ، من حديث ابن عياش ، به (٢) .

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا يونس ، حدثنا أبوعوانة ، عن الأشعث بن سليم ، عن أبيه ، عن رجل من بنى يربوع قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فسمعته وهو يكلم الناس يقول : يد المعطى [العليا] . أمك وأباك ، وأختك وأخاك ، ثم أدناك أدناك (٣) » .

حديث آخر ، قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار فى مسنده : حدثنا إبراهيم بن المستمر العُرُوقى ، حدثنا عمرو بن سفيان ، حدثنا الحسن بن أبي جعفر ، عن ليث بن أبي سليم ، عن علقمة بن مرثد ، عن سليمان بن بُرَيدة ، عن أبيه : أن رجلا كان فى الطواف حاملا أمه يطوف بها ، فسأل النبيّ صلى الله عليه وسلم : هل أديتُ حقها ؟ قال : لا ، ولابزفرة واحدة ، أو كما قال . ثم قال البزار : لا نعلمه يروى إلا من هذا الوجه .

قلت : والحسن بن أبي جعفر ضعيف ، والله أعلم .

رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾

قال سعيد بن جبير : هو الرجل تكون منه البادرة إلى أبويه ، وفى نيته وقلبه أنه لا يؤخَذُ به ـ وفى رواية : لا يريد إلا الخير بذلك ـ فقال : (ربكم أعلم بما فى نفوسكم (٤)) :

وقوله : (فإنه كان للأوابين غفوراً) ـ قال قتادة : للمطيعين أهل الصلاة .

وعن ابن عباس : المسبّحين ـ وفى رواية عنه : المطيعين المحسنين .

وقال بعضهم : هم الذين يصلون بين العشاءين : وقال بعضهم : هم الذين يصلون الضحى :

وقال شعبة ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب فى قوله : (وكان للأوابين غفوراً) ، قال : الذى يصيب الذنب ثم يتوب ، ويصيب الذنب ثم يتوب (٥) .

وكذا رواه عبد الرزاق ، عن الثورى ومعمر ، عن يحيى بن سعيد، عن ابن المسيب ، به . وكذا قال عطاء ابن يسار .

وقال مجاهد ، وسعيد بن جُبَيْر : هم الراجعون إلى الخير :

(١) مسند الإمام أحمد : ٤/١٣٢ .
(٢) سنن ابن ماجه ، كتاب الأدب ، باب « بر الوالدين » ، الحديث ٣٦٦١ : ٢/١٢٠٧ ، ١٢٠٨ .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٤/٦٤ ، ٦٥ .
(٤) تفسير الطبرى : ١٥/٥٠ ، ٥١ .
(٥) تفسير الطبرى : ١٥/٥١ .

وقال مجاهد ، عن عبيد بن عمير فى قوله : (إنه كان للأوابين غفورا) ، قال : هو الذى يذكر ذنوبه فى الخلاء ، فيستغفر الله منها . ووافقه على ذلك مجاهد .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا محمد بن مُسلِم ، عن عمرو بن دينار ، عن عُبَيْد بن عُمَيْر فى قوله : (فإنه كان للأوابين غفوراً) ، قال : كنا نعد الأواب الحفيظ ، أن يقول : اللهم اغفرلى ما أصبت فى مجلسى هذا (١) .

وقال ابن جرير : والأولى فى ذلك قول من قال : هو التائب من الذنب ، الراجع عن المعصية إلى الطاعة ، مما يكره الله إلى ما يحبه ويرضاه (١) .

وهذا الذى قاله هو الصواب ؛ لأن الأواب مشتق من الأوب ، وهو الرجوع ، يقال : آب فلان إذا رجع ، قال الله تعالى : (إن إلينا إيابهم (٢)) ، وفى الحديث الصحيح : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا رجع من سفر قال : « آيبون تائبون عابدون ، لربنا حامدون (٣) » .

وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾

لما ذكر تعالى بر الوالدين ، عطف بذكر الإحسان إلى القرابة وصلة الأرحام ، كما تقدم فى الحديث : « أمك وأباك ، ثم أدناك أدناك » وفى رواية : « ثم الأقرب فالأقرب » .

وفى الحديث : « من أحب أن يبسط له رزقُه وينسأ له فى أجله ، فليصل رحمه (٤) » .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا عباد بن يعقوب ، حدثنا أبو يحيى التيمى ، حدثنا فضيل بن مرزوق ، عن عطية ، عن أبى سعيد قال : لما نزلت هذه الآية : (وآت ذا القربى حقه) ، دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة فأعطاها « فَدَكَ(٥) » . ثم قال : لا نعلم حدّث به عن فُضَيل بن مرزوق إلا أبو يحيى التيمى ، وحميد بن حمّاد ابن أبى الخوار .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٥/٥٢ .

(٢) سورة الغاشية الآية : ٢٥ .

(٣) البخارى ، أبواب العمرة ، باب « مايقول إذا رجع من الحج أو العمرة أو الغزو » : ٣/٨ ، ٩ . ومسلم ، كتاب الحج ، باب « مايقول إذا قفل من سفر الحج وغيره . » : ٤/١٠٥ ، وسنن أبى داود ، كتاب الحج ، باب « مايقول الرجل إذا سافر » ، الحديث ٢٥٩٩ : ٣/٣٣ . ومسند الإمام أحمد : ١/٥٦ .

(٤) البخارى ، كتاب البيوع ، باب « من أحب البسط فى الرزق » : ٣/٧٣ ، ومسلم ، كتاب البر ، باب « صلة الرحم وتحريم قطيعتها » : ٨/٨ .
وقد تقدم تفسير كلمة « نسأ » فى : ١/٢١٧ .

(٥) فدك – بفتح الفاء والدال – : قرية بالحجاز ، بينها وبين المدينة يومان ، أفاءها الله على رسوله عليه السلام صلحا ، فيها عين فوارة ونخل . وهى التى قالت عنها فاطمة رضى الله عنها : إن رسول الله نحلنيها . فقال أبو بكر : أريد لذلك شهوداً .

وهذا الحديث مشكل لو صح إسناده ؛ لأن الآية مكية ، وفَدَك إنما فتحت مع خيبر سنة سبع من الهجرة ، فكيف يلتئم هذا مع هذا .

وقد تقدم الكلام على المساكين وابن السبيل فى « سورة براءة » بما أغنى عن إعادته هاهنا .

وقوله : (ولا تبذر تبذيرا) ، لما أمر بالإنفاق نَهَى عن الإسراف فيه ، بل يكون وسطا ، كما قال فى الآية الأخرى : (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما (١)) .

ثم قال منفرا عن التبذير والسرف : (إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين) ، أى : أشباههم فى ذلك .

وقال ابن مسعود : التبذير الإنفاق فى غير حق . وكذا قال ابن عباس .

وقال مجاهد : لو أنفق إنسان ماله كله فى الحق ، لم يكن مبذرا . ولو أنفق مُدّاً فى غير حقه كان تبذيرا .

وقال قتادة : التبذير النفقة فى معصية الله ، وفى غير الحق وفى الفساد (٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا ليث ، عن خالد بن يزيد ، عن سعيد بن أبى هلال ، عن أنس ابن مالك أنه قال : أتى رجل من بنى تميم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ، إنى ذو مال كثير ، وذو أهل وولد وحاضرة (٣) ، فأخبرنى : كيف أنفق وكيف أصنع ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تخرج الزكاة من مالك ، فإنها طُهْرَة تطهرك ، وتصل أقرباءك ، وتعرف حق السائل والجار والمسكين . فقال : يا رسول الله ، أقلل لى ؟ فقال : (فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً) ، فقال : حسبى يا رسول الله ، إذا أديت الزكاة إلى رسولك فقد برئت منها إلى الله وإلى رسوله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نعم إذا أديتها إلى رسولى فقد برئت منها ، فلك أجرها ، وإثمها على من بدلها (٤) » .

وقوله : (إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين) ، أى : فى التبذير والسَّفَه ، وترك طاعة الله وارتكاب معصيته ؛ ولهذا قال : (وكان الشيطان لربه كفوراً) ، أى : جحودا ، لأنه أنكر نعمة الله عليه ، ولم يعمل بطاعته ، بل أقبل على معصيته ومخالفته .

وقوله : (وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها ، فقل لهم قولا ميسوراً) ، أى : وإذا سألك أقاربك ومن أمَرْناك بإعطائهم ، وليس عندك شىء ، وأعرضت عنهم لفقد النفقة ، (فقل لهم قولا ميسوراً) ، أى عدهم وَعدا بسهولة ولين : إذا جاء رزق الله فسنصلكم إن شاء الله . هكذا فَسَّر قوله : (فقل لهم قولا ميسوراً) بالوعد ــ مجاهدُ ، وعكرمة ، وسعيد بن جُبَير ، والحسن ، وقتادة ، وغير واحد .

---

(١) سورة الفرقان ، آية : ٦٧ .

(٢) ينظر هذه الآثار فى تفسير الطبرى : ١٥/٥٣ ، ٥٤ .

(٣) الحاضرة هنا بمعنى : القرابة .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٣/١٣٦ .

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾

يقول تعالى آمراً بالاقتصاد فى العيش ، ذاماً للبخل ، ناهياً عن السَّرَف : (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عُنُقك) ، أى : لاتكن بخيلا مَنُوعا ، لاتعطى أحدا شيئاً ، كما قالت اليهود عليهم لعائنُ الله : (يد الله مغلولة)(١)، أى : نسبوه إلى البخل ، تعالى وتقدّس الكريم الوهاب .

وقوله : (ولا تبسطها كل البسط) ، أى : ولا تسرف فى الإنفاق ، فتعطىَ فوق طاقتك ، وتُخرجَ أكثر من دخلك ، فتقعدَ ملوما محسورا

وهذا من باب اللف والنشر ، أى : فتقعد إن بخلت ملوما ، يلومك الناس ويذمونك ويستغنون عنك ، كما قال زهير ابن أبى سُلمى فى المعلقة : (٢)

وَمَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَيَبْخَلْ بِمَالِهِ *** عَلَى قَوْمِهِ يُسْتَغْنَ عَنْهُ وَيُذْمَمِ

ومتى بَسَطت يدك فوق طاقتك ، قعدت بلا شىء تنفقه ، فتكون كالحسير — وهو : الدابة التى قد عَجَزت عن السير ، فوقفت ضعفا وعجزاً ، فإنها تسمى الحسير ، وهو مأخوذ من الكلال ، كما قال تعالى : (فارجع البصر هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ، ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير (٣)) ، أى : كليل عن أن يرى عيبا . هكذا فسر هذه الآية بأن المراد هنا البخل والسرف — ابنُ عباس ، والحسن ، وقتادة ، وابنُ جريج ، وابن زيد ، وغيرهم .

وقد جاء فى الصحيحين ، من حديث أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هُرَيرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : مثل البخيل والمنفق ، كمثل رجلين عليهما جُبَّتان من حديد ، من ثُدِيِّهما إلى تراقيهما (٤) . فأما المنفق فلا ينفق إلا سَبَغَت — أو : وفرت (٥) — على جلده ، حتى تُخفىَ بنانه وتَعفُوَ (٦) أثره . وأما البخيل فلا يُريدُ أن ينفق شيئاً إلا لَزِقَت كلّ حلقة مكانها ، فهو يُوَسّعها فلا تَتّسع (٧) » .

هذا لفظ البخارى فى « الزكاة » .

---

(١) سورة المائدة ، آية : ٦٤ .

(٢) ديوانه : ٣٠ ، ورواية الشطر الأول فيه :

* ومن يك ذا فضل ويبخل بفضله *

أما رواية الأعلم فهى :

* ومن يك ذا مال فيبخل بماله *

(٣) سورة الملك : ٤

(٤) التراق : جمع ترقوة ، وهى العظم الذى بين ثغرة النحر والعاتق ، وهما ترقوتان من الجانبين .

(٥) أى : كملت واتسعت .

(٦) أى : تمحو أثر مشيته وتطمسه ، لفضلها عن قامته .

(٧) أخرجاه فى كتاب الزكاة : البخارى ، باب « مثل المتصدق والبخيل » : ١٤٣/٢ . ومسلم ، باب « مثل المنفق والبخيل » : ٨٨/٣ .

وفى الصحيحين ، من طريق هشام بن عَروة ، عن زوجته فاطمة بنت المنذر ، عن جدتها أسماء بنت أبى بكر قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنفقى هكذا وهكذا وهكذا ، ولا تُوعى فيُوعِى(١) الله عليك ، ولا تُوكِى فيُوكِيَ اللهُ عليك » ـ وفى لفظ : « ولا تحصى فيحصى الله عليك (٢) » .

وفى صحيح مسلم من طريق عبد الرزاق ، عن معمر ، عن همّام ، عن أبى هُرَيرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله قال لى : أنفِقْ أنفقْ عليك (٣) » .

وفى الصحيحين من طريق معاوية بن أبى مُزَرِّد ، عن سعيد بن يَسَار ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ومَلَكان ينزلان من السماء ، يقول أحدهما : اللهم أعط مُنفقا خلَفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلَفاً (٤) » .

وروى مسلم ، عن قتيبة ، عن إسماعيل بن جعفر ، عن العلاء ، عن أبيه ، عن أبى هريرة مرفوعا : « ما نقص مال من صدقة ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزّاً ، ومن تواضع لله رفعه الله (٥) » .

وفى حديث أبى كثير ، عن عبد الله بن عَمْرو مرفوعا : « إياكم والشح ، فإنه أهلك من كان قبلكم ، أمرهم بالبخل فبَخلوا ، وأمرهم بالقَطيعة فقطعوا ، وأمرهم بالفجور ففَجَرُوا (٦) » .

وروى البيهقى من طريق سعدان بن نصر (٧) ، عن أبى معاوية ، عن الأعمش عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما يخرج رجل صدقة ، حتى يفُكَّ لَحْيَى سبعين شيطانا (٨) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو عبيدة الحداد ، حدثنا سُكَين بن عبد العزيز ، حدثنا إبراهيم الهَجَرى ، عن أبى الأحوص ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما عال من اقتصد (٩) » .

---

(١) الإيعاء : جعل الشيء فى الوعاء ، والمراد به : منع الفضل عن افتقر إليه . وانظر معنى الإيكاء فى : ١٧٧/٣ ، ٨٥/٤ . ومعنى « فيحصى الله عليك ، ويوعى عليك » : يمنعك فضله ويقتّر عليك ، كما منعت وقترت .

(٢) البخارى ، كتاب الهبة ، باب « هبة المرأة لغير زوجها » : ٢٠٧/٣ ، ومسلم ، كتاب الزكاة ، باب « الحث على الإنفاق وكراهة الإحصاء » : ٩٢/٣ ، ٩٣ .

(٣) مسلم ، كتاب الزكاة ، باب « الحث على الزكاة ، وتبشير المنفق بالخلف » : ٧٧/٣ .

(٤) أخرجاه فى كتاب الزكاة : البخارى باب قول الله تعالى : (فأما من أعطى واتقى . . . .) : ١٤٢/٢ . ومسلم ، باب « فى المنفق والممسك » . : ٨٣/٣ ، ٨٤ .

(٥) مسلم ، كتاب البر ، باب « استحباب العفو والتواضع » : ٢١/٨ . ولفظ مسلم : « وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله » .

(٦) مسند الإمام أحمد : ١٥٩/٢ ، ١٦٠ ، ١٩١ ، ١٩٥ .

(٧) هو سعدان بن نصر البغدادى ، يروى عن أبى معاوية الضرير ، وسفيان بن عيينة . مترجم فى الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٢٩٠/١/٢ ، ٢٩١ .

(٨) مضى تفسير « اللحى » فى : ٤٥١/٣ ، ٥١٢ .

(٩) مسند الإمام أحمد : ٤٤٧/١ .

وقوله : (إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) : إخبار أنه تعالى هو الرزاق ، القابض الباسط ، المتصرف فى خلقه بما يشاء ، فيغنى من يشاء ويفقر من يشاء ، بما له فى ذلك من الحكمة ، ولهذا قال : (إنه كان بعباده خبيرا بصيرا) ، أى : خبير بصير بمن يستحق الغنى ومن يستحق الفقر ، كما جاء فى الحديث : « إن من عبادى من لا يصلحه إلا الفقر ، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه . وإن من عبادى من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه » .

وقد يكون الغنى فى حقّ بعض الناس استدراجا ، والفقرُ عقوبة ، عياذاً بالله من هذا وهذا.

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ (٣١)

هذه الآية الكريمة دالة على أن الله تعالى أرحمُ بعباده من الوالد بولده ؛ لأنه ينهى عن قتل الأولاد ، كما أوصى بالأولاد فى الميراث، وقد كان أهلُ الجاهلية لا يورّثون البنات، بل كان أحدُهم ربما قتلَ ابنته لئلا تكثر عيلته(١)، فنهى الله عن ذلك فقال : (ولا تقتلوا أولادكم خشيةَ إملاق) ، أى : خوفَ أن تفتقروا فى ثانى الحال ، ولهذا قدّم الاهتمام برزقهم فقال : (نحن نرزقهم وإياكم) ، وفى الأنعام : (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق) ، أى : من فقر ، (نحن نرزقكم وإياهم (٢)) .

وقوله : (إن قتلهم كان خطئاً كبيراً) ، أى : ذنبا عظيما .

وقرأ بعضهم (كان خَطَأً كبيرا) ، وهو بمعناه (٣) .

وفى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قلت : يا رسول الله ، أىّ الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك . قلت : ثم أىّ ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يَطْعَم معك . قلتُ : ثم أىّ ؟ قال : أن تزانى بحليلة جارك (٤) .

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ (٣٢)

يقول تعالى ناهيا عبادَه عن الزنا وعن مقاربته ، وهو مخالطة أسبابه ودواعيه : (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة) ، أى : ذنبا عظيما ، (وساء سبيلا) ، أى : وبئس طريقا ومسلكا.

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا جرير ، حدثنا سليم بن عامر ، عن أبى أمامة قال : إن فتى شابا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، ائذن لى بالزنا . فأقبل القومُ عليه فزَجَرُوه ، وقالوا : مَهْ مَهْ . فقال : ادنُهْ . فدنا منه قريبا ، فقال : اجلس . فجلس ، قال : أتُحبه لأمك ؟ قال : لا والله ، جعلنى الله فداك ،

---

(١) تقدم تفسير « العيلة » فى : ٣/٣٢٧ .

(٢) آية : ١٥١ .

(٣) هذه القراءة نسبها الطبرى إلى بعض قراء أهل المدينة ، بفتح الخاء والطاء : ١٥/٥٧ . وانظر القراءات أيضا فى البحر المحيط لأبى حيان : ٦/٣٢ .

(٤) تقدم تخريج الحديث فى سورة الأنعام : ٣/٣٥٦ .

قال : ولا الناس يحبونه لأمهاتهم . قال : أفتحبه لابنتك ؟ قال: لا والله يا رسول الله ، جعلني الله فداك . قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم ، قال : أتحبه لأختك ؟ قال : لا والله ، جعلني الله فداك . قال : ولا الناس يحبونه لأخواتهم . قال : أفتحبه لعمتك ؟ قال : لا والله، جعلني الله فداك . قال : ولا الناس يحبونه لعماتهم . قال : أفتحبه لخالتك ؟ قال : لا والله ، جعلني الله فداك . قال : ولا الناس يحبونه لخالاتهم . قال : فوضع يده عليه وقال : اللهم ، اغفر ذنبه ، وطهر قلبه ، وحصّن فرجه قال : فلم يكن بعدَ ذلك الفتى يلتفتُ إلى شيء (١) .

وقال ابن أبي الدنيا : حدثنا عمار بن نصر ، حدثنا بقية ، عن أبي بكر بن أبي مريم ، عن الهيثم بن مالك (٢) الطائي ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما من ذنب بعد الشرك أعظمَ عند الله من نُطفة وَضعها رجلٌ في رَحِم لا يحلّ له » .

وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾

يقول تعالى ناهياً عن قتل النفس بغير حق شرعي ، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا يحلّ دمُ امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا باحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والزاني المحصن ، والتارك لدينه المفارق للجماعة (٣) .

وفي السنن : لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل مسلم » :

وقوله : (ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا) ، أي : سلطة على القاتل ، فإنه بالخيار فيه ، إن شاء قتله قَوَداً ، وإن شاء عفا عنه على الدية ، وإن شاء عفا عنه مجانا ، كما ثبتت السنة بذلك . وقد أخذ الإمام الحبر ابنُ عباس من عموم هذه الآية الكريمة ولايةَ معاوية السلطنة ، وأنه سيملك ؛ لأنه كان وليّ عثمان ، وقد قُتل عثمان مظلوما رضي الله عنه . وكان معاوية يطالب علياً رضي الله عنه أن يسلمه قتلته حتى يقتص منهم ، لأنه أموي ، وكان علي رضي الله عنه يستمهله في الأمر حتى يتمكنَ ويفعلَ ذلك ، ويطلب عليٌ من معاوية أن يسلمه الشام ، فيأبى معاوية ذلك حتى يسلمه القتلة ، وأبى أن يبايع علياً هو وأهل الشام ، ثم مع المطاولة تمكن معاوية وصار الأمر إليه كما تفاءل ابن عباس واستنبط من هذه الآية الكريمة . وهذا من الأمر العجيب . وقد روى ذلك الطبراني في معجمه حيث قال :

حدثنا يحيى بن عبد الباقي ، حدثنا أبو عمير بن النحاس ، حدثنا ضمرة بن ربيعة ، عن ابن شَوْذب ، عن مطر الوراق ، عن زَهْدَم الجرْمي قال : كنا في سمر ابن عباس فقال : إني محدثكم حديثاً ليس بسر ولا علانية ؛ إنه لما كان من أمر هذا الرجل ما كان ـــ يعني عثمان ـــ قلت لعلي : اعتزل ، فلو كنتَ في جحر طُلبتَ حتى تُستَخرَج ـــ فعصاني ـــ

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٥/٢٥٦ ، ٢٥٧ .

(٢) الهيثم بن مالك الطائي . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، مرسلا . مترجم في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ٤/٢/٨٠ . والتهذيب : ١١/٩٨ ، ٩٩ .

(٣) تقدم تخريج الحديث في سورة الأنعام : ٣/٣٥٧ ، ٣٥٨ .

وايمُ الله ليتأمّرنّ عليكم معاويةُ ، وذلك أن الله تعالى يقول : (ومن قتل مظلوما ، فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف فى القتل) ... الآية ، وليحملنّكم قريش على سنة فارس والروم وليقيمن (١) عليكم النصارى واليهود والمجوس ، فمن أخذ منكم يومئذ بما يُعرف نجا ، ومن ترك وأنتم تاركون كنتم كقرن من القرون ، هلك فيمن هلك .

وقوله : (فلا يسرف فى القتل) ، قالوا : معناه : فلا يسرف الولى فى قتل القاتل ، بأن يُمَثّل به ، أو يقتص من غير القاتل .

وقوله : (إنه كان منصورا) ، أى : إن الولى منصور على القاتل شرعا ، وغالباً قدراً .

وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾

يقول تعالى : (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن) ، أى : لا تتصرفوا له إلا بالغبطة (ولا تأكلوا أموالهم [إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيراً (٢)] و [لا تأكلوها (٣)] إسرافاً وبداراً أن يكبروا ، ومن كان غنياً فليستعفف ، ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف (٤)) .

وقد جاء فى صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبى ذر : « يا أبا ذر ، إنى أراك ضعيفا ، وإنى أحب لك ما أحب لنفسى : لا تأمرن على اثنين ، ولا تَولّين مال يتيم (٥) » .

وقوله : (وأوفوا بالعهد) ، أى : الذى تُعاهدون عليه الناس والعقود التى تعاملونهم بها ، فإن العهد والعقد كلّ منهما يُسأل صاحبه عنه ، (إن العهد كان مسئولا) ، أى : عنه .

وقوله : (وأوفوا الكيل إذا كلتم) ، أى : من غير تطفيف ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم :

(وزنوا بالقسطاس) : قُرئ بضم القاف وكسرها كالقرطاس ، وهو : الميزان . وقال مجاهد : هو العدل بالرومية (٦) .

وقوله : (المستقيم) ، أى : الذى لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا اضطراب .

(ذلك خير) ، أى : لكم فى معاشكم ومعادكم ، ولهذا قال : (وأحسن تأويلا) ، أى : مآلا ومنقلبا فى آخرتكم .

قال سعيد، عن قتادة: (ذلك خير وأحسن تأويلا) ، أى: خير ثوابا وعاقبة . [وأخبرنا أن](٧) ابن عباس كان يقول : يا معشر الموالى ، إنكم وُلّيتم أمرين بهما هلك الناس قبلكم : هذا المكيال ، وهذا الميزان — قال : وذكر لنا

---

(١) فى المخطوطة : « وليتمتن » . والمثبت عن الطبعات السابقة .
(٢) سورة النساء ، آية : ٢ .
(٣) مابين القوسين زيادة لابد منها .
(٤) سورة النساء ، آية : ٦ .
(٥) تقدم تخريج الحديث فى سورة النساء : ٢/١٩١ .
(٦) تفسير الطبرى : ١٥/٦١ .
(٧) مابين القوسين عن تفسير الطبرى . ومكانه فى المخطوطة : « وأما » .

أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: « لا يقدرُ رجل على حرام ثم يدعه ، ليس به إلا مخافة الله ، إلا أبدله الله فى عاجل الدنيا قبل الآخرة ماهو خير له من ذلك » :

وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : يقول : لا تقل :

وقال العوفى عنه : لا تَرْمِ أحَداً بما ليس لك به علم :

وقال محمد بن الحَنَفِيَّة : يعنى شهادة الزور :

وقال قتادة : لا تقل رأيت — ولم تر ، وسمعت — ولم تسمع ، وعلمت — ولم تعلم ؛ فإن الله سائلك عن ذلك كله (١) .

ومضمون ما ذكروه أن الله تعالى نَهى عن القول بلا علم ، بل بالظن الذى هو التوهم والخيال ، كما قال تعالى : (اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم (٢)) ، وفى الحديث : « إياكم والظن ؛ فإن الظن أكذبُ الحديث (٣) » وفى سنن أبى داود : « بئس مطيةُ الرجل : زعموا (٤) » ، وفى الحديث الآخر : « إن أفْرى الفِرَى أن يُرِىَ عينيه مالم تريا (٥) » . وفى الصحيح : « من تحلم حلماً كُلِّف يوم القيامة أن يعقد بين شَعِيرتَين ، وليس . بعاقد (٦) » .

وقوله: (كل أولئك) ، أى : هذه الصفات من السمع والبصر والفؤاد ، (كان عنه مسئولا) ، أى : سيسأل العبد عنها يوم القيامة ، وتُسألُ عنه وعما عمل فيها . ويصح استعمال « أولئك » مكان « تلك » ، كما قال الشاعر (٧) :

ذُمَّ المَنَازِلَ بَعْدَ مَنْزِلَةِ اللِّوَى ... وَالعَيْشَ بَعْدَ أولئكَ الأيَّامِ

---

(١) تفسير الطبرى : ١٥/٦٢ .

(٢) سورة الحجرات ، آية : ١٢ .

(٣) البخارى ، كتاب النكاح ، باب « لايخطب على خطبة أخيه » : ٧/٢٤ . ومسلم ، كتاب البر ، باب « تحريم الظن والتجسس » : ٨/١٠ .

(٤) سنن أبى داود ، كتاب الأدب ، باب « قول الرجل زعموا » ، الحديث ٤٩٧٢ : ٤/٢٩٤ .

(٥) البخارى ، كتاب التعبير ، باب « من كذب فى حلمه » : ٩/٥٤

(٦) البخارى ، الكتاب والباب المتقدمان : ٩/٥٤ . وسنن أبى داود ، كتاب الأدب ، باب « ماجاء فى الرؤيا » ، الحديث ٥٠٢٤ : ٤/٣٠٦ . وتحفة الأحوذى ، أبواب الرؤيا ، باب « ماجاء فى الذى يكذب فى حلمه » ، الأحاديث ٢٣٨٣ — ٢٣٨٥ : ٦/٥٦١ ، ٥٦٢ ، . وابن ماجه ، كتاب تعبير الرؤيا ، باب « من تحلم حلما كاذبا » ، الحديث ٣٩١٦ : ٢/١٢٨٩ . ومسند الإمام أحمد : ١/٢١٦ ، ٢٤٦ ، ٣٥٩ ، ٢/٥٠٤ .

والمعنى : أنه يكلف عقد الشعيرتين ، وهو غير ممكن ، فهو يعذب ليفعل ذلك ، ولا يمكنه فعله . وهذا كناية عن دوام تعذيبه .

(٧) هو جرير ، والبيت فى ديوانه ط بيروت : ٤٥٢ . والرواية فيه : « بعد أولئك الأقوام » . ولكن كذا وردت الرواية فى تفسير الطبرى : ١٥/٦٢ ، والمقتضب للمبرد : ١/١٨٥ ، وشرح شواهد الكافية : ٤/١٦٧ . يقول البغدادى : « قال العينى : ويروى : « الأقوام » بدل « الأيام » وحينئذ لاشاهد فيه وزعم ابن عطية أن هذه الرواية — يعنى : بعد أولئك الأقوام — هى الصواب ، وأن الطبرى غلط إذ أنشد « الأيام » . وأن الزجاج اتبعه فى هذا الغلط . ومعنى البيت أنه يتأسف على منزله باللوى — وهو مكان — وأيام مضت له فيه ، وأنه لم يتهن بعيش تلك الأيام ، ولاراق له منزل .

وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾

يقول تعالى ناهياً عباده عن التجبّر والتبختر فى المشية : (ولا تمش فى الأرض مرحاً) ، أى : متبختراً متمايلا مشى الجبّارين ، (إنك لن تخرق الأرض) ، أى : لن تقطع الأرض بمشيتك ، قاله ابن جرير ، واستشهد عليه بقول رُؤبة بن العجّاج (١) :

« وقَاتِمِ الأعْمَاقِ خَاوِى المُخْتَرَقْ »

وقوله : (ولن تبلغ الجبال طولا) ، أى : بتمايلك وفخرك وإعجابك بنفسك ، بل قد يجازَى فاعل ذلك بنقيض قصده، كما ثبت فى الصحيح : « بينا رجل يمشى فيمن كان قبلكم ، وعليه بردان يتبختر فيهما ، إذ خُسِفَ به الأرض ، فهو يتجلجل (٢) فيها إلى يوم القيامة (٣) » .

وكذلك أخبر الله عن قارون أنه خرج على قومه فى زينته ، وأن الله تعالى خسف به وبداره الأرض ، وفى الحديث : « من تواضع لله رفعه الله ، فهو فى نفسه حقير وعند الناس كبير ، ومن استكبر وضعه الله فهو فى نفسه كبير وعند الناس حقير ، حتى لهو أبغض إليهم من الكلب أو الخنزير » .

وقال أبو بكر بن أبى الدنيا فى كتاب « الخمول والتواضع » : حدثنا أحمد بن إبراهيم بن كثير ، حدثنا حجاج ابن محمد ، عن أبى بكر الهذلى قال : بينا نحن مع الحسن ، إذ مرّ عليه ابن الأهيم — يريد المنصور — وعليه جِبَابُ خَزّ قد نُضِّد بعضها فوق بعض على ساقه ، وانفرج عنها قباؤه ، وهو يمشى ويتبختر ، إذ نظر إليه الحسن نظرة فقال : أف أف ، شامخ بأنفه ، ثان عِطْفه ، مصعر خده ، ينظر فى عطفيه ، أىّ حُمَيِّق ينظر فى عطفه فى نِعَم غير مشكورة ولا مذكورة ، غير المأخوذ بأمر الله فيها ، ولا المؤدِّى حقّ الله منها ! والله إن يمشى أحدهم طبيعته يتلجلج تلجلج المجنون ، فى كل عضو منه نعمة ، وللشيطان به لعنة : فسمعه ابن الأهيم فرجع يعتذر إليه ، فقال : لا تعتذر إلىّ ، وتب إلى ربك ، أما سمعت قول الله تعالى : (ولا تمش فى الأرض مرحاً ، إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا) .

---

(١) الأرجوزة فى أراجيز العرب للبكرى : ٢٢–٣٨ . وخزانة الأدب للبغدادى ، تحقيق عبد السلام هارون : ١/٧٨ – ٩٣ . وانظر البيت فى الشعر والشعراء لابن قتيبة : ٦١ .

و « قاتم » : من القتمة — وهى الغبرة إلى الحمرة . و « الأعماق » : جمع عمق – بفتح العين وضمها — وهو مابعد من أطراف المفازة . و « الخاوى » : الخالى . و « المخترق » : مكان الاختراق . وأصله من « خرقت القميص » : إذا قطعته . وقد استعمل فى قطع المفازة ، فقيل : خرقت الأرض : إذا جبتها . وهذا معنى قول الطبرى ١٥/٦٣ : « يعنى بالمخترق : المقطع » . أى : مكان القطع .

(٢) أى : يغوص فى الأرض حين يخسف به .

(٣) مسلم ، كتاب اللباس ، باب « تحريم التبختر فى المشى مع إعجابه بثيابه » : ٦/١٤٨ ، ١٤٩ . ومسند الإمام أحمد عن أبى هريرة : ٢/٢٢٢ ، ٢٦٧ ، ٣١٥ .

ورأى البخترىّ العابدُ رجلاً من آل على يمشى وهو يخطر فى مشيته ، فقال له : ياهذا ، إن الذى أكرمك به لم تكن هذه مشيته ! قال : فتركها الرجل بعد .

ورأى ابن عمر رجلا يخطر فى مشيته ، فقال : إن للشياطين إخوانا .

وقال خالد بن معدان : إياكم والخطر ، فإن الرّجُلَ (١) يَدُه من سائر جسده . رواهما ابن أبى الدنيا .

وقال ابن أبى الدنيا : حدثنا خلف بن هشام البزار ، حدثنا حماد بن زيد ، عن يحيى عن سعيد ، عن يحنّس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا مشت أمتى المطيطاء (٢) ، وخدمتهم فارس والروم ، سلط بعضهم على بعض » .

وقوله تعالى : (كل ذلك كان سيِّئه عند ربك مكروها) — أما من قرأ (سيئةً (٣)) ، أى : فاحشة : فمعناه عنده : كل هذا الذى نهينا عنه ، من قوله : (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق) إلى هاهنا ، فهو سيئة مؤاخذ عليها (مكروهاً) عند الله ، لا يحبه ولا يرضاه .

وأما من قرأ (سيئه) على الإضافة فمعناه عنده ، كل هذا الذى ذكرناه من قوله : (وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه) إلى هاهنا فسيئه ، أى : فقبيحه مكروه عند الله ، هكذا وجّه ذلك ابن جرير رحمه الله (٤) .

ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾

يقول تعالى : هذا الذى أمرناك به من الأخلاق الجميلة ، ونهيناك عنه من الصفات الرذيلة ، مما أوحينا إليك يا محمد ، لتأمر به الناس .

(ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى فى جهنم ملوما) ، أى : تلومك نفسك والخلق ، (مدحوراً) — قال ابن عباس وقتادة : مطروداً (٥) .

والمراد من هذا الخطاب الأمة بواسطة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فإنه صلوات الله وسلامه عليه معصوم .

أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾

يقول تعالى رادّا على المشركين الكاذبين الزاعمين — عليهم لعائن الله — أن الملائكة بناتُ الله ، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ، ثم ادّعوا أنهم بنات الله ، ثم عبدوهم فأخطأوا فى كل من المقامات الثلاث خطأ عظيما ،

---

(١) فى المخطوطة بعد كلمة « الرجل » فراغ يسع كلمة .

(٢) المطيطاء : مشية فيها تبختر ومد اليدين .

(٣) نسب الطبرى هذه القراءة إلى عامة قراء أهل المدينة والبصرة ، وبعض قراء الكوفة

(٤) اختار الطبرى قراءة الإضافة وقال ١٥/٦٣ : « وأولى القراءتين عندى فى ذلك بالصواب قراءة من قرأ : (كل ذلك كان سيئه) ، على إضافة « السيء » الى « الهاء » ، بمعنى : كل الذى عددنا من (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) ، كان سيئه ، لأن فى ذلك أموراً منهيا عنها ، وأمورا مأمورا بها ، وابتداء الوصية والعهد من ذلك الموضع ، دون قوله : (ولا تقتلوا أولادكم) ، فإنما هو عطف على ماتقدم من قوله : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) .

(٥) تفسير الطبرى : ١٥/٦٤ .

فقال تعالى منكرا عليهم : (أفأصفاكم ربكم بالبنين) ، أى : خصصكم بالذكور (واتخذ من الملائكة إناثاً) ، أى : واختار لنفسه على زعمكم البنات ؟. ثم شدد الإنكار عليهم فقال: (إنكم لتقولون قولا عظيما) ، أى : فى زعمكم أن لله ولدا ، ثم جَعْلكم ولده الإناث التى تأنفون أن يَكُنَّ لكم ، وربما قتلتموهُنَّ بالوأد ، فتلك إذا قسمة ضيزى .
وقال تعالى : (وقالوا : اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئاً إدًّا . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا . أن دعوا للرحمن ولدا . وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا . إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا ، لقد أحصاهم وعدهم عدا . وكلهم آتيه يوم القيامة فردا (١)) .

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾

يقول تعالى : (ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا) ، أى : صرفنا فيه من الوعيد لعلهم يذكرون ما فيه من الحجج والبينات والمواعظ ، فينزجروا عماهم فيه من الشرك والظلم والإفك ، (وما يزيدهم) ، أى : الظالمين منهم (إلا نفورا) ، أى : عن الحق ، وبعداً منه .

قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أن لله شريكا من خلقه ، العابدين معه غيره ليقربهم إليه زلفى : لو كان الأمر كما تقولون ، وأنّ معه آلهة تُعبَدُ لتقرّب إليه وتشفع لديه- لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه ويبتغون إليه الوسيلة والقربة ، فاعبدوه أنتم وحده كما يعبده من تدْعُونه من دونه ، ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه ، فإنه لا يحب ذلك ولا يرضاه ، بل يكرهه ويأباه . وقد نهى عن ذلك على ألسنة جميع رسله وأنبيائه .

ثم نزه نفسه الكريمة وقدّسها فقال : (سبحانه وتعالى عما يقولون) ، أى : هؤلاء المشركون المعتدون الظالمون فى زعمهم أن معه آلهة أخرى ، (علُوّا كبيرا) ، أى : تعاليا كبيرا ، بل هو الله الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفُواً أحد .

تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾

يقول تعالى : تقَدّسه السموات السبع والأرض ومن فيهن ، أى : من المخلوقات ، وتنزهه وتعظمه وتجلّه وتكبره عما يقول هؤلاء المشركون ، وتشهد له بالوحدانية فى ربوبيته وإلاهيته :

فَفِى كُلِّ شَىْءٍ لَهُ آيَةٌ . تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ واحد

---

(١) سورة مريم ، الآيات : ٨٨ - ٩٥ .

كما قال تعالى : (تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا • أن دعوا للرحمن ولدا) .

وقال أبو القاسم الطبرانى : حدثنا على بن عبد العزيز ، حدثنا سعيد بن منصور ، حدثنا مسكين بن ميمون مؤذّن مسجد الرملة ، حدثنا عروة بن رُوَيم ، عن عبد الرحمن بن قرط : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به إلى المسجد الأقصى ، كان (١) بين المقام وزمزم ، جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره ، فطارا به حتى بلغ السموات السبع ، فلما رجع قال : سمعت تسبيحاً فى السموات العلى مع تسبيح كثير : سبحت السموات العلى من ذى المهابة ؛ مشفقات لذى العلو بما علا ، سبحان العلىّ الأعلى ، سبحانه وتعالى » .

وقوله : (وإن من شئٍ إلا يسبح بحمده) ، أى : وما من شئٍ من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله ، (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) ، أى : لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس ، لأنها بخلاف لغتكم . وهذا عام فى الحيوانات والنبات والجماد ، وهذا أشهر القولين ، كما ثبت فى صحيح البخارى ، عن ابن مسعود أنه قال : كنا نسمَع تسبيح الطعام وهو يُؤكل (٢) .

وفى حديث أبى ذر : أن النبى صلى الله عليه وسلم أخذ فى يده حصيات ، فسُمع لهن تسبيح كحنين النحل . وكذا فى يد أبى بكر وعمر وعثمان ، رضى الله عنهم ، وهو حديث مشهور فى المسانيد .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لَهيعة ، حدثنا زَبّان ، عن سهل بن معاذ بن أنس ، عن أبيه رضى الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه مرّ على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل ، فقال لهم : « اركبوها سالمة ، ودعوها سالمة ، ولا تتخذوها كراسىّ لأحاديثكم فى الطرق والأسواق، فربّ مركوبة خير من راكبها ، وأكثر ذكرا لله تعالى منه (٣) » .

وفى سنن النسائى عن عبد الله بن عمرو قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل الضفدع ، وقال : نقيقها تسبيح .

وقال قتادة ، عن عبد الله بن بابى (٤) ، عن عبد الله بن عمرو : أن الرجل إذا قال « لا إله إلا الله » ، فهى كلمة الإخلاص التى لا يقبل الله من أحد عملا حتى يقولها . وإذا قال « الحمد لله » فهى كلمة الشكر التى لم يشكر الله عبد قط حتى يقولها ، وإذا قال « الله أكبر » فهى تملأ ما بين السماء والأرض ، وإذا قال « سبحان الله » ، فهى صلاة الخلائق التى لم يدَعْ الله أحدا من خلقه إلا قرّره بالصلاة والتسبيح . وإذا قال « لا حول ولا قوة إلا بالله » ، قال : أسلم عبدى واستسلم (٥) .

---

(١) لفظ المخطوطة : « إلى المسجد الأقصى، فلما رجع كان بين . . . » . وهذه الزيادة غير ثابتة فى السياقة الأولى عند أول السورة ، ولا فى أسد الغابة .

(٢) البخارى ، كتاب المناقب

(٣) مسند الإمام أحمد : ٣/٤٣٩ .

(٤) فى المخطوطة : « بن بانى » بالنون . والمثبت من ترجمته فى الجرح والتعديل : ٢/٢/١٢ ، والتهذيب : ٥/١٥٢ . وفى تفسير الطبرى : « ابن أبى » ومثله فى الطبعات السابقة من تفسير ابن كثير ، وهو خطأ .

(٥) تفسير الطبرى : ١٥/٦٥ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وهب بن جرير ، حدثنا أبى ، سمعت الصَّقْعَبَ بن زُهَير [يحدث] عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن عبد الله بن عمرو قال : أتى النبى صلى الله عليه وسلم أعرابىّ عليه جبة من طيالسة مكفوفة بديباج — أو : مزورة بديباج — فقال : إن صاحبكم هذا يريد أن يرفع كل راع ابن راع ، ويضع كل رأس ابن رأس ،(١) فقام إليه النبى صلى الله عليه وسلم مغضباً ، فأخذ بمجامع جبته فاجتذبه ، فقال : لا أرى عليك ثياب من لا يعقل ، ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس فقال : إن نوحا عليه السلام لما حضرته الوفاة ، دعا ابنيه فقال : إنى قاص عليكما الوصية : آمركما باثنتين وأنهاكما عن اثنتين : أنهاكما عن الشرك بالله والكبر ، وآمركما بلا إله إلا الله ، فإن السموات والأرض وما بينهما لو وضعت فى كفة الميزان ، ووضعت « لا إله إلا الله » فى الكفة الأخرى ، كانت أرجح ، ولو أن السموات والأرض كانتا حلقة ، فوضعت « لا إله إلا الله » عليها لفصمتهما أو لقصمتها . وآمركما بسبحان الله وبحمده ، فإنها صلاة كل شئ ، وبها يرزق كل شئ (٢) .

ورواه الإمام أحمد أيضا عن سليمان بن حرب ، عن حماد بن زيد ، عن الصَّقْعَب بن زهير ، به أطول من هذا ، تفرد به (٣) .

وقال ابن جرير : حدثنى نصر بن عبد الرحمن الأودى ، حدثنا محمد بن يَعْلىَ ، عن موسى بن عبيدة ، عن زيد بن أسلم ، عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أخبركم بشئ أمر به نوح ابنه ؟ إن نوحا عليه السلام قال لابنه : يا بنى ، آمرك أن تقول : « سبحان الله » ، فإنها صلاة الخلق وتسبيح الخلق ، وبها يرزق الخلق ، قال الله تعالى : (وإن من شئ إلا يسبح بحمده) (٤) . إسناده فيه ضعف ، فإن الرَّبذى،(٥) ضعيف عند الأكثرين .

وقال عكرمة فى قوله تعالى : (وإن من شئ إلا يسبح بحمده) ، قال : الأسطوانة تسبح ، والشجرة تسبح — الأسطوانة : السارية .

وقال بعض السلف : إن صرير الباب تسبيحه ، وخرير الماء تسبيحه ، قال الله تعالى : (وإن من شئ إلا يسبح بحمده) .

وقال سفيان الثورى ، عن منصور ، عن إبراهيم قال : الطعام يسبح .

ويشهد لهذا القول آية السجدة فى أول الحج (٦) .

وقال آخرون : إنما يسبح ما كان فيه روح . يعنون من حيوان أو نبات .

---

(١) لفظ المسند : « ويضع كل فارس ابن فارس » .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٢/٢٢٥ .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٢/١٦٩ ، ١٧٠ .
(٤) تفسير الطبرى : ١٥/٦٥ .
(٥) الربذى هو : موسى بن عبيدة ، قال أحمد : لايكتب حديثه . وقال النسائى : ضعيف ، وقال يحيى بن سعيد : كنا نتقى حديثه . ينظر ميزان الاعتدال : ٤/٢١٣ .
(٦) سورة الحج ، آية : ١٨ .

وقال قتادة فى قوله : (وإن من شئ إلا يسبح بحمده) ، قال : كل شئ فيه الروح يسبّح من شجر أو شئ فيه .

وقال الحسن ، والضحاك فى قوله : (وإن من شئ إلا يسبح بحمده) ، قالا : كل شئ فيه الروح .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن حميد ، حدثنا يحيى بن واضح وزيد بن حباب قالا : حدثنا جرير أبو الخطاب قال : كنا مع يزيد الرّقاشى ، ومعه الحسن فى طعام ، فقدموا الخوان ، فقال يزيد الرقاشى : يا أبا سعيد ، يسبح هذا الخوان ؟ فقال : كان يسبح مرة (١) .

قلت : الخِوان هو المائدة من الخشب . فكأن الحسن ، رحمه الله ، ذهب إلى أنه لما كان حيا فيه خضرة ، كان يسبح ، فلما قطع وصار خشبة يابسة انقطع تسبيحه . وقد يستأنس لهذا القول بحديث ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بقبرين فقال : « إنهما ليعذبان ، وما يعذبان فى كبير ، أما أحدهما فكان لا يَستَتِر (٢) من البول ، وأما الآخر فكان يمشى بالنميمة . ثم أخذ جريدة رطبة ، فشقها نصفين ، ثم غرز فى كل قبر واحدة ، ثم قال : « لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا » . أخرجاه فى الصحيحين (٣) .

قال بعض من تكلم على هذا الحديث من العلماء : إنما قال : « ما لم ييبسا » لأنهما يسبحان ما دام فيهما خضرة ، فإذا يبسا انقطع تسبيحهما ، والله أعلم .

وقوله : (إنه كان حليما غفورا) ، أى : أنه لا يعاجل من عصاه بالعقوبة ، بل يؤجله وينظره ، فإن استمر على كفره وعناده أخذه أخذ عزيز مقتدر ، كما جاء فى الصحيحين : « إن الله ليملى للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته » . ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد (٤)) الآية ، وقال تعالى : (وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير (٥)) . ومن أقلع عما هو فيه من كفر أو عصيان ، ورجع إلى الله وتاب إليه ، تاب عليه ، كما قال تعالى : (ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ، ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما (٦)) .

وقال ها هنا : (إنه كان حليما غفوراً) ، كما قال فى آخر فاطر : (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ، إنه كان حليما غفوراً) ، إلى أن قال : (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ، ما ترك على ظهرها من دابة ، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ، فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا (٧)) .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٥/٦٥ .

(٢) كذا فى المخطوطة ، ومثله فى البخارى فى كتاب الوضوء والجنائز ، وورد فى رواية أخرى فى كتاب الوضوء : « يستبرئ » وفى رواية لمسلم : « يستنزه » .

(٣) البخارى ، كتاب الوضوء ، باب « من الكبائر أن لا يستتر من بوله » : ١/٦٤ . وكتاب الجنائز ، باب « الجريد على القبر » : ٢/١١٩ ، ١٢٠ . ومسلم ، كتاب الطهارة ، باب « الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه » : ١/١٦٦ .

(٤) تقدم تخريج الحديث فى سورة هود ، عند الآية ١٠٢ : ٤/٢٧٨ ، ٢٧٩ .

(٥) سورة الحج ، آية : ٤٨ .

(٦) سورة النساء ، آية : ١١٠ .

(٧) سورة فاطر ، الآيات : ٤١ — ٤٥ .

وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾

يقول تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم : وإذا قرأت ــ يا محمد ــ على هؤلاء المشركين القرآن ، جعلنا بينك وبينهم حجابا مستورا :

قال قتادة ، وابن زيد : هو الأكنة على قلوبهم ، كما قال تعالى : (وقالوا : قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه ، وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب) ، أى : مانع حائل أن يصل إلينا مما تقول شئ :

وقوله : (حجابا مستوراً) ، أى : بمعنى ساتر ، كميمون ومشئوم بمعنى يامن وشائم ، لأنه من يمَنَهم وشأَمَهم (١) .

وقيل : مستوراً عن الأبصار فلا تراه ، وهو مع ذلك حجاب بينهم وبين الهدى ، ومال إلى ترجيحه ابن جرير رحمه الله .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا أبو موسى الهروى إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا سفيان ، عن الوليد بن كثير، عن يزيد (٢) بن تدرس ، عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها قالت : لما نزلت (تبت يدا أبى لهب) ، جاءت العوراء أم جميل ولها ولولة ، وفى يدها فِهْر(٣) وهى تقول : مُذَمَّما أتينا ــ أو : أبينا ، قال أبو موسى : الشك منى ــ ودينه قلينا ، وأمره عصينا . ورسول الله جالس ، وأبو بكر إلى جنبه ــ أو قال : معه ــ قال : فقال أبو بكر : لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك ، فقال : إنها لن ترانى ، وقرأ قرآنا اعتصم به منها : (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً) . قال : فجاءت حتى قامت على أبى بكر ، فلم تر النبىَّ صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يا أبا بكر ، بلغنى أن صاحبك هجانى . فقال أبو بكر : لاوربِّ هذا البيت ما هجاك (٤) ، قال : فانصرفت وهى تقول : لقد علمت قريش أنى بنت سيدها .

وقوله : (وجعلنا على قلوبهم أكنة) : جمع «كِنَان» ، الذى يغشى القلب ، (أن يفقهوه) ، أى : لئلا يفهموا القرآن ، (وفى آذانهم وقراً) ، وهو الثِّقَل الذى يمنعهم من سماع القرآن سماعا ينفعهم ويهتدون به .

وقوله : (وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده) ، أى : إذا وحّدت الله فى تلاوتك ، وقلت : « لا إله إلا الله » ، (ولّوا) ، أى : أدبروا راجعين (على أدبارهم نُفُوراً) ــ ونفور : جمع نافر ، كقعود جمع قاعد . ويجوز أن يكون

---

(١) نقل هذا الطبرى عن بعض نحويى البصرة : ١٥/٦٦ .

(٢) لم نجد « يزيد بن تدرس » هذا ، ولعلنا نستدركه فيما بعد .

(٣) الفهر ــ بكسر فسكون ــ الحجر ملء الكف . . وقيل : الحجر مطلقا .

(٤) الحديث أخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد ، تفسير سورة « تبت » : ٧/١٤٤ عن ابن عباس ، وفيه : « فقالت : ياأبا بكر أين صاحبك ؟ هجانى . قال : مايقول الشعر . قالت : أنت مصدق عندى » .

مصدرا من غير الفعل (١) ، والله أعلم ــ كما قال تعالى : (وإذا ذكر الله وحده ، اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون (٢))

قال قتادة فى قوله : (وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ، ولوا على أدبارهم نفوراً) : إن المسلمين لما قالوا « لا إله إلا الله » ، أنكر ذلك المشركون ، وكبرت عليهم ، وضاقها (٣) إبليس وجنوده ، فأبى الله إلا أن يمضيها وينصرها ويُفْلجها ويظهرها على من ناوأها ، إنها كلمة من خاصم بها فلج ،ومن قاتل بها نصر ، إنما يعرفها أهل هذه الجزيرة من المسلمين ، التى يقطعها الراكب فى ليال قلائل ، ويسير الدهر فى فئام (٤) من الناس ، لا يعرفونها ، ولا يقرّون بها (٥) .

قول آخر فى الآية :

روى ابن جرير : حدثنى الحسين بن محمد الذارع ، حدثنا روح بن المسيب أبو رجاء الكلبى ، حدثنا عمرو بن مالك ، عن أبى الجوزاء ، عن ابن عباس فى قوله : (وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفوراً) : هم الشياطين (٦) .

وهذا غريب جدا فى تفسيرها ، وإلا فالشياطين إذا قرىء القرآن ، أو نودى بالأذان ، أو ذكر الله ، انصرفوا

نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾

يخبر تعالى نبيه ــ صلوات الله عليه ــ بما تناجى به رؤساء كفار قريش،حين جاءوا يستمعون قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم سرا من قومهم ، بما قالوا من أنه رجل مسحور ، من السَّحر على المشهور ، أومن « السَّحر » ، وهو الرئة ، أى : إنْ تتبعون ــ إن اتبعتم محمدا ــ (إلا بشراً) يأكل ، كما قال الشاعر (٧) :

فَإِن تَسْأَلِينا فيم نَحْن فَإِنَّنَا ٭ عَصافيرُ مِنْ هَذا الأنَامِ المُسَحَّرِ (٨)

وقال الراجز : (٩) .

« ونُسْحَرُ بالطَّعَامِ وبالشراب » (١٠)

---

(١) عبارة ابن جرير أوضح من هذه ، قال ١٥/٦٧ : « جائز أن يكون مصدراً أخرج من غير لفظه ؛ إذا كان (ولوا) بمعنى : « نفروا » ، فيكون معنى الكلام : « نفروا نفورا » .

(٢) سورة الزمر ، آية : ٤٥ .

(٣) كذا فى مخطوطة الأزهر ، وفى تفسير الطبرى : « فصافها » .

(٤) مضى تفسير هذه الكلمة فى : ٤/١٧٦ .

(٥) تفسير الطبرى : ١٥/٦٦ .

(٦) تفسير الطبرى : ١٥/٦٧ .

(٧) هو لبيد بن ربيعة ، والبيت فى ديوانه ط الكويت : ٥٦ .

(٨) عصافير : صغار ضعاف ، أى : نحن أولاد قوم قد ذهبوا . والمسحر : المعالل بالطعام والشراب

(٩) هو امرؤ القيس . والرجز فى اللسان ، مادة : سحر .

(١٠) فى المخطوطة : « يسحر » . والمثبت عن اللسان .

أي : مُغَذّى . وقد صوب هذا القول ابنُ جرير . وفيه نظر ؛ لأنهم إنما أرادوا هاهنا أنه مسحور له رَئِيٌّ يأتيه بما استمعوه من الكلام الذي يتلوه . ومنهم من قال « شاعر » ، ومنهم من قال « كاهن » ، ومنهم من قال « مجنون » ومنهم من قال « ساحر » ، ولهذا قال تعالى : (انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) ، أي : فلا يهتدون إلى الحق ، ولا يجدون إليه مخلصا .

قال محمد بن إسحاق في السيرة : حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري ، أنه حُدِّث أن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي ، حليف بن زهرة ، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يصلي بالليل في بيته ، فأخذ كل واحد منهم مجلساً يستمع فيه ، وكلٌّ لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرّقوا : حتى إذا جمعتهم الطريق ، فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً ، ثم انصرفوا : حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا حتى إذا جمعتهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قال أول مرة ، ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثالثة ، أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعتهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود : فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا .

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته ، فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال : يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعتُ أشياء أعرفها وأعرف ما يُراد بها ، وسمعتُ أشياء ما عرفتُ معناها ، ولا ما يراد بها . قال الأخنس : وأنا والذي حلفت به . قال : ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل ، فدخل عليه بيته ، فقال : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال : ماذا سمعتُ ؟ ! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاثينا على الركب ، وكنا كفرسي رهان قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه . قال : فقام عنه الأخنس وتركه (١) .

وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾

يقول تعالى مخبرا عن الكفار المستبعدين وقوع المعاد ، القائلين استفهام إنكار منهم لذلك : (أئذا كنا عظاما ورفاتاً) ، أي : ترابا : قاله مجاهد (٢) .

---

(١) سيرة ابن هشام : ١/٣١٥ ، ٣١٦ . وقد تقدم هذا الأثر في سورة الأنعام عند الآية ٣٣ : ٣/٢٤٦ .

(٢) تفسير الطبري : ١٥/٦٨ .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : غبارا .

(أئنا لمبعوثون) ، أى : يوم القيامة (خلقا جديداً) ، أى : بعد ما بلينا وصرنا عدما لا يذكر . كما أخبر عنهم فى الموضع الآخر : (يقولون : أئنا لمردودون فى الحافرة ، أئذا كنا عظاما نخرة ، قالوا : تلك إذا كرة خاسرة (١)) . وقال تعالى : (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال : من يحيى العظام وهى رميم ؟ قل : يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) (٢) .

وهكذا أمر رسوله هاهنا أن يجيبهم فقال : (قل كونوا حجارة أو حديدا) ، وهما أشد امتناعا من العظام والرفات ، (أو خلقا مما يكبر فى صدوركم) .

قال ابن إسحاق عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : سألت ابن عباس عن ذلك فقال : هو الموت .

وروى عطية ، عن ابن عمر أنه قال فى تفسير هذه الآية : لو كنتم موتى لأحييتكم . وكذا قال سعيد بن جبير ، وأبو صالح ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك .

ومعنى ذلك : أنكم لو فرضتم أنكم لو صيرتُم مَوْتاً (٣) الذى هو ضد الحياة ، لأحياكم الله إذا شاء؛ فإنه لا يمتنع عليه شىء إذا أراده .

وقد ذكر ابن جرير حديث : « يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح ، فيوقف بين الجنة والنار ، ثم يقال : يا أهل الجنة ، أتعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم . ثم يقال : يا أهل النار ، أتعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم . فيذبح بين الجنة والنار ، ثم يقال : يا أهل الجنة خلود بلا موت ، ويا أهل النار ، خلود بلا موت (٤) » .

وقال مجاهد : (أو خلقاً مما يكبر فى صدوركم) ، يعنى : السماء والأرض والجبال .

وفى رواية : ما شئتم فكونوا ، فسيعيدكم الله بعد موتكم .

وقد وقع فى التفسير المروى عن الإمام مالك ، عن الزهرى فى قوله : (أو خلقاً مما يكبر فى صدوركم) ، قال : النبى (٥) صلى الله عليه وسلم — قال مالك : ويقولون : هو الموت .

---

(١) سورة النازعات ، الآيات : ١٠ — ١٢ .

(٢) سورة « يس » ، آية : ٧٨ ، ٧٩ .

(٣) هذا لفظ مخطوطة الأزهر . وهو مقتبس من قول ابن جرير ١٥/٦٨ ، قال : « واختلف أهل التأويل فى المعنى بقوله : (أو خلقاً مما يكبر فى صدوركم) ، فقال بعضهم : عنى به الموت ، وأريد به : أو كونوا الموت ، فإنكم إن كنتموه أمتكم ، ثم بعثتكم بعد ذلك يوم البعث » . وقد تصرف فى نص ابن كثير فى الطبعات السابقة ، فأصبح : « لو صرتم إلى الموت » .. وهذا الأمر الذى يسوقه ابن كثير بعد من الطبرى يدعم لفظ مخطوطة الأزهر .

(٤) تفسير الطبرى عن عبد الله بن عمر : ١٥/٦٩ .

(٥) كذا ، ولم نجد هذا الأثر ، وعسى أن نستدركه فيما بعد .

وقوله: (فسيقولون من يعيدنا) ، أى : من يعيدنا إذا كنا حجارة أو حديداً أو خلقاً آخر شديداً ، (قل الذى فطركم أول مرة) ، أى : الذى خلقكم ولم تكونوا شيئاً مذكورا ، ثم صرتم بشرا تنتشرون ، فإنه قادر على إعادتكم ولو صرتم إلى أى حال ، (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه (١)) ؛

وقوله : (فسينغضون إليك رءوسهم) — قال ابن عباس وقتادة : يحركونها استهزاء (٢) .

وهذا الذى قالاه هو الذى تفهمه العرب من لغاتها ، لأن « الإنغاض » هو : التحرك من أسفل إلى أعلى ، أو من أعلى إلى أسفل ، ومنه قيل للظليم — وهو ولد النعامة — « نغضاً » لأنه إذا مشى عَجِل فى مِشْيَته وحرّك رأسه ؛ ويقال : « نَغَضَت سِنّه » إذا تحركت وارتفعت من مَنْبِتها ؛ قال الراجز (٣) :

• وَنَغَضَتْ مِنْ هَرَم أسنانُها •

وقوله : (ويقولون : متى هو) ، إخبار عنهم بالاستبعاد منهم لوقوع ذلك ، كما قال تعالى : (ويقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين (٤)) ، وقال تعالى : (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها (٥)) .

وقوله : (قل : عسى أن يكون قريبا) ، أى : احذروا ذلك ، فإنه قريب إليكم ، سيأتيكم لا محالة ، فكل ما هو آت آت .

وقوله : (يوم يدعوكم) ، أى : الرب تعالى — (إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون (٦)) ، أى : إذا أمركم بالخروج منها فإنه لا يُخالَف ولا يمانع ، بل كما قال : (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر (٧)) ، (إنما قولنا لشىء إذا أردناه : أن نقول له : كن ، فيكون (٨)) وقال : (فانما هى زجرة واحدة ، فإذا هم بالساهرة (٩)) أى : إنما هو أمر واحد بانتهار ، فإذا الناس قد خرجوا من باطن الأرض إلى ظاهرها ، كما قال : (يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده) ، أى : تقومون كلكم إجابة لأمره وطاعة لإرادته .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، (فتستجيبون بحمده) ، أى : بأمره . وكذا قال ابن جريج .

وقال قتادة : بمعرفته وطاعته .

وقال بعضهم : (يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده) ، أى : وله الحمد فى كل حال ؛ وقد جاء فى الحديث : « ليس على أهل « لا إله إلا الله » وحشة فى قبورهم ، وكأنى بأهل « لا إله إلا الله » يقومون من قبورهم ينفضون

---

(١) سورة الروم ، آية : ٢٧ .
(٢) تفسير الطبرى : ١٥/٦٩ ، ٧٠ .
(٣) تفسير الطبرى : ١٥/٧٠ ، غير منسوب .
(٤) سورة الملك ، آية : ٢٥ .
(٥) سورة الشورى ، آية : ١٨ .
(٦) سورة الروم ، آية : ٢٥ .
(٧) سورة القمر ، آية : ٥٠ .
(٨) سورة النحل ، آية : ٤٠ .
(٩) سورة النازعات ، آية : ١٣ ، ١٤ .

التراب عن رءوسهم ، يقولون : لا إله إلا الله » ــ وفى رواية يقولون : (الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن (١)) ، وسيأتى فى سورة فاطر .

وقوله : (وتظنون) ، أى : يوم تقومون من قبوركم (إن لبثتم) فى الدار الدنيا (إلا قليلا) ، وكما قال : (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها (٢)) ، وقال تعالى : (يوم ينفخ فى الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا. يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا : نحن أعلم بما يقولون ، إذ يقول أمثلهم طريقة : إن لبثتم إلا يوما (٣)) ، وقال تعالى : (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة ، كذلك كانوا يؤفكون (٤)) ، وقال تعالى : (قال : كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ؟ قالوا : لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين . قال : إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون (٥)) .

وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾

يأمر تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يأمر عباد الله المؤمنين ، أن يقولوا فى مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الاحسن والكلمة الطيبة ؛ فإنه إذا لم يفعلوا ذلك ، نزغ الشيطان بينهم ، وأخرج الكلام إلى الفعال ، ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة فإن الشيطان عدو لآدم وذريته من حين امتنع من السجود لآدم ، فعداوته ظاهرة بينة ، ولهذا نهى أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة ، فإن الشيطان ينزع فى يده ، أى : فربما أصابه بها .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن همام ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يشيرنّ (٦) أحدكم إلى أخيه بالسلاح ؛ فإنه لا يدرى أحدكم لعل الشيطانَ أن ينزع (٧) فى يده ، فيقع فى حفرة من نار (٨) » .

أخرجاه من حديث عبد الرزاق (٩) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد ، أنبأنا على بن زيد ، عن الحسن قال : حدثنى رجل من بنى سَلِيط قال : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى ازْفَلَة (١٠) من الناس ، فسمعته يقول : المسلم اخو المسلم لا يظلمه

---

(١) ســورة فاطر ، آية : ٣٤ .

(٢) ســورة النازعات ، آية : ٤٦ .

(٣) ســورة طه ، الآيات : ١٠٢ – ١٠٤ .

(٤) ســورة الروم ، آية : ٥٥ .

(٥) ســورة « المؤمنون » ، الآيات : ١١٢ – ١١٤ .

(٦) لفظ المسند : « لا يمشين أحدكم » .

(٧) يعنى : يرمى فى يده ويحقق ضربته ورميته .

(٨) مسند الإمام أحمد ، من حديث طويل : ٣١٧/٢ .

(٩) البخارى ، كتاب الفتن ، باب « من حمل علينا السلاح فليس منا » : ٦٢/٩ . ومسلم ، كتاب البر ، باب « النهى عن الإشارة بالسلاح » : ٣٤/٨ .

(١٠) أى : جماعة . وفى المخطوطة : « وهو فى رفلة » . والصواب من المسند .

ولا يخذله ، التقوى هاهنا — [قال حماد : وقال بيده (١) إلى صدره — وماتواد رجلان فى الله فتفرق بينهما إلا بحدث يحدثه أحدهما (٢)] ، والمحدثُ شرّ ، والمحدَث شرّ ، والمحدث شر (٣) » .

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ۝ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ۝ ﴾

يقول الله تعالى : (ربكم أعلم بكم) أيها الناس ، من يستحق منكم الهداية ومن لا يستحق ، (إن يشأ يرحمكم) بأن يوفقكم لطاعته والإنابة إليه ، (أو إن يشأ يعذبكم ، وما أرسلناك عليهم وكيلا) ، أى : إنما أرسلناك نذيراً ، فمن أطاعك دخل الجنة ، ومن عصاك دخل النار .

وقوله : (وربك أعلم بمن فى السموات والأرض) ، أى : بمراتبهم فى الطاعة والمعصية ، (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض) — كما قال : (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات (٤))

وهذا لا ينافى ما فى الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تفضلوا بين الأنبياء » (٥) ، فإن المراد من ذلك هو التفضيل بمجرد التشهى والعصبية ، لا بمقتضى الدليل ، [فإذا دل الدليل] على شىء وجب اتباعه ، ولا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء ، وأن أولى العزم منهم أفضلهم ، وهم الخمسة المذكورون نصا فى آيتين من القرآن فى سورة الأحزاب : (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ، ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم (٦)) ، وفى الشورى : (شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه (٧)) . ولا خلاف أن محمداً صلى الله عليه وسلم أفضلهم ، ثم بعده إبراهيم ، ثم موسى على المشهور ، وقد بسطنا هذا بدلائله فى غير هذا الموضع والله الموفق .

وقوله : (وآتينا داود زبورا) : تنبيه على فضله وشرفه .

قال البخارى : حدثنا إسحاق بن نصر ، أخبرنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن همام ، عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « خُفِّف على داود القرآن ، فكان يأمر بدابته لتُسْرج ، فكان يقرأ قبل أن يَفرَغ ، يعنى القرآن (٨) » .

---

(١) أى : أشار بيده . وانظر أيضاً : ١٧٧/٣ ، ٢٢٩ ، ٤٦٠ ، ٤٩٤ .

(٢) ما بين القوسين سقط من مخطوطة الأزهر ، أثبتناه عن المسند .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٧١/٥ .

(٤) سورة البقرة : ٢٥٣/٥ .

(٥) البخارى ، كتاب الأنبياء ، باب قول الله تعالى : (وإن يونس لمن المرسلين) : ١٩٤/٤ . ومسلم ، كتاب الفضائل ، باب « من فضائل موسى » : ١٠١/٧ .

(٦) سورة الأحزاب ، آية : ٧ .

(٧) سورة الشورى ، آية : ١٣ .

(٨) البخارى ، تفسير سورة بنى إسرائيل : ١٠٧/٦ . وقد مضى الحديث فى سورة الرعد : ٢٨٢/٤ .

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾

يقول تعالى : (قل) يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله : (ادعوا الذين زعمتم من دونه) من الأصنام والأنداد ، فارغبوا إليهم ، فإنهم (لا يملكون كشف الضر عنكم) ، أى : بالكلية ، (ولا تحويلا) ، أى : أن يحولوه إلى غيركم .

والمعنى : أن الذى يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له الذى له الخلق والأمر .

قال العوفى ، عن ابن عباس فى قوله : (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه ، فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا) ، قال : كان أهل الشرك يقولون : نعبد الملائكة والمسيح وعزيرا ، وهم الذين يدعون ، يعنى الملائكة والمسيح وعزيرا (١) .

وقوله : (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب) — روى البخارى ، من حديث سليمان بن مهران الأعمش ، عن إبراهيم ، عن أبى معمر ، عن عبد الله فى قوله : (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة) ، قال : ناس من الجن ، كانوا يعبدون ، فأسلموا (٢) . — وفى رواية قال : كان ناس من الإنس ، يعبدون ناسا من الجن ، فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم .

وقال قتادة ، عن معبد بن عبد الله الزِّمَّانى (٣) ، عن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، عن ابن مسعود فى قوله : (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة) ، قال : نزلت فى نفر من العرب ، كانوا يعبدون نفرا من الجن ، فأسلم الجنيُّون ، والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم ، فنزلت هذه الآية (٤) .

وفى رواية عن ابن مسعود : كانوا يعبدون صنفا من الملائكة يقال لهم الجن (٥) فذكره .

وقال السدى ، عن أبى صالح ، عن ابن عباس فى قوله : (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب) ، قال : عيسى وأمه ، وعُزير .

وقال مغيرة ، عن إبراهيم ، كان ابن عباس يقول فى هذه الآية : هم عيسى ، وعُزير ، والشمس ، والقمر .

وقال مجاهد : عيسى ، والعُزير ، والملائكة .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٥/ ٧٢ .

(٢) البخارى ، تفسير سورة بنى إسرائيل : ٦/ ١٠٧ .

(٣) فى المخطوطة : « الرمانى » . والمثبت من تفسير الطبرى . وفى المشتبه للذهبى ٣٢٣ : « الزمانى » ، بزاى مكسورة . ولم نجد « معبد بن عبد الله الزمانى » . ولكن هكذا ورد فى تفسير الطبرى : ١٥/ ٧٢ . وفى رواية أخرى ١٥/ ٧٣ : « عبد الله ابن معبد الزمانى » . وهذا مترجم له فى كتب الرجال ، ينظر الخلاصة ، وميزان الاعتدال : ٢/ ٥٠٧ .

(٤) تفسير الطبرى : ١٥/ ٧٢ .

(٥) تفسير الطبرى : ١٥/ ٧٣ .

واختار ابن جرير قول ابن مسعود ، لقوله : (يبتغون إلى ربهم الوسيلة) ، وهذا لايعبر به عن الماضى (١) ، فلا يدخل فيه عيسى والعُزير — قال : والوسيلة هى القربة كما قال قتادة ، ولهذا قال : (أيهم أقرب) ؛

وقوله : (ويرجون رحمته ويخافون عذابه) : لاتتم العبادة إلا بالخوف والرجاء ، فبالخوف ينكف عن المناهى وبالرجاء ينبعث على الطاعات .

وقوله : (إن عذاب ربك كان محذوراً) ، أى : ينبغى أن يحذر منه،ويخاف من وقوعه وحصوله ، عياذاً بالله منه .

وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾

هذا إخبار من الله بأنه قد حتَم وقضى بما قد كتبه عنده فىاللوح المحفوظ:أنه ما من قرية إلا سيهلكها ، بأن يبيد أهلها جميعَهم أو يعذبهم (عذابا شديداً) ، إما بقتل أو ابتلاء بما يشاء ، وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم ، كما قال عن الأمم الماضين : (وماظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم(٢)) ، وقال تعالى (وكأيّن من قرية عتَتْ عن أمر ربها ورسله ، فحاسبناها حسابا شديداً وعذبناها عذابا نكرا . فذاقت وبال أمرها ، وكان عاقبة أمرها خسراً (٣)) .

وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾

قال سُنَيد ، عن حماد بن زيد ، عن أيوب ، عن سعيد بن جُبَير قال: قال المشركون : يا محمد ، إنك تزعم أنه كان قبلك أنبياء ، فمنهم من سُخّرت له الريح ، ومنهم من كان يحيى الموتى ، فإن سرّك أن نؤمن بك ونصدقك، فادع ربك أن يكون لنا الصفا ذهبا . فأوحى الله إليه : إنى قد سمعت الذى قالوا،فإن شئت أن نفعل الذى قالوا ، فإن لم يؤمنوا نزل العذاب ، فإنه ليس بعد نزول الآية مناظرة ، وإن شئت أن تستأنى بقومك استأنيتُ بهم ؟قال: يارب ، استأن بهم (٤) .

وكذا قال قتادة ، وابن جريج ، وغيرهما .

قال الإمام أحمد : حدثنا عثمان بن محمد ، حدثنا جرير ، عن الأعمش ، عن جعفر بن إياس ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : سأل أهل مكة النبى صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهباً ، وأن ينحى الجبال عنهم فيزرعوا(٥)

---

(١) قال ابن جرير ١٥/٧٣ : « وأولى الأقوال بتأويل هذه الآية قول عبد الله بن مسعود ، الذى رويناه عن أبى معمر عنه ؛ وذلك أن الله تعالى ذكره أخبر عن الذين يدعونهم المشركون آلهة أنهم يبتغون إلى ربهم الوسيلة فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم . ومعلوم أن « عزيرا » لم يكن موجوداً على عهد نبينا عليه السلام ، فيبتغى إلى ربه الوسيلة ، وأن عيسى كان قد رفع ، وإنما يبتغى إلى ربه الوسيلة من كان موجوداً حياً يعمل بطاعة الله ، ويتقرب إليه بالصالح من الأعمال ... » .

(٢) سورة هود آية ١٠١ .

(٣) سورة الطلاق ، آية : ٧ ، ٨ .

(٤) تفسير الطبرى : ١٥/٧٤ .

(٥) فى المسند : « فيزدرعوا » .

فقيل له : إن شئت أن تستأنى بهم ، وإن شئت أن نؤتيهم الذى سألوا ، فإن كفروا أهلكوا كما أهلكتُ من كان قبلهم من الأمم ، قال : لا ، بل استأن بهم ، وأنزل الله : (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة(١)) ، ورواه النسائى [من حديث] جرير ، به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان ، عن سلَمة بن كُهَيل ، عن عمران بن حكيم (٢) عن ابن عباس قال : قالت قريش للنبى صلى الله عليه وسلم : ادع لنا ربك [أن] يجعل لنا الصفا ذهباً ، ونؤمن بك ، قال : وتفعلون ؟ قالوا : نعم : قال : فدعا ، فأتاه جبريل فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك : إن شئت أصبح الصفا لهم ذهباً ، فمن كفر منهم بعد ذلك عذّبته عذابا لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة : فقال : بل باب التوبة والرحمة (٣) .

وقال الحافظ أبو يعلى فى مسنده : حدثنا محمد بن إسماعيل بن على الأنصارى ، حدثنا خلف بن تميم المصّيصىّ ، عن عبد الجبار بن عمر الأيلى ، عن عبد الله بن عطاء بن إبراهيم ، عن جدته أم عطاء مولاة الزبير بن العوام قالت : سمعت الزبير يقول : لما نزلت : (وأنذر عشيرتك الأقربين) ، صاح رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبى قبيس : يا آل عبدمناف ، إنى نذير ! فجاءته قريش، فحذرهم وأنذرهم ، فقالوا: تزعم أنك نبى يُوحى إليك، وأن سليمان سُخّر له الريح والجبال ، وإن موسى سُخّر له البحر ، وأن عيسى كان يحيى الموتى ، فادع الله أن يُسيّر عنا هذه الجبال ، ويفجر لنا الأرض أنهارا ، فنتخذها محارث ، فنزرع ونأكل ، وإلا فادع الله أن يحيى لنا موتانا فنكلمهم ويكلمونا ، وإلا فادع الله أن يصير لنا هذه الصخرة التى تحتك ذهبا ، فننحت منها، وتغنينا عن رحلة الشتاء والصيف ، فإنك تزعم أنك كهيئتهم ! قال : فبينا نحنُ حوله ، إذ نزل عليه الوحى ، فلما سُرّى عنه قال : والذىنفسى بيده ، لقد أعطانى ماسألتم ، ولو شئتُ لكان، ولكنه خيّرنى بين أن تدخلوا باب الرحمة ، فيؤمن مؤمنكم ، وبين أن يكلكم إلى ما اخترتم لأنفسكم، فتضلوا عن باب الرحمة، فلا يؤمن منكم أحد ، فاخترت باب الرحمة، فيؤمن مؤمنكم . وأخبرنى أنه إن أعطاكم ذلك ثم كفرتم ، أنه يعذبكم عذابا لا يعذبه أحداً من العالمين . ونزلت : (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) حتى قرأ ثلاث آيات ، ونزلت: (ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى (٤)) ... الآية .

ولهذا قال تعالى : (وما منعنا أن نرسل بالآيات) ، أى : نبعث الآيات ونأتى بها على ما سأل قومك منك ، فإنه سهل علينا يسير لدينا ، إلا أنه قد كذّب بها الأولون بعد ما سألوها، وجرت سنتنا فيهم وفى أمثالهم أنهم لا يؤخرون إذا كذبوا بها بعد نزولها ، كما قال تعالى فى المائدة : (قال الله : إنى منزلها عليكم، فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذاباً لا أعذبه أحدا من العالمين(٥)) . وقال تعالى عن ثمود، حين سألوا آية : ناقة تخرج من صخرة عيّنوها، فدعا صالح ربه ، فأخرج له منها ناقة على ماسألوا ، (فظلموا بها) أى : كفروا بمن خلقها ، وكذبوا رسوله وعقروا الناقة فقال : (تمتعوا

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٢٥٨/١ .
(٢) كذا فى مخطوطة الأزهر ، وفى المسند : « عمران بن الحكم » . ولم نجد عمراناً هذا .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٢٤٢/١ .
(٤) سورة الرعد ، آية : ٣١ .
(٥) سورة المائدة ، آية : ١١٥ .

فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب) ولهذا قال تعالى (وآتينا ثمود الناقة مبصرة) أى : دالة على وحدانية من خلقها وصدق الرسول الذى أجيب دعاؤه فيها ، (فظلموا بها) ، أى : كفروا بها ومنعوها شربها وقتلوها ، فأبادهم الله عن آخرهم ، وانتقم منهم ، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

وقوله : (وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً) — قال قتادة : إن الله يخوف الناس بما يشاء من آياته ، لعلهم يعتبرون ويذكرون ويرجعون ، ذُكر لنا أن الكوفة رَجفت على عهد ابن مسعود ، فقال : يا أيها الناس ، إن ربكم يستعتبكم ، فأعتبوه (١) .

وهكذا رُوى أن المدينة زُلزلت على عهد عمر بن الخطاب مرات ، فقال عمر : أحدثتم ، والله لئن عادت لأفعلن ولأفعلن ، وكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق عليه : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ، ولكن الله عز وجل يرسلهما يخوف بهما عباده ، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره ، ثم قال : يا أمة محمد ، والله ما أحد أغير من الله أن يزنى عبده أو تزنى أمته ، يا أمة محمد ، والله لو تعلمون ما أعلم ، لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً (٢) » .

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾

يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم محرضا له على إبلاغ رسالته ، ومخبرا له بأنه قد عصمه من الناس ، فإنه القادر عليهم ، وهم فى قبضته وتحت قهره وغلبته .

قال مجاهد ، وعروة بن الزبير ، والحسن ، وقتادة ، وغيرهم فى قوله : (وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس) ، أى : عصمك منهم .

وقوله : (وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس) — قال البخارى : حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا سفيان ، عن عمرو ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : (وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس) — قال : هى رؤيا عين أريها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ليلةَ أسرِىَ به ، (والشجرةَ الملعونةَ فى القرآن) : شجرة الزقوم (٣) .

وكذا رواه أحمد ، وعبد الرزاق ، وغيرهما ، عن سفيان بن عيينة به . وكذا رواه العوفى ، عن ابن عباس . وهكذا فسَّر ذلك بليلة الإسراء : مجاهد ، وسعيد بن جبير ، والحسن ، ومسروق ، وإبراهيم ، وقتادة ، وعبد الرحمن بن زيد ، وغير واحد . وقد تقدمت أحاديث الإسراء فى أول السورة مستقصاة ، ولله الحمد والمنة . وتقدم أن ناساً رجعوا عن دينهم

---

(١) تفسير الطبرى : ١٥/٧٥ . ومعنى «يستعتبكم فأعتبوه» ، أى : يطلب منكم الرجوع عن الإساءة واسترضاءه ، فافعلوا ذلك » .

(٢) البخارى ، كتاب الكسوف ، باب « الصدقة فى الكسوف » : ٢/٤٢ ، ٤٣ ، وباب « خطبة الإمام فى الكسوف » : ٢/٤٣ ، ٤٤ ، وباب « لا تنكسف الشمس لموت أحد ولا لحياته » : ٢/٤٨ . ومسلم ، باب صلاة الكسوف : ٣/٢٧ — ٢٩ . وسنن ابن ماجه ، كتاب الإقامة ، باب « ما جاء فى صلاة الكسوف » ، الحديث ١٢٦٣ : ١/٤٠١ . ومسند الإمام أحمد : ٦/٨٧ ، ١٦٨ .

(٣) البخارى ، تفسير سورة بنى إسرائيل : ٦/١٠٧ ، ١٠٨ .

بعدما كانوا على الحق ؛ لأنه لم تحمل قلوبهم وعقولهم ذلك ، فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، وجعل الله ذلك ثباتا ويقينا لآخرين ، ولهذا قال : (إلا فتنة) ، أى : اختباراً وامتحاناً . وأما « الشجرة الملعونة » ، فهى شجرة الزقوم ، كما أخبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى الجنة والنار ، ورأى شجرة الزقوم ، فكذبوا بذلك حتى قال أبو جهل لعنه الله : هاتوا لنا تمرا وزبدا ، وجعل يأكل هذا بهذا ، ويقول : تزقموا ، فلا نعلم الزقوم غير هذا (١) .

حكى ذلك ابن عباس ، ومسروق ، وأبو مالك ، والحسن البصرى ، وغير واحد : وكل من قال : إنها ليلة الإسراء ، فسره كذلك بشجرة الزقوم .

وقد قيل : المراد بالشجرة الملعونة : « بنو أمية » . وهو غريب ضعيف .

قال ابن جرير (٢) : حُدثت عن محمد [بن الحسن] بن زبالة ، حدثنا عبد المهيمن بن عباس بن سهل بن سعد ، حدثنى أبى ، عن جدى قال : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى فلان ينزون على منبره نزو القرود ، فساءه ذلك فما استجمع ضاحكا حتى مات ـ قال : وأنزل الله فى ذلك : (وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس) ... الآية .

وهذا السند ضعيف جدا ؛ فإن « محمد بن الحسن بن زبالة» متروك ، وشيخه أيضا ضعيف بالكلية . ولهذا اختار ابن جرير : أن المراد بذلك ليلة الإسراء ، وأن الشجرة الملعونة هى شجرة الزقوم ، قال : لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك ، أى : فى الرؤيا والشجرة .

وقوله : (ونخوفهم) ، أى : الكفار بالوعيد والعذاب والنكال ، (فما يزيدهم إلا طغيانا كبيراً) ، أى : تماديا فيما هم فيه من الكفر والضلال . وذلك من خذلان الله لهم .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾

يذكر تعالى عداوة إبليس ـ لعنه الله ـ لآدم ، عليه السلام ، وذريته ، وأنها عداوة قديمة منذ خلق آدم ، فإنه تعالى أمر الملائكة بالسجود ، فسجدوا كلهم إلا إبليس استكبر وأبى أن يسجد له ؛ افتخارا عليه واحتقارا له ، (قال : أأسجد لمن خلقت طينا) . كما قال فى الآية الأخرى : (أنا خير منه ، خلقتنى من نار وخلقته من طين (٣)) .

وقال أيضا : (أرأيتك) ، يقول للرب جراءة وكفرا ، والرب يحلم وينظر ، (قال : أرأيتك هذا الذى كرمت على ، لئن أخرتن إلى يوم القيامة ، لأحتنكن ذريته إلا قليلا) .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس يقول : لأستولين (٤) على ذريته إلا قليلا .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ١/٣٧٤ . وتفسير الطبرى : ١٥/٧٨ .

(٢) ساق ابن جرير هذه الرواية بعد قوله ١٥/٧٧ : « وقال آخرون ـ ممن قال : هى رؤيا منام ـ : إنما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى فى منامه قوما يعلون منبره » . ولم يصرح فى هذا القول بأن المقصود بهم بنو أمية .

(٣) سورة الأعراف ، آية : ١٢ .

(٤) تفسير الطبرى : ١٥/٨٠ .

وقال مجاهد : لأحتوين : وقال ابن زيد : لأضلنهم .

وكلها متقاربه ، والمعنى انه يقول : أرأيتك هذا الذى شرفته وعظمته على، لئن أنظرتنى لأضلن ذريته إلا قليلا منهم !

قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾

لما سأل إبليس النظرة قال الله له : (اذهب)، فقد أنظرتك : كما قال فى الآية الأخرى : (قال : فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم (١)) ثم أوعده ومن تبعه من ذرية آدم جهنم، فقال : (فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم) ، أى : على أعمالكم ، (جزاء موفورا) .

قال مجاهد : وافرا . وقال قتادة : مُوَفَّراً عليكم ، لا ينقص لكم منه .

وقوله : (واستفزز من استطعت منهم بصوتك) ، قيل : هو الغناء . قال مجاهد : باللهو والغناء ، أى : استخفهم بذلك .

وقال ابن عباس فى قوله : (واستفزز من استطعت منهم بصوتك) ، قال : كل داع دعا إلى معصية الله عز وجل ، وقاله قتادة ، واختاره ابن جرير (٢) .

وقوله : (وأجلب عليهم بخيلك ورجلك) ، يقول : واحمل عليهم بجنودك خيّالتهم (٣) ورَجْلتهم ؛ فإن « الرَّجْل » جمع « راجل » ، كما أن « الركب » جمع « راكب » « وصحب » جمع « صاحب » .

ومعناه : تسلط عليهم بكل ما تقدر عليه . وهذا أمر قَدَرِىّ، كما قال تعالى : (ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزّهم أزا (٤)) ، أى : تزعجهم إلى المعاصى إزعاجا ، وتسوقهم إليها سوقا . وقال ابن عباس ، ومجاهد فى قوله : (وأجلب عليهم بخيلك ورجلك) ، قال : كل راكب وماش فى معصية الله .

وقال قتادة : إن له خيلا ورجالا من الجن والإنس ، وهم الذين يطيعونه .

وتقول العرب : « أجلب فلان على فلان » : إذا صاح عليه . ومنه : « نهى فى المسابقة عن الجَلَب والجَنَب (٥) » ومنه اشتقاق « الجلبة » ، وهى ارتفاع الأصوات .

---

(١) سورة الحجر ، آية : ٣٧ ، ٣٨ .

(٢) تفسير الطبرى : ١٥/٨٠ ، ٨١ .

(٣) الخيالة : أصحاب الخيول .

(٤) سورة مريم ، آية : ٨٣ .

(٥) الجلب فى السباق : أن يتبع الرجل فرسه فيزجره ، ويجلب عليه ويصيح حثا له على الجرى . والجنب : أن يجنب فرساً إلى فرسه الذى يسابق عليه ، فإذا فتر المركوب تحول إلى المجنوب .

وقوله : (وشاركهم فى الأموال والأولاد) ، قال ابن عباس ومجاهد : هو ما أمرهم به من إنفاق الأموال فى معاصى الله :

وقال عطاء : هو الربا : وقال الحسن : جمعها من خبيث ، وإنفاقها فى حرام . وكذا قال قتادة .

وقال العوفى ، عن ابن عباس رضى الله عنهما : أما مشاركته إياهم فى أموالهم ، فهو ما حرموه من أنعامهم ، يعنى من البحائر والسوائب ونحوها : وكذا قال الضحاك وقتادة .

قال ابن جرير : والأولى أن يقال : إن الآية تعم ذلك كله .

وقوله : (والأولاد) ، قال العوفى عن ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك : يعنى أولاد الزنا .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : هو ماكانوا قتلوه من أولادهم سَفَهًا بغير علم .

وقال قتادة ، عن الحسن البصرى : قد والله شاركهم فى الأموال والأولاد ، مَجَّسُوا وهَوَّدوا [ونَصَّروا] وصَبَّغوا غير صبغة الإسلام ، وجزَّءوا من أموالهم جزءا للشياطين (١) ، وكذا قال قتادة سواء .

وقال أبو صالح ، عن ابن عباس : هو تسميتهم أولادهم « عبد الحارث » « وعبد شمس » « وعبد فلان » .

قال ابن جرير : وأولى الأقوال بالصواب أن يقال : كل مولود ولدته أنثى ، عَصى الله فيه ، بتسميته ما يكرهه الله ، أو بإدخاله فى غير الدين الذى ارتضاه الله ، أو بالزنا بأمه ، أو بقتله ووأده ، وغير ذلك من الأمور التى يعصى الله بفعله [به] أو فيه ، فقد دَخَل فى مشاركة إبليس فيه مَن وُلد ذلك الولدُ له أو منه ؛ لأن الله لم يخصص بقوله : (وشاركهم فى الأموال والأولاد) معنى الشَّركة فيه بمعنًى دُونَ معنى ، فكل ما عُصِى الله فيه أو به ، وأطيع فيه الشيطان أو به ، فهو مشاركة .

وهذا الذى قاله متَّجِه ، وكلٌّ من السلف رحمهم الله فَسَّر بعض المشاركة ، فقد ثبت فى صحيح مسلم ، عن عياض بن حمار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله عز وجل : إنى خلقت عبادى حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحَرَّمت عليهم ما أحللت لهم (٢) » .

وفى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتى أهله قال : باسم الله ، اللهم جَنِّبنا الشيطان وجَنِّب الشيطان ما رزقتنا ، فإنه إن يُقَدَّر بينهما ولد فى ذلك ، لم يَضُرَّه الشيطانُ أبدا (٣) » .

وقوله : (وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا) ، كما أخبر تعالى عن إبليس (٤) أنه يقول إذا حصحص (٥) الحق

---

(١) تفسير الطبرى : ١٥/٨٣ .

(٢) تقدم الحديث فى تفسير سورة النساء ، الآية ١١٩ : ٢/٣٦٨ ، وشرحنا غريبه هنالك .

(٣) البخارى ، كتاب بدء الخلق ، باب « صفة إبليس وجنوده » : ٤/١٤٨ ، ١٤٩ . ومسلم ، كتاب النكاح ، باب « ما يستحب أن يقوله عند الجماع » : ٤/١٥٥ .

(٤) فى المخطوطة : « عن سلف إبليس » والمثبت عن الطبعات السابقة .

(٥) أى : ظهر وبان .

يوم يقضى بالحق : (إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى : فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم ، وما أنتم بمصرخيّ (١)) الآية .

وقوله: (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) : إخبار بتأييده تعالى عباده المؤمنين ، وحفظه إياهم ، وحراسته لهم من الشيطان الرجيم : ولهذا قال : (وكفى بربك وكيلا) ، أى : حافظاً ومؤيدا وناصراً .

وقال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة ، حدثنا ابن لهيعة ، عن موسى بن وَرْدَان ، عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن المؤمن ليُنْضِي شياطينه ، كما يُنْضِى أحدكم بعيرَه فى السفر (٢) » .

ينضى : أى : يأخذ بناصيته ويقهره (٣) .

رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾

يخبر تعالى عن لطفه بخلقه فى تسخيره لعباده الفلك فى البحر ، وتسهيلها لمصالح عباده ، لابتغائهم من فضله فى التجارة من إقليم إلى إقليم . ولهذا قال : (إنه كان بكم رحيما) ، أى : إنما فعل هذا بكم ، من فضله عليكم ، ورحمته بكم .

وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾

يخبر تعالى أنه إذا مس الناس ضر ، دعوه منيبين إليه ، مخلصين له الدين . ولهذا قال : (وإذا مسكم الضر فى البحر ، ضل من تدعون إلا إياه) ، أى : ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله ، كما اتفق لعكرمة بن أبى جهل لما ذهب فارا من رسول الله صلى الله عليه وسلم حين فتح مكة ، فذهب هاربا ، فركب فى البحر ليدخل الحبشة ، فجاءتهم ريح عاصف ، فقال القوم بعضهم لبعض: إنه لا يغنى عنكم إلا أن تدعوا الله وحده : فقال عكرمة فى نفسه : والله لئن كان لا ينفع فى البحر غيره، فإنه لاينفع فى البر غيره . اللهم لك على عهد ، لئن أخرجتنى منه لأذهبن فَأَضَعَنّ يدى فى يديه ، فلأجدنه رءوفا رحيما . فخرجوا من البحر ، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأسلم وحسن إسلامه (٤) : رضى الله عنه وأرضاه .

وقوله: (فلما نجاكم إلى البر أعرضتم) ، أى : نسيتم ما عرفتم من توحيده فى البحر ، وأعرضتم عن دعائه وحده لا شريك له .

(وكان الإنسان كفورا) ، أى : سَجِيَّتُه هذا ، ينسى النِّعم ويجحدها ، إلا من عصم الله .

---

(١) سورة إبراهيم ، آية : ٢٢ .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٢/٣٨٠ .
(٣) قال ابن الأثير فى النهاية : « أى : يهزله ويجعله نضواً . والنضو : الدابة التى أهزلتها الأسفار » .
(٤) أخرجه أبو يعلى فى مسنده . ينظر أسد الغابة ، الترجمة ٣٧٣٥ : ٤/٧٠ ، ٧١ ، بتحقيقنا .

﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾

يقول تعالى : أفحسبتم [بخروجكم (١)] إلى البر أمنتم من انتقامه وعذابه ! .

(أن نخسف (٢) بكم جانب البر ، أو نُرْسِلَ عليكم حاصبا) ، وهو : المطر الذى فيه حجارة : قاله مجاهد ، وغير واحد : كما قال تعالى : (إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر (٣)) ، وقد قال فى الآية الأخرى : « وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل (٤) » ، وقال : (أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور . أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا ؟ فستعلمون كيف نذير (٥)) .

وقوله : (ثم لا تجدوا لكم وكيلا) ، أى : ناصرا ، يرد ذلك عنكم ، وينقذكم منه .

﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾

يقول تعالى : (أم أمنتم) ، أيها المعرضون عنا بعد ما اعترفوا بتوحيدنا فى البحر ، وخرجوا إلى البر ، (أن نعيدكم) فى البحر مرة ثانية ، (فيُرسل عليكم قاصفاً من الريح) ، أى : يقصف الصوارى ويغرق المراكب .

قال ابن عباس وغيره : القاصف ريح البحار التى تكسر المراكب وتغرقها .

وقوله : (فنغرقكم بما كفرتم) ، أى : بسبب كفركم وإعراضكم عن الله تعالى .

وقوله : (ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً) ــ قال ابن عباس : نصيراً .

وقال مجاهد : نصيراً ثائراً . أى : يأخذ بثأركم بعدكم .

وقال قتادة : ولا نخاف أحداً يتبعنا بشىء من ذلك (٦) .

* ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾

يخبر تعالى عن تشريفه لبنى آدم ، وتكريمه إياهم ، فى خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها، كما قال : (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم) (٧) ، أى : يمشى قائماً منتصباً على رجليه ، ويأكل بيديه ــ وغيره من الحيوانات يمشى على

---

(١) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة ، ومكانه فى مخطوطة الأزهر : « أن نخرجكم » .

(٢) كذا وردت هذه الأفعال فى هذه الآية والتى تليها ، فى مخطوطة الأزهر ، بالنون . وهى قراءة ثابتة فى السبعة : قال أبو حيان فى البحر المحيط ٦١/٦ : « وقرأ ابن كثير وأبو عمرو (نخسف) و (أو نرسل) و (أن نعيدكم) و (فنرسل) و (فنغرقكم) ، خمستها بالنون . وباقى السبعة بياء الغيبة » .

(٣) سورة القمر ، آية : ٣٤ .

(٤) فى الأصل من طين ، وليست آية . ولعله يعنى آية الذاريات ٣٣ : « لنرسل عليهم حجارة من طين » أو آية هود ٨٣ : « وأمطرنا عليها حجارة من سجيل » ، أو آية الحجر ٧٤ : « وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل » .

(٥) سورة الملك ، آية : ١٦ ، ١٧ .

(٦) تفسير الطبرى : ٨٥/١٥ .

(٧) سورة التين ، آية : ٤ .

أربع ، ويأكل بفمه — وجعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً ، يفقه بذلك كله وينتفع به ، ويفرق بين الأشياء ، ويعرف منافعها وخواصها ومضارها فى الأمور الدنيوية والدينية :

(وحملناهم فى البر) ، أى : على الدواب من الأنعام والخيل والبغال ، (وفى البحر) أيضاً على السفن الكبار والصغار .

(ورزقناهم من الطيبات) ، أى : من زروع وثمار ، ولحوم وألبان ، من سائر أنواع الطعوم والألوان ، المشتهاة اللذيذة ، والمناظر الحسنة ، والملابس الرفيعة من سائر الأنواع ، على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها ، مما يصنعونه لأنفسهم ، ويجلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحى :

(وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) ، أى : من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات .

وقد استُدلَّ بهذه الآية على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة ، قال عبد الرزاق :

أخبرنا معمر ، عن زيد بن أسلم قال : قالت الملائكة : ياربنا ، إنك أعطيت بنى آدم الدنيا ، يأكلون منها ويتنعمون ، ولم تعطنا ذلك فأعطناه فى الآخرة . فقال الله : وعزتى وجلالى لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدى ، كمن قلت له : كن ، فكان .

وهذا الحديث مرسل من هذا الوجه ، وقد روى من وجه آخر متصلا

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا أحمد بن محمد بن صدقة البغدادى ، حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن خالد المصيصى ، حدثنا حجاج بن محمد . حدثنا أبو غَسَّان محمد بن مطرف ، عن صفوان بن سُليم ، عن عطاء بن يسار ، عن عبد الله بن عمرو ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الملائكة قالت : ياربنا ، أعطيت بنى آدم الدنيا ، يأكلون فيها ويشربون ويلبسون ، ونحن نسبح بحمدك ولا نأكل ولا نشرب ولا نلهو ، فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة . قال : لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدى ، كمن قلت له : كن ، فكان » .

وقد روى ابن عساكر من طريق محمد بن أيوب الرازى ، حدثنا الحسن بن على بن خلف الصيدلانى ، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن ، حدثنى عثمان بن حصن بن عبيدة بن علاق ، سمعت عروة بن رُويم اللخمى ، حدثنى أنس ابن مالك ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الملائكة قالوا : ربنا ، خلقتنا وخلقت بنى آدم ، فجعلتهم يأكلون الطعام ، ويشربون الشراب ، ويلبسون الثياب ، ويتزوجون النساء ، ويركبون الدواب ، ينامون ويستريحون ، ولم تجعل لنا من ذلك شيئاً فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة . فقال الله عز وجل : لا أجعل من خلقته بيدى ، ونفخت فيه من روحى ، كمن قلت له : كن ، فكان »

وقال الطبرانى : حدثنا عبدان بن أحمد ، حدثنا عمر بن سهل ، حدثنا عُبَيد الله بن تمام ، عن خالد الحذاء ، عن بشر بن شغاف عن أبيه ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما شىء أكرم على الله يوم القيامة من ابن آدم . قيل : يارسول الله ، ولا الملائكة ؟ قال : ولا الملائكة ، الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس والقمر » . وهذا حديث غريب جداً .

يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُولَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾

يخبر تبارك وتعالى عن يوم القيامة : أنه يحاسب كلّ أمة بإمامهم .

وقد اختلفوا فى ذلك ، فقال مجاهد وقتادة : أى بنبيهم . وهذا كقوله: (ولكل أمة رسول ، فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون)(١) .

وقال بعض السلف : هذا أكبر شرف لأصحاب الحديث ، لأن إمامهم النبى صلى الله عليه وسلم .

وقال ابن زيد : بكتابهم الذى أنزل على نبيهم ، من التشريع .

واختاره ابن جرير ، وروى عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد أنه قال : بكتبهم(٢) . فيحتمل أن يكون أراد هذا ، وأن يكون أراد ما رواه العوفى عن ابن عباس فى قوله : (يوم ندعو كل أناس بامامهم) ، أى:بكتاب أعمالهم ، وكذا قال أبو العالية ، والحسن ، والضحاك . وهذا القول هو الأرجح ، لقوله تعالى : (وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين)(٣) : وقال تعالى : (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون : يا ويلتنا . ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضراً ، ولا يظلم ربك أحداً)(٤) .

وقال تعالى : (وترى كل أمة جاثية ، كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون * هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ، إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون) (٥)

وهذا لا ينافى أن يُجاء بالنبى إذا حكم الله بين أمته ، فإنه لا بد أن يكون شاهداً عليها بأعمالها ، كما قال : (وأشرقت الأرض بنور ربها ، ووضع الكتاب ، وجىء بالنبيين والشهداء)(٦) ، وقال : (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً)(٧) .

ولكن المراد هاهنا بالإمام هو : كتاب الأعمال ، ولهذا قال تعالى : (يوم ندعو كل أناس بإمامهم ، فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم) ، أى : من فرحته وسروره بما فيه من العمل الصالح ، يقرؤه ويحب قراءته ، كما قال تعالى : (فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول : هاؤم اقرءوا كتابيه . إنى ظننت أنى ملاق حسابيه) إلى أن قال : (وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول : ياليتنى لم أوت كتابيه . ولم أدر ما حسابيه)(٨) .

وقوله : (ولا يظلمون فتيلا) ، قد تقدم(٩) أن « الفتيل » هو الخيط المستطيل فى شق النواة ؛

---

(١) سورة يونس ، آية : ٤٧ .

(٢) تفسير الطبرى : ١٥/٦٨ .

(٣) سورة « يس » ، آية : ١٢ .

(٤) سورة الكهف ، آية : ٤٩ .

(٥) سورة الجاثية ، آية : ٢٨ ، ٢٩ .

(٦) سورة الزمر آية : ٦٩ .

(٧) سورة النساء آية : ٤١ :

(٨) سورة الحاقة ، الآيات : ١٩ — ٢٦ .

(٩) ينظر تفسير الآية ٤٩ من سورة النساء : ٢/٢٩٣ .

وقد روى الحافظ أبو بكر البزار حديثاً فى هذا فقال : حدثنا محمد بن يعمر ، ومحمد بن عثمان بن كرامة قالا : حدثنا عبيد الله بن موسى ، عن إسرائيل ، عن السدى ، عن أبيه ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قول الله : (يوم ندعو كل أناس بإمامهم) قال : يدعى أحدهم فيُعطى كتابه بيمينه ، ويمَدّ له فى جسمه ، ويُبَيَّض وجهه ، ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤة تتلألأ ، فينطلق إلى أصحابه فيرونه من بعيد ، فيقولون : اللهم [ائتنا] (١) بهذا ، وبارك لنا فى هذا . فيأتيهم فيقول لهم : أبشروا ، فان لكل رجل منكم مثل هذا . وأما الكافر فيُسْوَد وجهه ، ويمد له فى جسمه ، ويراه أصحابه فيقولون : نعوذ بالله من هذا — أو : من شر هذا — اللهم لا تأتنا به : فيأتيهم فيقولون : اللهم اخزه . فيقول : أبعدكم الله . . فان لكل رجل منكم مثل هذا (٢) .

ثم قال البزار : لا يروى إلا من هذا الوجه .

وقوله : (ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا) : قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وابن زيد : (ومن كان فى هذه) ، أى : فى الحياة الدنيا (أعمى) عن حجج الله وآياته وبيناته ، (فهو فى الآخرة أعمى) ، أى : كذلك يكون ، (وأضل سبيلا) ، أى : وأضل منه ، كما كان فى الدنيا ، عياذاً بالله من ذلك .

وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

يخبر تعالى عن تأييد رسوله — صلوات الله عليه وسلامه — وتثبيته ، وعصمته وسلامته من شر الأشرار وكيد الفجار ، وأنه تعالى هو المتولى أمره ونصره ، وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه ، بل هو وليه وحافظه وناصره ومؤيده ومظفره ، ومظهر دينه على من عاداه وخالفه وناوأه ، فى مشارق الأرض ومغاربها ، صلى الله عليه وسلم تسليما كثيراً إلى يوم الدين .

وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾

قيل : نزلت فى اليهود ، إذ أشاروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بسكنى الشام بلاد الأنبياء ، وترك سكنى المدينة ؛ وهذا القول ضعيف ، لأن هذه الآية مكية ، وسكنى المدينة بعد ذلك .

---

(١) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة ، والترمذى . ومكانه فى المخطوطة « اعترينا » .

(٢) أخرجه السيوطى فى الدر المنثور ٤/١٩٤ عن الترمذى ، والبزار ، وابن أبى حاتم ، وابن حبان ، والحاكم ، وابن مردويه ، كلهم عن أبى هريرة .

هذا وقد أخرج الترمذى هذا الحديث عن عبد الله بن عبد الرحمن ، عن عبيد الله بن موسى ، بإسناده . وقال : « هذا حديث حسن غريب » . ينظر تحفة الأحوذى ، تفسير سورة بنى إسرائيل ، الحديث ٥١٤٤ : ٨/٥٧٠ — ٥٧٢ .

وقيل : إنها نزلت بتبوك ؛ وفي صحته نظر .

قال البيهقي، عن الحاكم ، عن الأصم ، عن أحمد بن عبد الجبار العُطَارِدي، عن يونس بن بكير، عن عبد الحميد ابن بهرام ، عن شهر بن حوشب ، عن عبد الرحمن بن غَنْم: إن اليهود أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فقالوا : يا أبا القاسم ، إن كنت صادقاً أنك نبي،فالحق بالشام ، فان الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء . فصدّق ما قالوا ، فغزا غزوة تبوك ، لا يريد إلا الشام . فلما بلغ تبوك،أنزل الله عليه آياتمن سورة بني إسرائيل بعد ما ختمت السورة : (وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها) إلى قوله : (تحويلا) ، فأمره الله بالرجوع إلى المدينة ، وقال : فيها محياك ومماتك ، ومنها تبعث .

وفي هذا الإسناد نظر. والأظهر أن هذا ليس بصحيح ، فان النبي صلىاللهعليه وسلم لم يغز تبوك عن قول اليهود ، إنما غزاها امتثالا لقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا ، قاتلوا الذين يلونكم من الكفار (١))،وقوله تعالى : (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله،ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)(٢) . وغزاهاليقتصوينتقم ممن قتل أهل مؤتة ، من أصحابه ، والله أعلم . ولو صح هذا لحمل عليه الحديث الذى رواه الوليد بن مسلم ، عن عُفَير بن مَعْدان ، عن سُلَيم بن عامر، عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنزل القرآن في ثلاثة أمكنة : مكة ، والمدينة ، والشام . قال الوليد : يعني بيت المقدس . وتفسير الشام بتبوك أحسن مما قال الوليد : إنه بيت المقدس . والله أعلم .

وقيل : نزلت في كفار قريش ، هموا بإخراج الرسول من بين أظهرهم ، فتوعدهم الله بهذه الآية ، وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيراً . وكذلك وقع ؛ فانه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم ، بعدما اشتد أذاهم له ، إلا سنة ونصف . حتى جمعهم الله وإياه ببدر على غير ميعاد ، فأمكنه منهم وسلطه عليهموأظفره بهم ، فقتل أشرافهم ، وسبي سراتهم . ولهذا قال : (سنة من قد أرسلنا قبلك من ر سلنا) ، أي : هكذا عادتنا في الذين كفروا برسلنا وآذوهم : يخرج الرسول من بين أظهرهم ، ويأتيهم العذاب . ولولا أنه عليه السلام رسول الرحمة،لجاءهم من النقم في الدنيا مالا قبل لأحد به . ولهذا قال تعالى : (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) (٣) .

أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ الَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ الَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾

يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم آمراً له باقامة الصلوات المكتوبات في أوقاتها : (أقم الصلاة لدلوك الشمس) ، قيل لغروبها . قاله ابن مسعود ، ومجاهد ، وابن زيد .

وقال هشيم ، عن مغيرة ، عن الشعبي ، عن ابن عباس : (دلوكها) : زوالها . (٤) ورواه نافع ، عن ابن عمر . ورواه مالك في تفسيره ، عن الزهري، عن ابن عمر . وقاله أبو بَرْزَة الأسلمي وهو رواية أيضاً عن ابن مسعود ،

---

(١) سورة التوبة ، آية : ١٢٣ .
(٢) سورة التوبة ، آية : ٢٩ .
(٣) سورة الأنفال آية : ٣٣ .
(٤) تفسير الطبري : ٩١/١٥ .

ومجاهد : وبه قال الحسن ، والضحاك ، وأبو جعفر الباقر ، وقتادة : واختاره ابن جرير ، ومما استشهد عليه مارواه عن ابن حميد ، عن الحكم بن بَشير ، حدثنا عمرو بن قيس ، عن ابن أبي ليلى ، [عن رجل] عن جابر بن عبد الله قال : دعوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن شاء من أصحابه ، فطعمُوا عندى ، ثم خرجوا حين زالت الشمس، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم فقال : اخرج ياأبا بكر ، فهذا حين دلكت الشمس (١) »

ثم رواه عن سهل بن بكار ، عن أبي عوانة ، عن الأسود بن قيس ، عن نبيح العنزى ، عن جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نحوه . فعلى هذا تكون هذه الآية دخل فيها أوقات الصلاة الخمسة فمن قوله : (لدلوك الشمس إلى غسق الليل) — وهو : ظلامه ، وقيل : غروب الشمس — أُخِذَ منه الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، وقوله : (وقرآن الفجر) ، يعني : صلاة الفجر .

وقد ثبتت السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تواترا من أفعاله وأقواله ، بتفاصيل هذه الأوقات ، على ماعليه عمل أهل الإسلام اليوم ، مما تلقوه خلفا عن سلف ، وقرنا بعد قرن ، كما هو مقرر فى مواضعه ، ولله الحمد .

(إن قرآن الفجر كان مشهوداً) ، قال الأعمش ، عن إبراهيم ، عن ابن مسعود — وعن أبي صالح ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية : (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً) ، قال : تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار (٢) .

وقال البخارى : حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن الزهرى ، عن أبي سلمة — وسعيد ابن المسيب عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة ، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الفجر» — ويقول أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم : (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً) (٣) .

وقال الإمام أحمد: حدثنا أسباط ، حدثنا الأعمش ، عن إبراهيم ، عن ابن مسعود ، عن النبي صلى الله عليه وسلم — وحدثنا الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم فى قوله : (وقرآن الفجر ، إن قرآن الفجر كان مشهوداً) قال : تشهده ملائكة الليل ، وملائكة النهار (٤) .

ورواه الترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، ثلاثتهم عن عُبَيد بن أسباط بن محمد، عن أبيه ، به . وقال الترمذى : حسن صحيح (٥) .

وفى لفظ فى الصحيحين ، من طريق مالك،عن أبي الزناد ، عن الأعرج، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يتعاقبون فيكم ملائكة الليل وملائكة النهار، ويجتمعون فى صلاة الصبح وفى صلاة العصر ، فَيَعْرُجَ

(١) تفسير الطبرى : ١٥/٩٣ .
(٢) تفسير الطبرى : ١٥/٩٤ .
(٣) البخارى ، تفسير سورة بنى إسرائيل : ٦/١٠٨ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٢/٤٧٤ .
(٥) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة بنى إسرائيل ، الحديث ٥١٤٢ : ٨/٥٦٩ ، ٥٧٠ . وسنن ابن ماجه ، كتاب الصلاة ، باب : « وقت صلاة الفجر » ، الحديث : ٦٧٠ : ١/٢٢٠ .

الذين باتوا فيكم فيسألهم ــ وهو أعلم بكم ــ : كيف تركتم عبادى؟ فيقولون : أتيناهم وهم يصلون ، وتركناهم وهم يصلون » (١) .

وقال عبد الله بن مسعود : يجتمع الحرسان فى صلاة الفجر ، فيصعد هؤلاء ويقيم هؤلاء . وكذا قال إبراهيم النخعى ، ومجاهد ، وقتادة ، وغير واحد فى تفسير هذه الآية .

وأما الحديث الذى رواه ابن جرير هاهنا ــ من حديث الليث بن سعد ، عن زيادة ، عن محمد بن كعب القرظى ، عن فضالة بن عُبَيد ، عن أبى الدرداء ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكر حديث النزول وأنه تعالى يقول : « من يستغفرنى أغفرُ له ، من يسألنى أعطه ، من يدعنى فأستجيبَ له حتى [يطلع] الفجر». فلذلك يقول : (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً) ، فيشهده الله ، وملائكة الليل ، وملائكة النهار(٢) ــ فإنه تفرد به زيادة ، وله بهذا حديث فى سنن أبى داود .

وقوله : (ومن الليل فتهجد به نافلة لك) : أمر له بقيام الليل بعد المكتوبة ، كما ورد فى صحيح مسلم ، عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه سئل أى الصلاة أفضل بعد المكتوبة ؟ قال : صلاة الليل (٣) .

ولهذا أمر تعالى رسوله بعد المكتوبات بقيام الليل ، فإن « التهجد » : ما كان بعد نوم . قاله علقمة (٤) ، والأسود ، وإبراهيم النخعى ، وغير واحد وهو المعروف فى لغة العرب . وكذلك ثبتت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه كان يتهجد بعد نومه ، عن ابن عباس ، وعائشة ، وغير واحد من الصحابة رضى الله عنهم ، كما هو مبسوط فى موضعه ، ولله الحمد والمنة .

وقال الحسن البصرى : هو ما كان بعد العشاء . ويحمل على ما بعد النوم .

واختلف فى معنى قوله : (نافلة لك) ، فقيل : معناه أنك مخصوص بوجوب ذلك وحدك ، فجعلوا قيام الليل واجباً فى حقه دون الأمة . رواه العوفى عن ابن عباس ، وهو أحد قولى العلماء ، وأحد قولى الشافعى رحمه الله ، واختاره ابن جرير .

وقيل : إنما جعل قيام الليل فى حقه نافلة على الخصوص ، لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وغيرُه من أمته إنما يكفر عنه صلواته النوافلُ الذنوبَ التى عليه ، قاله (٥) مجاهد ، وهو فى المسند عن أبى أمامة الباهلى ، رضى الله عنه (٦) .

---

(١) البخارى ، كتاب المواقيت ، باب « فضل صلاة العصر » : ١/١٤٥ ، ١٤٦ . ومسلم ، كتاب الصلاة ، باب « فضل صلاتى الصبح والعصر والمحافظة عليهما » : ٢/١١٣ .

(٢) تفسير الطبرى : ١٥/٩٤ .

(٣) مسلم ، كتاب الصوم ، باب « فضل صوم المحرم » : ٣/١٦٨ .

(٤) تفسير الطبرى : ١٥/٩٦ .

(٥) فى المخطوطة : « قال » . وأثر مجاهد ــ كما فى تفسير الطبرى ١٥/٩٦ ــ : « النافلة للنبى صلى الله عليه وسلم خاصة ، من أجل أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فما عمل من عمل سوى المكتوبة فهو نافلة ، من أجل أنه لا يعمل ذلك فى كفارة الذنوب ، فهى نوافل وزيادة . والناس يعملون ما سوى المكتوبة لذنوبهم فى كفارتها ، فليست للناس نوافل » .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٥/٢٥٥ ، ٢٥٦ .

وقوله : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاما محموداً ﴾ ، أي : افعل هذا الذى أمرتك به ، لنقيمك يوم القيامة مقاما يحمدك فيه الخلائق كلهم وخالقهم ، تبارك وتعالى .

قال ابن جرير : قال أكثر أهل التأويل : ذلك هو المقام الذى يقومه صلى الله عليه وسلم يوم القيامة للشفاعة للناس ، ليريحهم ربهم من عظيم ماهم فيه من شدة ذلك اليوم .

ذكر من قال ذلك : حدثنا ابن بشار ، حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان ، عن أبى إسحاق ، عن صلة بن زُفَر ، عن حذيفة قال : يجمع الناس فى صعيد واحد ، يسمعهم الداعى وينفذهم البصر ، حفاة عُراة كما خلقوا [قياما] ، لاتكلم نفس إلا بإذنه ، ينادى : يامحمد ، فيقول : لبيك وسعديك ، والخير فى يديك ، والشر ليس إليك ، والمهدىّ من هديت ، وعبدك بين يديك ، وبك وإليك ، لامنجى ولا ملجأ منك إلا إليك ، تباركت وتعاليت ، سبحانك رب البيت . فهذا المقام المحمود الذى ذكره الله عز وجل (١) .

ثم رواه عن بندار(٢) ، عن غندر ، عن شعبة ، عن أبى إسحاق ، به : وكذا رواه عبد الرزاق عن معمر والثورى ، عن أبى إسحاق ، به (٣) .

وقال ابن عباس : هذا المقام المحمود مقام الشفاعة . وكذا قال ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : وقاله الحسن البصرى .

وقال قتادة : هو أول من تنشق عنه الأرض ، وأول شافع ، وكان أهل العلم يرون أنه المقام المحمود الذى قال الله : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاما محموداً ﴾ .

قلت : لرسول الله، صلى الله عليه وسلم تسليما ، تشريفات لايشركه فيها أحد ، وتشريفات لايساويه فيها أحد ؛ فهو أول من تنشق عنه الأرض، ويبعث راكباً إلى المحشر ، وله اللواء الذى آدمُ فمن دونه تحتَ لوائه ، وله الحوض الذى ليس فى الموقف أكثرَ وارداً منه ، وله الشفاعة العظمى عند الله ليأتى لفصل القضاء بين الخلائق ، وذلك بعد مايسأل الناس آدم ثم نوحا ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ، فكل يقول : « لست لها » ، حتى يأتوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم فيقول : « أنا لها ، أنا لها » ، كما سنذكر ذلك مفصلا فى هذا الموضع إن شاء الله تعالى . ومن ذلك أنه يشفع فى أقوام قد أُمِرَ بهم إلى النار ، فيردُّون عنها . وهو أول الأنبياء يقضى بين أمته ، وأولهم إجازة على الصراط بأمته . وهو أول شفيع فى الجنة ، كما ثبت فى صحيح مسلم . وفى حديث الصور : أن المؤمنين كلهم لايدخلون الجنة إلا بشفاعته . وهو أول داخل إليها وأمته قبل الأمم كلهم . ويشفع فى رفع درجات أقوام لاتبلغها أعمالهم . وهو صاحب الوسيلة التى هى أعلى منزلة فى الجنة ، لاتليق إلا له . وإذا أذن الله تعالى فى الشفاعة للعصاة شفع الملائكة والنبيون والمؤمنون، فيشفع هو فى خلائق لايَعلَم عدتهم إلا الله ، ولا يشفع أحد مثله ولا يساويه فى ذلك . وقد بسطت ذلك مستقصى فى آخر كتاب « السيرة » فى باب الخصائص، ولله الحمد والمنة .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٥/٩٧ .

(٢) الرواية الثانية – كما فى تفسير الطبرى ١٥/٩٧ – : عن محمد بن المثنى ، عن محمد بن جعفر . وبندار : هو محمد ابن بشار ، وغندر هو : محمد بن جعفر .

(٣) تفسير الطبرى : ١٥/٩٨ .

ولنذكر الآن الأحاديث الواردة فى المقام المحمود ، وبالله المستعان ، قال البخارى :

حدثنا إسماعيل بن أبان ، حدثنا أبو الأحوص ، عن آدم بن على ، سمعت ابن عمر [يقول] : إن الناس يصيرون يوم القيامة جثاً ، كل أمة تتبع نبيها ، يقولون : « يافلان اشفع ، يافلان اشفع » ، حتى تنتهى الشفاعة إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فذلك يوم يبعثه الله مقاما محموداً (١) .

ورواه حمزة بن عبد الله ، عن أبيه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم .

قال ابن جرير : حدثنى محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ، حدثنا شعيب بن الليث ، حدثنى الليث ، عن عبيد الله بن أبى جعفر أنه قال : سمعت حمزة بن عبد الله بن عمر يقول : سمعت عبد الله بن عمر يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الشمس لتدنُو حتى يبلُغ العرقُ نصفَ الأذن ، فبينا هم كذلك استغاثوا بآدم ، فيقول : لست صاحب ذلك ، ثم بموسى فيقول كذلك ، ثم بمحمد فيشفع بين الخلق ، فيمشى حتى يأخذ بحلقة باب الجنة ، فيومئذ يبعثه الله مقاما محموداً (٢) .

وهكذا رواه البخارى فى « الزكاة » عن يحيى بن بُكَير وعبد الله بن صالح (٣) ، كلاهما عن الليث بن سعد ، به : وزاد : « فيومئذ يبعثه الله مقاما محموداً ، يحمده أهل الجمع كلهم (٤) » .

قال البخارى : وحدثنا على بن عيّاش ، حدثنا شعيب بن أبى حَمْزَةَ ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر بن عبد الله : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قال حين يسمع النداء : اللهم ، رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة ، آت محمداً الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته ـ حلّت له شفاعتى يوم القيامة (٥) » . انفرد به دون مسلم .

• • •

حديث أبىّ ، وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو عامر الأزدى ، حدثنا زهير بن محمد ، عن عبد الله بن محمد بن عقيل ، عن الطفيل بن أبىّ بن كعب ، عن أبيه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا كان يوم القيامة ، كنت إمام الأنبياء وخطيبهم ، وصاحب شفاعتهم غير فخر (٦) » .

وأخرجه الترمذى ، من حديث أبى عامر عبد الملك بن عَمْرو العَقَدىّ ، وقال : « حسن صحيح » : وابن ماجه ، من حديث عبد الله بن محمد بن عقيل (٧) به . وقد قدمنا فى حديث « أبى بن كعب » فى قراءة القرآن على سبعة أحرف ،

---

(١) البخارى ، تفسير سورة بنى إسرائيل : ١٠٨/٦ .

(٢) تفسير الطبرى : ٩٨/١٥ .

(٣) لفظ مخطوطة الأزهر : « عن يحيى بن بكير وعلقمة بن عبد الله بن صالح » . ولم نجد علقمة هذا . والمثبت عن صحيح البخارى . وعبد الله بن صالح هذا هو أبو صالح الجهنى المصرى ، كاتب الليث . ينظر التهذيب : ٢١٦/٥ .

(٤) البخارى ، كتاب الزكاة ، باب « من سأل الناس تكثرا » : ١٥٣/٢ .

(٥) البخارى ، تفسير سورة بنى إسرائيل : ١٠٨/٦ .

(٦) مسند الإمام أحمد : ١٣٧/٥ .

(٧) تحفة الأحوذى ، أبواب المناقب ، الحديث ٣٦٩٢ : ٨١/١٠ وسنن ابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب « ذكر الشفاعة » ، الحديث ٤٣١٤ : ١٤٤٣/٢ .

قال رسول الله : صلى الله عليه وسلم فى آخره : فقلت : اللهم ، اغفر لأمتى ، اللهم اغفر لأمتى ، وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلى فيه الخلق ، حتى إبراهيم عليه السلام (١) ».

* * *

حديث أنس بن مالك ، قال الإمام احمد : حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا سعيد بن أبى عَرَوبة ، حدثنا قتادة ، عن أنس ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يجتمع المؤمنون يوم القيامة ، فيلهمون ذلك فيقولون : لو استشفعنا على ربنا، فأراحنا من مكاننا هذا . فيأتون آدم فيقولون : ياآدم ، أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ، وأسجد لك ملائكته ، وعلمك أسماء كلّ شيء ، فاشفع لنا إلى ربك (٢) حتى يريحنا من مكاننا هذا . فيقول لهم آدم : « لست هناكم » ، ويذكر ذنبه الذى أصاب ، فيستحيى ربّه عز وجل من ذلك ، ويقول : ولكن ائتوا نوحا ؛ فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض فيأتون نوحا فيقول : « لست هناكم » ، ويذكر خطيئة (٣) سؤاله ربه ماليس له به علم ، فيستحيى ربّه من ذلك ، ولكن ائتوا إبراهيم خليل الرحمن . فيأتونه فيقول: « لست هناكم » ، ولكن ائتوا موسى ، عبداً كلمه الله ، وأعطاه التوراة . فيأتون موسى فيقول : « لست هناكم » ، ويذكر لهم النفس التى قتل بغير نفس ، فيستحيى ربه من ذلك ، ولكن ائتوا عيسى عبدَ الله ورسوله ، وكلمته وروحه . فيأتون عيسى فيقول: « لست هناكم »، ولكن ائتوا محمداً عبداً غفر [الله] له ماتقدم من ذنبه وما تأخر . فيأتونى — قال الحسن هذا الحرف : « فأقوم فأمشى بين سماطين (٤) من المؤمنين » — قال أنس : حتى أستأذن على ربى ، فإذا رأيت ربى وقعت له — أو : خَرَرْتُ — ساجدا لربى ، فيدعنى ماشاء الله أن يدعنى — قال : : ثم يقال : ارفع محمد ، قل يسمع ، واشفع تشفع ، وسل تعطه : فأرفع رأسى ، فأحمده بتحميد يُعَلِّمُنيه ، ثم أشفع فيحدلى حدا ، فأدخلهم الجنة . ثم أعود إليه الثانية فإذا رأيت ربى وقعت — أو خَرَرْتُ — ساجدا لربى ، فيدعنى ماشاء الله أن يدعنى : ثم يقال : ارفع محمد، قل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع . فأرفع رأسى فأحمده بتحميد يُعَلِّمُنيه، ثم أشفع فيحد لى حدا ، فأدخلهم الجنة ، ثم أعود فى الثالثة ؛ فإذا رأيت ربى وقعت —أو : خررت — ساجداً لربى ، فيدعنى ماشاء الله أن يدعنى ، ثم يقال: ارفع محمد ، قل يسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع . فأرفع رأسى فأحمده بتحميد يُعَلِّمُنيه، ثم أشفع فيحدلى حدا فأدخلهم الجنة : ثم أعود فى الرابعة فأقول : يارب، مابقى إلا من حبسه القرآن — فحدثنا أنس بن مالك أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : فيخرج من النار من قال : « لا إله إلا الله »، وكان فى قلبه من الخير مايزن شَعيرة، ثم يخرج من النار من قال : « لا إله إلا الله » ، وكان فى قلبه من الخير مايزن بُرّة . ثم يخرج من النار من قال « لاإله إلا الله » ، وكان فى قلبه من الخير مايزن ذَرّة » : (٥)

أخرجاه من حديث سعيد ، به (٦) . وهكذا رواه الإمام أحمد ، عن عفان ، عن حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس بطوله (٧) .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٥/١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ .

(٢) لفظ المسند : « فاشفع لنا إلى ربنا عز وجل يريحنا » .

(٣) لفظ المسند : « ويذكر لهم خطيئته وسؤاله ... » .

(٤) تقدم تفسير هذه الكلمة فى : ٤/٣٧٤ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٣/١١٦ .

(٦) البخارى ، تفسير سورة البقرة : ٦/٢١ ، ٢٢ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « أدنى أهل الجنة منزلة » : ١/١٢٥ . وقد تقدم الحديث فى سورة البقرة : ١/١٠٤ ، ١٠٥ .

(٧) مسند الإمام أحمد : ٣/٢٤٤ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يونس بن محمد ، حدثنا حرب بن ميمون أبو الخطاب الأنصارى ، عن النضر بن أنس ، عن أنس قال : حدثنى نبى الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنى لقائم أنتظر أمتى تعبر الصراط ، إذ جاءنى عيسى عليه السلام فقال : هذه الأنبياء قد جاءتك يا محمد ، يسألون ــ أو قال : يجتمعون إليك ــ ويَدْعُون الله أن يفرِّق بين جميع الأمم إلى حيث يشاء الله ، لغَمِّ ماهم فيه ، فالخلق مُلجَمون (١) بالعرق ــ فأما المؤمن فهو عليه كالزَّكْمة ، وأما الكافر فيغشاه الموت ــ فقال (٢) : انتظر حتى أرجع إليك . فذهب نبى الله صلى الله عليه وسلم فقام تحت العرش ، فلقِىَ مالم يلق مَلَكٌ مصطفى ولا نبى مرسل : فأوحى الله عز وجل إلى جبريل : أن اذهب إلى محمد ، وقل له : « ارفع رأسك ، وسل تُعطَه ، واشفع تشفع » : فشفَعتُ فى أمتى : أنْ أخرِجْ من كل تسعةوتسعين إنسانا واحداً . فما زلت أتردد إلى ربى عز وجل ، فلا أقوم منه مقاما إلا شفعت ، حتى أعطانى الله من ذلك ، أن قال : يا محمد ، أدْخِلْ [من أمتك] مِن خَلْق الله عز وجل مَنْ شهد أن لا إله إلا الله يوما واحدا مخلصاً ، ومات على ذلك (٣) » .

* * *

حديث بريدة رضى الله عنه ، قال الإمام أحمد بن حنبل : حدثنا الأسود بن عامر ، أخبرنا أبو إسرائيل ، عن الحارث بن حَصِيرة ، عن ابن بريدة ، عن أبيه : أنه دخل على معاوية ، فإذا رجل يتكلم ، فقال بريدة : يا معاوية ، تأذن لى فى الكلام ؟ فقال : نعم ــ وهو يرى أنه يتكلم بمثل ما قال الآخر ــ فقال بريدة : سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنى لأرجو أن أشفع يوم القيامة عَدَد ماعلى الأرض من شجرة ومَدَرة (٤) . قال : أفترجوها (٥) أنت يا معاوية ، ولا يرجوها على رضى الله عنه ؟ » (٦) .

* * *

حديث ابن مسعود ، قال الإمام أحمد : حدثنا عارم بن (٧) الفضل ، حدثنا سعيد بن زيد ، حدثنا على بن الحكم البُنَانى ، عن عثمان ، عن إبراهيم ، عن علقمة والأسود ، عن ابن مسعود قال : جاء ابنا مُلَيكة إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقالا : إن أمَّنا [كانت] (٨) تكرم الزوج ، وتعطف على الولد ــ قال : وذكر الضيف ــ غير أنها كانت وَأدت فى الجاهلية ؟ فقال : أمكما فى النار . قال : فأدبرا والسوء (٩) يرى فى وجوههما ، فأمر بهما فرُدَّا ، فرَجَعا

---

(١) تقدم تفسير هذه الكلمة فى : ٤/٤٣٩ .
(٢) لفظ المسند : « فيتغشاه الموت : قال قال : عيسى ، انتظر ... » .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٣/١٧٨ .
(٤) المدر ــ بفتحتين ــ : قطع الطين اليابس ، واحده : مدرة .
(٥) فى المخطوطة : « فترجوها » . دون همزة الاستفهام . والمثبت من مسند الإمام أحمد .
(٦) مسند الإمام أحمد : ٥/٣٤٧ .
(٧) فى المخطوطة : « حدثنا عارم بن الفضل ، حدثنا سعيد بن الفضل ، حدثنا سعيد بن زيد » . وفى مسند الإمام أحمد ط الحلبى : « حدثنا عارم بن الفضل ، حدثنا أبو سعيد ، حدثنا ابن زيد » . وكلاهما خطأ . والمثبت من المسند ط دار المعارف ، تحقيق الأستاذ الشيخ أحمد شاكر ، الحديث ٣٧٨٧ : ٥/٢٩٧ . وقد نبه على ما وقع من الوهم فى ط الحلبى . وينظر التهذيب ٩/٤٠٢ ، ترجمة عارم ، وهو : محمد بن الفضل ، فهو يروى عن سعيد بن زيد بن درهم .
(٨) ما بين القوسين من المسند .
(٩) فى المسند : « والشر » .

والسرور يرى فى وجوههما ؛ رجاء أن يكون قد حدث شيء ، فقال : أبى مع أمكما : فقال رجل من المنافقين : وما يغنى هذا عن أمه شيئا ! ونحن نطأ عقبيه . فقال رجل من الأنصار — ولم أر رجلا قط أكثر سؤالا منه — : يا رسول الله ، هل وعدك ربك فيها أو فيهما ؟ قال : فظن أنه من شيء قد سمعه ، فقال :ما سألته (١) ربى ، وما أطمعنى فيه ، وإنى لأقوم المقام المحمود يوم القيامة . فقال الأنصارى : يا رسول الله ، وما ذاك المقام المحمود ؟ قال : ذاك إذا جيء بكم حُفَاة عُرَاة غُرْلا (٢) ، فيكون أول من يكسى إبراهيم عليه السلام ، فيقول : اكسوا خليلى .فيؤتى بريطتين (٣) بيضاوين ، فيلبسهما ثم يقعده مستقبل العرش ، ثم أوتى بكسوتى فألبسها ، فأقوم عن يمينه مقاما لا يقومه أحد ، فيغبطنى (٤) فيه الأولون والآخرون . ويفتح نهر (٥) من الكوثر إلى الحوض . فقال المنافقون: إنه ما جرى ماء قط إلا على حال أو رَضراض (٦) . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حاله المسك ، ورضراضه التُّوم (٧) . [قال المنافق : لم أسمع كاليوم . قلّما جرى ماء قط على حَال أو رَضراض ، إلا كان له نَبْتَة . فقال الأنصارى : يا رسول الله ، هل له نبت؟ قال : نعم ، قضبان الذهب (٨)] . قال المنافق : لم أسمع كاليوم ، فإنه قلما ينبت قضيب إلا أورق ، وإلا كان له ثمر ! قال الأنصارى : يا رسول الله ، هل له ثمرة (٩) ؟ قال : نعم ، ألوان الجوهر ، وماؤه أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ، من شرب منه شربة (١٠) لا يظمأ بعده ، ومن حرمه لم يَرْوَ بعده (١١) .

وقال أبو داود الطيالسى : حدثنا يحيى بن سَلَمة بن كُهَيل ، عن أبيه ، عن أبى الزَّعْرَاء ، عن عبد الله قال : ثم يأذن الله عز وجل فى الشفاعة ، فيقوم روح القدس جبريل ، ثم يقوم إبراهيم خليل الله ، ثم يقوم عيسى أو موسى — قال أبو الزعراء : لا أدرى أيهما — قال : ثم يقوم نبيكم صلى الله عليه وسلم رابعا ، فيشفع لا يشفع أحد بعده أكثر مما شفع ، وهو المقام المحمود الذى قال الله عز وجل : (عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) .

* * *

حديث كعب بن مالك رضى الله عنه ، قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن عبد ربه ، حدثنى محمد بن حرب ، حدثنا الزبيدى ، عن الزهرى ، عن عبد الرحمن بن عبد الله [بن كعب] بن مالك ، عن كعب بن مالك أن رسول الله

---

(١) فى المخطوطة : « ما شاء الله ربى » . والمثبت من المسند .
(٢) تقدم تفسير هذه الكلمة فى : ٣/٢٢٨ .
(٣) تقدم تفسير هذه الكلمة فى : ٤/٤١٨ .
(٤) لفظ المسند : « لا يقومه أحد غيرى ، يغبطنى به » .
(٥) فى المخطوطة : « ويفتح لهم من الكوثر » . والمثبت من المسند .
(٦) تقدم تفسير « الحال » فى : ٤/٢٢٧ ، وأما الرضراض فهو الحصى الصغار .
(٧) التوم — بضم التاء — : الدر .
(٨) ما بين القوسين من مسند الإمام أحمد .
(٩) لفظ المسند : « هل له من ثمر » .
(١٠) لفظ المسند : « إن من شرب منه مشرباً » .
(١١) مسند الإمام أحمد : ١/٣٩٨ ، ٣٩٩ .

صلى الله عليه وسلم قال : « يبعث الناس يوم القيامة ، فأكون أنا وأمتى على تل ويكسونى ربى عز وجل حلة خضراء ، ثم يؤذن لى فأقولُ ما شاء الله أن أقول ، فذلك المقام المحمود (١) » .

• • •

حديث أبى الدرداء رضى الله عنه : قال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لَهيعة ، حدثنا يزيد بن أبى حبيب ، عن عبد الرحمن بن جُبَيْر ، عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا أول من يؤذن له بالسجود يوم القيامة ، وأنا أول من يؤذن له أن يرفع رأسه ، فأنظرُ إلى ما بين يدى ، فأعرف أمتى من بين الأمم ، ومن خلفى مثل ذلك ، وعن يمينى مثل ذلك ، وعن شمالى مثل ذلك . فقال رجل : يا رسول الله ، كيف تعرف أمتك من بين الأمم ، فيما بين نوح إلى أمتك ؟ قال : « هم غُرٌّ (٢) مُحَجَّلُونَ ، من أثر الوضوء ، ليس أحد كذلك غيرهم ، وأعرفهم أنهم يُؤْتَوْنَ كتبهم بأيمانهم ، وأعرفهم تسعى بين أيديهم ذريتهم (٣) » .

• • •

حديث أبى هريرة رضى الله عنه : قال الإمام أحمد رحمه الله : حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا أبو حَيَّان ، حدثنا أبو زرعة بن عمرو بن جَرير ، عن أبى هريرة قال : أُتِىَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بلحم ، فَرُفِع إليه الذراع ــ وكانت تعجبه ــ فَنَهَس (٤) منها نَهْسَةً ، ثم قال : « أنا سيد الناس يوم القيامة ، وهل تدرون مِمَّ ذاك ؟ يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد ، يُسْمِعهم الداعى وَيَنْفُذُهم (٥) البصر ، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغمّ والكرب مالا يطيقون ولا يحتملون : فيقول بعض الناس لبعض : [ألا ترون إلى ما أنتم فيه ؟ ألا ترون إلى ما قد بلغكم ، ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم عز وجل ؟ فيقول بعض الناس (٦) لبعض] : أبوكم آدم !

فيأتون آدم ، فيقولون : يا آدم ، أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ؛ فاشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ، ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول آدم : إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنه نهانى عن الشجرة فعصيتُه ! نفسى ، نفسى ، نفسى ! اذهبوا إلى غيرى ، اذهبوا إلى نوح :

فيأتون نوحا فيقولون : يا نوح ، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ، وسماك الله عبداً شكورا ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول نوح : إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنه كانت لى دعوة على قومى : نفسى ، نفسى ، نفسى ! اذهبوا إلى غيرى ، اذهبوا إلى إبراهيم .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٣/٤٥٦ . وما بين القوسين منه .
(٢) مضى تفسير « الغر المحجلين » فى ٣/٤٥ .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٥/١٩٩ .
(٤) أى : أخذ بمقدم أسنانه منها .
(٥) تقدم تفسير هذه الكلمة فى : ٤/٤٣٨ .
(٦) ما بين القوسين سقط من المخطوطة ، والمثبت من المسند .

فيأتون إبراهيم فيقولون : يا إبراهيم ، أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض ، [اشفع لنا إلى ربك] (١) ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول : إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله ، فذكر كذباته (٢) . نفسى ، نفسى ، نفسى ! [اذهبوا إلى غيرى (١)] ، اذهبوا إلى موسى .

فيأتون موسى فيقولون : يا موسى ، أنت رسول الله ، اصطفاك الله برسالاته وبكلامه على الناس ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ، ألا ترى ماقد بلغنا ؟ فيقول لهم موسى : إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنى قتلت نفساً لم أومرْ بقتلها . نفسى ، نفسى ، نفسى ! اذهبوا إلى غيرى ، اذهبوا إلى عيسى .

فيأتون عيسى فيقولون : يا عيسى ، أنت رسول الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه : قال : هكذا هُوَ ، وكلمتَ الناس فى المهد ، فاشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ، ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم عيسى : إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضبَ بعده مثله ، ولم يذكر ذنباً ، اذهبوا إلى غيرى ، اذهبوا إلى محمد .

فيأتونى فيقولون : يا محمد ، أنت رسول الله ، وخاتم الأنبياء ، غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فاشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ، ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فأقوم فآتى تحت العرش ، فأقع ساجداً لربى عز وجل ، ثم يفتح الله علىّ ، ويلهمنى من محامده وحسن الثناء عليه مالم يفتحه على أحد قبلى . فيقال : يا محمد ، ارفع رأسك ، وسل تعطه ، واشفع تُشفَّع . فأقول : يارب ، أمتى أمتى . يارب ، أمتى أمتى : يارب ، أمتى أمتى ! فيقال : يا محمد ، أدْخِلْ من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة ، وهم شركاء الناس فيما سواه من الأبواب . ثم قال : والذى نفس محمد بيده لَمَا بين مصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهَجَر(٣) ، أو كما بين مكة وبُصْرَى(٤) أخرجاه فى الصحيحين (٥) .

وقال مسلم رحمه الله : حدثنا الحكم بن موسى ، حدثنا هِقْلُ بن زياد ، عن الأوزاعى ، حدثنى أبو عمار ، حدثنى عبد الله بن فَرّوخ ، حدثنى أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأول من ينشق عنه القبر ، وأول شافع ، وأول مُشَفَّع (٦) » .

(١) ما بين القوسين من المسند .

(٢) كذباته ، هى قوله لقومه : (إنى سقيم) . وقوله : (بل فعله كبيرهم) . وقوله لفرعون عن امرأته « إنها أختى » . ولكل منها مخرج معقول عند العلماء .

(٣) هجر : مدينة هى قاعدة البحرين . وقيل : ناحية البحرين كلها هجر . وقيل : الهجر بلد باليمن . ولفظ البخارى : « ما بين مكة وحمير » . وما فى مسلم مثل المسند .

وأما « بصرى » — بضم فسكون — فهى قصبة كورة حوران بالشام ، وهى التى وصل إليها النبى صلى الله عليه وسلم للتجارة .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٤٣٥/٢ ، ٤٣٦ .

(٥) البخارى ، تفسير سورة بنى إسرائيل : ١٠٥/٦ — ١٠٧ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « أدنى أهل الجنة منزلة فيها » : ١٢٧/١ — ١٢٩ .

(٦) مسلم ، كتاب الفضائل ، باب تفضيل نبينا صلى الله عليه وسلم على جميع الخلائق : ٥٩/٧ .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا وكيع ، عن داود بن يزيد الزّعافرى ، عن أبيه ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) ، سئل عنها فقال : هى الشفاعة (١) .

رواه الإمام أحمد عن وكيع ومحمد (٢) بن عُبَيد ، عن داود ، عن أبيه ، عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله : (عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) ، قال : هو المقام الذى أشفع لأمتى فيه (٣) .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن الزهرى ، عن على بن الحسين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا كان يوم القيامة ، مد الله الأرض مَدّ الأديم ، حتى لا يكون لبشر من الناس إلا موضع قدمه ــ قال النبى صلى الله عليه وسلم : فأكون أول من يدعى ، وجبريل عن يمين الرحمن ، والله ما رآه قبلها ، فأقول : ربّ ، هذا أخبرنى أنك أرسلته إلىّ ؟ فيقول الله تبارك وتعالى : صدق ، ثم أشفع. فأقول : يا رب ، عبادك عبدوك فى أطراف الأرض . قال : فهو المقام المحمود (٤) » . وهذا حديث مرسل :

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَٰطِلُ إِنَّ الْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾

قال الإمام أحمد : حدثنا جرير ، عن قابوس بن أبى ظَبْيَان ، عن أبيه ، عن ابن عباس قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم بمكة ثم أمر بالهجرة ، فأنزل الله : (وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطاناً نصيراً (٥)) .

وقال الحسن البصرى فى تفسير هذه الآية : إن كفار أهل مكة لما ائتمروا برسول الله صلى الله عليه وسلم ليقتلوه أو يطردوه أو يوثقوه ، وأراد الله قتال أهل مكة ، فأمره أن يخرج إلى المدينة ، فهو الذى قال الله عز وجل : (وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق (٦)) .

وقال قتادة : (وقل رب أدخلنى مدخل صدق) ، يعنى المدينة ، (وأخرجنى مخرج صدق) ، يعنى مكة (٧) .

وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم . وهذا القول هو أشهر الأقوال .

وقال العوفى عن ابن عباس : (أدخلنى مدخل صدق) ، يعنى الموت ، (وأخرجنى مخرج صدق) ، يعنى الحياة بعد الموت . وقيل غير ذلك من الأقوال (٧) . والأول أصح ، وهو اختيار ابن جرير .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٥/٩٨ .

(٢) فى المخطوطة : « عن وكيع عن محمد بن عبيد » . ولعل الصواب ما أثبتناه . ورواية الإمام أحمد عن محمد بن عبيد سنخرجها . ولم تقع لنا روايته عن وكيع .

(٣) رواية الإمام أحمد عن محمد بن عبيد فى المسند : ٢/٤٤١ ، ٥٢٨ .

(٤) تفسير الطبرى : ١٥/٩٩ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ١/٢٢٣ .

(٦) تفسير الطبرى : ١٥/١٠٠ ، ١٠١ .

(٧) تفسير الطبرى : ١٥/١٠١ .

وقوله : (واجعل لى من لدنك سلطاناً نصيراً) — قال الحسن البصرى فى تفسيرها : وعده ربه لينزعن ملك فارس ، وعز فارس ، وليجعلنه له ، وملك الروم، وعز الروم ، وليجعلنه له :

وقال قتادة فيها : إن نبىّ الله صلى الله عليه وسلم ، علم أن لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان ، فسأل سلطانا نصيراً لكتاب الله ولحدود الله ولفرائض الله ولإقامة دين الله ؛ فإن السلطانَ رحمةٌ من الله جعله بين أظهر عباده ، لولا ذلك لأغار بعضهم على بعض فأكل شديدهم ضعيفهم (١) .

وقال مجاهد : (سلطانا نصيراً) : حجة بينة .

واختار ابن جرير قول الحسن وقتادة ، وهو الأرجح ، لأنه لابدّ مع الحق من قهر لمن عاداه وناوأه ، ولهذا قال تعالى : (لقد أرسلنا رسلَنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم اللهمن ينصره ورسله بالغيب) (٢) وفى الحديث: « إن اللهليَزَع بالسلطان مالا يَزَعُ بالقرآن»،(٣) أى : ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام ، مالا يمتنع كثيرٌ من الناس بالقرآن ، وما فيه من الوعيد الأكيد ، والتهديد الشديد ، وهذا هو الواقع .

وقوله : (وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا) : تهديد ووعيد لكفار قريش ؛ فإنه قد جاءهم من الله الحق الذى لا مرْية فيه ولا قبل لهم به ، وهو مابعثه الله به من القرآن والإيمان والعلم النافع ؛ وزَهَق باطلهُم ، أى : اضمحل وهلك ، فإن الباطل لاثبات له مع الحق ولا بقاء ، (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه ، فإذا هو زاهق) (٤) .

وقال البخارى : حدثنا الحميدىّ ، حدثنا سفيان ، عن ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد ، عن أبى معمر ، عن عبد الله ابن مسعود قال : دخل النبى صلى الله عليه وسلم مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نُصُب (٥) ، فجعل يطعنها بعود فى يده ، ويقول : (جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا) ، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد (٦) .

وكذا رواه البخارى (٧) أيضا فى غير هذا الموضع ، ومسلم ، والترمذى ، والنسائى ، كلهم من طرق عن سفيان ابن عيينة ، به .

وكذا رواه الحافظ أبو يعلى : حدثنا زهير ، حدثنا شَبابة ، حدثنا المغيرة ، حدثنا أبو الزبير ، عن جابر رضى الله عنه قال: دخلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، وحول البيت ثلاثمائة وستون صنما يعبدون من دون الله ، فأمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكبت لوجهها ، وقال : « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٥/١٠٢ .

(٢) سورة الحديد ، الآية : ٢٥ .

(٣) هذا النص ورد عن عثمان بن عفان وليس بحديث مرفوع إلى النبى صلى الله عليه وسلم والذى فى سنن البيهقى الكبرى : « من يزع بالسلطان أكثر ممن يزع بالقرآن » وقد حكاه صاحب كنز العمال جـ ٩ .

(٤) سورة الأنبياء ، آية : ١٨ .

(٥) المراد بها : ما ينصب ليعبد من دون الله .

(٦) البخارى ، تفسير سورة بنى إسرائيل : ٦/١٠٨ .

(٧) البخارى ، كتاب المظالم ، باب « هل تكسر الدنان التى فيها الخمر ..؟ » : ٣/١٧٨ . ومسلم ، كتاب الجهاد ، باب « إزالة الأصنام من حول الكعبة » : ٥/١٧٣ . وتحفة الأحوذى ، تفسير سورة بنى إسرائيل ، الحديث ٥١٤٦ : ٨/٥٧٣ ، ٥٧٤ ، وقال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح » . ومسند الإمام أحمد : ١/٣٧٧ ، ٣٧٨ .

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن كتابه الذى أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ــ وهو القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ــ أنه (شفاء ورحمة للمؤمنين) ، أى : يذهب مافى القلوب من أمراض ، من شك ونفاق ، وشرك وزيغ وميل ، القرآن يشفي من ذلك كله . وهو أيضا رحمة يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه ، وليس هذا إلا لمن آمن به وصدقه واتبعه ، فإنه يكون شفاء فى حقه ورحمة . وأما الكافر الظالم نفسه بذلك ، فلا يزيده سماعه القرآن إلا [بعداً](١) وتكذيباً وكفرا . والآفة من الكافر لا من القرآن ، كما قال تعالى : (قل : هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى ، أولئك ينادون من مكان بعيد)(٢) ، وقال تعالى : (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول : أيكم زادته هذه إيماناً ؟ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون . وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون) (٣) ... والآيات فى ذلك كثيرة .

قال قتادة فى قوله : (وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين) : إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه ، (ولا يزيد الظالمين إلا خسارا) ، إنه لا ينتفع به ولا يحفظه ولا يعيه ، فإن الله جعل هذا القرآن شفاء، ورحمة للمؤمنين (٤) .

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾

يخبر تعالى عن نقصُ الإنسان من حيث هو ، إلا من عصَمَ الله تعالى فى حالتى سرائه وضرائه ، بأنه إذا أنعم الله عليه بمال وعافية ، وفتح ورزق ونصر ، ونال ما يريد ، أعرض عن طاعة الله وعبادته ونأى بجانبه .

قال مجاهد : بَعُدَ عنا .

قلت : وهذا كقوله تعالى : (فلما كشفنا عنه ضره ، مرّ كأن لم يدعنا إلى ضر مسه)(٥) ، وقوله : (فلما نجاكم إلى البر أعرضتم)(٦) .

وبأنه إذا مسه الشر ــ وهو المصائب والحوادث والنوائب ــ (كان يئوساً) ، أى : قنط أن يعودَ يحصلُ له بعد ذلك خير ، كما قال تعالى : (ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور . ولئن أذقناه نعماء بعد

---

(١) ما بين القوسين من الطبعات السابقة ، ومكانه فى المخطوطة : « هدا » بفتح الهاء والدال .
(٢) سورة فصلت ، آية : ٤٤ .
(٣) سورة التوبة ، آية : ١٢٤ ، ١٢٥ .
(٤) تفسير الطبرى : ١٠٣/١٥ .
(٥) سورة يونس ، آية : ١٢ .
(٦) سورة الإسراء ، آية : ٦٧ .

ضراء مسته ، ليقولنّ ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور • إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات ، أولئك لهم مغفرة وأجر كبير) (١) .

وقوله تعالى : (قل : كل يعمل على شاكلته) — قال ابن عباس : على ناحيته ؛ وقال مجاهد : على حدته وطبيعته ، وقال قتادة : على نيته ؛ وقال ابن زيد : دينه (٢) .

وكل هذه الأقوال متقاربة فى المعنى . وهذه الآية — والله أعلم — تهديد للمشركين ووعيد لهم ، كقوله تعالى : (وقل للذين لا يؤمنون : اعملوا على مكانتكم إنا عاملون ؛ وانتظروا إنا منتظرون) (٣) ؛ ولهذا قال :(قل : كل يعمل على شاكلته ، فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا) ، أى : منا ومنكم، وسيجزى كلّ عامل بعمله ، فإنه لا تخفى عليه خافية .

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾

قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا الأعمش ، عن إبراهيم عن علقمة ، عن عبد الله — هو ابن مسعود ، رضى الله عنه — قال : كنت أمشى مع النبى صلى الله عليه وسلم فى حَرْث فى المدينة ، وهو متوكىء على عَسِيب (٤) ، فمر بقوم من اليهود، فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح ؛ فقال بعضهم : لا تسألوه ؛ قال : فسألوه عن الروح ، فقالوا : يا محمد ، ما الروح ؟ فمازال متوكئا على العسيب ، قال : فظننت أنه يوحى إليه ، فقال : (ويسألونك عن الروح قل : الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) ؛ فقال بعضهم لبعض : قد قلنا لكم لا تسألوه (٥) ؛

وهكذا رواه البخارى ومسلم ، من حديث الأعمش ، به ؛ ولفظ البخارى عند تفسير هذه الآية ، عن عبد الله بن مسعود قال : بينا أنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى حَرْث ، وهو متوكىء على عَسِيب ، إذ مر اليهود ، فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح ، فقال : ماَرابَكم (٦) إليه ؛ وقال بعضهم : لا يستقبلنَّكم بشىء تكرهونه ؛ فقالوا : سَلُوه فسألوه عن الروح ، فأمسك النبى صلى الله عليه وسلم ، فلم يرد عليه (٧) شيئا ، فعلمت أنه يوحى إليه ، فقمت مقامى ، فلما نزل الوحى قال : (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى) (٨) ... الآية .

---

(١) سورة هود ، الآيات : ٩ — ١١ .
(٢) الآثار فى تفسير الطبرى : ١٥ / ١٠٤ .
(٣) سورة هود ، آية : ١٢١ ، ١٢٢ .
(٤) أى : جريدة من النخل ، وهى السعفة مما لا ينبت عليه الخوص .
(٥) مسند الإمام أحمد : ١/٣٨٩ ، ٤٤٥ ، ومن روايه أخرى : ١/٤١٠ .
(٦) كذا ، ومثله فى البخارى ، وفى رواية أخرى : « ما رأيكم إليه » . ومعنى « ما رابكم إليه » : ما دعاكم إلى سؤال تخشون عاقبته بأن يستقبلكم بشىء تكرهونه » .
(٧) كذا ، ومثله فى إحدى روايتى الصحيح ، وفى الأخرى : « فلم يرد عليهم » .
(٨) البخارى ، تفسير سورة بنى إسرائيل: ٦/١٠٨ ، ١٠٩ ، ورواه البخارى أيضاً فى كتاب التوحيد : ٨/١٦٦ ، ومسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب « سؤال اليهود النبى صلى الله عليه وسلم عن الروح ... » : ٨/١٢٨ .

وهذا السياق يقتضي فيما يظهر بادى الرأى : أن هذه الآية مدنية ، وأنها إنما أنزلت حين سأله اليهود عن ذلك بالمدينة ، مع أن السورة كلها مكية : وقد يجاب عن هذا بأنه قد يكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك ، أو أنه نزل عليه وَحى بأنه يجيبهم عمّا سألوا بالآية المتقدم إنزالها عليه ، وهى [هذه الآية (ويسألونك عن الروح) ، ومما يدل على نزول] هذه الآية بمكة ما قال الإمام أحمد :

حدثنا قتيبة : حدثنا يحيى بن زكريا عن داود ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قالت قريش ليهود : أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل : فقالوا : سلوه عن الروح : فسألوه ، فنزلت : (ويسئلونك عن الروح ، قل : الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) : قالوا : أوتينا علماً كثيراً ، أوتينا التوراة ، ومن أوتى التوراة فقد أوتى خيراً كثيراً : قال : وأنزل الله : (قل : لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً)(١) :

وقد روى ابن جرير ، عن محمد بن المثنى ، عن عبد الأعلى ، عن داود ، عن عكرمة قال : سأل أهلُ الكتاب رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن الروح ، فأنزل الله : (ويسألونك عن الروح ، قل: الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) ، فقالوا : يزعم أنا لم نؤت من العلم إلا قليلا ، وقد أوتينا التوراة – وهى الحكمة (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً) ؟ قال : فنزلت : (ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نَفِدَتْ كلماتُ الله) ، قال : ما أوتيتم من علم ،فنجاكم الله به من النار ، فهو كثير طيب ، وهو فى علم الله قليل(٢) .

وقال محمد بن إسحاق ، عن بعض أصحابه ، عن عطاء بن يسار قال : نزلت بمكة : (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) ، فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، أتاه أحبار يهود : وقالوا : يامحمد ، ألم يبلغنا عنك أنك تقول : (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) : أفَعَنَيْتَنَا أم عنيت قومك ؟ فقال : كلاً قد عنيت : قالوا : إنك تتلو أنا أوتينا التوراة ، وفيها تبيان كلّ شيء ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:هى فى علم الله قليل ، وقد آتاكم ما إن عملتم به استقمتم(٣) ، وأنزل الله:(ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ، ما نفدت كلمات الله ، إن الله عزيز حكيم (٤)) .

وقد اختلف المفسرون فى المراد بالروح هاهنا على أقوال ، أحدها : أن المراد أرواح بنى آدم .

قال العوفى ، عن ابن عباس فى قوله : (ويسألونك عن الروح) ::: الآية ، وذلك أن اليهود قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم : أخبرنا عن الروح ، وكيف تعذب الروح التى فى الجسد ، وإنما الروح من الله ولم يكن نزل عليه فيه شىء فلم يُحِرْ إليهم شيئاً : فأتاه جبريل فقال له : (قل الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) ، فأخبرهم النبى

(١) مسند الإمام أحمد : ١/٢٥٥ .
(٢) تفسير الطبرى : ١٥/١٠٤ .
(٣) كذا فى مخطوطة الأزهر ، وفى تفسير الطبرى : « انتفعتم » .
(٤) تفسير الطبرى : ١٥/١٠٥ ، ١٠٦ .

صلى الله عليه وسلم بذلك ، فقالوا : من جاءك بهذا ؟ فقال : جاءنى به جبريل من عند الله ؟ فقالوا له : والله ما قاله لك إلا عدو لنا : فأنزل الله : (قل : من كان عدوا لجبريل ، فإنه نزله على قلبك بإذن الله) ... الآية (١) .

وقيل : المراد بالروح هاهنا جبريل : قاله قتادة ، قال : وكان ابن عباس يكتمه .

وقيل : المراد به هاهنا مَلَك عظيم بقدر المخلوقات كلها : قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس قوله : (ويسألونك عن الروح) ، يقول : الروح ملك .

وقال الطبرانى : حدثنا محمد بن عبد الله بن عرس المصرى ، حدثنا وهب بن روق أبو هبيرة ، حدثنا بشر بن بكر ، حدثنا الأوزاعى ، حدثنا عطاء ، عن عبد الله بن عباس قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله ملكاً ، لو قيل له : « التقم السموات السبع والأرضين بلقمة واحدة » ، لفعل ، تسبيحه : سبحانك حيث كنتَ » .

وهذا حديث غريب ، بل منكر .

وقال أبو جعفر بن جرير رحمه الله : حدثنى على ، حدثنا عبد الله ، حدثنى أبو نمران(٢) يزيد بن سمرة صاحب قيسارية ، عمن حدثه عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال فى قوله : (ويسألونك عن الروح) ، قال : هو مَلَك من الملائكة ، له سبعون ألف وجه ، لكل وجه منها سبعون ألف لسان ، لكل لسان منها [سبعون] ألف لغة ، يسبح الله تعالى بتلك اللغات كلها ، يخلق الله من كل تسبيحة مَلَكاً يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة (٣) .

وهذا أثر غريب عجيب ، والله أعلم .

وقال السهيلى : رُوِىَ عن(٤) على أنه قال : هو مَلَك ، له مائة ألف رأس ، لكل رأس مائة ألف وجه ، فى كل وجه مائة ألف فم ، فى كل فم مائة ألف لسان ، يسبح الله بلغات مختلفة

قال السهيلى : وقيل المراد بذلك : طائفة من الملائكة على صور بنى آدم .

وقيل : طائفة يرون الملائكة ولا تراهم ، فهم للملائكة كالملائكة لبنى آدم .

وقوله : (قل الروح من أمر ربى) ، أى : من شأنه ، ومما استأثر بعلمه دونكم ، ولهذا قال : (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) ، أى وما أطلعكم من علمه إلا على القليل ، فإنه لا يحيط أحد بشىء من علمه إلا بما شاء تبارك وتعالى .

والمعنى : أن علمكم فى علم الله قليل ، وهذا الذى تسألون عنه من أمر الروح مما استأثر به تعالى ، ولم يطلعكم عليه ، كما أنه لم يطلعكم إلا على القليل من علمه تعالى . وسيأتى إن شاء الله فى قصة موسى والخَضْر : أن الخضر نظر إلى عصفور وقع على حافة السفينة ، فنقر فى البحر نقرة ، أى : شرب منه بمنقاره ، فقال : ياموسى ، ما علمى وعلمك

---

(١) تفسير الطبرى : ١٥/١٠٥ .

(٢) كذا فى المخطوطة . وفى تفسير الطبرى : « أبو مروان » . وقد وجدنا فى الجرح لابن أبى حاتم ٤/٢/٢٦٨ : « يزيد ابن سمرة ، أبو هزان الرهاوى » . فهل هو ؟ الله أعلم .

(٣) تفسير الطبرى : ١٥/١٠٥ .

(٤) أحاديث السهيلى عن الروح والنفس فى الروض الأنف : ١/١٩٧ — ١٩٩ .

وعلم الخلائق فى علم الله إلا كما أخذ هذا العصفور من هذا البحر. أو كما قال صلوات الله وسلامه عليه : ولهذا قال تبارك وتعالى : (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) .

وقال السهيلى : قال بعض الناس : لم يجبهم عما سألوا ، لأنهم سألوا على وجه التعنت : وقيل : أجابهم ، وعوّل السهيلى على أن المراد بقوله : (قل الروح من أمر ربى) ، أى : من شرعه، أى : فادخلوا فيه ، وقد علمتم ذلك لأنه لا سبيل إلى معرفة هذا من طبع ولا فلسفة ، وإنما يُنَال من جهة الشرع . وفى هذا المسلك الذى طرقه وسلكه نظر ، والله أعلم .

ثم ذكر السهيلى الخلاف بين العلماء فى أن الروح هى النفس ، أو غيرها ، وقرر أنها ذات لطيفة كالهواء ، سارية فى الجسد كسريان الماء فى عروق الشجر : وقرّر أن الروح التى ينفخها المَلَك فى الجنين هى النفس بشرط اتصالها بالبدن ، واكتسابها بسببه صفات مدح أو ذم ، فهى إما نفس مطمئنة أو أمّارة بالسوء .قال : كما أن الماء هو حياة الشجر ، ثم يُكسَب بسبب اختلاطه معها اسما خاصاً ، فاذا اتصل بالعنبة وعصر منها صار إمَّا مُصْطارا(١) أو خمراً ، ولا يقال له : « ماء » حينئذ إلا على سبيل المجاز وهكذا لا يقال للنفس : « روح » إلا على هذا النحو ، وكذلك لا يقال للروح نفس إلا باعتبار ما تؤول إليه : فحاصل ما يقول أن الروح أصل النفس ومادتها، والنفس مركبة منها ومن اتصالها بالبدن ، فهى هى من وجه لا من كل وجه : وهذا معنى حسن ، والله أعلم .

قلت : وقد تكلم الناس فى ماهية الروح وأحكامها وصنفوا فى ذلك كتباً . ومن أحسن من تكلم على ذلك الحافظ ابن منده ، فى كتاب سمعناه فى : الروح .

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴾

يذكر تعالى نعمته وفضله العظيم على عبده ورسوله الكريم ، فيا أوحاه إليه من القرآن المجيد ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد :

قال ابن مسعود رضى الله عنه يطرق الناس ريح حمراء ــ يعنى فى آخر الزمان ــ من قبل الشام ، فلا يبقى فى مصحف رجل ولا قلبه آية ، ثم قرأ ابن مسعود : (ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك) (٢) ... الآية .

---

(١) المصطار ــ بضم الميم ــ : الخمر الحديثة المتغيرة الطعم والريح . وقال الأزهرى : « والمصطار : من أسماء الخمر التى اعتصرت من أبكار العنب ، بلغة أهل الشام ، قال : وأراه روميا ، لأنه لا يشبه أبنية كلام العرب » . ويقال : المسطار ، بالسين ، قال الأخطل ، ديوانه ٨٢ :

تدمى ، إذا طعنوا فيهــا بجائفة ٭ فوق الزجاج ، عتيق غير مسطار

الجائفة : الطعنة التى تبلغ الجوف ، والعتيق : القديم . يصف الأخطل دن الخمر إذا ثقبت بأنه يسيل دمها على زجاج الكأس ، ويقول : إنها قديمــة غير حديثة .

(٢) تفسير الطبرى : ١٥/١٠٦ .

ثم نبه تعالى على شرف هذا القرآن العظيم ، فأخبر أنه لو اجتمعت الإنس والجن كلّهم ، واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزله على رسوله ، لما أطاقوا ذلك ولما استطاعوه ، ولو تعاونوا وتساعدوا وتظافروا ، فان هذا أمر لا يستطاع ، وكيف يشبه كلامُ المخلوقين كلامَ الخالق ، الذى لا نظير له ، ولا مثال له ، ولا عديل له .

وقد روى محمد بن إسحاق عن محمد بن أبى محمد ، عن سعيد [بن جبير] أو عكرمة ، عن ابن عباس : أن هذه الآية نزلت فى نفر من اليهود ، جاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا له : إنا نأتيك بمثل ما جئتنا به ، فأنزل الله هذه الآية(١) .

وفى هذا نظر ؛ لأن هذه السورة مكية ، وسياقها كله مع قريش ، واليهود إنما اجتمعوا به فى المدينة ، فالله أعلم .

وقوله : (ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) ، أى : بينا لهم الحجج والبراهين القاطعة ، ووضحنا لهم الحق وشرحناه وبسطناه ، ومع هذا (فأبى أكثر الناس إلا كفورا) ، أى : جحودا [للحق] ورداً للصواب .

وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾

قال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا يونس بن بُكَير ، حدثنا محمد بن إسحاق ، حدثنى شيخ من أهل مصر ، قدم منذ بضع وأربعين سنة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : أن عتبة وشيبة ابنى ربيعة ، وأبا سفيان بن حرب ، ورجلا من بنى عبد الدار ، وأبا البَختَرى أخا بنى أسد ، والأسود بن المطلب بن أسد ، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبا جهل بن هشام ، وعبد الله بن أبى أمية ، وأمية بن خلف ، والعاصَ بن وائل ، ونُبيها ومُنَبِّها ابنى الحجاج السَّهْميِّين — اجتمعوا ، أو : من اجتمع منهم ، بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد فكلّموه وخاصموه حتى تُعذروا فيه . (٢) فبعثوا إليه : أنّ أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك ، فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعاً وهو يظن أنه قد بدا لهم فى أمره بَداء(٣) ، وكان عليهم حريصاً ، يحب رُشْدَهم ، ويعز عليه عَنَتُهم — حتى جلس إليهم ، فقالوا : يامحمد ، إنا قد بعثنا إليك لنُعْذَرَ فيك ، وإنا والله مانعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلتَ على قومك ! لقد شتمت الآباء ، وعبتَ الدين ، وسفهت الأحلام ، وشتمت الآلهة ، وفرقت الجماعة ، فما بقى من [أمر] قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك ! فإن كنت إنما جئت بهذا

---

(١) تفسير الطبرى : ١٥/١٠٦ ، ١٠٧ .

(٢) أى : حتى تقدموا العذر فيه ، فلا تلامون على ما يكون بينكم وبينه بعد لقائكم هذا .

(٣) أى : ظهر لهم ما لم يكن ظهر أولا ، بأن تحولوا عن موقفهم من رسول الله . هكذا ظن عليه السلام .

(٤) العنت : ما يشق على الإنسان فعله .

الحديث تطلب به مالا ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا ، سوّدناك علينا ، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا . وإن كان هذا الذى يأتيك بما يأتيك رَئِيًّا تراه قد غلب عليك — وكانوا يسمون التابع من الجن : الرَّئِىّ — فربما كان ذلك ، بذلنا أموالنا فى طلب الطب ، حتى نبرئك منه ، أو نُعذرَ فيك .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما بى ما تقولون ، ما جئتكم بما جئتكم به أطلبَ أموالكم ، ولا الشرفَ فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن [الله] بعثنى إليكم رسولا ، وأنزل علىّ كتاباً ، وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالة ربى ، ونصحت لكم ، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به ، فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردّوه علىّ أصبرْ لأمر(١) الله ، حتى يحكم الله بينى وبينكم — أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما .

فقالوا : يامحمد ، فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك ، فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق بلادا ، ولا أقل مالا ، ولا أشد عيشاً منا ، فاسأل لنا ، ربك الذى بعثك بما بعثك به ، فليسير عنا هذه الجبال التى قد ضَيَّقت علينا ، ولْيبسُط لنا بلادنا ، ولْيُفَجّر(٢) فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا مَن مضى من آبائنا ، وليكن فيمن يُبْعَث لنا [منهم] قُصىّ بن كلاب ، فانه كان شيخاً صدوقاً ، فنسألهم عما تقول ، حقّ هو أم باطل ؟ فان صنعت ما سألناك وصدّقوك ، صدقناك ، وعرفنا [به] منزلتك عند الله ، وأنه بعثك رسولا كما تقول : !

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما بهذا بُعِثْت ! إنما جئتكم من عند الله بما بعثنى به ، فقد بلغتكم ما أرسلت به [إليكم] ، فإن تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردّوه علىّ أصبرْ لأمر الله ، حتى يحكم الله بينى وبينكم .

قالوا : فان لم تفعل لنا هذا فخذ لنفسك ، فاسأل ربك أن يبعث مَلَكاً يصدقك بما تقول، ويراجعنا عنك ، وتسأله فيجعل لك جناناً ، وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة ، ويغنيك بها عما نراك تبتغى، فإنك تقوم بالأسواق ، وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعرف فضل منزلتك من ربك ، إن كنت رسولا كما تزعم .

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنا بفاعل . ما أنا بالذى يسأل ربه هذا . وما بعثت إليكم بهذا : ولكن الله بعثنى بشيراً ونذيراً ، فان تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علىّ أصبرْ لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم .

قالوا : فأسقط السماء ، كما زعمتَ أن ربك إن شاء فعل ذلك ؛ فانا لن نؤمن لك إلا أن تفعل .

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذلك إلى الله ، إن شاء فعل بكم ذلك .

فقالوا : يامحمد ، أما علم ربك أنا سنجلس معك ، ونسألك عما سألناك عنه ، ونطلب منك ما نطلب فيتقدم إليك [ويعلمك] ما تُراجعنا به ، ويخبرك ما هو صانع فى ذلك بنا، إذا لم نقبل منك ماجئتنا به ؛ فقد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجل باليمامة ، يقال له الرحمن ، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً ، فقد أعذرنا إليك يا محمد، أما والله لانتركك

---

(١) فى المخطوطة : « أصبر لحكم الله » . والمثبت عن تفسير الطبرى ، وسيرة ابن هشام .

(٢) فى المخطوطة : « وليجر فيها أنهارا » . والمثبت عن المرجعين السابقين .

وما فعلت بنا حتى نهلكك أو تهلكنا ؛ وقال قائلهم : نحن نعبد الملائكة وهى بنات الله ؛ وقال قائلهم : لن نؤمن لك حتى تأتى بالله والملائكة قبيلا .

فلما قالوا ذلك قام رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم ، وقام معه عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عُمَر بن مخزوم ، وهو ابن عمته ، ابن عاتكة ابنة عبد المطلب، فقال : يا محمد ، عرض عليك قومك ما عرضوا ، فلم تقبله منهم ، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله ، فلم تفعل ذلك ، ثم سألوك أن تعجل ما تخوفهم به من العذاب ، فوالله لا أومن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً ، ثم ترقى فيه، وأنا أنظر حتى تأتيها ، وتأتى معك بنسخة منشورة ، معك أربعة من الملائكة ، يشهدون لك أنك كما تقول ؛ وايم الله لو فعلت ذلك لظننتُ أنى لا أصدقك ، ثم انصرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله حزيناً أسفاً لما فاته مما كان طَمع فيه من قومه حين دعوه ، ولـمّا رأى من مباعدتهم أياه(١) .

وهكذا رواه زياد بن عبد الله البكائى ، عن ابن إسحاق ، حدثنى بعض أهل العلم ، عن سعيد بن جبير وعكرمة ، عن ابن عباس ، فذكر مثله سواء .

وهذا المجلس الذى اجتمع هؤلاء له ، لو علم الله منهم أنهم يسألون ذلك استرشاداً لأجيبوا إليه ، ولكن علم أنهم إنما يطلبون ذلك كفراً وعناداً ، فقيل للرسول : إن شئت أعطيناهم ما سألوا ، فان كفروا عذبتهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة ، فقال : : بل تفتح عليهم باب التوبة والرحمة ؛ كما تقدم ذلك فى حديثى ابن عباس والزبير بن العوام أيضاً ، عند قوله تعالى : (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ، وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ، وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً(٢)).وقال تعالى : (وقالوا : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ؟ لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً . أو يلقى إليه كنز أو تكونُ له جنّة يأكل منها ، وقال الظالمون : إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً . انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا . تبارك الذى إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ويجعلْ لك قصوراً . بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً(٣)) .

وقوله تعالى : (حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا) — الينبوع : العين الجارية ، سألوه أن يجرى لهم عينا متَعِينا (٤) فى أرض الحجاز هاهنا وهاهنا ، وذلك سهل يسير على الله تعالى ، لو شاء لفعله ولأجابهم إلى جميع ما سألوا وطلبوا ، ولكن علم أنهم لا يهتدون ، كما قال تعالى : (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ؛ ولو جاءتهم كل آية حتى

---

(١) تفسير الطبرى : ١٥/١١٠ ، ١١١ . وسيرة ابن هشام : ١/٢٩٥ — ٢٩٨ .
(٢) الآية : ٥٩ من هذه السورة .
(٣) سورة الفرقان ، الآيات من : ٧—١١ .
(٤) أى : جارية ، يقال : معن الماء : إذا جرى .

حتى يروا العذاب الأليم) (١) . وقال تعالى : (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى ، وحشرنا عليهم كل شيء قُبُلا ، ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ، ولكن أكثرهم يجهلون) (٢)

وقولهم (أو تسقط السماء كما زعمت) ، أى : إنك وعدتنا أن يوم القيامة تنشق [فيه] السماء وتهِى (٣) ، وتُدلى أطرافها ، فعجّل ذلك فى الدنيا ، وأسقطها كِسَفًا ، [أى : قطعاً] ، كقولهم : (اللهم ، إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء) (٤) ... الآية ، وكذلك سأل قوم شعيب منه فقالوا : (أسقط علينا كسفاً [من السماء ، إن كنت من الصادقين) (٥) ، فعاقبهم الرب بعذاب يوم الظلة ، إنه كان عذاب يوم عظيم . وأما نبى الرحمة ، ونبى التوبة المبعوث رحمة للعالمين ، فسأل إنظارهم وتأجيلهم ، لعلّ الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده لا يشرك به شيئا . وكذلك وقع ، فإن من هؤلاء الذين ذُكروا مَنْ أسلم بعد ذلك وحَسُن إسلامه ، حتى « عبدُ الله ابن أبى أمية (٦) » الذى تبع النبى صلى الله عليه وسلم وقال له ما قال ، أسلم إسلاما تاما ، وأناب إلى الله عز وجل .

(أو يكون لك بيت من زخرف) ــ قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة : هو الذهب . وكذلك هو فى قراءة ابن مسعود : (أو يكون لك بيت من ذهب) (٧) ، (أو ترقى فى السماء) ، أى : تصعد فى سلم ونحن ننظر إليك ، (ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه) ــ قال مجاهد : أى مكتوب فيه إلى كل واحد واحد صحيفة : هذا كتاب من الله لفلان بن فلان ، تصبح موضوعة عند رأسه .

وقوله : (قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا) ، أى : سبحانه وتعالى وتقدّس أن يتقدم أحد بين يديه فى أمر من أمور سلطانه وملكوته ، بل هو الفعال لما يشاء ، إن شاء أجابكم إلى ما سألتم ، وإن شاء لم يجبكم ، وما أنا إلا رسول إليكم ، أبلّغكم رسالات ربى وأنصح لكم ، وقد فعلت ذلك ، وأمركم فيما سألتم إلى الله عز وجل .

قال الإمام أحمد بن حنبل : حدثنا على بن إسحاق ، حدثنا ابن المبارك ، حدثنا يحيى بن أيوب ، عن عبيد الله ابن زَحْر ، عن على بن يزيد ، عن القاسم ، عن أبى أمامة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : عَرَض ربى عز وجل ليجعلَ لى بطحاء مكة ذهباً ، فقلت : لا يارب ، ولكن أشبع يوما وأجوع يوما ــ أو نحو ذلك ــ فإذا جُعتُ تضرعت إليك وذكرتك ، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك (٨) .

ورواه الترمذى فى « الزهد (٩) » عن سُوَيد بن نصر ، عن ابن المبارك ، به وقال : هذا حديث حسن . وعلى ابن يزيد يُضَعَّفُ فى الحديث .

---

(١) سورة يونس ، آية : ٩٦ ، ٩٧ .
(٢) سورة الأنعام ، آية : ١١١ .
(٣) أى : تسقط .
(٤) سورة الأنفال ، آية : ٣٢ .
(٥) سورة الشعراء ، آية : ١٨٧ .
(٦) ينظر ترجمته فى أسد الغابة ، وهى برقم ٢٨١٨ : ٣/١٧٧ ، ١٧٨ بتحقيقنا .
(٧) تفسير الطبرى : ١٥/١٠٩
(٨) مسند الإمام أحمد : ٥/٢٥٤ .
(٩) تحفة الأحوذى ، أبواب الزهد ، باب « ماجاء فى الكفاف والصبر عليه » ، الحديث ٢٤٥١ : ٧/١٤ ، ١٥

وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾

يقول تعالى : (وما منع الناس) ، أى : أكثرهم ، (أن يؤمنوا) ويتابعوا الرسل ، إلا استعجابهم من بعثه البشر رسلا ، كما قال تعالى : (أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس ، وبشر الذين آمنوا) (١) وقال تعالى : (ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات ، فقالوا : أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله ، والله غنى حميد (٢)) . وقال فرعون وملؤه : (أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون (٣) ؟) . وكذلك قالت الأمم لرسلهم : (إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان (٤) مبين) ، والآيات فى هذا كثيرة :

ثم قال تعالى منبها على لطفه ورحمته بعباده : أنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم ، ليفقهُوا عنه ويفهمُوا منه ، لتمكنهم من مخاطبته ومكالمته ، ولو بعث إلى البشر رسولا من الملائكة لما استطاعوا مواجهته ولا الأخذ عنه ، كما قال تعالى : (لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم (٥)) ، وقال تعالى : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم (٦)) وقال : (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم ، يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ، ويعلمكم الكتاب والحكمة ، ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون ، فاذكرونى أذكركم واشكروا لى و لاتكفرون (٧)) . ولهذا قال هاهنا : (قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين) ، أى : كما أنتم فيها ، (لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) ، أى من جنسهم ، ولما كنتم أنتم بشرا ، بعثنا فيكم رسلنا منكم لطفاً ورحمة .

قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾

يقول تعالى مرشدا نبيه إلى الحجة على قومه ، فى صدق ما جاءهم به : أنه شاهد علىّ وعليكم ، عالم بما جئتكم [به] ، فلو كنت كاذبا انتقم منى أشد الانتقام ، كما قال تعالى : (ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين (٨)) .

---

(١) سورة يونس ، آية : ٢

(٢) سورة التغابن ، آية : ٦ .

(٣) سورة « المؤمنون » ، آية : ٤٧ .

(٤) سورة إبراهيم ، آية : ١٠

(٥) سورة آل عمران ، آية : ١٦٤ .

(٦) سورة التوبة ، آية : ١٢٨ .

(٧) سورة البقرة ، آية : ١٥١ ، ١٥٢ .

(٨) سورة الحاقة ، الآية : ٤٤ — ٤٦ .

وقوله : (إنه كان بعباده خبيرا بصيرا) ، أى : عليم بهم بمن يستحق الإنعام والإحسان والهداية ، ممن يستحق الشقاء والإضلال والإزاغة ، ولهذا قال :

وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾

يقول تعالى مخبرا عن تصرفه فى خلقه ، ونفوذ حكمه ، وأنه لا معقب له ، بأنه من يهده فلا مضلّ له ، (ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه) ، أى : يهدونهم ، كما قال: (من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا (١)) .

وقوله : (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم) ــ قال الإمام أحمد :

حدثنا ابن نمير ، حدثنا إسماعيل ، عن نُفَيع قال : سمعت أنس بن مالك يقول : قيل : يا رسول الله ، كيف يُحشَرُ الناس على وجوههم ؟ قال : الذى أمشاهم على أرجلهم قادرٌ على أن يمشيهم على وجوههم (٢) . وأخرجاه فى الصحيحين (٣) .

وقال الإمام أحمد أيضاً: [حدثنا يزيد (٤)] حدثنا الوليد بن جُمَيع القرشى ، عن أبيه ، حدثنا أبو الطفيل عامر ابن واثلة ، عن حُذَيفة بن أسيد قال : قام أبو ذر فقال: يا بنى غفار ، قولوا ولا تحلفوا (٥) ، فإن الصادق المصدوق حدثنى : أن الناس يُحشَرون على ثلاثة أفواج: فوجٍ راكبين طاعمين كاسين ، وفوجٍ يمشُون ويسعَون ، وفوجٍ تسحبهم الملائكة على وجوههم وتحشرهم إلى النار . فقال قائل منهم: هذان قد عرفناهما ، فما بال الذين يمشُون ويسعَون ؟ قال : يلقِى الله عز وجل الآفة على الظهر ، حتى لا يبقى ظهر ، حتى إن الرجل لتكون له الحديقة المعجبة ، فيعطيها بالشارف (٦) ذات القَتَب ، فلا يقدر عليها (٧) » .

وقوله: (عميا) ، أى : لا يبصرون ؛ (وبكما) ، يعنى لا ينطقون ؛ (وصما) ، لا يسمعون : وهذا يكون فى حال دون حال ، جزاء لهم ، كما كانوا فى الدنيا بكما وعميا وصما عن الحق ، فجوزُوا فى محشَرهم بذلك أحوجَ

---

(١) سورة الكهف ، الآية : ١٧ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٣/١٦٧ .

(٣) البخارى ، تفسير سورة الفرقان : ٦/١٣٧ . ومسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب « يحشر الكافر على وجهه » : ٨/١٣٥ .

(٤) مابين القوسين عن المسند . ويزيد هذا هو ابن هارون ، يروى عن الوليد بن عبد الله بن جميع ، الذى يروى عن أبى الطفيل . وقد كان فى تفسير ابن كثير أيضا : « حدثنا الوليد بن جميع القرشى ، عن أبيه ، حدثنا أبو الطفيل » . وهو خطأ . ينظر التهذيب : ٥/٨٢ ، ١١/١٣٨ .

(٥) فى المسند : « ولا تختلفوا » .

(٦) الشارف : الناقة المسنة . والقتب للبعير : شبه الرحل .

(٧) مسند الإمام أحمد : ٥/١٦٤ ، ١٦٥ .

ما محتاجون إليه ؛ (مأواهم) ؛ أى منقلبهم ومصيرهم (جهنم ، كلما خبت) ، قال ابن عباس: سكنت ؛ وقال مجاهد : طفئت — (زدناهم سعيراً) ، أى : لهباً ووَهَجاً وجمرا ، كما قال : (فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا (١)) .

ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾

يقول تعالى : هذا الذى جازيناهم به ، من البعث على العمى والبكم والصمم ، جزاؤهم الذى يستحقونه ؛ لأنهم كذبوا (بآياتنا) ، أى : بأدلّتنا وحُجَجِنا ، واستبعدوا وقوع البعث ، (وقالوا : أئذا كنا عظاما ورفاتا) بالية نخرة ، (أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً) ، أى : بعد ما صرنا إلى ماصرنا إليه من البِلَى والهلاك ، والتفرق والذهاب فى الأرض نُعَاد مرة ثانية ؟ . فاحتج تعالى عليهم ، ونبَّههم على قدرته على ذلك ، بأنه خلق السموات والأرض ، فقدرته على إعادتهم أسهل من ذلك ، كما قال : (لَخَلْقُ السموات والأرض أكبرُ من خلق الناس (٢)) ، وقال : (أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يَعْيَ بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى ، بلى ، إنه على كل شيء قدير (٣)) . وقال : (أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى ، وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء ، وإليه ترجعون (٤)) .

وقال هاهنا : (أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم) أى : يوم القيامة ، يعيد أبدانهم ويُنْشئهم نشأة أخرى ، ويعيدهم كما بدأهم .

وقوله : (وجعل لهم أجلا لا ريب فيه) ، أى : جعل لإعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلا مضروبا ومدة مقدّرة لا بد من انقضائها ، كما قال تعالى : (وما نؤخره إلا لأجل معدود (٥)) .

وقوله : (فأبى الظالمون) ، [أى : بعد قيام الحجة عليهم] (إلا كفوراً) ، إلا تماديا فى باطلهم وضلالهم .

قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾

يقول تعالى لرسوله — صلوات الله عليه وسلامه — قل لهم : يا محمد ، لو أنكم — ايها الناس — تملكون التصرف فى خزائن الله ، لأمسكتم خشية الإنفاق .

---

(١) سورة النبأ ، آية : ٣٠ .
(٢) سورة غافر ، آية : ٥٧ .
(٣) سورة الأحقاف ، آية : ٣٣ .
(٤) سورة « يس » ، آية : ٨١ ، ٨٢ .
(٥) سورة هود ، آية : ١٠٤

قال ابن عباس ، وقتادة : أى الفقر (١) ، أى : خشية أن تذهبوها ، مع أنها لا تفرُغ ولا تنفد أبداً ؛ لأن هذا من طباعكم وسجاياكم ، ولهذا قال : (وكان الإنسان قتورا) ـــ قال ابن عباس ، وقتادة : أى بخيلا منوعا (١) ، وقال الله تعالى : (أم لهم نصيب من الملك فاذا لا يؤتون الناس نقيرا (٢)) ، أى : لو أن لهم نصيبا من ملك الله لما أعطوا أحدا شيئا ، ولا مقدار نقير ، والله تعالى يصف الإنسان من حيثُ هو ، إلا من وفقه وهداه ؛ فإن البخل والجزع والهلع [صفة له] ، كما قال تعالى : (إن الإنسان خلق هلوعاً . إذا مسه الشر جزوعا . وإذا مسه الخير منوعا . إلا المصلين)(٣) ولهذا نظائر كثيرة فى القرآن العزيز ، ويدلّ هذا على كرمه وجوده وإحسانه ، وقد جاء فى الصحيحين : « يد الله ملأى ، لا يغيضها نفقة ، سَحّاءُ الليلَ والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ، فإنه لم يَغِض ما فى يمينه » (٤) .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

يخبر تعالى أنه بعث موسى بتسع آيات بينات ، وهى الدلائل القاطعة على صحة نبوته وصدقه فيما أخبر به عمن أرسله إلى فرعون ، وهى : العصا ، واليد ، والسنين ، والبحر ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، آيات مفصلات : قاله ابن عباس (٥) .

وقال محمد بن كعب : هى اليد ، والعصا ، والخمس فى الأعراف ، والطَّمْسَة (٦) والحجر .

وقال ابن عباس أيضا ، ومجاهد ، وعكرمة والشعبى ، وقتادة : هى يده ، وعصاه ، والسنين ، ونقص الثمرات ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .

وهذا القول ظاهر جلى حسن قوى . وجعل الحسن البصرى « السنين ونقص الثمرات » واحدة ، وعنده أن التاسعة هى : تلقف العصا ما يأفكون . (فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين (٧)) ، أى : ومع هذه الآيات ومشاهدتهم لها ، كفروا بها وجحدوا بها ، واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ، وما نجعت فيهم ، وكذلك لو أجبنا هؤلاء الذين سألوا

---

(١) تفسير الطبرى : ١٥/١١٤ .
(٢) سورة النساء ، آية : ٥٣ .
(٣) سورة المعارج ، الآيات : ١٩ ـــ ٢٢ .
(٤) تقدم الحديث فى سورة المائدة ، عند الآية ٦٤ ، وخرجناه هنالك وشرحنا غريبه . ينظر : ٣/١٣٨ ، ١٣٩ .
(٥) تفسير الطبرى : ١٥/١١٤ .
(٦) يعنى قوله : (ربنا اطمس على أموالهم . . .) ، سورة يونس آية : ٨٨ .
(٧) سورة الأعراف ، آية : ١٣٣ .

منك ما سألوا ، وقالوا : (لن نؤمن لك حتى تَفْجُرَ لنا من الأرض ينبوعا) ... إلى آخرها ، لما استجابوا ولا آمنوا ، إلا أن يشاء الله ، كما قال فرعون لموسى — وقد شاهد منه ما شاهد من هذه الآيات — قال : (إنى لأظنك يا موسى مسحورا) ، قيل : بمعنى ساحر . والله تعالى أعلم .

فهذه الآيات التسع التى ذكرها هؤلاء الأئمة هى المرادة هاهنا ، وهى المعنيَّة فى قوله تعالى : (وألق عصاك ، فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب ، يا موسى ، لا تخف إنى لا يخاف لدىّ المرسلون ، إلا من ظلم ثم بدّل حسنا بعد سوء فإنى غفور رحيم . وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء فى تسع آيات إلى فرعون وقومه ، إنهم كانوا قوما فاسقين (١)) ، فذكر هاتين الآيتين : العصا واليد ، وبيَّن الآيات الباقيات فى « سورة الأعراف » وفصلها :

وقد أوتِىَ موسى عليه السلام آيات أخَر كثيرة ، منها : ضربُه الحَجَر بالعصا ، وخروج الأنهار منه : ومنها تظليلهم الغمامَ ، وإنزال المن والسلوى ، وغير ذلك مما أوتوه بنو إسرائيل بعد مفارقتهم بلاد مصر ، ولكن ذكر هاهنا التسعَ الآيات التى شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر ، وكانت حجة عليهم فخالفوها وعاندوها كفرا وجحودا :

فأما الحديث الذى رواه الإمام :

حدثنا يزيد ، حدثنا شعبة ، عن عمرو بن مُرّة قال : سمعت عبد الله بن سلمة يحدّث ، عن صَفْوان بن عَسّال المرادى رضى الله عنه قال : قال يهودى لصاحبه : اذهب بنا إلى هذا النبى حتى نسأله عن هذه الآية : (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) . فقال : لا تقل له : نبى ، فإنه لو سمعك لصارت له أربع أعين(٢) : فسألاه ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا تسحروا ، ولا تأكلوا الربا ، ولا تمشوا ببرىء إلى ذى سلطان ليقتله ، ولا تقذفوا محصنة — أو قال : لا تفروا من الزحف — شُعبةُ الشاكُّ — وأنتم يا يهود ، عليكم خاصة أن لا تعدوا فى السبت : فقبلا يديه ورجليه ، وقالا : نشهد أنك نبى : [قال : « فما يمنعكما أن تتبعانى ؟ قالا لأن داود عليه السلام دعا أن لا يزال من ذريته نبى (٣)] ، وإنا نخشى إن أسلمنا أن تقتلنا يهود (٤) » :

فهذا الحديث رواه هكذا الترمذى (٥) ، والنسائى ، وابن ماجه ، وابن جرير فى تفسيره من طرق ، عن شعبة ابن الحجاج ، به : وقال الترمذى : حسن صحيح :

---

(١) سورة النمل ، الآيات : ١٠ — ١٢ .

(٢) أى : يسر بقولك هذا النبى سرورا يمد الباصرة ، فيزداد به نورا على نور ، كذى عينين أصبح يبصر بأربع ؛ فإن الفرح يمد الباصرة ، كما أن الهم والحزن يخل بها ، ولذا يقال لمن أحاطت به الهموم : أظلمت عليه الدنيا .

(٣) مابين القوسين سقط من مخطوطة الأزهر ، أثبتناه عن المسند

(٤) مسند الإمام أحمد : ٤/٢٣٩

(٥) تحفة الأحوذى ، أبواب الاستئذان ، باب « ماجاء فى قبلة اليد والرجل » ، الحديث ٢٨٧٧ : ٧/٥٢٥ — ٥٢٨ . وأخرجه الترمذى أيضا فى تفسير سورة بنى إسرائيل ، الحديث ٥١٥٢ : ٨/٥٨٠ . والنسائى ، كتاب التحريم ، باب « السحر » ١١١/٧ . وابن ماجه ، كتاب الأدب ، باب « الرجل يقبل يد الرجل » ، الحديث ٣٧٠٥ : ٢/١٢٢١ أ. وتفسير الطبرى ١٥/١١٥ .

وهو حديث مشكل ، « وعبد الله بن سلمة » فى حفظه شىء ، وقد تكلموا فيه ، ولعله اشتبه (١) عليه التسع الآيات بالعشر الكلمات ، فإنها وصايا فى التوراة لا تعلق لها بقيام الحجة على فرعون ، والله أعلم .

ولهذا قال موسى لفرعون : (لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر) ، أى : حججا وأدلة على صدق ما جئتك به ، (وإنى لأظنك يا فرعون مثبوراً) ، أى : هالكا ؛ قاله مجاهد وقتادة ؛ وقال ابن عباس : ملعونا ؛ وقال أيضا هو والضحاك : (مثبوراً) ، أى : مغلوبا ؛ والهالك ـ كما قال مجاهد ـ يشمل هذا كله ، قال عبد الله بن الزِّبَعْرى :

إذْ أجَارِى الشَّيْطانَ فى سَنَن الغَـ ـىِّ وَمَنْ مَالَ مَيْلَهُ مَثْبُورُ(٢)

وقرأ بعضهم برفع التاء من قوله : (علمتُ) ورُوى ذلك عن على بن أبى طالب . ولكن قراءة الجمهور بفتح التاء على الخطاب لفرعون ، كما قال تعالى : (فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا : هذا سحر مبين . وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) (٣) .

فهذا كله مما يدل على أن المراد بالتسع الآيات إنما هى ما تقدّم ذكره من العصا ، واليد ، والسنين ، ونقص من الثمرات ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ؛ التى فيها حجج وبراهين على فرعون وقومه ، وخوارق ودلائل على صدق موسى ووجود الفاعل المختار الذى أرسله ؛ وليس المراد منها كما ورد فى هذا الحديث ، فان هذه الوصايا ليس فيها حجج على فرعون وقومه ، وأىُّ مناسبة بين هذا وبين إقامة البراهين على فرعون ؟ وما جاء هذا الوهم إلا من قبل « عبد الله بن سلمة » ، فان له بعض ما يُنْكَر ؛ والله أعلم ؛ ولعل ذينك اليهوديين إنما سألا عن العشر الكلمات ، فاشتبه على الراوى بالتسع الآيات ، فحصل وهم فى ذلك ، والله أعلم

وقوله : (فأراد أن يستفزهم من الأرض) ، أى يخليهم [منها] ويزيلهم عنها ، (فأغرقناه ومن معه جميعاً ؛ وقلنا من بعده لبنى إسرائيل : اسكنوا الأرض) ، وفى هذا بشارة لمحمد صلى الله عليه وسلم بفتح مكة مع أن هذه السورة نزلت قبل الهجرة ، وكذلك وقع ؛ فان أهل مكة هموا بإخراج الرسول منها ، كما قال تعالى : (وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلا؛ سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ، ولا تجد لسنتنا تحويلا)(٤) ولهذا أورث الله رسوله مكة ، فدخلها عنْوَةً على أشهر القولين ، وقهر أهلها ، ثم أطلقهم حلماً وكرما ، كما أورث الله القوم الذين كانوا يستضعفون من بنى إسرائيل مشارقَ الأرض و مغاربها ، وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم وثمارهم (وكنوزهم) ، كما قال : (كذلك وأورثناها بنى إسرائيل (٥)) ، وقال هاهنا : (وقلنا من بعده لبنى إسرائيل: اسكنوا الأرض ، فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً) ، أى : جميعكم أنتم وعدوكم .

---

(١) قال الحافظ أبو العلى صاحب تحفة الأحوذى ٧/٥٢٦ : (لاتشركوا) : كلام مستأنف ، ذكره عقيب الجواب ، ولم يذكر الجواب استغناء بما فى القرآن أو بغيره » .

(٢) البيت فى تفسير الطبرى : ١٥/١١٧ ، فى سيرة ابن هشام : ٢/٤١٩ ، وأسد الغابة : ٣/٢٣٩ بتحقيقنا .

(٣) سورة النمل ، آية : ١٤ .

(٤) تقدمت الآيتان فى هذه السورة : ٧٦ ، ٧٧ .

(٥) سورة الشعراء ، آية : ٥٩ .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك : (لفيفا) ، أى : جميعا (١) ،

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (١٠٥) وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا (١٠٦) ﴾

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز ، وهو القرآن المجيد ، أنه بالحق نزل ، أى : متضمنا للحق ، كما قال تعالى : (لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه (٢)) ، أى : متضمنا علم الله الذى أراد أن يُطْلعكم عليه ، من أحكامه وأمره ونهيه .

وقوله : (وبالحق نزل) ، أى : ووصل إليك — يا محمد — محفوظا محروسا ، لم يُشَب بغيره ، ولا زِيدَ فيه ولا نُقِص منه ، بل وصل إليك بالحق ، فانه نزل به شديد القُوَى ، الأمين المكين المطاع فى الملأ الأعلى .

وقوله : (وما أرسلناك) ، اى : يا محمد (إلا مبشرا [ونذيرا) : مبشرا] لمن أطاعك من المؤمنين ، ونذيراً لمن عصاك من الكافرين .

وقوله : (وقرآنا فرّقناه) ، أما قراءة من قرأ بالتخفيف ، فمعناه : فصلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا ، ثم نزل مُفرّقا منجما على الوقائع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ثلاث وعشرين سنة . قاله عكرمة عن ابن عباس .

وعن ابن عباس أيضا أنه قرأ (فرّقناه) ، بالتشديد (٣) ، أى : أنزلناه آيةً آيةً ، مبينا مفسرا ، ولهذا قال : (لتقرأه على الناس) ، أى : لتبلغه الناس وتتلوه عليهم (على مكث) ، أى : مَهَل ، (ونزلناه تنزيلا) ، أى : شيئاً بعد شىء .

﴿ قُلْ ءَامِنُوا بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩) ﴾

يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : (قل) يا محمد ، لهؤلاء الكافرين بما جئتهم به من هذا القرآن العظيم : (آمنوا به أولا تؤمنوا) ، أى : سواء آمنتم به أم لا ، هو حق فى نفسه ، أنزله الله ونَوّه بذكره فى سالف الأزمان فى كتبه المنزلة على رسله ، ولهذا قال : (إن الذين أوتوا العلم من قبله) أى من صالح أهل الكتاب الذين يُمَسّكون بكتابهم ويقيمونه ، ولم يبدلوه ولا حرّفوه (إذا يتلى عليهم) هذا القرآن ، (يخرون للأذقان) ، جمع ذَقَن ، وهو أسفل

---

(١) تفسير الطبرى : ١٥/١١٨ .

(٢) سورة النساء ، آية : ١٦٦ .

(٣) تفسير الطبرى : ١٥/١١٨ ، ١١٩ .

الوجه (سجدا) ، أى : لله عز وجل شكرا على ما أنعم به عليهم ، من جعله إياهم أهلا ، أن أدركوا هذا الرسول الذى أنزل عليه الكتاب ، ولهذا يقولون : (سبحان ربنا) ، أى : تعظيا وتوقيراً على قدرته التامة، وأنه لا يخلف الميعاد الذى وعدهم على ألسنة الأنبياء [المتقدمين عن بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولهذا قالوا : (سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا] .

وقوله : (ويخرون للأذقان يبكون) ، أى : خضوعا لله عز وجل وإيمانا وتصديقاً بكتابه ورسوله ، ويزيدهم الله خشوعاً ، أى : إيمانا وتسليما كما قال : (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم (١)) .

وقوله : (ويخرون) ، عطف صفة على صفة لا عطف سجود على سجود ، كما قال الشاعر :

إلى المَلِكِ القَرْمِ وابنِ الهُمَامِ * ولَيْثِ الكَتيبةِ في المُزْدَحَمْ (٢)

﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَـٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١١٠) وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا (١١١) ﴾

يقول تعالى : قل يا محمد ، لهؤلاء المشركين المنكرين صفة الرحمة لله عز وجل ، المانعين من تسميته بالرحمن : (ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ، أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى) ، أى : لافرق بين دعائكم له باسم «الله» أو باسم «الرحمن» ، فإنه ذو الأسماء الحسنى ، كما قال تعالى : (هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم) إلى أن قال : (له الأسماء الحسنى يسبح له مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم (٣)) .

وقد روَى مكحول (٤) : أن رجلا من المشركين سمع النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقول فى سجوده : «يا رحمنُ يا رحيم» ، فقال : إنه يزعم أنه يدعو واحداً ، وهو يدعو اثنين . فأنزل الله هذه الآية . وكذا روَى عن ابن عباس ، رواهما ابن جرير .

وقوله : (ولا تجهر بصلاتك) ... الآية ، قال الإمام أحمد :

حدثنا هشيم ، حدثنا أبو بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية [ورسول الله صلى الله عليه وسلم(٥)] متوارٍ بمكة ، (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها) — قال : كان إذا صلى بأصحابه رفَع صوته

---

(١) سورة محمد ، آية : ١٧ .

(٢) تقدم البيت فى : ١/٦٧ ، ٤٣٣ .

(٣) سورة الحشر ، الآيات : ٢٢ — ٢٤ .

(٤) كذا نسب ابن كثير هذا الأثر لمكحول ، وأثره كما فى تفسير الطبرى ١٥/١٢١ : «أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يتهجد بمكة ذات ليلة ، يقول فى سجوده : يارحمن ، يارحيم . فسمعه رجل من المشركين ، فلما أصبح قال لأصحابه : انظروا ماقال ابن أبى كبشة . يدعو الليلة الرحمن الذى باليمامة — وكان باليمامة رجل يقال له : «الرحمن» ، فنزلت : (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ، أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى) .

(٥) مابين القوسين عن المسند ، ومكانه فى المخطوطة : «وهو» .

بالقرآن ، فلما سمع ذلك المشركون سبوا القرآن ، وسبوا من أنزله ، ومن جاء به ؛ قال : فقال الله تعالى (لنبيه) : (ولا تجهر بصلاتك) ، أى : بقراءتك ، فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ، (و لا تخافت بها) عن أصحابك ، فلاتسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ، (وابتغ بين ذلك سبيلا (١)) .

أخرجاه فى الصحيحين (٢) من حديث أبى بشر جعفر بن إياس ، به ؛ وكذا روى الضحاك عن ابن عباس ، وزاد . « فلما هاجر إلى المدينة ، سقط ذلك ، يفعل أىّ ذلك شاء (٣) » .

وقال محمد بن اسحاق : حدثنى داود بن الحصين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إذا جهر بالقرآن وهو يصلى ، تفرقوا عنه وأبوا أن يستمعوا منه ، فكان الرجل إذا أراد أن يستمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض ما يتلو وهو يصلى ، استرق السمع دونهم فَرَقاً منهم ، فان رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع ، ذهب خشية أذاهم ، فلم يستمع . فإن خفض صوته صلى الله عليه وسلم لم يستمع الذين يستمعون من قراءته شيئا ، فأنزل الله : (ولا تجهر بصلاتك) فيتفرقوا عنك ، (ولا تخافت بها) فلا تُسمِعَ من أراد أن يسمعها ممن يسترق ذلك [دونهم] ، لعله يرعوى إلى بعض ما يسمع ، فينتفع به ، (وابتغ بين ذلك سبيلا (٤)) .

وهكذا قال عكرمة ، والحسن البصرى ، وقتادة : نزلت هذه الآية فى القراءة فى الصلاة .

وقال شعبة عن [أشعث (٥) بن] سليم ، عن الأسود بن هلال ، عن عبد الله بن مسعود : لم يُخافِتْ بها مَنْ أسمع أذنيه (٦) .

قال ابن جرير : حدثنا يعقوب ، حدثنا ابن عُلَية ، عن سلمة بن (٧) علقمة ، عن محمد بن سيرين قال : نبئت أن أبا بكر كان إذا صلى فقرأ خَفَض صوته ، وأن عمر كان يرفع صوته ، فقيل لأبى بكر : لم تصنع هذا ؟ قال : أناجى ربى عز وجل ، وقد علم حاجتى . فقيل : أحسنت . وقيل لعمر : لم تصنع هذا ؟ قال : أطرد الشيطان ، وأوقظ الوسنان (٨) ، قيل : أحسنت . فلما نزلت : (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ، وابتغ بين ذلك سبيلا) ، قيل لأبى بكر : ارفع شيئاً ، وقيل لعمر : اخفض شيئاً (٩) .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٢٣/١ ، ٢١٥ .

(٢) البخارى ، كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : (أنزله بعلمه والملائكة يشهدون) : ٩/١٧٤ ، ١٧٥ . وباب قول الله تعالى : (وأسروا قولكم أو اجهروا به) : ٩/١٨٨ . وباب قول النبى صلى الله عليه وسلم : « الماهر بالقرآن مع الكرام البررة » : ٩/١٩٤ . ومسلم ، كتاب الصلاة ، باب « التوسط فى القراءة فى الصلاة الجهرية بين الجهر والإسرار ، إذا خاف من الجهر مفسدة » : ٢/٣٤ .

(٣) تفسير الطبرى : ١٥/١٢٣ .

(٤) تفسير الطبرى : ١٥/١٢٣ ، وما بين القوسين عنه .

(٥) مابين القوسين عن تفسير الطبرى . ومكانه فى المخطوطة : « أبى » .

(٦) تفسير الطبرى : ١٥/١٢٥ .

(٧) فى تفسير الطبرى : « سلمه عن علقمة » . وهو خطأ . ينظر ترجمة « سلمة بن علقمة » فى التهذيب : ٤/١٥٥ .

(٨) الوسنان : النائم ، الذى ليس بمستغرق فى نومه .

(٩) تفسير الطبرى : ١٥/١٢٤ .

وقال أشعث بن سوار ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : نزلت فى الدعاء (١) . وكذا روى الثورى ، ومالك ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة : نزلت فى الدعاء . وكذا قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وأبو عياض ، ومكحول ، وعروة بن الزبير .

وقال الثورى عن [ابن] عياش العامرى ، عن عبد الله بن شداد قال : كان أعراب من بنى تميم إذا سلم النبى صلى الله عليه وسلم قالوا : اللهم ارزقنا إبلا وولداً . قال : فنزلت هذه الآية : (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها) .

قول آخر ، قال ابن جرير : حدثنا أبو السائب ، حدثنا حفص بن غياث ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة رضى الله عنها : نزلت هذه الآية فى التشهد : (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها) .

وبه قال حفص ، عن أشعث بن سوار ، عن محمد بن سيرين ، مثله (٢) .

قول آخر ، قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها) ، قال : لا تصل مراءاة الناس ، ولا تدعها مخافة الناس (٣) . وقال الثورى ، عن منصور ، عن الحسن البصرى : (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها) ، قال : لا تحسن علانيتها وتسىء سريرتها . وكذا رواه عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الحسن ، به . وهشيم ، عن عوف ، عنه به . وسعيد ، عن قتادة ، عنه كذلك .

قول آخر ، قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله : (وابتغ بين ذلك سبيلا) ، قال : أهل الكتاب يخافتون ، ثم يجهر أحدهم بالحرف فيصيح به ، ويصيحون هم به وراءه ، فنهاه أن يصيح كما يصيح هؤلاء ، وأن يخافت كما يخافت القوم ، ثم كان السبيل الذى بين ذلك ، الذى سن له جبريل من الصلاة .

وقوله : (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً) ، لما أثبت تعالى لنفسه الكريمة الأسماء الحسنى ، نزّه نفسه عن النقائص فقال : (وقل : الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ، ولم يكن له شريك فى الملك) ، بل هو الله الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفُواً أحد .

(ولم يكن له ولىٌ من الذل) ، أى : ليس بذليل فيحتاجَ أن يكون له وَلِىٌّ أو وزير أو مشير ، بل هو تعالى خالق الأشياء وحده ، لا شريك له ومقدرها ومدبرها بمشيئته وحده ، لا شريك له .

قال مجاهد فى قوله : (ولم يكن له ولى من الذل) : لم يُحالِف أحدا ولا يبتغى نصر (٤) أحد .

(وكبره تكبيرا) ، أى : عظمه وأجلّه عما يقول الظالمون المعتدون علوا كبيراً .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٥/١٢٢ .
(٢) تفسير الطبرى : ١٥/١٢٤ .
(٣) تفسير الطبرى : ١٥/١٢٥ .
(٤) تفسير الطبرى : ١٥/١٢٦ .

قال ابن جرير : حدثني يونس ، أنبأنا ابن وهب ، أخبرني أبو صخر ، عن القُرَظي أنه كان يقول في هذه الآية : (وقل : الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً) ... الآية ، قال : إن اليهود والنصارى قالوا : اتخذ الله ولدا وقال العرب : [لبيك] لبيك ، لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك . وقال الصابئون والمجوس : لولا أولياء الله لذل . فأنزل الله هذه الآية : (وقل : الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ، ولم يكن له شريك في الملك ، ولم يكن له وليّ من الذل وكبره تكبيراً (١)) .

وقال أيضاً : حدثنا بشر ، حدثنا سعيد ، عن قتادة : ذُكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يعلم أهله هذه الآية : (الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ، ولم يكن له وليّ من الذل ، وكبره تكبيرا) ، الصغير من أهله والكبير .

قلت : وقد جاء في حديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سماها آية العز ؛ وفي بعض الآثار : أنها ما قرئت في بيت في ليلة فيصيبه سَرَق أو آفة . والله أعلم .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا بِشْر بن سَيحان البصري ، حدثنا حرب بن ميمون، حدثنا موسى بن عبيدة الرَّبَذي ، عن محمد بن كعب القُرَظي ، عن أبي هريرة قال: خرجت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويدي في يده ، فأتى على رجل رَثّ الهيئة ، فقال : أيْ فلان ، ما بلغ بك ما أرى ؟ قال : السقم والضرّ يا رسول الله ؛ قال : ألا أعلمك كلمات تُذْهِبُ عنك السُّقْمَ والضرّ ؟ قال: لا ، قال : ، مايسرني بها أن شهدت معك بدرا أو أحدا ؛ قال : فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : وهل يدرك أهلُ بدر وأهل أحد ما يدرك الفقيرُ القانع ؟ قال : فقال أبو هريرة : يا رسول الله ، إياى فعلمني . قال : فقل يا أبا هريرة : توكلت على الحي الذي لا يموت ، الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ، ولم يكن له شريك في الملك ، ولم يكن له وليّ من الذل ، وكبّره تكبيراً ؛ قال : فأتى عَليّ رسول الله وقد حَسُنت حالي ، قال : فقال لي : مَهْيَم (٢) . قال قلت : يا رسول الله ، لم أزل أقول الكلمات التي علمتني (٣) .

إسناده ضعيف ، وفي متنه نَكارة .

[آخر تفسير سورة الإسراء]

---

(١) تفسير الطبري : ١٥/١٢٦ .

(٢) أي : ماأمرك وشأنك . وهي كلمة يمانية .

(٣) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد وقال : « رواه أبو يعلى ، وفيه موسى بن عبيدة الربذي ، وهو ضعيف » . ينظر تفسير سورة الإسراء : ٧/٥٢ .

تفسير سورة الكهف

وهى مكية

ذكر ما ورد فى فضلها ، والعشر الآيات من أولها وآخرها ، وأنها عصمة من الدجال

قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن أبي إسحاق قال : سمعت البراء يقول : قرأ رجل الكهف ، وفى الدار دابة ، فجعلت تنفر ، فنظر فإذا ضبابة — أو : سحابة — قد غشيته ، فذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فقال : « اقرأ فلانُ ، فإنها السكينة تنزلت عند القرآن ، أو تنزلت للقرآن (١) » .

أخرجاه فى الصحيحين (٢) ، من حديث شعبة ، به . وهذا الرجل الذى كان يتلو هو : أُسَيْدُ بن الحُضَير ، كما تقدم فى تفسير [سورة] البقرة (٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، أخبرنا هَمَّام بن يحيى ، عن قتادة ، عن سالم بن أبى الجعد ، عن مَعْدَان ابن أبى طلحة ، عن أبى الدرداء ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : من حَفِظ عَشْرَ آيات من أول سورة الكهف ، عُصِم من الدجال (٤) .

رواه مسلم (٥) ، وأبو داود ، والنسائى ، والترمذى من حديث قتادة ، به ولفظ الترمذى : « من حفظ الثلاث الآيات من أول الكهف (٦) » ، وقال : حسن صحيح .

طريق أخرى ، قال أحمد : حدثنا حجاج ، حدثنا شعبة ، عن قتادة ، سمعت سالم بن أبى الجعد يحدث عن معدان ، عن أبى الدرداء ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عصم من فتنة الدجال (٧) .

ورواه مسلم (٨) أيضاً والنسائى ، من حديث قتادة ، به . وفى لفظ للنسائى : « من قرأ عشر آيات من الكهف » ، فذكره .

حديث آخر وقد رواه النسائى فى « اليوم والليلة » عن محمد بن عبد الأعلى ، عن خالد ، عن شعبة ، عن قتادة ، عن سالم بن أبى الجعد ، عن ثَوبان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف ، فإنه عصمة له من الدجال » — فيحتمل أن سالما سمعه من ثوبان ومن أبى الدرداء .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٢٨١/٤ .
(٢) البخارى ، كتاب المناقب : ٢٤٥/٤ . ومسلم ، باب نزول السكينة لنزول القرآن : ١٩٣/٢ ، ١٩٤ .
(٣) ينظر : ٥٢/١ ، ٥٣ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ١٩٦/٥ .
(٥) مسلم ، فضل سورة الكهف وآية الكرسى : ١٩٩/٢ . وسنن أبى داود ، كتاب الملاحم ، باب « خروج الدجال » ، الحديث ٤٣٢٣ : ١١٧/٤ . وتحفة الأحوذى ، أبواب فضائل القرآن ، باب « ماجاء فى سورة الكهف » ، الحديث ٣٠٤٧ : ١٩٥/٨ ، ١٩٦ .
(٦) كذا ، ولفظ الترمذى : « من قرأ ثلاث آيات من أول الكهف » .
(٧) مسند الإمام أحمد : ٤٤٦/٦ . ولفظ المسند : « من قرأ عشر آيات من آخر الكهف ... » .
(٨) مسلم ، فضل سورة الكهف : ١٩٩/٢ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لَهيعة ، حدثنا زَبّان بن فايد ، عن سهل بن معاذ بن أنس الجهنى ، عن أبيه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من قرأ أول سورة الكهف وآخرها ، كانت له نوراً من قدمه إلى رأسه . ومن قرأها كلها كانت له نوراً ما بين الأرض إلى السماء » انفرد به أحمد (١) ولم يخرجوه .

وروى الحافظ أبو بكر بن مَرْدَوَيه بإسناد له غريب ، عن خالد بن سعيد بن أبى مريم ، عن نافع ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة الكهف فى يوم الجمعة ، سطع له نور من تحت قدمه إلى عَنَان السماء ، يضىء له يوم القيامة ، وغُفر له مابين الجمعتين » .

وهذا الحديث فى رفعه نظر ، وأحسن أحواله الوقف .

وهكذا روى الإمام : « سعيد بن منصور » فى سننه ، عن هشيم بن بشير ، عن أبى هاشم ، عن أبى مجاز ، عن قيس ابن عُبَاد ، عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه قال : : من قرأ سورة الكهف فى يوم الجمعة ، أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق .

هكذا وقع موقوفا ، وكذا رواه الثورى ، عن أبى هاشم ، به ، من حديث أبى سعيد الخدرى .

وقد أخرجه الحاكم فى مستدركه ، عن أبى بكر محمد بن بن المؤمل : حدثنا الفضيل بن محمد الشَّعرانى ، حدثنا نُعَيم بن حَمّاد ، حدثنا هشيم ، حدثنا أبو هاشم ، عن أبى مِجْلَز ، عن قيس بن عُبَاد ، عن أبى سعيد ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من قرأ سورة الكهف فى يوم الجمعة ، أضاء له من النور ما بينه وبين الجمعتين » . ثم قال : هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه (٢) .

وهكذا رواه الحافظ أبو بكر البيهقى فى سننه ، عن الحاكم ، ثم قال البيهقى : ورواه يحيى بن كثير ، عن شعبة ، عن أبى هاشم بإسناده أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من قرأ سورة الكهف كما أنزلت كانت له نوراً يوم القيامة » .

وفى « المختارة » للحافظ الضياء المقدسى من حديث عبد الله بن مصعب بن منظور بن زيد بن خالد الجهنى ، عن على ابن الحسين ، عن أبيه ، عن على مرفوعاً : من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة ، فهو معصوم إلى ثمانية أيام من كل فتنة ، وإن خرج الدجال عصم منه .

* * *

(١) مسند الإمام أحمد : ٤/٤٣٩ ، ولفظه : « ما بين السماء إلى الأرض » .

(٢) المستدرك ، تفسير سورة الكهف : ٢/٣٦٨ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾

قد تقدم فى أول التفسير أنه تعالى يحمد نفسه المقدسة عند فواتح الأمور وخواتيمها ، فإنه المحمود على كل حال ، وله الحمد فى الأولى والآخرة . ولهذا حمِد نفسه على إنزاله كتابه العزيز على رسوله الكريم محمد صلوات الله وسلامه عليه ؛ فإنه أعظمُ نعمة أنعمها الله على أهل الأرض ؛ إذ أخرجهم به من الظلمات إلى النور ، حيث جعله كتاباً مستقيما لا اعوجاج فيه ولا زيغ ، بل يهدى إلى صراط مستقيم ، بينا واضحا جلياً ، نذيراً للكافرين وبشيراً للمؤمنين . ولهذا قال : (ولم يجعل له عوجا) ، أى : لم يجعل فيه اعوجاجاً ولا زيغاً ولا ميلا ، بل جعله معتدلا مستقيما . ولهذا قال : (قيما) ، أى : مستقيما .

(لينذر بأساً شديداً من لدنه) ، أى : لمن خالفه وكذبه ولم يؤمن به ، ينذره بأساً شديداً ، عقوبة عاجلة فى الدنيا وآجلة فى الأخرى ، (من لدنه) ، أى : من عند الله الذى لا يُعذّب عذابه أحد ، ولا يوثق وثاقه أحد .

(ويبشّر المؤمنين) ، أى : بهذا القرآن الذين صدّقوا إيمانهم بالعمل الصالح ، (أن لهم أجراً حسناً) ، أى : مثوبة عند الله جميلة ، (ماكثين فيه) ، فى ثوابهم عند الله ، وهو الجنة ، خالدين فيه ، (أبداً) ، دائماً لازوال له ولا انقضاء .

(وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً) — قال ابن إسحاق : وهم مشركو العرب فى قولهم : نحن نعبد الملائكة ، وهم بنات الله [١] .

(ما لهم به من علم) ، أى : بهذا القول الذى افتروه وائتفكوه من علم ، (ولا لآبائهم) ، أى : أسلافهم .

(كبرت كلمة) : نصب على التمييز ، تقديره : كبرت كلمتهم هذه كلمة .

وقيل : على التعجب ، تقديره : أعظِم بكلمتهم كلمة ، كما تقول : أكرم بزيد رجلا . قاله بعض البصريين ، وقرأ ذلك بعض قراء مكة (كبرت كلمةٌ) ، كما يقال : « عَظُم قولُك » ، و« كَبُر شأنُك » .

والمعنى على قراءة الجمهور أظهر ؛ فإن هذا تبشيع لمقالتهم واستعظام لإفكهم ، ولهذا قال : (كبرت كلمة تخرج من أفواههم)[٢] ، أى : ليس لها مُستنَد سوى قولهم ، ولا دليل لهم عليها إلا كذبهم وافتراؤهم . ولهذا قال : (إن يقولون إلا كذبا) .

وقد ذكر محمد بن إسحاق سبب نزول هذه السورة الكريمة ، فقال : حدثنى شيخ من أهل مصر ، قدم علينا منذ بضع وأربعين سنة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : بعثت قريش النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبى مُعَيط ،

---

(١) تفسير الطبرى : ١٥/١٢٨ . وقول ابن إسحاق فيه تخصيص من غير مخصص ؛ والحق أن الآية عامة فى إنذار كل من ادعى هذه الدعوى ، يستوى فى ذلك المشركون وأهل الكتاب من اليهود والنصارى .

(٢) ذكر الطبرى هاتين القراءتين ، واستصوب قراءة الجمهور ، ينظر : ١٥/١٢٩ .

إلى أحبار اليهود بالمدينة ، فقالوا لهم : سلوهم عن محمد ، وصفوا لهم صفته ، وأخبروهم بقوله ؛ فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء . فخرجا حتى قدما المدينة ، فسألوا أحبار يهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووصفوا لهم أمره وبعض قوله ، وقالا : إنكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا : قال : فقالت(١) لهم : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن [فإن] أخبركم بهن ، فهو نبي مرسل ، وإن لم يفعل فالرجل مُتَقَوِّل فَرَوْا(٢) فيه رأيكم : سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ، ما كان من أمرهم ؟ فإنهم قد كان لهم حديث عجيب . وسلوه عن رجل طوّاف بلغ مشارق الأرض، ومغاربها ، ما كان نبؤه ؟ وسلوه عن الروح ، ما هو .(٣) ؟] فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه ، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول ، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم .

فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش ، فقالا : يامعشر قريش ، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور ، فأخبروهم بها ، فجاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يامحمد ، أخبرنا . فسألوه عما أمروهم به ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أخبركم غدا بما سألتم عنه . ولم يستثن (٤) ، فانصرفوا عنه ، ومكث رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس عشرة ليلة ، لا يُحدث الله إليه في ذلك وحياً ، ولا يأتيه جبريل عليه السلام ، حتى أرجف أهل مكة وقالوا : وعدنا محمد غداً ، واليوم خمسَ عشرةَ قد أصبحنا فيها ، لا يُخبرنا بشيء عما سألناه عنه . وحتى أحزنَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم مكثُ الوحي عنه ، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة . ثم جاءه جبريل عليه السلام من عند الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف ، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم ، وخَبَر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف ، وقول الله عز وجل : (ويسألونك عن الروح ؟ قل : الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا (٥)) .

فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾

يقول تعالى مسلياً رسوله صلى الله عليه وسلم في حزنه على المشركين ، لتركهم الإيمان وبعدهم عنه ، كما قال تعالى : (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات (٦)) ، وقال: (ولا تحزن عليهم (٧)) ، وقال : (لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين) (٨) .

باخع ، أي : مهلك نفسك بحزنك عليهم . ولهذا قال : (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث) ، يعني : القرآن . (أسفا) ، يقول : لا تهلك نفسك أسفاً .

---

(١) لفظ الطبري : « فقالت لهم أحبار يهود » .

(٢) روا : فعل أمر من « رأى » ، مسند إلى واو الجماعة .

(٣) مابين القوسين سقط من مخطوطة الأزهر ، وقد أثبتناه من تفسير الطبري .

(٤) أي : لم يقل : « إن شاء الله » .

(٥) تفسير الطبري : ١٥/١٢٧ ، ١٢٨

(٦) سورة فاطر ، آية : ٨ .

(٧) سورة النحل ، آية : ١٢٧

(٨) سورة الشعراء ، آية : ٣ .

قال قتادة : قَـٰتِلٌ نَفْسَكَ غضباً وحزناً عليهم . وقال مجاهد : جزعاً(١) . والمعنى [متقارب ، أى] : لا تأسف عليهم ، بل أبلغهم رسالة الله ، فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات .

ثم أخبر تعالى أنه جعل الدنيا داراً فانية ، مُزَيَّنَة بزينة زائلة . وإنما جعلها دارَ اختبار لا دار قرار ، فقال : (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا) .

قال قتادة ، عن أبى نَضْرة ، عن أبى سعيد ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الدنيا خضرة حلوة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون . فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء »(٢) .

ثم أخبر تعالى بزوالها وفنائها ، وفراغها وانقضائها ، وذهابها وخرابها ، فقال : (وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزا) ، أى : وإنا لمصيِّروها بعد الزينة إلى الخراب والدمار ، فنجعل كل شىء عليها هالكا (صعيدا جرزا) ، لا يُنْبِت ولا ينتفع به ، كما قال العوفى ، عن ابن عباس فى قوله تعالى : (وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا) ، يقول : يهلك كل شىء عليها ويبيد . وقال مجاهد : (صعيدا جرزا) : بلقعا .

وقال قتادة : الصعيد : الأرض التى ليس فيها شجر ولا نبات .

وقال ابن زيد : الصعيد الأرض التى ليس فيها شىء ، ألا ترى إلى قوله تعالى: (أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجُرُز ، فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم ، أفلا يبصرون) .

وقال محمد بن إسحاق : (وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزاً) ، يعنى الأرض ، إن ما عليها لفان وبائد ، وإن المرجع لإلى الله ، فلا تأس ولا يحزنك ما تسمع وترى(٣) .

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَـٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴿١٢﴾

هذا إخبار عن قصة أصحاب الكهف ، على سبيل الإجمال والاختصار ، ثم بسطها بعد ذلك فقال : (أم حسبت) ، يعنى يا محمد ، (أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً) ، أى : ليس أمرهم عجيباً فى قدرتنا وسلطاننا ، فإن خَلْق السموات والأرض ، واختلافَ الليل والنهار ، وتسخيرَ الشمس والقمر والكواكب ، وغيرَ ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى ، وأنه على ما يشاء قادر ، ولا يُعجِزُه شىء أعجب من أخبار أصحاب الكهف ، كما قال ابن جريج ، عن مجاهد : (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً) ، يقول: قد كان من آياتنا ما هو أعجب من ذلك !

---

(١) تفسير الطبرى : ١٥/١٢٩ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد ومسلم بإسنادها عن أبى مسلمة ، عن أبى نضرة . المسند : ٣/٢٢ ، ومسلم ، كتاب الرقاق ، باب « أكثر أهل الجنة الفقراء ، وأكثر أهل النار النساء » ، وبيان الفتنة بالنساء : ٨/٨٩ .

(٣) ينظر هذه الآثار فى تفسير الطبرى : ١٥/١٣٠ .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا) ، يقول : الذى آتيتك من العلم والسنة والكتاب ، أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم(١) .

وقال محمد بن إسحاق : ما أظهرت من حججى على العباد ، أعجب من شأن أصحاب الكهف والرقيم .

[وأما « الكهف » فهو : الغار فى الجبل ، وهو الذى لجأ إليه هؤلاء الفتية المذكورون . وأما « الرقيم »] فقال العوفى ، عن ابن عباس : هو واد قريب من أيلة(٢) . وكذا قال عطية العوفى ، وقتادة .

وقال الضحاك : أما « الكهف » فهو : غار الوادى ، و « الرقيم » اسم الوادى .

وقال مجاهد : « الرقيم » : كان بنيانهم(٣) ، ويقول بعضهم : هو الوادى الذى فيه كهفهم .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا الثورى ، عن سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس فى قوله « الرقيم » ، قال : يزعم كعب أنها القرية .

وقال ابن جريج ، عن ابن عباس : « الرقيم » : الجبل الذى فيه الكهف .

وقال ابن إسحاق ، عن عبد الله بن أبى نجيح ، عن [مجاهد ، عن] ، ابن عباس قال : اسم ذلك الجبل بنجلوس(٤) .

وقال ابن جريج : أخبرنى وهب بن سليمان ، عن شُعَيب الجبَّائى : أن اسم جبل الكهف بنجلوس ، واسم الكهف حيزم ، والكلب حمران .

وقال عبد الرزاق : أنبأنا إسرائيل ، عن سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : القرآن أعلمه إلا حَنَانًا ، والأواه ، والرقيم .

وقال ابن جريج : أخبرنى عمرو بن دينار ، أنه سمع عكرمة يقول : قال ابن عباس : ما أدرى ما الرقيم ؟ أكتاب أم بنيان ؟ .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : الرقيم الكتاب . وقال سعيد بن جبير : [الرقيم] لوح [من] حجارة ، كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف ، ثم وضعوه على باب الكهف .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الرقيم الكتاب . ثم قرأ : (كتاب مرقوم) .

وهذا هو الظاهر من الآية ، وهو اختيار ابن جرير قال : « الرقيم » فعيل بمعنى مرقوم ، كما يقال للمقتول : قتيل ، وللمجروح : جريح . والله أعلم .

وقوله : (إذ أوى الفتية إلى الكهف ، فقالوا: ربنا آتنا من لدنك رحمة ، وهَيِّىء لنا من أمرنا رشدا) . يخبر تعالى عن أولئك الفتية ، الذين فروا بدينهم من قومهم لئلا يفتنوهم عنه ، فَهَرَبوا منهم فَلَجَئُوا إلى غار فى

---

(١) تفسير الطبرى : ١٣١/١٥

(٢) أيلة : مدينة على ساحل بحر القلزم — البحر الأحمر — مما يلى الشام . قيل : هى آخر الحجاز وأول الشام . وهى مدينة اليهود الذين اعتدوا فى السبت .

(٣) كذا فى مخطوطة الأزهر . وفى تفسير الطبرى ١٣١/١٥ : «كتاب تبيانهم» .

(٤) تفسير الطبرى : ١٣٢/١٥ ، وما بين القوسين عنه .

جبل ليختفوا عن قومهم ، فقالوا حين دخلوا سائلين من الله تعالى رحمته ولطفه بهم : (ربنا آتنا من لدنك رحمة) ، أي : هب لنا من عندك رحمة ترحمنا بها وتسترنا عن قومنا ، (وهيّئ لنا من أمرنا رشدا) ، أي : وقدر لنا من أمرنا هذا رشدا ، أي : اجعل عاقبتنا رشداً ، كما جاء في الحديث : « وما قضيت لنا من قضاء، فاجعل عاقبته رشدا »، وفي المسند من حديث بُسْر بن أبي أرطاة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يدعو : « اللهم ، أحسن عاقبتنا في الأمور كلها ، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة (١) » .

وقوله : (فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا) ، أي : ألقينا عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف ، فناموا سنين كثيرة . (ثم بعثناهم) ، أي : من رقدتهم تلك ، وخرج أحدهم بدراهم معه ليشتري لهم بها شيئاً يأكلونه ، كما سيأتي بيانه وتفصيله ، ولهذا قال : (ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين) ، أي : المختلفين فيهم ، (أحصى لما لبثوا أمدا) ، قيل : عدداً . وقيل : غاية ، فإن الأمد الغاية [كقوله] (٢) .

« سَبْقَ الجَوَاد إذا اسْتَوْلى عَلَى الأمَد »

نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾

من هاهنا شرع في بسط القصة وشرحها ، فذكر تعالى أنهم فتية ــ وهم الشباب ــ وهم أقبلُ للحق ، وأهدى للسبيل من الشيوخ ، الذين قد عتوا (٣) وعسوا في دين الباطل، ولهذا كان أكثر المستجيبين لله ولرسوله شباباً. وأما المشايخ من قريش ، فعامتهم بقوا على دينهم ، ولم يسلم منهم إلا القليل . وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شباباً .

قال مجاهد : بلغني أنه كان في آذان بعضهم القِرَطة (٤) يعني الحلق ، فألهمهم الله رشدهم وآتاهم تقواهم . فآمنوا بربهم ، أي : اعترفوا له بالوحدانية ، وشهدوا أنه لا إله إلا هو .

(وزدناهم هدى) : استدل بهذه الآية وأمثالها غيرُ واحد من الأئمة كالبخاري وغيره ، ممن ذهب إلى زيادة الإيمان وتفاضله ، وأنه يزيد وينقص . ولهذا قال تعالى : (وزدناهم هدى) ، كما قال : (والذين اهتدوا زادهم هدى

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٤/١٨١ .

(٢) هو النابغة الذبياني ، والبيت في ديوانه ، صنعة ابن السكيت : ١٤ ، وتفسير الطبري ١٥/١٣٧ . وشطره الأول :

« إلا لمثلك أو من أنت سابقه »

(٣) يقال للشيخ إذا ولى وكبر : عتا يعتو عتيا ، وعسا يعسو ، مثله .

(٤) القرطة ــ بكسر ففتح ــ : جمع قرط ، بضم فسكون : وهو مايعلق في الأذن من الذهب والفضة .

وآتاهم تقواهم (١)) ، وقال : (فأما الذين آمنوا ، فزادهم إيماناً (٢)) ، وقال : (ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم (٣)) ، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك (٤) .

وقد ذُكر أنهم كانوا على دين عيسى ابن مريم عليه السلام ، والله أعلم — والظاهر أنهم كانوا قبل ملة النصرانية بالكلية ، فإنه لو كانوا على دين النصرانية ، لما اعتنى أحبار اليهود بحفظ خبرهم وأمرهم ، لمباينتهم لهم : وقد تقدم عن ابن عباس : أن قريشا بعثوا إلى أحبار اليهود بالمدينة يطلبون منهم أشياء يمتحنون بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبعثوا إليهم أن يسألوه عن خبر هؤلاء ، وعن خبر ذى القرنين ، وعن الروح ، فدلّ هذا على أن هذا أمر محفوظ فى كتب أهل الكتاب ، وأنه متقدم على دين النصرانية ، والله أعلم .

وقوله : (وربطنا على قلوبهم إذ قاموا، فقالوا : ربنا رب السموات والأرض) ، يقول تعالى : وصَبّرناهم على مخالفة قومهم ومدينتهم ، ومفارقة ماكانوا فيه من العيش الرغيد والسعادة والنعمة ؛ فإنه قد ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف أنهم كانوا من أبناء ملوك الروم وسادتهم ، وأنهم خرجوا يوما فى بعض أعياد قومهم وكان لهم مُجتمع فى السنة يجتمعون فيه فى ظاهر البلد ، وكانوا يعبدون الأصنام والطواغيت، ويذبحون لها ، وكان لهم ملك جبار عنيد يقال له « دقيانوس » ، وكان يأمر الناس بذلك ويحثهم عليه ويدعوهم إليه : فلما خرج الناس لمجتمعهم ذلك ، وخرج هؤلاء الفتية مع آبائهم وقومهم ، ونظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم ، عرفوا أن هذا الذى يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها لا ينبغى ، إلا لله الذى خلق السموات والأرض : فجعل كل واحد منهم يتخلص من قومه ، وينحاز منهم ، ويتبرّز عنهم ناحية : فكان أول من جلس منهم أحدهم ، جلس تحت ظل شجرة ، فجاء الآخر فجلس عنده ، وجاء الآخر فجلس إليهما ، وجاء الآخر فجلس إليهم ، وجاء الآخر ، وجاء الآخر ، وجاء الآخر ، ولا يعرف واحد منهم الآخر ، وإنما جمعهم هناك الذى جمع قلوبهم على الإيمان ، كما جاء فى الحديث الذى رواه البخارى تعليقا ، من حديث يحيى بن سعيد ، عن عمرة ، عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الأرواح جنودٌ مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف (٥) » أخرجه مسلم فى صحيحه ، من حديث سهيل [عن أبيه] عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم (٦) :

والناس يقولون : الجنسية علة الضم :

والغرض أنه جعل كل واحد منهم يكتم ما هو فيه عن أصحابه ، خوفاً منهم ، ولا يدرى أنهم مثله ، حتى قال أحدهم : تعلمون — والله يا قوم — أنه ما أخرجكم من قومكم وأفردكم عنهم ، إلا شىء؛ فليظهر كل واحد منكم

(١) سورة محمد ، آية : ١٧ .

(٢) سورة التوبة ، آية : ١٢٤ .

(٣) سورة الفتح ، آية : ٤ .

(٤) ينظر صحيح البخارى ، أول كتاب الإيمان : ١/ ٨ . كما ينظر تفسير الآية ١٢٤ من سورة التوبة فيما تقدم : ٤/ ١٧٥ .

(٥) البخارى ، كتاب الأنبياء ، باب « الأرواح جنود مجندة » ١٦٢/٤ .

(٦) مسلم ، كتاب البر ، باب « الأرواح جنود مجندة » : ٨/ ٤١ . وما بين القوسين سقط من تفسير ابن كثير وقد أثبتناه عن صحيح مسلم . وينظر ترجمة سهيل بن أبى صالح فى التهذيب : ٤/ ٢٦٣ .

ما بأمره : فقال آخر : أما أنا فإنى [والله] رأيت ما قومى عليه ، فعرفت أنه باطل ، وإنما الذى يستحق أن يعبد [وحده] ولا يشرك به شىء ، هو الله الذى خلق كل شىء : السموات والأرض وما بينهما . فقال الآخر : وأنا والله وقع لى كذلك . وقال الآخر كذلك ، حتى توافقوا كلهم على كلمة واحدة ، فصاروا يداً واحدة وإخوان صدق ، فاتخذوا لهم معبداً يعبدون الله فيه ، فعرف بهم قومهم ، فوشّوا بأمرهم إلى ملكهم ، فاستحضرهم بين يديه فسألهم عن أمرهم وما هم عليه ، فأجابوه بالحق ، ودعَوه إلى الله عز وجل ، ولهذا أخبر تعالى عنهم بقوله : (وربطنا على قلوبهم إذ قاموا ، فقالوا : ربنا رب السموات والأرض ، لن ندعو من دونه إلهاً) ــ ولن : لنفي التأبيد ، أى : لا يقع منا هذا أبدا ، لأنا لو فعلنا ذلك لكان باطلا ، ولهذا قال عنهم : (لقد قلنا إذا شططا) ، أى : باطلا وكذبا وبهتانا .

(هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين) ، أى : هلاّ أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلاً واضحا صحيحا ؟! (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) ، يقولون : بل هم ظالمون كاذبون فى قولهم ذلك ، فيقال : إن ملكهم لما دَعَوه إلى الإيمان بالله ، أبى عليهم ، وتهدّدهم وتوعدهم ، وأمر بنزْع لباسهم عنهم الذى كان عليهم من زينة قومهم ، وأجّلهم لينظروا فى أمرهم ، لعلهم يراجعون دينهم الذى كانوا عليه . وكان هذا من لطف الله بهم ، فإنهم فى تلك النظرة توصلوا إلى الهَرَب منه ، والفرار بدينهم من الفتنة .

وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن فى الناس ، أن يفر العبد منهم خوفا على دينه ، كما جاء فى الحديث : « يوشك أن يكون خيرُ مال أحدكم غنماً يتْبَعُ بها شَعَف الجبال ومواقع القطر ، يفر بدينه من الفتن (١) » ؛ ففي هذه الحال تشرع العزلة عن الناس ، ولا تشرع فيما عداها ، لما يفوت بها من ترك الجماعات والجمع .

فلما وقع عزمهم على الذهاب والهرب من قومهم ، واختار الله لهم ذلك ، وأخبر عنهم بذلك ، فى قوله : (وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله) ، أى : وإذ فارقتموهم وخالفتموهم بأديانكم فى عبادتهم غير الله ، ففارقوهم أيضاً بأبدانكم ، (فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته) ، أى : يبسط عليكم رحمةً يستركم [بها] من قومكم ، (ويهيىء لكم من أمركم) الذى أنتم فيه ، (مرفقاً) ، أى : أمرا ترتفقون به . فعند ذلك خرجوا هُرّابا إلى الكهف ، فأووا إليه ، ففقدهم قومهم من بين أظهرهم ، وتطلّبهم الملك فيقال : إنه لم يظفر بهم ، وعمّى الله عليهم خبرهم ، كما فعل بنبيه صلى الله عليه وسلم وصاحبه الصديق ، حين لجآ إلى غار ثور ، وجاء المشركون من قريش فى الطّلب ، فلم يهتدوا إليه مع أنهم يمرون عليه ، وعندها قال النبى صلى الله عليه وسلم حين رأى جزَع الصديق فى قوله : « يا رسول الله ، لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا » ، فقال : « يا أبا بكر ، ماظنك باثنين الله ثالثهما ؟ » وقد قال الله تعالى : (إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين ، إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه : لا تحزن ، إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم(٢)) ــ فقصة هذا الغار أشرفُ وأجل وأعظم وأعجب من قصة أصحاب الكهف ،

---

(١) تقدم الحديث فى سورة براءة ، عند تفسير الآية ١١٢ ، وخرجناه هنالك وشرحنا غريبه . ينظر : ١٥٧/٤ .

(٢) سورة براءة ، آية : ٤٠ . وقد تقدم عندها حديث الهجرة ، وخرجناه هنالك عن مسند الإمام أحمد والصحيحين . ينظر : ٩٥/٤ ، ٩٦

وقد قيل : إن قومهم ظفروا بهم ؛ وقفوا على باب الغار الذى دخلوه، فقالوا : ما كنا نريد منهم من العقوبة أكثر مما فعلوا بأنفسهم . فأمر الملك بردم بابه عليهم ليهلكوا مكانهم ، فَفُعِل ذلك : وفى هذا نظر ، والله أعلم ؛ فإن الله تعالى أخبر أن الشمس تدخل عليهم فى الكهف بكرة وعشية ، كما قال تعالى :

۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾

هذا دليل على أن باب هذا الكهف من نحو الشمال ؛ لأنه تعالى أخبر أن الشمس إذا دخلته عند طلوعها تَزَاوَرُ عنه (ذات اليمين) ، أى : يتقلص الفَىء يمنة ، كما قال ابن عباس ، وسعيد بن جُبَير ، وقتادة : (تزاور) ، أى: تميل (١) . وذلك أنها كلما ارتفعت فى الأفق تقلّص شعاعها بارتفاعها حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال فى مثل ذلك المكان . ولهذا قال : (وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال) ، أى : تدخل إلى غارهم من شمال بابه ، وهو من ناحية المشرق ، فدل على صحة ماقلناه ، وهذا بيّن لمن تأمّله وكان له علم بمعرفة الهيئة ، وسير الشمس والقمر والكواكب ، وبيانه : أنه لو كان باب الغار من ناحية الشرق لما دخل إليه منها شيء عند الغروب ، ولو كان من ناحية القبلة لما دخله منها شيء عند الطلوع ولا عند الغروب ، ولا تزاور الفيء يمينا ولا شمالا ، ولو كان من جهة الغرب لما دخلته وقت الطلوع ، بل بعد الزوال ولم تزل فيه إلى الغروب ، فتعين ما ذكرناه ولله الحمد .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، (تقرضهم) : تتركهم (٢) .

وقد أخبر الله تعالى بذلك وأراد منا فهمه وتدبره ، ولم يخبرنا بمكان هذا الكهف فى أىّ البلاد من الأرض ؛ إذ لا فائدة لنا فيه ولا قصد شرعى . وقد تكلف بعض المفسرين فذكروا فيه أقوالا ، فتقدم عن ابن عباس أنه قال : [هو] قريب من أَيْلة . وقال ابن إسحاق : هو عند نِينَوَى. وقيل : ببلاد الروم . وقيل : ببلاد البلقاء . والله أعلم بأىّ بلاد الله هو . ولو كان لنا فيه مصلحة دينية لأرشدنا الله ورسوله إليه ؛ فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما تركت شيئاً يقربكم إلى [الجنة (٣)] ويباعدكم من النار ، إلا وقد أعلمتكم به » . فأعلمنا تعالى بصفته ، ولم يعلمنا بمكانه ، فقال : (وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم) – قال مالك ، عن زيد بن أسلم : تميل (ذات اليمين ، وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال ، وهم فى فجوة منه) ، أى : فى متسع منه داخلا ، بحيث لا تمسهم ؛ إذ لو أصابتهم لأحرقت أبدانهم وثيابهم قاله ابن عباس .

(ذلك من آيات الله) ، حيث أرشدهم تعالى إلى هذا الغار الذى جعلهم فيه أحياء ، والشمس والريح تدخل عليهم فيه لتبقى أبدانهم ، ولهذا قال : (ذلك من آيات الله) .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٥/١٣٩ .
(٢) تفسير الطبرى : ١٥/١٤٠ .
(٣) مابين القوسين عن الطبعات السابقة ، ومكانه فى مخطوطة الأزهر : «والله» .

ثم قال : (من يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا)، أى : هو الذى أرشد هؤلاء الفتية إلى الهداية من بين قومهم ؛ فإنه من هداه الله اهتدى ، ومن أضله فلا هادى له .

وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾

ذكر بعض أهل العلم أنهم لما ضرب الله على آذانهم بالنوم ، لم تنطبق أعينهم ؛ لئلا يسرع إليها البلى ، فإذا بقيت ظاهرة للهواء كان أبقى لها . ولهذا قال تعالى : (وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود) . وقد ذكر عن الذئب أنه ينام فيطبق عينا ويفتح عينا ، ثم يفتح هذه ويطبق هذه وهو راقد ، كما قال الشاعر (١) :

يَنَامُ بِإحْدَى مُقْلَتَيْهِ وَيَتَّقِى * بِأُخْرَى الرزَايَا ، فَهْوَ يَقْظَانُ نَائِم

وقوله تعالى : (ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال) ــ قال بعض السلف : يقلبون فى العام مرتين .

قال ابن عباس : لو لم يقلبوا لأكلتهم الأرض .

وقوله : (وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد) ــ قال ابن عباس ، وقتادة ومجاهد ، وسعيد بن جبير : الوصيد الفناء (٢) .

وقال ابن عباس : بالباب . وقيل : بالصعيد ، وهو التراب . والصحيح أنه بالفناء ، وهو الباب ، ومنه قوله تعالى : (إنها عليهم مؤصدة (٣)) ، أى : مطبقة مغلقة . ويقال : « وَصيد » « وأصيد (٤) » .

ربض كلبهم على الباب كما جرت به عادة الكلاب .

قال ابن جريج : يحرس عليهم الباب . وهذا من سجيته وطبيعته ، حيث يربض ببابهم كأنه يحرسهم ، وكان جلوسه خارج الباب ؛ لأن الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب ــ كما ورد فى الصحيح ــ ولا صورة ولا جُنُب ولا كافر ، كما ورد به الحديث الحسن (٥) . وشملت كلبهم بركتهم ، فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال . وهذا فائدة صحبة الأخيار ؛ فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن .

---

(١) هو حميد بن ثور . والبيت فى ديوانه : ١٠٤ . من قصيدة عينية ؛ فرواية مصراعه الثانى :

* بأخرى الأعادى فهو يقظان هاجع *

(٢) تفسير الطبرى : ١٤١/١٥ .

(٣) سورة الهمزة ، آية : ٨ .

(٤) قال الطبرى فى تفسيره ١٤٢/١٥ : « وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب قول من قال : الوصيد : الباب ، أو فناء الباب ، حيث يغلق الباب . وذلك أن الباب يوصد ، وإيصاده : إطباقه وإغلاقه ، من قول الله عز وجل : (إنها عليهم مؤصدة) وفيه لغتان : « الأصيد » وهى لغة أهل نجد ، « الوصيد » ، وهى لغة تهامة » .

(٥) سنن أبى داود ، كتاب الطهارة ، باب «فى الجنب يؤخر الغسل» ، الحديث ٢٢٧ : ٥٨/١ ، وكتاب اللباس ، باب « فى الصور » ، الحديث ٤١٥٢ : ٧٢/٤ ، ٧٣ والنسائى ، كتاب الطهارة ، باب « فى الجنب إذا لم يتوضأ » : ١٤١/١ . ومسند الإمام أحمد عن على رضى الله عنه : ٨٠/١ ، ٨٣ ، ١٠٧ ، ١٣٩ ، ١٥٠ .

وقد قيل : إنه كان كلب صيد لأحدهم ، وهو الأشبه ؛ وقيل : كان كلب طباخ الملك ، وكان قد وافقهم على الدين (١) فصحبه كلبه ، فالله أعلم .

وقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة « همام بن الوليد الدمشقى » : حدثنا صدقة بن عمر الغسانى ، حدثنا عباد المنقرى ، سمعت الحسن البصرى رحمه الله يقول : كان اسم كبش إبراهيم : جرير ، واسم هدهد سليمان : عنقز ، واسم كلب أصحاب الكهف : قطمير ، واسم عجل بنى إسرائيل الذى عبدوه : بهموت ، وهبط آدم عليه السلام بالهند ، وحواء بجدة ، وإبليس بدست بيسان ، والحية بأصبهان .

وقد تقدم عن شعيب الجبائى أنه سماه حمران .

واختلفوا فى لونه على أقوال لا حاصل لها ، ولا طائل تحتها ولا دليل عليها ، ولا حاجة إليها ، بل هى مما ينهى عنه فإن مستندها رجم بالغيب .

وقوله تعالى : (لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا) ، أى : إنه تعالى ألقى عليهم المهابة بحيث لا يقع نظر أحد عليهم إلا هابهم ، لما ألبسوا من المهابة والذعر ، لئلا يدنو منهم أحد ولا تمسهم يد لامس ، حتى يبلغ الكتاب أجله ، وتنقضى رقدتهم التى شاء تبارك وتعالى فيهم ، لما له فى ذلك من الحجة والحكمة البالغة ، والرحمة الواسعة .

وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾

يقول تعالى : وكما أرقدناهم بعثناهم صحيحة أبدانهم وأشعارهم وأبشارهم ، لم يفقدوا من أحوالهم وهيآتهم شيئاً ، وذلك بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين ، ولهذا تساءلوا بينهم : (كم لبثتم ؟) ، أى : كم رقدتم ؟ (قالوا : لبثنا يوما أو بعض يوم) — كأنه كان دخولهم إلى الكهف فى أول نهار ، واستيقاظهم كان فى آخر نهار ، ولهذا استدركوا فقالوا : (أو بعض يوم . قالوا : ربكم أعلم بما لبثتم) ، أى : الله أعلم بأمركم ، وكأنه حصل لهم نوع تردد فى كثرة نومهم ، فالله أعلم ، ثم عدلوا إلى الأهم فى أمرهم إذ ذاك ، وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب ، فقالوا : (فابعثوا أحدكم بورقكم) ، أى : فضتكم هذه . وذلك أنهم كانوا قد استصحبوا معهم دراهم من منازلهم لحاجتهم إليها ، فتصدقوا منها وبقى منها ، فلهذا قالوا : (فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة) ، أى : مدينتكم التى خرجتم منها ؛ والألف واللام للعهد .

---

(١) يعنى أن الذى وافقهم على الدين هو الطباخ .

(فلينظر أيها أزكى طعاماً) ، أى : أطيب طعاماً ، كقوله : (ولولا فضل الله عليكم ورحمته ، مازكى منكم من أحد أبداً)(١) ، وقوله : (قد أفلح من تزكى) (٢) . ، ومنه الزكاة التى تُطيّب المال وتطهره . وقيل : أكثر طعاما ، ومنه زكا الزرع إذا كثر ، قال الشاعر (٣) :

قَبَائِلُنَا سَبْعٌ وَأَنْتُمْ ثَلَاثَةٌ وَلَلسَّبْعُ أَزْكَى مِنْ ثَلَاثٍ وَأَطْيَبُ

والصحيح الأول ؛ لأن مقصودهم إنما هو الطيب الحلال ، سواء كان قليلا أو كثيراً .

وقوله : (وليتلطف) ، أى : فى خروجه وذهابه ، وشرائه وإيابه ، يقولون وَلْيَتَخَفَّ : كلّ ما يقدر عليه : (ولا يشعرن) ، أى : يعلمن (بكم أحدا ، إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم) أى : إن علموا بمكانكم ، (يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم) ، يعنون أصحاب دقيانوس ، يخافون منهم أن يطلعوا على مكانهم ، فلا يزالون يعذبونهم بأنواع العذاب إلى أن يعيدوهم فى ملتهم التى هم عليها أو يموتوا ، وإن واتوهم على العود فى الدين فلا فلاح لكم فى الدنيا ولا فى الآخرة ، ولهذا قال : (ولن تفلحوا إذا أبدا) .

وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾

يقول تعالى : (وكذلك أعثرنا عليهم) ، أى : أطلعنا عليهم الناس ، (ليعلموا ان وعد الله حق ، وأن الساعة لا ريب فيها) :

ذكر غير واحد من السلف أنه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك فى البعث وفى أمر القيامة

وقال عكرمة : كان منهم طائفة قد قالوا : تبعث الأرواح ولا تبعث الأجساد . فبعث الله أهل الكهف حجة ودلالة وآية على ذلك :

وذكروا أنه لما أراد أحدهم الخروج ليذهب إلى المدينة ، فى شراء شىء لهم ليأكلوه ، تنكر وخرج يمشى فى غير الجادة ، حتى انتهى إلى المدينة ، وذكروا أن اسمها دقسوس ، وهو يظن أنه قريب العهد بها ، وكان الناس قد تبدلوا قرنا بعد قرن ، وجيلا بعد جيل ، وأمة بعد أمة ، وتغيرت البلاد ومن عليها ، كما قال الشاعر :

أما الدّيارُ فإنّها كَدِيارِهِمْ وَأَرَى رِجالَ الحَيِّ غَيْرَ رِجالِه

فجعل لا يرى شيئا من معالم البلد التى يعرفها ، ولا يعرف أحدا من أهلها ، لا خواصها ولا عوامها ، فجعل يتحير فى نفسه ويقول : لعل بى جنونا أو مساً ، أو أنا حالم، ويقول : والله ما بى شىء من ذلك ، وإنّ عهدى بهذه البلدة عشية أمس على غير هذه الصفة : ثم قال : إن تعجيل الخروج من هاهنا لأولى لى . ثم عَمَد إلى رجل ممن يبيع الطعام ،

---

(١) سورة النور ، آية : ٢١ .

(٢) سورة الأعلى ، آية : ١٤ .

(٣) البيت فى تفسير الطبرى : ١٥/١٤٨ غير منسوب .

فدفع إليه مامعه من النفقة ، وسأله أن يبيعه بها طعاما . فلما رآها ذلك الرجل أنكرها وأنكر ضربها ، فدفعها إلى جاره ، وجعلوا يتداولونها بينهم ويقولون : لعل هذا قد وجد كنزا . فسألوه عن أمره ، ومن أين له هذه النفقة ؟ لعله وجدها من كنز ، ومن أنت ؟ فجعل يقول : أنا من أهل هذه المدينة ، وعهدى بها عشية أمس وفيها دقيانوس . فنسبوه إلى الجنون ، فحملوه إلى ولى أمرهم ، فسأله عن شأنه وعن أمره ، حتى أخبرهم بأمره ، وهو متحير فى حاله وما هو فيه . فلما أعلمهم بذلك قاموا معه إلى الكهف : مُتَوَلِّى البلد وأهلها ، حتى انتهى بهم إلى الكهف ، فقال : دعونى حتى أتقدمكم فى الدخول لأعلم أصحابى ، فيقال : إنهم لا يدرون كيف ذهب فيه ، وأخفى الله عليهم خبره . ويقال : بل دخلوا عليهم ، ورأوهم وسلم عليهم الملك واعتنقهم ، وكان مسلما فيما قيل ، واسمه تيدوسيس ، ففرحوا به وآنسوه الكلام ، ثم ودعوه وسلموا عليه ، وعادوا إلى مضاجعهم ، وتوفاهم الله عز وجل ، فالله أعلم .

قال قتادة : غزا ابن عباس مع حبيب بن مسلمة ، فمروا بكهف فى بلاد الروم ، فرأوا فيه عظاما ، فقال قائل : هذه عظام أهل الكهف ؟ فقال ابن عباس : لقد بليت عظامهم من أكثر من ثلاثمائة سنة . رواه ابن جرير (١) .

وقوله : (وكذلك أعثرنا عليهم) أى : كما أرقدناهم وأيقظناهم بهيآتهم ، أطلعنا عليهم أهل ذلك الزمان ، (ليعلموا أن وعد الله حق ، وأن الساعة لا ريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم) ، أى : فى أمر القيامة ، فمن مثبت لها ومن منكر ، فجعل الله ظهورهم على أصحاب الكهف حجة لهم وعليهم . (فقالوا : ابنوا عليهم بنيانا ، ربهم أعلم بهم) ، أى : سُدُّوا عليهم باب كهفهم ، وذَرُوهم على حالهم ، (قال الذين غلبوا على أمرهم : لنتخذن عليهم مسجداً) .

حكى ابنُ جرير فى القائلين ذلك قولين ، أحدهما : أنهم المسلمون منهم . والثانى : أهل الشرك (٢) منهم ، فالله أعلم .

والظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ . ولكن هل هم محمودون أم لا ؟ فيه نظر ؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لعن الله اليهودَ والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد (٣) » ، يحذر مافعلوا . وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، أنه لما وجد قبر دانيال فى زمانه بالعراق ، أمر أن يخفى عن الناس ، وأن تدفن تلك الرقعة التى وجدوها عنده ، فيها شىء من الملاحم وغيرها .

سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن اختلاف الناس فى عدة أصحاب الكهف ، فحكى ثلاثة أقوال ، فدل على أنه لا قائل برابع ، ولما ضعَّف القولين الأولين بقوله : (رجما بالغيب) ، أى : قول بلا علم ، كمن يرمى إلى مكان لا يعرفه فإنه لا يكاد

(١) تفسير الطبرى : ١٥/١٤٣ .

(٢) تفسير الطبرى : ١٥/١٤٩ .

(٣) البخارى ، كتاب الجنائز ، باب « ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور » : ٢/١١١ . ومسلم ، كتاب المساجد ، باب « النهى عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها .. » : ٢/٦٧ .

يصيب ، وإن أصاب فبلا قصد ، ثم حكى الثالث وسكت عليه او قرره بقوله : (وثامنهم كلبهم) ـ دلّ على صحته ، وأنه هو الواقع فى نفس الأمر .

وقوله : (قل ربى أعلم بعدتهم) إرشادٌ إلى أن الأحسن فى مثل هذا المقام ردّ العلم إلى الله تعالى ، إذ لا احتياج إلى الخوض فى مثل ذلك بلا علم ، لكن إذا أطلعنا على أمر قلنا به ، وإلا وقفنا حيث وَقَفْنا .

وقوله : ((ما يعلمهم إلا قليل) ، أى : من الناس . قال قتادة : قال ابن عباس : أنا من القليل الذى استثنى الله عز وجل ، كانوا سبعة . وكذا روى ابن جريج ، عن عطاء الخراسانى ، عنه ، أنه كان يقول : أنا ممن استثنى الله ، ويقول : عدتهم سبعة .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن بشار ، حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا إسرائيل ، عن سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : (ما يعلمهم إلا قليل) ، قال : أنا من القليل ، كانوا سبعة (١) .

فهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس : أنهم كانوا سبعة ، وهو موافق لما قدمناه .

وقال محمد بن إسحاق بن يَسَار عن عبد الله بن أبى نَجيح ، عن مجاهد قال : لقد حُدّثتُ أنه كان على بعضهم من حداثة سنه وَضَح الوَرِق(٢) . قال ابن عباس فكانوا كذلك ليلَهم ونهارَهم فى عبادة الله ، يبكون ويستغيثون بالله ، وكانوا ثمانية نفر : مكسلمينا (٣) ، وكان أكبرهم وهو الذى كلم الملك عنهم ومجسيميلنينا (٤) وتمليخا ، ومرطوس ، وكشطونس ، وبيرونس وديموس ، ويطوس قالوش (٥) .

هكذا وقع فى هذه الرواية ، ويحتمل هذا من كلام ابن إسحاق ، أو من بيّنه وبيّنه ، فان الصحيح عن ابن عباس أنهم كانوا سبعة ، وهو ظاهر الآية . وقد تقدم عن شعيب الجبائى أن اسم كلبهم حمران . وفى تسميتهم بهذه الأسماء واسم كلبهم نظر فى صحته ، والله أعلم ؛ فان غالب ذلك مُتَلَقّى من أهل الكتاب ، وقد قال تعالى : (فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا) ، أى : سهلا هيّناً ؛ فان الأمر فى معرفة ذلك لايترتب عليه كبير فائدة ؛ (ولا تستفت فيهم منهم أحدا) ، أى : فانهم لا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم رجما بالغيب ، من غير استناد إلى كلام معصوم ، وقد جاءك الله يا محمد بالحق الذى لا شك فيه ولا مرية ، فهو المقدم الحاكم على كل ما تقدمه من الكتب والأقوال .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٥/١٥٠ .

(٢) لفظ الطبرى : « من حداثة أسنانه » . والوضح – بفتحتين – : البياض . والورق : الفضة .

(٣) فى المخطوطة : مكيليمنينا » . والمثبت من الطبرى ، والدر المنثور : ٤/٢١٧ .

(٤) كذا فى مخطوطة الأزهر . وفى تفسير الطبرى : بالحاء مكان الجيم .

(٥) فى المخطوطة : « وقابوس » ، بالواو . وهى غير ثابتة فى الطبرى ، وإثباتها يعنى أنهم تسعة .

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾

هذا إرشاد من الله لرسوله (١) — صلوات الله وسلامه عليه — إلى الأدب فيما إذا عزم على شيء ليفعله في المستقبل ، أن يرد ذلك إلى مشيئة الله عز وجل ، علام الغيوب ، الذي يعلم ما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون ، كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه : « قال سليمان ابن داود عليهما السلام : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة — وفي رواية : تسعين امرأة ، وفي رواية : مائة امرأة — تلد كل امرأة منهن غلاما يقاتل في سبيل الله . فقيل له — وفي رواية : فقال له الملك : قل : إن شاء الله ، فلم يقل ، فطاف بهن فلم تلد منهن إلا امرأة واحدة نصف إنسان ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : — والذي نفسي بيده ، لو قال : « إن شاء الله » ، لم يحنث ، وكان دَرَكاً لحاجته » وفي رواية : « ولقاتلوا في سبيل الله فرسانا أجمعون (٢) » .

وقد تقدم في أول السورة ذكرُ سبب نزول هذه الآية في قول النبي صلى الله عليه وسلم ، لما سئل عن قصة أصحاب الكهف : « غداً أجيبكم » . فتأخر الوحي خمسة عشر يوما ، وقد ذكرناه بطوله في أول السورة ، فأغنى عن إعادته .

وقوله : (واذكر ربك إذا نسيت) قيل : معناه : وإذا نسيت الاستثناء ، فاستثن عند ذكرك له ، قاله أبو العالية والحسن البصري (٣) .

وقال هشيم ، عن الأعمش ، عن مجاهد ، عن ابن عباس في الرجل يحلف ؟ قال : له أن يستثني ولو إلى سنة — وكان يقول : (واذكر ربك إذا نسيت) في ذلك . قيل للأعمش : سمعته من مجاهد ؟ قال : حدثني به ليث بن أبي سليم ، يرى ذهب كسائي (٣) هذا .

ورواه الطبراني من حديث أبي معاوية ، عن الأعمش ، به .

ومعنى قول ابن عباس : « أنه يستثني ولو بعد سنة » ، أي : إذا نسي أن يقول في حلفه أو كلامه « إن شاء الله » ، وذكر ولو بعد سنة ، فالسنّة له أن يقول ذلك ، ليكون آتيا بسُنّة الاستثناء ، حتى لو كان بعد الحنث ، قاله ابن جرير رحمه الله ونص على ذلك ، لا أن يكون رافعا لحنث اليمين ومسقطا للكفارة ، وهذا الذي قاله ابن جرير — رحمه الله — هو الصحيح ، وهو الأليق بحمل كلام ابن عباس عليه ، والله أعلم .

وقال عكرمة : (واذكر ربك إذا نسيت) ، أي : إذا غضبت ، وهذا تفسير باللازم .

---

(١) في المخطوطة : « من الله إلى رسوله — صلوات الله وسلامه عليه — إلى الأدب » . فاستبدلنا بـ « إلى » « اللام » ليستقيم السياق .

(٢) البخاري ، كتاب الأيمان ، باب « كيف كان يمين النبي صلى الله عليه وسلم » ١٦٢/٥ ، ١٦٣ ، وكتاب الكفارات باب « الاستثناء في الأيمان » ١٨٢/٥ . ومسلم ، كتاب الأيمان ، باب « الاستثناء » : ٨٧/٥ .

والدرك — بفتحتين — : اللحاق والوصول إلى الشيء .

(٣) تفسير الطبري : ١٥١/١٥ .

وقد قال الطبراني : حدثنا أحمد بن يحيى الحلواني ، حدثنا سعيد بن سليمان ، عن عباد بن العوام ، عن سفيان ابن حسين ، عن يعلى بن مسلم ، عن جابر بن زيد ، عن ابن عباس : (ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله ، واذكر ربك إذا نسيت) أن تقول : إن شاء الله .

وقال الطبراني : حدثنا محمد بن الحارث الجُبَيلي ، حدثنا صفوان بن صالح ، حدثنا الوليد بن مسلم ، عن عبدالعزيز ابن حصين ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس في قوله : (ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله . واذكر ربك إذا نسيت) أن تقول : إن شاء الله .

وروى الطبراني أيضا عن ابن عباس في قوله : (واذكر ربك إذا نسيت) الاستثناء ، فاستثن إذا ذكرت . وقال : هي خاصة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس لأحد منا أن يستثني إلا في صلة من يمينه . ثم قال : تفرّد به الوليد ، عن عبد العزيز بن الحصين .

ويحتمل في الآية وجه آخر ، وهو أن يكون الله عز وجل قد أرشد من نسي الشيء في كلامه إلى ذكر الله تعالى لأن النسيان منشؤه من الشيطان ، كما قال فتى موسى : (وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره) (١) ، وذكرُ الله تعالى يطرُد الشيطان ، فإذا ذهب الشيطان ذهب النسيان ، فذكر الله تعالى سبب للذكر ، ولهذا قال : (واذكر ربك إذا نسيت) .

وقوله : (وقل : عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً) ، أي : إذا سُئلت عن شيء لا تعلمه ، فاسأل الله فيه ، وتوجه إليه في أن يوفقك للصواب والرشد ، وقيل غير ذلك في تفسيره والله أعلم .

وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (٢٦)

هذا خبر من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بمقدار مالبث أصحاب الكهف في كهفهم ، منذ أرقدهم الله إلى أن بعثهم وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان ، وأنه كان مقداره ثلاثمائة وتسع سنين بالهلالية ، وهي ثلاثمائة سنة بالشمسية ، فان تفاوت ما بين كل مائة [سنة] بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين ، فلهذا قال بعد الثلاثمائة : (وازدادوا تسعا) .

وقوله : (قل الله أعلم بما لبثوا) ، أي : إذا سئلت عن لبثهم وليس عندك [علم] في ذلك وتوقيف من الله عز وجل ، فلا تتقدم فيه بشيء ، بل قل في مثل هذا : (الله أعلم بما لبثوا ، له غيب السموات والأرض) ، أي : لا يعلم ذلك إلا هو أو من أطلعه الله عليه من خلقه ، وهذا الذي قلناه ، عليه غير واحد من علماء التفسير كمجاهد ، وغير واحد من السلف والخلف :

(١) سورة الكهف ، آية : ٦٣ .

وقال قتادة فى قوله : (ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا) : هذا قول أهل الكتاب ، وقد رده الله تعالى بقوله : (قل : الله أعلم بما لبثوا) ، قال : وفى قراءة عبد الله : (وقالوا : ولبثوا) ، يعنى أنه قاله الناس(١) .

وهكذا قال — كما قال قتادة — مُطَرِّف بن عبد الله .

وفى هذا الذى زعمه قتادة نظر ، فإن الذى بأيدى أهل الكتاب أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة من غير تسع ، يعنون بالشمسية ، ولو كان الله قد حكى قولهم لما قال : (وازدادوا تسعا) ، وظاهر الآية إنما هو من إخبار الله ، لا حكاية عنهم : وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله . ورواية قتادة قراءةَ ابنِ مسعود منقطعة ، ثم هى شاذة بالنسبة إلى قراءة الجمهور فلا يحتجّ بها ، والله أعلم .

وقوله : (أبصر به وأسمع) ، أى : إنه لبصير بهم سميع لهم .

قال ابن جرير : وذلك فى معنى المبالغة فى المدح ، كأنه قيل : ما أبصره وأسمعه . وتأويل الكلام : ما أبصر الله لكل موجود ، وأسمعه لكل مسموع ، لا يخفى عليه من ذلك شىء(٢) .

ثم روى عن قتادة فى قوله : (أبصر به وأسمع) ، فلا أحد أبصرُ من الله ولا أسمع .

وقال ابن زيد : (أبصر به وأسمع) ، يرى أعمالهم ، ويسمع ذلك منهم سميعاً بصيراً .

وقوله : (ما لهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمه أحداً) ، أى : إنه تعالى هو الذى له الخلق والأمر ، الذى لا معقّب لحكمه ، وليس له وزير ولا نصير ولا شريك ولا مشير ، تعالى وتقدس .

وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ .

يقول تعالى آمراً رسوله بتلاوة كتابه العزيز وإبلاغه إلى الناس : (لا مبدل لكلماته) ، أى : لا مغير لها ولا محرف ولا مُؤوّل (٣) .

وقوله : (ولن تجد من دونه ملتحدا) — قال ابن جرير : يقول : « إن أنت يا محمد لم تتل ما أوحى إليك من كتاب ربك ، فإنه لا ملجأ لك من الله »(٤) . كما قال تعالى : (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس (٥)) ، وقال تعالى : (إن الذى فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد) (٦) ، أى : سائلك عما فرض عليك من إبلاغ الرسالة .

(١) تفسير الطبرى : ١٥/١٥٢ .
(٢) تفسير الطبرى : ١٥/١٥٣ ، ١٥٤ .
(٣) فى الطبعات السابقة : « ولا مزيل » مكان : « ولا مؤول » .
(٤) تفسير الطبرى : ١٥/١٥٤ .
(٥) سورة المائدة ، آية : ٦٧ .
(٦) سورة القصص ، آية : ٨٥ .

وقوله : (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) ، أى : اجلس مع الذين يذكرون الله ويهللونه ، ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه ، ويسألونه بكرة وعشيا من عباد الله ، سواء كانوا فقراء أو أغنياء أو أقوياء أو ضعفاء ، يقال : إنها نزلت فى أشراف قريش ، حين طلبوا من النبى صلى الله عليه وسلم أن يجلس معهم وحده ، ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه كبلال وعمار وصهيب [وخباب] وابن مسعود ، وليفرد أولئك بمجلس على حدة ، فنهاه الله عن ذلك ، فقال : (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى) ... الآية ، وأمره أن يصبر نفسه فى الجلوس مع هؤلاء ، فقال : (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) (١) .

قال مسلم فى صحيحه : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، حدثنا محمد بن عبد الله الأسدى ، عن إسرائيل ، عن المقدام ابن شُرَيح ، عن أبيه ، عن سعد ـ هو ابن أبى وقاص ـ قال : كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم ستة نفر ، فقال المشركون للنبى صلى الله عليه وسلم : اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا ! . قال : وكنت أنا وابن مسعود ، ورجل من هُذَيل ، وبلال ، ورجلان نسيت اسميهما (٢) ، فوقع فى نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله أن يقع ، فحدّث نفسه ، فأنزل الله عز وجل : (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) . انفرد بإخراجه مسلم(٣) دون البخارى .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن أبى التَّيَّاح قال : سمعت أبا الجَعْد يُحدّث عن أبى أمامة قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على قاص يقص ، فأمسك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قُص ، فلأَنْ أقعد غدوة إلى أن تشرق الشمس ، أحبّ إلىّ من أن أعتق أربع رقاب (٤) » .

وقال الإمام أحمد أيضا : حدثنا هاشم ، حدثنا شعبة ، عن عبد الملك بن مَيْسَرَةَ قال : سمعت كردوس بن قيس ـ وكان قاص العامة بالكوفة ـ يقول : أخبرنى رجل من أصحاب بدر : أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول : لأنْ أقعدَ فى مثل هذا المجلس أحبَ إلىّ من أن أعتق أربع رقاب . قال شعبة : فقلت : أىّ مجلس (٥) ؟ قال : كان قاصا (٦) .

وقال أبو داود الطيالسى فى مسنده : حدثنا محمد ، حدثنا يزيد بن أبان ، عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لأن أجالس قوما يذكرون الله من صلاة الغداة إلى طلوع الشمس ، أحَبّ إلىّ مما طلَعت عليه الشمس ، ولأن أذكر الله من صلاة العصر إلى غروب الشمس ، أحَب إلى من أن أعتق ثمانية من ولد إسماعيل ، دِيَةُ كل

---

(١) سورة الأنعام ، آية : ٥٢ .
(٢) كذا فى المخطوطة ، وفى صحيح مسلم : « لست أسميهما » .
(٣) مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب « فى فضل سعد بن أبى وقاص » : ١٢٧/٧ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٢٦١/٥ ، والحديث تكلة نخشى أن تكون قد سقطت من تفسير ابن كثير ، وهى : « وبعد العصر حتى تغرب الشمس ، أحب إلى من أن أعتق أربع رقاب » .
(٥) لفظ المسند : « فقلت : أى مجلس تعنى ؟ » .
(٦) مسند الإمام أحمد : ٤٧٤/٣ .

واحد منهم اثنا عشر ألفا : فحسبنا دياتهم ونحن فى مجلس أنس ، فبلغت ستة وتسعين ألفا ، وهاهنا من يقول : « أربعة من ولد إسماعيل » ، والله ما قال إلا ثمانية ، دية كل واحد منهم اثنا عشر ألفاً .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازى ، حدثنا أبو أحمد الزبيرى ، حدثنا عمرو بن ثابت ، عن على بن الأقمر ، عن الأغر أبى مسلم — وهو كوفى — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر برجل يقرأ سورة الكهف ، فلما رأى النبى صلى الله عليه وسلم سكت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هذا المجلس الذى أمرت أن أصبر نفسى معهم » .

هكذا رواه أبو أحمد ، عن عمرو بن ثابت ، عن على بن الأقمر ، عن الأغر مرسلا : وحدثناه يحيى بن المعلى ، عن منصور ، حدثنا محمد بن الصلت ، حدثنا عمرو بن ثابت ، عن على بن الأقمر ، عن الأغر أبى مسلم ، عن أبى هريرة وأبى سعيد قالا : جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورجل يقرأ سورة الحِجْر أو سورة الكهف ، فسكت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هذا المجلس الذى أمرت أن أصبر نفسى معهم (١) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن بكر ، حدثنا ميمون المَرَئِىّ ، حدثنا ميمون بن سياه ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله ، لا يريدون بذلك إلا وجهه ، إلا ناداهم مناد من السماء : أن قوموا مغفورا لكم ، قد بُدّلت سيئاتُكم حسنات (٢) » : تفرد به أحمد رحمه الله .

وقال الطبرانى : حدثنا إسماعيل بن الحسن ، حدثنا أحمد بن صالح ، حدثنا ابن وهب ، عن أسامة بن زيد ، عن أبى حازم ، عن عبد الرحمن بن سهل بن حُنَيف قال : نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو فى بعض أبياته : (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) ، فخرج يلتمسهم ، فوجد قوما يذكرون الله ، منهم ثائر الرأس ، وجافى الجلد ، وذو الثوب الواحد ، فلما رآهم جلس معهم وقال : الحمد لله الذى [جعل] فى أمتى مَنْ أمرنى الله أن أصبر نفسى معهم » .

عبد الرحمن هذا ، ذكره أبو بكر بن أبى داود فى الصحابة(٣) ؛ وأما أبوه فمن سادات الصحابة رضى الله عنهم .

وقوله : (ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا) — قال ابن عباس : « ولا تجاوزهم إلى غيرهم (٤) » : يعنى : تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة .

(ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا) ، أى : شغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا ، (وكان أمره فرطا) ، أى : أعماله وأفعاله سَفَه ، وتفريط وضياع ، ولا [تكن] مطيعا له ولا محبا لطريقته ، ولا تغبطه بما هو فيه ، كما قال تعالى : (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا ، لنفتنهم فيه ، ورزق ربك خير وأبقى) (٥) .

---

(١) أخرجه السيوطى فى الدر المنثور عن البزار : ٢١٩/٤ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ١٤٢/٣ .

(٣) لعبد الرحمن ترجمة فى أسد الغابة : ٤٥٧/٣ بتحقيقنا ، وقال ابن الأثير : « ذكره ابن أبى داود فى الصحابة ، ولا يصح . وإنما الصحبة لأبيه وأخيه أبى أمامة ، وله رؤية » . وذكر ابن الأثير الحديث المروى هنا .
وقد أخرجه الطبرى أيضاً عن الربيع بن سليمان ، عن ابن وهب ، بإسناده ، ينظر ١٥٥/١٥ .

(٤) تفسير الطبرى : ١٥٥/١٥ .

(٥) سورة طه ، آية : ١٣١ .

وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾

يقول تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم : وقل يا محمد للناس : هذا الذى جئتكم به من ربكم هو الحق الذى لا مرْيَةَ فيه ولا شك ، (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) : هذا من باب التهديد والوعيد الشديد ، ولهذا قال : (إنا أعتدنا) ، أى : أرصدنا (للظالمين) ، وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابه (ناراً أحاط بهم سرادقها) ، أى : سورها :

قال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا دَرّاج ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد الخدرى ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لِسُرَادِق النار أربعةَ جُدُر ، كثافة (١) كل جدار مثل مسافة (٢) أربعين سنة (٣) » :

وأخرجه الترمذى فى « صفة النار » ، وابن جرير فى تفسيره ، من حديث دراج أبى السَّمح ، به (٤) :

[وقال ابن جريج : قال ابن عباس : (أحاط بهم سرادقها) ، قال : حائط من نار] :

قال ابن جرير : حدثنى الحسين بن نصر والعباس بن محمد قالا : حدثنا أبو عاصم ، عن عبد الله بن أمية ، حدثنى محمد بن حُيَىّ بن يعلى ، عن صفوان بن يعلى ، عن يعلى بن أمية قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : البحر هو جهنم قال : فقيل له : [كيف ذلك ؟] ، فتلا هذه الآية — أو : قرأ هذه الآية — : (ناراً أحاط بهم سرادقها) ، ثم قال : والله لا أدخلها أبدا ، أو : مادمت حيا — ولاتصيبنى منها قطرة (٥) .

وقوله : (وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب ، وساءت مرتفقا) — قال ابن عباس : « المهل » : ماء غليظ مثل دردىّ الزيت (٦) .

وقال مجاهد : هو كالدم والقيح . وقال عكرمة : هو الشىء الذى انتهى حَرّه : وقال آخرون : هو كل شىء أذيب .

وقال قتادة : أذاب ابنُ مسعود شيئا من الذهب فى أخدود ، فلما انماع وأزبد قال : هذا أشبه شىء بالمهل :

وقال الضحاك : ماء جهنم أسود وهى سوداء وأهلها سود .

---

(١) لفظ المسند والترمذى : « كثف » — بكسر ففتح .
(٢) لفظ المسند : « مثل مسيرة » . و « مثل » غير ثابتة فى الترمذى .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٣/٢٩ .
(٤) تحفة الأحوذى ، أبواب صفة جهنم ، باب « ما جاء فى صفة شراب أهل النار » ، الحديث ٢٧١٠ : ٧/٣٠٥-٣٠٧ . وتفسير الطبرى : ١٥/١٥٧ .
(٥) تفسير الطبرى : ١٥/١٥٧ .
(٦) تفسير الطبرى : ١٥/١٥٨ .

وهذه الأقوال ليس شيء منها ينفي الآخر ، فإن المهل يجمع هذه الأوصاف الرذيلة كلها ، فهو أسود مُنْتِن غليظ حار ، ولهذا قال : (يشوى الوجوه) ، أى : من حره ، إذا أراد الكافر أن يشربه وقرّبه من وجهه ، شواه حتى يسقط جلدُ وجهه فيه ، كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد ، بإسناده المتقدم فى سُرَادِق النار ، عن أبى سعيد الخدرى ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ماء كالمهل — قال : كعَكَر الزيت فإذا قربه إليه ، سقطت فروة وجهه فيه (١) » وهكذا رواه الترمذى فى « صفة النار » من جامعه ، من حديث رشدين بن سعد ، عن عمرو بن الحارث ، عن دراج ، به ؛ ثم قال : لا نعرفه إلا من حديث « رشدين » ، وقد تكلم فيه من قبل حفظه(٢) . هكذا قال ، وقد رواه الإمام أحمد كما تقدم عن حسن الأشيب ، عن ابن لهيعة ، عن درّاج ، والله أعلم .

وقال عبد الله بن المبارك ، وبقية بن الوليد ، عن صفوان بن عمرو ، عن عبد الله بن بُسْر ، عن أبى أمامة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله : (ويسقى من ماء صديد يتجرعه) ، قال : « يقرب إليه ، فيتكرّهه ، فإذا قرب منه شوَى وجهَه ووقعت فَرْوةُ رأسه ، فإذا شربه قطع أمعاءه ، يقول الله تعالى : (وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل ، يشوى الوجوه بئس الشراب (٣)) » .

وقال سعيد بن جبير : إذا جاع (٤) أهل النار استغاثوا بشجرة الزقوم ، فأكلوا منها فاختلست جلود وجوههم ، فلو أنّ مارا مرّ بهم [يعرفهم] ، لعرف جلود وجوههم فيها ، ثم يصب عليهم العطش فيستغيثون ، فيغاثون بماء كالمهل ، وهو الذى قد انتهى حره ، فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التى قد سقطت عنها الجلود (٥) .

ولهذا قال تعالى بعد وصفه هذا الشرابَ بهذه الصفات القبيحة : (بئس الشراب) ، أى : بئس هذا الشراب ، كما قال فى الآية الأخرى : (وسُقُوا ماء حميما فقطع أمعاءهم(٦)) ، وقال تعالى : (تُسقَى من عين آنية(٧)) ، أى : حارة ، كما قال : (وبين حميم آن (٨)) .

(وساءت مرتفقا) ، [أى : وساءت النار] منزلا ومَقيلا ومجتمعا وموضعا للارتفاق ، كما قال فى الآية الأخرى : (إنها ساءت مستقرا ومقاما (٩)) .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٣/٧٠ ، ٧١ .
(٢) لفظ الترمذى — كما فى تحفة الأحوذى — : « وفى رشدين بن سعد مقال » . وقد سبق تخريج حديث الترمذى من قريب .
(٣) تقدم الحديث فى سورة إبراهيم ، عند تفسير الآية ١٧ ، وخرجناه هنالك ، ينظر : ٤/٤٠٤ ، ٤٠٥ . كما ينظر تفسير الطبرى : ١٥/١٥٨ .
(٤) لفظ الطبرى : « إذا جاء » .
(٥) تفسير الطبرى : ١٥/١٥٨ ، ١٥٩ .
(٦) سورة محمد ، آية : ١٥ .
(٧) سورة الغاشية ، آية : ٥ .
(٨) سورة الرحمن ، آية : ٤٤ .
(٩) سورة الفرقان ، آية : ٦٦ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۚ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء ، ثنّى بذكر السعداء ، الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين فيما جاءوا به ، وعملوا بما أمروهم به من الأعمال الصالحة ، فلهم (جنات عَدْن) ، والعدن : الإقامة .

(تجرى من تحتهم الأنهار) ، أى : من تحت غرفهم ومنازلهم ، قال فرعون : (وهذه الأنهار تجرى من تحتى)(١)

(يحلون)، أى : من الحلية (فيها من أساور من ذهب) ، وقال فى المكان الآخر : (ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير) (٢) ، وفصّله هاهنا فقال : (ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق) ، فالسندس : لباس رفاع رقاق كالقمصان وما جرى مجراها ، وأما الإستبرق فغليظ الديباج وفيه بريق .

وقوله : (متكئين فيها على الأرائك) ، الاتكاء قيل : الاضطجاع ، وقيل : التربع فى الجلوس ، وهو أشبه بالمراد هاهنا ، ومنه الحديث الصحيح : « أما أنا فلا آكل متكئا (٣) » ، فيه القولان .

والأرائك : جمع أريكة ، وهى السرير تحت الحَجَلة ، والحَجَلة كما يعرفه الناس فى زماننا هذا بالباشخاناه (٤) ، والله أعلم .

قال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن قتادة : (على الأرائك) ، قال : هى الحجال ــ قال معمر : وقال غيره : السُّرُر فى الحِجال .

وقوله : (نعم الثواب وحسنت مرتفقا) ، [أى : نعمت الجنة ثوابا على أعمالهم ، وحسنت مرتفقا) ، أى : حسنت منزلا ومقيلا ومقاما ، كما قال فى النار : (بئس الشراب وساءت مرتفقا]) : وهكذا قابل بينهما فى سورة الفرقان فى قوله : (إنها ساءت مستقرا ومقاما) (٥) ، ثم ذكر صفات المؤمنين فقال : (أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ، ويلقون فيها تحية وسلاما : خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما) (٦) .

---

(١) سورة الزخرف ، آية : ٥١ .

(٢) سورة فاطر ، آية : ٣٣ .

(٣) البخارى ، كتاب الأطعمة ، باب « الأكل متكئاً » : ٧/٩٣ . وسنن أبى داود ، كتاب الأطعمة ، باب « ما جاء فى الأكل متكئاً » ، الحديث ٣٧٦٩ : ٣/٣٤٨ . وتحفة الأحوذى أبواب الأطعمة ، باب « ما جاء فى كراهية الأكل متكئاً » ، الحديث ١٩٨٠ : ٥/٥٥٧ ، ٥٥٩ ، وقال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح » . وابن ماجه فى كتاب الأطعمة ، باب « الأكل متكئاً » ، الحديث ٣٢٦٢ : ٢/١٠٨٦ . ومسند الإمام أحمد : ٤/٣٠٨ ، ٣٠٩ .

(٤) وتعرف فى زماننا هذا بالناموسية .

(٥) سورة الفرقان ، آية : ٦٦ .

(٦) سورة الفرقان ، آية : ٧٥ ، ٧٦ .

* وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾

يقول تعالى بعد ذكر المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين ، وافتخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم ، فضرب لهم مثلا برجلين ، جعل الله (لأحدهما جنتين) ، أى : بستانين من أعناب ، محفوفتين بالنخل المحدقة فى جنباتهما ، وفى خلالها الزروع ، وكل من الأشجار والزروع مثمر مُقبِلٌ فى غاية الجودة ، ولهذا قال : (كلتا الجنتين آتت أكلها ، أى : أخرجت ثمرها ، ولم تظلم منه شيئاً) ، أى : ولم تنقص منه شيئاً ، (وفجرنا خلالهما نهرا) ، أى : والأنهار تتخرق فيها هاهنا وهاهنا .

(وكان له ثمر) ، قيل : المراد به المال . رُوى عن ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة . وقيل : الثمار (١) : وهو أظهر هاهنا ، ويؤيده القراءة الأخرى: (وكان له ثُمْر) بضم الثاء وتسكين الميم ،فيكون جمع ثَمَرَة ، كخَشَبَة وخُشْب(٢)، وقرأ آخرون (ثَمَر) — بفتح الثاء والميم (٣) .

فقال ، أى صاحب هاتين [الجنتين] (لصاحبه وهو يحاوره) ، أى : يجادله ويخاصمه ، يفتخر عليه ويترأس : (أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا) ، أى : أكثر خدما وحشما وولدا .

قال قتادة : تلك — والله — أمنية الفاجر : كثرة المال وعزة النفر (٤) .

وقوله : (ودخل جنته وهو ظالم لنفسه) ، أى : بكفره وتمرده وتكبره وتجبره وإنكاره المعاد ، (قال : ما أظن أن تبيد هذه أبدا) ، وذلك اغترار منه ، لمّا رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطردة فى جوانبها وأرجائها ، ظن أنها لا تفنى ولا تفرُغ ولا تَهلك ولا تتلَف ، وذلك لقلة عقله ، وضعف يقينه بالله ، وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها ، وكفره بالآخرة ، ولهذا قال : (وما أظن الساعة قائمة) ، أى : كائنة ، (ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيراً منها منقلبا)، أى : ولئن كان معادٌ ورجعة ومَرَدٌ إلى الله ، ليكونَنّ لى هناك أحسن من هذا لأنى مُحْظًى(٥) عند ربى ، ولولا كرامى عليه ما أعطانى هذا ، كما قال فى الآية الأخرى : (ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى(٦)) : وقال :

---

(١) ينظر هذه الآثار فى تفسير الطبرى : ١٥/١٦٠ ، ١٦١ .

(٢) فى اللسان : الخشبة : ما غلظ من العيدان ، والجمع خشب ، مثل : شجرة وشجر ، وخشب [يعنى بضمتين] ، وخشب [بضم فسكون] ، وخشبان [بضم فسكون كذلك] .

(٣) ينظر القراءات فى البحر المحيط لأبى حيان : ٦/١٢٥ .

(٤) تفسير الطبرى : ١٥/١٦١ .

(٥) فى المخطوطة : « لأنى محضى » ، بالضاد . ولعل الصواب ما أثبتناه . وفى اللسان : « أحظيت فلاناً على فلان ، من الحظوة والتفضيل ، أى : فضلته عليه » .

(٦) سورة فصلت ، آية : ٥٠ .

(أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال : لأوتين مالا وولدا(١)) ، أى : فى الدار الآخرة ، تألىّ على الله عز وجل .وكان سبب نزولها فى العاص بن وائل ، كما سيأتى بيانه ، فى موضعه إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة :

قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾

يقول تعالى مخبرا عما أجابه به صاحبه المؤمن ، واعظاً له وزاجرا عما هو فيه من الكفر بالله والاغترار : (أكفرت بالذى خلقك من تراب ، ثم من نطفة ، ثم سواك رجلا) ؟ وهذا إنكار وتعظيم لما وقع فيه من جحود ربه ، الذى خلقه وابتدأ خلق الإنسان من طين ، وهو آدم ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، كما قال تعالى : (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ، ثم يحييكم(٢)) ، أى : كيف تجحدون ربكم ، ودلالته عليكم ظاهرة جلية ، كل أحد يعلمها من نفسه ، فإنه ما من أحد من المخلوقات إلا ويعلم أنه كان معدوما ثم وجد ، وليس وجوده من نفسه ولا مستنداً إلى شئ من المخلوقات ، لأنه بمثابته ، فعُلِم إسناد إيجاده إلى خالقه ، وهو الله ، لا إله إلا هو ، خالق كل شئ ، ولذا قال : (لكنا هو الله ربى) ، أى : أنا لا أقول بمقالتك ، بل أعترف لله بالربوبية والوحدانية ، (ولا أشرك بربى أحداً) ، أى : بل هو الله المعبود وحده لا شريك له :

ثم قال : (ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله ، إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا) : هذا تحضيض وحث على ذلك ، أى : هلا إذ أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها حمدت الله على ما أنعم به عليك ، وأعطاك من المال والولد ما لم يُعْط غيرك ، وقلت : (ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله) ، ولهذا قال بعض السلف : من أعجبه شئ من حاله أو ولده أو ماله ، فليقل : (ما شاء الله لا قوة إلا بالله) . وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة ، وقد روى فيه حديث مرفوع أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده :

حدثنا جرّاح بن مَخْلَد ، حدثنا عمر بن يونس ، حدثنا عيسى بن عون ، حدثنا عبد الملك بن زرارة ، عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل أو مال أو ولد ، فيقول : (ما شاء الله لا قوة إلا بالله) فيرى فيه آفة دون الموت » . وكان يتأول هذه الآية : (ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله) :

قال الحافظ أبو الفتح الأزدى : عيسى بن عون ، عن عبد الملك بن زرارة ، عن أنس : لا يصح حديثه :

---

(١) سورة مريم ، آية : ٧٧ .

(٢) سورة البقرة ، آية : ٢٨ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة وحجاج ، حدثني شعبة ، عن عاصم بن عبيد الله ، عن عبيد مولى ابي رُهْم ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة ؟ لا قوة إلا بالله » . تفرد به أحمد (١) .

وقد ثبت في الصحيح ، عن أبي موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : « ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله(٢) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا بكر بن عيسى(٣) ، حدثنا أبو عوانة ، عن أبي بَلْج ، عن عَمْرو بن ميمون قال : قال أبو هريرة : قال لي نبي الله صلى الله عليه وسلم : « يا أبا هريرة ، أدلك(٤) على كنز من كنوز الجنة تحت العرش ؟ قال : قلت : نعم ، فداك أبي وأمي . قال : أن تقول : لا قوة إلا بالله – قال أبو بَلْج : وأحسب أنه قال : فإن الله يقول: أسلم عبدي واستسلم . قال: فقلت لعمرو– قال أبو بَلْج: قال عَمْرو : قلت لأبي هريرة : لا حول ولا قوة إلا بالله ؟ فقال : لا ، إنها في سورة الكهف : (ولولا إذ دخلت جنتك قلت : ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله(٥)) .

وقوله : (فعسى ربي أن يؤتين خيرا من جنتك) ، أي : في الدار الآخرة ، (ويرسل عليها) ، أي : على جنتك في الدنيا التي ظننت [أنها] لا تبيد ولا تفنى ، (حسبانا من السماء) – قال ابن عباس ، والضحاك ، وقتادة ، ومالك عن الزهري : أي عذاباً من السماء .

والظاهر أنه مطر عظيم مزعج ، يقلع زرعها وأشجارها ، ولهذا قال : (فتصبح صعيدا زَلقا) ، أي : بلقعا ترابا أملس ، لا يثبت فيه قَدَم .

وقال ابن عباس : كالجُرُز ، الذي لا ينبت شيئا(٦) .

وقوله : (أو يصبح ماؤها غورا) ، أي : غائرا في الأرض ، وهو ضد النابع الذي يطلب وجه الأرض ، فالغائر يطلب أسفلها ، كما قال تعالى : (قل : أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا ، فمن يأتيكم بماء معين(٧)) ، أي : جار وسائح . وقال هاهنا : (أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا) ، والغور : مصدر بمعنى غائر ، وهو أبلغ منه ، كما قال الشاعر (٨) :

تَظَلّ جيادُهُ نَوْحاً عَلَيه * تُقَلّدُهُ أعِنَّتَها صُفُوفا

بمعنى : نائحات عليه .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٢/٤٦٩ .

(٢) البخاري ، كتاب الدعوات ، باب « الدعاء إذا علا عقبة » : ٨/١٠١ ، ١٠٢ . ومسلم ، كتاب الذكر ، باب « استحباب خفض الصوت بالذكر » : ٨/٧٣ .

(٣) في المسند : « بكير » . والمثبت عن مخطوطة الأزهر ، والخلاصة .

(٤) في المخطوطة : « ألا أدلك » . و « ألا » غير ثابتة في المسند . والسياق يقضي بحذفها .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٢/٣٣٥ .

(٦) تفسير الطبري : ١٥/١٦٣ .

(٧) سورة الملك ، آية : ٣٠ .

(٨) البيت في تفسير الطبري : ١٥/١٦٣ .

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾

يقول تعالى : (وأحيط بثمره) : بأمواله ، أو بثماره على القول الآخر . والمقصود أنه وقع بهذا الكافر ما كان يحذر ، مما خوّفه به المؤمن من إرسال الحسبان على جنته ، التى اغتر بها وألهته عن الله عز وجل ، (فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها) ـ قال قتادة : يُصَفّق كفيه متأسفا متلهفا على الأموال التى أذهبها عليها . (ويقول : ياليتنى لم أشرك بربى أحدا . ولم تكن له فئة) ، أى : عشيرة أو ولد ، كما افتخر بهم واستعز ، (ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا . هنالك الولاية لله الحق) ـ اختلف القراء هاهنا ، فمنهم من يقف على قوله : (وما كان منتصرا هنالك) ، أى : فى ذلك الموطن الذى حل به عذاب الله ، فلا منقذ له منه ، ويبتدئ : (الولايةُ لله الحق) ، ومنهم من يقف على : (وما كان منتصرا) ، ويبتدئ بقوله : (هنالك الولاية لله الحق) .

ثم اختلفوا فى قراءة (الولاية) ، فمنهم من فتح الواو ، فيكون المعنى : هنالك الموالاة لله ، أى : هنالك كل أحد من مؤمن أو كافر ، يرجع إلى الله وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب ، كقوله : (فلما رأوا بأسنا، قالوا : آمنا بالله وحده ، وكفرنا بما كنا به مشركين)(١) ، وكقوله إخباراً عن فرعون : (حتى إذا أدركه الغرق قال : آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين . آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين)(٢) .

ومنهم من كسر الواو من (الوِلاية) ، أى : هنالك الحكم لله الحق .

ثم منهم من رفع (الحق) ، على أنه نعت للولاية ، كقوله تعالى : (الملك يومئذ الحق للرحمن ، وكان يوما على الكافرين عسيرا)(٣) .

ومنهم من خفض القاف ، على أنه نعت لله عز وجل ، كقوله : (ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم، وهو أسرع الحاسبين)(٤) ولهذا قال تعالى : (هو خير ثواباً) ، أى : جزاء (وخير عقبا) ، أى : الأعمال التى تكون لله عز وجل ثوابها خير ، وعاقبتها حميدة رشيدة ، كلها خير .

---

(١) سورة غافر ، آية : ٨٤ .
(٢) سورة يونس ، آية : ٩٠ ، ٩١ .
(٣) سورة الفرقان ، الآية : ٢٦ .
(٤) سورة الأنعام ، الآية : ٦٢ .

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَٰحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ۝ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَالْبَٰقِيَٰتُ الصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ۝﴾

يقول تعالى : (واضرب) يا محمد للناس (مثل الحياة الدنيا)، فى زوالها وفنائها وانقضائها، (كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض)، أى : ما فيها من الحب، فشب وحسن، وعلاه الزهر والنور والنضرة، ثم بعد هذا كله (أصبح هشيما) يابسا، (تذروه الرياح)، أى : تفرقه وتطرحه ذات اليمين وذات الشمال، (وكان الله على كل شيء مقتدرا)، أى : هو قادر على هذه الحال وهذه الحال، وكثيرا ما يضرب الله مثل الحياة الدنيا بهذا المثل كما فى سورة يونس : (إنما مثل الحياة الدنيا، كماء أنزلناه من السماء، فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت) ... الآية (١) وقال فى سورة الزمر : (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء، فسلكه ينابيع فى الأرض، ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ثم يهيج فتراه مصفرا، ثم يجعله حطاماً، إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب(٢)) وقال فى سورة الحديد : (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة، وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا، ثم يكون حطاماً، وفى الآخرة عذاب شديد، ومغفرة من الله ورضوان، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور (٣))؛

وفى الحديث الصحيح : «الدنيا حلوة خضرة(٤)» ؛

وقوله : (المال والبنون زينة الحياة الدنيا)، كقوله : (زين للناس حب الشهوات، من النساء والبنين، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسومة والأنعام والحرث، ذلك متاع الحياة الدنيا، والله عنده حسن المآب) (٥) وقال تعالى : (إنما أموالكم وأولادكم فتنة، والله عنده أجر عظيم) (٦)، أى : الإقبال عليه والتفرغ لعبادته، خير لكم من اشتغالكم [بهم]، والجمع لهم، والشفقة المفرطة عليهم، ولهذا قال : (والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا) — قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وغير واحد من السلف : (الباقيات الصالحات) : الصلوات الخمس ؛

وقال عطاء بن أبى رباح، وسعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس : (الباقيات الصالحات) : سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر (٧).

---

(١) سورة يونس، الآية : ٢٥

(٢) سورة الزمر، الآية : ٢١.

(٣) سورة الحديد، الآية : ٥٠.

(٤) تحفة الأحوذى، أبواب الفتن، باب «ما أخبر النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه بما هو كائن إلى يوم القيامة»، الحديث ٢٢٨٦ : ٦/٤٢٨ – ٤٣٢، وقال الترمذى : «هذا حديث حسن». وابن ماجه، كتاب الفتن، باب «فتنة النساء»، الحديث ٤٠٠٠ : ٢/١٣٢٥. ومسند الإمام أحمد : ٣/٧، ١٩، ٢٢، ٤٦، ٦٢.

(٥) سورة آل عمران، آية : ١٤.

(٦) سورة التغابن، آية : ١٥.

(٧) ينظر هذه الآثار فى تفسير الطبرى : ١٥/١٥٦.

وهكذا سُئل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه ، عن (الباقيات الصالحات) ، ماهى ؟ فقال : هى لا إله إلا الله ، وسبحان الله ، والحمد لله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . رواه الإمام أحمد :

حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ ، حدثنا حيوة ، أنبأنا أبو عقيل ، أنه سمع الحارث مولى عثمان رضى الله عنه يقول : جلس عثمان يوما وجلسنا معه ، فجاءه المؤذن ، فدعا بماء فى إناء ، أظنه أنه سيكون فيه مُدّ ، (١) ، فتوضأ ثم قال : رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ وُضوئى هذا ، ثم قال : من توضأ وضوئى هذا ، ثم قام فصلى صلاة الظهر ، غُفر له ما كان بينها وبين الصبح ، ثم صلى العصر غُفر له مابينها وبين الظهر ، ثم صلى المغرب غُفر له مابينها وبين العصر ، ثم صلى العشاء غُفر له مابينها وبين المغرب ، ثم لعله يبيت يتمرّغ ليلته، ثم إن قام فتوضأ وصلى صلاة الصبح غُفر له مابينها وبين صلاة العشاء ، وهى الحسنات يذهبن السيئات . قالوا : هذه الحسنات ، فما الباقيات الصالحات ياعثمان؟ قال : هى لاإله إلا الله ، وسبحان الله ، والحمد لله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » تفرد به (٢) :

وروى مالك ، عن عمارة بن عبد الله بن صياد ، عن سعيد بن المسيب قال : (الباقيات الصالحات) : سبحان الله ، والحمد لله ، ولاإله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله (٣) .

وقال محمد بن عجلان ، عن عمارة قال : سألنى سعيد بن المسيب عن (الباقيات الصالحات) ، فقلت : الصلاة والصيام . قال : لم تصب . فقلت : الزكاة والحج . فقال : لم تصب ، ولكنهن الكلمات الخمس : لاإله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله ، والحمد لله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله (٤) :

وقال ابن جريج : أخبرنى عبد الله بن عثمان بن خُثَيم عن نافع بن سرجس ، أنه أخبره أنه سأل ابن عمر عن (الباقيات الصالحات) ، قال : لاإله إلا الله ، والله أكبر [وسبحان الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . قال ابن جريج : وقال عطاء ابن أبى رباح مثل ذلك :

وقال مجاهد : (الباقيات الصالحات) : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله والله أكبر] :

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن الحسن وقتادة فى قوله : (والباقيات الصالحات) ، قال : لاإله إلا الله ، والله أكبر ، والحمد لله ، وسبحان الله ، هُنّ الباقيات الصالحات .

قال ابن جرير : وجدت فى كتابى عن الحسن بن الصباح البزار ، عن أبى نصر التمّار ، عن عبد العزيز بن مسلم ، عن محمد بن عجلان ، عن سعيد المقبرى ، عن أبيه ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سبحان الله ، والحمد لله ، ولاإله إلا الله ، والله أكبر ، مِنَ الباقيات الصالحات (٥) » .

---

(١) المد – بضم الميم – : كيل ، وهو رطل وثلث عند أهل الحجاز .

(٢) مسند الإمام أحمد : ١/٧١ . ورواه الطبرى عن ابن حميد ، عن عبد الله بن يزيد أبى عبد الرحمن المقرئ ، بإسناده . تفسير الطبرى : ١٥/١٦٥ ، ١٦٦ .

(٣) تفسير الطبرى : ١٥/١٦٦ .

(٤) تفسير الطبرى : ١٥/١٦٧ .

(٥) تفسير الطبرى : ١٥/١٦٦ .

قال : وحدثني يونس ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرنا عمرو بن الحارث ، أن درّاجا أبا السمح حدّثه ، عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : استكثروا من الباقيات الصالحات . قيل : وما هي يارسول الله ؟ قال : الملة . قيل : وما هي يارسول الله ؟ قال : التكبير ، والتهليل ، والتسبيح ، والحمد لله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله (١) ؛ وهكذا رواه أحمد ، من حديث دراج ، به (٢) .

وبه قال ابن وهب : أخبرني أبو صخر أن عبد الله بن عبد الرحمن ، مولى سالم بن عبد الله حدّثه قال : أرسلني سالم إلى محمد بن كعب القرظي ، فقال : قل له : القَنِي عند زاوية القبر ، فإن لي إليك حاجة . قال : فالتقيا ، فسلم أحدهما على الآخر ، ثم قال سالم : ماتعد الباقيات الصالحات ؟ فقال : لاإله إلا الله، وسبحان الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . فقال له سالم : متى جعلت فيها « لاحول ولا قوة إلا بالله » ؟ فقال : مازلت أجعلها . قال : فراجعه مرتين أو ثلاثا ، فلم ينزع ، قال: فأثبت (٣) . قال سالم: أجل فأثْبِتْ ، فإن أبا أيوب الأنصاري حدثني أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول : « عرج بي إلى السماء فأريتُ إبراهيم عليه السلام ، فقال : ياجبريل ، من هذا معك ؟ فقال : محمد . فرحب بي وسهّل ، ثم قال : مر أمتك فلتكثر من غراس الجنة ، فإن تربتها طيّبة ، وأرضها واسعة ، فقلت : وما غراس الجنة قال : لاحول ولا قوة إلا بالله (٤) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن يزيد ، عن العوام ، حدثني رجل من الأنصار ، من آل النعمان بن بشير ، عن النعمان بن بشير ، قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحن في المسجد بعد صلاة العشاء ، فرفع بصره إلى السماء ثم خفض ، حتى ظننا أنه قد حدث في السماء شيء ، ثم قال : أما إنه سيكون بعدي أمراء ، يكذبون ويظلمون ، فمن صدقهم بكذبهم ومالأهم على ظلمهم ، فليس مني ولا أنا منه ، ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يمالئهم ، فهو مني وأنا منه . ألا وإن « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » هُنّ الباقيات الصالحات » (٥)

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبان، حدثنا يحيى بن أبي كثير عن زيد، عن أبي سلام [عن (٦)] مولى لرسول الله صلى الله عليه وسلم [أن رسول الله صلى الله عليه وسلم] قال : « بخ بخ لخمس ماأثقلهن في الميزان : لاإله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله ، والحمد لله ، والولد الصالح يتوفى فيحتسبه والده . وقال : بخ بخ لخمس ، من لقي الله مستيقنا بهن ، دخل الجنة : يؤمن بالله ، واليوم الآخر ، وبالجنة والنار ، وبالبعث بعد الموت ، وبالحساب (٧) »

وقال الإمام أحمد : حدثنا روح ، حدثنا الأوزاعي ، حدثنا حسان بن عطية قال : كان شداد بن أوس رضي الله عنه [في سفر] فنزل منزلا ، فقال لغلامه : « ائتنا بالشّفرة نعبث بها » . فأنكرت عليه ، فقال : ماتكلمت بكلمة منذ

---

(١) تفسير الطبري : ١٥/١٦٧ .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٣/٧٥ .
(٣) في المخطوطة : « فأبيت » ، بالباء والياء . والمثبت من الطبري .
(٤) تفسير الطبري : ١٥/١٦٦ . وقد أخرج الإمام أحمد ما رواه سالم عن أبي أيوب الأنصاري ، المسند : ٥/٤١٨ .
(٥) مسند الإمام أحمد : ٤/٢٦٧ ، ٢٦٨ .
(٦) ما بين القوسين من المسند .
(٧) مسند الإمام أحمد : ٢٣٧ .

أسلمت إلا وأنا أخطمها وأزمها غير كلمتى هذه : فلا تحفظوها على ، واحفظوا ماأقول لكم : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا كنز الناس الذهب والفضة فاكنزوا هؤلاء الكلمات : اللهم إنى أسألك الثبات فى الأمر ، والعزيمة على الرشد ، وأسألك شكر نعمتك ، وأسألك حسن عبادتك ، وأسألك قلباً سليما ، وأسألك لسانا صادقا ، وأسألك من خير ماتعلم ، وأعوذ بك من شر ماتعلم ، وأستغفرك لما تعلم ، إنك أنت علام الغيوب »(١) .

ثم رواه أيضاً والنسائى ، من وجه آخر ، عن شداد ، بنحوه .

وقال الطبرانى : حدثنا عبد الله بن ناجية ، حدثنا محمد بن سعد العوفى ، حدثنى أبى ، حدثنا عمى الحسين ، عن يونس ابن نفيع الجدلى ، عن سعد بن جنادة رضى الله عنه قال : كنت فى أول مَنْ أتى النبى صلى الله عليه وسلم من أهل الطائف ، فخرجت من أهلى من السراة غُدوة ، فأتيت منى عند العصر ، فتصاعدت فى الجبل ثم هبطت ، فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فأسلمت ، وعلمنى : (قل هو الله أحد) ، و (إذا زلزلت) ، وعلمنى هؤلاء الكلمات : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، وقال : « هن الباقيات الصالحات » . وبهذا الإسناد : « من قام من الليل فتوضأ ومضمض فاه ، ثم قال : سبحان الله مائة مرة ، والحمد لله مائة مرة ، والله أكبر مائة مرة ، ولا إله إلا الله مائة مرة ــ غُفرت ذنوبه إلا الدماء فإنها لاتبطل » .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس قوله : (والباقيات الصالحات) ، قال : هى ذكر الله ، قول : لا إله إلا الله والله أكبر ، وسبحان الله ، والحمد لله ، وتبارك الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وأستغفر الله ، وصلى الله على رسول الله ، والصيام ، والصلاة ، والحج ، والصدقة ، والعتق ، والجهاد ، والصلة ، وجميع أعمال الحسنات . وهن الباقيات الصالحات ، التى تبقى لأهلها فى الجنة ، ما دامت السموات والأرض (٢) .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : هنّ الكلام الطيب .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هى الأعمال الصالحة كلها . واختاره ابن جرير رحمه الله .

وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَجْعَلَ لَكُم مَوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾

يخبر تعالى عن أهوال يوم القيامة ، وما يكون فيه من الأمور العظام ، كما قال تعالى : (يوم تمور السماء مورا • وتسير الجبال سيرا)(٣) ، أى : تذهب من أماكنها وتزول ، كما قال : (وترى الجبال تحسبها جامدة ، وهى تمر مر السحاب)(٤)

(١) تقدم الحديث فى سورة براءة ، عند تفسير الآية ٣٤ ، ينظر : ٨٢/٤ ، وقد خرجناه هنالك ، وشرحنا غريبه .

(٢) تفسير الطبرى : ١٥/١٦٧ .

(٣) سورة الطور ، آية : ٩ ، ١٠ .

(٤) سورة النمل ، آية : ٨٨ .

وقال تعالى : (وتكون الجبال كالعهن المنفوش)(١) ، وقال : (ويسألونك عن الجبال فقل : ينسفها ربي نسفاً . فيذرها قاعاً صفصفاً . لا ترى فيها عوجا ولا أمتا (٢)) ، يقول تعالى : إنه تذهب الجبال ، وتتساوى المهاد ، وتبقى الأرض (قاعاً صفصفاً) ، أي : سطحاً مستويا لا عوج فيه ، (ولا أمتا) ، أي : لا وادىَ ولا جَبَل ؛ ولهذا قال تعالى : (وترى الأرض بارزة) ، [أي : بادية ظاهرة ، ليس فيها مَعْلَم لأحد ولا مكان يوارى أحدا ، بل الخلق كلهم ضاحون لربهم لا تخفى عليه منهم خافية .

قال مجاهد ، وقتادة : (وترى الأرض بارزة)] لا خَمَر (٣) فيها ولا غَيَابة – قال قتادة : لا بناء ولا شجر (٤) .

وقوله : (وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا) ، أي : وجمعناهم ، الأولين منهم والآخرين ، فلم نترك منهم أحدا ، لا صغيرا ولا كبيرا ، كما قال : (قل : إنّ الأولين والآخرين : لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم)(٥) ، وقال : (ذلك يومٌ مجموع له الناس وذلك يوم مشهود)(٦) .

وقوله : (وعرضوا على ربك صفا) ، يحتمل أن يكون المراد : أنّ جميع الخلائق يقومون بين يدى الله صفا واحدا ، كما قال تعالى : (يوم يقوم الروح والملائكة صفا ، لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا) (٧) ، ويحتمل أنهم يقومون صفوفا صفوفا ، كما قال : (وجاء ربك والملك صفا صفا)(٨) .

وقوله (لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة) : هذا تقريعٌ للمنكرين للمعاد ، وتوبيخ لهم على رءوس الأشهاد ، ولهذا قال مخاطبا لهم : (بل زعمتم أن لن نجعلَ لكم موعدا) ، أي : ما كان ظنكم أن هذا واقع بكم ، ولا أن هذا كائن .

وقوله : (ووضع الكتاب) ، أي : كتاب الأعمال ، الذى فيه الجليل والحقير ، والفَتيل(٩) والقطمير ، والصغير والكبير ، (فترى المجرمين مشفقين مما فيه) ، أي : من أعمالهم السيئة وأفعالهم القبيحة ، (ويقولون : يا ويلتنا) ، أي : يا حسرتنا وويلنا على مافرطنا فى أعمارنا ، (ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) ، أي : لا يترك ذنبا صغيرا ولا كبيرا ولا عملا وإن صَغُر ، (إلا أحصاها) ، أي : ضبطها وحفظها .

وروى الطبرانى ، بإسناده المتقدم فى الآية قبلها ، إلى سعد بن جنادة قال : لما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة حُنَين ، نزلنا قفرا من الأرض ، ليس فيه شيء ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : اجمعوا ، من وجد عُوداً

---

(١) سورة القارعة ، آية : ٥ .
(٢) سورة طه ، آية : ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ .
(٣) « الخمر » – بفتح الخاء والميم – : كل ماسترك من شجر أو بناء أو غيره . و « الغيابة » : الجب والوادى ، ويقال : « ووقعوا فى غيابة من الأرض » ، أى : فى منهبط منها .
(٤) تفسير الطبرى : ١٥/١٦٧ ، ١٦٨ .
(٥) سورة الواقعة ، آية : ٤٩ ، ٥٠ .
(٦) سورة هود ، آية : ١٠٣ .
(٧) سورة النبأ ، آية : ٣٨ .
(٨) سورة الفجر ، آية : ٢٢ .
(٩) تقدم تفسير القطمير فى : ٤/٣٧١ . « والفتيل » : مايكون فى شق النواة . وهذا تمثيل لصغير الأعمال .

فليأت به ، ومن وجد حَطَبا أو شيئا فليأت به قال : فما كان إلا ساعة حتى جعلناه رُكاما ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أترون هذا ؟ فكذلك تَجمعُ الذنوبُ على الرجل منكم كما جَمَعْتم هذا . فليتق اللهَ رجلٌ ولا يذنب صغيرةً ولا كبيرةً ، فإنها مُحْصَاةٌ عليه » .

وقوله : (ووجدوا ما عملوا حاضرا) ، أي : من خير أو شر ، كما قال تعالى : (يوم تجد كلّ نفس ما عملت من خير مُحضرا ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيدا(١)) ، وقال تعالى : (ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر)(٢) ، وقال تعالى : (يوم تبلى السرائر)(٣) ، أي : تظهر المخبآت والضمائر .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو الوليد ، حدثنا شعبة ، عن ثابت ، عن أنس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لكل غادر لواءٌ يومَ القيامة [يعرف به (٤)] .

أخرجاه في الصحيحين ، وفي لفظ : يُرْفَع لكل غادر لواءُ يوم القيامة] عند استه بقدر غَدْرَته ، يقال : هذه غَدْرَة فلان بن فلان (٥) » .

وقوله : (ولا يظلم ربك أحدا) ، أي : فيحكم بين عباده في أعمالهم جميعها ، ولا يظلم أحدا من خلقه ، بل يغفر ويصفح ويرحم ، ويعذب من يشاء ، بقدرته وحكمته وعدله ، ويملأ النار من الكفار وأصحاب المعاصي ، [ثم ينجي أصحاب المعاصي] ويُخلَّد فيها الكافرون ، وهو الحاكم الذي لا يجور ولا يظلم ، قال تعالى : (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما) (٦) ، وقال : (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وإن كان مثقال حبَّة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين)(٧) . والآيات في هذا كثيرة .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، أخبرنا همام بن يحيى ، عن القاسم بن عبد الواحد المكي ، عن عبد الله بن محمد ابن عقيل ، أنه سمع جابر بن عبد الله يقول : بلغني حديث عن رجل سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاشتريت بعيرا ثم شددت عليه رحلي ، فسرت عليه (٨) شهرا ، حتى قدمت عليه الشام ، فإذا عبد الله بن أنيس . فقلت للبواب : قل له : جابر على الباب . فقال : ابنُ عبد الله ؟ فقلت : نعم . فخرج يطأ ثوبه ، فاعتنقني واعتنقته ، فقلت : حديث بلغني [عنك] أنك سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم في القصاص ، فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمعه . فقال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يَحشُر (٩) الله عز وجل الناس يوم القيامة

(١) سورة آل عمران ، آية : ٣٠ .
(٢) سورة القيامة ، آية : ١٣ .
(٣) سورة الطارق ، آية : ٩ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٣/١٤٢ .
(٥) تقدم تخريج الحديث من الصحيحين في سورة النحل ، عند الآية : ٢٧ . ينظر : ٤/٤٨٦ ، وشرحناه هنالك .
(٦) سورة النساء ، آية : ٤٠ .
(٧) سورة الأنبياء ، آية : ٤٧ .
(٨) في المسند : « فسرت إليه » .
(٩) في المسند : « يحشر الناس يوم القيامة » .

ــ أو قال : العبادَ ــ عُرَاةً غُرْلاً بُهْماً ــ قلت : وما بُهْماً (١) ؟ قال : ليس معهم شيء ــ ثم يناديهم بصوت يسمعه(٢) من بعد ، كما يسمعه من قَرُب : « أنا الملك ، أنا الديان ، لا ينبغى لأحد من أهل النار أن يدخل النار ، وله عند أحد من أهل الجنة حق ، حتى أقصّه (٣) منه . ولا ينبغى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ، وله عند رجل من أهل النار حق ، حتى أقصّه منه ، حتى اللطمة . قال قلنا : كيف ، وإنما (٤) نأتى الله عز وجل عُراة غُرْلاً بُهْماً ؟ قال : بالحسنات والسيئات (٥) .

وعن شعبة ، عن العوام بن مزاحم ، عن أبى عثمان ، عن عثمان بن عفان رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الجَمَّاء لتقتص من القَرْناء يوم القيامة (٦) : رواه عبد الله بن الإمام أحمد : وله شواهد من وجوه أخر ، قد ذكرناها عند قوله : (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئا (٧)) ، وعند قوله تعالى : (إلا أمم أمثالكم ، ما فرطنا فى الكتاب من شىء ، ثم إلى ربهم يحشرون (٨)) .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾

يقول تعالى منبها بنى آدم على عداوة إبليس لهم ولأبيهم من قبلهم ، ومقرّعا لمن اتبعه منهم وخالف خالقه ومولاه الذى أنشأه وابتداه ، وبألطاف رزقه غذاه ، ثم بعد هذا كله والى إبليس وعادى الله ، فقال تعالى : (وإذ قلنا للملائكة) ، أى : لجميع الملائكة : كما تقدم تقريره فى أول (٩) سورة « البقرة » .

(اسجدوا لآدم) ، أى : سجود تشريف وتكريم وتعظيم ، كما قال تعالى : (وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من صلصال من حمإ مسنون : فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين (١٠))

وقوله : (فسجدوا إلا إبليس كان من الجن) ، أى : خانه أصله ، فإنه خلق من مارج من نار ، وأصل خلق الملائكة من نور ، كما ثبت فى صحيح مسلم ، عن عائشة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : خُلِقَت الملائكة

---

(١) فى المسند : « عراة غرلا بهما . قال : قلنا : وما بهما »
(٢) هنا وقع سقط فى المسند ، ولفظه : « بصوت يسمعه من قرب »
(٣) أى : حتى أمكنه من أخذ القصاص ، وهو أن يفعل به مثل فعله .
(٤) لفظ المسند : « وإنا إنما نأتى » .
(٥) مسند الإمام أحمد : ٣/٤٩٥ .
(٦) مسند الإمام أحمد : ١/٧٢ . وقد مضى تفسير « الجماء » فى : ٢/٢٩٨ .
(٧) هذه الآية من سورة الأنبياء : ٤٧ .
(٨) سورة الأنعام ، آية : ٣٨ . وينظر فيما تقدم : ٣/٢٤٩ ، ٢٥٠ .
(٩) ينظر : ١/١٠٧ — ١٠٩ .
(١٠) سورة الحجر ، آية : ٢٨ ، ٢٩ .

من نور ، وخُلِق إبليس(١) من مارج من نار ، وخُلِق آدم مما وصف(٢) لكم » : فعند الحاجة نَضَح كلّ وعاء بما فيه ، وخانه الطبع عند الحاجة ، وذلك أنه كان قد توسّم بأفعال الملائكة وتشبه بهم ، وتعبد وتنسك ، فلهذا دخل فى خطابهم ، وعصى بالمخالفة .

ونبه تعالى هاهنا على أنه (من الجن) ، أى : إنه خُلِق من نار ، كما قال : (أنا خير منه ، خلقتنى من نار ، وخلقته من طين) (٣) .

قال الحسن البصرى : ماكان إبليس من الملائكة طرفة عين قطّ ، وإنه لأصل الجن ، كما أن آدم عليه السلام أصل البشر . رواه ابن جرير بإسناد صحيح (٤) .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس : كان إبليس من حى من أحياء الملائكة ، يقال لهم « الحِنّ » (٥) ، خلقوا من نار السموم من بين الملائكة — قال : وكان اسمه الحارث ، وكان خازنا من خزان الجنة . . . وخُلِقت الملائكة من نور غير هذا الحى — قال : وخلقت الجن الذين ذُكِروا فى القرآن من مارج من نار(٦) . وهو لسان النار الذى يكون فى طرفها إذا التهبت .

وقال الضحاك أيضا ، عن ابن عباس : كان إبليس من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة ، وكان خازنا على الجنان ، وكان له سلطان الدنيا وسلطان الأرض ، وكان مما سوّلت له نفسه ، من قضاء الله أنه رأى أن له بذلك شرفا على أهل السماء ، فوقع من ذلك فى قلبه كبر لايعلمه إلا الله . فاستخرج الله ذلك الكبر منه حين أمره بالسجود لآدم ، (فاستكبر وكان من الكافرين) — قال ابن عباس : وقوله : (كان من الجن) ، أى : من خزان [الجنان ، كما يقال للرجل : مكى ، ومدنى ، وبصرى ، وكوفى(٧) — وقال ابن جريج ، عن ابن عباس ، نحو ذلك (٨) .

وقال سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس قال : هو من خزان] الجنة ، وكان يدبر أمر السماء الدنيا (٩) رواه ابن جرير من حديث الأعمش ، عن حبيب بن أبى ثابت ، عن سعيد ، به .

وقال سعيد بن المسيب : كان رئيس ملائكة سماء الدنيا .

---

(١) لفظ مسلم : « وخلق الجان » .
(٢) مسلم ، كتاب الزهد ، باب « فى أحاديث متفرقة » : ٨/٢٢٦ وأخرجه الإمام أحمد عن عائشة : ٦/١٥٣ ، ١٦٨ .
(٣) سورة الأعراف ، آية : ١٢ . و « ص » ، آية : ٧٦ .
(٤) تفسير الطبرى : ١٥/١٧٠ .
(٥) فى المخطوطة : « الجن » ، بالجيم . ينظر : ١/١٠٧ ، التعليق رقم ١ .
(٦) تفسير الطبرى : ١٥/١٦٩ . وقد مضى هذا الأثر بتمامه فى سورة البقرة : ١/١٠٧ ، ١٠٨
(٧) تفسير الطبرى : ١٥/١٧٠ .
(٨) تفسير الطبرى : ١٥/١٦٩ .
(٩) تفسير الطبرى : ١٥/١٦٩ .

وقال ابن إسحاق، عن خلادبن عطاء ، عن طاوس، عن ابن عباس قال : كان إبليس — قبل أن يركب المعصية — من الملائكة ، اسمه عزازيل ، وكان من سكان الأرض ، وكان من أشد الملائكة اجتهاداً وأكثرهم علما ، فذلك دعاه إلى الكبر ، وكان من حي يسمون جنًّا .

وقال ابن جريج ، عن صالح مولى التوأمة وشريك بن أبي نَمِر ، أحدهما أو كلاهما عن ابن عباس قال : إن من الملائكة قبيلة من الجن ، وكان إبليس منها ، وكان يسوس ما بين السماء والأرض ، فعصى ، فسخط الله عليه ، فمسخه شيطانا رجيما — لعنه الله — ممسوخا ، قال : وإذا كانت خطيئة الرجل في كِبْر فلا ترجُه ، وإذا كانت في معصية فارجه .

وعن سعيد بن جُبَير أنه قال : كان من الجنانين ، الذين يعملون في الجنة .

وقد رُوي في هذا آثار كثيرة عن السلف ، وغالبها من الإسرائيليات التي تنقل لينظر فيها ، والله أعلم بحال كثير منها . ومنها ما قد يقطع بكذبه لمخالفته الحق الذي بأيدينا ، وفي القرآن غُنْيَة عن كل ماعداه من الأخبار المتقدمة ، لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان ، وقد وضع فيها أشياء كثيرة ، وليس لهم من الحفاظ المتقنين الذين ينفون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين ، كما لهذه [الأمة من] الأئمة العلماء ، والسادة الأتقياء ، والأبرار النجباء ، من الجهابذة النقاد ، والحفاظ الجياد ، الذين دوّنوا الحديث وحرّروه ، وبينوا صحيحه من حسَنه ، من ضعيفه ، من منكره وموضوعه ، ومتروكه ومكذوبه ، وعرّفوا الوضاعين والكذابين والمجهولين ، وغير ذلك من أصناف الرجال ، كلُّ ذلك صيانة للجناب النبوي والمقام المحمدي ، خاتم الرسل ، وسيد البشر أنْ ينسب إليه كذب ، أو يُحدّث عنه بما ليس [منه] ، فرضي الله عنهم وأرضاهم ، وجعل جنات الفردوس مأواهم ، وقد فعل .

وقوله : (ففسق عن أمر ربه) ، أي : فخرج عن طاعة الله ، فإن الفسق هو الخروج ، يقال : « فسَقت الرُّطَبة » إذا خرجت من أكمامها « وفسقت الفأرة من جُحْرها » : إذا خرجت منه للعَيْث والفساد .

ثم قال تعالى مقرّعا وموبخا لمن اتبعه وأطاعه : (أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني) ، أي : بدلا عني : ولهذا قال : (بئس للظالمين بدلا) .

وهذا المقام كقوله بعد ذكر القيامة وأهوالها ومصير كل من الفريقين السعداء والأشقياءفي سورة يس : (وامتازوا اليوم أيها المجرمون . ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان ؛ إنه لكم عدو مبين . وأن اعبدوني ، هذا صراط مستقيم . ولقد أضل منكم جبلاً كثيرا أفلم تكونوا تعقلون) (١) .

﴿ * مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾

يقول تعالى : هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء من دوني عَبيدٌ أمثالكم ، لا يملكون شيئاً ، ولا أشهدتهم خلقي للسموات والأرض ، ولا كانوا إذ ذاك موجودين ؛ يقول تعالى : أنا المستقل بخلق الأشياء كلها ، ومدبرها ومقدرها وحدي ، ليس معي في ذلك شريك ولا وزير ، ولا مشير ولا نظير ، كما قال : (قل : ادعوا الذين زعمتم من دون الله ، لا يملكون

---

(١) سورة يس ، الآيات : ٥٩ — ٦٢ .

مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، ومالهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير • ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له)(١) ... الآية ولهذا قال : (وما كنت متخذ المضلين عضدا) ـ قال مالك : أعوانا (٢) .

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾

يقول تعالى مخبرا عما يُخاطِب به المشركين يوم القيامة على رءوس الأشهاد ، تقريعاً لهم وتوبيخا : (نادوا شركائى الذين زعمتم) أى : فى الدار الدنيا ، ادعوهم اليوم ، ينقذونكم مما أنتم فيه ، كما قال تعالى : (ولقد جئتمونا فُرادى كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ماخوّلناكم وراء ظهوركم ، وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ، لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون) (٣) .

وقوله : (فدعوهم فلم يستجيبوا لهم) ، [كما قال : (وقيل : ادعوا شركاءكم : فدعَوْهم ، فلم يستجيبوا لهم] ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون (٤) : وقال : (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة ، وهم عن دعائهم غافلون : وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء ، وكانوا بعبادتهم كافرين) (٥) . وقال تعالى : (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا • كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا) (٦) .

وقوله : (وجعلنا بينهم موبقا) ـ قال ابن عباس ، وقتادة ، وغير واحد : مَهْلَكاً .

وقال قتادة : ذُكر لنا أنّ عَمراً البكالى حدّث عن عبد الله بن عمرو قال : هو واد عميق ، فُرق به يومَ القيامة بين أهل الهدى وأهل الضلالة .

وقال قتادة : (موبقا) : واديا فى جهنم .

وقال ابن جرير : حدثنى محمد بن سنان القزاز ، حدثنا عبد الصمد ، حدثنا يزيد بن درهم ، سمعت أنس بن مالك يقول فى قول الله تعالى : (وجعلنا بينهم موبقاً) ، قال : واد فى جهنم ، من قيح ودم .

وقال الحسن البصرى : (موبقاً) : عداوة (٧) .

---

(١) سورة سبأ ، آية : ٢٢ ، ٢٣ .

(٢) كذا فى مخطوطة الأزهر والطبعات السابقة . ولم نجد هذا الأثر منسوبا إلى مالك . وهو فى تفسير الطبرى : ١٥/١٧١ مروى عن قتادة . وأخرجه السيوطى فى الدر المنثور : ٤/٢٢٨ عن قتادة ومجاهد .

(٣) سورة الأنعام ، آية : ٩٤ .

(٤) سورة القصص ، آية : ٦٤ .

(٥) سورة الأحقاف ، آية : ٥ ، ٦ .

(٦) سورة مريم ، آية : ٨١ ، ٨٢ .

(٧) تنظر هذه الآثار فى تفسير الطبرى : ١٥/١٧٢ ، وقد كان فى المخطوطة : « يزيد بن رهم » . والمثبت عن تفسير الطبرى ، وفى الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٤/٢/٢٦٥ .

والظاهر من السياق هاهنا : أنه المهلك ، ويجوز أن يكون واديا فى جهنم أو غيره ، إلا أن الله تعالى أخبر أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين ، ولا وصول لهم إلى آلهتهم التى كانوا يزعمون فى الدنيا ، وأنه يفرق بينهم وبينها فى الآخرة ، فلا خلاص لواحد من الفريقين إلى الآخر ، بل بينهما مهلك وهول عظيم وأمر كبير .

وأما إن جعل الضمير فى قوله : (بينهم) ، عائداً إلى المؤمنين والكافرين ، كما قال عبد الله بن عمرو : إنه يفرق بين أهل الهدى والضلالة به ، فهو كقوله تعالى: (ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون)(١)، وقال : (يومئذ يَصَّدَّعُون)(٢) وقال تعالى : (وامتازوا اليوم أيها المجرمون) (٣) ، وقال تعالى : (ويوم نحشرهم جميعاً ، ثم نقول للذين أشركوا : مكانكم أنتم و شركاؤكم . فزيلنا بينهم وقال شركاؤهم : ما كنتم إيانا تعبدون ، فكفي بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين . هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت ، وردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون) (٤) .

وقوله : (ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا) ، أى : إنهم لما عاينوا جهنم حين جيء بها تُقَادُ بسبعين ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك ، (فإذا رأى المجرمون النار) ، تحققوا لا محالة أنهم مواقعوها ، ليكون ذلك من باب تعجيل الهم والحزن لهم ، فإن توقع العذاب والخوف منه قبل وقوعه ، عذابٌ ناجز .

(ولم يجدوا عنها مصرفا) ، أى : ليس لهم طريق يعدل بهم عنها ، ولا بد لهم منها .

قال ابن جرير : حدثنى يونس ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرنى عمرو بن الحارث ، عن درّاج ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الكافر يرى جهنم ، فيظن أنها مواقعته من مسيرة أربعين سنة (٥) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لهيعة حدثنا درّاج ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ينصب للكافر مقدار خمسين ألف سنة ، كما لم يعمل فى الدنيا : وإن الكافر ليرى جهنم ، ويظن أنها مواقعته من مسيرة أربعين سنة (٦) » .

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾

يقول تعالى : ولقد بينا للناس فى هذا القرآن ، ووضحنا لهم الأمور ، وفصلناها ، كيلا يضلوا عن الحق ، ويخرجوا عن طريق الهدى . ومع هذا البيان وهذا الفرقان، الإنسانُ كثير المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق بالباطل، إلا من هدى الله وبصره لطريق النجاة .

---

(١) سورة الروم ، آية : ١٤ .
(٢) سورة الروم ، آية : ٤٣ .
(٣) سورة « يس » ، آية : ٥٩ .
(٤) سورة يونس ، الآيات : ٢٨ — ٣٠ .
(٥) تفسير الطبرى : ١٥/١٧٣ .
(٦) مسند الإمام أحمد : ٣/٧٥ .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، عن الزهرى ، أخبرنى على بن الحسين ، أن حسين بن على أخبره ، أن على بن أبى طالب أخبره : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة ، فقال : ألا تصليان ؟ فقلت : يا رسول الله ، إنما أنفسنا بيد الله ، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا : فانصرف حين قلت ذلك ، ولم يرجع إلى شيئاً ، ثم سمعته وهو مول يضرب فخذه [يقول] : (وكان الإنسان أكثر شىء جدلا)(١) . أخرجاه فى الصحيحين (٢) :

وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾

يخبر تعالى عن تمرد الكفرة فى قديم الزمان وحديثه ، وتكذيبهم بالحق البين الظاهر ، مع ما يشاهدون من الآيات والدلالات الواضحات ، وأنه مامنعهم من اتباع ذلك إلا طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذى وعدوا به عياناً ، كما قال أولئك لنبيهم : (فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين (٣)) ، وآخرون قالوا : (ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين) (٤) . وقالت قريش: (اللهم، إن كان هذا هو الحق من عندك، فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم(٥) ، (وقالوا : يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون . لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين (٦) إلى غير ذلك [من الآيات الدالة على ذلك] :

ثم قال : (إلا أن تأتيهم سنة الأولين) ، من غشيانهم بالعذاب ، وأخذهم عن آخرهم ، (أو يأتيهم العذاب قبلا) ، أى : يرونه عياناً مواجهة [ومقابلة] ، ثم قال : (وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين) ، أى : قبل العذاب مبشرين من صدقهم وآمن بهم ، ومنذرين من كذبهم وخالفهم .

ثم أخبر عن الكفار بأنهم يجادلون بالباطل (ليدحضوا به) ، أى : ليضعفوا به (الحق) الذى جاءهم به الرسل ، وليس ذلك بحاصل لهم . (واتخذوا آياتى وما أنذروا هزواً) ، أى : اتخذوا الحجج والبراهين وخوارق العادات التى بعث بها الرسل وما أنذروهم وخوفوهم به من العذاب (هزواً) ، أى : سخروا منهم فى ذلك ، وهو أشد التكذيب .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ١/١١٢ .

(٢) البخارى ، كتاب الصلاة ، باب « تحريض النبى صلى الله عليه وسلم على صلاة الليل والنوافل من غير إيجاب » : ٢/٦٢ ، وتفسير سورة الكهف : ٦/١١٠ ، وكتاب الاعتصام ، باب قوله تعالى : (وكان الإنسان أكثر شىء جدلا) : ٩/١٣١ ، وكتاب التوحيد : ٩/١٦٨ . ومسلم ، كتاب المسافرين ، باب « ماروى فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح » : ٢/١٨٧ .

ومعنى : « طرقه وفاطمة » ، أى : أتاها من الليل . ومعنى « يبعثنا » : يوقظنا .

(٣) سورة الشعراء ، آية : ١٨٧ .

(٤) سورة العنكبوت ، آية : ٢٩ .

(٥) سورة الأنفال ، آية : ٣٢ .

(٦) سورة الحجر ، آية : ٦ ، ٧ .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَـٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾

يقول تعالى : وأىّ عباد الله أظلم ممن ذُكِّر بآيات الله فأعرض عنها ، أى : تناساها وأعرض عنها ، ولم يصغ لها ، ولا ألقى إليها بالا ، (ونسى ما قدمت يداه) ، أى : من الأعمال السيئة والأفعال القبيحة : (إنا جعلنا على قلوبهم) ، أى : قلوب هؤلاء (أكنة) ، أى : أغطية وغشاوة ، (أن يفقهوه) ، أى : لئلا يفهموا هذا القرآن والبيان ، (وفى آذانهم وقراً) ، أى : صمم معنوى عن الرشاد ، (وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا) .

وقوله : (وربك الغفور ذو الرحمة) ، أى : ربك — يامحمد — غفور ذو رحمة واسعة ، (لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب) ، كما قال : (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ، ما ترك على ظهرها من دابة (١) ، وقال : (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ، وإن ربك لشديد العقاب)(٢) . والآيات فى هذا كثيرة .

ثم أخبر أنه يحلم ويستر ويغفر ، وربما هدى بعضهم من الغىّ إلى الرشاد ، ومن استمر منهم فله يوم يشيب فيه الوليد ، وتضع كل ذات حمل حملها . ولهذا قال : (بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا) ، أى : ليس لهم عنه محيد ولا محيص ، ولا معدل .

وقوله : (وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا) ، أى : الأمم السالفة والقرون الخالية أهلكناهم بسبب كفرهم وعنادهم ، (وجعلنا لمهلكهم موعدا) ، أى : جعلناه إلى مدة معلومة ووقت معين ، لا يزيد ولا ينقص ، أى : وكذلك أنتم أيها المشركون ، احذروا أن يصيبكم ما أصابهم ، فقد كذبتم أشرف رسول وأعظم نبى ، ولستم بأعز علينا منهم ، فخافوا عذابى ونذر .

---

(١) سورة فاطر ، آية : ٤٥ .

(٢) سورة الرعد ، آية : ٦ .

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾

سَبَبُ قول موسى لفتاه ـ وهو : يُوشَع بن نُون ـ هذا الكلام : أنه ذُكر له أنّ عبدا من عباد الله بمجمع البحرين ، عنده من العلم مالم يحط به موسى ، فأحب الذهاب إليه ، وقال لفتاه ذلك (لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين) ، أى : لا أزال سائرا حتى أبلغ هذا المكان الذى فيه مجمع البحرين ، قال الفرزدق (١) :

فَمَا بَرِحُوا حَتَّى تَهَادَتْ نِسَاؤُهُم ... بِبَطْحَاء ذى قار ، عيابَ اللطَائِمِ(٢)

قال قتادة وغير واحد : وهما بحر فارس مما يلى المشرق ، وبحر الروم مما يلى المغرب .

وقال محمد بن كعب القُرَظى : مجمع البحرين عند طنجة ، يعنى فى أقصى بلاد المغرب ، فالله أعلم .

وقوله : (أو أمضى حُقُبا) ، أى : ولو أنى أسير حقبا من الزمان .

قال ابن جرير رحمه الله : ذكر بعض أهل العلم بكلام العرب أن الحُقُب فى لغة قيس سنة . ثم قد روى عن عبد الله ابن عمرو أنه قال: الحُقْب ثمانون سنة . وقال مجاهد : سبعون خريفا . وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس قوله: (أو أمضي حقبا) ، قال : دهرا . وقال قتادة ، وابن زيد ، مثل ذلك (٣) .

---

(١) ديوانه ، ط بيروت : ٢/٢١٧ ، وتفسير الطبرى : ١٥/١٧٦

(٢) « ذوقار » : ماء لبنى بكر بن وائل قريب من الكوفة ، بينها وبين واسط . و « عياب » ، الواحدة : عيبة ، وهى : مايجعل فيه الثياب وغيرها . و « اللطائم » ، الواحدة : لطيمة ، وهى : المسك .

وبهذا التوجيه الذى ذكره ابن كثير يكون خبر « لاأبرح » محذوفا ، والنحويون يمنعون ذلك ، ينظر البحر المحيط : ٦/١٤٣ ، والمقتضب للمبرد : ٤/١١٨ ، ١١٩ .

هذا وقد قال الطبرى : « وكان بعض العرب يوجه تأويل قوله : (لاأبرح) ، أى : لاأزول ، ويستشهد لذلك ببيت الفرزدق » وذكر البيت . وبهذا التفسير ، وهو أن (لاأبرح) بمعنى لاأزول ، تكون « برح » تامة ، ومعناه أنه مقيم على سفره لايتحول عنه إلى غيره .

وقد نقل أبو عبيد الهروى فى الغريبين : ١/١٥٠ من الأزهرى صاحب « التهذيب » أنه لايجيز هذا المعنى الذى ذكره الطبرى ، قال الأزهرى : « هو مثل قوله : (لن نبرح عليه عاكفين) ، هما بمعنى : لاأزال ، ولا يجوز أن يكون بمعنى : لاأزول . ولم يرد بقوله (لاأبرح) : لاأفارق مكانى ، وإنما هذا معنى قوله : (فلن أبرح الأرض) ، هذا إقامة وذاك ذهاب » .

ثم قال أبو عبيد : « وقال غيره : (لاأبرح) : أى لاأفارق سيرى » وهذا رد على الأزهرى ، فقد فهم الإقامة فهما حسيا ، وأنها لابد أن تكون فى مكان ، وليس هناك مايمنع أنه مقيم على حالته التى هو عليها وهى حالة السفر ، لايفارقها ولا يتحول عنها .

(٣) تنظر هذه الآثار فى تفسير الطبرى : ١٥/١٧٦ .

وقوله : (فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما) ، وذلك أنه كان قد أمر بحمل حوت مملوح معه ، وقيل له : متى فقدتَ الحوت فهو ثَمّة(١) ، فسارا حتى بلغا مجمع البحرين ، وهناك عين يقال لها : « عين الحياة » ، فناما هنالك ، وأصاب الحوتَ من رَشاش ذلك الماء ، فاضطرب ، وكان فى مكتل مع يوشع ، وطَفَر من المِكْتَل إلى البحر ، فاستيقظ يُوشَع عليه السلام ، وسقط الحوت فى البحر وجعل يسير فيه ، والماء له مثل الطاق لا يلتئم بعده ، ولهذا قال : (واتخذ سبيله فى البحر سربا) ، أى : مثل السَّرَب فى الأرض .

قال ابن جُرَيج : قال ابن عباس : صار أثره كأنه حَجَر .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : جعل الحوت لا يمس شيئا من البحر إلا يبس ، حتى يكون صخرة .

وقال محمد بن إسحاق ، عن الزهرى ، عن عُبَيد الله بن عبد الله ، عن ابن عباس ، عن أبىّ بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين ذكر حديث ذلك : ما انجاب (٢) ماء منذ كان الناس غيره ، ثبت مكان الحوت الذى (٣) فيه ، فانجاب كالكُوَّة حتى رجع إليه موسى فرأى مسلكه ، فقال : (ذلك ما كنا نبغى) (٤) .

وقال قتادة : سَرَب من البَرّ ، حتى أفضى إلى البحر ، ثم سلك فجعل لا يسلك فيه طريقا إلا جعل (٥) ماء جامدا .

وقوله : (فلما جاوزا) ، أى : المكان الذى نسيا الحوت فيه ، ونُسب النسيان إليهما وإن كان يُوشَع هو الذى نسيه ، كقوله تعالى : (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) (٦) ، وإنما يخرج من المالح فى أحد القولين .

فلما ذهبا عن المكان الذى نسياه فيه مَرْحَلَةً (قال) موسى (لفتاه : آتنا غداءنا ، لقد لقينا من سفرنا هذا) ، أى : الذى جاوزا فيه المكان (نصبا) ، يعنى تعبا . (قال : أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة ، فإنى نسيت الحوت ، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره) — قال قتادة : وقرأ ابن مسعود : [وما أنسانيه أن أذكره إلا الشيطان] (٧) . ولهذا قال : (واتخذ سبيله) ، أى : طريقه (فى البحر عجبا . قال : ذلك ما كنا نبغى) ، أى : هذا الذى نطلب ، (فارتدا) ، أى : رجعا (على آثارهما) ، أى : طريقهما (قصصا) ، أى : يقصان أثر مشيهما ، ويقفوان أثرهما .

(فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً) ، وهذا هو الخَضِر عليه السلام ، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . بذلك قال البخارى :

---

(١) أى : فى هذا المكان .
(٢) أى : ماتجمع وصار جامداً .
(٣) فى المخطوطة : « مكان الحوت الكوى فيه » . والمثبت عن تفسير الطبرى
(٤) تفسير الطبرى : ١٥/١٧٦ .
(٥) أى : صار ماء جامداً .
(٦) سورة الرحمن ، آية : ٢٢ .
(٧) مابين القوسين عن تفسير الطبرى : ١٥/٧٨ . ومكانه فى تفسير ابن كثير : « قال قتادة : وقرأ ابن مسعود : أن أذكركه » . ولم نجد هذه القراءة ، وفى البحر المحيط لأبى حيان ٦/١٤٧ : « وفى مصحف عبد الله وقراءته : (أن أذكره إلا الشيطان)

حدثنا الحميدى ، حدثنا سفيان ، حدثنا عمرو بن دينار ، أخبرنى سعيد بن جُبَير قال : قلت لابن عباس : إن نوفا البكالىّ يزعم أن موسى صاحب الخَضِر ليس هو موسى صاحب بنى إسرائيل . قال ابن عباس : كذب عدوّ الله ؛ حدثنا أبىّ بن كعب رضى الله عنه ، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن موسى قام خطيبا فى بنى إسرائيل ، فسُئِل : أىّ الناس أعلم ؟ فقال : أنا : فعتب الله عليه إذ لم يَرُدّ العلم إليه ، فأوحى الله إليه : إنّ لى عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك : فقال موسى : يارب ، وكيف لى به ؟ قال : تأخذ معك حوتا ، تجعله بمكتل ، فحيثما فقدت الحوت فهو ثَمّ : فأخذ حوتا ، فجعله بمكتل ، ثم انطلق وانطلق معه بفتاه يُوشَع بن نُون عليهما السلام ، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رءوسهما فناما ، واضطرب الحوت فى المكتل ، فخرج منه ، فسقط فى البحر ، واتخذ سبيله فى البحر سربا ، وأمسك الله عن الحوت جِرْيَةَ الماء ، فصار عليه مثل الطاق . فلما استيقظ نَسِى صاحبُه أن يخبره بالحوت ، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما ، حتى إذا كان من الغَد قال موسى لفتاه : (آتنا غداءنا ، لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) : ولم يجد موسى النَّصَب حتى جاوَزَا المكان الذى أمره الله به . قال له فتاه : (أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت ، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ، واتخذ سبيله فى البحر عجبا) ــ قال : فكان للحوت سَرَبًا ولموسى وفتاه عَجَبًا ، فقال : (ذلك ما كنا نبغى ، فارتدا على آثارهما قصصا) ــ قال : فرجعا يقُصّان أثرهما ، حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مُسَجّى(١) بثوب ، فسلم عليه موسى ، فقال الخَضِر : وأنّى بأرضك السلام ! ؛ قال : أنا موسى : قال : موسى بنى إسرائيل ؟ قال : نعم ، أتيتك لتعلمنى مما عُلّمت رشدا . (قال : إنك لن تستطيع معى صبرا) ، ياموسى ، إنّى على علم من علمْ الله علمنيه ، لا تعلمه أنت ، وأنت على علم من علم الله علّمكه الله لا أعلمه : فقال موسى : (ستجدنى إن شاء الله صابراً ، ولا أعصى لك أمراً) ــ قال له الخَضِر : (فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا) .

فانطلقا يمشيان على ساحل البحر ، فمرت سفينة فكلمهم(٢) أن يحملوه ، فعرفوا الخَضِر ، فحملوهم(٣) بغير نَول(٤) ، فلما ركبا فى السفينة لم يفْجأ إلا والخَضِر قد قلَع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم ، فقال له موسى : قد حمَلونا بغير نَول ، فعمدت إلى سفينتهم فخرقتها ، لتغرق أهلها ؟ . لقد جئت شيئا إمراً . (قال : ألم أقل : إنك لن تستطيع معى صبرا ؟ قال : لا تؤاخذنى بما نسيت ، ولا ترهقنى من أمرى عسراً) ــ قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كانت الأولى من موسى نسيانا ــ قال : وجاء عصفور فنزل(٥) على حرف السفينة ، فنقر فى البحر نَقْرَة ، فقال له الخَضِر : ما علمى وعلمك فى علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفورُ من هذا البحر .

ثم خرجا من السفينة ، فبينا هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخَضِر غلاما يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخَضِر رأسه ، فاقتلعه بيده فقتله ، فقال له موسى : (أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً . قال : ألم أقل لك :

---

(١) أى : مغطى

(٢) كذا فى المخطوطة وفى الصحيح : « فكلموهم أن يحملوهم » .

(٣) فى الصحيح : « فحملوه » . وفى رواية : « فحملوهم » .

(٤) أى : بغير أجرة .

(٥) فى الصحيح : « فوقع على حرف » .

إنك لن تستطيع معى صبرا) ؟ ! قال : وهذه أشد من الأولى — (قال : إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبنى ، قد بلغت من لدنى عذراً.فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها، فأبوا أن يضيفوهما، فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض) ، قال : مائل . فقال الخضر بيده(١) (فأقامه) ، فقال موسى : قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا ، (لو شئت لاتخذت عليه أجراً ؟ ! قال : هذا فراق بينى وبينك، سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا) — فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما » .

قال سعيد بن جبير : كان ابن عباس يقرأ : (وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً) ، وكان يقرأ : (وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين)(٢) .

ثم رواه البخارى عن قتيبة، عن سفيان بن عيينة ... فذكر نحوه ، وفيه : « فخرج موسى ومعه فتاه يوشع ابن نون ، ومعهما الحوت حتى انتهيا إلى الصخرة، فنزلا عندها — قال : فوضع موسى رأسه فنام — قال سفيان : وفى حديث غير عمرو قال : وفى أصل الصخرة عين يقال لها « الحياة » ، لا يصيب من مائها شيء إلا حيى ، فأصاب الحوت من ماء تلك العين ، قال : فتحرك وانسل من المكتل(٣) ، فدخل البحر ، فلما استيقظ قال موسى لفتاه : (آتنا غداءنا) . كذا قال، وساق الحديث : «ووقع عصفور على حرف السفينة، فغمس منقاره فى البحر ، فقال الخضر لموسى : ما علمى وعلمك وعلم الخلائق فى علم الله إلا مقدار ما غمس هذا العصفور منقاره(٤) » وذكر تمامه بنحوه .

وقال البخارى أيضاً : حدثنا إبراهيم بن موسى ، حدثنا هشام بن يوسف ، أن ابن جريج أخبرهم قال : أخبرنى يعلى بن مسلم وعمرو بن دينار ، عن سعيد بن جبير — يزيد أحدهما على صاحبه — وغيرهما قد سمعته يحدث عن سعيد ابن جبير قال : إنا لعند ابن عباس فى بيته ، إذ قال : سلونى . فقلت : أى أبا عباس(٥) ، جعلنى الله فداك، بالكوفة رجل قاص ، يقال له « نوف » ، يزعم أنه ليس بموسى بنى إسرائيل — أما عمرو فقال لى : قال : كذب عدو الله ! وأما يعلى فقال لى : قال ابن عباس : حدثنى أبى بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : موسى رسول الله ، ذكر الناس يوماً ، حتى إذا فاضت العيون ، ورقت القلوب ، ولى ، فأدركه رجل فقال : أى رسول الله، هل فى الأرض [أحد] أعلم منك ؟ قال : لا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إلى الله ، قيل : بلى ، قال : أى رب ، وأين ؟ قال : بمجمع البحرين . قال : أى رب ، اجعل لى علماً أعلم ذلك به — قال لى عمرو : قال : حيث يفارقك الحوت . وقال لى يعلى : خذ حوتاً ميتاً حيث ينفخ فيه الروح : فأخذ حوتاً فجعله فى مكتل ، فقال لفتاه : لا أكلفك إلا أن تخبرنى حيث(٦) يفارقك الحوت ، قال : ما كلفت كبيراً . فذلك قوله : (وإذ قال موسى

---

(١) القول قد يطلق على جميع الأفعال ، والمعنى هنا : فأقامه الخضر بيده . وفى رواية فى الصحيح : « فقام الخضر فأقامه بيده » .

(٢) البخارى ، تفسير سورة الكهف : ٦/١١٠ — ١١٢ .

(٣) فى المخطوطة : « من تلك المكتل » . وأثبتنا ما فى الصحيح .

(٤) البخارى ، تفسير سورة الكهف : ٦/١١٥ ، ١١٦ .

(٥) كان عبد الله بن عباس يكنى « أبا عباس » ، بابنه العباس ، وهو أكبر ولده . ينظر أسد الغابة : ٣/٢٩٠ بتحقيقنا

(٦) كذا فى المخطوطة ، وفى الصحيح : « بحيث » .

لفتاه) يوشع بن نون ، ليست عن سعيد (١) بن جبير — قال : فبينا هو فى ظل صخرة فى مكان ثريان ، إذ تَضَرَّب (٢) الحوت وموسى نائم ، فقال فتاه : لا أوقظه .حتى إذا استيقظ نسى أن يخبره ، وتَضَرَّب الحوت حتى دخل البحر ، فأمسك الله عنه جِرْيَةَ الماء حتى كأن أثره فى حَجَر . [قال : فقال لى عمرو : هكذا كأن أثره فى حجر] ، وحلَّق بين إبهاميه واللتى تليهما — (لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً) — قال : وقد قطع الله عنك النصب ، ليست هذه عن سعيد — أخبره ، فرجعا فوجدا خَضِراً . قال : قال عثمان بن أبى سليمان : على طِنْفِسَة خضراء على كَبِد (٣) البحر . قال سعيد بن جبير : مُسَجّى بثوب ، قد جعل طرفه تحت رجليه ، وطرفه تحت رأسه ، فسلم عليه موسى ، فكشف عن وجهه وقال : هل بأرضٍ من سلام؟ من أنت ؟ قال : أنا موسى . قال : موسى بنى إسرائيل ؟ قال : نعم . قال : فما شأنك ؟ قال : جئتك لتعلمنى مما علمت رشدا . قال : يكفيك التوراة بيدك (٤) ، وأن الوحى يأتيك [. ياموسى ، إن لى علماً لا ينبغى لك أن تعلمه ، وإن لك علماً لا ينبغى لى أن أعلمه . فأخذ طائر بمنقاره من البحر [فقال : والله ما علمى وعلمك فى جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر] ، حتى إذا ركبا فى السفينة وجدا معابر صغاراً (٥) تحمل أهل هذا الساحل إلى هذا الساحل الآخر عرفوه ، فقالوا : عبد الله الصالح ؟ — قال : فقلنا لسعيد : خَضِر ؟ قال : نعم — لا نحمله بأجر . فخرقها، ووَتَّدَ فيها وتداً . قال موسى : (أخرقتها لتغرق أهلها ، لقد جئت شيئاً إمراً) — قال مجاهد : منكراً — قال : (ألم أقل : إنك لن تستطيع معى صبراً) ، كانت الأولى نسياناً ، والوسطى شرطاً ، والثالثة عمداً . (قال : لاتؤاخذنى بما نسيت ، ولا ترهقنى من أمرى عسراً . فانطلقا) حتى لقيا غلاماً فقتله — قال يعلى : قال سعيد ، وجد غلماناً يلعبون ، فأخذ غلاماً كافراً ظَرِيفاً فأضجعه ، ثم ذبحه بالسكين ، فقال : (أقتلت نفساً زكية) لم تعمل بالحنث . وابن عباس قرأها (زَكِيَّة) = (زَاكِيَة) : مُسْلِمَة (٦) كقولك : غلاماً زكياً . فانطلقا ، فوجدا جداراً يريد أن ينقض فأقامه، قال [سعيد](٧) بيده هكذا ، ورفع يده فاستقام — قال يعلى : حسبت أن سعيداً قال : فمسحه بيده فاستقام — قال : (لو شئت لاتخذت عليه أجراً)، قال سعيد : أجراً نأكله(٨) : (وكان وراءهم ملك) : وكان أمامهم ، قرأها ابن عباس : (أمامهم ملك) ، يزعمون عن

---

(١) القائل : « ليست عن سعيد » ، هو ابن جريج . ومراده : أن تسمية الفتى ليست عنده فى رواية سعيد بن جبير . ينظر فتح البارى : ٨/٢٨٨ .

(٢) يقال : « مكان ثريان » وارض ثريا » : إذا كان فى ترابها بلل وندى . و« تضرب » : اضطرب وتحرك .

(٣) أى وسطه .

(٤) لفظ الصحيح : « أما يكفيك ان التوراة بيديك » .

(٥) قوله : « وجدا معابر » هو تفسير لقوله : « ركبا فى السفينة » ، لأن قوله « وجدا » جواب « إذا » ؛ لأن وجودها المعابر كان قبل ركوبها السفينة .

(٦) قوله : « زاكية مسلمة كقولك : غلاما زكيا » : هو تفسير من الراوى . ويشير إلى القراءتين ، أى : إن قراءة ابن عباس بصيغة المبالغة (زكية) ، والقراءة الأخرى باسم الفاعل بمعنى « مسلمة » . وقد اختلف فى ضبط « مسلمة » ، فالأكثر بسكون السين وكسر اللام ، ولبعضهم بفتح السين وتشديد اللام المفتوحة .

(٧) مابين القوسين من الصحيح .

(٨) أى : نأكل به .

غير سعيد أنه هُدَدُ بن بُدَدَ، والغلام المقتول اسمه ـ يزعمون ـ جَيْسُور (ملك يأخذ كل سفينة غصباً)، فأردت إذا هي مرت به أن يدعها بعيبها، فإذا جاوزه أصلحوها فانتفعوا بها؛ ومنهم من يقول: سدوها بقارورة؛ ومنهم من يقول: بالقار؛ (كان أبواه مؤمنين)، وكان كافرا؛ (فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً)، أن يحملهما حُبُّه على أن يتابعاه على دينه (فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة) كقوله: (أقتلت نفساً زكية)؛ (وأقرب رُحماً): هما به أرحم منهما بالأول الذى قتل خَضِر؛ وزعم غير سعيد بن جبير أنهما أبدلا جارية؛ وأما داود بن أبى عاصم فقال عن غير واحد: إنها جارية(١).

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن أبى إسحاق، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس قال: خطب موسى عليه السلام بنى إسرائيل فقال: ما أحد أعلم بالله وبأمره منى؛ فَأُمِرَ أن يلقى هذا الرجل؛ فذكر نحو ما تقدم بزيادة ونقصان(٢)، والله أعلم

وقال محمد بن إسحاق، عن الحسن بن عمارة، عن الحكم بن عُتَيْبة، عن سعيد بن جُبير قال: جلست عند ابن عباس، وعنده نفر من أهل الكتاب، فقال بعضهم: يا أبا العباس، إن نوفا بن امرأة كعب يزعم عن كعب، أن موسى النبى الذى طلب العالِمَ إنما هو موسى بن ميشا؟ قال سعيد: فقال ابن عباس: أنَوْفٌ يقول هذا؟ قال سعيد: فقلت له: نعم، أنا سمعت نوفا يقول ذلك؛ قال: أنتَ سمعته يا سعيد؟ قال قلت: نعم؛ قال: كَذَب نوف؛ ثم قال ابن عباس: حدثنى أُبَىّ بن كعب، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن موسى بنى إسرائيل سأل ربه فقال: أىْ ربِّ، إن كان فى عبادك أحد هو أعلم منى، فدلَّنى عليه؛ فقال له: نعم، فى عبادى من هو أعلم منك؛ ثم نَعَتَ له مكانَه وأذن له فى لُقِيّه؛ فخرج موسى ومعه فتاه، ومعه حوت مَلِيحٌ (٣)، قد قيل له: إذا حَيِىَ هذا الحوت فى مكان، فصاحبك هنالك، وقد أدركتَ حاجتك؛ فخرج موسى ومعه فتاه، ومعه ذلك الحوت يحملانه، فسار حتى جَهَدَه السير، وانتهى إلى الصخرة وإلى ذلك الماء، وذلك الماء ماء الحياة، من شرب منه خلد، ولا يقاربه شىء ميت إلا حَيِىَ: فلما نزلا ومس الحوتُ الماءَ حَيِىَ (فاتخذ سبيله فى البحر سربا)؛ فانطلقا فلما جاوزا مُنْقَلَبَه (٤) قال موسى لفتاه: (آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) قال الفتى ـ وَذَكَر ـ: (أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره، واتخذ سبيله فى البحر عجبا) ـ قال ابن عباس: فظهر موسى على الصخرة حتى انتهيا إليها، فإذا رجل متلفف فى كساء له، فسلم موسى، فرد عليه العالم، ثم قال له: ما جاء بك إن كان لك فى قومك لَشُغُل؟. قال له موسى: جئتك لتعلمنى مما عُلِّمتَ رشدا: (قال: إنك لن تستطيع معى صبرا) ـ وكان رجلا يعلم علم الغيب، قد عُلِّمَ ذلك ـ فقال موسى: بلى: قال: (وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا)؟ أى: إنما تعرف ظاهر ما ترى من العدل، ولم تحط من علم الغيب بما أعلم؛ (قال: ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً)، وإن رأيتُ ما يخالفنى، قال: (فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء) ـ [وإن أنكرته] ـ

---

(١) البخارى، تفسير سورة: الكهف ٦/١١٢ ـ ١١٥.

(٢) ينظر تفسير الطبرى: ١٥/١٧٩، ١٨٠.

(٣) أى: مملوح.

(٤) فى المخطوطة: «جاوزا منقله» والمثبت من الطبرى.

(حتى أحدث لك منه ذكرا) . فانطلقا يمشيان على ساحل البحر يتعرضان الناس ، يلتمسان مَنْ يحملهما ، حتى مرّت بهما سفينة جديدة وثيقة ، لم يمر بهما شيء من السفن أحسن ولا أكمل(١) ولا أوثق منها . فسألا أهلها أن يحملوهما ، فحملوهما ، فلما اطمأنا فيها ولجّجَتْ (٢) بهما مع أهلها ، أخرج منقاراً (٣) له ومطرقة ، ثم عمد إلى ناحية منها فضرب فيها بالمنقار حتى خرقها ، ثم أخذ لوحا فطبقه عليها ، ثم جلس عليها يرقعها : فقال له موسى ـ ورأى أمراً فظع (٤) به ـ : (أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا * قال : ألم أقل : إنك لن تستطيع معي صبرا * قال : لا تؤاخذني بما نسيت) ، أي : بما تركت من عهدك ، (ولا ترهقني من أمري عسرا) ، ثم خرجا من السفينة فانطلقا ، حتى أتيا أهل قرية ، فإذا غلمان يلعبون خلفها ، فيهم غلام ليس في الغلمان غلام أظرفُ منه ولا أثرى ولا أوضأ منه ، فأخذه بيده ، وأخذ حجرا فضرب به رأسه حتى دمغه (٥) فقتله ، قال : فرأى موسى أمرا فظيعا لا صبر عليه ، صبي صغير قتله لا ذنب له ، قال : (أقتلت نفسا زاكية) ، أي : صغيرة (بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا * قال : ألم أقل لك : إنك لن تستطيع معي صبرا * قال : إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني ، قد بلغت من لدني عذرا) ، أي : قد أعذرتَ في شأني : (فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها ، فأبوا أن يضيفوهما ، فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض) ، فهدمه ثم قعد يبنيه ، فضجر موسى مما يراه يصنع من التكليف ، وما ليس له عليه صبر ، فقال : (لو شئت لاتخذت عليه أجرا) ، أي : قد استطعمناهم فلم يطعمونا ، وضفناهم (٦) فلم يُضَيِّفونا ، ثم قعدتَ تعمل من غير صنيعة ، ولو شئت لأعطيت عليه أجرا في عمله ؟ قال : (هذا فراق بيني وبينك ، سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرا * أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر ، فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا) ـ وفي قراءة أبيّ ابن كعب : (كل سفينة صالحة) ـ وإنما عبتها لأرده عنها ، فسلمَت حين رأى العيب الذي صنعت بها : (وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين ، فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا . فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما . وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة ، وكان تحته كنز لهما ، وكان أبوهما صالحا ، فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ، وما فعلته عن أمري) ، أي : ما فعلته عن نفسي ، (ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا) . وكان ابن عباس يقول : ما كان الكنز إلا علما (٧) .

وقال العوفي ، عن ابن عباس قال : لما ظهر موسى وقومه على مصر ، أنزل قومه ، فلما استقرت بهم الدار ، أنزل الله : أن ذكرهم بأيام الله : فخطب قومه ، فذكّر ما آتاهم الله من الخير والنعمة ، وذكّرهم إذ نجاهم الله من آل فرعون ، وذكّرهم هلاك عدوهم ، وما استخلفهم الله في الأرض ، وقال : كلم الله نبيكم تكليما ، واصطفاني لنفسه ، وأنزل

---

(١) كذا في المخطوطة . وفي تفسير الطبري : « ولا أجمل » .
(٢) أي : دخلت اللجة ، وهي : معظم البحر .
(٣) المنقار : حديدة كالفأس ينقر بها .
(٤) أي : اشتد عليه .
(٥) أي : أصاب دماغه .
(٦) أي : نزلنا عليهم ضيوفا .
(٧) تفسير الطبري : ١٥/١٨٠ – ١٨٢ .

علىّ محبة منه ، وآتاكم الله من كل ما سألتموه ، فنبيكم أفضل أهل الأرض ، وأنتم تقرأون التوراة ، فلم يترك نعمة أنعمها عليهم إلا وعرّفهم إياها : فقال له رجل من بنى إسرائيل : هم كذلك يا نبى الله ، قد عرفنا الذى تقول ، فهل على الأرض أحد أعلم منك يا نبى الله ؟ [قال : لا] ؛ فبعث الله جبرائيل إلى موسى عليهما السلام ، فقال : إن الله يقول : وما يدريك أين أضع علمى ؟بلى : إن على شطّ البحر رجلا هو أعلم [منك] — قال ابن عباس : هو الخضر — فسأل موسى ربه أن يُريه إياه ، فأوحى إليه : أن ائت البحر ، فإنك تجد على شط البحر حوتا ، فخذه فادفعه إلى فتاك ، ثم الزم شط البحر ، فإذا نسيت الحوت وهلك منك ، فثمّ تجدُ العبدَ الصالح الذى تطلب ؛ فلما طال سفَرُ موسى نبىّ الله ونَصِب فيه ، سأل فتاه عن الحوت ، فقال له فتاه وهو غلامه : (أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة ، فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره) لك ، قال الفتى : لقد رأيتُ الحوت حين اتخذ سبيله فى البحر سَرَبًا فأعجبَ ذلك [موسى] ، فرجع حتى أتى الصخرة ، فوجد الحوت ، فجعل الحوت يضرب فى البحر ويتبعه موسى ، وجعل موسى يقدم عصاه يَفْرج بها عنه الماء يتبع الحوت ، وجعل الحوت لا يمس شيئا من البحر إلا يبس ، حتى يكون صخرة ، فجعل نبىّ الله يعجب من ذلك ، حتى انتهى به الحوت [إلى] جزيرة من جزائر البحر ، فلقى الخضِرَ بها فسلم عليه ، فقال الخضر : وعليك السلام . وأنّى يكون السلام بهذه الأرض ؟ ومن أنت ؟ قال : أنا موسى ، فقال الخضر : أصاحب بنى إسرائيل ؟ [قال : نعم] ؛ فرحب به وقال : ما جاء بك ؟ قال : جئتك (على أن تعلمنى مما علمت رشدا) قال : إنك لن تستطيع معى صبرا) ، يقول : لا تطيق ذلك ؛ قال موسى : (ستجدنى [إن شاء الله] صابرا ولا أعصى لك أمرا) ؛ قال : فانطلق به ، وقال له : لا تسألنى عن شىء أصنعه حتى أبين لك شأنه ، فذلك قوله : (حتى أحدث لك منه ذكرا) (١) .

وقال الزهرى ، عن عُبَيْد الله بن عبد الله بن عُتْبة بن مسعود ، عن ابن عباس : أنه تمارى هو والحُرّ (٢) بن قيس ابن حصْن الفزَارى فى صاحب موسى ، فقال ابن عباس : هو خضِر . فمر بهما أبىّ بن كعب ، فدعاه ابن عباس فقال : إنى تماريتُ أنا وصاحبى هذا فى صاحب موسى الذى سأل السبيل إلى لُقيّه ، فهل سمعتَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يذكر شأنه ؟ قال : إنى سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : « بينا موسى — عليه السلام — فى ملأ من بنى إسرائيل ، إذ جاءه رجل فقال : تعلم مكان رجل أعلم منك ؟ قال : لا ؛ فأوحى الله إلى موسى : بلى ، عبدنا خضِر . فسأل موسى السبيلَ إلى لُقيّه ، فجعل الله له الحوت آيةً ، وقيل له : إذا فقدتَ الحوتَ فارجع ، فإنك ستلقاه . فكان موسى يتْبَع أثرَ الحوت فى البحر . فقال فتى موسى لموسى : (أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت) : قال موسى : (ذلك ما كنا نبغى ، فارتدا على آثارهما قصصا) . فوجدا عبدنا خضِراً ، فكان من شأنهما ما قص الله فى كتابه (٣) .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٥/١٨٢ .

(٢) كان الحر من القراء ، وكانت له منزلة عند عمر بن الخطاب . ينظر جمهرة أنساب العرب ، النشرة الثانية : ٢٥٨ .

(٣) تفسير الطبرى : ١٥/١٨٣ .

قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾

يخبر تعالى عن قيل موسى عليه السلام لذلك العالم ، وهو الخضر ، الذى خصه الله بعلم لم يطلع عليه موسى ، كما أنه أعطى موسى من العلم ما لم يُعطه الخضر ، (قال له موسى : هل أتبعك) ، سؤال بتلطف ، لا على وجه الإلزام والإجبار : وهكذا ينبغى أن يكون سؤال المتعلم من العالم . وقوله : (أتبعك) ، أى : أصحبك وأرافقك ، (على أن تعلمنى مما علمت رشدا) ، أى : مما علمك الله شيئا ، أسترشد به فى أمرى ، من علم نافع وعمل صالح . فعندها (قال) الخضر لموسى : (إنك لن تستطيع معى صبرا) ، أى : أنت لا تقدر [أن] تصاحبنى ، لما ترى من الأفعال التى تخالف شريعتك ، لأنى على علم من علم الله ، ماعلمكه الله ، وأنت على علم من علم الله ، ما علّمنيه الله ، فكل منا مكلف بأمور من الله دون صاحبه ، وأنت لا تقدر على صحبتى . (وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا) ، فأنا أعرف أنك ستنكر علىّ ما أنت معذور فيه ، ولكن ما اطلعتَ على حكمته ومصلحته الباطنة التى اطلعتُ أنا عليها دونك (قال) له موسى : (ستجدنى إن شاء الله صابراً) ، أى : على ما أرى من أمورك ، (ولا أعصى لك أمرا) ، أى : ولا أخالفك فى شىء . فعند ذلك شارطه الخضر (قال : فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء) ، أى : ابتداء (حتى أحدث لك منه ذكرا) ، أى : حتى أبدأك أنا به قبل أن تسألنى .

قال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا يعقوب ، عن هارون بن عنترة (١) ، عن أبيه ، عن ابن عباس قال : سأل موسى ربّه عز وجل ، فقال : ربّ ، أىّ عبادك أحبّ إليك؟ قال : الذى يذكرنى ولا ينسانى . قال : فأىّ عبادك أقضى ؟ قال : الذى يقضى بالحق ولا يتبع الهوى . قال : أىْ ربّ ، أىّ عبادك أعلم ؟ قال : الذى يبتغى علم الناس إلى علمه (٢) ، عسى أن يصيب كلمة تهديه إلى هُدًى ، أو ترده عن ردى . قال : أىْ ربّ ، فهل فى أرضك أحد أعلم منى ؟ قال : نعم . قال : فمن هو ؟ قال : الخضر . قال : فأين أطلبه ؟ قال : على الساحل عند الصخرة ، التى ينفلت عندها الحوت . قال : فخرج موسى يطلبه ، حتى كان ما ذكر الله ، وانتهى موسى إليه عند الصخرة ، فسلّم كل واحد منهما على صاحبه . فقال له موسى : إنى أريد أن تصحبنى . قال : إنك لن تطيق صحبتى . قال : بلى . قال : فإن صحبتنى (فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا) ، قال : فسار به فى البحر حتى انتهى إلى مجمع البحور ، وليس فى الأرض مكان أكثر ماء منه . قال : وبعث الله الخُطّاف (٣) ، فجعل يستقى منه بمنقاره ، فقال لموسى : كم ترى هذا الخطاف رزأ من هذا الماء ؟ قال : ما أقل مارزأ ! قال : يا موسى ، فإن علمى وعلمك فى علم الله كقدْر ما استقى

---

(١) فى المخطوطة : « هارون عن عنترة » . والصواب من الطبرى ، وترجمة هارون فى الجرح لابن أبى حاتم : ٤/٢/٩٢ .

(٢) فى الطبرى : « إلى علم نفسه » .

(٣) الخطاف : العصفور الأسود ، وهو الذى تدعوه العامة : عصفور الجنة .

هذا الخطاف من هذا الماء . وكان موسى قد حدّث نفسه أن ليس أحد أعلم منه ، أو تكلم به ، فمن ثَمّ أمر أن يأتي الخضر (١) . وذكر تمام الحديث في خرق السفينة ، وقتل الغلام ، وإصلاح الجدار ، وتفسيره له ذلك .

فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾

يقول تعالى مخبرا عن موسى وصاحبه ، وهو الخضر ، أنهما انطلقا لما توافقا واصطحبا ، واشترط عليه أن لا يسأله عن شيء أنكره حتى يكون هو الذي يبتدئه من تلقاء نفسه بشرحه وبيانه ، فركبا في السفينة . وقد تقدم في الحديث كيف ركبا في السفينة ، وأنهم عرفوا الخضر ، فحملوهما بغير نول ، يعني بغير أجرة ، تكرمةً للخضر . فلما استقلت بهم السفينة في البحر ، ولجّجت أي دخلت اللجة ، قام الخضر فخرقها ، واستخرج لوحا من ألواحها ، ثم رقعها ؛ فلم يملك موسى عليه السلام نفسه أن قال منكرا عليه : (أخرقتها لتغرق أهلها) . وهذه اللام لام العاقبة لا لام التعليل ، كما قال الشاعر (٢) :

* لدُوا للمَوت وابنُوا للخَرَابِ *

(لقد جئت شيئاً إمرا) — قال مجاهد : منكَراً . وقال قتادة : عجباً (٣) — فعندها قال له الخضر مُذكّراً بما تقدم من الشرط : (ألم أقل : إنك لن تستطيع معي صبرا) ، يعني وهذا الصنيع فعلتُه قصدا ، وهو من الأمور التي اشترطت معك أن لا تنكر عليّ فيها ، لأنك لم تُحط بها خبرا ، ولها داخلٌ هو مصلحة ، ولم تعلمه أنت : (قال) ، أي موسى : (لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا) ، أي : لا تضيّق عليّ وتُشدّد ؛ ولهذا تقدم في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كانت الأولى من موسى نسيانا » .

فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَـٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ * قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَـٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾

يقول تعالى : (فانطلقا) ، أي : بعد ذلك ، (حتى إذا لقيا غلاما فقتله) . وقد تقدم أنّه كان يلعب مع الغلمان في قرية من القرى ، وأنه عمد إليه من بينهم ، وكان أحسنهم وأجملهم وأوضأهم (٤) ، فقتله ، فروى أنه احتز رأسه ، وقيل : رَضَخه (٥) بحجر . وفي رواية : اقتطفه بيده ؛ فالله أعلم .

---

(١) تفسير الطبري : ١٥/١٧٩ .
(٢) أبو العتاهية ، ديوانه ط بيروت : ٤٦ ، وعجزه :
* فكلكم يصير إلى تباب *
(٣) تفسير الطبري : ١٥/١٨٤ .
(٤) في المخطوطة : « وأضوأهم » . والصواب ما أثبتناه ، وينظر أثر عبد الرزاق المتقدم . والوضاءة : الحسن والنظافة .
(٥) الرضخ : كسر الرأس .

فلما شاهد موسى عليه السلام هذا أنكره أشد من الأول ، وبادر فقال : (أقتلت نفسا زاكيةً) ، أى : صغيرة لم تعمل الحِنْث، (١) ولاحملت إثما بعد، فقتلتَه ؟! (بغير نفس)، أى : بغير مُسْتَنَد لقتله، (لقد جئت شيئا نكراً) ، أى : ظاهر النكارة . (قال : ألم أقل لك : إنك لن تستطيع معى صبرا) ، فأكد أيضا فى التذكار بالشرط الأول ، فلهذا قال له موسى : (إن سألتك عن شىء بعدها) ، أى : إن اعترضت عليك بشىء بعد هذه المرة ، (فلا تصاحبنى ، قد بلغت من لدنى عذرا) ، أى : قد أَعْذَرْتَ إلىّ مرةً بعد مرة .

قال ابن جرير : حدثنا عبد الله بن أبى زياد ، حدثنا حجاج بن محمد ، عن حمزة الزيات ، عن أبى إسحاق عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس ، عن أُبَىّ بن كعب قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا ذكر أحدا ، فدعا له ، بدأ بنفسه ، فقال ذات يوم : رحمة الله علينا وعلى موسى ، لو لبث مع صاحبه لأبصر العَجَب ، ولكنه قال : (إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لَدُنّى عذرا) [مثقلة (٢)] .

فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾

يقول تعالى مخبراً عنهما ، إنهما (انطلقا) بعد المرتين الأوليين ، (حتى إذا أتيا أهل قرية) — روى ابن جرير ، عن ابن سيرين أنها الأيْلة (٣) . وفى الحديث : « حتى إذا أتيا أهل قرية لئاماً (٤) » ، أى : بخلاء ، (فأبوا أن يضيفوهما ، فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض) ، إسناد الإرادة هاهنا إلى الجدار على سبيل الاستعارة ، فإن الإرادة فى المحدَثات بمعنى الميل . والانقضاض هو : السقوط .

وقوله : (فأقامه) ، أى : فَرَدَّه إلى حالة الاستقامة . وقد تقدم فى الحديث أنه رده بيديه ، ودَعَمه حتى ردَّ ميله . وهذا خارق ، فعند ذلك قال موسى له : (لو شئت لاتخذت عليه أجراً) ، أى : لأجل أنهم لم يضيفونا ، كان ينبغى أن لا تعمل لهم مجاناً ، (قال : هذا فراق بينى وبينك) ، [أى : لأنك شرطت عند قتل الغلام أنك إن سألتنى عن شىء بعدها فلا تصاحبنى ، فهو فراق بينى وبينك] ، (سأنبئك بتأويل) ، أى : بتفسير (ما لم تستطع عليه صبرا) .

---

(١) الحنث : الإثم والمعصية .

(٢) مابين القوسين من تفسير الطبرى : ١٨٦/١٥ . وهو ثابت فى الطبعات السابقة . ويعنى بقوله « مثقلة » تشديد النون فى « لدنى » . وبعضهم قرأها بالتخفيف . ينظر البحر المحيط لأبى حيان : ٦/١٥١ .

(٣) تفسير الطبرى : ١٥/١٨٦ . وأيلة — كما فى مراصد الاطلاع — : « مدينة على ساحل بحر القلزم — البحر الأحمر — مما يلى الشام . قيل : هى آخر الحجاز وأول الشام ، وهى مدينة اليهود الذين اعتدوا فى السبت » .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٥/١١٩ .

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾

هذا تفسير ما أشكل امره على موسى عليه السلام ، وما كان أنكر ظاهره وقد أظهر الله الخضر عليه السلام على باطنه ، فقال : إن السفينة إنما خرقتها لأعيبها ، [لأنهم كانوا يمرون بها على ملك من الظلمة ، (يأخذ كل سفينة) صالحة ، أي : جيدة (غصبا) ، فأردت أن أعيبها] ، لأرده عنها لعيبها ، فينتفع بها أصحابها من المساكين الذين لم يكن لهم شيء ينتفعون به غيرها ؛ وقد قيل : إنهم أيتام .

وروى ابن جريج ، عن وهب بن سليمان، عن شعيب الجبائي: أن اسم ذلك الملك « هُدَدُ بن بُدَدَ » (١) ، وتقدم أيضا في رواية البخاري ، وهو مذكور في التوراة في ذرية « العيص (٢) بن إسحاق » ، وهو من الملوك المنصوص عليهم في التوراة ، والله أعلم .

﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾

قد تقدم أن هذا الغلام كان اسمه جَيْسُور . وفي الحديث عن ابن عباس ، عن أبيّ بن كعب ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الغلام الذي قتله الخَضِر طُبِع يوم طُبِع كافراً » : رواه ابن جرير من حديث أبي إسحاق ، عن سعيد ، عن ابن عباس ، به (٣) . ولهذا قال : (فكان أبواه مؤمنين ، فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا) ، أي : يحملهما حُبُّه على متابعته على الكفر .

قال قتادة : قد فرح به أبواه حين ولد ، وحزنا عليه حين قتل ، ولو بقي كان فيه هلاكهما ، فليرض امرؤ بقضاء الله ، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خيرٌ له من قضائه فيما يحب » .

وصح في الحديث : « لا يقضي الله للمؤمن من قضاء إلا كان خيرا له (٤) » . وقال تعالى : (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم (٥)) .

وقوله : (فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحما) ، أي : ولداً أزكى من هذا ، وهما أرحم به منه ، قاله ابن جريج .

وقال قتادة : أبر بوالديه .

وقد تقدم أنهما بُدِّلا جارية ، وقيل : لما قتله الخضر كانت أمه حاملا بغلام مسلم ، قاله ابن جُرَيج (٦) .

---

(١) تفسير الطبري : ١٦/٣ .

(٢) هو : « عيصو » أو « عيصاب » . ينظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم ، النشرة الثانية : ٥١١ .

(٣) تفسير الطبري : ١٦/٣ ، ٤ .

(٤) مسند الإمام أحمد عن أنس بن مالك : ٣/١١٧ ، ١٨٤ .

(٥) سورة البقرة ، آية : ٢١٦ .

(٦) تنظر هذه الآثار في تفسير الطبري : ١٦/٣ - ٥ .

وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٨٢)

فى هذه الآية دليل على إطلاق القرية على المدينة ، لأنه قال أولا : (حتى إذا أتيا أهل قرية) ، وقال هاهنا : (فكان لغلامين يتيمين فى المدينة) ، كما قال تعالى : (وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك) (١) ، (وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) (٢) ، يعنى مكة والطائف .

ومعنى الآية : أن هذا الجدار إنما أصلحه لأنه كان لغلامين يتيمين فى المدينة ، وكان تحته كنز لهما

قال عكرمة ، وقتادة ، وغير واحد : كان تحته مال مدفون لهما . وهذا ظاهر السياق من الآية ، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : كان تحته كنز علم . وكذا قال سعيد بن جبير . وقال مجاهد : صحف فيها علم .

وقد ورد فى حديث مرفوع مايقوى ذلك ؛ قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار فى مسنده المشهور : حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهرى ، حدثنا بشر بن المنذر ، حدثنا الحارث بن عبد الله اليحصبى ، عن عياش ابن عباس القِتبانى ، عن حُجَيْرة (٣) عن أبى ذر رضى الله عنه ــ قال ــ : إن الكنز الذى ذكر الله فى كتابه ، لوحٌ من ذهب مصمت [مكتوب فيه] : عجبت لمن أيقنَ بالقَدَر ، لم نَصِب ؟ وعجبتُ لمن ذكر النار ، لم ضَحِك ؟ وعجبت لمن ذكر الموت ، لِم غَفَل ؟ لاإله إلا الله ، محمد رسول الله .

بشر بن المنذر هذا يقال له : قاضى المَصِّيصة ، قال الحافظ أبو جعفر العقيلى : فى حديثه (٤) وهم

وقد روى فى هذا آثار عن السلف ، فقال ابن جرير فى تفسيره : حدثنى يعقوب ، حدثنى الحسن بن حبيب بن نَدَبَة ، حدثنا سلمة ، عن نعيم العنبرى ــ وكان من جلساء الحسن ــ قال : سمعت الحسن ــ يعنى البصرى ــ يقول فى قوله : (وكان تحته كنز لهما) ، قال : لوح من ذهب مكتوب فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، عجبت لمن يؤمن بالقدر ، كيف يحزن ؟ وعجبت لمن يوقن بالموت ، كيف يفرح ؟ وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها ، كيف يطمئن إليها ؟ لاإله إلا الله محمد رسول الله .

وحدثنى يونس ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرنى عبد الله بن عياش ، عن عُمَر مولى غُفْرَة (٥) قال : إن الكنز الذى قال الله فى السورة التى يذكر فيها الكهف : (وكان تحته كنز لهما) ، قال : كان لوحا من ذهب مُصْمَت ، مكتوباً

(١) سورة محمد ، آية : ١٣ .

(٢) سورة الزخرف ، آية : ٣١ .

(٣) فى المخطوطة : « أبى حجيرة » . وهو أبو عبد الله عبد الرحمن بن حجيرة الخولانى المصرى . يروى عن أبى ذر . ينظر ترجمته فى التهذيب : ١٦٠/٦ .

(٤) ميزان الاعتدال للذهبى : ٣٢٥/١ .

(٥) هو عمر بن عبد الله المدنى أبو حفص ، أدرك ابن عباس . مترجم فى التهذيب : ٤٧١/٧ . وفى المخطوطة : « عفير مولى عفارة » . وهو خطأ .

فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، عَجَبٌ لمن عرف النار ثم ضَحك ! عجبٌ لمن أيقن بالقدر ثم نَصب ! عَجَبٌ لمن أيقن بالموت ثم أمِن ! أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

وحدثنى أحمد بن حازم الغفارى ، حدثتنا هنادة بنت مالك الشيبانية قالت : سمعت صاحبى حمّاد بن الوليد الثقفى يقول : سمعت جعفر بن محمد يقول فى قول الله تعالى : (وكان تحته كنزٌ لهما) ، قال : سطران ونصف ، لم يتم الثالث : عجبت للموقن بالرزق كيف يتعب ؟ وعجبت للموقن بالحساب كيف يغفل ؟ وعجبت للموقن بالموت كيف يفرح ؟ وقد قال تعالى : (وإن كان مثقالَ حبّة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين) . قالت : وذكر أنهما حُفظا بصلاح أبيهما ، ولم يذكر منهما صلاح ، وكان بينهما وبين الأب الذى حُفظا به سبعة آباء ، وكان نساجاً (١) .

وهذا الذى ذكره هؤلاء الأئمة ، وورد به الحديث المتقدم وإن صح ، لاينافى قولَ عكرمة : إنه كان مالا ؛ لأنهم ذكروا أنه كان لوحاً من ذهب ، وفيه مالٌ جزيل ، أكثر مازادوا أنه كان مودعاً فيه علم ، وهو حكم ومواعظ ، والله أعلم .

وقوله : (وكان أبوهما صالحا) فيه دليل على أن الرجل [الصالح] يحفظ فى ذريته ، وتشمل بركة عبادته لهم(٢) فى الدنيا والآخرة ، بشفاعته فيهم ورفع درجتهم إلى أعلى درجة فى الجنة لتقر عينه بهم ، كما جاء فى القرآن ووردت السنة به ، قال سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : حُفظا بصلاح أبيهما ، ولم يذكر (٣) لهما صلاح ، وتقدم أنه كان الأب السابع (٤)

وقوله : (فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما) ، هاهنا أسند الإرادة إلى الله تعالى ، لأن بلوغهما الحلم لايقدر عليه إلا الله . وقال فى الغلام : (فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه) ، وقال فى السفينة : (فأردت أن أعيبها) ، فالله أعلم .

وقوله : (رحمة من ربك ، وما فعلته عن أمرى) ، أى : هذا الذى فعلته فى هذه الأحوال الثلاثة ، إنما هو من رحمة الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة ، ووالدى الغلام ، وولدى الرجل الصالح ، (وما فعلته عن أمرى) ، لكنى أُمِرْتُ به ووُقِفتُ عليه . وفيه دلالة لمن قال بنبوة الخَضِر عليه السلام ، مع ماتقدم من قوله : (فوجدا عبداً من عبادنا ، آتيناه رحمة من عندنا ، وعلمناه من لدنا علما) .

وقال آخرون : كان رسولا . وقيل : بل كان ملكا : نقله الماوردى فى تفسيره .

وذهب كثيرون إلى أنه لم يكن نبيا ، بل كان وليا . فالله أعلم .

وذكر ابنُ قتيبة فى « المعارف » أن اسم الخضر بَلْيَا بن مَلْكان بن فالغ بن غابر بن شالخ بن أرفَخْشَذ بن سام ابن نوح عليه السلام (٥) .

---

(١) تنظر هذه الآثار فى تفسير الطبرى : ١٦/٥ ، ٦ .

(٢) كذا فى الطبعات السابقة . وفى مخطوطة الأزهر : « وتشمل بركة عبادته أم فى الدنيا والآخرة » ويبدو أن هناك سقطا .

(٣) لعل السبب فى أنه تعالى لم يذكر لهما صلاحاً ، أنه تحدث عنهما وهما قبل الحلم ، بدليل وصفهما باليتم . والإنسان إنما يوصف بهذا الوصف قبل بلوغه الحلم .

(٤) ظاهر الآية أن المراد بالأب هو الأب المباشر ، وليس الأب السابع . ولا يعدل عن هذا الظاهر إلا بدليل لا سبيل إلى الشك فيه . وهو غير موجـود .

(٥) المعارف لابن قتيبة : ٤٢ .

قالوا : وكان يكنى أبا العباس ، ويلقب بالخضر ، وكان من أبناء الملوك ، ذكره النووى فى تهذيب الأسماء ، وحكى هو وغيره فى كونه باقيا إلى الآن ثم إلى يوم القيامة قولين ، ومال هو وابن الصلاح إلى بقائه ، وذكروا فى ذلك حكايات وآثارا عن السلف وغيرهم . وجاء ذكره فى بعض الأحاديث . ولا يصح شىء من ذلك ، وأشهرها أحاديث التعزية ، وإسناده ضعيف .

ورجح آخرون من المحدثين وغيرهم خلاف ذلك ، واحتجوا بقوله تعالى : (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) (١) وبقول النبى صلى الله عليه وسلم يوم بدر : « اللهم ، إن تهلك هذه العصابة ، لا تعبد فى الأرض(٢) » ، وبأنه لم ينقل أنه جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، [ولا حضر عنده ، ولا قاتل معه ، ولو كان حيا لكان من أتباع النبى صلى الله عليه وسلم] وأصحابه ، لأنه عليه السلام كان مبعوثا إلى جميع الثقلين : الجن والإنس ، وقد قال : « لو كان موسى وعيسى حيين ماوسعهما إلا اتباعى » ، وأخبر قبل موته بقليل : أنه لا يبقى ممن هو على وجه الأرض إلى مائة سنة من ليلته تلك عين تطرف ، إلى غير ذلك من الدلائل .

قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن آدم ، حدثنا ابن المبارك ، عن معمر ، عن همام بن منبه ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم [فى الخضر ، قال] : « إنما سمى « خضرا » لأنه جلس على فروة بيضاء ، فإذا هى تحته [تهتز] خضراء (٣) » .

ورواه أيضا عن عبد الرزاق (٤) . وقد ثبت أيضاً فى صحيح البخارى ، عن همام ، عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنما سمى الخضر لأنه جلس على فروة ، فإذا هى تهتز [من خلفه] خضراء (٥) » .

والمراد بالفروة هاهنا : الحشيش اليابس ، وهو الهشيم من النبات ، قاله عبد الرزاق (٦) . وقيل : المراد بذلك وجه الأرض .

وقوله : (ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبرا) ، أى : هذا تفسير ما ضقت به ذرعا ، ولم تصبر حتى أخبرك به ابتداء ، ولما أن فسره له ، وبينه ، ووضحه ، وأزال المشكل ، قال : (تسطع) ، وقبل ذلك كان الإشكال قويا ثقيلا ، فقال : (سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرا) ، فقابل الأثقل بالأثقل ، والأخف بالأخف ، كما قال تعالى : (فما اسطاعوا أن يظهروه) ، وهو الصعود إلى أعلاه ، (وما استطاعوا له نقبا) (٧) ، وهو أشق من ذلك ، فقابل كلا بما يناسبه لفظاً ومعنى ، والله أعلم .

---

(١) سورة الأنبياء ، آية : ٣٤ .

(٢) مسلم ، كتاب الجهاد ، باب « الإمداد بالملائكة فى غزوة بدر وإباحة الغنائم » : ١٥٦/٥ . ومسند الإمام أحمد من عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ٣٠/١ ، ٣٢ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٣١٢/٢ . وما بين القوسين من المسند .

(٤) المسند : ٣١٨/٢ .

(٥) البخارى ، كتاب الأنبياء ، باب « حديث الخضر مع موسى عليه السلام » : ١٩٠/٤ .

(٦) فى المسند ٣١٨/٢ بعد أن ساق الإمام أحمد حديث أبى هريرة : « الفروة : الحشيش الأبيض وما يشبهه . قال عبد الله [يعنى ابن الإمام أحمد] : أظن هذا تفسيراً من عبد الرزاق » .

(٧) سورة الكهف ، آية : ٩٧ .

فإن قيل : فما بال فتى موسى ذكر فى أول القصة ثم لم يذكر بعد ذلك ؟ فالجواب أن المقصود بالسياق إنما هو قصة موسى مع الخَضِر، وذكر ماكان بينهما . وفتى موسى معه تَبَعٌ . وقد صرح فى الأحاديث المتقدمة فى الصحاح وغيرها أنه يُوشَعُ بن نُون ، وهو الذى كان يلى بنى إسرائيل بعد موسى عليهما السلام . وهذا يدل على ضعف ماأورده ابن جرير فى تفسيره حيث قال : حدثنا ابن حميد ، حدثنا سلمة ، حدثنى ابن إسحاق ، عن الحسن بن عُمَارة، عن أبيه ، عن عكرمة قال : قيل لابن عباس : لم نسمع لفتى موسى بذكر من حديث وقدكان معه ؟ فقال ابن عباس فيما يذكر من حديث الفتى ، قال : شرب الفتى من الماء [فخلد، فأخذه](١) العالم ، فطابق به سفينة ثم أرسله فى البحر، فإنها تموج به إلى يوم القيامة ؛ وذلك أنه لم يكن له أن يشرب منه فشرب (٢) .

إسناد ضعيف ، والحسن متروك ، وأبوه غير معروف .

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ ﴾

يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : (ويسئلونك) يامحمد (عن ذى القرنين) ، أى : عن خبره . وقد قدّمنا أنه بعث كفارُ مكة إلى أهل الكتاب يسألون منهم مايمتحنون به النبى صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : سلوه عن رجل طوّاف فى الأرض . وعن فتية لايدرى ماصنعوا ، وعن الروح . فنزلت سورة الكهف . (٣) .

وقد أورد ابن جرير هاهنا ، والأموى فى مغازيه ، حديثاً أسنده وهو ضعيف ، عن عقبة بن عامر : أن نفراً من اليهود جاءوا يسألون النبى صلى الله عليه وسلم عن ذى القرنين ، فأخبرهم بماجاءوا له ابتداء ، فكان فيما أخبرهم به : « أنه كان شاباً من الروم ، وأنه بنى الإسكندرية ، وأنه علا به مَلَكٌ فى السماء ، وذهب به إلى السد ، ورأى أقواما وجوههم مثل وجوه الكلاب » . وفيه طول ونكارة ، ورفعه لايصح ، وأكثر مافيه أنه من أخبار بنى إسرائيل . والعجب أن أبازرعة الرازى ، مع جلالة قدره ، ساقه بتمامه فى كتابه دلائل النبوة ، وذلك غريب منه ، وفيه من [النكارة] أنه من الروم ، وإنما الذى كان من الروم الإسكندر الثانى بن فيلبيس المقدونى ، الذى تؤرخ به الروم ، فأما الأول فقد ذكره الأزرقى وغيره أنه طاف بالبيت مع إبراهيم الخليل عليه السلام أول مابناه وآمن به واتبعه ، وكان معه الخَضِر عليه السلام . وأما الثانى فهو إسكندر بن فيلبيس المقدونى اليونانى ، وكان وزيره أرسطاطاليس [الفيلسوف] المشهور ، والله أعلم . وهو الذى تؤرخ به من مملكته ملة الروم . وقدكان قبل المسيح عليه السلام بنحو من ثلثمائة سنة ، فأما الأول المذكور فى القرآن فكان فى زمن الخليل ، كما ذكره الأزرقى وغيره ، وأنه طاف مع الخليل بالبيت العتيق لما بناه إبراهيم عليه السلام وقرّب إلى الله قربانا ، وقد ذكرنا طرفا من أخباره فى كتاب « البداية والنهاية » (٤) ، بما فيه كفاية ، ولله الحمد .

---

(١) ما بين القوسين عن تفسير الطبرى ، ومثله فى الدر المنثور للسيوطى : ٢٣٩/٤ . ومكانه فى المخطوطة : « فحار » .
(٢) تفسير الطبرى : ١٨٢/١٥ .
(٣) ينظر : ١٣٧/٥ .
(٤) ينظر البداية والنهاية ، طبعة بيروت : ١٩٢/٢ — ١٩٩ ، ومروج الذهب للمسعودى : ٢١٦/١ ، ١٢٧ .

قال وهب بن منبه : كان ملكا ، وإنما سمي ذا القرنين لأن صفحتي رأسه كانتا من نحاس . قال : وقال بعض أهل الكتاب : لأنه ملك الروم وفارس . وقال بعضهم : كان في رأسه شبه القرنين . وقال سفيان الثوري ، عن حبيب بن أبي ثابت ، عن أبي الطفيل قال : سئل علي رضي الله عنه عن ذي القرنين ، فقال : كان عبداً ناصح الله عز وجل فناصحه ، دعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات ، فأحياه الله ، فدعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات ، فسمى ذا القرنين .

وكذا رواه شعبة ، عن القاسم بن أبي بزة ، عن أبي الطفيل ، سمع عليا يقول ذلك .

ويقال : إنما سمي ذا القرنين لأنه بلغ المشارق والمغارب ، من حيث يطلع قرن الشمس ويغرب (١) .

وقوله : (إنا مكنا له في الأرض) ، أي : أعطيناه ملكا عظيما متمكناً ، فيه له من جميع مايؤتى الملوك ، من التمكين والجنود ، وآلات الحرب والحصارات ، ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض ، ودانت له البلاد ، وخضعت له ملوك العباد ، وخدمته الأمم ، من العرب والعجم ، ولهذا ذكر بعضهم أنه إنما سمي ذا القرنين لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها .

وقوله : (وآتيناه من كل شيء سببا) ـــ قال ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، والسدى ، وقتادة ، والضحاك ، وغيرهم : يعني علما .

وقال قتادة أيضاً في قوله : (وآتيناه من كل شيء سببا) ، قال : منازل الأرض وأعلامها .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله : (وآتيناه من كل شيء سببا) ، قال : تعليم الألسنة ، كان لايغزو قوما إلا كلمهم بلسانهم .

وقال ابن لهيعة : حدثني سالم بن غيلان ، عن سعيد بن أبي هلال : أن معاوية بن أبي سفيان قال لكعب الأحبار : أنت تقول : إن ذا القرنين كان يربط خيله بالثريا ؟ فقال له كعب : إن كنت قلت ذاك فإن الله تعالى قال : (وآتيناه من كل شيء سببا) .

وهذا الذي أنكره معاوية رضي الله عنه على كعب الأحبار هو الصواب ، والحق مع معاوية في الإنكار ؛ فإن معاوية كان يقول عن كعب : « إن كنا لنبلو عليه الكذب » ، يعني فيما ينقله ، لا أنه كان يتعمد نقل ماليس في صحيفته ، ولكن الشأن في صحيفته أنها من الإسرائيليات التي غالبها مبدل مصحف محرف مختلق ، ولا حاجة لنا مع خبر الله ورسوله إلى شيء منها بالكلية ؛ فإنه دخل منها على الناس شر كثير ، وفساد عريض . وتأويل كعب قول الله : (وآتيناه من كل شيء سببا) ، واستشهاده في ذلك على مايجده في صحيفته من أنه كان يربط خيله بالثريا غير صحيح ولا مطابق ؛ فإنه لاسبيل للبشر إلى شيء من ذلك ، ولا إلى الترقي في أسباب السموات . وقد قال تعالى في حق بلقيس : (وأوتيت من كل شيء) (٢) أي : ممايؤتى مثلها من الملوك . وهكذا ذو القرنين يسر الله له الأسباب ، أي : الطرق والوسائل إلى فتح الأقاليم والرساتيق (٣) والبلاد والأراضي ، وكسر الأعادي ، وكبت ملوك الأرض ، وإذلال أهل الشرك . قد أوتي من كل شيء مما يحتاج إليه مثله سبباً ، والله أعلم .

---

(١) تنظر هذه الآثار في تفسير الطبري : ١٦/٨ . ومروج الذهب للمسعودي : ٢١٧/١ .

(٢) سورة النمل من الآية ٢٣ .

(٣) الرساتيق : جمع رستاق ـــ بضم فسكون ـــ وهي : السواد والقرى .

وفى « المختارة (١) » للحافظ الضياء المقدسى ، من طريق قتيبة ، عن أبى عوانة ، عن سماك بن حرب ، عن حبيب ابن حماز (٢) قال : كنت عند على رضى الله عنه، وسأله رجل عن ذى القرنين : كيف بلغ المشارق والمغارب ؟ فقال : سبحان الله . سخّر له السحاب ، وقدّر له الأسباب ، وبسط له اليد .

فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾

[قال ابن عباس : (فأتبع سببا) ، يعنى بالسبب : المنزل] . (وقال مجاهد : (فأتبع سببا) : منزلا وطريقا ما بين المشرق والمغرب .

وفى رواية عن مجاهد : (سببا) ، قال : [طريقا فى] (٣) الأرض .

وقال قتادة : أى اتبع منازل الأرض ومعالمها .

وقال الضحاك : (فأتبع سببا) ، أى : المنازل .

وقال سعيد بن جبير فى قوله : (فأتبع سببا) ، قال : علما . وهكذا قال عكرمة ، وعبيد بن يعلى ، والسدى .

وقال مطر : معالم وآثار كانت قبل ذلك .

وقوله : (حتى إذا بلغ مغرب الشمس) ، أى : فسلك طريقاً حتى وصل إلى أقصى ما يُسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب ، وهو مغرب الأرض . وأما الوصول إلى مغرب الشمس من السماء فمتعذر ، وما يذكره أصحاب القصص والأخبار من أنه سار فى الأرض مدة والشمس تغرب من ورائه ، فشىء لا حقيقة له . وأكثر ذلك من خرافات أهل الكتاب ، واختلاق (٤) زنادقتهم وكذبهم .

وقوله : (وجدها تغرب فى عين حمئة) ، أى : رأى الشمس فى منظره تغرب فى البحر المحيط ، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله ، يراها كأنها تغرُبُ فيه ، وهى لا تفارق الفلك الرابع الذى هى مُثَبَّتة فيه لا تفارقه .

---

(١) المختارة فى الحديث للحافظ ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسى الحنبلى ، قال عنها ابن كثير فى البداية والنهاية : ١٣/ ١٧٠ : « وكتاب المختارة ، وفيه علوم حسنة حديثية ، وهى أجود من مستدرك الحاكم لو كمل » . وفى كشف الظنون ١٦٢٤ : أن المقدسى التزم فى المختارة الصحة ، فصحح أحاديث لم يسبق إلى تصحيحها . توفى المقدسى سنة ٦٤٣ .

(٢) لحبيب هذا ترجمة فى أسد الغابة : ١/ ٤٤٢ بتحقيقنا ، والجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ١/ ٢/ ٩٨ .

(٣) فى تفسير ابن كثير : « قال : طرق الأرض » . والمثبت عن الطبرى ١٦/ ٩ . وفى الدر المنثور ٤/ ٢٤٧ : « منزلا وطرفاً من الشرق إلى الغرب » .

(٤) فى المخطوطة : « واختلاف زنادقتهم » . والصواب ما أثبتناه .

و « الحمئة » : مشتقة على إحدى القراءتين(١) من « الحمأة » وهو الطين ، كما قال تعالى : (إنى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون) (٢) ، أى : طين أملس : وقد تقدم بيانه .

وقال ابن جرير : حدثنى يونس ، أخبرنا ابن وهب ، حدثنى نافع بن أبى نعيم : سمعت عبد الرحمن الأعرج يقول : كان ابن عباس يقول (فى عين حَمِئَة) ، ثم فسرها : ذات حَمْأة ــ قال نافع : وسئل عنها كعب الأحبار ، فقال : أنتم أعلم بالقرآن منى ، ولكنى أجدها فى الكتاب تغيب فى طينة سوداء (٣) .

وكذا روى غير واحد عن ابن عباس : وبه قال مجاهد ، وغير واحد .

وقال أبو داود الطيالسى : حدثنا محمد بن دينار ، عن سعد بن أوس ، عن مِصْدَع ، عن ابن عباس ، عن أُبَىّ بن كعب : أن النبى صلى الله عليه وسلم أقرأه (حَمِئة) (٤) .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (وجدها تغرب فى عين حامية) ، يعنى : حارة : وكذا قال الحسن البصرى :

وقال ابن جرير : والصواب أنهما قراءتان مشهورتان ، فأيهما قرَأ القارئ فهو مصيب :

قلت : ولا منافاة بين معنييهما ، إذ قد تكون حارة لمجاورتها وهج الشمس عند غروبها ، وملاقاتها الشعاع بلا حائل : و (حَمِئة) : فى ماء وطين أسود ، كما قال كعب الأحبار وغيره :

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا العوام ، حدثنى مولى لعبد الله بن عمرو ، عن عبد الله قال : نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الشمس حين غابت ، فقال : « فى نار الله الحامية ، [فى نار الله الحامية] ، لولا ما يزَعُها (٥) من أمر الله ، لأحرقت ما على الأرض » .

قلت : ورواه الإمام أحمد ، عن يزيد بن هارون (٦) : وفى صحة رفع هذا الحديث نظر ، ولعله من كلام عبد الله ابن عمرو ، من زاملتيه اللتين وجدهما يوم اليرموك ، والله أعلم :

---

(١) القراءة الأولى : (حامية) . ونسبها أبو حيان فى البحر المحيط إلى : عبد الله ، وطلحة بن عبيد الله ، وعمرو بن العاص ، وابن عمر ، وعبد الله بن عمرو ، ومعاوية ، والحسن ، وزيد بن على ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائى . وقال : (حامية) بالياء ، أى : حارة . وأما القراءة الثانية فهى : (حمئة) ــ بهمزة مفتوحة ــ ونسبها أبو حيان إلى ابن عباس ، وباقى السبعة ، وشيبة ، وحميد ، وابن أبى ليلى ، ويعقوب ، وأبو حاتم ، وابن جبير الأنطاكى . قال أبو حيان : « والزهرى يلين الهمزة » .
يقال : حمئت البئر تحمأ حمأ ، فهى حمئة ، أى : خالطت ماءها الحمأة ــ بفتح فسكون ــ وهى الطين الأسود . يقول أبو حيان : « ولا تنافى بين (الحامية) و (الحمئة) ، إذ تكون العين جامعة للوصفين . وقال أبو حاتم : وقد يمكن أن تكون (حامية) مهموزة ، بمعنى : ذات حمأة ، فتكون القراءتان بمعنى واحد . يعنى أنه سهلت الهمزة . بإبدالها ياء لكسرة ما قبلها . وفى التوراة : تغرب فى ماء وطين » . البحر المحيط : ١٥٩/٦ .

(٢) سورة الحجر ، آية : ٢٨ . والحديث من « الحمأ » تقدم فى : ٤٥١/٤ .

(٣) تفسير الطبرى : ١٠/١٦ .

(٤) منحة المعبود ، ما جاء فى القراءات : ٧/٢ . وأخرجه ابن جرير الطبرى فى تفسيره : ١٠/١٦ عن الفضل بن داود الواسطى ، عن أبى داود بإسناده .

(٥) أى : يمنعها .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٢٠٧/٢ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا حجاج بن حمزة ، حدثنا محمد — يعني ابن بشر — حدثنا عمرو بن ميمون ، أنبأنا ابن حاضر (١) ، أن ابن عباس ذُكر له أن معاوية بن أبي سفيان قرأ الآية التي في سورة الكهف : (تغرب في عين حامية) ، قال ابن عباس : فقلت لمعاوية : ما نقرؤها إلا (حمئة) ، فسأل معاوية عبدَ الله بن عمرو : كيف تقرؤها ؟ فقال عبد الله : كما قرأتَها . قال ابن عباس : فقلت لمعاوية : في بيتي نزل القرآن . فأرسل إلى كعب فقال له : أين تجد الشمس تغرب في التوراة ؟ [فقال له كعب : سل أهل العربية ، فإنهم أعلم بها . وأما أنا فإني أجد الشمس تغرب في التوراة] في ماء وطين : وأشار بيده إلى المغرب ، قال ابن حاضر : لو أني عندكما أفدتُكَ بكلام تزداد فيه بصيرة في (حَمِئة) . قال ابن عباس : وإذاً ماهو ؟ قلتُ : فيما يُؤثَرُ من قول تُبَّع ، فيما ذَكَر به ذا القرنين ، في تَخَلُّقه بالعلم واتباعه إياه (٢) :

بَلَغَ المَشَارِقَ والمَغَارِبَ يَبْتَغِي ... أَسْبَابَ أَمْرٍ ، مِنْ حَكِيمٍ مُرْشِدِ

فَرَأَى مَغِيبَ (٣)الشَّمْسِ عِنْدَ غُرُوبِها ... فِي عَيْنِ ذِي خُلُبٍ وَثَأْطٍ حَرْمَدِ

قال ابن عباس : ما الخُلُب ؟ قلت : الطين بكلامهم : قال : ما الثاط ؟ قلت : الحَمْأة . قال : فما الحَرْمَد ؟ قلت : الأسود . قال : فدعا ابن عباس رجلا أو غلاما ، فقال : اكتب ما يقول هذا الرجل .

وقال سعيد بن جبير : بينا ابن عباس يقرأ سورة الكهف فقرأ : (وجدها تغرب في عين حَمِئة) . فقال كعب : والذي نفس كعب بيده ، ما سمعت أحداً يقرؤها كما أنزلت في التوراة غير ابن عباس ، فإنا نجدها في التوراة تغرب في مَدَرَة سوداء .

وقال أبو يعلى الموصلي : حدثنا إسحاق بن أبي إسرائيل ، حدثنا هشام بن يوسف قال : في تفسير ابن جريج : (ووجد عندها قوما) ، قال : مدينة لها اثنا عشر ألف باب ، لولا أصوات أهلها لسمع الناس وُجُوبَ (٤) الشمس حين تجب .

وقوله : (ووجد عندها قوما) ، أي : أمة من الأمم ، ذكروا أنها كانت أمة عظيمة من بني آدم .

وقوله : (قلنا ياذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا) ، معنى هذا : أن الله تعالى مكنه منهم ، وحكّمه فيهم ، وأظفره بهم ، وخيَّره : إن شاء قتل وسبى ، وإن شاء مَنَّ أو فدى . فعُرِفَ عدله وإيمانه فيما أبداه عدله وبيانه ، في قوله : (أما من ظلم) ، أي : من استمر على كفره وشركه بربه ، (فسوف نعذبه) — قال قتادة : بالقتل . وقال السدي : كان يحمي لهم بقر النحاس ويضعهم فيها حتى يذوبوا . وقال وهب بن منبه : كان يسلط الظلمة ، فتدخل أفواههم وبيوتهم ، وتغشاهم من جميع جهاتهم (٥) ، والله أعلم .

---

(١) هو عثمان بن حاضر . والأثر رواه الطبري مع خلاف عن الحسين بن الجنيد ، عن سعيد بن سلمة ، عن إسماعيل بن علية ، عن عثمان بن حاضر : ١٦/٩ ، ١٠ .

(٢) البيتان في اللسان ، مادة : ثأط ، منسوبين إلى أمية ، وهما في ديوانه : ٢٦ ، والثاني في اللسان ، مادة : حرمد ، منسوباً إلى أمية ، ونقل ابن منظور عن أبي عبيد أنه من قول تبع . والثاني أيضاً في اللسان ، مادة : خلب ، منسوباً إلى تبع أو غيره . والبيتان أيضاً في « البداية والنهاية » لابن كثير : ١٠٤/٢ .

(٣) في المخطوطة : « فرأى مغار » . والمثبت عن الطبعات السابقة ، واللسان ، وديوان أمية .

(٤) أي : سقوطها مع المغيب .

(٥) هذا من أثر غريب ذكره ابن جرير عن وهب : ١٥/١٦ ، وسينبه ابن كثير عليه ، ومما قاله : « وفيه طول وغرابة ونكارة » .

وقوله : (ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا) ، اى : شديداً بليغا وجيعا اليما . وفيه إثبات المعاد والجزاء .

وقوله : (وأما من آمن) ، اى : تابعنا على ماندعوه إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ، (فله جزاء الحسنى) ، أى : في الدار الآخرة عند الله عز وجل وسنقول له من أمرنا يسرا) ــ قال مجاهد : معروفا .

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾

يقول : ثم سلك طريقا فسار من مغرب الشمس إلى مطلعها ، وكان كلما مر بأمة قهرهم وغلبهم ودعاهم إلى الله عز وجل ، فإن أطاعوه وإلا أذلهم وأرغم آنافهم ، واستباح أموالهم وأمتعتهم ، واستخدم من كل أمة ما يستعين به مع جيوشه على أهل الإقليم المتاخم لهم . وذُكر فى أخبار بنى إسرائيل أنه عاش ألفا وستمائة سنة ، يجوب الأرض طولها والعرض ، حتى بلغ المشارق والمغارب . ولما انتهى إلى مطلع الشمس من الأرض كما قال الله تعالى : (وجدها تطلع على قوم) ، أى : أمة (لم نجعل لهم من دونها سترا) ، أى : ليس لهم بناء يكنّهم (١) ، ولا أشجار تُظلهم وتسترهم من حر الشمس .

قال سعيد بن جبير : كانوا حُمرا قصارا ، مساكنهم الغيران (٢) ، أكثر معيشتهم من السمك .

وقال أبو داود الطيالسى : حدثنا سهل بن أبى الصلت ، سمعت الحسن وسُئل عن قول الله تعالى : (لم نجعل لهم من دونها سترا) ، قال : إن أرضهم لا تحمل البناء ، فإذا طلعت الشمس تغوّروا فى المياه ، فإذا غربت خرجوا يتراعون كما ترعى البهائم . قال الحسن : هذا حديث سمُرة (٣) .

وقال قتادة : ذكر لنا أنهم بأرض لا تنبت لهم شيئا ، فهم إذا طلعت الشمس فى أسراب ، حتى إذا زالت الشمس خرجوا إلى حروثهم ومعايشهم .

وعن سلمة بن كُهيل أنه قال : ليس لهم أكنان (٤) ، إذا طلعت الشمس طلعت عليهم ، فلأحدهم أذنان يفترش إحداهما ويلبس الأخرى .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله : (وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا) ، قال : هم الزنج .

وقال ابن جُريج فى قوله : (وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا) ، قال : لم يبنوا فيها بناء قط ، ولم يُبن عليهم فيها بناء قط ، كانوا إذا طلعت الشمس دخلوا أسرابا لهم (٥) حتى تزول الشمس ، أو دخلوا البحر ،

---

(١) أى : يسترهم .
(٢) الغيران : جمع غار ، وهو الكهف .
(٣) أخرجه الطبرى عن إبراهيم بن المستمر ، عن سليمان بن داود بإسناده : ١٦/١٢ .
(٤) الأكنان : جمع كن ــ بكسر الكاف ــ وهو : البيت والوقاء .
(٥) فى المخطوطة : « دخلوا أسرابهم » . والمثبت من تفسير الطبرى .

وذلك أن أرضهم ليس فيها جبل ، جاءهم جيش مرّة فقال لهم أهلها : لا تطلعن عليكم الشمس وأنتم بها . قالوا : لا نبرح حتى تطلع الشمس ، ما هذه العظام ؟ قالوا : هذه جيَف جيش طلعت عليهم الشمس هاهنا فماتوا . قال : فذهبوا هاربين فى الأرض (١) » .

وقوله : (كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا) – قال مجاهد ، والسدّىّ : علما : أى : نحن مطلعون على جميع أحواله وأحوال جيشه ، لا يخفى علينا منها شىء ، وإن تفرقت أممهم وتقطعت بهم الأرض ، فإنه تعالى (لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء (٢)) :

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾

يقول تعالى مخبرا عن ذى القرنين : (ثم أتبع سببا) ، أى : ثمّ سلك طريقا من مشارق الأرض (حتى إذا بلغ بين السدين) ، وهما جبلان متناوحان (٣) بينهما ثُغْرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك ، فيعيثون فيهم فسادا ، ويهلكون الحرث والنسل ، ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم عليه السلام ، كما ثبت فى الصحيحين : « إن الله تعالى يقول : يا آدم . فيقول : لبيك وسعديك . فيقول : ابعث بَعْثَ النار . فيقول : وما بَعْثُ النار ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار ، وواحد إلى الجنة ؟ فحينئذ يشيب الصغير ، وتضع كل ذات حَمْل حملها ؛ فيقال : إن فيكم أمتين ، ما كانتا فى شىء إلا كثّرتاه : يأجوج ومأجوج (٤) » .

وقد حكى النووى رحمه الله فى شرح « مسلم » ، عن بعض الناس : أن يأجوج ومأجوج خلقوا من منىّ خرج من آدم فاختلط بالتراب ، فخلقوا من ذلك (٥) فعلى هذا يكونون مخلوقين من آدم ، وليسوا من حواء . وهذا القول غريب جداً ، لادليل عليه لا من عقل ولا نقل ، ولا يجوز الاعتماد هاهنا على ما يحكيه بعض أهل الكتاب ، لما عندهم من الأحاديث المفتعلة ، والله أعلم .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٦/ ١٢ .

(٢) سورة آل عمران ، آية : ٥ .

(٣) أى : متقابلان .

(٤) البخارى ، تفسير سورة الحج : ٦/ ١٢٢ ، ١٢٣ . وكتاب الرقاق ، باب قوله عز وجل : (إن زلزلة الساعة شىء عظيم) : ٨/ ١٣٧ ، ١٣٨ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « قوله : يقول الله لآدم : أخرج بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين » : ١/ ١٣٩ ، ١٤٠ .

(٥) صحيح مسلم بشرح النووى : ٣/ ٩٧ .

وفى مسند الإمام أحمد ، عن سَمُرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ولد نوح ثلاثة : سام أبو العرب ، وحام أبو السودان ، ويافث أبو الترك (١) » ــ فقال بعض العلماء هؤلاء من نسل يافث أبى الترك : قال : إنما سَمَوا هؤلاء تركا لأنهم تُركوا من وراء السد من هذه الجهة ، وإلا فهم أقرباء أولئك ، ولكن كان فى أولئك بغى وفساد وجَرَاءة : وقد ذكر ابن جرير ههنا عن وهب بن منبه أثراً طويلا عجيبا فى سير ذى القرنين ، وبنائه السد ، وكيفية ما جرى له : وفيه طول وغَرابة ونَكارة فى أشكالهم وصفاتهم ، [وطولهم] وقصر بعضهم ، وآذانهم (٢) : وروى ابن أبى حاتم أحاديث غريبة فى ذلك ، لا تصح أسانيدها ، والله أعلم .

وقوله : (وجد من دونها قوما لا يكادون يفقهون قولا) ، لاستعجام كلامهم وبعدهم عن الناس :

(قالوا : ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض ، فهل نجعل لك خرجا) ــ قال ابن جريج ، عن عطاء ، عن ابن عباس : أجرا عظيما : يعنى أنهم أرادوا أن يجمعوا له من بينهم مالا يعطونه إياه ، حتى يجعل بينهم وبينهم سدا : فقال ذو القرنين بعفة وديانة وصَلاح وقصد للخير : (ما مكنى فيه ربى خير) ، أى : إن الذى أعطانى الله من الملك والتمكين خيرٌ لى من الذى تجمعونه ، كما قال سليمان عليه السلام : (أتمدونن بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم ، بل أنتم بهديتكم تفرحون (٣)) : وهكذا قال ذو القرنين : الذى أنا فيه خير من الذى تبذلونه ، ولكن ساعدونى (بقوة) ، أى : بعملكم وآلات البناء ، (أجعل بينكم وبينهم ردما : آتونى زُبَر الحديد) ، « والزُبَر » : جمع « زُبْرَة » ، وهى القطعة منه : قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة . وهى كاللَّبِنَة ، يقال : كل لبنة [زنة] قنطار بالدمشقى ، أو تزيد عليه :

(حتى إذا ساوى بين الصدفين) ، أى : وَضَع بعضه على بعض من الأساس حتى إذا حاذى به رءوس الجبلين طولا وعرضا : واختلفوا فى مساحة عَرضه وطوله على أقوال ــ (قال : انفخوا) أى : أجَّجَ عليه النار حتى صار كلّه نارا ، (قال : آتونى أفرغ عليه قطرا) ــ قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، والضحاك ، وقتادة ، والسدّى : هو النحاس : وزاد بعضهم : المُذاب : ويستشهد بقوله تعالى : (وأسلنا له عين القطر) ولهذا يشبه بالبرد المُحَبَّر (٤) :

قال ابن جرير : حدثنا بشر ، حدثنا يزيد ، حدثنا سعيد ، عن قتادة قال : « ذكر لنا أن رجلا قال : يا رسول الله ، قد رأيتُ سدّ يأجوج ومأجوج : قال : انعته لى : قال : كالبرد المحبر ، طريقة سوداء ، وطريقة حمراء ، قال : قد رأيته » : هذا حديث مرسل :

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٥/٩ .
(٢) تفسير الطبرى : ١٦/١٤ – ١٨ .
(٣) سورة النمل آية ٣٦
(٤) البرد المحبر : الثوب الملون .

وقد بعث الخليفة الواثق فى دولته بعض أمرائه ، ووجه معه جيشا سرية ، لينظروا إلى السد ويعاينوه وينعتوه له إذا رجعوا ، فتوصلوا من بلاد إلى بلاد ، ومن مُلْك إلى مُلْك ، حتى وصلوا إليه ، ورأوا بناءه من الحديد ومن النحاس ، وذكروا أنهم رأوا فيه بابا عظيما ، وعليه أقفال عظيمة ، ورأوا بقية اللَّبِن والعمل فى بُرْج هناك ، وأن عنده حرساً من الملوك المتاخمة له ، وأنه منيف عال شاهق ، لا يستطاع ولا ما حوله من الجبال . ثم رجعوا إلى بلادهم ، وكانت غيبتهم أكثر من سنتين ، وشاهدوا أهوالا وعجائب .

ثم قال الله تعالى :

﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) * وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩)﴾

يقول تعالى مخبرا عن يأجوج ومأجوج أنهم ما قدروا على أن يصعدوا فوق هذا السد، ولا قدروا على نقبه من أسفله . ولما كان الظهور عليه أسهل من نقبه ، قابل كلاً بما يناسبه ، فقال : (فما اسطاعوا أن يظهروه ، وما استطاعوا له نقبا) . وهذا دليل على أنهم لم يقدروا على نقبه ، ولا على شىء منه .

فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد :

حدثنا روح ، حدثنا سعيد بن أبى عروبة ، عن قتادة ، حدثنا أبو رافع ، عن أبى هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم ، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم (١) : ارجعوا ، فستحفرونه غداً . فيعودون إليه كأشد ما كان ، حتى إذا بلغت مُدَّتُهم ، وأراد الله أن يبعثهم على الناس ، [حفروا ، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس](٢) قال الذى عليهم : ارجعوا ، فستحفرونه غدا إن شاء الله . ويستثنى (٣) ، فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه ، فيحفرونه ويخرجون على الناس ، فيَنْشَفُونَ(٤) المياه ، ويتحصن الناس منهم فى حصونهم ، فيرمون بسهامهم إلى السماء ، [فترجع وعليها كهيئة الدم ، فيقولون : قَهَرْنا أهلَ الأرض وعَلَوْنا أهل السماء] . فيبعث الله عليهم نَغَفًا(٥) فى أقفائهم ، فيقتلهم بها . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده ، إن دواب الأرض لتسمن ، وتَشْكَرُ شَكَرًا(٦) من لحومهم ودمائهم (٧) » .

---

(١) أى : الذى هو أمير عليهم .
(٢) ما بين القوسين عن المسند وابن ماجه . وهذه الزيادة غير ثابتة فى الترمذى .
(٣) أى يقول : إن شاء الله .
(٤) كذا فى المسند وابن ماجه . وأصل النشف : دخول الماء فى الأرض أو الثوب ، يقال : نشفت الأرض الماء تنشفه نشفا : شربته . ونشف الثوب العرق وتنشفه . وفى سنن الترمذى : « فيستقون المياه » .
(٥) النغف - بفتح النون والغين - : دود يكون فى أنوف الإبل والغنم ، جمع : نغفة .
(٦) يقال : شكرت الناقة ، من باب سمع - : امتلأ ضرعها لبنا ، والدابة : سمنت .
(٧) مسند الإمام أحمد : ٢ / ٥١٠ ، ٥١١ . وسنن ابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب « فتنة الدجال ، وخروج عيسى بن مريم وخروج يأجوج ومأجوج » ، الحديث ٤٠٨٠ : ٢ / ١٣٦٤ ، ١٣٦٥ . وسنن الترمذى ، أبواب التفسير ، تفسير سورة الكهف ، الحديث ٥١٦٠ : ٨ / ٥٩٧ - ٥٩٩ .

ورواه أحمد أيضا عن حسن ـ هو ابن موسى الأشيب ـ عن سفيان ، عن قتادة ، به ؛ وكذا رواه ابن ماجه ، عن أزهر بن مَرْوَان ، عن عبد الأعلى ، عن سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة قال : حدث أبو رافع . وأخرجه الترمذى ، من حديث أبي عوانة ، عن قتادة ؛ ثم قال : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

وهذا إسناد جيد قوى ، ولكن فى رفعه نكارة ؛ لأن ظاهر الآية يقتضى أنهم لم يتمكنوا من ارتقائه ولا من نقبه ؛ لإحكام بنائه وصلابته وشدته؛ ولكن هذا قد روى عن كعب الأحبار : أنهم قبل خروجهم يأتونه فيلحَسُونه حتى لا يبقى منه إلا القليل ، فيقولون : غدا نفتحه ؛ فيأتون من الغد وقد عاد كما كان ، فيلحسونه حتى لا يبقى منه إلا القليل ، فيقولون كذلك ، ويصبحون وهو كما كان ، فيلحسونه ويقولون : غدا نفتحه ؛ ويلهمون أن يقولوا : « إن شاء الله » ، فيصبحون وهو كما فارقوه ، فيفتحونه ؛ وهذا متَّجه ، ولعل أبا هريرة تلقاه من كعب ؛ فإنه كثيرا ما كان يجالسه ويحدثه ، فحدث [به] أبو هريرة ، فتوهم بعض الرواة عنه أنه مرفوع ، فرفعه ؛ والله أعلم .

ويؤكد ما قلناه ، من أنهم لم يتمكنوا من نَقْبه ولا نقب شيء منه ، ومن نكارة هذا المرفوع ، قولُ الإمام أحمد :

حدثنا سفيان ، عن الزهرى ، عن عروة ، عن [زينب بنت أبي سلمة ، عن حبيبة بنت أم حبيبة بنت أبي سفيان ، عن أمها أم حبيبة ، عن] زينب بنت جَحش زوج النبيِّ صلى الله عليه وسلم ـ قال سفيان : أربع نسوة ـ قالت : استيقظ النبى صلى الله عليه وسلم من نومه ، وهو محمرّ وجهُه ، وهو يقول : لا إله إلا الله ! ويل للعرب من شر قد اقترب ! فُتِح اليومَ من رَدْم يأجوج ومأجوج مثل هذا وحَلَّق(١) ـ قلت : يا رسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم إذا كثر الخَبَث (٢) .

هذا حديث صحيح ، اتفق البخارى ومسلم على إخراجه ، من حديث الزهرى ؛ ولكن سقط فى رواية البخارى ذكر حبيبة ، وأثبتها مسلم ؛ وفيه أشياء عزيزة نادرة قليلة الوقوع فى صناعة الإسناد ، منها رواية الزهرى عن عروة ، وهما تابعيان ومنها اجتماع أربع نسوة فى سنده ، كلهن يروى بعضهن عن بعض ؛ ثم كل منهن صحابية ، ثم ثنتان ربيبتان وثنتان زوجتان رضى الله عنهن ؛

وقد رُوى نحو هذا عن أبي هريرة أيضا ، فقال البزار : حدثنا محمد بن مرزوق، حدثنا مُؤمَّل بن إسماعيل، حدثنا وُهَيب ، عن ابن طاوس ، عن أبيه، عن أبي هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: « فُتِح اليوم من رَدْم يأجوج ومأجوج مثلُ هذا ـ وعقَد التسعين ؛ وأخرجه البخارى ومسلم ، من حديث وهيب ، به (٣) .

---

(١) فى صحيح البخارى : « وعقد سفيان تسعين أو مائة » . والعقد نوع من أنواع الدلالات ، وهو ضرب من الحساب يكون بأصابع اليدين ، يقال له : حساب اليد ، ينظر الخزانة : ٣ / ١٤٧ ، والحيوان للجاحظ : ١ / ٣٣ ، والبيان والتبيين : ٧٦/١ .

(٢) الخبث : الفسوق والفجور . والحديث أخرجه الإمام أحمد فى مسنده : ٦ / ٤٢٨ ، ٤٢٩ . وأخرجاه فى كتاب الفتن ، ينظر البخارى باب « قول النبى صلى الله عليه وسلم : ويل للعرب من شر قد اقترب » : ٩ / ٦٠ . ومسلم ، باب « اقتراب الفتن » : ١٦٥/٨ ، ١٦٦ .

(٣) البخارى ، كتاب الأنبياء ، باب « قصة يأجوج ومأجوج » ٤ / ١٦٨ . ومسلم فى الكتاب والباب المتقدمين : ١٦٦/٨ .

وقوله : (قال هذا رحمة من ربي) ، أي : لما بناه ذو القرنين (قال : هذا رحمة من ربي) ، أي : بالناس ، حيث جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلا يمنعهم من العيث في الأرض والفساد . (فإذا جاء وعد ربي) ، أي : إذا اقترب الوعد الحق ، (جعله دكاء) ، أي : ساواه بالأرض . تقول العرب : « ناقة دكاء » ، إذا كان ظهرها مستويا ، لاسنام لها . وقال تعالى : (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا)(١) ، أي : مساويا للأرض .

وقال عكرمة في قوله : (فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء) ، قال : طريقا كما كان .

(وكان وعد ربي حقا) ، أي : كائن لا محالة

وقوله : (وتركنا بعضهم) ، أي : الناس يومئذ ، أي : يوم يدك هذا السد ويخرج هؤلاء فيموجون في الناس ويفسدون على الناس أموالهم ويتلفون أشياءهم ، وهكذا قال السدي في قوله : (وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض) ، قال : ذاك حين يخرجون على الناس . وهذا كله قبل يوم القيامة وبعد الدجال ، كما سيأتي بيانه عند قوله : (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون . واقترب الوعد الحق)(٢) وهكذا قال هاهنا : (وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ونفخ في الصور فجمعناهم جمعاً) ، قال ابن زيد في قوله : (وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض) . قال : هذا أول يوم القيامة ، (ثم نفخ في الصور) على أثر ذلك ، (فجمعناهم جمعا)(٣)

وقال آخرون : بل المراد بقوله : (وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض) ، أي : يوم القيامة يختلط الإنس والجن .

روى ابن جرير ، عن محمد بن حميد ، عن يعقوب القمي ، عن هارون بن عنترة ، عن شيخ من بني فزارة في قوله : (وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض) ، قال : إذا ماج الإنس والجن ، قال إبليس : أنا أعلم لكم علم هذا الأمر ، فيظعن إلى المشرق ، فيجد الملائكة قد بطنوا (٤) الأرض ، ثم يظعن إلى المغرب فيجد الملائكة بطنوا الأرض ، فيقول : [« مامن محيص »] . ثم يظعن يمينا وشمالا إلى أقصى الأرض ، فيجد الملائكة بطنوا الأرض ، فيقول : « مامن محيص » . فبينا هو كذلك ، إذ عرض له طريق كالشراك ، فأخذ عليه هو وذريته ، فبينا هم عليه إذ هجموا على النار ، فأخرج الله خازنا من خزان النار ، فقال : يا إبليس ، ألم تكن لك المنزلة عند ربك ؟! ألم تكن في الجنان ؟! فيقول : ليس هذا يوم عتاب ، لو أن الله فرض علي فريضة لعبدته فيها عبادة لم يعبده مثلها أحد من خلقه . فيقول : فإن الله قد فرض عليك فريضة . فيقول : ماهي ؟ فيقول : يأمرك أن تدخل النار . فيتلكأ عليه ، فيقول (٥) به وبذريته بجناحيه فيقذفهم في النار . فتزفر النار زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثى لركبتيه (٦) .

---

(١) سورة الأعراف ، آية : ١٤٣ .
(٢) سورة الأنبياء ، آية : ٩٦ .
(٣) تفسير الطبري : ١٦ / ٢٤ .
(٤) يقال : « بطنت الوادي » : دخلته . ولفظ الطبري : « قد قطعوا » .
(٥) تقدم مراراً أن القول قد يطلق في لغة العرب على جميع الأفعال .
(٦) تفسير الطبري : ١٦ / ٢٣ ، ٢٤ .

وهكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث يعقوب القمي، به . رواه من وجه آخر ،عن يعقوب ،عن هارون بن عنترة،عن أبيه ، عن ابن عباس : (وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض) ، قال : الجن والإنس ، يموج بعضهم في بعض .

وقال الطبراني : حدثنا عبد الله بن محمد بن العباس الأصفهاني ، حدثنا أبو مسعود أحمد بن الفرات ، حدثنا أبو داود الطيالسي ، حدثنا المغيرة بن مسلم ، عن أبي إسحاق ، عن وهب بن جابر ،عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم ، ولو أرسلوا لأفسدوا على الناس معايشهم . ولن يموت رجل منهم إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً ، وإن من ورائهم ثلاث أمم : تاويل ، وتايس ، ومنسك » .

هذا حديث غريب ، بل منكر ضعيف .

وروى النسائي من حديث شعبة ، عن النعمان بن سالم ، عن عمرو بن أوس ، عن أبيه ، عن جده أوس بن أبي أوس ، مرفوعا : « إن يأجوج ومأجوج لهم نساء ، يجامعون ماشاءوا ، وشجر يلقحون ماشاءوا ، ولا يموت رجل منهم إلا ترك من ذريته ألفا فصاعداً » .

وقوله : (ونفخ في الصور) ــ والصور كما جاء في الحديث : قرن يُنفَخ فيه، والذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام كما تقدم في الحديث (١) بطوله ، والأحاديث فيه كثيرة .

وفي الحديث عن عطية ، عن ابن عباس وأبي سعيد مرفوعاً : « كيف أنعم ، وصاحب القرن قد التقم القرْن ، وحنى جبهته(٢) ، واستمع متى يؤمر . قالوا : كيف نقول ؟ قال: قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا(٣) » .

وقوله : (فجمعناهم جمعاً) ، أي : أحضرنا الجميع للحساب ، (قل : إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم(٤)) ، (وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً (٥)) .

وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾

يقول تعالى مخبرا عما يفعله بالكفار يوم القيامة : أنه يَعرض عليهم جهنم ، أي : يبرزها لهم ويظهرها ، ليَرَوا مافيها من العذاب والنكال قبل دخولها ، ليكون ذلك أبلغ في تعجيل الهم والحزن لهم .

---

(١) ينظر تفسير الآية ٧٣ من سورة الأنعام : ٣ / ٢٧٦ : ٢٨٢ .

(٢) أنعم : أي : أفرح وأتنعم . وحنى جبهته : أمالها . وهو كناية عن المبالغة في التوجه لإصغاء السمع .

(٣) أخرجه الترمذي من عطية عن أبي سعيد في أبواب صفة القيامة « ما جاء في الصور » ، الحديث ٢٥٤٨ : ٧ / ١١٧ ، ١١٨ . وفي أول تفسير سورة الزمر ، الحديث ٣٢٩٤ : ٩ / ١١٥ ، ١١٦ . وقال الترمذي : « هذا حديث حسن » . ويقول الحافظ أبو العلى صاحب تحفة الأحوذي ١١٨/٧ : « وأخرجه الحاكم وصححه » ونقل عن الحافظ في الفتح بعد ذكر حديث أبي سعيد هذا : « وأخرجه الطبراني من حديث زيد بن أرقم ، وابن مردويه من حديث أبي هريرة ، ولأحمد والبيهقي من حديث ابن عباس ... وفي أسانيد كل منها مقال » .

هذا وينظر ما تقدم في تفسير سورة الأنعام : ٣ - ٢٧٦ .

(٤) سورة الواقعة آية : ٤٩ ، ٥٠ .

(٥) سورة الكهف آية : ٤٧ .

وفى صحيح مسلم ، عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يؤتى بجهنم تقاد يوم القيامة بسبعين ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك [يجُرّونها] »(١) .

ثم قال مخبراً عنهم : (الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى) ، أى : تعاموا وتغافلوا وتصامّوا عن قبول الهدى واتباع الحق ، كما قال تعالى : (ومن يَعْشُ عن ذكر الرحمن نقيّض له شيطانا فهو له قرين)(٢) ، وقال هاهنا : (وكانوا لا يستطيعون سمعا) ، أى : لا يعقلون عن الله أمره ونهيه .

ثم قال : (أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء) ، أى : اعتقدوا أنهم يصح لهم ذلك ، وينتفعون بذلك ؟ (كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا) ، ولهذا أخبر أنه قد أعد لهم جهنم يوم القيامة منزلا .

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾

قال البخارى : حدثنا محمد بن بشار : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن عَمْرو ، عن مُصعَب قال : سألت أبى — يعنى سعد بن أبى وقاص — : (قل : هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا) : أهم الحَرُورية ؟ قال : لا ، هم اليهود والنصارى ، أما اليهود فكذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم ، وأما النصارى كفروا(٣) بالجنة ، وقالوا : لا طعامَ فيها ولا شراب . والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه : وكان سعد : رضى الله عنه يسميهم الفاسقين(٤) .

وقال على بن أبى طالب ، والضحاك ، وغير واحد : هم الحرورية(٥) .

ومعنى هذا عن على رضى الله عنه : أن هذه الآية الكريمة تشمل الحَرُورية كما تشمل اليهود والنصارى وغيرهم ، لا أنها نزلت فى هؤلاء على الخصوص ولا هؤلاء ، بل [هى] أعم من هذا؛ فإن هذه الآية مكية قبل خطاب اليهود والنصارى وقبل وجود الخوارج بالكلية ، وإنما هى عامة فى كل من عبد الله على غير طريقة مَرْضيّة يحسب أنه مصيب

---

(١) مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ، باب « فى شدة حر نار جهنم وبعد قعرها وما تأخذ من المعذبين » : ٨ / ١٤٩ ، وما بين القوسين عنه . والحديث أخرجه الترمذى فى أبواب صفة جهنم ، باب ما جاء فى صفة النار ، الحديث ٢٦٩٨ : ٧ / ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، وقال الترمذى : « قال عبد الله بن عبد الرحمن : والثورى لا يرفعه » وقال الحافظ أبو العلى صاحب تحفة الأحوذى : « حديث حفص بن غياث ، عن العلاء بن خالد ، عن شقيق ، عن عبد الله بن مسعود المرفوع . أخرجه مسلم . قال النووى : « هذا الحديث مما استدركه الدارقطنى على مسلم ، وقال : رفعه وهم ، رواه الثورى ومروان وغيرهما عن العلاء بن خالد موقوفاً . قال : وحفص ثقة حافظ إمام ، فزيادة الرفع مقبولة » .

(٢) سورة الزخرف ، آية : ٣٦ .

(٣) كذا فى مخطوطة الأزهر ، وإحدى روايتى الصحيح ، والأخرى : « فكفروا » . وأخرجه الطبرى عن محمد بن المثنى ، عن محمد بن جعفر بإسناده : ١٦/٢٧ .

(٤) البخارى ، تفسير سورة الكهف : ٦/١١٧ .

(٥) تفسير الطبرى : ١٦/٢٧ .

فيها ، وأن عمله مقبول ، وهو مخطىء ، وعمله مردود ، كما قال تعالى: (وجوه يومئذ خاشعة . عاملة ناصبة . تصلى ناراً حامية (١)) ، وقوله تعالى : (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا (٢)) ، وقال تعالى : (والذين كفروا بربهم أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً) (٣) .

وقال فى هذه الآية الكريمة : (قل هل ننبئكم) ، أى : نخبركم (بالأخسرين أعمالا) ؟ ثم فسرهم فقال : (الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا) ، أى : عملوا أعمالا باطلة على غير شريعة مشروعة مرضية مقبولة ، (وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً) ، أى : يعتقدون أنهم على شىء ، وأنهم مقبولون محبوبون .

وقوله : (أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه) ، أى : جحدوا آيات الله فى الدنيا ، وبراهينه التى أقام على وحدانيته ، وصدق رسله ، وكذبوا بالدار الآخرة ، (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) ، أى: لا نثقل موازينهم لأنها خالية عن الخير .

قال البخارى : حدثنا محمد بن عبد الله ، حدثنا سعيد بن أبى مريم ، أخبرنا المغيرة ، حدثنى أبو الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنه ليأتى الرجلُ العظيمُ السمين يوم القيامة ، لايزن عند الله جناح بعوضة ــ وقال : اقرءوا إن شئتم : (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) . وعن يحيى بن بُكير ، عن مغيرة بن عبد الرحمن عن أبى الزناد ، مثله (٤) .

هكذا ذكره عن يحيى بن بكير معلقا . وقد رواه مسلم عن أبى بكر محمد بن إسحاق ، عن يحيى بن بكير ، به (٥) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو الوليد ، حدثنا عبد الرحمن بن أبى الزناد ، عن صالح مولى التوأمة ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يؤتى بالرجل الأكول الشروب العظيم ، فيوزن بحبة فلا يزنُها . قال : وقرأ : (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) .

وكذا رواه ابن جرير ، عن أبى كريب ، عن أبى الصلت ، عن ابن أبى الزناد ، عن صالح مولى التوأمة ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، مرفوعا (٦) . فذكره بلفظ البخارى سواء .

وقال أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار : حدثنا العباس بن محمد ، حدثنا عون بن عُمارة ، حدثنا هشام ابن حسان ، عن واصل ، عن عبد الله بن بريدة ، عن أبيه قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل رجل من قريش يخطر فى حُلّة له ، فلما قام على النبى صلى الله عليه وسلم قال: يا بريدة ، هذا ممن لا يقيم الله له يوم القيامة وزنا .

(١) سورة الغاشية ، الآيات : ٢ ــ ٤ .
(٢) سورة الفرقان ، آية : ٢٣ .
(٣) سورة النور ، آية : ٣٩ .
(٤) البخارى ، تفسير سورة الكهف : ٦ /١١٧ .
ومعنى الحديث : أنه يأتى الرجل العظيم القدر فى الدنيا من الجاه والمال ، فلا يكون له قدر عند الله ، لخلو قلبه من الإيمان .
(٥) مسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار : ٨ /١٢٥ .
(٦) تفسير الطبرى : ١٦ /٢٩ .

ثم قال : تفرد به واصل مولى أبي عتبة وعون بن عمارة ، وليس بالحافظ . ولم يتابع عليه وقد قال ابن جرير أيضاً : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن شمر (١) ، عن أبي يحيى ، عن كعب قال : يؤتى يوم القيامة برجل عظيم (٢) طويل ، فلا يزن عند الله جناح بعوضة ، اقرءوا : (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا (٣)) .

وقوله : (ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا) ، أي : إنما جازيناهم بهذا الجزاء جهنم ، بسبب كفرهم واتخاذهم آيات الله ورسله هزوا ، استهزءوا بهم ، وكذبوهم أشد التكذيب .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾

يخبر تعالى عن عباده السعداء ، وهم الذين آمنوا بالله ورسله ، وصدقوهم فيما جاءوا به ، بأن لهم جنات الفردوس .

قال مجاهد : الفردوس هو : البستان بالرومية .

وقال كعب ، والسدي ، والضحاك : هو البستان الذي فيه شجر الأعناب .

وقال أبو أمامة : الفردوس : سرة الجنة .

وقال قتادة : الفردوس : ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها .

وقد روى هذا مرفوعا من حديث سعيد بن بشير ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن سمرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : « الفردوس : ربوة الجنة ، أوسطها وأحسنها » .

وهكذا رواه إسماعيل بن مسلم ، عن الحسن ، عن سمرة ، مرفوعا . وروى عن قتادة ، عن أنس بن مالك مرفوعا بنحوه . وقد نقله ابن جرير رحمه الله (٤) .

وفي الصحيحين : « إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس ، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة (٥) » .

وقوله : (نزلا) ، أي : ضيافة ، فإن النزل هو الضيافة .

وقوله : (خالدين فيها) ، أي : مقيمين ساكنين فيها ، لا يظعنون عنها أبداً ، (لا يبغون عنها حولا) ، أي : لا يختارون غيرها ، ولا يحبون سواها ، وكما قال الشاعر (٦) :

فَحَلَّتْ سُوَيْدَا القَلْبِ ، لَا أَنَا بَاغِياً سِوَاهَا ، وَلَا عَنْ حُبِّهَا أَتَحَوَّلُ

---

(١) هو : شمر بن عطية ، ينظر ترجمته في التهذيب : ٤/٣٦٤ ، ٣٦٥ .
(٢) في المخطوطة : « يؤتى يوم القيامة بعظيم » . والمثبت من تفسير الطبري .
(٣) تفسير الطبري : ١٦/٢٩ .
(٤) تفسير الطبري : ١٦/٣٠ ، ٣١ .
(٥) البخاري ، كتاب التوحيد : ٩/١٥٣ .
(٦) النابغة الجعدي ، والبيت في مغني اللبيب ، طبعة بيروت : ٢٦٥ ، وروايته فيه :
وحلت سواد القلب ، لا أنا باغيا سواها ولا عن حبها متراخيا

وفى قوله : (لا يبغون عنها حولا) ، تنبيه على رغبتهم فيها ، وحبهم لها ، مع أنه قد يُتَوَهَّم فيمن هو مقيم فى المكان دائما أنه يسأمه أو يَمَلّه ، فأخبر أنهم مع هذا الدوام والخلود السرمدىّ ، لا يختارون عن مقامهم ذلك متحولا ولا انتقالا ، ولا ظعنا ولا رحلة ولا بدلا .

قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا (١٠٩)

يقول تعالى : قل يا محمد : لو كان ماء البحر مداداً للقلم الذى تكتب به كلمات ربى وحكمه وآياته الدالة عليه ، لنفد البحر قبل أن يفرغ كتابة ذلك ، (ولو جئنا بمثله مددا) ، أى : بمثل البحر آخر ، ثم آخر ، وهلم جرا ، بحور تمده ويكتب بها ، لما نفدت كلمات الله ، كما قال تعالى : (ولو أن مافى الأرض من شجرة أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ، ما نفدت كلمات الله ، إن الله عزيز حكيم)(١) :

قال الربيع بن أنس : إن مثل علم العباد كلهم فى علم الله كقطرة من ماء البحور كلها ، وقد أنزل الله ذلك: (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى ، لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً) .

يقول : لو كان البحر مدادا ، والشجر كله أقلام ، لانكسرت الاقلام وفنى ماء البحر ، وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شىء ، لأن أحداً لا يستطيع أن يقَدُرَ قدره ولا يثنى عليه كما ينبغى ، حتى يكون هو الذى يثنى على نفسه ، إن ربنا كما يقول وفوق ما نقول ، إن مثل نعيم الدنيا أولها وآخرها فى نعيم الآخرة كحبة من خردل فى خلال الأرض :

قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا (١١٠)

روى الطبرانى من طريق هشام بن عمار ، عن إسماعيل بن عياش ، عن عمرو بن قيس الكوفى : أنه سمع معاوية ابن أبى سفيان أنه قال : هذه آخر آية أنزلت (٢) :

يقول لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم : (قل) لهؤلاء المشركين المكذبين برسالتك إليهم : (إنما أنا بشر مثلكم) ، فمن زعم أنى كاذب ، فليأت بمثل ماجئت به ، فإنى لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به من الماضى ، عما سألتم من قصة أصحاب الكهف ، وخبر ذى القرنين ، مما هو مطابق فى نفس [الأمر] ، لولا ما أطلعنى الله عليه . وأنا أخبركم (أنما إلهكم) الذى أدعوكم إلى عبادته ، (إله واحد) ، لا شريك له ، (فمن كان يرجو لقاء ربه) ، أى : ثوابه وجزاءه الصالح ، (فليعمل عملا صالحا) ، وهو ما كان موافقا لشرع الله ، (ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) ، وهو الذى يراد به وَجْهُ الله وحده لا شريك له : وهذان ركنا العمل المتقبل : لابد أن يكون خالصا لله ، صوابا على شريعة رسول الله : وقد روى ابن أبى حاتم ، من حديث معمر ، عن عبد الكريم الجزَرى ، عن طاوس قال : قال رجل : يا رسول

(١) سورة لقمان ، آية : ٢٧ .

(٢) وأخرجه الطبرى من إسماعيل بن عمرو السكونى ، من هشام بإسناده : ١٦/٣٢ .

الله ، إنى أقف المواقف أريد وجه الله ، وأحب أن يرى موطنى : فلم يرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا ، حتى نزلت هذه الآية : (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) .

وهكذا أرسل هذا مجاهد ، وغير واحد (١) .

وقال الأعمش : حدثنا حمزة أبو عُمارة مولى بنى هاشم ، عن شهر بن حوشب قال : جاء رجل إلى عبادة ابن الصامت فقال : أنبئنى عما أسألك عنه : أرأيت رجلا يصلى ، يبتغى وجه الله ، ويحب أن يُحمَد ، ويصوم ويبتغى وجه الله ، ويحب أن يُحمَد ، ويتصدق ويبتغى وجه الله ويحب أن يحمد ، ويحج ويبتغى وجه الله ويحب أن يُحمَد ، فقال عبادة : ليس له شىء ، إن الله تعالى يقول : أنا خير شريك ، فمن كان له معى شريك فهو له كله ، لا حاجة لى فيه (١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن عبد الله بن الزبير ، حدثنا كثير بن زيد ، عن رُبَيح بن عبد الرحمن بن أبى سعيد الخدرى عن أبيه ، عن جده قال : كنا نتناوب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنَبِيت عنده ، تكون له الحاجة ، أو يطرقه أمر من الليل ، فيبعثنا ، فكثر المحتسبون(٢)وأهل النُّوَب ، فكنا نتحدث ، فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما هذه النجوى؟ [ألم أنهكم عن النجوى] (٣) قال : فقلنا : تبنا إلى الله أىْ نبىَّ الله، إنما كنا فى ذكر المسيح (٤) ، وفرقنا منه، فقال : ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم من المسيح عندى ؟ قال : قلنا : بلى : قال : الشرك الخفى ، أن يقوم الرجل يصلى (٥) لمكان الرجل (٦) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو النضر ، حدثنا عبد الحميد ــ يعنى ابن بهرام ــ قال : قال شهر بن حوشب : قال ابن غنم لما دخلنا مسجد الجابية (٧) : أنا وأبو الدرداء ، لقينا عُبادة بن الصامت ، فأخذ يمينى بشماله ، وشمال أبى الدرداء بيمينه ، فخرج يمشى بيننا ونحن نتناجى ، والله أعلم بما نتناجى به ، فقال عبادة بن الصامت : إن طال بكما عمر أحدكما أو كليكما ، لتوشكان أن تريا الرجل من ثَبَج المسلمين ــ يعنى من وسط ــ قرأ القرآن على لسان محمد صلى الله عليه وسلم فأعاده وأبدأه ، وأحل حلاله وحرم حرامه ، ونزل عند منازله ، لايَحُورُ فيكم إلا كما يَحُورُ رأس الحمار الميت(٨) . قال : فبينما نحن كذلك، إذ طلع شداد بن أوس رضى الله عنه ، وعوف بن مالك ، فجلسا إلينا ، فقال شداد : إن أخوف ما أخاف عليكم أيها الناس لَمَا سمعت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: من الشهوة الخفية والشرك . فقال عبادة بن الصامت ، وأبو الدرداء : اللهم غفرا . أو لم يكن رسول الله صلى الله عليه و سلم [قد] حدثنا أن الشيطان

---

(١) ينظر تفسير الطبرى : ٣٢/١٦ .
(٢) المحتسبون : طالبو القرى ، يعنى الضيوف .
(٣) ما بين القوسين عن المسند .
(٤) هــو المسيح الدجال .
(٥) فى المسند : « يقوم الرجل بعمل » .
(٦) مسند الإمام أحمد : ٣٠/٣ .
(٧) الجــابية : قرية من أعمال دمشق .
(٨) أى : لا يرجع فيكم بخير ، ولا ينتفع بما حفظه من القرآن ، كما لا ينتفع بالحمار الميت صاحبه .

قد يئس أن يعبد فى جزيرة العرب ، وأما الشهوة الخفية فقد عرفناها ، هى شهوات الدنيا من نسائها وشهواتها ، فما هذا الشرك الذى تخوفنا به يا شداد ؟ فقال شداد : أرأيتكم لو رأيتم رجلا يصلى لرجل ، أو يصوم لرجل [أو يتصدق له ، أترون أنه قد أشرك ؟ قالوا : نعم ، والله إنه من صلى لرجل أو صام له (١)] أو تصدق له ، لقد أشرك . فقال شداد : فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم [يقول] : « من صلى يرائى فقد أشرك ، ومن صام يرائى فقد أشرك ، ومن تصدق يرائى فقد أشرك » فقال عوف بن مالك عند ذلك : أفلا يعمد الله إلى ما ابتغى به وجهه من ذلك العمل كله ، فيقبل ما خلص له ويدع ما أشرك به ؟ فقال شداد عند ذلك : فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله يقول : أنا خير قسيم لمن أشرك بى ، من أشرك بى شيئا فإن [حَشْدَه](١) عمله قليله وكثيره لشريكه الذى أشرك به ، وأنا عنه غنى (٢) » .

طريق [أخرى] لبعضه ، قال الإمام أحمد : حدثنا زيد بن الحباب ، حدثنى عبد الواحد بن زياد ، أخبرنا عبادة ابن نُسَىّ ، عن شداد بن أوس رضى الله عنه ، أنه بكى ، فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : شىء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم [يقوله ، فذكرته] فأبكانى ، سمعت رسول الله يقول : أتخوف على أمتى الشرك والشهوة الخفية ، قلت : يا رسول الله ، أتشرك أمتك [من بعدك] ؟ قال : نعم ، أما إنهم لا يعبدون شمسا ولا قمرا ، ولا حجرا ولا وثنا ، ولكن يراءون بأعمالهم ، والشهوة الخفية أن يصبح أحدهم صائما فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه (٣) .

ورواه ابن ماجه (٤) من حديث الحسن بن ذكوان ، عن عبادة بن نسى ، به ، وعبادة فيه ضعف وفى سماعه من شداد نظر .

حديث آخر ، قال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا الحُسَين بن على بن جعفر الأحمر ، حدثنا على بن ثابت ، حدثنا قيس بن أبى حصين ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله يوم القيامة : أنا خير شريك ، من أشرك بى أحدا فهو له كله » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، سمعت العلاء يحدث عن أبيه ، عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم يرويه عن ربه عز وجل أنه قال : أنا خير الشركاء ، فمن عمل عملا أشرك فيه غيرى ، فأنا منه برىء ، وهو للذى أشرك (٥) » ، تفرد به من هذا الوجه .

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا يونس ، حدثنا ليث ، عن يزيد ــ يعنى ابن الهاد ــ عن عمرو ، عن محمود بن لبيد : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر » قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : الرياء ، يقول الله يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون فى الدنيا ، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء (٦) » .

---

(١) ما بين القوسين من المسند .
(٢) المسند : ١٢٥/٤ ، ١٢٦ .
(٣) المسند : ١٢٣/٤ ، ١٢٤ ، وما بين القوسين منه .
(٤) سنن ابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب « الرياء والسمعة » ، الحديث ٤٢٠٥ : ١٤٠٦/٢ .
(٥) مسند الإمام أحمد : ٣٠١/٢ .
(٦) مسند الإمام أحمد : ٤٢٨/٥ .

حديث آخر قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن بكر ، أخبرنا عبد الحميد — يعني ابن جعفر — أخبرني أبي ، عن زياد بن ميناء ، عن أبي سعيد بن أبي فضالة الأنصاري — وكان من الصحابة — أنه قال : سمعت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم القيامة ، ليوم لاريب فيه ، نادى مناد : من كان أشرك في عمل عمله لله أحدا ، فليطلب ثوابه من عند غير الله ، فان الله أغنى الشركاء عن الشرك (١) »

وأخرجه الترمذي وابن ماجه ، [من حديث محمد بن] بكر ، وهو البُرْسَاني (٢) به »

حديث آخر . قال الإمام أحمد : حدثنا أحمد بن عبد الملك ، حدثنا بكار ، حدثني أبي — يعني عبد العزيز بن أبي بكرة — عن أبي بكرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « من سَمَّعَ سَمَّعَ الله به ، ومن راءى راءى الله به(٣) » »

وقال الإمام أحمد : حدثنا معاوية ، حدثنا شيبان ، عن فراس ، عن عطية ، عن أبي سعيد الخدري ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من يرائي يرائي الله به ، ومن يُسَمِّع يُسَمِّع الله به(٤) » »

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد ، عن شعبة ، حدثني عمرو بن مرة ، قال : سمعت رجلا في بيت أبي عبيدة أنه سمع عبد الله بن عمرو يحدث ابن عمر ، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من سَمَّعَ الناس بعمله سَمَّعَ الله به ، سامع خَلْقَه ، وصَغَّره وحَقَّره : فَذَرَفت عينا عبد الله (٥) »

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا عمرو بن يحيي الأيلي ، حدثنا الحارث بن غسان ، حدثنا أبو عمران الجوني ، عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تُعرَض أعمال بني آدم بين يدي الله عز وجل يوم القيامة في صحف مختومة، فيقول الله : ألقوا هذا ، واقبلوا هذا : فتقول الملائكة : يارب ، والله ما رأينا منه إلا خيرا . فيقول : إن عمله كان لغير وجهي ، ولا أقبل اليوم من العمل إلا ما أريد به وجهي »

ثم قال : الحارث بن غسان ، روى عنه جماعة ، وهو بصري ليس به بأس (٦) »

قال ابن وهب : حدثني يزيد بن عياض ، عن عبد الرحمن الأعرج ، عن عبد الله بن قيس الخزاعي : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قام رياء وسمعة ، لم يزل في مَقْت الله حتى يجلس » »

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٢١٥/٤ .

(٢) تحفة الأحوذي ، تفسير سورة الكهف ، الحديث ٥١٦١ : ٥٩٩/٨ ، ٦٠٠ وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث محمد بن بكر . وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب « الرياء والسمعة » ، الحديث ٤٢٠٣ : ١٤٠٦/٢ .

(٣) المسند : ٤٥/٥ .

(٤) المسند : ٤٠/٣ .

(٥) المسند : ١٦٢/٢ ، وأخرجه من وجه آخر ، ينظر ١٩٥/٢ .

(٦) أخرجه السيوطي في الدر المنثور عن البزار والبيهقي : ٢٥٦/٤ .

وقال أبو يعلى : حدثنا محمد بن أبي بكر ، حدثنا محمد بن دينار ، عن إبراهيم الهجرى ، عن أبي الأحوص ، عن عوف بن مالك ، عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أحسن الصلاة حيث يراه الناس ، وأساءها حيث يخلو : فتلك استهانة ، استهان بها ربه عز وجل » .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو عامر إسماعيل بن عمرو السكونى ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا ابن عياش ، حدثنا عمرو بن قيس الكندى : أنه سمع معاوية بن أبي سفيان تلا هذه الآية ... : (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) ، وقال : إنها آخر آية نزلت من القرآن (١) .

وهذا أثر مشكل ؛ فان هذه الآية آخر سورة الكهف ، والكهف كلها مكية ولعل معاوية أراد أنه لم ينزل بعدها ما ينسخها ولا يغير حكمها ، بل هى مثبتة محكمة ، فاشتبه ذلك على بعض الرواة ، فروى بالمعنى ما فهمه ، والله أعلم .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا محمد بن على بن الحسن بن شقيق ، حدثنا النضر بن شميل ، حدثنا أبو قرة ، عن سعيد بن المسيب ، عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قرأ فى ليلة : (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) ، كان له من نور ، من عَدَنَ أبينُ إلى مكة ، حَشْوهُ الملائكة (٢) » غريب جداً .

آخر سورة الكهف ولله الحمد

(١) تفسير الطبرى : ٣٢/١٦ .

(٢) الدر المنشــور : ٢٥٨/٤ .

تفسير سورة مريم

وهى مكية

وقد روى محمد بن إسحاق فى السيرة من حديث أم سلمة (١) ، وأحمد بن حنبل عن ابن مسعود ، فى قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة : أن جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه قرأ صدر هذه السورة على النجاشى وأصحابه .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ (١) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ (٢) إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦)

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم فى أول سورة البقرة .

وقوله : (ذكْرُ رحمة ربك) ، أى : هذا ذكر رحمة الله بعبده زكريا .

وقرأ يحيى بن يعمر : (ذكَّرَ رحمةَ ربك عبدَه زكريا (٢)) .

(زكريا) : يمد ويقصر ، قراءتان مشهورتان ؛ وكان نبيا عظيما من أنبياء بنى إسرائيل ؛ وفى صحيح البخارى (٣) : أنه كان نجارا أى : أنه كان يأكل من عمل يديه فى النجارة .

وقوله : (إذ نادى ربه نداء خفياً) ، قال بعض المفسرين : إنما أخفى دعاءه ، لئلا ينسب فى طلب الولد إلى الرّعُونة لكبره . حكاه الماوردى .

---

(١) سيرة ابن هشام : ٣٣٦/١ . ورواه الإمام أحمد من حديث أم سلمة أيضاً : ٢٠١/١ - ٢٠٣ ، ٢٩٥/٥ - ٢٩٢ . وأما حديث الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود فى قصة الهجرة إلى الحبشة فانظره فى : ٤٦١/١ .

(٢) قال أبو حيان فى البحر المحيط ١٧٢/٦ : « وقرأ الحسن وابن يعمر (ذكر) فعلا ماضيا (رحمة) بالنصب ، وحكاه أبو الفتح [يعنى ابن جنى] وذكره الزمخشرى عن الحسن ، أى : هذا المتلو من القرآن ذكر رحمة ربك . وذكر الدانى عن ابن يعمر (ذكر) فعل أمر من « التذكير » ، (رحمة) بالنصب ، وعبده نصب بالرحمة ، أى : ذكر أن رحمة ربك عبده . وذكر صاحب اللوامح أن (ذكر) بالتشديد ماضياً عن الحسن باختلاف ، وهو صحيح عن ابن يعمر ، ومعناه : أن المتلو ، أى : القرآن ذكر برحمة ربك ، فلما نزع « الباء » انتصب ... » هذا وينظر المحتسب لابن جنى : ٣٧/٢ .

(٣) لم يقع إلينا حديث البخارى . والحديث أخرجه مسلم فى كتاب الفضائل ، باب « من فضائل زكرياء عليه السلام » : ١٠٣/٧ ، وابن ماجه فى كتاب التجارات ، باب « الصناعات » ، الحديث ٢١٥٠ : ٧٢٧/٢ . والإمام أحمد عن أبى هريرة : ٢٩٦/٢ ، ٤٠٥ .

وقال آخرون : إنما أخفاه لأنه أحب إلى الله . كما قال قتادة فى هذه الآية : (إذ نادى ربه نداء خفياً) : إن الله يعلم القلب التقى ، ويسمع الصوت الخفى (١) .

وقال بعض السلف : قام من الليل عليه السلام ، وقد نام أصحابه ، فجعل يهتف بربه ، يقول خفية : يارب ، يارب ، يارب . فقال الله : لبيك ، لبيك ، لبيك .

(قال : رب ، إنى وهن العظم منى) ، أى : ضَعُفْتُ وخارَتْ القوى ، (واشتعل الرأس شيبا) ، أى : اضطرم المشيب فى السواد ، كما قال ابن دُرَيد فى مقصورته (٢) :

إمَّا تَرَىْ رَأْسِى ا حَاكَى لونُهُ   طُرَّةَ صُبْحٍ تَحتَ أذْيَالِ الدُّجى (٣)
وَاشْتَعَلَ المُبْيَضُّ فِى مُسْوَدِّهِ   مِثْلَ اشتعَالِ النَّارِ فى جَمْرِ الغَضَا (٤)

والمراد من هذا : الإخبار عن الضعف والكبر ، ودلائله الظاهرة والباطنة .

وقوله : (ولم أكن بدعائك رب شقيا) ، أى : ولم أعهد منك إلا الإجابة فى الدعاء ، ولم تَرُدَّنِى قط فيما سألتك .

وقوله : (وإنى خفت الموالى من ورائى) ــ قرأ الأكثرون بنصب « الياء » من (الموالى) ، على أنه مفعول . وعن الكسائى أنه سكن الياء ، كما قال الشاعر (٥) :

كَأَنَّ أَيْدِيهِنَّ فِى القَاعِ القَرِقْ   أيدى جَوَارٍ يَتَعَاطَيْنَ الوَرِقْ (٦)

وقال الآخر :

فَتًى لو يُبَارِى الشَّمسَ أَلْقَتْ قِنَاعَهَا   أوالقَمَرَ السَّارِى ٱلأَلْقَى المَقَالِدَا (٧)

ومنه قول أبى تمام حبيب بن أوس الطائى :

تَغَايَرَ الشِّعْرُ فِيهِ إذْ سَهِرتُ لَهُ   حَتَّى ظَنَنْتُ قَوَافِيهِ سَتَقْتَتِلُ (٨)

وقال مجاهد ، وقتادة ، والسدى : أراد بالموالى العصبة . وقال أبو صالح : الكلالة .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٦/٣٥ .
(٢) شرح مقصورة ابن دريد : ٢ .
(٣) طرة كل شىء : حافته وجانبه ، والأذيال : الأطراف ، والدجى : الظلمة ، وهى جمع « دجية » .
(٤) الجزل : ما غلظ من الحطب . والغضا : ضرب من الشجر له جمر يبقى طويلا ، واحده : غضاة .
(٥) الرجز فى اللسان ، مادة : « قرق » غير منسوب .
(٦) القرق ــ بكسر الراء ــ : المكان المستوى ، يصف الراجز إبلا بالسرعة . والورق : الفضة . وفى اللسان : « أيدى نساء » . والشاهد أن الشاعر سكن ياء « أيديهن » ، وهى اسم كأن .
(٧) الشاهد أيضاً تسكين الياء من « السارى » والأصل : فتحها ، لأنه صفة لمنصوب .
(٨) الشاهد فيه تسكين الياء من « قوافيه » والأصل فتحها لأنه مفعول لظننت . والبيت فى ديوانه : ٢٢٧ ، وكان فى المخطوطة : « تغاير الشعر منه » . والمثبت من الديوان من قصيدة يمدح فيها أبو تمام المعتصم بالله .

وروى عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه أنه كان يقرؤها : (وإني خَفَّتِ الموالي من ورائي) ، بتشديد « الفاء » ، بمعنى : قلَّتْ عَصَبَاتى من بعدى(١) :

وعلى القراءة الأولى وجْهُ خوفه أنه خشى أن يتصرفوا بعده فى الناس تصرفا سيئا ، فسأل الله ولدا ، يكون نبيا من بعده ، ليسوسهم بنبوته ومايوحى [إليه] . فأجيب فى ذلك ، لا أنه خشى من وراثتهم له ماله ، فإن النبى أعظم منزلة وأجل قدرا من أن يُشفِقَ على ماله إلى ماهذا حدّه : أن يأنف من وراثة عَصَبَاته له ، ويسأل أن يكون له ولد ، فيحوز ميراثه دونهم : هذا وجه

الثانى : أنه لم يذكر أنه كان ذا مال ، بل كان نَجَّارا يأكل من كسب يديه ، ومثل هذا لايجمع مالا ، ولا سيما الأنبياء عليهم السلام ، فإنهم كانوا أزهد شيء في الدنيا :

الثالث أنه قد ثبت فى الصحيحين من غير وجه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لانُورَثُ ، ماتركنا فهو صدقة(٢) » : وفى رواية عند الترمذى باسناد صحيح : « نحن معشر الأنبياء لانورث(٣) » : وعلى هذا فتعين حمل قوله : (فهب لى من لدنك وليايرثنى) ، على ميراث النبوة ، ولهذا قال (ويرث من آل يعقوب) ، كما قال تعالى : (وورث سليمان داود (٤)) ، أى : فى النبوة ، إذ لو كان فى المال لما خصه من بين إخوته بذلك ، ولما كان فى الإخبار بذلك كبير فائدة ، إذ من المعلوم المستقر فى جميع الشرائع والملل أن الولد يرث أباه ، فلولا أنها وراثة خاصة لما أخبر بها ، وكل هذا يقرره ويثبته ماصح فى الحديث : « نحن معاشر الأنبياء لانورث ، ماتركنا فهو صدقة » :

قال مجاهد فى قوله : (يرثنى ويرث من آل يعقوب) : كان وراثته علما ، وكان زكريا من ذرية يعقوب :

وقال هشيم : أخبرنا إسماعيل بن أبى خالد ، عن أبى صالح فى قوله : (يرثنى ويرث من آل يعقوب) ، قال : يكون نبيا ، كما كانت آباؤه أنبياء :

وقال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة ، عن الحسن : يرث نبوته وعلمه :

وقال السدّى : يرث نُبُوَّتِى ونبوة آل يعقوب .

وعن مالك ، عن زيد بن أسلم : (ويرث من آل يعقوب) ، قال : نبوتهم :

وقال جابر بن نوح ويزيد بن هارون ، كلاهما عن إسماعيل بن أبى خالد ، عن أبى صالح فى قوله : (يرثنى ويرث من آل يعقوب) ، قال : يرث مالى ، ويرث من آل يعقوب النبوة :

---

(١) تفسير الطبرى : ٣٧/١٦ . والبحر المحيط لأبى حيان : ١٧٤/٦ .

(٢) البخارى ، باب فرض الخمس : ٩٦/٤ . ومسلم ، كتاب الجهاد ، باب قول النبى صلى الله عليه وسلم : « لانورث ، ما تركنا فهو صدقة » : ١٥٣/٥ .

(٣) الذى وقع إلينا فى سنن الترمذى مثل ما ورد فى الصحيحين . ينظر أبواب السير ، باب « ما جاء فى تركة النبى صلى الله عليه وسلم » ، الحديث ١٦٥٩ : ٢٣٣/٥ . أما هذه الرواية وهى : « نحن معشر الأنبياء لا نورث » فقد أخرجها الإمام أحمد عن أبى هريرة . المسند : ٤٦٣/٢ .

(٤) سورة النمل ، آية : ١٦ .

وهذا اختيار ابن جرير فى تفسيره .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن قتادة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يرحم الله زكريا ، وما كان عليه من ورثة ؟ ويرحم الله لوطا ، إن كان ليأوى إلى ركن شديد .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا جابر بن نوح ، عن مبارك ــ هو ابن فضالة ــ عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رحم الله أخى زكريا : ما كان عليه من ورثة ماله حين يقول : « هب لى من لدنك : وليا يرثنى ويرث من آل يعقوب (١) »

وهذه مرسلات لاتعارض الصحاح ، والله أعلم .

وقوله : (واجعله رب رضيا) ، أى : مرضيا عندك وعند خلقك ، تحبه وتحببه إلى خلقك ، فى دينه وخلقه

يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾

هذا الكلام يتضمن محذوفا ، وهو أنه أجيب إلى ماسأل فى دعائه ، فقيل : (يازكريا ، إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى) ، كما قال تعالى : (هنالك دعا زكريا ربه . قال : رب ، هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء . فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب : أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين (٢)) .

وقوله : (لم نجعل له من قبل سميا) ــ قال قتادة ، وابن جريج ، وابن زيد : أى لم يسم أحد قبله بهذا الاسم . واختاره ابن جرير رحمه الله .

وقال مجاهد : (لم نجعل له من قبل سميا) ، أى : شبيها .

أخذه من معنى قوله : (فاعبده واصطبر لعبادته ، هل تعلم له سميا (٣)) ، أى : شبيها .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : أى لم تلد العواقر قبله مثله (٤) .

وهذا دليل على أن زكريا عليه السلام كان لايولد له ، وكذلك امرأته كانت عاقرا من أول عمرها ، بخلاف إبراهيم وسارة عليهما السلام ، فإنهما إنما تعجبا من البشارة بإسحاق على كبرهما ، لا لعقرها ، ولهذا قال : (أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون) ، (٥) مع أنه قد كان قد ولد له قبله ، إسماعيل بثلاث عشرة سنة ، وقالت امرأته : (ياويلتى ! أألد وأنا عجوز ، وهذا بعلى شيخا ، إن هذا الشىء عجيب . قالوا : أتعجبين من أمر الله ، رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ، إنه حميد مجيد) (٦) .

---

(١) تنظر هذه الآثار واختيار ابن جرير فى تفسيره : ١٦/٣٧ ، ٣٨ .
(٢) سورة آل عمران ، آية : ٣٨ ، ٣٩ .
(٣) سورة مريم ، آية : ٦٥ .
(٤) تنظر هذه الآثار فى تفسير الطبرى : ١٦/٣٨ ، ٣٩ .
(٥) سورة الحجر ، آية : ٥٤ .
(٦) سورة هود ، آية : ٧٢ ، ٧٣ .

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ۝ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۝﴾

هذا تعجب من زكريا عليه السلام ، حين أجيب إلى ماسأل ، وبُشّر بالولد ، ففرح فرحا شديدا ، وسأل عن كيفية مايولد له ، والوجه الذى يأتيه منه الولد، [مع] أن امرأته عاقر لاتلد من أول عمرها مع كبرها ، ومع أنه قد كبر وعتا ، أى : عسا (١) عظمه ونحل ، ولم يبق فيه لقاح ولا جماع .

تقول العرب للعود إذا يبس : « عتا يعتو عتيا وعتوا ، وعسا يعسو عسوا وعسيا » .

وقال مجاهد : (عتيا) يعنى نحول العظم

وقال ابن عباس وغيره : (عتيا) ، يعنى الكبر (٢) .

والظاهر أنه أخص من الكبر .

وقال ابن جرير : حدثنا يعقوب ، حدثنا هشيم ، أخبرنا حصين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : لقد علمتُ السنة كلها ، غير أنى لاأدرى أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ فى الظهر والعصر أم لا ؟ ولا أدرى كيف كان يقرأ هذا الحرف : (وقد بلغت من الكبر عتيا) ، أو (عسيا) (٣) .

ورواه الإمام أحمد عن سُرَيج بن النعمان ، (٤) وأبو داود ، عن زياد بن أيوب ، كلاهما عن هشيم ، به .

(قال) ، أى : الملك مجيبا لزكريا عما استعجب منه : (كذلك قال ربك : هو على هين) ، أى : إيجاد الولد منك ومن زوجتك هذه لامن غيرها ، (هين) ، أى : يسير سهل على الله .

ثم ذكر له ماهو أعجب مما سأل عنه، فقال : (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا)، كما قال تعالى : (هل أتى على الإنسان حين من الدهر ، لم يكن شيئا مذكوراً) (٥) .

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝﴾

يقول تعالى مخبرا عن زكريا عليه السلام أنه (قال : رب اجعل لى آية) ، أى : علامة ودليلا على وجود ماوعدتنى ؛ لتستقر نفسى ويطمئن قلبى بما وعدتنى ، كما قال إبراهيم عليه السلام : (رب أرنى : كيف تحيى الموتى ؟ قال : أو لم تؤمن ؟

---

(١) أى : يبس وجف .

(٢) ينظر تفسير الطبرى : ١٦/٤٠ .

(٣) تفسير الطبرى : ١٦/٣٩ .

(٤) الذى أمامنا الآن رواية الإمام أحمد عن عثمان ، عن جرير ، عن حصين . المسند : ١/٢٥٧ ، ٢٥٨ .
وحديث أبى داود فى كتاب الصلاة ، باب « قدر القراءة فى صلاة الظهر والعصر » ، الحديث ٨٠٩ : ١/٢١٤ .

(٥) سورة الإنسان ، آية : ١ .

قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبى) الآية : (١) (قال : آيتك) ، أى : علامتك (أن لاتكلم الناس ثلاث ليال سويا) ، أى : أن تحبس لسانك عن الكلام ثلاث ليال وأنت صحيح سوىّ من غير مرض ولا علة .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، ووهب ، والسدى ، وقتادة ، وغير واحد : اعتقل لسانه من غير مرض ؛

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كان يقرأ ويسبح ، ولا يستطيع أن يكلم قومه إلا إشارة ؛

وقال العوفى ، عن ابن عباس : (ثلاث ليال سويا) ، أى : متتابعات (٢)

والقول الأول عنه وعن الجمهور أصح ، كما قال تعالى فى آل عمران : (قال : رب ، اجعل لى آية : قال : آيتك أن لاتكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا ، واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والإبكار) (٣) .

وقال مالك ، عن زيد بن أسلم : (ثلاث ليال سويا) ، من غير خرس ؛

وهذا دليل على أنه لم يكن يكلم الناس فى هذه الليالى الثلاث وأيامها : (إلا رمزاً) ، أى : إشارة ، ولهذا قال فى هذه الآية الكريمة : (فخرج على قومه من المحراب) ، أى : الذى بشر فيه بالولد ، (فأوحى إليهم) ، أى : أشار إشارة خفية سريعة : (أن سبحوا بكرة وعشيا) ، أى : موافقة له فيما أمر به فى هذه الأيام الثلاثة زيادة على أعماله ، وشكراً لله على ما أولاه ؛

قال مجاهد : (فأوحى إليهم) ، أى : أشار ؛ وبه قال وهب ، وقتادة ؛

وقال مجاهد فى رواية عنه : (فأوحى إليهم) ، أى : كتب لهم فى الأرض ؛ كذا قال السدى (٤)

يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾

وهذا أيضاً تضمن محذوفا ، تقديره : أنه وُجد هذا الغلام المُبَشَّر به ، وهو يحيى عليه السلام ، وأن الله علمه الكتاب ، وهو التوراة التى كانوا يتدارسونها بينهم ، ويحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار ؛ وقد كان سنه إذ ذاك صغيراً ، فلهذا نوّه بذكره ، وبما أنعم به عليه وعلى والديه ، فقال : (يا يحيى ، خذ الكتاب بقوة) ، أى : تعلم الكتاب (بقوة) ، أى : بجد وحرص واجتهاد ، (وآتيناه الحكم صبيا) ، أى : الفهم والعلم والجد والعزم ، والإقبال على الخير ، والإكباب عليه ، والاجتهاد فيه وهو صغير حدث .

قال عبد الله بن المبارك ، قال معمر : قال الصبيان ليحيى بن زكريا : اذهب بنا للعب . قال : ما للعب خلقت ؛ قال : فلهذا أنزل الله : (وآتيناه الحكم صبيا (٥)) .

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٢٦٠ .
(٢) تنظر هذه الآثار فى تفسير الطبرى : ١٦/٤٠، ٤١ .
(٣) سورة آل عمران ، آية : ٤١ .
(٤) تفسير الطبرى : ١٦/ ٤١ ، ٤٢ .
(٥) تفسير الطبرى : ١٦/٤٢ ، ٤٣ .

وقوله : (وحناناً من لدنا) ، قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (وحناناً من لدنا) ، يقول : ورحمة من عندنا : وكذا قال عكرمة ، وقتادة ، والضحاك وزاد : لا يقدر عليها غيرنا ؛ وزاد قتادة : رُحِم بها زكريا ؛

وقال مجاهد : (وحناناً من لدنا) ، وتعطفا من ربه عليه ؛

وقال عكرمة : (وحناناً من لدنا) ، [قال : محبة عليه ؛ وقال ابن زيد : أما الحنان فالمحبة ؛ وقال عطاء بن أبى رباح : (وحناناً من لدنا]) ، قال : تعظيما من لدنا ؛

وقال ابن جريج : أخبرنى عمرو بن دينار ، أنه سمع عكرمة ، عن ابن عباس قال : لا والله ، ما أدرى ما حنانا(١) ؛

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا جرير ، عن منصور : سألت سعيد بن جُبَير عن قوله : (وحناناً من لدنا) ، فقال : سألت عنها ابن عباس ، فلم يُحِر فيها شيئا (٢) ؛

والظاهر من هذا السياق أن : (وحنانا) معطوف على قوله : (وآتيناه الحكم صبيا) ، أى : وآتيناه الحكم ، وحناناً ، وزكاة ، أى : وجعلناه ذا حنان وزكاة ، فالحنان هو المحبة فى شفقة وميل ، كما تقول العرب : « حَنَّنَتِ الناقة على ولدها ، وحَنَّت المرأة على زوجها » ؛ ومنه سميت المرأة « حَنَّة » من الحَنَّة(٣) ، « وحن الرجل إلى وطنه » ، ومنه التعطف والرحمة ، كما قال الشاعر (٤) :

تَحَنَّنْ(٥) عَلَىَّ هَدَاكَ المَلِيكُ فَإِنَّ لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالاً

وفى المسند للامام أحمد ، عن أنس رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يبقى رجل فى النار ، ينادى ألف سنة : يا حنان ، يا منان (٦) » ؛

وقد يُثَنَّى ، ومنهم من يجعل ما ورد من ذلك لغة بذاتها ، كما قال طَرَفَة(٧) :

أَبَا مُنْذِرٍ ، أَفْنَيْتَ ، فَاسْتَبْقِ بَعْضَنَا حَنَانَيْكَ ، بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ(٨)

وقوله : (وزكاة) ، معطوف على (وحنانا) ، فالزكاة الطهارة من الدنس والآثام والذنوب ؛

وقال قتادة : الزكاة العمل الصالح .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٦/٤٣ .

(٢) لم نجد هذا الأثر فى تفسير الطبرى .

(٣) الحنة : العطف والشفقة والحيطة ، قال الطبرى : « ومن ذلك قيل لزوجة الرجل : « حنته » ؛ لتحننه عليها » .

(٤) هو الحطيئة ، ديوانه : ٧٢ . واللسان ، مادة : حنن . والبحر المحيط : ٦/١٧٧ .

(٥) فى مخطوطة الأزهر : « تعطف » . وعليه لا شاهد فى البيت . والمثبت من ديوانه ، واللسان ، وتفسير الطبرى ، والبحر المحيط .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٣/٢٣٠ .

(٧) ديوانه : ٢٠٨ .

(٨) أبو منذر : كنية عمرو بن هند . أفنيت : أصله أفنيتنا ، فحذف المفعول . وحنانيك : رحمة بعد رحمة . يقول : لقد أفنيت كثيراً منا ، فكن بنا رحيماً ، وإذا أردت عقاباً فليكن بأهون العقاب وأخفه .

وقال الضحاك ، وابن جريج ، العمل الصالح الزكى .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : (وزكاة وكان تقيا) : طهر ، فلم يعمل بذنب (١) .

وقوله : (وبرا بوالديه ، ولم يكن جبارا عصيا) : لما ذكر تعالى طاعته لربه ، وأنه خلقه ذا رحمة وزكاة وتقى ، عطف بذكر طاعته لوالديه وبره بهما ، ومجانبته عقوقهما ، قولا وفعلا ونهيا . ولهذا قال : (ولم يكن جبارا عصيا) . ثم قال بعد هذه الأوصاف الجميلة جزاء له على ذلك : (وسلام عليه يوم ولد ، ويوم يموت ، ويوم يبعث حيا) ، أى : له الأمان فى هذه الثلاثة الأحوال .

وقال سفيان بن عُيَيْنة : أوحش ما يكون الخلق فى ثلاثة مواطن : يوم يولد ، فيرى نفسه خارجا مما كان فيه ؛ ويوم يموت ، فيرى قوما لم يكن عاينهم . ويوم يبعث ، فيرى نفسه فى محشر عظيم ـ قال : فأكرم الله فيها يحيى بن زكريا ، فخصه بالسلام عليه ، فقال : (وسلام عليه يوم ولد ، ويوم يموت ، ويوم يبعث حيا) : رواه ابن جرير ، عن أحمد بن منصور المروزى (٢) ، عن صدقة بن الفضل (٣) ، عنه .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، فى قوله : (جبارا عصيا) ، قال : كان ابن المسيب يذكر قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : ما من أحد يلقى الله يوم القيامة إلا ذا ذنب ، إلا يحيى بن زكريا قال قتادة : ما أذنب ، ولا همّ بامرأة(٤) : مرسل .

وقال محمد بن إسحاق ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب ، حدثنى ابن العاص أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «كل بنى آدم يأتى يوم القيامة وله ذنب ، إلا ما كان من يحيى بن زكريا (٥) : ابن إسحاق هذا مدلس ، وقد عنعن هذا الحديث ، فالله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد ، أخبرنا على بن زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من أحد من ولد آدم إلا وقد أخطأ ، أو همّ بخطيئة ، ليس يحيى بن زكريا . وما ينبغى لأحد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى (٦).

وهذا أيضا ضعيف ، لأن على بن زيد بن جدعان له منكرات كثيرة ، والله أعلم .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٦/٤٤ .

(٢) فى الطبرى : « بن منصور الفيروزى » . والصواب ما فى تفسير ابن كثير ، وينظر تفسير الطبرى طبعة دار المعارف الأثر ٤٤٣٥ : ٤/٤٣٩ ، تعليق المحقق .

(٣) فى تفسير الطبرى ١٦/٤٥ : « عن صدقة بن الفضل ، سمعت ابن عطية » . وهو خطأ . وينظر ترجمة صدقة فى الخلاصة .

(٤) تفسير الطبرى : ١٦/٤٥ .

(٥) تفسير الطبرى : ١٦/٤٤ .

(٦) مسند الإمام أحمد : ١/٢٥٤ .

وقال سعيد بن أبي عَرُوبة ، عن قتادة : أن حسن قال : إن يحي وعيسى عليهما السلام التقيا ، فقال له عيسى : استغفرلى ، أنت خير منى . فقال له الآخر : استغفر لى فأنت خير منى . فقال له عيسى : أنت خير منى ؛ سلَّمتُ على نفسى ، وسلم الله عليك . فعُرف والله فضلها . (١) .

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۝١٦ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝١٧ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ۝١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ۝١٩ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝٢٠ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ۝٢١ ﴾

لما ذكر تعالى قصة زكريا عليه السلام ، وأنه أوجده منه ، فى حال كبره وعقم زوجته ، ولداً زكيا طاهرا مباركا — عطف بذكر قصة مريم فى إيجاده ولدها عيسى عليهما السلام منها من غير أب ، فان بين القصتين مناسبة ومشابهة ؛ ولهذا ذكرهما فى آل عمران وهاهنا ، وفى سورة الأنبياء ، يقرن بين القصتين لتقارب ما بينهما فى المعنى ، ليدل عباده على قدرته وعظمة سلطانه ، وأنه على ما يشاء قادر ، فقال : (واذكر فى الكتاب مريم) ، وهى مريم بنت عمران ، من سلالة داود عليه السلام ، وكانت من بيت طاهر طيب فى بنى إسرائيل . وقد ذكر الله تعالى قصة ولادة أمها لها ، فى « آل عمران » ، وأنها نذرتها مُحَرَّرة ، أى : تخدم بيت المقدس ، وكانوا يتقربون بذلك ، (فتقبلها ربها بقبول حسن ، وأنبتها نباتا حسنا (٢)) ، ونشأت فى بنى إسرائيل نشأة عظيمة ، فكانت إحدى العابدات الناسكات المشهورات بالعبادة العظيمة والتبتل والدؤوب ، وكانت فى كفالة زوج أختها — وقيل : خالتها — زكريا نبى بنى إسرائيل إذ ذاك وعظيمهم ، الذى يرجعون إليه فى دينهم ، ورأى لها زكريا من الكرامات الهائلة ما بهره ، (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا ، قال : يا مريم ، أنَّى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب)(٢) ، فذكر أنه كان يجد عندها ثمر الشتاء فى الصيف ، وثمر الصيف فى الشتاء ، كما تقدم بيانه فى « آل عمران (٣) » . فلما أراد الله تعالى — وله الحكمة والحجة البالغة — أن يُوجد منها عبده ورسوله عيسى عليه السلام ، أحد الرسل أولى العزم الخمسة العظام (٤) ، (انتبذت من أهلها مكانا شرقيا) ، أى : اعتزلتهم وتنحت عنهم ، وذهبت إلى شرق المسجد المقدس .

قال السدى : لحيض أصابها (٥) . وقيل لغير ذلك ، قال أبو كدينة ، عن قابوس بن أبى ظبيان ، عن أبيه ، عن ابن عباس قال : إن أهل الكتاب كتب عليهم الصلاة إلى البيت والحج إليه ، وما صرفهم عنه إلا قيل ربك : (فانتبذت من أهلها مكانا شرقيا) ، قال : خرجت مريم مكانا شرقيا ، فصلوا قبل مطلع الشمس . رواه ابن أبى حاتم ، وابن جرير(٦) .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٦/٤٥ .

(٢) سورة آل عمران ، آية : ٣٧ .

(٣) ينظر : ٢/٢٨ ، ٢٩ .

(٤) هؤلاء الرسل الخمسة هم المذكورون فى قوله تعالى : (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ، ومن نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ابن مريم) ، سورة الأحزاب ، آية : ٧ .

(٥) تفسير الطبرى : ١٦/٤٥ .

(٦) تفسير الطبرى : ١٦/٤٥ ، ٤٦ .

وقال ابن جرير أيضا : حدثنا إسحاق بن شاهين، حدثنا خالد بن عبد الله ، عن داود ، عن عامر ، عن ابن عباس قال : إنى لأعلم خَلْقَ الله لأىّ شىءٍ ، اتخذت النصارى المشرق قبلة لقول الله تعالى : (فانتبذت من أهلها مكانا شرقيا) ، واتخذوا ميلاد عيسى قبلة(١) .

وقال قتادة (مكانا شرقيا) : شاسعا متنحيا .

وقال محمد بن إسحاق : ذهبت بقلتها تستقي الماء .

وقال نوف البكالى : اتخذت لها منزلا تتعبد فيه : فالله أعلم .

وقوله : (فاتخذت من دونهم حجابا) ، أى : استترت منهم وتوارت ، فأرسل الله تعالى إليها جبريل عليه السلام ، (فتمثل لها بشراً سويا) ، أى : على صورة إنسان تام كامل .

قال مجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، وابن جُرَيج ، ووهب بن مُنَبّه ، والسدى فى قوله : (فأرسلنا إليها روحنا) ، يعنى جبريل عليه السلام .

وهذا الذى قالوه هو ظاهر القرآن ، فانه تعالى قد قال فى الآية الأخرى : (نزل به الروح الأمين : على قلبك لتكون من المنذرين (٢)) .

وقال أبو جعفر الرازى ، عن الربيع بن أنس ، عن أبى العالية، عن أبى بن كعب قال : إن روح عيسى عليه السلام من جملة الأرواح ، التى أخذ عليها العهد فى زمان آدم ، وهو الذى تمثل لها بشراً سويا ، أى : روح عيسى ، فحملت الذى خاطبها وحل فى فيها .

وهذا فى غاية الغرابة والنكارة ، وكأنه إسرائيلى .

(قالت : إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا) ، أى : لما تبدّى لها الملكُ فى صورة بشر، وهى فى مكان منفرد ، وبينها وبين قومها حجاب ، خافته وظنت أنه يريدها على نفسها ، فقالت : (إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا) ، أى : إن كنت تخاف الله : تذكيرٌ له بالله : وهذا هو المشروع فى الدفع أن يكون بالأسهل فالأسهل ، فخوّفته أولا بالله عز وجل .

قال ابن جرير : حدثنى أبو كريب ، حدثنا أبو بكر ، عن عاصم قال : قال أبو وائل(٣) ـ وذكر قصة مريم ـ فقال : قد علمت أن التقىّ ذُو نُهْيَة (٤) حين قالت : (إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا . قال : إنما أنا رسول ربك(٥)) .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٦/٤٥ .

(٢) سورة الشعراء ، آية : ١٩٣ ، ١٩٤ .

(٣) فى تفسير الطبرى : « قال ابن زيد » مكان : « قال أبو وائل » . وينظر ترجمة أبى وائل شقيق بن سلمة ، وترجمة عاصم بن بهدلة فى الخلاصة .

(٤) النهية ـ بضم فسكون ـ : العقل .

(٥) تفسير الطبرى : ١٦/٤٧ .

أى : فقال لها الملك مجيبا لها ومزيلا ما حصل عندها من الخوف على نفسها : لست مما تظنين ، ولكنى رسول ربك ، أى : بعثنى الله إليك . ويقال : إنها لما ذكرت الرحمن انتفض جبريل فرقا (١) وعاد إلى هيئته، وقال : (إنما أنا رسول ربك ليهب لك غلاما زكيا) :

[هكذا قرأ أبو عمرو بن العلاء ، أحد مشهورى القراء (٢) : وقرأ الآخرون : لأهب لك غلاما زكيا] ، وكلا القراءتين له وجه حسن، ومعنى صحيح ، وكلٌ تستلزم الأخرى :

(قالت : أنى يكون لى غلام) ، أى : فتعجبت مريم من هذا وقالت : كيف يكون لى غلام ؟ أى : على أى صفة يوجد هذا الغلام منى ، ولست بذات زوج ، ولا يتصور منى الفجور : ولهذا قالت : (ولم يمسسنى بشر ، ولم أك بغيا) ، والبغى : هى الزانية، ولهذا جاء فى الحديث نهى عن مهر البغى — (قال : كذلك قال ربك : هو على هين) ، أى : فقال لها الملك مجيبا لها عما سألت : إن الله قد قال : إنه سيوجد منك غلاما ، وإن لم يكن لك بعل ، ولا توجد منك فاحشة ، فانه على ما يشاء قادر ، ولهذا قال : (ولنجعله آية للناس) ، أى : دلالة وعلامة للناس على قدرة بارئهم وخالقهم ، الذى نوع فى خلقهم ، فخلق أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى ، إلا عيسى فانه أوجده من أنثى بلا ذكر ، فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه، فلا إله غيره ، ولا رب سواه :

وقوله : (ورحمة منا) ، أى : ونجعل هذا الغلام رحمة من الله نبياً من الأنبياء ، يدعو إلى عبادة الله تعالى وتوحيده ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى : (إذ قالت الملائكة : يا مريم ، إن الله يبشرك بكلمة منه ، اسمه المسيح عيسى ابن مريم ، وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين : ويكلم الناس فى المهد وكهلا ، ومن الصالحين(٣)) ، أى : يدعو إلى عبادة الله ربه فى مهده وكهولته :

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم — دُحَيم — حدثنا مروان ، حدثنا العلاء بن الحارث الكوفى ، عن مجاهد قال : قالت مريم عليها السلام : كنت إذا خلوت حدثنى عيسى وكلمنى وهو فى بطنى ، وإذا كنت مع الناس سبح فى بطنى وكبر :

وقوله : (وكان أمراً مقضيا) ، يحتمل أن هذا من تمام كلام جبريل لمريم ، يخبرها أن هذا أمر مقدر فى علم الله تعالى وقدره ومشيئته . ويحتمل أن يكون من خبر الله تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه كنى بهذا عن النفخ فى فرجها ، كما قال تعالى : (ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها ، فنفخنا فيه من روحنا (٤)) ، وقال : (والتى أحصنت فرجها ، فنفخنا فيها من روحنا (٥)) :

---

(١) الفرق — بفتحتين — : الجزع والخوف .
(٢) البحر المحيط : ٦/١٨٠ .
(٣) سورة آل عمران ، آية : ٤٥ .
(٤) سورة التحريم ، آية : ١٢ .
(٥) سورة الأنبياء ، آية : ٩١ .

قال محمد بن إسحاق : (وكان أمراً مقضيا) ، أى : إن الله قد عزم على هذا ، فليس منه بد : واختار هذا أيضا ابنُ جرير فى تفسيره ، ولم يحك غيره ، والله أعلم (١) .

* فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا (٢٣)

يقول تعالى مخبراً عن مريم أنها لما قال لها جبريل عن الله تعالى ما قال ، أنها استسلمت لقضاء الله تعالى . فذكر غير واحد من علماء السلف أن الملك — وهو جبريل عليه السلام — عند ذلك نفخ فى جيب درعها ، فنزلت النفخة حتى ولجت فى الفرج ، فحملت بالولد بإذن الله تعالى ، فلما حملت به ، ضاقت ذرعا به ، ولم تدر ماذا تقول للناس ، فإنها تعلم أن الناس لا يصدقونها فيما تخبرهم به ، غير أنها أفشت [سرها] وذكرت أمرها لأختها امرأة زكريا : وذلك أن زكريا عليه السلام كان قد سأل الله الولد ، فأجيب إلى ذلك ، فحملت امرأته ، فدخلت عليها مريم فقامت إليها فاعتنقتها ، وقالت : أشعَرت يا مريم أنى حبلى ؟ فقالت لها مريم : وهل علمت أيضا أنى حبْلى ؟ وذكرت لها شأنها وما كان من خبَرها ، وكانوا بيت إيمان وتصديق ، ثم كانت امرأة زكريا بعد ذلك إذا واجهت مريم تجدُ الذى فى جوفها يسجد للذى فى بطن مريم ، أى : يعظمه ويخضع له ، فإن السجود كان فى ملتهم عند السلام مشروعاً ، كما سجد ليوسف أبواه وإخوته ، وكما أمر الله الملائكة أن تسجد لآدم عليه السلام : ولكن حرم فى ملتنا هذه ، تكميلا لتعظيم جلال الرب تعالى .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين قال : قُرِئَ على الحارث بن مسكين وأنا أسمع ، قال : أخبرنا عبد الرحمن ابن القاسم قال : قال مالك رحمه الله : بلغنى أن عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا ابنا خالة ، وكان حملها جميعاً معا ، فبلغنى أن أم يحيى قالت لمريم : إنى أرى أن ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك : قال مالك : أرى ذلك لتفضيل عيسى عليه السلام ، لأن الله جعله يحيى الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص .

ثم اختلف المفسرون فى مُدّة حمل عيسى عليه السلام ، فالمشهور عن الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر . وقال عكرمة : ثمانية أشهر — قال : ولهذا لا يعيش ولد لثمانية أشهر .

وقال ابن جريج : أخبرنى المغيرة بن عثمان بن عبد الله الثقفى ، سمع ابن عباس وسئل عن حَبَل مريم ، قال : لم يكن إلا أن حملت فوضعت (٢) .

وهذا غريب ، وكأنه أخذه من ظاهر قوله تعالى : (فحملته فانتبذت به مكانا قصيا : فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة) ، فالفاء وإن كانت للتعقيب ، ولكن تعقيب كل شئ بحسبه ، كما قال تعالى : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين : ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما (٣)) ، فهذه الفاء للتعقيب

(١) تفسير الطبرى : ١٦/٤٧ .

(٢) تفسير الطبرى : ١٦/٥٠ .

(٣) سورة المؤمنون : آية : ١٢ – ١٤ .

بحسبها : وقد ثبت فى الصحيحين : أن بين كل صفتين أربعين يوما . وقال تعالى : (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ، فتصبح الأرض مخضرة (١)) — فالمشهور الظاهر — والله على كل شئ قدير — أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن ، ولهذا لما ظهرت مخايل الحمل عليها وكان معها فى المسجد رجل صالح من قراباتها يخدم معها البيت المقدس ، يقال له يوسف النجار ، فلما رأى ثقل بطنها وكبره ، أنكر ذلك من أمرها ، ثم صرفه ما يعلم من براءتها ونزاهتها ودينها وعبادتها ، ثم تأمل ما هى فيه ، فجعل أمرها يجوس فى فكره ، لا يستطيع صرفه عن نفسه ، فحمل نفسه على أن عرض لها فى القول ، فقال يامريم ، إنى سائلك عن أمر فلا تعجلى على . قالت : وما هو ؟ قال : هل يكون قط شجر من غير حَبّ؟ وهل يكون زرع من غير بَذْر ؟ وهل يكون ولد من غير أب ؟ فقالت : نعم — فهمت ما أشار إليه — أما قولك : « هل يكون شجر من غير حب ، وزرع من غير بذر » فإن الله قد خلق الشجر والزرع أول ما خلقهما من غير حب ولا بذر ، « وهل خلق يكون من غير أب » ، فإن الله قد خلق آدم من غير أب ولا أم . فصدقها ، وسلّم لها حالها .

ولما استشعرت مريم من قومها اتهامها بالريبة ، انتبذت منهم مكانا قصيا ، أى : قاصيا منهم بعيدا عنهم ، لئلا تراهم ولا يروها .

قال محمد بن إسحاق : فلما حملت به ، وملأت قلتها ورجعت ، استمسك عنها الدم وأصابها ما يصيب الحامل على الولد من الوَصَب والتوحم وتغير اللون ، حتى فَطَرَ (٢) لسانها ، فما دخل على أهل بيت ما دخل على آل زكريا ، وشاع الحديث فى بنى إسرائيل ، فقالوا : « إنما صاحبها يوسف » ، ولم يكن معها فى الكنيسة غيره ، وتوارت من الناس ، واتخذت من دونهم حجابا ، فلا يراها أحد ولا تراه .

وقوله : (فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة) ، [أى : فاضطرها وألجأها الطلق إلى جذع النخلة] وهى نخلة فى المكان التى تنحت إليه .

وقد اختلفوا فيه ، فقال السدى : كان شرقى محرابها الذى تصلى فيه من بيت المقدس .

وقال وهب بن منبه : ذهبت هاربة ، فلما كانت بين الشام وبلاد مصر ، ضربها الطلق .

وفى رواية عن وهب : كان ذلك على ثمانية أميال من بيت المقدس ، فى قرية هناك يقال لها « بيت لحم » .

قلت : وقد تقدم فى حديث الاسراء ، من رواية النسائى عن أنس رضى الله عنه ، والبيهقى عن شداد بن أوس رضى الله عنه (٣) : أن ذلك ببيت لحم . فالله أعلم ، وهذا هو المشهور الذى تلقاه الناس بعضهم عن بعض ، ولا تشك فيه النصارى أنه ببيت لحم ، وتلقاه الناس . وقد ورد به الحديث إن صح .

وقوله تعالى إخبارا عنها : (قالت : ياليتنى مت قبل هذا ، وكنت نسيا منسيا) ، فيه دليل على جواز تمنى الموت عند الفتنة ، فإنها عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود ، الذى لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد ، ولا يصدقونها فى خبرها ،

---

(١) سورة الحج ، آية : ٦٣ .

(٢) أى : تشقق .

(٣) ينظر : ١٠/٥ ، ٢٤ .

وبعد ما كانت عندهم عابدة ناسكة ، تصبح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية ، فقالت : (ياليتنى مت قبل هذا) ، أى : قبل هذا الحال ، (وكنت نَسيا منسيا) ، أى : لم أخلق ولم ألك شيئاً . قاله ابن عباس .

وقال السدى : قالت وهى تطلق من الحبل ، استحياء من الناس : يا ليتنى مت قبل هذا الكرب الذى أنا فيه ، والحزن بولادتى المولود من غير بَعل (وكنت نسيا منسيا نُسِيى فترك طلبُه ، كخرق الحيض التى إذا ألقيت وطُرحت لم تطلب ولم تُذْكر (١) : وكذلك كل شئ نُسِى وتُرِك فهو نسى .

وقال قتادة : (وكنت نسيا منسيا) ، أى : شيئا لا يعرف ، ولا يذكر ، ولا يدرى من أنا .

وقال الربيع بن أنس : (وكنت نسيا منسيا) ، وهو السِّقْط (٢) .

وقال ابن زيد : لم أكن شيئا قط .

وقد قدمنا الأحاديث الدالة على النهى عن تمنى الموت إلا عند الفتنة عند قوله : (توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين (٣)) .

فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾

قرأ بعضهم : (مَن تَحتَها) ، بمعنى الذى تحتها . وقرأ آخرون (مِنْ تَحْتِها ، على أنه حرف جر .

واختلف المفسرون فى المراد بذلك من هو ؟ فقال العوفى وغيره ، عن ابن عباس (فناداها من تحتها) : جبريل ، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها . وكذا قال سعيد بن جبير ، والضحاك ، وعمرو بن ميمون ، والسدى ، وقتادة : إنه الملك جبريل عليه الصلاة والسلام ، أى : ناداها من أسفل الوادى .

وقال مجاهد : (فناداها من تحتها) ، قال : عيسى ابن مريم . وكذا قال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة قال : قال الحسن : هو ابنها . وهو إحدى الروايتين عن سعيد بن جُبير : أنه ابنها ، قال : أو لم تسمع الله يقول : (فأشارت إليه) : واختاره ابن زيد ، وابنُ جرير فى تفسيره (٤) .

وقوله : (ألا تحزنى) ، أى : ناداها قائلا : لا تحزنى ، (قد جعل ربك تحتك سريا) قال سفيان الثورى وشعبة ، عن أبى إسحاق ، عن البراء بن عازب : (قد جعل ربك تحتك سريا) ، قال : الجدول . وكذا قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : السرىّ : النهر . وبه قال عمرو بن ميمون : نهر تشرب منه .

---

(١) تفسير الطبرى : ٥٠/١٦ . ويبدو أن قوله : « وكذلك كل شئ ... » من كلام الطبرى لا تابع لأثر السدى .

(٢) السقط : الولد ، ذكرا كان أو أنثى ، يسقط قبل تمامه ، وهو مستبين الخلق .

(٣) سورة يوسف ، آية : ١٠١ ، وانظر فيما تقدم : ٣٣٧/٤ - ٣٣٩ .

(٤) ينظر تفسير الطبرى : ٥١/١٦ ، ٥٢ .

وقال مجاهد : هو النهر ، بالسريانية .

وقال سعيد بن جُبَير : السرى : النهر الصغير بالنبطية .

وقال الضحاك : هو النهر الصغير بالسريانية .

وقال إبراهيم النخعي : هو النهر الصغير .

وقال قتادة : هو الجدول بلغة أهل الحجاز .

وقال وهب بن منبه : السرى : هو ربيع الماء .

وقال السدى : هو النهر . واختار هذا القول ابن جرير . وقد ورد في ذلك حديث مرفوع ، فقال الطبراني :

حدثنا أبو شعيب الحراني ، حدثنا يحيى بن عبد الله البابلُتى ،حدثنا أيوب بن نَهيك ، سمعت عكرمة مولى ابن عباس يقول : سمعت ابن عمر يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن السرى الذى قال الله لمريم : (قد جعل ربك تحتك سريا) : نهر أخرجه الله لتشرب منه » . وهذا حديث غريب جدا من هذا الوجه . وأيوب بن نَهيك هذا هو الحبلى ، قال فيه أبو حاتم الرازى : ضعيف . وقال أبو زرعة : منكر الحديث ، وقال أبو الفتح الأزدى : متروك الحديث .

وقال آخرون : المراد بالسرى عيسى عليه السلام . وبه قال الحسن ، والربيع بن أنس ، ومحمد بن عَبّاد بن جعفر : وهو إحدى الروايتين عن قتادة ، وقول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : والقول الأول أظهر ، ولهذا قال بعده : (وهزى إليك بجذع النخلة) ، أى : وخذى إليك بجذع النخلة . قيل : كانت يابسة ، قاله ابن عباس . وقيل : مثمرة . قال مجاهد : كانت عجوة . وقال الثورى ، عن أبى داود نُفَيع الأعمى : كانت صرَفانة (١) .

والظاهر أنها كانت شجرة ، ولكن لم تكن فى إبان ثمرها ، قاله وهب بن منبه . ولهذا امتن عليها بذلك ، أن جعل عندها طعاما وشرابا ، فقال : (تساقط عليك رطبا جنيا . فكلى واشربى وقرى عينا) ، أى : طيبى نفسا . ولهذا قال عمرو ابن ميمون : ما من شئ خير للنفساء من التمر والرطب ، ثم تلا هذه الآية الكريمة (٢) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا شيبان ، حدثنا مسرور بن سعيد التميمى ، حدثنا عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعى ، عن عروة بن رُوَيم ، عن على بن أبى طالب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أكرموا عمتكم النخلة ، فإنها خُلقت من الطين الذى خلق منه آدم عليه السلام ، وليس من الشجر شئ يُلقّح غيرها ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أطعموا نساءكم الولَّدَ الرُّطَبَ فإن لم يكن رطب فتمر ، وليس من الشجرة شجرة أكرم على الله من شجرة نزلت تحتها مريم بنت عمران » .

هذا حديث منكر جدا ، ورواه أبو يعلى ، عن شيبان ، به .

---

(١) الصرفان – بفتح الصاد والراء والفاء – : ضرب من التمر ، واحدته : صرفانة ، وهو من أجود التمر .
(٢) تفسير الطبرى : ١٦/٥٥ .

وقرأ بعضهم قوله : (تساقط) ، بتشديد السين ، وآخرون بتخفيفها . وقرأ أبو نهيك : (تُسْقِط عليك رطبا جنيا) ، وروى أبو إسحاق ، عن البراء : أنه قرأها (يَسَّاقَطْ) ، أي : الجذع (١) . والكل متقارب .

وقوله : (فإما ترين من البشر أحدا) ، أي : مهما رأيت من أحد ، (فقولي : إني نذرت للرحمن صوما ، فلن أكلم اليوم إنسيا) ، المراد بهذا القول : الإشارة إليه بذلك ، لا أن المراد به القول اللفظي ، لئلا ينافي (فلن أكلم اليوم إنسيا) .

قال أنس بن مالك في قوله : (إني نذرت للرحمن صوما) ، أي : صمتا . وكذا قال ابن عباس ، والضحاك . وفي رواية عن أنس : (صوما وصمتا) (٢) ، وكذا قال قتادة وغيرهما .

والمراد أنهم كانوا إذا صاموا في شريعتهم يحرم عليهم الطعام والكلام ، نص على ذلك السدي ، وقتادة ، وعبد الرحمن ابن زيد .

وقال أبو إسحاق ، عن حارثة قال : كنت عند ابن مسعود ، فجاء رجلان فسلم أحدهما ولم يسلم الآخر ، فقال : ما شأنك؟ قال أصحابه : حلف أن لا يكلم الناس اليوم . فقال عبد الله بن مسعود : كلّم الناس وسلم عليهم : فإنما تلك امرأة علمت أن أحدا لا يصدقها أنها حملت من غير زوج . يعني بذلك مريم عليها السلام ، ليكون عذرا لها إذا سئلت . رواه ابن أبي حاتم ، وابن جرير رحمهما الله (٣) .

وقال عبد الرحمن بن زيد : لما قال عيسى لمريم : (لا تحزني) ، قالت : وكيف لا أحزن وأنت معي؟ . لا ذاتُ زوج ولا مملوكة ، أيّ شيء عذري عند الناس ؟ يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ، قال لها عيسى : أنا أكفيك الكلام : (فاما تَرَيِنَّ من البشر أحدا ، فقولي : إني نذرت للرحمن صوما ، فلن أكلم اليوم إنسيا) ، قال : هذا كله من كلام عيسى لأمه . وكذا قال وهب (٣) .

فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾

يقول تعالى مخبرا عن مريم حين أمرت أن تصوم يومها ذلك ، وأن لا تكلم أحدا من البشر ، فإنها ستكفى أمرها ويقام بحجتها ، فسلمت لأمر الله عز وجل واستسلمت لقضائه ، وأخذت ولدها (فأتت به قومها تحمله) ، فلما رأوها كذلك ، أعظموا أمرها واستنكروه جدا ، وقالوا : (يا مريم ، لقد جئت شيئا فريا) ، أي : أمرا عظيما . قاله مجاهد ، وقتادة ، والسدي ، وغير واحد :

---

(١) ينظر تفسير الطبري : ١٦/٥٤ ، ٥٥ . والبحر المحيط لأبي حيان : ٦/١٨٤ ، ١٨٥ .
(٢) روى الطبري بإسناده إلى سليمان التيمي ١٦/٥٦ ، قال : « سمعت أنساً قرأ : (إني نذرت للرحمن صوماً وصمتاً) » .
(٣) تفسير الطبري : ١٦/٥٧ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عبدالله بن أبي زياد ، حدثنا سيّار ، حدثنا جعفر بن سليمان ، حدثنا أبوعمران الجوني ، عن نوف البكالي قال : وخرج قومها في طلبها ، وكانت من أهل بيت نبوة وشرف ، فلم يحسوا منها شيئاً ، فرأوا راعي بقر فقالوا : أرأيت فتاة كذا وكذا نعتُها ؟ قال لا ، ولكني رأيت الليلة من بقرتي ما لم أره منها قط ، قالوا : وما رأيت ؟ قال : رأيتها سجّدا نحو هذا الوادي . قال عبد الله بن زياد : وأحفظ عن سيّار أنه قال : رأيت نوراً ساطعاً . فتوجهوا حيث قال لهم ، فاستقبلتهم مريم ، فلما رأتهم قعدت وحملت ابنها في حجرها ، فجاءوا حتى قاموا عليها : (وقالوا يا مريم ، لقد جئت شيئا فريا) ، أمرا عظيما : (يا أخت هرون) ، أي : يا شبيهة هارون في العبادة (ما كان أبوك امرأ سوء ، وما كانت أمك بغيا) ، أي : أنت من بيت طيب طاهر ، معروف بالصلاح والعبادة والزهادة ، فكيف صدر هذا منك .

قال على بن أبي طلحة ، والسدي : قيل لها : (يا أخت هرون) ، أي : أخي موسى ، وكانت من نسله ، كما يقال للتميمي : يا أخا تميم : وللمضري : يا أخا مضر (١) .

وقيل : نسبت إلى رجل صالح كان فيهم اسمه هارون ، فكانت تقاس به في العبادة ، والزهادة .

وحكى ابن جرير عن بعضهم : أنهم شبهوها برجل فاجر كان فيهم ، يقال له : هارون (٢) . ورواه ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير .

وأغرب من هذا كله ما رواه ابن أبي حاتم :

حدثنا على بن الحسين الهسنجاني حدثنا ابن أبي مريم ، حدثنا المفضل بن فضالة ، حدثني أبو صخر ، عن القرظي ، في قول الله عز وجل : (يا أخت هرون) ، قال : هي أخت هارون لأبيه وأمه ، وهي أخت موسى أخي هارون التي قصّت أثر موسى ، (فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون) .

وهذا القول خطأ محض ، فإن الله تعالى قد ذكر في كتابه أنه قفي بعيسى بعد الرسل ، فدل على أنه آخر الأنبياء بعثا وليس بعده إلا محمد صلوات الله وسلامه عليه ولهذا ثبت في الصحيح عند البخاري ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أنا أولى الناس بابن مريم ، إلا أنه ليس بيني وبينه نبي » ، ولو كان الأمر كما زعم محمد بن كعب القرظي ، لم يكن متأخرا عن الرسل سوى محمد ، ولكان قبل سليمان وداود ، فان الله قد ذكر أن داود بعد موسى عليهما السلام في قوله تعالى : (ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى ، إذ قالوا لنبي لهم : ابعث لنا ملكا نقاتلْ في سبيل الله (٣)) فذكر القصة إلى أن قال : (وقتل داودُ جالوت (٤)) ... الآية والذي جرّأ القرظي على هذه المقالة ما في التوراة بعد خروج موسى وبني إسرائيل من البحر ، وإغراق فرعون وقومه ، قال : وكانت مريمُ

(١) تفسير الطبري : ١٦/٥٨ ، ٥٩ .
(٢) تفسير الطبري : ١٦/٥٩ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ٢٤٦ .
(٤) سورة البقرة ، آية : ٢٥١ .

بنت عمران أخت موسى وهارون النبيَّين ، تضرب بالدف هى والنساء معها يسبحن الله ويشكرنه على ما أنعم به على بنى إسرائيل : فاعتقد القرظى أن هذه هى أم عيسى : وهى هفوة وغلطة شديدة ، بل هى باسم هذه ، وقد كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم وصالحيهم ، كما قال الإمام أحمد :

حدثنا عبد الله بن إدريس ، سمعت أبى يذكره عن سماك ، عن علقمة بن وائل ، عن المغيرة بن شعبة قال : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى نجران ، فقالوا : أرأيت ما تقرءون : (يا أخت هرون) ، وموسى قبل عيسى بكذا وكذا ؟ قال : فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « ألا أخبرتهم أنهم كانوا يتسمَّون بالأنبياء والصالحين قبلهم (١) » :

انفرد بإخراجه مسلم (٢) ، والترمذى ، والنسائى ، من حديث عبد الله بن إدريس ، عن أبيه ، عن سماك ، به : وقال الترمذى : حسن صحيح غريب ، لا نعرفه إلا من حديث ابن إدريس :

وقال ابن جرير : حدثنى يعقوب ، حدثنا ابن عُلَيَّة ، عن سعيد بن أبى صَدَقة ، عن محمد بن سيرين قال : نُبِّئتُ أن كعبا قال : إن قوله : (يا أخت هرون) : ليس بهارون أخى موسى : قال فقالت له عائشة : كذبت ، قال : يا أم المؤمنين ، إن كان النبى صلى الله عليه وسلم قاله ، فهو أعلم وأخبر ، وإلا فإنى أجد بينهما ستمائة سنة : قال : فسكتت (٣) : وفى هذا التاريخ نظر :

وقال ابن جرير أيضا : حدثنا بشر ، حدثنا يزيد ، حدثنا سعيد ، عن قتادة قوله : (يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا) ، قال : كانت من أهل بيت يعرفون بالصلاح ، ولا يعرفون بالفساد ، [ومن الناس من يعرفون بالصلاح ويتوالدون به ، وآخرون يعرفون بالفساد] ويتوالدون به . وكان هارون مصلحا محببا ، فى عشيرته ، وليس بهارون أخى موسى ، ولكنه هارونُ آخر ، قال : وذكر لنا أنه شيع جنازته يوم مات أربعون ألفا ، كلهم يسمون هارون ، من بنى إسرائيل (٤) :

وقوله : (فأشارت إليه ، قالوا : كيف نكلم من كان فى المهد صبيا) ، أى : إنهم لما استرابوا فى أمرها واستنكروا قضيتها ، وقالوا لها ما قالوا معرّضين بقذفها ورميها بالفرية ، وقد كانت يومها ذلك صائمة صامتة ، فأحالت الكلام عليه ، وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه ، فقالوا متهكمين بها ، ظانين أنها تزدرى بهم وتلعب بهم : (كيف نكلم من كان فى المهد صبيا) :

قال ميمون بن مهران : (فأشارت) ، قالت : كلموه : فقالوا : على ما جاءت به من الداهية تأمرنا أن نكلم من كان فى المهد صبيا !

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٢٥٢/٤ .

(٢) مسلم ، كتاب الآداب ، باب « النهى عن التكنى بأبى القاسم ، وبيان ما يستحب من الأسماء » : ١٧١/٦ . وتحفة الأحوذى ، تفسير سورة مريم ، الحديث ٥١٦٤ : ٦٠١/٨ ، ٦٠٢ .

(٣) تفسير الطبرى : ٥٨/١٦ ، ٥٩ .

(٤) تفسير الطبرى : ٥٨/١٦ .

وقال السدى : لما أشارت إليه غضبوا ، وقالوا : لَسُخْرِيتها بنا حين تأمرنا أن نكلم هذا الصبى أشدّ علينا من زناها (١) .

(قالوا : كيف نكلم من كان فى المهد صبيا) ، أى : من هو موجود فى مهده فى حال صباه وصغره ، كيف يتكلم ؟ قال : (إنى عبد الله) ، أول شىء تكلم به أن نزه جناب ربه تعالى ، وبرأ الله عن الولد ، وأثبت لنفسه العبودية لربه .

وقوله : (آتانى الكتاب وجعلنى نبيا) : تبرئة لأمة مما نسبت إليه من الفاحشة .

قال نوف البكالى : لما قالوا لأمه ما قالوا ، كان يرتضع ثديه ، فنزع الثدى من فمه ، واتكأ على جنبه الأيسر ، وقال : (إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا) ، إلى قوله : (مادمت حيا) .

وقال حماد بن سلمة ، عن ثابت البُنَانى : رفع إصبعه السبابة فوق منكبه ، وهو يقول : (إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا) ... الآية .

وقال عكرمة : (آتانى الكتاب) ، أى : قضى أنه يؤتينى الكتاب فيما قضى .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا محمد بن المصفى، حدثنا يحيى بن سعيد ، عن عبد العزيز بن زياد ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : كان عيسى بن مريم قد درس الإنجيل وأحكمه فى بطن أمه، فذلك قوله : (إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا) .

يحيى بن سعيد العطار الحمصى : متروك .

وقوله : (وجعلنى مباركا أينما كنت) ، قال : مجاهد ، وعَمْرو بن قيس ، والثورى : وجعلنى معلما للخير . وفى رواية عن مجاهد : نفَّاعا .

وقال ابن جرير : حدثنى سليمان بن عبد الجبار ، حدثنا محمد بن يزيد بن خُنَيس المخزومى ، سمعت وُهَيب بن الورد مولى بنى مخزوم قال : لقى عالم عالما هو فوقه فى العلم ، فقال له : يرحمك الله ، ماالذى أعلن من عملى ؟ قال : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ فإنه دين الله الذى بعث به أنبياءه إلى عباده ، وقد أجمع الفقهاء على قول الله : (وجعلنى مباركا أينما كنت) ، وقيل : مابركته ؟ قال : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أينما كان (٢) .

وقوله : (وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا) كقوله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم : (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين (٣)) .

وقال عبد الرحمن بن القاسم ، عن مالك بن أنس فى قوله : (وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا) ، قال : أخبره ماهو كائن من أمره إلى أن يموت ، ما أثبتها لأهل القدر .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٦/٦٠ .
(٢) تفسير الطبرى : ١٦/٦١ .
(٣) سورة الحجر ، آية : ٩٩ .

وقوله : (وبراً بوالدتى) ، أى : وأمرنى ببر والدتى ، ذكره بعد طاعة الله ربه؛ لأن الله تعالى كثيرا ما يقرن بين الأمر بعبادته وطاعة الوالدين ، كما قال : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا (١)) ، وقال : (أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير (٢)) .

وقوله : (ولم يجعلنى جبارا شقياً) ، أى : ولم يجعلنى جباراً مستكبرا عن عبادته وطاعته وبر والدتى ، فأشقى بذلك .

قال سفيان الثورى : الجبار الشقى : الذى يقبل على الغضب .

وقال بعض السلف : لا تجد أحداً عاقا لوالديه إلا وجدته جباراً شقيا ، ثم قرأ : (وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقيا) ، قال : ولا تجد سيىء (٣) الملكة إلا وجدته مختالا فخورا ، ثم قرأ : (وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا) .

وقال قتادة : ذكر لنا أن امرأة رأت ابن مريم يحيى الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص ، فى آيات سلطه الله عليهن ، وأذن له فيهن ، فقالت : طوبى للبطن الذى حملك والثدى الذى أرضعت به ، فقال نبى الله عيسى عليه السلام يجيبها : طوبى لمن تلا كلام الله ، فاتبع مافيه ولم يكن جبارا شقيا (٤) .

وقوله : (والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا) : إثبات منه لعبوديته لله عز وجل ، وأنه مخلوق من خلق الله يحيا ، ويموت ويبعث كسائر الخلائق ، ولكن له السلامة فى هذه الأحوال [التى] هى أشق مايكون على العباد .

ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم : ذلك الذى قصصنا عليك من خبر عيسى ، (قول الحق الذى فيه يمترون) ، أى : يختلف المبطلون والمحقون ممن آمن به وكفر به ، ولهذا قرأ الأكثرون : (قول الحق) ، برفع قول . وقرأ عاصم ، وعبد الله بن عامر : (قولَ الحق) .

---

(١) سورة الإسراء ، آية : ٢٣ .
(٢) سورة لقمان ، آية : ١٤ .
(٣) تقدم هذا الأثر فى سورة النساء : ٢/٢٦٥ ، وانظر هناك شرحنا لـ « سيء الملكة » .
(٤) تفسير الطبرى : ١٦/٦٢ .

وعن ابن مسعود أنه قرأ : (ذلك عيسى ابن مريم قالُ الحق (١)) ، والرفع أظهر إعرابا ، ويشهد له قوله تعالى : (الحق من ربك ، فلا تكن من الممترين (٢)) .

ولما ذكر تعالى أنه خلقه عبداً نبياً، نزه نفسه المقدسة فقال : (ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه) ، أي : عما يقول هؤلاء الجاهلون الظالمون المعتدون علوا كبيرا ، (إذا قضى أمراً فإنما يقول له : كن، فيكون) ، أي : إذا أراد شيئا فإنما يأمر به ، فيصير كما يشاء ، كما قال تعالى : (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون . الحق من ربك فلا تكن من الممترين (٣)) .

وقوله : (وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم) ، أي : ومما أمر عيسى به قومه وهو فى مهده ، أن أخبرهم إذ ذاك أن الله ربهم وربه ، وأمرهم بعبادته ، فقال : (فاعبدوه، هذا صراط مستقيم) ، أي : هذا الذى جئتكم به عن الله صراط مستقيم ، أي : قويم ، من اتبعه رشد وهدى ، ومن خالفه ضل وغوى .

وقوله : (فاختلف الأحزاب من بينهم) ، أي : اختلفت أقوال أهل الكتاب فى عيسى بعد بيان أمره ووضوح حاله ، وأنه عبده ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، فصَمَّمَت طائفة — وهم جمهور اليهود ، عليهم لعائن الله — على أنه ولد زِنْيَة ، وقالوا : كلامه هذا سحر . وقالت طائفة أخرى : إنما تكلم الله : وقال آخرون : هو ابن الله : وقال آخرون : ثالث ثلاثة . وقال آخرون : بل هو عبد الله ورسوله : وهذا هو قول الحق ، الذى أرشد الله إليه المؤمنين ، وقد روى عن عمرو بن ميمون ، وابن جريج ، وقتادة ، وغير واحد من السلف والخلف :

قال عبدالرزاق : أخبرنا معمر، عن قتادة فى قوله : (ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون)، قال : اجتمع بنو إسرائيل ، فأخرجوا منهم أربعة نفر ، أخرج كل [قوم] عالمهم ، فامتروا فى عيسى حين رفع ، فقال أحدهم : هو الله هبط إلى الأرض فأحيا من أحيا ، وأمات من أمات ، ثم صعد إلى السماء — وهم اليعقوبية : فقال الثلاثة : كذبت : ثم قال اثنان منهم للثالث : قل أنت فيه : قال : هو ابن الله — وهم النسطورية : فقال الاثنان : كذبت : ثم قال أحد الاثنين للآخر : قل فيه . قال : هو ثالث ثلاثة : الله إله ، وهو إله ، وأمه إله — وهم الإسرائيلية ملوك النصارى ، عليهم لعائن الله . قال الرابع : كذبت ، بل هو عبد الله ورسوله وروحه ، وكلمته ، وهم المسلمون . فكان لكل رجل [منهم] أتباع على ماقالوا ، فاقتتلوا فَظُهِرَ على المسلمين ، فذلك قول الله تعالى : (ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس) — وقال قتادة : وهم الذين قال الله : (فاختلف الأحزاب من بينهم) ، قال : اختلفوا فيه فصاروا أحزاباً (٤)

وقد روى ابن أبى حاتم ، عن ابن عباس ، وعن عروة بن الزبير ، وعن بعض أهل العلم ، قريباً من ذلك : وقد ذكر غير واحد من علماء التاريخ من أهل الكتاب وغيرهم : أن قسطنطين جمعهم فى محفل كبير من مجامعهم الثلاثة

---

(١) قال الطبرى ١٦/٦٣ : « وأما ما ذكر عن ابن مسعود من قراءته : (ذلك عيسى بن مريم قال الحق) ، فإنه بمعنى (قول الحق) ، مثل : العاب والعيب ، والذام والذيم » يريد أن يقول أبو جعفر أن « قال » فى قراءة ابن مسعود اسم . وينظر البحر المحيط : ٦/١٨٩ .

(٢) سورة آل عمران ، آية : ٦٠ .

(٣) سورة آل عمران ٥٩ ، ٦٠ .

(٤) تفسير الطبرى : ١٦/٦٣ .

المشهورة عندهم ، فكان جماعة الأساقفة منهم ألفين ومائة وسبعين أسقفاً ، فاختلفوا فى عيسى ابن مريم عليه السلام اختلافاً متبايناً فقالت كل شرذمة فيه قولا ، فمائة تقول فيه قولا ، وسبعون تقول فيه قولا آخر ، وخمسون تقول فيه شيئاً آخر ، ومائة وستون تقول شيئاً ، ولم يجتمع على مقالة واحدة أكثر من ثلاثمائة وثمانية منهم ، اتفقوا على قول وصمموا عليه ، ومال إليهم الملك ، وكان فيلسوفا ، فقدمهم ونصرهم وطرد من عداهم ، فوضعوا له الأمانة الكبيرة، بل هى الخيانة العظيمة ، ووضعوا له كتب القوانين ، وشرّعوا له أشياء ، وابتدعوا بدعاً كثيرة ، وحرّفوا دين المسيح ، وغيروه فابتنى حينئذ لهم الكنائس الكبار فى مملكته كلها : بلاد الشام ، والجزيرة ، والروم ، فكان مبلغ الكنائس فى أيامه ما يقارب اثنتى عشرة ألف كنيسة ، وبنت أمه هيلانة قُمامة(١)على المكان الذى صلب فيه المصلوب الذى تزعم اليهود والنصارى أنه المسيح ، وقد كذبوا ، بل رفعه الله إلى السماء .

وقوله : (فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم) : تهديد ووعيد شديد لمن كذب على الله ، وافترى ، وزعم أن له ولداً ؛ ولكن أنظرهم تعالى إلى يوم القيامة وأجّلهم حلماً وثقة بقدرته عليهم ؛ فإنه الذى لايعجّل على من عصاه ، بل كما جاء فى الصحيحين «إنّ الله ليُملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، إن أخذه أليم شديد) (٢) ؛ وفى الصحيحين أيضاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، إنهم يجعلون له ولداً ، وهو يرزقهم ويعافيهم(٣) . وقد قال الله تعالى: « وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ، ثم أخذتها وإلىّ المصير(٤) ، وقال تعالى : (ولاتحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ؛ إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار)(٥)، ولهذا قال هاهنا : (فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم) ، أى : يوم القيامة ؛ وقد جاء فى الحديث الصحيح المتفق على صحته ، عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من شهد أن لاإله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله [ورسوله] ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وأن الجنة حق ، والنار حق ، أدخله الله الجنة على ماكان من العمل »(٦) .

---

(١) القمامة : الدير وينظر الحديث من خلاف النصارى حول المسيح فى سورة النساء . ٤٣٢/٢ .

(٢) سورة هود ، آية : ١٠٢ ، وقد تقدم الحديث من هذه الآية : ٢٧٨/٤ ، ٢٧٩ ، وخرجناه هنالك .

(٣) البخارى ، كتاب الأدب، باب « الصبر على الأذى» . ٣١/٨، وكتاب التوحيد ، باب قوله تعالى : (إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) ، ١٤١/٩ ، ومسلم ، كتاب صفة القيامة ، باب « لا أحد أصبر على أذى من الله » . ١٣٣/٨، ١٣٤ .

(٤) سورة الحج ، آية : ٤٨ .

(٥) سورة إبراهيم ، آية : ٤٢ .

(٦) البخارى ، كتاب الأنبياء ، باب قوله تعالى : (إذ قالت الملائكة يامريم) : ٢٠١/٤ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « من لقى الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة — ، وحرم على النار » : ٤٢/١ . ومسند الإمام أحمد عن عبادة ابن الصامت : ٣١٣/٥ ، ٣١٤ .

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار [يوم القيامة] أنهم أسْمَعُ شيء وأبْصَرُه ، كما قال تعالى (ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم : ربنا ، أبصرنا وسمعنا ، فارجعنا نعمل صالحا ؛ إنا موقنون) (١) ، أي: يقولون ذلك حين لاينفعهم ولا يُجدى عنهم شيئاً ، ولو كان هذا قبل معاينة العذاب ، لكان نافعاً لهم ومنقذاً من عذاب الله ، ولهذا قال : (أسمع بهم وأبصر) ، أي : ما أسمعهم وأبصرهم (يوم يأتوننا) ، يعني يوم القيامه ، (لكن الظالمون اليوم) ، أي : في الدنيا (في ضلال مبين) ، أي : لايسمعون ولا يبصرون ولايعقلون ، فحيث يُطلَب منهم الهدى لايهتدون ، ويكونون مطيعين حيث لاينفعهم ذلك .

ثم قال تعالى : (وأنذرهم يوم الحسرة) ، أي : أنذر الخلائق يوم الحسرة ، (إذ قُضى الأمر) ، أي : فصل بين أهل الجنة وأهل النار ، ودخل كل إلى ماصار إليه مخلداً فيه ، (وهم) ، أي : اليوم (في غفلة) عما أنذروا به ، (وهم لايؤمنون) ، أي : لايُصَدقون به .

قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن عبيد ، حدثنا الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا دخل أهلُ الجنة الجنةَ وأهلُ النار النارَ ، يُجاء بالموت كأنه كبش أملح ، فيوقف بين الجنة والنار ، فيقال : ياأهل الجنة ، هل تعرفون هذا ؟ قال : فيشرئبون [فينظرون] ويقولون : نعم ، هذا الموت ، قال : فيقال : يا أهل النار ، هل تعرفون هذا ؟ قال : فيشرئبون فينظرون ويقولون نعم ، هذا الموت . قال : فيؤمر (٢) به فيذبح ، قال : ويقال : يا أهل الجنة ، خلود ولاموت ، ويا أهل النار خلود ولاموت . قال : ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وأنذرهم يوم الحسرة إذ قُضى الأمرُ وهم في غفلة) ، وأشار بيده(٣) . قال : « أهل الدنيا في غفلة الدنيا » .

هكذا رواه الإمام أحمد ، وقد أخرجه البخاري(٤) ومسلم في صحيحيهما ، من حديث الأعمش ، به : ولفظهما قريب من ذلك . وقد روى هذا الحديث الحسن بن عرفة : حدثني أسباط بن محمد ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة مرفوعاً ، مثله(٥) . وفي سنن ابن ماجه وغيره ، من حديث محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ،

---

(١) سورة السجدة ، آية : ١٢ .

(٢) في المخطوطة : « فيوتى به » . والمثبت من المسند .

(٣) إلى هنا ينتهي الحديث كما في مسند الامام أحمد : ٩/٣ .

(٤) البخارى ، تفسير سورة مريم : ١١٧/٦ : ١١٨ ، ومسلم ، كتاب الجنة ، باب « النار يدخلها الجبارون ، والجنة يدخلها الضعفاء » : ١٥٢/٨ ، ١٥٣ .

(٥) أخرجه الطبرى عن عبيد بن أسباط ، عن أبيه : ٦٦/١٦ . وفى المخطوطة : « المسد بن عرفة » . فاثبتنا ما فى الطبعات السابقة .

بنحوه(١) ؛ وهو فى الصحيحين عن ابن عمر(٢) ؛ ورواه ابن جريج قال : قال ابن عباس ، فذكر من قبله نحوه(٣) .
ورواه أيضاً عن أبيه أنه سمع عُبَيْد بن عُمَيْر يقول فى قصصه : يؤتى بالموت كأنه دابة ، فيذبح والناس ينظرون(٤) .
وقال سفيان الثورى ، عن سلمة بن كُهَيْل ، حدثنا أبو الزعراء ، عن عبد الله ــ هو ابن مسعود ــ فى قصة ذكرها ، قال : فليس نفس إلا وهى تنظر إلى بيت فى الجنة وبيت فى النار ، وهو يوم الحسرة . [فيرى أهلُ النار البيت الذى كان قد أعدّه الله لهم لو آمنوا ، فيقال لهم : لو آمنتم وعملتم صالحاً ، كان لكم هذا الذى ترونه فى الجنة . فتأخذهم الحسرة(٥)] ؛ قال : ويرى أهل الجنة البيت الذى فى النار ، فيقال : لولا أن منّ الله عليكم..(٦) .

وقال السدى ، عن زياد ، عن زرّ بن حُبَيْش ، عن ابن مسعود فى قوله : (وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر) قال : إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهلُ النار النارَ ، أتى بالموت فى صورة كبش أملح ، حتى يوقف بين الجنة والنار ، ثم ينادى مناد : يا أهل الجنة ، هذا الموت الذى كان يُميتَ الناس فى الدنيا ، فلا يبقى أحد فى أهل عليين ولا فى أسفل درجة من الجنة إلا نظر إليه ، ثم ينادى : يا أهل النار ، هذا الموت الذى كان يميت الناس فى الدنيا ، فلا يبقى أحد فى ضَحْضَاح من نار ولا فى أسفل درك من جهنم ، إلا نظر إليه ، ثم يذبح بين الجنة والنار ، ثم ينادى : يا أهل الجنة ، هو الخلود أبد الآبدين ، ويا أهل النار ، هو الخلود أبد الآبدين . فيفرح أهل الجنة فرحة لو كان أحد ميتاً من فرح ماتوا ، ويشهق أهل النار شهقة لو كان أحد ميتاً من شهقة ماتوا فذلك قوله : (وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر) ، يقول : إذا ذبح الموت(٧) ؛ رواه ابن أبى حاتم فى تفسيره .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : (وأنذرهم يوم الحسرة) من أسماء يوم القيامة ، عظمه الله وحذّره عباده .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله : (وأنذرهم يوم الحسرة) ، قال : يوم القيامة ، وقرأ : (أن تقول نفس ياحسرتا على ما فرطت فى جنب الله)(٨) .

---

(١) سنن ابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب صفة النار » . الحديث ٤٣٢٧ : ٢/١٤٤٧ .

(٢) البخارى ، كتاب الرقاق ، باب « صفة الجنة والنار » ٨/١٤١ ، ١٤٢ . ومسلم ، كتاب الجنة ، باب « النار يدخلها الجبارون ، والجنة يدخلها الضعفاء » ٨/١٥٣ .

(٣) تفسير الطبرى : ١٦/٦٦ ، ٦٧ .

(٤) تفسير الطبرى : ١٦/٦٧ .

(٥) ما بين القوسين سقط من مخطوطة الأزهر ، والمثبت من تفسير الطبرى .

(٦) تفسير الطبرى : ١٦/٦٦ .

(٧) اخرجه السيوطى فى الدر المنثور عن ابن أبى حاتم وابن مردويه : ٤/٢٧٢ .

(٨) تفسير الطبرى ١٦/٦٧ والآية من سورة الزمر : ٥٦ .

وقوله : (إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون) : يخبر تعالى أنه الخالق المالك المتصرف ، وأن الخلق كلهم يهلكون ويبقى هو ، تعالى وتقدس ، ولا أحد يدّعى مُلْكاً ولاتصرفا ، بل هو الوارث لجميع خلقه ، الباقى بعدهم ، الحاكم فيهم ، فلاتظلم نفس شيئاً ولاجناح بعوضة ولامثقال ذرة .

قال ابن أبى حاتم : ذكر هُدْبَة بن خالد القَيسى : حدثنا حزم بن أبى حزم القُطَعى قال : كتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن صاحب الكوفة : أما بعد ، فإن الله كتب على خلقه حين خلقهم الموت ، فجعل مصيرهم إليه ، وقال : فيا أنزل من كتابه الصادق الذى حفظه بعلمه ، وأشهد ملائكته على خلقه : إنه يرث الأرض ومن عليها ، وإليه يرجعون (١) .

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥)

يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : واذكر فى الكتاب إبراهيم واتلُه على قومك ، هؤلاء الذين يعبدون الأصنام ، واذكر لهم ماكان من خبر إبراهيم خليل الرحمن الذين هم من ذريته ، ويدّعون أنهم على ملته ، وهو كان صديقاً نبياً ــ مع أبيه ، كيف نهاه عن عبادة الأصنام ، فقال : (يا أبت لم تعبد ما لايسمع ولايبصر ولايغنى عنك شيئاً) ؟ أى : لاينفعك ولايدفع عنك ضرراً .

(يا أبت ، إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك) . يقول : فإن كنت من صلبك وترى أنى أصغر منك ، لأنى ولدك ، فاعلم أنى قد اطلعت من العلم من الله على ما لم تعلمه أنت ولااطلعت عليه ولاجاءك بعد ، (فاتبعنى أهدك صراطاً سوياً) أى : طريقاً مستقيماً موصلا إلى نيل المطلوب ، والنجاة من المرهوب .

(يا أبت ، لاتعبد الشيطان) ، أى : لاتطعه فى عبادتك هذه الأصنام ، فإنه هو الداعى إلى ذلك ، والراضى به ، كما قال تعالى : (ألم أعهد إليكم يابنى آدم : أن لاتعبدوا الشيطان) (٢) وقال : (إن يدعون من دونه إلا إناثاً ، وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً) (٣) .

وقوله : (إن الشيطان كان للرحمن عصياً) ، أى : مخالفاً مستكبراً عن طاعة ربه ، فطرده وأبعده ، فلا تتبعه تَصِرْ مثله .

(يا أبت ، إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن) ، أى : على شركك وعصيانك لما آمرك به ، (فتكون للشيطان وليا) ، يعنى : فلا يكون لك مولى ولاناصراً ولامغيثاً إلا إبليس ، وليس إليه ولا إلى غيره من الأمر شىء ، بل اتباعك

(١) أخرجه السيوطى فى الدر المنثور عن ابن أبى حاتم ٤/٢٧٢ .
(٢) سورة « يس » ، آية : ٦٠ .
(٣) سورة النساء ، آية : ١١٧ .

له موجب لإحاطة العذاب بك ، كما قال تعالى : (تالله ، لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك ، فزين لهم الشيطان أعمالهم ، فهو وليهم اليوم ، ولهم عذاب أليم) (١) .

قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن جواب ابي ابراهيم [لولده إبراهيم] فيما دعاه إليه أنه قال : (أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم؟) يعني [إن كنت(٢) لا] تريد عبادتها ولا ترضاها ، فانته عن سبها وشتمها وعيبها ، فإنك إن لم تنته عن ذلك اقتصصتُ منك وشتمتك وسببتك ، وهو قوله :(لأرجمنك) ، قاله ابن عباس ، والسدى ، وابن جُرَيج ، والضحاك ، وغيرهم(٣)

وقوله : (واهجرني مليا) ، قال مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جُبير ، ومحمد بن إسحاق : يعني دهراً .

وقال الحسن البصري : زماناً طويلا .

وقال السدى : (واهجرني ملياً) ، قال : أبداً .

وقال على ابن أبي طلحة ، والعوفى ، عن ابن عباس : (واهجرني مليا) ، قال : سوياً سالما ، قبل أن تصيبك مني عقوبة ، وكذا قال الضحاك ، وقتادة ، وعطية الجَدَلِيّ(٤) و[أبو]مالك ، وغيرهم ، واختاره ابن جرير .

فعندها قال إبراهيم لأبيه : (سلام عليك) ، كما قال تعالى في صفة المؤمنين : (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) (٥) ، وقال تعالى :(وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه، وقالوا : لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، سلام عليكم لانبتغى الجاهلين) (٦) .

ومعنى قول ابراهيم لأبيه : (سلام عليك) ، يعني : أمّا أنا فلا ينالك مني مكروه ولاأذى ، وذلك لحرمة الأبوة ، (سأستغفرلك ربي) ، أي : ولكن سأسأل الله تعالى فيك أن يهديك ويغفر ذنبك ، (إنه كان بي حفيا) ــ قال ابن عباس وغيره : لطيفاً ، أي : في أن هداني لعبادته والإخلاص له ، وقال مجاهد وقتادة ، وغيرهما : (إنه كان بي حفيا) ، قال : عَوَّدَه الإجابة .

وقال السدى : « الحفي » : الذى يَهْتَمّ بأمره .

(١) سورة النحل آية ٦٣ .

(٢) ما بين القوسين من الطبعات السابقة ، ومكانه فى المخطوطة : « أما » .

(٣) تفسير الطبرى : ١٦/٦٨ ، ٦٩ .

(٤) هو أبو الحسن عطية بن سعد بن جنادة العوفى الجدلى ــ بفتح الجيم ــ الكوفى . يروى عن أبي هريرة وأبي سعيد وابن عباس ينظر الخلاصة .

(٥) سورة الفرقان ، آية : ٦٣ .

(٦) سورة القصص ، آية : ٥٥ .

وقد استغفر إبراهيم لأبيه مدة طويلة ، وبعد أن هاجر إلى الشام وبنى المسجد الحرام ، وبعد أن ولد له إسماعيل وإسحاق عليهما السلام فى قوله : (ربنا ، اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب(١)) .

وقد استغفر المسلمون لقراباتهم (٢) وأهلهم من المشركين فى ابتداء الإسلام ، وذلك اقتداء بإبراهيم الخليل فى ذلك حتى أنزل الله تعالى : (قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه ، إذ قالوا لقومهم : إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم ، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً ، حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه : لأستغفرن لك ، وما أملك لك من الله من شىء(٣)) الآية ، يعنى إلا فى هذا القول ، فلا تتأسوا به : ثم بين تعالى أن ابراهيم أقلع عن ذلك ، ورجع عنه ، فقال تعالى : (ماكان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ، ولوكانوا أولى قربى من من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم : وماكان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، إن إبراهيم لأواه حليم(٤)) .

وقوله : (وأعتزلكم وما تدعون من دون الله ، وأدعو ربى) ، أى : أجتنبكم وأتبرأ منكم ومن آلهتكم التى تعبدونها ، (وأدعو ربى) ، أى : وأعبد ربى وحده لاشريك له ، (عسى آن لاأكون بدعاء ربى شقيا) « وعسى » هذه موجبة لامحالة فإنه عليه السلام سيد الأنبياء بعد محمد صلى الله عليه وسلم .

فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾

يقول : فلما اعتزل الخليل آباه وقومه فى الله ، أبدله الله من هو خير منهم ؛ وهب له إسحاق ويعقوب ، يعنى ابنه وابن إسحاق ، كما قال فى الآية الأخرى : (ويعقوب نافلة(٥)) ، وقال : (ومن وراء إسحاق يعقوب(٦)) :

ولاخلاف أن إسحاق والد يعقوب وهو نص القرآن فى سورة البقرة : (أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ، إذ قال لبنيه : ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك : إبراهيم ، وإسماعيل وإسحاق) (٧) . ولهذا إنما ذكر هاهنا إسحاق ويعقوب ، أى : جعلنا له نسلا وعقباً أنبياء ، أقر الله بهم عينه فى حياته ، ولهذا قال : (وكلا جعلنا نبياً) ، فلو لم يكن يعقوب قد نُبِّىء فى حياة إبراهيم ، لما اقتصر عليه ، ولذكر ولده يوسف ، فإنه نبى أيضاً ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق على صحته ، حين سئل عن خير الناس ، فقال : يوسف نبى الله ، ابن يعقوب

---

(١) سورة إبراهيم ، آية : ٤١ .
(٢) فى المخطوطة : « وقد استغفر المسلمون لرباتهم » . والمثبت عن الطبعات السابقة .
(٣) سورة الممتحنة ، آية : ٤ .
(٤) سورة التوبة ، آية : ١١٣، ١١٤ .
(٥) سورة الأنبياء ، آية : ٧٢ .
(٦) سورة هود ، آية : ٧١ .
(٧) سورة البقرة ، آية : ١٣٣ .

نبیّ الله ، ابن إسحاق نبیّ الله ، ابن إبراهيم خليل الله(١). وفى اللفظ الآخر . إن الكريمَ ابنَ الكريمِ ابنِ الكريم ابنِ الكريم : يوسفُ بنُ يعقوبَ بن إسحاقَ بن إبراهيمَ(٢)» .

وقوله : (ووهبنا لهم من رحمتنا ، وجعلنا لهم لسان صدق عليا) ــ قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : يعنى الثناء الحسن . وكذا قال السدى ، ومالك بن أنس .

وقال ابن جرير : إنما قال : (عليا) ، لأن جميع الملل والأديان يثنون عليهم ويمدحونهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين (٣) .

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾

لما ذكر تعالى إبراهيم الخليل وأثنى عليه ، عَطَف بذكر الكليم ، فقال : (واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مُخلصا) قرأ بعضهم بكسر اللام ، من الإخلاص فى العبادة .

قال الثورى ، عن عبد العزيز بن رُفيع ، عن أبى لُبَابة قال : قال الحواريون : ياروح الله ، أخبرنا عن المخلص لله ؟ قال : الذى يعمل لله ، لايحب أن يحمده الناس

وقرأ الآخرون بفتحها ، بمعنى أنه كان مصطفى ، كما قال تعالى : (إنى اصطفيتك على الناس) (٤) .

(وكان رسول نبيا) ، جُمِع له بين الوصفين ، فإنه كان من المرسلين الكبار أولى العزم الخمسة ، وهم : نوح ، وابراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر أنبياء الله أجمعين .

وقوله : (وناديناه من جانب الطور) ، أى : الجبل (الأيمن) ، أى : من جانبه الأيمن من موسى ، حين ذهب يبتغى من تلك النار جذوة ، رآها تلوح فقصدها ، فوجدها فى جانب الطور الأيمن منه ، عند شاطىء الوادى . فكلمه الله تعالى ، ناداه وقربه وناجاه قال ابن جرير : حدثنا ابن بشار ، حدثنا يحيى ــ هو القطان ــ حدثنا سفيان ، عن عطاء ابن السائب (٥) ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : (وقربناه نجيا) ، قال : أدْنِىَ حتى سَمع صريف(٦) القلم .

---

(١) البخارى ، كتاب الأنبياء ، باب قول الله تعالى : (واتخذ الله إبراهيم خليلا) : ١٧٠/٤ ، وباب قصة إسحاق بن إبراهيم ، ١٧٩/٤ ، ١٨٠ ، ومسلم ، كتاب الفضائل . باب « من فضائل يوسف عليه السلام » ١٠٣/٧ .

(٢) البخارى كتاب الأنبياء ، باب : (أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت) : ١٨١/٤ ، ١٨٢ ، وكتاب المناقب . باب « من انتسب إلى آبائه فى الإسلام » : ٢٢٤/٤ ، وتفسير سورة يوسف : ٩٥/٦ وتحفة الأحوذى ، تفسير سورة يوسف ، الحديث ٥١١٩ : ٥٤٠/٨ ، ٥٤١ .

(٣) تفسير الطبرى : ٧٠/١٦ .

(٤) سورة الأعراف ، آية : ١٤٤ .

(٥) فى المخطوطة : « عطاء بن يسار . والصواب عن تفسير الطبرى . وتنظر ترجمة عطاء بن السائب فى التهذيب : ٢٠٣/٧ ، ٢٠٤ .

(٦) تفسير الطبرى : ٧١/١٦ .

وهكذا قال مجاهد ، وأبو العالية ، وغيرهم : يعنون صريف القلم بكتابة التوراة .

وقال السدى : (وقربناه نجيا) ، قال : أدخل فى السماء فكلم ،وعن مجاهد نحوه .

وقال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة : (وقربناه نجيا) ، قال : نجا بصدقه .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا عبد الجبار بن عاصم ، حدثنا محمد بن سلمة الحرانى ، عن أبى الواصل (١)، عن شهر بن حوشب عن عمرو بن معد يكرب قال : لما قرب الله موسى نجيًا بطور سيناء ، قال : ياموسى ، إذا خلقت لك قلباً شاكراً ، ولساناً ذاكراً ، وزوجة تعين على الخير ، فلم أخزن عنك من الخير شيئاً ، ومن أخزن عنه هذا فلم أفتح له من الخير شيئاً .

وقوله : (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا) ، أى : واجبنا سؤاله وشفاعته فى أخيه ، فجعلناه نبياً ، كما قال فى الآية الأخرى : (وأخى هرون ، هو أفصح منى لساناً ، فأرسله معى ردءاً يصدقنى ، إنى أخاف أن يكذبون)(٢) وقال : (قد أوتيت سؤلك ياموسى(٣)) وقال: (فأرسل إلى هرون . ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون (٤)) .
ولهذا قال بعض السلف : ما شفع أحد فى أحد شفاعة فى الدنيا أعظمَ من شفاعة موسى فى هارون أن يكون نبياً ، قال الله تعالى : (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبياً) .

قال ابن جرير : حدثنى يعقوب ، حدثنا ابن عُلَيَّة ، عن داود ، عن عكرمة قال : قال ابن عباس قوله : (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبيا) ، قال : كان هارون أكبرَ من موسى ، ولكن أراد ، وهب له نبوته .

وقد ذكره ابن أبى حاتم مُعَلَّقًا(٥) ، عن يعقوب وهو ابن إبراهيم الدَّورقى — به .

وَاذْكُرْ فِى الْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾

هذا ثناء من الله على إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام ، وهو والد عرَب الحجاز كلهم بأنه (كان صادق الوعد) .

قال ابن جريج : لم يَعِدْ ربّه عِدَةً إلا أنجزها(٦) : يعنى ما التزم قط عبادة بنذر إلا قام بها ، ووفاها حقها .

وقال ابن جرير : حدثنى يونس ، أنبأنا ابن وهب ، أخبرنى عمرو بن الحارث ، أن سهل بن عقيل حدثه : أن إسماعيل النبى عليه السلام وَعَد رجلا مكاناً أن يأتيه ، فجاء ونسى الرجل ، فظل به إسماعيل وبات حتى جاء الرجل من الغد ، فقال : ما برَحتَ من هاهنا؟ قال: لا . قال : إنى نسيت . قال : لم أكن لأبرح حتى تأتينى . فلذلك: (كان صادق الوعد(٦)) .

---

(١) هو عبد الحميد بن واصل ، يكنى أبا واصل ، تنظر ترجمته فى الجرح لابن أبى حاتم : ١٨/١/٣ .
(٢) سورة القصص آية : ٣٤
(٣) سورة طه ، آيه : ٣٦ .
(٤) سورة الشعراء ، آية : ١٣ ، ١٤ .
(٥) ينظر : ٥٢/٢ ، التعليق رقم : ٥ .
(٦) تفسير الطبرى : ٧٢/١٦ .

وقال سفيان الثورى : بلغنى أنه أقام فى ذلك المكان ينتظره حولا حتى جاءه .

وقال ابن شوذب(١) : بلغنى أنه اتخذ ذلك الموضع سكنا .

وقد روى أبوداود فى سننه ، وأبوبكر محمد بن جعفر الخرائطى(٢) فى كتابه « مكارم الأخلاق» ، من طريق إبراهيم ابن طهمان ، عن بديل(٣) بن ميسرة ، عن عبد الكريم ــ يعنى ابن عبد الله بن شقيق ــ عن أبيه ، عن عبد الله بن أبى الحمساء(٤) قال : بايعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يُبعَثَ فبقيت له علىّ بقيّة ، فوعدته أن آتيه بها فى مكانه ذلك ، قال فنسيت يومى والغد ، فأتيته فى اليوم الثالث وهو فى مكانه ذلك ، فقال لى : يا فتى ، لقد شققت علىّ ، أنا هاهنا منذ ثلاث أنتظرك » لفظ الخرائطى ، وساق آثاراً حسنة فى ذلك .

ورواه ابن مَندَه أبوعبد الله فى كتاب « معرفة الصحابة » ، بإسناده عن إبراهيم بن طهمان ، عن بديل بن ميسرة ، عن عبد الكريم ، به .

وقال بعضهم : إنما قيل له : (صادق الوعد) ، لأنه قال لأبيه : (ستجدنى إن شاء الله من الصابرين(٥)) ، فصدَق فى ذلك .

فصدْقُ الوعد من الصفات الحميدة ، كما أن خُلْفَه من الصفات الذميمة ، قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالاتفعلون * كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون(٦)) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان »(٧) .

ولما كانت هذه صفات المنافقين ، كان التلبّس بضدها من صفات المؤمنين ، ولهذا أثنى الله على عبده ورسوله إسماعيل بصدق الوعد ، وكذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم صادقَ الوعد أيضاً ، لايَعِدُ أحداً شيئاً إلا وفى له به ، وقد أثنى على [أبى] العاص بن الربيع زوج ابنته زينب ، فقال : « حدثنى فصدقنى ، ووعدنى فوفى لى(٨) » : ولما

---

(١) هو أبو محمد عبدالله بن عمر بن شوذب الواسطى المقرئ ، محدث واسط ، روى عن شعيب الصريفينى ومحمد بن عبد الملك الدقيقى ، وكان من أعيان القراء . توفى سنة ٣٤٢ عن ٩٣ سنة . ينظر العبر للذهبى : ٢٥٩/٢ .

(٢) ترجم له الذهبى فى العبر : ٢٠٩/٢ ، وذكر كتابه « مكارم الأخلاق ومساوئ الأخلاق » ، وقال : سمع الحسن بن عرفة وعمر بن شبة وطبقتهما ، وتوفى بفلسطين ، فى ربيع الأول ، سنة ٣٢٧ عن ٩٠ سنة .

(٣) فى المخطوطة : «عن عبدالله بن ميسرة» . والصواب عن سنن أبى داود ، كتاب الأدب ، باب «فى العدة» ، الحديث٤٩٩٦ : ٤ : ٢٩٩ . وتنظر ترجمة بديل فى التهذيب : ٤٢٤/١ .

(٤) ينظر ترجمة « عبدالله بن أبى الحمساء » فى أسد الغابة : ٢١٧/٣ بتحقيقنا .

(٥) سورة الصافات ، آية : ١٠٢ .

(٦) سورة الصف ، آية : ٢ ، ٣ .

(٧) البخارى ، كتاب الإيمان ، باب « علامة المنافق » : ١٥/١ ، وكتاب الشهادات ، باب « من أمر بإنجاز العهد » : ٢٣٦/٣ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « بيان خصال المنافق » : ٥٦/١ .

(٨) البخارى ، كتاب الشروط ، باب « الشروط فى المهر عند عقدة النكاح » ٢٤٩/٣ ، وكتاب الشهادات ، باب « من أمر بانجاز العهد » : ٣/ ٢٣٦ ، وكتاب فضائل أصحاب النبى ، باب « ذكر أصهار النبى صلى الله عليه وسلم » : ٢٨/٥ ، ٢٩ . ومسلم كتاب فضائل الصحابة ، باب « فضائل فاطمة بنت النبى عليه الصلاة والسلام » : ١٤١/٧ .

توفى النبي صلى الله عليه وسلم قال الخليفة أبوبكر الصديق : من كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عـدة أودين ، فليأتنى أنجز له : فجاءه جابر بن عبد الله ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قال : « لو جاء مال البحرين أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا — يعني ملء كفيه — فلما جاء مال البحرين أمر الصديق جابراً ، فغرف بيديه من المال ، ثم أمره بعده ، فإذا هو خمسمائة درهم ، فأعطاه مثليها معها :

وقوله : (وكان رسولا نبياً) ، فى هذا دلالة على شرف إسماعيل على أخيه إسحاق ، لأنه إنما وصف بالنبوة فقط ، وإسماعيل وصف بالنبوة والرسالة : وقد ثبت فى صحيح (١) مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل » : : : وذكر تمام الحديث ، فدل على صحة ما قلناه :

وقوله : (وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً) : هذا أيضاً من الثناء الجميل ، والصفة الحميدة ، والخلة السديدة ، حيث كان مثابراً على طاعة ربه آمراً بها لأهله ، كما قال تعالى لرسوله : (وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ، لانسألك رزقاً ، نحن نرزقك ، والعاقبة للتقوى)(٢) ، وقال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا ، قوا أنفسكم وأهليكم ناراً، وقودها الناس والحجارة ، عليها ملائكة غلاظ شداد)(٣) : : الآية ، أى : مروهم بالمعروف ، وانهوهم عن المنكر ، ولاتدعوهم هَمَلا فتأكلهم النار يوم القيامة ، وقد جاء فى الحديث ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رحم الله رجلا قام من الليل فصلى ، وأيقظ امرأته ، فان أبت نَضَح فى وجهها الماء : رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت ، وأيقظت زوجها ، فان أبى نضحت فى وجهه الماء » أخرجه أبو داود وابن ماجه(٤) :

وعن أبى سعيد ، وأبى هريرة ، رضى الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته ، فصليا ركعتين ، كتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات» (٥) . رواه أبو داود ، والنسائى ، وابن ماجه ، واللفظ له :

---

(١) كذا قال : « فى صحيح مسلم » ، ولم نجده فيه بهذا النص ، والحديث رواه الإمام أحمد والترمذى من طريق الأوزاعى ، من أبى عمار شداد ، من واثلة بن الأسقع ، ينظر المسند : ١٠٧/٤ ، وتحفة الأحوذى ، أبواب المناقب ، باب « ما جاء فى فضل النبى صلى الله عليه وسلم » ، الحديث ٣٦٨٤ : ١٠ ٪٧٤ ، وقال الترمذى « هذا حديث حسن صحيح » ، وقال الحافظ أبو العلى صاحب تحفة الأحوذى : « وأخرجه مسلم » . وأما لفظ مسلم ، كما ورد فى كتاب الفضائل ، باب « فى فضل نسب النبى صلى الله عليه وسلم » ٥٧/٧ ، من هذا الطريق المتقدم : « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » وهو أيضاً لفظ مسلم كما فى شرح النووى : ١٥ ٪٢٦ ، ويبدو — والله أعلم — أنه قد وقع سقط فى صحيح مسلم .

(٢) سورة طه ، آية : ١٣٢ .

(٣) سورة التحريم ، آية : ٦ .

(٤) سنن أبى داود ، كتاب الصلاة ، باب « الحث على قيام الليل » ، الحديث ١٤٥٠ : ٢٪٧٠ ، وابن ماجه ، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب « ماجاء فيمن أيقظ أهله من الليل » . الحديث ١٣٣٦ : ١ /٤٢٤ ، ومسند الإمام أحمد : ٢٪٢٥٠ ، ٤٣٦ ، والنسائى ، كتاب قيام الليل ، باب « الترغيب فى قيام الليل » : ٣ : ٢٠٥ .

(٥) سنن ابن ماجه ، فى الكتاب والباب المتقدمين ، الحديث ١٣٣٥ : ١٪٤٢١ ، ٤٢٢ . وسنن أبى داود ، فى الكتاب والباب ، المتقدمين ، الحديث ١٤٥١ : ٢٪٧٠ .

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧)﴾

وهذا ذِكْرٌ إدريس عليه السلام بالثناء عليه ، بأنه كان صديقاً نبياً ، وأن الله رفعه مكاناً عليا . وقد تقدم فى الصحيح : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مَرّ به فى ليلة الإسراء وهو فى السماء الرابعة(١) .

وقد روى ابن جرير هاهنا أثراً غريباً عجيباً ، فقال : حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، أنبأنا ابن وهب ، أخبرنى جَرير بن حازم ، عن سليمان الأعمش ، عن شِمْر بن عطية ، عن هلال بن يَسَاف قال : سأل ابن عباس كعباً ، وأنا حاضر ، فقال له : ما قولُ الله عز وجل لإدريس (ورفعناه مكاناً عليا) ؟ فقال كعب : أما إدريس فإن الله أوحى إليه إنى أرفع لك كل يوم مثل عمل جميع بنى آدم ، فأحب أن يزداد عملا ، فأتاه خليل له من الملائكة فقال : إن الله أوحى إلىّ كذا وكذا ، فكلّم لى ملك الموت ، فَلْيؤخّرنى حتى ازداد عملا ، فحمله بين جناحيه ، ثم صعد به إلى السماء ، فلما كان فى السماء الرابعة تلقاهم مَلَك الموت منحدراً ، فكلم ملكَ الموت فى الذى كلمه فيه إدريس ، فقال : وأين إدريس فقال : هو ذا على ظهرى ، قال ملك الموت فالعجبُ ! بُعثتُ وقيل لى : اقبض روح إدريس فى السماء الرابعة ، فجعلت أقول : كيف أقبضُ روحه فى السماء الرابعة ، وهو فى الأرض ؟ فقبض روحه هناك ، فذلك قول الله : (ورفعناه مكاناً عليا(٢)) .

هذا من أخبار كعب الأحبار الإسرائيليات ، وفى بعضه نكارة ، والله أعلم .

وقد رواه ابن أبى حاتم من وجه آخر ، عن ابن عباس : أنه سأل كعباً ، فذكر نحو ما تقدم ، غير أنه قال الملك الملك : هل لك أن تسأله – يعنى ملك الموت – كم بقى من أجلى ؟ لكى أزداد من العمل ، وذكر باقيه ، وفيه : أنه لما سأله عما بقى من أجله ، قال : لا أدرى حتى أنظر ثم نظر ، قال : إنك تسألنى عن رجل ما بقى من عمره إلا طرفة عين ، فنظر الملك تحت جناحه إلى إدريس ، فإذا هو قد قبض عليه السلام ، وهو لايشعر به .

ثم رواه من وجه آخر عن ابن عباس : أن إدريس كان خياطاً ، فكان لايغرز إبرة إلا قال : « سبحان الله » ، فكان يمسى حين يمسى ، وليس فى الأرض أحد أفضل عملا منه . وذكر بقيته كالذى قبله ، أو نحوه .

وقال ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قوله : (ورفعناه مكاناً عليا) ، قال : إدريس رفع ولم يمت ، كما رفع عيسى (٢)

وقال سفيان ، عن منصور ، عن مجاهد : (ورفعناه مكاناً عليا) قال : السماء الرابعة(٣) .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : (ورفعناه مكاناً علياً) ، قال : رفع إلى السماء السادسة فمات بها . وهكذا قال الضحاك بن مُزَاحم .

وقال الحسن ، وغيره ، فى قوله : (ورفعناه مكاناً علياً) ، قال : الجنة .

---

(١) ينظر : ٥/٧ .

(٢) تفسير الطبرى : ١٦/٧٢ .

(٣) تفسير الطبرى : ١٦/٧٣ .

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ (٥٨)

يقول تعالى : هؤلاء النبيون — وليس المراد المذكورين فى هذه السورة فقط ، بل جنس الأنبياء عليهم السلام ، استطرد من ذكر الأشخاص إلى الجنس — (الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم) ... الآية .

قال السدى وابن جرير رحمه الله : [فالذى عنى به من ذرية آدم : إدريس ، والذى عنى به من ذرية من حملنا مع نوح : إبراهيم] والذى عنى به من ذرية إبراهيم : إسحاق ويعقوب وإسماعيل ، والذى عنى به من ذرية إسرائيل : موسى ، وهارون ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى ابن مريم .

قال ابن جرير : ولذلك فرق أنسابهم ، وإن كان يجمع جميعهم آدم ، لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع نوح فى السفينة ، وهو إدريس ، فإنه جد نوح .

قلت : هذا هو الأظهر أن إدريس فى عمود نسب نوح عليهما السلام . وقد قيل : إنه من أنبياء بنى إسرائيل ، أخذاً من حديث الإسراء ، حيث قال فى سلامه على النبى صلى الله عليه وسلم : « مرحباً بالنبى الصالح ، والأخ الصالح» ولم يقل : « والولد الصالح» ، كما قال آدم وإبراهيم عليهما السلام .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا يونس ، أنبأنا ابن وهب ، أخبرنى ابن لهيعة ، عن يزيد بن أبى حبيب ، عن عبد الله ابن محمد(١) أن إدريس أقدم من نوح بعثه الله إلى قومه ، فأمرهم أن يقولوا : « لا إله إلا الله » ، ويعملوا ما شاءوا ، فأبوا ، فأهلكهم الله عز وجل .

[ومما يؤيد أن المراد بهذه الآية جنسُ الأنبياء ، أنها كقوله تعالى فى سورة الأنعام : (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء] ، إن ربك حكيم عليم . ووهبنا له إسحاق ويعقوب ، كلا هدينا ، ونوحاً هدينا من قبل ، ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون وكذلك نجزى المحسنين . وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين . وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا ، وكلا فضلنا على العالمين . ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم ، واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم) إلى أن قال : (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ، قل : لا أسألكم عليه أجرا ، إن هو إلا ذكرى للعالمين(٢)) . وقال تعالى : (منهم من قصصنا عليك ، ومنهم من لم نقصص عليك(٣)) وفى صحيح البخارى ، عن مجاهد : أنه سأل ابن عباس : أفى «ص» سجدة ؟ قال : نعم ، ثم تلا هذه الآية : (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) ، فنبيكم ممن أُمِرَ أن يقتدى بهم ، قال : وهو منهم ، يعنى داود(٤) .

وقال الله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (إذا تتلى عليهم آيات الرحمن ، خروا سجدا وبكيا) ، أى : إذا سمعوا

(١) كذا فى مخطوطة الأزهر . وفى الطبعات السابقة : « عبد الله بن عمر » .

(٢) سورة الأنعام ، الآيات : ٨٣ — ٩٠ .

(٣) سورة غافر ، آية : ٧٨ .

(٤) البخارى ، تفسير سورة الأنعام : ٦/٧١ ، ٧٢ ، وتفسير سورة ص : ٦/١٥٥ .

كلام الله المتضمن حُجَجه ودلائله وبراهينه ، سجدوا لربهم خضوعاً واستكانة ، وحمدا وشكراً على ماهم فيه من النعم العظيمة .

« والبُكِيّ » : جمع باك ، فلهذا أجمع العلماء على شرعيّة السجود هاهنا ، اقتداء بهم ، واتباعاً لمنوالهم .

قال سفيان الثورى ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن أبى معمر قال : قرأ عمر بن الخطاب رضى الله عنه سورة مريم ، فسجد وقال : هذا السجود ، فأين البُكِيّ ؟ يريد البكاء .

رواه ابن أبى حاتم وابن جرير ، وسَقَط من روايته(١) ذكر « أبى معمر » فيما رأيت ، والله أعلم .

* ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ ﴾

لما ذكر تعالى حزْبَ السعداء ، وهم الأنبياء عليهم السلام ومن اتبعهم ، من القائمين بحدود الله وأوامره ، المؤدّين فرائضَ الله ، التاركين لزواجره — ذكر أنه (خلف من بعدهم خلف) ، أى : قرون أخَر ، (أضاعوا الصلاة) — وإذا أضاعوها فهم لما سواها من الواجبات أضيعُ ، لأنها عماد الدين وقوامه ، وخير أعمال العباد — وأقبلوا على شهوات الدنيا وملاذها ، ورضُوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، فهؤلاء سيلقون غيا ، أى : خَسَاراً يوم القيامة .

وقد اختلفوا فى المراد بإضاعة الصلاة هاهنا ، فقال قائلون : المراد بإضاعتها ترْكُها بالكلية ، قاله محمد بن كعب القرظى ، وابن زيد بن أسلم ، والسدى ، واختاره ابن جرير . ولهذا ذَهَب من ذهب من السلف والخلف والأئمة كما هو المشهور عن الإمام أحمد ، وقول عن الشافعى إلى تكفير تارك الصلاة ، للحديث : « بين العبد وبين الشرك تَركُ الصلاة(٢) » ، والحديث الآخر : « العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر(٣) » . وليس هذا محل بسط هذه المسألة .

وقال الأوزاعى ، عن موسى بن سُلَيمان ، عن القاسم بن مُخَيمِرَة فى قوله : (فخلف من بعدهم خلف ، أضاعوا الصلاة) ، قال : إنما أضاعوا المواقيت ، ولو كان تركاً كان كفراً(٤) .

وقال وكيع ، عن المسعودى ، عن القاسم بن عبد الرحمن والحسن بن سَعْد ، عن ابن مسعود أنه قيل له : إن الله يكثر ذكر الصلاة فى القرآن : (الذين هم عن صلاتهم ساهون) و(على صلاتهم دائمون) و(على صلاتهم يحافظون) ؟ قال ابن مسعود : على مواقيتها . قالوا : ما كنا نرى ذلك إلا على الترك ؟ قال : ذاك الكفر .

---

(١) يعنى الطبرى ، ينظر : ١٦/٧٣ ، ٧٤ .

(٢) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب « بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات » : ١/٦١ ، ٦٢ . وأبو داود ، كتاب السنة ، الحديث ٤٦٧٨ : ٤/٢١٩ ، وتحفة الأحوذى ، أبواب الإيمان ، باب « ما جاء فى ترك الصلاة » ، الأحاديث ٢٧٥١ —٢٧٥٣ : ٧/٣٦٧ ، ٣٦٨ ، وقال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح » . وابن ماجه ، كتاب إقامة الصلاة ، باب « ما جاء فيمن ترك الصلاة » ، الحديث ١٠٧٨ : ١/٣٤٢ .

(٣) تحفة الأحوذى ، فى الكتاب والباب المتقدمين ، الأحاديث ٢٧٥٤ — ٢٧٥٦ : ٧/٣٦٨ ، ٣٦٩ ، وقال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح غريب » . والنسائى ، كتاب الصلاة ، باب « الحكم فى تارك الصلاة » : ١/٢٣١ ، وابن ماجه ، فى الكتاب والباب المتقدمين ، الحديث ١٠٧٩ : ١/٣٤٢ . ومسند الإمام أحمد عن بريدة الأسلمى : ٥/٣٤٦ ، ٣٥٥ .

(٤) تفسير الطبرى : ١٦/٧٤ .

قال مسروق : لايحافظ أحد على الصلوات الخمس ، فيكتب من الغافلين ، وفى إفراطهن الهلكة ، وإفراطهن : إضاعتهن عن وقتهن .

وقال الأوزاعى ، عن إبراهيم بن يزيد : أن عمر بن عبد العزيز قرأ : (فخلف من بعدهم خلف ، أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، فسوف يلقون غيا) ، ثم قال : لم تكن إضاعتهم تركها ، ولكن أضاعوا الوقت .

وقال ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : (فخلف من بعدهم خلف ، أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات) ، قال : عند قيام الساعة ، وذهاب صالحى أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ينزو بعضهم على بعض فى الأزقة ، وكذا روى ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، مثله .

وروى جابر الجُعْفِىّ ، عن مجاهد ، وعكرمة ، وعطاء بن أبى رباح : أنهم من هذه الأمة ، يعنون فى آخر الزمان .

وقال ابن جرير : حدثنى الحارث ، حدثنا الحسن الأشيب ، حدثنا شريك ، عن إبراهيم بن مهاجر ، عن مجاهد[1] : (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات) ، قال : هم فى هذه الأمة ، يتراكبون تراكب الأنعام والحُمُر فى الطرق ، لايخافون الله فى السماء ، ولا يستحيون الناس فى الأرض [2] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سنان الواسطى ، حدثنا أبو عبد الرحمن المقرىء ، حدثنا حيوة ، حدثنا بشير ابن أبى عمرو الخولانى : أن الوليد بن قيس حدثه ، أنه سمع أبا سعيد الخدرى يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يكون خَلْفٌ بعد ستين سنة ، أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، فسوف يلقون غيا ، ثم يكون خلف يقرءون القرآن لايعدو تراقيهم ، ويقرأ القرآن ثلاثة : مؤمن ، ومنافق ، وفاجر . قال بشير : قلت للوليد : ماهؤلاء الثلاثة ؟ قال : المؤمن مؤمن به ، والمنافق كافر به ، والفاجر يأكل به .

وهكذا رواه أحمد عن أبى عبد الرحمن ، المقرىء ، به[3] .

وقال ابن أبى حاتم أيضاً : حدثنى أبى ، حدثنا إبراهيم بن موسى ، أنبأنا عيسى بن يونس ، حدثنا عبيد الله بن عبد الرحمن بن موهب ، عن مالك ، عن أبى الرِّجال : أن عائشة كانت ترسل بالشىء صدقة لأهل الصُّفَّة ، وتقول : لاتُعطُوا منه بربرياً ولابربرية ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : هم الخلف الذين قال الله تعالى : (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة) : هذا حديث غريب[4] .

وقال أيضاً : حدثنى أبى ، حدثنا عبد الرحمن بن الضحاك ، حدثنا الوليد ، حدثنا حَرِيز ، عن شيخ من آهل المدينة : أنه سمع محمد بن كعب القرظى يقول فى قوله : (فخلف من بعدهم خلف) . . الآية ، قال : هم أهل الغرب ، يملكون وهم شر من ملك .

وقال كعب الأحبار : والله إنى لأجد صفة المنافقين فى كتاب الله عزوجل : شرابين للقهوات[5] ، تراكين للصلوات

---

(١) كذا فى مخطوطة الأزهر ، وفى تفسير الطبرى : «شريك ، عن أبى تميم بن مهاجر فى قول الله ...» .

(٢) تنظر الآثار المتقدمة فى تفسير الطبرى : ١٦/٧٤ ، ٧٥ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٣/٣٨ ، ٣٩ .

(٤) من وجوه الغرابة فيه قصر إضاعة الصلاة على جنس بعينه ، وليس فى الكتاب ولا فى السنة الصحيحة دليل على ذلك .

(٥) القهوات : جمع قهوة ، وهى الخمر .

لعابين بالكعبات ، رقادين عن العتمات ، مفرّطين فى الغدوات، تاركين للجمعات ، قال : ثم تلا هذه الآية : (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، فسوف يلقون غيا) .

وقال الحسن البصرى : عطلوا المساجد ، ولزموا الضيعات .

وقال أبو الأشهب العطاردى : أوحى الله تعالى إلى داود : ياداود ، حذّر وأنذر أصحابك أكل الشهوات ؛ فان القلوب المعلقة بشهوات الدنيا عقولها عنى محجوبة ، وإن أهون ما أصنع بالعبد من عبيدى إذا آثر شهوة من شهواته علىّ أن أحرمه طاعتى .

وقال الإمام أحمد : حدثنا زيد بن الحباب حدثنى أبو [السمح](١)التيمى،عن أبى قبيل ، أنه سمع عقبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :«إنى أخاف على أمتى اثنتين : القرآن واللبن(٢) ، أما اللبن فيتبعون الرّيف، ويتبعون الشهوات ويتركون الصلوات ، وأما القرآن فيتعلمه المنافقون ، فيجادلون به المؤمنين»(٣).

ورواه عن حسن بن موسى ، عن ابن لهيعة ، حدثنا أبوقبيل ، عن عقبة ، به مرفوعاً بنحوه(٤) تفرد به .

وقوله : (فسوف يلقون غيا) ، قال على ابن أبى طلحة، عن ابن عباس : (فسوف يلقون غيا) ، أى : خسرانا، وقال قتادة : شراً .

وقال سفيان الثورى ، وشعبة ، ومحمد بن إسحاق(٥) ، عن أبى إسحاق السّبيعى ، عن أبى عُبَيدة، عن عبد الله بن مسعود : (فسوف يلقون غيا) ، قال : واد فى جهنم ، بعيد القعر ، خبيث الطعم(٦) .

وقال الأعمش ، عن زياد ، عن أبى عياض فى قوله : (فسوف يلقون غيا) ، قال : واد فى جهنم من قيح ودم .

وقال الإمام أبوجعفر ابن جرير : حدثنى عباس بن أبى طالب ، حدثنا محمد بن زياد [بن زبار](٧) ، حدثنا شرقى بن قطامى ، عن لقمان بن عامر الخزاعى قال : جئت أبا أمامة صُدَىّ بن عَجلان الباهلى فقلت : حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فدعا بطعام ، ثم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو أن صخرة زنة عشر أواق قُذف بها من شفير جهنم ، ما بلغت قعرها خمسين خريفاً ، ثم تنتهى إلى غَىّ وأثام . قال قلت: وما غىّ وأثام؟ قال : بئران فى أسفل جهنم ، يسيل فيهما صديد أهل النار ، وهما اللتان ذكر الله فى كتابه : (أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، فسوف يلقون غيا) . وقوله فى الفرقان : (ولايزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما) (٨) .

---

(١) ما بين القوسين من المسند .

(٢) فى المخطوطة : « القرآن والكتى ، أما الكتى » . والمثبت من المسند . وفى النهاية : « قال الحربى : أظنه أراد : يتباعدون عن الأمصار وعن صلاة الجماعة ، ويطلبون مواضع اللبن فى المراعى والبوادى .

(٣) مسند الإمام أحمد : ١٥٦/٤ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ١٤٦/٤ .

(٥) لم نجد فى تفسير الطبرى رواية لابن إسحاق عن أبى إسحاق السبيعى ، ولعله أبو الأحوص .

(٦) تفسير الطبرى : ٧٥/١٦ ، ٧٦ .

(٧) فى مخطوطة الأزهر : « محمد بن زياد بن زيان » ، وفى تفسير الطبرى : « محمد بن زياد بن رزان » . والمثبت من ترجمته فى الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٢٥٨/٢/٣ .

(٨) تفسير الطبرى : ٧٥/١٦ .

هذا حديث غريب ، ورفعه منكر .

وقوله : (إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً) ، أى : إلا من رجع عن ترك الصلاة واتباع الشهوات ، فان الله يتقبل توبته ، ويحسن عاقبته ، ويجعله من ورثة جنة النعيم . ولهذا قال : (فأولئك يدخلون الجنة ولايظلمون شيئاً) ، وذلك ، لأن التوبة تجبُّ ماقبلها . وفى الحديث الآخر : «التائب من الذنب كمن لاذنب له(١)» ، ولهذا لاينتقص هؤلاء التائبون من أعمالهم التى عملوها شيئاً ، ولا قوبلوا بما عملوه قبلها فينقص لهم مماعملوه بعدها ، لأن ذلك ذهب هدراً وترك نسيا ، وذهب مجانا ، من كرم الكريم ، وحلم الحليم .

وهذا الاستثناء هاهنا كقوله فى سورة الفرقان : (والذين لايدعون مع الله إلهاً آخر ولايقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولايزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاما . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا . إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً ، فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفوراً رحيماً (٢)) .

جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾

يقول الجنات التى يدخلها التائبون من ذنوبهم ، هى (جنات عدن) ، أى : إقامة (التى وعدالرحمن عباده) بظهر الغيب ، أى : هى من الغيب الذى يؤمنون به وما رأوه ، وذلك لشدة إيقانهم وقوة إيمانهم .

وقوله : (إنه كان وعده مأتيا) ، تأكيد لحصول ذلك وثبوته واستقراره ؛ فان الله لايخلف الميعاد ولايبدله ، كقوله (وكان وعده مفعولا(٣)) ، أى : كائن لامحالة .

وقوله هاهنا : (مأتيا) ، أى : العباد صائرون إليه ، وسيأتونه .

ومنهم من قال (مأتيا) بمعنى آتيا ، لأن كل ما أتاك فقد أتيته ، كما تقول العرب : أتت علىّ خمسون سنة ، وأتيت على خمسين سنة ، كلاهما (٤) بمعنى .

وقوله : (لايسمعون فيها لغواً) ، أى : هذه الجنات ليس فيها كلام ساقط تافه لامعنى له ، كما قد يوجد فى الدنيا .

وقوله : (إلا سلاما) استثناء منقطع ، كقوله : (لايسمعون فيها لغواً ولاتأثيما . إلا قيلا سلاما سلاما(٥)) .

وقوله : (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) ، أى : فى مثل وقت البُكَرات ووقت العَشيات ، لا أن هناك ليلا أونهاراً ولكنهم فى أوقات تتعاقب ، يعرفون مضيها بأضواء وأنوار ، كما قال الإمام أحمد :

---

(١) سنن ابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب «ذكر التوبة» ، الحديث ٤٢٥٠ : ٢/١٤١٩ ، ١٤٢٠ .
(٢) سورة الفرقان ، الآيات : ٦٨ — ٧٠ .
(٣) سورة المزمل ، آية : ١٨ .
(٤) ذكر ذلك الطبرى عن بعض نحويى الكوفة : ١٦/٧٦ .
(٥) سورة الواقعة ، آية : ٢٥ ، ٢٦ .

حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن همام ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أول زُمْرَة تلج الجنة صُوَرهم على صورة القمر ليلة البدر ، لايبصقون(١) فيها ، ولا يتمخطون فيها ، ولا يتغوطون . آنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة ، ومجامرهم الألُوّة(٢) ، ورَشْحُهم المسك ، ولكل واحد منهم زوجتان ، يرى مُخ ساقيهما من وراء اللحم ؛ من الحسن ، لااختلاف بينهم ولاتباغض ، قلوبهم على قلب واحد ، يسبحون الله بكرة وعشيا(٣) » .

أخرجاه في الصحيحين ، من حديث معمر ، به(٤) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يعقوب ، حدثنا أبي ، عن ابن إسحاق ، حدثني الحارث بن فضيل الأنصاري ، عن محمود ابن لبيد الأنصاري ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «الشهداء على بارق نهر بباب الجنة ، في قبة خضراء ، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيا»(٥) . تفرد به أحمد من هذا الوجه .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس : (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) ، قال : مقادير الليل والنهار .

وقال ابن جرير : حدثنا علي بن سهم ، حدثنا الوليد بن مسلم قال : سألت زهير بن محمد ، عن قول الله تعالى : (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) ، قال : ليس في الجنة ليل ، هم في نور أبدا ، ولهم مقدار الليل والنهار ، يعرفون مقدار الليل بإرخاء الحجب وإغلاق الأبواب ، ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب وبفتح الأبواب .

وبهذا الإسناد عن الوليد بن مسلم ، عن خليد ، عن الحسن البصري ، وذكر أبواب الجنة ، فقال : أبواب يُرى ظاهرها من باطنها فتكلم وتكلم فتَفْهَمُهم انفتحي انغلقي(٦) ، فتفعل .

وقال قتادة في قوله : (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) : فيها ساعتان ، بُكرة وعشي ، ليس ثَمّ ليل ولانهار ، وإنما هو ضوء ونور .

وقال مجاهد : ليس بكرة ولاعشي ، ولكن يُؤتون به على ماكانوا يشتهون في الدنيا .

وقال الحسن ، وقتادة ، وغيرهما : كانت العرب ، الأنْعَمُ فيهم ، من يتغدّى ويتعشى ، ونزل القرآن على ما في أنفسهم من النعيم ، فقال تعالى : (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) .

وقال ابن مهدي ، عن حماد بن زيد ، عن هشام ، عن الحسن : (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) ، قال : البكور يرد على العشي ، والعشي يرد على البكور ، ليس فيها ليل .

---

(١) في المسند : «ولا يبصقون ولا يتفلون فيها» .

(٢) الألوة — بفتح الهمزة وضمها — : العود الذي يتبخر به . قال الأصمعي : «أراها كلمة فارسية عربت» . ينظر الغريبين للهروي : ٧٧/١ . والنهاية لابن الأثير : ٦٣/١ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٣١٦/٢ .

(٤) البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب «ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة» : ١٤٣/٤ ، ومسلم ، كتاب الجنة ، باب «في صفات الجنة وأهلها» : ١٤٧/٨ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٢٦٦/١ .

(٦) تفسير الطبري : ٧٧/١٦ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا [سليم(١)] بن منصور بن عمار ، حدثني أبي ، حدثنا محمد بن زياد قاضي (٢) أهل شمشاط (٣) ، عن عبد الله بن حدير (٤) ، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مامن غداة من غدوات الجنة ، وكل الجنة غدوات ، إلا أنه يزف إلى ولى الله فيها زوجة من الحور العين ، أدناهن التي خلقت من الزعفران » .

قال أبو محمد : هذا حديث منكر .

(تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا) ، أى : هذه الجنة التي وصفنا بهذه الصفات العظيمة هي [التي] نورثها عبادنا المتقين ، وهم المطيعون لله عزوجل في السراء والضراء ، والكاظمون الغيظ ، والعافون عن الناس ، وكما قال تعالى في أول سورة المؤمنين : (قد أفلح المؤمنون ، الذين هم في صلاتهم خاشعون) ، إلى أن قال : (أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون(٥)) .

وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤) رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)

قال الإمام أحمد : حدثنا يعلى ووكيع قالا : حدثنا عمر بن ذر ، عن أبيه ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل : ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ؟ قال : فنزلت : (وما نتنزل إلا بأمر ربك) إلى آخر الآية(٦) .

انفرد بإخراجه البخاري ، فرواه عند تفسير هذه الآية عن أبي نعيم ، عن عمر بن ذر ، به . ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير ، من حديث عمر بن ذر ، به(٧) . وعندهما زيادة في آخر الحديث ، فكان ذلك الجواب لمحمد صلى الله عليه وسلم .

---

(١) في المخطوطة : « سليمان بن منصور » . والمثبت من ترجمة « سليم » في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ٢١٦/١/٢ . وترجمة أبيه « منصور بن عمار » في الجرح أيضاً : ١٧٦/١/٤ .

(٢) محمد بن زياد هذا يلقب بهقل . تنظر ترجمته في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ١٢٢/٢/٤ ، ١٢٣ .

(٣) قال ياقوت : « شمشاط : بكسر أوله ، وسكون ثانيه ، وشين مثل الأولى ، وآخره طاء مهملة : مدينة بالروم على شاطئ الفرات » .

(٤) كذا في الطبعات السابقة ، وفي المخطوطة : « عبد الله بن جرير » . ولم نتبين بعد هذا الاسم . ولعبد الله بن حدير ترجمة في الجرح : ٤١/٢/٢ .

(٥) سورة « المؤمنون » ، الآيات : ١ - ١١ .

(٦) حديث يعلى في المسند : ٢٣١/١ ، وحديث وكيع في المسند : ٢٣٣/١ ، ٢٣٤ . وتنظر رواية ثالثة في المسند : ٣٥٧/١ .

(٧) البخاري ، تفسير سورة مريم : ١١٨/٦ ، ورواه البخاري أيضاً في كتاب بدء الخلق : ١٣٧/٤ عن أبي نعيم ، ورواه في كتاب التوحيد عن خلاد بن يحيى ، عن عمر بن ذر : ١٦٦/٩ .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : احتبس جبريل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوَجَدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك وحزِن فأتاه جبريل وقال : يا محمد ، (وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا ، وما بين ذلك ، وما كان ربك نسيا) (١) .

وقال مجاهد : لبث جبريل عن محمد صلى الله عليه وسلم اثنتى عشرة ليلة ، ويقولون [قُلِىَ]، فلما جاءه قال : ياجبريل ، لقد رِثْتَ (٢) علىّ ، حتى ظن المشركون كلّ ظن . فنزلت (وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا ، وما بين ذلك ، وماكان ربك نسيا) قال : وهذه الآية كالتى فى الضحى .

وكذلك قال الضحاك بن مزاحم ، وقتادة ، والسدى ، وغير واحد : إنها نزلت فى احتباس جبريل(٣) .

وقال الحكم بن أبان ، عن عكرمة قال : أبطأ جبريل النزول على رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين يوماً ، ثم نزل ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : ما نزلت حتى اشتقت إليك . فقال له جبريل : بل أنا كنت إليك أشوق ، ولكنى مأمور ، فأوحِىَ إلى جبريل أن قل له : (وما نتنزل إلا بأمر ربك) . الآية . رواه ابن أبى حاتم رحمه الله ، وهو غريب .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا أبومعاوية ، حدثنا الأعمش ، عن مجاهد قال : أبطأت الرسلُ على النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم أتاه جبريل فقال له : ما حبسك ياجبريل ؟ فقال له جبريل وكيف نأتيكم وأنتم لاتقصون أظفاركم ، ولاتُنَقُّون براجمكم(٤) ، ولاتأخذون شواربكم ، ولا تستاكون ؟. ثم قرأ: (وما نتنزل إلا بأمر ربك) ... إلى آخر الآية .

وقد قال الطبرانى : حدثنا أبو عامر النحوى ، حدثنا محمد بن إبراهيم الصورى ، حدثناسليمان بن عبد الرحمن ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، أخبرنى ثعلبة بن مسلم ، عن أبى كعب مولى ابن عباس ، عن ابن عباس ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أن جبريل أبطأ عليه ، فذكر ذلك له ، فقال : وكيف وأنتم لاتَستَنُّون ، ولاتُقَلِّمون أظفاركم ، ولاتقصون شواربكم ، ولاتُنَقُّون رواجبكم(٥) .

وهكذا رواه الإمام أحمد ، عن أبى اليمان ، عن إسماعيل بن عياش ، به نحوه(٦) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سيار ، حدثنا جعفر بن سليمان ، حدثنا المغيرة بن حبيب [ختَن](٧) مالك بن دينار : حدثنى شيخ من أهل المدينة ، عن أم سلمة قالت : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أصلحى لنا المجلس ، فإنه

(١) تفسير الطبرى : ١٦/٧٨ .

(٢) أى : أبطأت ، يقال : « راث علينا فلان يريث » : إذا أبطأ .

(٣) تنظر الآثار المتقدمة فى تفسير الطبرى : ١٦/٧٨ .

(٤) البراجم : هى العقد التى فى ظهور الأصابع ، يجتمع فيها الوسخ ، الواحدة : برجمة ، بالضم . وإنقاؤها : تنظيفها .

(٥) الرواجب : ما بين عقد الأصابع من داخل ، واحدها : راجبة ، ويقول ابن الأثير هنا : « والبراجم : العقد المتشنجة فى ظاهر الأصابع » .

(٦) مسند الإمام أحمد : ١/٢٤٣ .

(٧) فى المخطوطة : « المغيرة بن حبيب ، عن مالك ... » . والمثبت عن المسند ، والجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٤/١/٢٢٣ ، ٢٢١ .

ينزل ملك إلى الأرض ، لم ينزل إليها قط»(١) .

وقوله : (له ما بين أيدينا وماخلفنا) ، قيل : المراد ؛ ما بين أيدينا ؛ أمر الدنيا ، وما خلفنا ؛ أمر الآخرة ، (وما بين ذلك) ؛ ما بين النفختين . هذا قول أبي العالية ، وعكرمة ، ومجاهد ، وسعيدبن جبير . وقتادة ، في رواية عنهما ، والسدى ، والربيع بن أنس .

وقيل ؛ (ما بين أيدينا) ما نستقبل من أمر الآخرة ، (وما خلفنا) ، أى : ما مضى من الدنيا ، (وما بين ذلك) ، أى: ما بين الدنيا والآخرة : يروى نحوه عن ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، والضحاك ، وقتادة ، وابن جريج ، والثورى ، واختاره ابن جرير أيضاً (٢) ، والله أعلم .

وقوله : (وما كان ربك نسيا) ، قال مجاهد : معناه ما نسيك ربك(٣) .

وقد تقدم عنه أن هذه الآية كقوله : (والضحى . والليل إذا سجى . ما ودعك ربك وما قلى) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا يزيد بن محمد بن عبد الصمد الدمشقي ، حدثنا محمد بن عثمان — يعني أبا الجماهر — حدثنا إسماعيل بن عياش ، حدثنا عاصم بن رجاء بن حيوة ، عن أبيه ، عن أبي الدرداء يرفعه قال : ما أحل الله في كتابه فهو حلال ، وما حرم فهو حرام ، وما سكت [عنه] فهو عافية ، فاقبلوا من الله عافيته ، فان الله لم يكن لينسى شيئاً . ثم تلا هذه الآية : (وما كان ربك نسيا) (٤) .

وقوله : (رب السموات والأرض وما بينهما) ، [أى : خالق ذلك ومدبره ، والحاكم فيه والمتصرف الذى لامعقب لحكمه ، (فاعبده واصطبر لعبادته] هل تعلم له سميا) ، قال على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس ؛ : هل تعلم للرب مثلا أوشبهاً .

وكذلك قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، وابن جريج وغيرهم .

وقال عكرمة ، عن ابن عباس : ليس أحد يسمى الرحمن(٥) غيره تبارك وتعالى ، وتقدس اسمه .

وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾

يُخبرَ تعالى عن الإنسان أنه يتعجب ويستبعد إعادته بعد موته ، كما قال تعالى : (وإن تعجب فعجب قولهم : أئذا كنا ترابا أئنا لفي خلق جديد)(٦) ؟ وقال : (أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين • وضرب لنا

(١) مسند الإمام أحمد : ٦/٢٩٦ .
(٢) تنظر هذه الآثار في تفسير الطبرى : ١٦/٧٨ ، ٧٩ .
(٣) تفسير الطبرى : ١٦/٧٩ .
(٤) أخرجه السيوطى في الدر المنثور عن ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبزار ، والطبرانى ، وابن مردويه ، والبيهقى في سننه ، والحاكم وصححه : ٤/٢٧٩ .
(٥) تنظر هذه الآثار في تفسير الطبرى : ١٦/٧٩ ، ٨٠ .
(٦) سورة الرعد ، آية : ٥ .

مثلا ونسى خلقه ، قال : من يحيي العظام وهى رميم • قل : يحييها الذى أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم)(١) وقال هاهنا : (ويقول الإنسان : أئذا مامت ، لسوف أخرج حيا • أو لايذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً) ، يستدل تعالى بالبداءة على الإعادة ، يعنى أنه تعالى خلق الإنسان ولم يك شيئاً ، أفلا يعيده وقد صار شيئاً ، كما قال تعالى (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه) (٢) ، وفى الصحيح : يقول الله تعالى : كذبنى ابن آدم ولم يكن له أن يكذبنى ، وآذانى ابن آدم ولم يكن له أن يؤذينى : أما تكذيبه إياى فقوله : «لن يعيدنى كما بدأنى» وليس أول الخلق بأهون على من آخره . وأما أذاه إياى فقوله : «إن لى ولداً» ، وأنا الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفُواً أحد(٣) » .

وقوله : (فوربك لنحشرنهم والشياطين) أقسم الرب تبارك وتعالى بنفسه الكريمة ، أنه لا بد أن يحشرهم جميعاً وشياطينهم الذين كانوا يعبدون من دون الله ، (ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا)

قال العوفى ، عن ابن عباس : يعنى قعودا ، كقوله : (وترى كل أمة جاثيه)(٤)

وقال السدى فى قوله : (ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا) ، يعنى : قياما(٥) . وروى عن مُرّة ، عن ابن مسعود [مثله] .

وقوله : (ثم لننزعن من كل شيعة) ، يعنى : من كل أمة : قاله مجاهد ، (أيهم أشد على الرحمن عتيا) .

قال الثورى ، عن [على بن(٦) الأقمر] ، عن أبى الأحوص ، عن ابن مسعود قال : يحبس الأول على الآخر ، حتى إذا تكاملت العدة ، أتاهم جميعاً ، ثم بدأ بالأكابر ، فالأكابر جرما (٧) : وهو قوله : (ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتياً) .

وقال قتادة : (ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا) ، قال : ثم لننزعن من أهل كل دين قادتهم [ورؤساءهم] فى الشر . وكذا قال ابن جريج ، وغير واحد من السلف . وهذا كقوله تعالى : (حتى إذا اداركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم : ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفا من النار ، قال : لكل ضعف ، ولكن لاتعلمون وقالت أولاهم لأخراهم : فما كان لكم علينامن فضل ، فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون) (٨) .

---

(١) سورة «يس» ، الآيات : ٧٧ - ٧٩ .

(٢) سورة الروم ، آية : ٢٧ .

(٣) أخرجه البخارى فى تفسير سورة البقرة : ٦/٢٤ . والإمام أحمد فى مسنده : ٢/٣٥٠ ، ٣٥١ . عن أبى هريرة . وقد تقدم الحديث عند الآية ١١٦ من سورة البقرة : ١/٢٣٠ ، ٢٣١ .

(٤) تفسير الطبرى : ١٦/٨٠ .

(٥) الدر المنثور ، عن ابن أبى حاتم : ٤/٢٧٩ ، ٢٨٠ .

(٦) فى المخطوطة : «قال الثورى ، عن أبى ... عن أبى الأحوص» والمثبت عن تفسير الطبرى . وينظر فى التهذيب ترجمة أبى الأحوص عوف بن مالك بن نضلة : ٨/١٦٩ .

(٧) تفسير الطبرى : ١٦/٨١ .

(٨) سورة الأعراف ، آية : ٣٨ ، ٣٩ .

وقوله : (ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا) ، ثم هاهنا لعطف الخبر على الخبر ، والمراد أنه تعالى أعلم بمن يستحق من العباد أن يصلى بنار جهنم ويخلد فيها، وبمن يستحق تضعيف العذاب ، كما قال فى الآية المتقدمة : (قال : لكل ضعف ، ولكن لاتعلمون) .

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾

قال الإمام احمد : حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا غالب بن سليمان ، عن كثير بن زياد البُرْسانى ، عن أبى سُمَيه قال : اختلفنا فى الورود ، فقال بعضنا : لا يدخلها مؤمن وقال بعضهم(١) يدخلونها جميعا ثم ينجى الله الذين اتقوا . فلقيت جابر بن عبدالله ، فقلت له(٢) : إنا اختلفنا فى الورود ، فقال : يردونها جميعاً — وقال سليمان مرّة : يدخلونها جميعاً — وأهوى بأصبعيه إلى أذنيه ، وقال : صُمَّتا ، إن لم أكن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «لايبقى بر(٣) ولافاجر إلا دخلها ، فتكونُ على المؤمن برداً وسلاماً ، كما كانت على إبراهيم ، حتى إن للنار(٤) ضجيجاً من بردهم ، ثم ينجى الله الذين اتقوا ، ويذر الظالمين فيها جثيا»(٥) غريب ولم يخرجوه .

وقال الحسن بن عرفة : حدثنا مروان بن معاوية ، عن بكار بن أبى مروان ، عن خالد بن معدان قال : قال أهل الجنة بعدما دخلوا الجنة : ألم يعدنا ربنا الورود على النار ؟ قال : قد مررتم عليها وهى خامدة(٦) .

وقال عبد الرزاق ، عن ابن عُيَينة ، عن إسماعيل بن أبى خالد ، عن قيس بن أبى حازم قال : كان عبد الله بن رَوَاحة واضعاً رأسه فى حِجْر امرأته ، فبكى ، فبكت امرأته فقال : ما يبكيك ؟ فقالت رأيتكَ تبكى فبكيتُ . قال : إنى ذكرتُ قولَ الله عز وجل : (وإن منكم إلا واردها) ، فلا أدرى أنجو منها أم لا ؟ وفى رواية : وكان مريضا(٧) .

وقال ابن جرير : حدثنا أبوكريب ، حدثنا ابن يمان ، عن مالك بن مِغْوَل ، عن أبى إسحاق : كان أبوميسرة إذا أوى إلى فراشه قال : يا ليت أمى لم تلدنى ، ثم يبكى ، فقيل : ما يبكيك يا أبا ميسرة ؟ فقال : أخبرنا أنا واردوها ، ولم نُخْبَرْ أنا صادرون عنها(٨) .

وقال عبد الله بن المبارك ، عن الحسن البصرى قال : قال رجل لأخيه : هل أتاك : أنك وارد النار ؟ قال : نعم ، قال : فهل أتاك أنك صادر [عنها] ؟ قال : لا ، قال : ففيم الضحك ؟ [قال : فما رُئى ضاحكاً حتى لحق (٩) بالله] .

(١) فى المسند : «وقال بعضنا» .

(٢) لفظ المسند : «فقلت له : إنا اختلفنا فى ذلك الورود . فقال بعضنا : لا يدخلها مؤمن . وقال بعضنا : يدخلونها جميعا . فأهوى ...» .

(٣) لفظ المسند : «يقول : الورود : الدخول ، لا يبقى ...» .

(٤) لفظ المسند : «حتى إن للنار — أوقال : لجهنم» .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٣/٣٢٨ ، ٣٢٩ .

(٦) تفسير الطبرى : ١٦/٨٢ . وفى سنده : «بكار بن أبى مروان» . وهو كذلك فى الطبرى . وفى المخطوطة : «بكار ابن أبى مروان» . ولم نجد بكاراً هذا .

(٧) تفسير الطبرى : ١٦/٨٣ . وتنظر ترجمته فى أسد الغابة : ٣/٢٣٦ ، بتحقيقنا .

(٨) تفسير الطبرى : ١٦/٨٢ .

(٩) تفسير الطبرى : ١٦/٨٤ .

وقال عبد الرزاق أيضاً : أخبرنا ابن عيينه ، عن عمرو ، أخبرني من سمع ابن عباس يخاصم نافع بن الأزرق ، فقال ابن عباس : الورود الدخول ؟ فقال نافع : لا ، فقرأ ابن عباس : (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون)(١) : وردوا أم لا؟ وقال : (يقدُمُ قومه يوم القيامة فأوردهم النار)(٢) أوردٌ هو أم لا؟، أما أنا وأنت فسندخلها ، فانظر هل نخرج منها أم لا ؟ وما أرى الله مخرجك منها بتكذيبك . فضحك نافع(٣) .

وروى ابنُ جُرَيج، عن عطاء قال : قال أبوراشد الحَرُوري ــ وهو نافع بن الأزرق ــ : (لايسمعون حسيسها)؛ فقال ابن عباس : ويلك ، أمجنون أنت ؟ أين قوله : (يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار) ، (ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا) ، (وإن منكم إلا واردها) ؟ والله إن كان دعاء من مضى : اللهم ، أخرجني من النار سالماً ، وأدخلني الجنة غانماً(٤) .

وقال ابن جرير : حدثني محمد بن عبيد المحاربيّ حدثنا أسباط ، عن عبد الملك ، عن عبيد الله ، عن مجاهد قال : كنت عند ابن عباس ، فأتاه رجل يقال له : أبو راشد ، وهو نافع بن الأزرق ، فقال له : يا ابن عباس ، أرأيت قول الله : (وإن منكم إلا واردها ، كان على ربك حتماً مقضياً) ؟ قال : أما أنا وأنت يا أبا راشد فسنردها ، فانظر : هل نصدر عنها أم لا(٥) ؟

وقال أبو داود الطيالسي : قال شعبة ، أخبرني عبد الله بن السائب ، عمن سمع ابن عباس يقرؤها : (وإن منهم إلا واردها) يعني الكفار(٦) .

وهكذا روى عمر بن الوليد الشَّنّيّ، أنه سمع عكرمة يقرؤها كذلك (وإن منهم إلا واردها) ، قال : وهم الظلمة كذلك كنا نقرؤها . رواه ابن أبي حاتم ، وابن جرير(٦) .

وقال العوفي ، عن ابن عباس قوله : (وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً) ، يعني البر والفاجر، ألا تسمع إلى قول الله لفرعون : (يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود) ، (ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا) ، فسمى الورود في النار دخولا ، وليس بصادر(٧) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، عن إسرائيل ، عن السدي ، عن مُرَّة ، عن عبد الله ــ هو ابن مسعود ــ (وإن منكم إلا واردها) ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يرد الناس [النار] كلهم ، ثم يصدرون عنها بأعمالهم(٨)

---

(١) سورة الأنبياء آية : ٩٨ .
(٢) سورة هود آية : ٩٨ .
(٣) تفسير الطبري : ١٦/٨١ ، ٨٢ .
(٤) تفسير الطبري : ١٦/٨٢ .
(٥) تفسير الطبري : ١٦/٨٤ .
(٦) تفسير الطبري : ١٦/٨٣ ، والبحر المحيط لأبي حيان : ٦/٢١٠ . وقد ورد في تفسير الطبري : (وإن منكم) ، بكاف الخطاب ، وهو خطأ في هذه القراءة .
(٧) تفسير الطبري : ١٦/٨٢ .
(٨) مسند الإمام أحمد : ١/٤٣٤ ، ٤٣٥ ، وما بين القوسين منه .

ورواه الترمذى عن عبد بن حميد ، عن عُبَيْد الله ، عن إسرائيل ، عن السدى ، به : ورواه من طريق شعبة ، عن السدى عن مرة ، عن ابن مسعود موقوفاً(١) :

هكذا وقع هذا الحديث هاهنا مرفوعاً ، وقد رواه ، أسباط ، عن السدى ، عن مُرّة عن عبد الله بن مسعود قال : يرد الناس جميعاًالصراط ، وورودهمقيامهم حول النار ، ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم ، فمنهم من يمر مثل البرق، ومنهم من يمر مثل الريح ، ومنهم من يمر مثل الطير ، ومنهم من يمر كأجود الخيل ، ومنهم من يمر كأجود الإبل،ومنهم من يمر كعدو الرجل ، حتى إن آخرهم مرا رجل نوره على موضعى إبهامى قدميه ، يمر يتكفأ به الصراط ، والصراط دَحْض(٢) مَزِلّة ، عليه حسك كحسك(٣) القَتَاد ، حافتاه ملائكة ، معهم كلاليب من نار ، يختطفون بها الناس ::: وذكر تمام الحديث : رواه ابن أبى حاتم :

وقال ابن جرير : حدثنا خلاد بن أسلم ، حدثنا النضر ، حدثنا إسرائيل ، أخبرنا أبو إسحاق ، عن أبى الأحوص عن عبد الله : قوله : (وإن منكم إلا واردها) ، قال : الصراط على جهنم مثل حد السيف ، فتمر الطبقة الأولى كالبرق والثانية كالريح ، والثالثة كأجود الخيل ، والرابعة كأجود البهائم ، ثم يمرون والملائكة يقولون : اللهم سلم سلم(٤).

ولهذا شواهد فى الصحيحين وغيرهما ، من رواية أنس ، وأبى سعيد ، وأبى هريرة ، وجابر ، وغيرهم ، من الصحابة رضى الله عنهم(٥) .

وقال ابن جرير : حدثنى يعقوب ، حدثنا ابنعُلَيَّة عن الجُرَيرى ، عن [أبى السليل](٦) ، عن غُنَيم بن قيسقال : ذكروا ورود النار ، فقال كعب : تمسك النار للناس كأنها مَتْنُ إهالة(٧) حتى يستوى عليها أقدام الخلائق ، برهم وفاجرهم ، ثم يناديها مناد : أن امسكى أصحابك ، ودعى أصحابى . قال : فتخسف بكل ولى لها ، ولهى أعلم بهم من الرجل بولده ، ويخرج المؤمنون نَدِيّة ثيابهم . قال كعب : ما بين منكبى الخازن من خزنتها مسيرة سنة ، مع كل واحد منهم عمود ذوشعبتين ، يدفع به الدفع فيصرع به فى النارسبعمائة ألف(٨) .

---

(١) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة مريم ، الحديث ٥١٦٨ : ٨/٦٠٥ - ٦٠٧ ، وقال : «هذا حديث حسن ، ورواه شعبة عن السدى ، ولم يرفعه» . وساق حديث شعبة ، وهو برقم ٥١٦٩ ، ٥١٧٠ : ٨/٦٠٧ ، ٦٠٨ .

(٢) الدحض : الزلق .

(٣) الحسك : الشوك . والقتاد : شجر له شوك .

(٤) تفسير الطبرى : ١٦/٨٣ .

(٥) البخارى ، كتاب الرقاق ، باب «الصراط جسر جهنم» : ٨/١٤٦ - ١٤٨ ،عن أبى هريرة وأبى سعيد ، وكتاب التوحيد : ٩/١٥٨ - ١٦١ عن أبى سعيد . وكتاب الصلاة ، باب «فضل السجود» : ١/٢٠٤ - ٢٠٥ عن أبى هريرة وأبى سعيد . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب «معرفة طريق الرؤية» : ١/١١٢ ، وعن أبى سعيد : ١/١١٤ .

(٦) فى المخطوطة : «عن ابن أبى ليل» ، مكان : «عن أبى السليل» . والمثبتعنالطبرى ، والطبعاتالسابقة . وينظر التهذيب ، ترجمة أبى السليل ضريب بن نقير : ٤/٤٥٧ ، ٤٥٨ .

(٧) الإهالة - بكسر الهمزة - : كل شيء من الأدهان مما يؤتدم به . وقيل هو ما أذيب من الألية والشحم . وقيل : الدسم الجامد . وفى الغريبين للهروى ١/١٠٥ : «قال ابن المبارك : أما ترى الدسم إذا جمد على رأس المرقة . وقال شمر : متن الإهالة : ظهرها إذا سكنت فى الإناء . وإنما شبه كعب سكون جهنم قبل أن يصير الكافر فيها ، بذلك . » .

(٨) تفسير الطبرى : ١٦/٨٢ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن أبي سفيان ، عن جابر ، عن أم مُبَشّر ، عن حفصة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني لأرجو أن لا يدخل النار إن شاء الله أحد شَهِدَ بدراً والحديبية ، قالت : فقلت : أليس الله يقول : (وإن منكم إلا واردها ؟) قالت : فسمعته يقول : (ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً)(١) .

وقال أحمد أيضاً : حدثنا ابن إدريس ، حدثنا الأعمش ، عن أبي سفيان ، عن جابر ، عن أم مبشر – امرأة زيد بن حارثة – قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت حفصة ، فقال : « لا يدخل النار أحد شهد بدراً والحديبية : قالت حفصة : أليس الله يقول : (وإن منكم إلا واردها) ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ثم ننجي الذين اتقوا) (٢) .

وفي الصحيحين ، من حديث الزهري ، عن سعيد ، عن أبي هُرَيرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد تمسه النار ، إلا تَحِلة القسم »(٣) .

وقال عبد الرزاق : قال معمر : أخبرني الزهري ، عن ابن المسيب عن أبي هريرة : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من مات له ثلاثة ، لم تَمَسَّه النارُ إلا تَحِلَّة القسم » . يعني الورود (٤) .

وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا زمعة ، عن الزهري ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد ، تَمَسَّهُ النار إلا تحلة القسم . قال الزهري : كأنه يريد هذه الآية : (وإن منكم إلا واردها ، كان على ربك حتماً مقضيا) (٥) :

وقال ابن جرير : حدثنا عمران بن بكار الكلاعي ، حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن تميم ، حدثنا إسماعيل بن عبيد الله ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يعود رجلا من أصحابه وَعِكاً ، وأنا معه ، ثم قال : « إن الله تعالى يقول : هي ناري أسلطها على عبدي المؤمن ، لتكون حظه من النار في الآخرة » . غريب ولم يخرجوه من هذا الوجه (٦) .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٦/٢٨٥ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٦/٣٦٢ .

(٣) البخاري ، كتاب الجنائز ، باب « فضل من مات له ولد فاحتسب » : ٢/٩٣ . وكتاب الأيمان ، باب قول الله تعالى : (واقسموا بالله جهد أيمانهم) : ٨/١٦٧ . ومسلم كتاب البر ، باب « فضل من يموت له ولد فيحتسبه » : ٨/٣٩ .

وفي النهاية لابن الأثير : « قيل : أراد بالقسم قوله تعالى : (وإن منكم إلا واردها) ، تقول العرب : « ضربه تحليلا » و « ضربه تعذيراً » إذا لم يبالغ في ضربه . وهذا مثل في القليل المفرط في القلة ، وهو أن يباشر من الفعل الذي يقسم عليه المقدار الذي يبر به قسمه ، مثل أن يحلف على النزول بمكان ، فلو وقع به وقعة خفيفة أجزأته ، فتلك تحلة قسمه . فالمعنى : لا تمسه النار إلا مسة يسيرة مثل تحلة قسم الحالف ، ويريد بتحلته الورود على النار والاجتياز بها » .

(٤) تفسير الطبري : ١٦/٨٦ .

(٥) منحة المعبود ، باب « ما جاء في الصبر على موت الأولاد وثواب ذلك » : ٢/٤٦ .

(٦) تفسير الطبري : ١٦/٨٣ ، ٨٤ .

وحدثنا أبو كريب ، حدثنا ابن يمان ، عن عثمان بن الأسود ، عن مجاهد قال : الحمى حظ كل مؤمن من النار ، ثم قرأ : (وإن منكم إلا واردها) (١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا زبان بن فائد ، عن سهل بن مُعَاذ بن أنس الجهنى ، عن أبيه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من قرأ (قل هو الله أحد) ، حتى يختمها عشر مرات ، بنى الله له قصراً في الجنة . فقال عمر : إذاً نستكثر يارسول الله . فقال رسول الله [صلى الله عليه وسلم] : « الله [] أكثر وأطيب »(٢) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ ألف آية فى سبيل الله ، كُتِب يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا ، إن شاء الله . ومن حَرَس من وراء المسلمين فى سبيل الله متطوعاً لا بأجرة سلطان ، لم ير النار بعينيه إلا تحلة القسم ، قال الله تعالى : (وإن منكم إلا واردها) ، وإن الذكر فى سبيل [الله] يُضْعَفُ فوق النفقة بسبعمائة ضعف ، وفى رواية : بسبعمائة ألف ضعف (٣) .

وروى أبو داود ، عن أبى الطاهر ، عن ابن وهب ، عن يحيى بن أيوب [وسعيد بن أبى أيوب] كلاهما عن زبان ، عن سهل ، عن أبيه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الصلاة والصيام والذكر تُضَاعَفُ على النفقة فى سبيل الله بسبعمائة ضعف »(٤) .

وقال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة قوله : (وإن منكم إلا واردها) ، قال : هو المَمَرّ عليها(٥) .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله : (وإن منكم إلا واردها) ، قال : ورود المسلمين المرور على الجسر بين ظهريها ، وورود المشركين : أن يدخلوها ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم : الزالون والزالات يومئذ كثير ، وقد أحاط بالجسر يومئذ سِمَاطان(٦) من الملائكة ، دعاؤهم : يا ألله ، سلم سلم »(٧) .

وقال السدىّ ، عن مُرّة ، عن ابن مسعود فى قوله : (كان على ربك حتما مقضيا) ، قال : قسما واجبا(٨) .

وقال مجاهد : [حتما] ، قال : قضاء . وكذا قال ابن جريج .

وقوله : (ثم ننجى الذين اتقوا) ، أى : إذا مر الخلائق كلهم على النار ، وسقط فيها من سقط من الكفار والعصاة ذوى المعاصى ، بحَسَبهم ، نجى الله تعالى المؤمنين المتقين منها بحسب أعمالهم . فجَوَازهم على الصراط وسرعتهم بقدر

---

(١) تفسير الطبرى : ١٦/٨٣ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٣/٤٣٧ .

(٣) تقدم الحديث فى سورة آل عمران : ٢/١٧٦ ، وسورة النساء : ٢/٣١١ ، وخرجناه هنالك ، وانظره فى مسند الإمام أحمد : ٣/٤٣٧ ، ٤٣٨ .

(٤) سنن أبى داود ، كتاب الجهاد ، باب « فى تضعيف الذكر فى سبيل الله تعالى » ، الحديث ٢٤٩٨ : ٣/٨ . وما بين القوسين فى السند سقط من تفسير ابن كثير ، أثبتناه عن سنن أبى داود .

(٥) تفسير الطبرى : ١٦/٨٣ .

(٦) السماط : الصف . وقد تقدمت فى : ٤/٣٧٤ .

(٧) تفسير الطبرى : ١٦/٨٣ .

(٨) تفسير الطبرى : ١٦/٨٦ .

أعمالهم التى كانت فى الدنيا ، ثم يشفعون فى أصحاب الكبائر من المؤمنين فيشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون ، فيخرجون خلقاً كثيراً قد أكلتهم النار ، إلا دارات وجوههم — وهى مواضع السجود — وإخراجهم إياهم من النار بحسب ما فى قلوبهم من الإيمان ، فيخرجون أولا من كان فى قلبه مثقال دينار من إيمان ، ثم الذى يليه ثم الذى يليه [ثم الذى يليه] ، حتى يخرجون من كان فى قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان ، ثم يخرج الله من النار من قال يوماً من الدهر : « لا إله إلا الله » ، وإن لم يعمل خيراً قط ، ولا يبقى فى النار إلا من وجب عليه الخلود ، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا قال : (ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيّاً) .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ ﴾

يخبر تعالى عن الكفار حين تتلى عليهم آيات الله ظاهرة الدلالة بينة الحجة واضحة البرهان : أنهم يصدون عن ذلك ، ويعرضون ويقولون عن الذين آمنوا مفتخرين عليهم ومحتجين على صحة ما هم عليه من الدين الباطل بأنهم : (خير مقاما وأحسن نديا) ، [أى : أحسن منازلَ وأرفع دوراً وأحسن نَدِيا] ، وهو مَجْمَع الرجال للحديث ، أى : ناديهم أعمر وأكثر واردا وطارقاً ، يعنون : فكيف نكونُ ونحن بهذه المثابة على باطل ، وأولئك [الذين هم] مختفون مستترون فى دار الأرقم بن أبى الأرقم ونحوها من الدور على الحق ؟ . كما قال تعالى مخبراً عنهم : (وقال الذين كفروا للذين آمنوا : لو كان خيراً ما سبقونا إليه)(١) . وقال قوم نوح : (أنؤمن لك واتبعك الأرذلون(٢)) ؟ وقال تعالى : (وكذلك فتنا بعضهم ببعض ، ليقولوا : أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ؟ . أليس الله بأعلم بالشاكرين)(٣) ؟ ولهذا قال تعالى راداً عليهم شبهتهم : (وكم أهلكنا قبلهم من قرن) ، أى : وكم من أمة وقرن من المكذبين قد أهلكناهم بكفرهم ، (هم أحسن أثاثاً ورئيا) ، أى : كانوا أحسن من هؤلاء أموالا وأمتعة ومناظرَ وأشكالا .

قال الأعمش ، عن أبى ظَبيان ، عن ابن عباس : (خير مقاما وأحسن نديا) ، قال : المقام : المنزل ، والندى : المجلس ، والأثاث : المتاع ، والرئى : المنظر(٤) .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : المقام : المسكن ، والندى : المجلس والنعمة والبهجة التى كانوا فيها ، وهو كما قال الله لقوم فرعون حين أهلكهم وقصّ شأنهم فى القرآن : (كم تركوا من جنات وعيون . وزروع(٥) ومقام كريم) ، فالمقام : المسكن والنعيم ، والندى : المجلس والمجمع الذى كانوا يجتمعون فيه ، وقال فيما قص على رسوله من أمر قوم لوط : (وتأتون فى ناديكم المنكر) ، والعرب تسمى المجلس : النادى(٦) .

---

(١) سورة الأحقاف ، آية : ١١ .
(٢) سورة الشعراء ، آية : ١١١ .
(٣) سورة الأنعام ، آية : ٥٣ .
(٤) تفسير الطبرى : ١٦/٨٧ .
(٥) فى المخطوطة وتفسير الطبرى : «وعيون . وكنوز ومقام» والآية من سورة الدخان : ٢٥ .
(٦) تفسير الطبرى : ١٦/٨٧ ، ٨٨ .

وقال قتادة : لما رأوا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فى عيشهم خشونة ، وفيهم قشافة ، تعرّض أهل الشرك بما تسمعون : (أىّ الفريقين خير مقاما وأحسن نديا)(١) ، وكذا قال مجاهد ، والضحاك .

ومنهم من قال فى الأثاث : هو المال . ومنهم من قال : المتاع . ومنهم من قال : الثياب . والرئى : المنظر ، كما قال ابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد .

وقال الحسن البصرى : يعنى الصور . وكذا قال مالك : (أثاثاً ورئياً) : أكثر أموالا وأحسن صوراً . والكل متقارب صحيح .

قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا (٧٥)

يقول تعالى : (قل) يامحمد ، لهؤلاء المشركين بربهم المدعين ، أنهم على الحق وأنكم على الباطل : (من كان فى الضلالة) ، أى : منا ومنكم ، (فليمدد له الرحمن مداً) ، أى : فأمْهَلَه الرحمن فيما هو فيه ، حتى يلقى ربه وينقضى أجله ، (إما العذاب) يصيبه ، (وإما الساعة) بغتة تأتيه ، (فسيعلمون) حينئذ (من هو شر مكانا وأضعف جنداً) ، فى مقابلة ما احتجوا به من خيرية المقام وحسن النّدى .

قال مجاهد فى قوله : (فليمدد له الرحمن مداً) ، فليدعه الله فى طغيانه . وهكذا قرر ذلك أبو جعفر بن جرير رحمه الله (٢) .

وهذه مباهلة للمشركين الذين يزعمون [أنهم] على هدى فيما هم فيه ، كما ذكر تعالى مباهلة اليهود فى قوله : (قل : يا أيها الذين هادوا ، إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس ، فتمنوا الموت إن كنتم صادقين)(٣)، أى : ادعوا على المبطل منا ومنكم بالموت إن كنتم تدعون أنكم على الحق ، فإنه لايضركم الدعاء . فنكلوا عن ذلك ، وقد تقدم تقرير ذلك فى سورة « البقرة »(٤) مبسوطاً ، ولله الحمد . وكما ذكر تعالى المباهلة مع النصارى فى سورة « آل عمران » حين صمموا على على الكفر ، واستمروا على الطغيان والغلو فى دعواهم أن عيسى ولد الله ، وقد (ذكر) الله حججه وبراهينه على عبودية عيسى ، وأنه مخلوق كآدم ، قال بعد ذلك : (فمن حاجك فيه [من] بعد ماجاءك من العلم ، فقل : تعالوا ندعُ أبناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم ، ثم نبتهل فنجعل الله لعنة على الكاذبين)(٥)، فنكلوا ايضا عن ذلك .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٦/ ٨٨ .
(٢) تفسير الطبرى : ١٦/ ٨٨ .
(٣) سورة الجمعة ، آية : ٦ .
(٤) ينظر : ١/ ١٨٢ .
(٥) سورة آل عمران ، آية : ٤٠ .

﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾

لما ذكر تعالى إمداد من هو فى الضلالة فيا هو فيه وزيادته على ما هو عليه ، أخبر بزيادة المهتدين هدًى ، كما قال تعالى : (وإذا ما أنزلت سورة ، فمنهم من يقول : أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون وأما الذين فى قلوبهم مرض ، فزادتهم رجساً إلى رجسهم ، وماتوا وهم كافرون) (١) .

وقوله : (والباقيات الصالحات) ، قد تقدم تفسيرها ، والكلام عليها ، وإيراد الأحاديث المتعلقة بها فى سورة «الكهف»(٢) .

(خير عند ربك ثواباً) ، أى : جزاء (وخير مردّاً) ، أى : عاقبة ومردّاً على صاحبها .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا عُمَر بن راشد ، عن يحيى بن أبى كثير ، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال : جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ، فأخذ عوداً يابساً فَحَطّ ورقه ثم قال : إن قول «لا إله إلا الله» والله أكبر ، والحمد لله ، وسبحان الله ، تحط الخطايا كما تحط ورقَ هذه الشجرة الريحُ ، خذهن يا أبا الدرداء قبل أن يُحال بينك وبينهن ، هن الباقيات الصالحات ، وهن من كنوز الجنة . قال أبوسلمة : فكان أبو الدرداء إذا ذكر هذا الحديث قال : لأُهَلِّلَنّ الله ، ولأكبرن الله ، ولأسبحن الله ، حتى إذا رآنى الجاهل حسب أنى مجنون (٣) .

وهذا ظاهره أنه مرسل ، ولكن قد يكون من رواية أبى سلمة ، عن أبى الدرداء والله أعلم . وهكذا وقع فى سنن ابن ماجه ، من حديث أبى معاوية ، عن عُمَر بن راشد ، عن يحيى ، عن أبى سلمة ، عن أبى الدرداء ، فذكر نحوه(٤)

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ ﴾

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبومعاوية ، حدثنا الأعمش ، عن مسلم ، عن مسروق ، عن خَبّاب بن الأرت قال : كنت رجلا قينا(٥) ، وكان لى على العاص بن وائل دين ، فأتيته أتقاضاه . فقال : لا ، والله لاأقضيك حتى تكفر بمحمد . فقلت : لا ، والله لا أكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم حتى تموت ثم تبعث . قال : فإنى إذا متّ ثم بُعثت جئتنى ولى ثَمّ مال وولد ، فأعطيتك . فأنزل الله : (أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال : لأوتين مالا وولدا) إلى قوله : (ويأتينا فردا)(٦)

---

(١) سورة التوبة ، آية : ١٢٤ ، ١٢٥ .

(٢) ينظر : ١٥٧/٥ ، ١٥٨ .

(٣) تفسير الطبرى : ٩١/١٦ .

(٤) سنن ابن ماجه ، كتاب الأدب ، باب «فضل التسبيح» ، الحديث ٣٨١٣ : ١٢٥٣/٢ .

(٥) القين : الحداد .

(٦) مسند الإمام أحمد : ١١١/٤ .

أخرجه صاحبا الصحيح (١) وغيرهما ، من غير وجه ، عن الأعمش به ، وفى لفظ البخارى : كنت قينا بمكة ، فعملت للعاص بن وائل سيفاً ، فجئت أتقاضاه » فذكر الحديث ، وقال : (أم اتخذ عند الرحمن عهداً) ، قال : مَوْثقاً

وقال عبد الرزاق : أخبرنا الثورى ، عن الأعمش ، عن أبى الضُّحَى ، عن مسروق قال : قال خبّاب بن الأرت كنت قينا بمكة ، فكنت أعمل للعاص بن وائل ، قال : فاجتمعت لى عليه دراهم ، فجئت لأتقاضاه ، فقال لى : لاأقضيك حتى تكفر بمحمد . فقلت : لاأكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث . قال : فإذا بُعثت كان لى مال وولد . قال : فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله : (أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال : لأوتين مالا وولداً) ، إلى قوله : (ويأتينا فرداً) (٢)

وقال العوفىّ عن ابن عباس : إن رجالا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يطلبون العاص بن وائل السهمى بدَين ، فأتوه يتقاضونه ، فقال : ألستم تزعمون أن فى الجنة ذهباً وفضة وحريراً ، ومن كل الثمرات؟ قالوا: بلى.قال : فإن موعدكم الآخره ، فوالله لأُوتَيَنّ مالا وولداً ، ولأوتَيَنّ مثل كتابكم الذى جئتم به: فضرب الله مثله فى القرآن فقال : (أفرأيت الذى كفر بآياتنا) إلى قوله : (ويأتينا فردا) (٣) :

وهكذا قال مجاهد ، وقتادة ، وغيرهم : إنها نزلت فى العاص بن وائل .

وقوله : (لأوتين مالا وولداً) ، قرأ بعضهم بفتح « الواو» من (ولدا) ، وقرأ آخرون بضمها ، وهو بمعناه ، قال رُؤْبَه (٤) :

الحَمْدُ لله العزيز فَرْدَا * لَمْ يتخذ مِنْ وُلْد شىء وُلْدَا

وقال الحارث بن حلّزة(٥) :

وَلَقَدْ رَأيتُ مَعَاشِراً * قَدْ تَمَرُّوا مَالاً وَوُلْدَا

وقال الشاعر(٦) :

فلَيتَ فُلاناً كانَ فى بَطْن أمّه * وَلَيتَ فُلاناً كانَ وُلْد حمَار

وقيل : إن « الوُلْد» ، بالضم جمع ، « والوَلَد» ، بالفتح مفرد ، وهى لغة قيس ، والله أعلم .

---

(١) البخارى ، كتاب البيوع ، باب « ذكر القين والحداد » : ٣/٧٩ ، وكتاب الإجارة ، باب « هل يؤاجر الرجل نفسه من مشرك فى أرض الحرب ؟ » : ٣/١٢٠ . وتفسير سورة مريم : ٦/١١٨ ، ١١٩ . ومسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب « سؤال اليهود النبى صلى الله عليه وسلم عن الروح » : ٨/١٢٩ .

(٢) تفسير الطبرى : ١٦/٩٢ .

(٣) تفسير الطبرى : ١٦/٩١ .

(٤) الرجز فى تفسير الطبرى : ١٦/٩٢ .

(٥) البيت فى تفسير الطبرى ، واللسان ، مادة : « ولد » ، غير منسوب .

(٦) البيت فى المرجعين السابقين ، غير منسوب .

وقوله : (أطلع الغيب) ، إنكار على هذا القائل ، (لأوتين مالا وولداً) ، يعني يوم القيامة ، أي : أعَلِمَ ماله في الآخرة حتى تألَّى وحلف على ذلك ، (أم اتخذ عند الرحمن عهداً) ، أم له عند الله عهد سيؤتيه ذلك ؟ وقد تقدم عند البخاري : أنه الموثق .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس : (أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً) ، قال : لاإله إلا الله ، فيرجو بها .

وقال محمد بن كعب القرظي : (إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً) ، قال شهادة أن لاإله إلا الله ، ثم قرأ : (إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا) .

وقوله : (كلا) : هي حرف رَدْع لما قبلها وتأكيد لما بعدها ، (سنكتب ما يقول) ، أي : من طَلَبه ذلك وحُكْمه لنفسه بما تمناه ، وكفره بالله العظيم ، (ونمد له من العذاب مدا) ، أي : في الدار الآخرة ، على قوله ذلك ، وكفره في الدنيا ، (ونرثه ما يقول) ، أي : من مال وولد ، نسلبه منه ، عكس ما قال : إنه يُؤْتَى في الدار الآخرة مالا وولداً زيادة على الذي له في الدنيا ، بل في الآخرة يُسلَب مِنَ الذي كان له في الدنيا ولهذا قال : (ويأتينا فرداً) ، أي : من المال والولد .

قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (ونرثه ما يقول) ، [قال : نرثه] (١) .

وقال مجاهد : (ونرثه ما يقول) : ماله وولده ، وذلك الذي قال العاص بن وائل .

وقال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة : (ونرثه ما يقول) ، قال : ما عنده ، وهو قوله : (لأوتين مالا وولداً) وفي حرف ابن مسعود (ونرثه ما عنده) .

وقال قتادة : (ويأتينا فرداً) : لا مال له ، ولا ولد .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : (ونرثه ما يقول) ، قال : ما جمع من الدنيا، وما عمل فيها ، قال : (ويأتينا فرداً) ، قال : فرداً من ذلك ، لايتبعه قليل ولا كثير .

وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾

يخبر تعالى عن الكفار المشركين بربهم : أنهم اتخذوا من دونه آلهة ، لتكون هم تلك الآلهة (عزاً) يعتزون بهم ويستنصرونهم .

ثم أخبر أنه ليس الأمر كما زعموا ، ولا يكون ما طمعوا ، فقال : (كلا سيكفرون بعبادتهم) ، أي : يوم القيامة (ويكونون عليهم ضداً) ، أي : بخلاف ما ظنوا فيهم ، كما قال تعالى : (ومن أضل ممن يدعو من دون الله مَنْ

---

(١) ما بين القوسين من الطبعات السابقة ، وفي تفسير الطبري ١٦/٩٣ : «عن ابن عباس قوله : (ونرثه ما يقول) ، نرثه» . وفي الدر المنثور للسيوطي ٤/٢٨٤ : «ونرثه ما يقول . قال : ماله وولده» .

لايستجيب له إلى يوم القيامة ، وهم عن دعائهم غافلون • وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين)(١)

وقرأ أبو نهيك : (كلاً)(٢) سيكفرون بعبادتهم) .

وقال السدى : (كلا سيكفرون بعبادتهم) ، أى : بعبادة الأوثان . وقوله : (ويكونون عليهم ضداً) ، أى : بخلاف ما رجوا منهم .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (ويكونون عليهم ضداً) ، قال : أعواناً ؛

قال مجاهد : عوناً عليهم ، تخاصمهم وتكذبهم .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : (ويكون عليهم ضداً) ، قال : قرناء ؛

وقال قتادة : قرناء فى النار ، يلعن بعضهم بعضاً ، ويكفر بعضهم ببعض ؛

وقال السدى : (ويكونون عليهم ضدا) ، قال : الخصماء الأشداء فى الخصومة ؛

وقال الضحاك : (ويكونون عليهم ضداً) ، قال : أعداء .

وقال ابن زيد : الضد : البلاء ؛

وقال عكرمة : الضد : الحسرة ؛

وقوله : (ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا) ، قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : تغويهم إغواء .

وقال العوفى عنه : تحرضهم على محمد وأصحابه ؛

وقال مجاهد : تشليهم إشلاء(٣) .

وقال قتادة : تزعجهم إزعاجاً إلى معاصى الله ؛

وقال سفيان الثورى : تغريهم إغراء وتستعجلهم استعجالا ؛

وقال السدى : تطغيهم طغياناً .

---

(١) سورة الأحقاف ، آية : ٥ .

(٢) فى المخطوطة : «كل سيكفرون» والمثبت عن تفسير الطبرى : ١٦/٩٤ ، والبحر المحيط لأبى حيان : ٦/٢١٣ ، والمحتسب لابن جنى : ٢/٤٥ ، قال ابن جنى : «ينبغى أن تكون «(كلا) هذه مصدراً ، كقولك : «كل السيف كلا» ، فهو إذا منصوب بفعل مضمر ، فكأنه لما قال سبحانه : (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً) قال الله سبحانه راداً عليهم : (كلا) ، أى : كل هذا الرأى والاعتقاد كلا ، ورأوا منه رأيا كلا ، كما يقال : ضعفاً لهذا الرأى وفيالة ، [أى : ضعفا] ، فتم الكلام ، ثم قال تعالى مستأنفا القول : (سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا) . والوقف إذا على «(عزا) ، ثم استأنف فقال : كل رأيهم كلا ، ووقف ، ثم قال من بعد : (سيكفرون) ، فهناك إذا وقفان : أحدهما (عزا) ، والآخر (كلا) ؛ من حيث كان منصوباً بفعل مضمر ، لا من حيث كان زجراً ورداً وردعاً» .

(٣) أى : تدعوهم إلى المعاصى وتغريهم بها إغراء .

وقال عبد الرحمن بن زيد : هذا كقوله تعالى : (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين) (١) .

وقوله : (فلا تعجل عليهم ، إنما نعد لهم عدا) ، أى : لاتعجل يا محمد على هؤلاء فى وقوع العذاب بهم ، (إنما نعد لهم عدا) ، أى : إنما نؤخرهم لأجل معدود مضبوط ، وهم صائرون لامحالة ، إلى عذاب الله ونكاله ، (ولاتحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار)(٢)، (فهل الكافرين أمهلهم رويداً) (٣) ، (إنما نملى لهم ليزدادوا إثماً)(٤)، (نمتعهم قليلا ، ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ) (٥) ، (قل: تمتعوا فإن مصيركم إلى النار (٦)).

قال السدى : (إنما نعدلهم عدا) ، السنين ، والشهور ، والأيام ، والساعات .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (إنما نعد لهم عدا) ، قال : نعد أنفاسهم فى الدنيا(٧) .

يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾

يخبر تعالى عن أوليائه المتقين ، الذين خافوه فى الدار الدنيا ، واتبعوا رسله وصدقوهم فيما أخبروهم ، وأطاعوهم فيما أمروهم به ، وانتهوا عما عنه زجروهم : أنه يحشرهم يوم القيامة وفدا إليه . والوفد : هم القادمون ركباناً ، ومنه الوفود وركوبهم على نجائب من نور ، من مراكب الدار الآخرة ، وهم قادمون على خير موفود إليه ، إلى دار كرامته ورضوانه . وأما المجرمون المكذبون للرسل المخالفون لهم ، فإنهم يساقون عنفاً إلى النار ، (وردا) : عطاشا ، قاله [عطاء](٨) وابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة ، وغير واحد . وهاهنا يقال : (أىّ الفريقين خيرٌ مقاماً وأحسن نديا)(٩) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبوسعيد الأشج ، حدثنا ابن خالد ، عن عمرو بن قيس الملائى ، عن ابن مرزوق : (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا) ، قال : يستقبل المؤمن عند خروجه من قبره أحسن صورة رآها ، وأطيبها ريحاً ، فيقول : من أنت ؟ فيقول : أما تعرفنى ؟ فيقول : لا ، إلا أن الله قد طيّب ريحك وحسن وجهك . فيقول : أنا عملك الصالح ، وهكذا كنت فى الدنيا ، حسنَ العمل طيّبه ، فطالما ركبتك فى الدنيا ، فهلم اركبنى . فيركبه ، فذلك قوله : (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا) .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا) ، قال : ركبانا(١٠) .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٦/٩٥ .
(٢) سورة ابراهيم ، آية : ٤٢ .
(٣) سورة الطارق ، آية : ١٧ .
(٤) سورة آل عمران آية : ١٧٨ .
(٥) سورة لقمان ، آية : ٢٤ .
(٦) سورة ابراهيم ، آية : ٣٠ .
(٧) تفسير الطبرى : ١٦/٩٥ .
(٨) ما بين القوسين من الطبعات السابقة ، ومكانه بياض فى المخطوطة .
(٩) سورة مريم : آية : ٧٣ .
(١٠) الآثار المتقدمة فى تفسير الطبرى : ١٦/٩٦ .

وقال ابن جرير : حدثنى ابن المثنى حدثنا ابن مهدى ، عن شعبة ، عن إسماعيل ، عن رجل ، عن أبى هريرة : (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا) ، قال : على الإبل .

وقال ابن جُريج : على النجائب .

وقال الثورى : على الإبل النوق .

وقال قتادة : (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا) ، قال : إلى الجنة(١) .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد فى مسند أبيه : حدثنا سويد بن سعيد ، أخبرنا على بن مسهر ، عن عبد الرحمن بن إسحاق ، حدثنا النعمان بن سعد قال : كنا جلوساً عند على رضى الله عنه ، فقرأ هذه الآية : (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا) ، قال : لا ، والله ما على أرجلهم يحشرون ، ولا يحشر الوفد على أرجلهم ، ولكن بنوق لم ير الخلائق مثلها ، عليها رحائل من ذهب ، فيركبون عليها ، حتى يضربوا أبواب الجنة(١) .

وهكذا رواه ابن أبى حاتم وابن جرير ، من حديث عبد الرحمن بن إسحاق المدنى ، به ، وزاد : «عليها رحائل الذهب ، وأزمتها الزبرجد» ، والباقى مثله(٢) .

وقد روى ابن أبى حاتم هاهنا حديثا غريبا جداً مرفوعا ، عن على ، فقال :

حدثنا أبى ، حدثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل النهدى ، حدثنا مسلمة بن جعفر البجلى ، سمعت أبا معاذ البصرى قال : إن عليا كان ذات يوم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ على هذه الآية : (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا) ، فقال : ما أظن الوفد إلا الركب يارسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «والذى نفسى بيده ، إنهم إذا خرجوا من قبورهم يستقبلون — أو : يؤتون — بنوق بيض لها أجنحة ، وعليها رحال الذهب ، شُرُك نعالهم نور ، يتلألأ كل خطوة منها مد البصر ، فينتهون إلى شجرة ينبع من أصلها عينان ، فيشربون من إحداهما ، فتغسل ما فى بطونهم من دَنَس ، ويغتسلون من الأخرى فلا تشعث أبشارهم ولا أشعارهم بعدها أبداً ، وتجرى عليهم نضرة النعيم ، فينتهون — أو : فيأتون باب الجنة ، فإذا حلقة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب ، فيضربون بالحلقة على الصفيحة فيسمع لها طنين ياعلى ، فيبلغ كل حوراء أن زوجها قد أقبل ، فتبعث قَيِّمها فيفتح له ، فاذا رآه خرّ له — قال مسلمة : أراه قال : ساجداً — فيقول : ارفع رأسك ، إنما أنا قَيِّمك ، وكلت بأمرك ، فيتبعه ويقفو أثره ، فتستخف الحوراء العجلةُ ، فتخرج من خيام الدر والياقوت حتى تعتنقه ، ثم تقول : أنت حِبِّى ، وأنا حِبُّك ، وأنا الخالدة التى لا أموت ، وأنا الناعمة التى لا أبأس ، وأنا الراضية التى لا أسخط ، وأنا المقيمة التى لا أظعن ، فيدخل بيتا من أسّه إلى سقفه مائة ألف ذراع ، بناؤه على جندل اللؤلؤ طرائق : أصفر وأحمر وأخضر ، ليس منها طريقة تشاكل صاحبتها ، وفى البيت سبعون سريراً ، على كل سرير سبعون حشية ، على كل حشية سبعون زوجة ، على كل زوجة سبعون حلة ، يرى مخ ساقها من وراء الحلل ، يقضى جماعها فى مقدار ليلة من لياليكم هذه ، الأنهار من تحتهم تطرد ، أنهار من

---

(١) مسند الإمام أحمد : ١/١٥٥ .

(٢) تفسير الطبرى : ١٦/٩٦ .

ماء غير آسن ــ قال : صاف لا كدَر فيه ــ وأنهار من لبن لم يتغير طعمه : لم يخرج من ضروع الماشية ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، لم يعتصرها الرجال بأقدامهم ، وأنهار من عسل مُصَفّى لم يخرج من بطون النحل ، فيستحلي الثمار ، فإن شاء أكل قائما ، وإن شاء قاعداً ، وإن شاء متكئا ، ثم تلا : (ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا) ، فيشتهى الطعام فيأتيه طير أبيض ، وربما قال : أخضر ، فترفع أجنحتها ، فيأكل من جنوبها أىّ الألوان شاء ، ثم تطير فتذهب ، فيدخل الملك فيقول : سلام عليكم ، (تلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون) ، ولو أن شعرة من شعر الحوراء وقعت لأهل الأرض ، لأضاءت الشمس معها سواد فى نور » .

هكذا وقع فى هذه الرواية مرفوعاً ، وقد رويناه فى المقدمات من كلام على رضى الله عنه بنحوه ، وهو أشبه بالصحة والله أعلم .

وقوله : (ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً) ، أى : عطاشاً ، (لا يملكون الشفاعة) ، أى : ليس لهم من يشفع لهم كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض ، كما قال تعالى مخبراً عنهم : (فما لنا من شافعين ولا صديق حميم) (١).

وقوله : (إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً) ، هذا استثناء منقطع ، بمعنى : لكن من اتخذ عند الرحمن عهداً ، وهو شهادة أن لا إله إلا الله ، والقيام بحقها .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً) ، قال : العهد شهادة أن لا إله إلا الله ، ويبرأ إلى الله من الحول والقوة ، ولا يرجو إلا الله عز وجل(٢) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا عثمان بن خالد الواسطى ، حدثنا محمد بن الحسن الواسطى ، عن المسعودى ، عن عون ابن عبد الله ، عن أبى فاختة ، عن الأسود بن يزيد قال : قرأ عبد الله ــ يعنى ابن مسعود ــ هذه الآية : (إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً) ، ثم قال : اتخذوا عند الله عهدا ، فان الله يقول يوم القيامة : « من كان له عند الله عهد فليقم» قالوا : يا أبا عبد الرحمن ، فعلّمنا ، قال : قولوا : اللهم ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، فإنى أعهد إليك فى هذه الحياة الدنيا أنك إن تكلنى إلى عملى تقربنى من الشر وتباعدنى من الخير ، وإنى لا أثق إلا برحمتك ، فاجعل لى عندك عهداً تؤدّيه إلى يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد .

قال المسعودى : فحدثنى زكريا ، عن القاسم بن عبد الرحمن ، أخبرنا ابن مسعود : وكان يُلحِقُ بهن : خائفا مستجيراً مستغفراً ، راهبا راغبا إليك(٣) .

ثم رواه من وجه آخر ، عن المسعودى ، بنحوه .

---

(١) سورة الشعراء ١٠٠/١٠١

(٢) تفسير الطبرى : ١٦/٩٧ .

(٣) أخرجه السيوطى فى الدر المنثور عن ابن أبى شيبة ، وابن أبى حاتم ، والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن مسعود : ٤/٢٨٦ . وحديث الحاكم فى المستدرك ، تفسير سورة مريم : ٢/٣٧٧ ، ٣٧٨ .

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾

لما قرر تعالى فى هذه السورة الشريفة عبودية عيسى عليه السلام ، وذكر خلقه من مريم بلا أب ، شرع فى مقام الإنكار على من زعم أن له ولداً — تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً — فقال : (وقالوا : اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم) ، أى : فى قولكم هذا ، (شيئا إدا) ، قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، ومالك : أى عظيماً ؛

ويقال : إدّاً بكسر الهمزة وفتحها ، ومع مدّها أيضا ، ثلاث لغات ، أشهرها الأولى .

وقوله : (تكاد السموات يتفطرن منه ، وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا . أن دعوا للرحمن ولداً) ، أى : يكاد يكون ذلك عند سماعهن هذه المقالة من فَجَرة بنى آدم ، إعظاما للرب وإجلالا لأنهن مخلوقات ومؤسسات على توحيده ، وأنه لاإله إلا هو ، وأنه لاشريك له ، ولانظير له ، ولا ولد له، ولاصاحبة له ، ولاكفء له، بل هو الأحد الصمد؛

وفى كلّ شىءٍ لهُ آية * تدلُّ على أنه واحدُ

وقال ابن جرير : حدثنى على ، حدثنا عبد الله ، حدثنى معاوية ، عن على ، عن ابن عباس ، قوله : (تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً . أن دعوا للرحمن ولداً) ، قال : إن الشرك فَزِعت منه السموات والأرض والجبال ، وجميع الخلائق إلا الثقلين ، فكادت أن تزول منه لعظمة الله ، وكما لاينفع مع الشرك إحسان المشرك ، كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لقنوا موتاكم شهادةَ أن لاإله إلا الله ، فمن قالها عند موته وجبت له الجنة . قالوا : يارسول الله ، فمن قالها فى صحته ؟ قال : تلك أوجب وأوجب . ثم قال : والذى نفسى بيده، لو جىء بالسموات والأرضين وما فيهن ، وما بينهن ، وما تحتهن ، فوضعن فى كفة الميزان ، ووضعت شهادة أن لا إله إلا الله فى الكفة الأخرى ، لرجحت بهن» ؛ (١)

هكذا رواه ابن جرير ، ويشهد له حديث البطاقة ، والله أعلم .

وقال الضحاك : (تكاد السموات يتفطرن منه) ، أى : يتشققن فَرَقاً من عظمة الله ؛

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : (وتنشق الأرض) ، أى : غضباً لله عز وجل ؛

(وتخر الجبال هداً) ، قال ابن عباس : هدماً ؛

وقال سعيد بن جُبَير : (هداً) ينكسر بعضها على بعض متتابعات ؛

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عبد الله بن سويد المقبرى(٢) ، حدثنا سفيان بن عيينة ، حدثنا مسعر ، عن عون عن عبد الله قال : إن الجبل لينادى الجبل باسمه : يافلان ، هل مر بك اليوم ذاكرٌ الله عزوجل ؟ فيقول : نعم ، ويستبشر

---

(١) تفسير الطبرى : ١٦/٩٨ .

(٢) كذا ، ولم نجد لمحمد هذا ترجمة .

قال عون : لهي للخبر أسمع ، أفيسمعن الزور والباطل إذا قيل ولايسمعن غيره ، ثم قرأ : (تكاد السموات يتفطرن منه ، وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً . أن دعوا للرحمن ولداً) (١) .

وقال ابن أبي حاتم أيضاً : حدثنا المنذر بن شاذان ، حدثنا هَوْذَة ، حدثنا عوف ، عن غالب بن عَجْرَد ، حدثني رجل من أهل الشام في مسجد منىً قال : بلغني أن الله لما خلق الأرض وخلق ما فيها من الشجر ، لم يكن في الأرض شجرة يأتيها بنو آدم إلا أصابوا منهامنفعة ــ أوقال : كانلهم فيها منفعة ــ ولم تزل الأرض والشجر بذلك، حتى تكلم فَجَرَة بني آدم بتلك الكلمة العظيمة ، قولهم : (اتخذ الرحمن ولداً) ، فلما تكلموا بها اقشعرت الأرض ، وشاك الشجر .

وقال كعب الأحبار : غضبت الملائكة ، واستعرت النار ، حين قالوا ماقالوا .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبومعاوية ، حدثنا الأعمش ، عن سعيد بن جبير ، عن أبي عبد الرحمن السلمي عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أحد أصبر على أذى يسمعه من الله ، إنه يشرك به ، ويَجعل له ولد ، وهو يعافيهم ويدفع عنهم ، ويرزقهم (٢) .

أخرجاه في الصحيحين(٣) . وفي لفظ : إنهم يجعلون له ولداً ، وهو يرزُقُهم ويعافيهم .

وقوله : (وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً) ، أي : لايصلح له ، ولايليق به لجلاله وعظمته ، لأنه لاكفء له من خلقه ، لأن جميع الخلائق عبيد له ، ولهذا قال : (إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً . لقد أحصاهم وعدهم عداً) ، أي : قد علم عَدَدهم منذ خلقهم إلى يوم القيامة ، ذَكَرهم وأنثاهم ، وصغيرهم وكبيرهم . (وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً) ، أي : لاناصر له ولامجير إلا الله وحده لاشريك له ، فيحكم في خلقه بما يشاء ، وهو العادل الذي لايظلم مثقال ذَرّة ، ولايظلم أحداً .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾

يخبر تعالى أنه يَغْرسُ لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، وهي الأعمال التي تُرضي الله عز وجل لمتابعتها الشريعة المحمدية ــ يغرس لهم في قلوب عباده الصالحين مودة ، وهذا أمر لابد منه ، ولا محيد عنه . وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير وجه .

---

(١) الدر المنثور عن ابن المبارك ، وسعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وأحمد في الزهد ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ في العظمة ، والطبراني ، والبيهقي في شعب الإيمان : ٢٨٦/٤ ، ٢٨٧ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٤٠٥/٤ .

(٣) البخاري ، كتاب الأدب ، باب « الصبر على الأذى » : ٣١/٨ . وكتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : (إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) : ١٤١/٩ . ومسلم ، كتاب صفة القيامة ، باب « لا أحد أصبر على الأذى من الله عز وجل » : ١٣٣/٨ ، ١٣٤ .

قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا أبوعوانة ، حدثنا سهيل ، عن أبيه ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال : يا جبريل ، إني أحب فلانا فأحبَّه » قال : فيحبه جبريل ، قال : ثم ينادى فى أهل السماء : إن الله يحب فلانا ؛ قال : فيحبه أهل السماء ، ثم يُوضَع له القبول فى الأرض ، وإن الله إذا أبغض عبداً دعا جبريل فقال : يا جبريل ، إنى أبغضُ فلاناً فأبغضه ؛ قال : فيُبغضه جبريل ، ثم ينادى فى أهل السماء : إن الله يُبغضُ فلانا فأبغضوه ؛ قال : فيُبْغضُه أهل السماء ، ثم توضَع له البغضاء فى الأرض (١) » .

ورواه مسلم من حديث سهَيل(٢) ؛ ورواه أحمد والبخارى ، من حديث ابن جُرَيج ، عن موسى بن عُقبة ، عن نافع مولى ابن عمر ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، بنحوه (٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن بكر ، حدثنا ميمون أبو محمد المرئى ، حدثنا محمد بن عباد المخزومى ، عن ثوبان رضى الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن العبد ليلتمس مرضاة الله ، فلا يزال كذلك ، فيقول الله عزوجل لجبريل : إن فلانا عبدى يلتمس أن يرضينى ؛ ألا وإن رحمتى عليه ، فيقول جبريل : « رحمة الله على فلان » ، ويقولها حملة العرش ، ويقولها من حولهم ، حتى يقولها أهل السموات السبع ، ثم يهبط إلى الأرض » .

غريب ، ولم يخرجوه من هذا الوجه(٤) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا شريك ، عن محمد بن سعد الواسطى ، عن أبي ظبية ، عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن المِقَةَ من الله — قال شريك : هى المحبة — والصِّيت(٥) من السماء ، فإذا أحب الله عبداً قال لجبريل عليه السلام : « إنى أحب فلاناً » ، فينادى جبريل : إن ربكم يمِقُ — يعنى : يحب — فلانا ، فأحبوه — وأرى شريكاً قد قال : فتنزل له المحبة فى الأرض — وإذا أبغض عبداً قال لجبريل : « إنى أبغض فلانا » ، فأبغضه ، قال : فينادى جبريلُ : إن ربكم يبغض فلانا فأبغضوه — قال : أرى شريكاً [قد قال] : فيجرى له البغضُ فى الأرض (٦) » .

غريب ، ولم يخرجوه .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو داود الحَفَرىّ ، حدثنا عبد العزيز — يعنى ابن محمد ، وهو الدَّرَاوَرْدى عن سهيل بن أبي صالح ، عن أبيه ، عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أحب الله عبداً نادى جبريل : « إنى قد أحببت فلانا ، فأحبه » ، فينادى فى السماء ، ثم ينزل له المحبة فى أهل الأرض ، فذلك قول الله عزوجل : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً) .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٤١٣/٢ .

(٢) مسلم ، كتاب البر ، باب « إذا أحب الله عبداً حببه لعباده » : ٤٠/٨ ، ٤١ .

(٣) البخارى ، كتاب الأدب ، باب « المقة من الله تعالى » : ١٧/٨ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٢٧٩/٥ .

(٥) فى المسند : « وألقيت من السماء » . وفى النهاية لابن كثير : « ما من عبد إلا وله صيت فى السماء » ، أى : ذكر وشهرة وعرفان ، ويكون فى الخير والشر » .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٢٦٣/٥ .

ورواه مسلم والترمذى كلاهما عن قتيبة(١) ، عن الدراوردى ، به وقال الترمذى : حسن صحيح(٢) .

وقال على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : (سيجعل لهم الرحمن وداً) ، قال : حباً .

وقال مجاهد ، عنه : (سيجعل لهم الرحمن وداً) ، قال : محبة فى الناس فى الدنيا .

وقال سعيد بن جبير ، عنه : يحبهم ويُحببهم ، يعنى : إلى خلقه المؤمنين . كما قال مجاهد أيضاً ، والضحاك ، وغيرهم :

وقال العوفى ، عن ابن عباس أيضاً : الود من المسلمين فى الدنيا ، والرزق الحسن ، واللسان الصادق .

وقال قتادة : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً) ، إىْ والله ، فى قلوب أهل الإيمان ، ذكر لنا أن هَرِم بن حَيَّان(٣) كان يقول : ما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه ، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم .

وقال قتادة : وكان عثمان بن عفان رضى الله عنه يقول : ما من عبد يعمل خيراً أوشراً ، إلا كساه الله عزوجل رداء عمله (٤) .

وقال ابن أبي حاتم رحمه الله ، حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، عن الربيع بن صَبيح ، عن الحسن البصرى،رحمه الله قال : قال رجل : « والله لأعبدن الله عبادة أذكر بها فكان لايرى فى حين صلاة إلا قائماً يصلى ، وكان أول داخل إلى المسجد وآخر خارج ، فكان لايُعَظَّم ، فمكث بذلك سبعة أشهر ، وكان لايمر على قوم إلا قالوا : « انظروا إلى هذا المرائى» فأقبل على نفسه فقال : لا أرانى أذكر إلا بشر ، لأجعلن عملى كله لله عز وجل ، فلم يزد على أن قلب نيته ، ولم يزد على العمل الذى كان يعمل ، فكان يمر بعدُ بالقوم ، فيقولون : رحم الله فلانا الآن، وتلا الحسن : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً) .

وقد روى ابن جرير أثراً أن هذه الآية نزلت فى هجرة عبد الرحمن بن عوف(٥) . وهو خطأ ، فان هذه السورة بتمامها مكية لم ينزل شيء منها بعد الهجرة ، ولم يصح سند ذلك والله أعلم .

وقوله : (فإنما يسرناه) ، يعنى : القرآن ، (بلسانك) ، أى : يامحمد ، وهو اللسان العربى المبين الفصيح الكامل ، (لتبشر به المتقين) ، أى : المستجيبين لله المصدقين لرسوله ، (وتنذر به قوما لدا) ، اى : عَوجاً عن الحق مائلين إلى الباطل .

---

(١) فى المخطوطة : «كلاهما من عبد الله ، من الدراوردى » . والمثبت من صحيح مسلم ، والترمذى .

(٢) مسلم ، كتاب البر ، باب «إذا أحب الله عبداً حببه لعباده» : ٤١/٨ . وتحفة الأحوذى ، تفسير سورة مريم ، الحديث ٥١٢١ : ٦٠٨/٨ ، ٦٠٩ .

(٣) هرم بن حيان : من صغار الصحابة ، مترجم فى أسد الغابة من أبي عمر : ٥٧/٥ ط الوهبية .

(٤) تنظر الآثار المتقدمة فى تفسير الطبرى : ١٠٠/١٦ ، ١٠١ .

(٥) تفسير الطبرى : ١٠١/١٦ .

وقال ابن أبي نَجيح ، عن مجاهد : (قوماً لدا) : لايستقيمون .

وقال الثورى ، عن إسماعيل – وهو السدّى – عن أبي صالح : (وتنذر به قوماً لداً) : عوجاً عن الحق .

وقال الحسن البصرى : (قوماً لداً) : صما .

وقال غيره : صم آذان القلوب .

وقال قتادة : (قوماً لدا) : يعنى قريشاً .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : (قوماً لدا) : فجاراً : وكذا روى ليث بن أبي سليم عن مجاهد .

وقال ابن زيد : الألد : الظلوم ، وقرأ قول الله : (وهو ألدا لخصام)(١) .

وقوله : (وكم أهلكنا قبلهم من قرن) ، أى : من أمة كفروا بآيات الله وكذبوا رسله ، (هل تحس منهم من أحد أوتسمع لهم ركزاً) ، أى : هل ترى منهم أحداً ، أوتسمع لهم ركزا :

قال ابن عباس ، وأبو العالية ، وعكرمة ، والحسن البصرى ، وسعيد بن جُبَير ، والضحاك ، وابن زيد : يعنى صوتاً .

وقال الحسن ، وقتادة : هل ترى عينا ، أو تسمع صوتاً .

والركز فى أصل اللغة هو الصوت الخفي ، قال الشاعر(٢) :

فَتَوَجّسَتْ رِكْزَ الأنِيس فَرَاعَها * عَنْ ظَهْرِ غَيب ، والأنيسُ سَقَامُها(٣)

آخر تفسير ((سورة مريم)) ولله الحمد والمنة ، ويتلوه ان شاء الله تعالى تفسير ((صورة طه)) ، والحمد لله .

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٠٤ وتنظر الآثار المتقدمة فى تفسير الطبرى : ١٦/١٠١ .

(٢) البيت فى تفسير الطبرى : ١٦/١٠٢ غير منسوب . وهو لبيد بن ربيعة ، من معلقته. ديوانه : ٣١١ ، وانظر شرح القصائد السبع لأبي بكر الأنبارى : ٥٦٥ .

(٣) التوجس : التسمع إلى الصوت الخفى ، ورواية الأنبارى : « وتسمعت رز » ، قال : ويروى : « فتوجست ركز الأنيس » ، أى : تسمعت البقرة صوت الأنيس ، فأفزعها ولم تر الناس . والرز والركز : الصوت الخفى ، وأخبر أنها أحست الناس عن ظهر غيب ، معناه « من وراء حجاب » وقوله : « والأنيس سقامها » ، معناه : هلاكها ، أى « يصيدها » .

تفسير سورة طه[1]

وهى مكية

روى إمام الأئمة محمدُ بن إسحاق بن خزيمة فى كتاب « التوحيد » ، عن زياد بن أيوب ، عن إبراهيم بن المنذر الحزامى: حدثنا إبراهيم بن مهاجر بن مسمار ، عن عمر بن حفص بن ذكوان ، عن مولى الحُرَقة — يعنى عبد الرحمن بن يعقوب عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله قرأ طه » « ويس » قبل أن يخلق آدم بألف عام ، فلما سمعت الملائكة قالوا : طوبى لأمة ينزل عليهم هذا ، وطوبى لأجواف تحمل هذا ، وطوبى لألسن تتكلّمُ بهذا » .

هذا حديث غريب ، وفيه نكارة ، وإبراهيم بن مهاجر وشيخه تُكلّم فيهما .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾

تقدم الكلام على الحروف المقطعة فى أول سورة « البقرة » بما أغنى عن إعادته .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا الحسين بن محمد بن شنبة الواسطى ، حدثنا أبو أحمد — يعنى الزبيرى — أنبأنا إسرائيل عن سالم الأفطس ، عن سعيد بن جُبَيْر ، عن ابن عباس قال : طه — يارجل . وهكذا رُوى عن مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، ومحمد بن كعب ، وأبى مالك ، وعطية العوفى ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك ، والسدى ، وابن أبزى أنهم قالوا : طه بمعنى : يارجل[1] .

وفى رواية عن ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، والثورى : أنها كلمة بالنبطية معناها : يارجل . وقال أبو صالح : هى مُعَرَّبة .

وأسند القاضى عياض فى كتابه « الشفاء » من طريق عبد بن حُمَيد فى تفسيره : حدثنا هاشم بن [القاسم]، عن ابن جعفر ، عن الربيع بن أنس قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا صَلّى قام على رِجْل ورفع الأخرى ، فأنزل الله تعالى: (طه) ، يعنى : طَأ الأرض يا محمد ، (ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) . ثم قال ولا خفاء بما فى هذا من الإكرام وحسن المعاملة[2] .

---

(١) ينظر تفسير الطبرى : ١٦/١٠٣

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضى عياض ، ط الحلبى : ١/٢٦ .

وقوله : (ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) ، قال جويبر ، عن الضحاك : لما أنزل الله القرآن على رسوله ، قام به هو واصحابه ، فقال المشركون من قريش : ما أنزل هذا القرآن على محمد إلا ليشقى ، فأنزل الله تعالى : (طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى) .

فليس الأمر كما زعمه المبطلون ، بل من آتاه الله العلم فقد أراد به خيراً كثيراً ، كما ثبت فى الصحيحين ، عن معاوية قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من يُرد الله به خيراً يفقهه فى الدين(١) » .

وما أحسن الحديث الذى رواه الحافظ أبوالقاسم الطبرانى فى ذلك حيث قال :

حدثنا أحمد بن زهير ، حدثنا العلاء بن سالم ، حدثنا إبراهيم الطالقانى ، حدثنا ابن المبارك ، عن سفيان ، عن سماك ابن حرب ، عن ثعلبة بن الحكم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى للعلماء يوم القيامة إذا قعد على كرسيه لقضاء عباده : إنى لم أجعل علمى وحكمتى فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم ، على ماكان منكم ، ولا أبالى » .

إسناده جيد ، وثعلبة بن الحكم هذا [هو الليثى] ذكره أبو عمر فى استيعابه ، وقال : نزل البصرة ، ثم تحول إلى الكوفة ، وروى عنه سماك بن حرب(٢) .

وقال مجاهد فى قوله : (ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) : هى كقوله : (فاقرءوا ما تيسر منه) ، وكانوا يُعلّقون الحبال بصدورهم فى الصلاة(٣) .

وقال قتادة : (ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) : لا ، والله ما جعله شقاء ، ولكن جعله رحمة ونوراً ، ودليلا إلى الجنة .

(إلا تذكرة لمن يخشى) : إن الله أنزل كتابه ، وبعث رسله رحمة ، رحم بها العباد ، ليتذكر ذاكر ، وينتفع رجل بما سمع من كتاب الله ، وهو ذكر أنزل الله فيه حلاله وحرامه .

وقوله : (تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى) ، أى : هذا القرآن الذى جاءك يا محمد تنزيل من رب كل شىء ومليكه ، القادر على مايشاء ، الذى خلق الأرض بانخفاضها وكثافتها ، وخلق السموات العلى فى ارتفاعها ولطافتها . وقد جاء فى الحديث الذى صححه الترمذى وغيره : أن سمك كل سماء مسيرة خمسمائة عام ، وبعد ما بينها والتى تليها [مسيرة] خمسمائة عام(٤) .

---

(١) البخارى ، كتاب العلم ، باب « من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين » : ١/٢٧ ، ٢٨ . وكتاب الخمس ، باب قول الله تعالى : (فأن لله خمسه) : ٤/١٠٣ . وكتاب الاعتصام ، باب قول النبى صلى الله عليه وسلم : « لاتزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق يقاتلون ، وهم أهل العلم » : ٩/١٢٥ . ومسلم ، كتاب الزكاة ، باب النهى عن المسألة : ٣/٩٥ ، وكتاب الإمارة باب قوله صلى الله عليه وسلم « لاتزال طائفة . . . » : ٦/٥٣ ، ٥٤ .

(٢) الاستيعاب لأبى عمر ، الترجمة ٢٧٥ : ١/٢١٢ .

(٣) تفسير الطبرى : ١٦/١٠٤

(٤) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة الحديد ، الحديث ٣٣٥٢ ، عن أبى هريرة : ٩/١٨٥ – ١٨٧ .

وقد أورد ابن أبي حاتم هاهنا حديث الأوعال(١) ، من رواية العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي عنه

وقوله : (الرحمن على العرش استوى) : تقدم الكلام على ذلك في سورة الأعراف»(٢)، بما أغنى عن إعادته أيضاً وأن المسلك الأسلم في ذلك طريقة السلف ، إمرارُ ماجاء في ذلك من الكتاب والسنة من غير تكييف ولاتحريف ، ولاتشبيه ولاتعطيل ولاتمثيل .

وقوله : (له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى) ، أي : الجميع ملكه وفي قبضته ، وتحت تصرّيفه ومشيئته وإرادته وحكمه ، وهو خالق ذلك ومالكه وإلهه ، لاإله سواه ، ولارب غيره .

وقوله : (وما تحت الثرى) ــ قال محمد بن كعب : ما تحت الأرض السابعة .

وقال الأوزاعي : إن يحيى بن أبي كثير حدّثه أن كعبا سُئل فقيل له : ما تحت هذه الأرض ؟ قال : الماء . قيل : وما تحت الماء ؟ قال : الأرض . قيل : وما تحت الأرض ؟ قال الماء . قيل : وما تحت الماء ؟ قال الأرض . قيل : وما تحت الأرض ؟ قال : الماء . قيل : وما تحت الماء ؟ قال : الأرض . قيل : وما تحت الأرض ؟ قال : الماء . قيل : وما تحت الماء قال : الأرض . قيل : وما تحت الأرض ؟ قال : صخرة . قيل : وما تحت الصخرة ؟ قال : ملك قيل : وما تحت الملك ؟ قال : حوت مُعَلّق طرفاه بالعرش . قيل : وما تحت الحوت ؟ قال : الهواء والظلمة ، وانقطع العلم .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبوعبيد(٣) الله بن أخي ابن وهب ، حدثنا عمي ، حدثنا عبد الله بن عيّاش ، حدثني عبد الله بن سليمان عن درّاج ، عن عيسى بن هلال الصّدَفي ، عن عبد الله بن عمْرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الأرضين بين كل أرض والتي تليها مسيرة خمسمائة عام ، والعليا منها على ظهر حوت ، قد التقى طرفاه في السماء ، والحوت على صخرة ، والصخرة بيد الملك ، والثانية سجن الريح ، والثالثة فيها حجارة جهنم ، والرابعة فيها كبريت جهنم ، والخامسة فيها حيات جهنم ، والسادسة فيها عقارب جهنم ، والسابعة فيها سقَر وفيها إبليس مُصَفّد بالحديد ، يد أمامه ويد خلفه ، فإذا أراد الله أن يطلقه لما يشاء أطلقه » .

هذا حديث غريب جداً ، ورفعه فيه نظر .

وقال الحافظ أبو يعلى في مسنده : حدثنا أبو موسى الهروي ، عن العباس بن الفضل ــ قلت : ابن الفضل الأنصاري قال : نعم ، [عن القاسم] بن عبد الرحمن ، عن محمد بن علي ، عن جابر بن عبد الله قال : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ، فأقبلنا راجعين في حر شديد ، فنحن متفرقون [بين] واحد واثنين ، مُنتَشرين ، قال : وكنت في أول العسكر ، إذ عارضنا رجل فسَلّم ، ثم قال : أيكم محمد ؟ ومضى أصحابي ووقفت معه ، فإذا

(١) أخرج الإمام أحمد حديث الأوعال في مسند العباس رضي الله عنه : ١/٢٠٦ ، ٢٠٧ ، وكذلك أخرجه أبو داود في كتاب السنة ، باب « في الجهمية » ، الحديث ٤٧٢٣ ، ٤/٢٣١ . وابن ماجه في المقدمة ، باب « فيما أنكرت الجهمية » ، الحديث ١٩٣ : ١/٦٩ .

(٢) ينظر : ٣/٤٢٢ ، ٤٢٣ .

(٣) هو أحمد بن عبد الرحمن بن وهب بن مسلم القرشي ، أبو عبيد الله . مترجم في التهذيب : ١/٥٤ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أقبل فى وسط العَسْكر على جمل أحمر ، مُقَنَّع بثوبه على رأسه من الشمس ، فقلت : أيها السائل ، هذا رسول الله قد أتاك . فقال : أيهم هو ؟ فقلت : صاحب البَكْر(١)الأحمر . فدنا منه ، فأخذ بخطام راحلته فكفّ عليه رسول الله ، فقال : أنت محمد ؟ قال : نعم . قال : إنى أريد أن أسألك عن خصال ، لايعلمهن أحد من أهل الأرض إلا رجل أو رجلان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سل عما شئت : فقال : يا محمد ، أينام النبى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تنام عيناه ولاينام قلبه . قال : صدقت . ثم قال : يا محمد ، مِنْ أين يشبه الولد أباه [وأمه] ؟ قال : ماء الرجل أبيض غليظ ، وماء المرأة [أصفر] رقيق ، فأىّ الماءين غلب على الآخر [نزع] الولد . فقال : صدقت . فقال : ما للرجل من الولد وما للمرأة منه ؟ فقال : للرجل العظام والعروق والعصب ، وللمرأة اللحم والدم والشعر . قال : صدقت . ثم قال : يامحمد، ماتحت هذه ، يعنى الأرض ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خلق . فقال : فما تحتهم ؟ قال : أرض . قال : فما تحت الأرض ؟ قال : الماء . قال : فما تحت الماء ؟ قال : ظلمة . قال : فما تحت الظلمة ؟ قال : الهواء . قال : فما تحت الهواء ؟ قال : الثرى . قال : فما تحت الثرى ؟ ففاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء ، وقال : انقطع علم المخلوقين عند علم الخالق ، أيها السائل ، ما المسئول عنها بأعلم من السائل . قال : فقال : صدقت ، أشهد أنك رسول الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيها الناس ، هل تدرون من هذا قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : هذا جبريل صلى الله عليه وسلم .

هذا حديث غريب جداً ، وسياق عجيب ، تفرد به القاسم بن عبد الرحمن هذا ، وقد قال فيه يحيى بن معين : «ليس يساوى شيئاً » ، وضعفه أبوحاتم الرازى ، وقال ابن عدى : لا يعرف

قلت : وقد خلط فى هذا الحديث ، ودخل عليه شيء فى شيء ، وحديث فى حديث ، وقد يحتمل أنه تَعَمَّد ذلك ، أوأدخل عليه فيه ، فالله أعلم .

وقوله : (وإن تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى) ، أى : أنزل هذا القرآن الذى خلق [الأرض والسموات العلى الذى يعلم السر وأخفى ، كما قال تعالى : (قل أنزله الذى يعلم السر فى] السموات والأرض ، إنه كان غفوراً رحيما)(٣)

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (يعلم السر وأخفى) ، قال : السر ما أسرّ ابن آدم فى نفسه ، (وأخفى) : ما أخفىَ على ابن آدم مما هو فاعله قبل أن يعلمه فالله يعلم ذلك كله ، فعـلْمُـه فيا مضى من ذلك وما بقى عـلْم واحد ، وجميع الخلائق فى ذلك عنده كنفس واحدة ، وهو قوله : (ما خلقكم ولابعثكم إلا كنفس واحدة)(٤) .

وقال الضحاك : (يعلم السر وأخفى) ، قال : السر ما تحدث به نفسك ، وأخفى ما لم تحدث به نفسك بعد .

وقال سعيد بن جبير : أنت تعلم ما تسر اليوم ، ولا تعلم ما تسر غداً ، والله يعلم ما تسر اليوم ، وما تسر غداً .

---

(١) البكر : الفتى من الإبل .
(٢) ينظر الجرح والتعديل لابن أبى حاتم ، ترجمة القاسم بن عبد الرحمن الأنصارى : ٣/٢/١١٢ ، ١١٣ .
(٣) سورة الفرقان ، آية : ٦ .
(٤) تفسير الطبرى : ١٦/١٠٥ . والدر المنثور : ٤/٢٩٠

وقال مجاهد : (وأخفى) ، يعنى الوسوسة .

وقال أيضاً هو وسعيد بن جبير : (وأخفى) ، أى : ما هو عامله مما لم يحدث به نفسه .

وقوله : (الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى) ، [أى : الذى أنزل عليك القرآن هو الله الذى لا إله إلا هو ذو الأسماء الحسنى] والصفات العلى .

وقد تقدم بيان الأحاديث الواردة فى الأسماء الحسنى فى أواخر «سورة الأعراف»(١) ، ولله الحمد والمنة .

وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾

من هاهنا شرع تبارك وتعالى فى ذكر قصة موسى ، وكيف كان ابتداء الوحى إليه وتكليمه إياه ، وذلك بعد ما قضى موسى الأجل الذى كان بينه وبين صهره فى رعاية الغنم وسار بأهله قيل : قاصداً بلاد مصر ، بعدما طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين ، ومعه زوجته ، فأضل الطريق ، وكانت ليلة شاتية ، ونزل منزلا بين شعاب وجبال ، فى برد وشتاء، وسحاب وظلام وضباب ، وجعل يقدح بزند معه ليورى ناراً ، كما جرت له العادة به ، فجعل لا يقدح شيئا ، ولا يخرج منه شرر ولا شىء . فبينا هو كذلك ، إذ آنس من جانب الطور ناراً ، أى : ظهرت له نار من جانب الجبل الذى هناك عن يمينه ، فقال لأهله يبشرهم: (إنى آنست ناراً ، لعلى آتيكم منها بقبس) ، أى : شهاب من نار . وفى الآية الأخرى (أو جذوة من النار) ، وهى : الجمر الذى معه لهب ، (لعلكم تصطلون)(٢) ، دل على وجود البرد ، وقوله : (بقبس) دل على وجود الظلام .

وقوله : (أو أجد على النار هدى)، أى : من يهدينى الطريق ، دل على أنه قد تاه عن الطريق ، كما قال الثورى ، عن أبى سعيد الأعور ، عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله : (أو أجد على النار هدى) ، قال : من يهدينى إلى الطريق . وكانوا شاتين وضلوا الطريق ، فلما رأى النار قال : إن لم أجد أحداً يهدينى آتكم بنار توقدون بها :

فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾

يقول تعالى : (فلما أتاها) ، أى : النار واقترب منها ، (نودى : ياموسى) — وفى الآية الأخرى : (نودى من شاطىء الوادى الأيمن ، فى البقعة المباركة من الشجرة أن : ياموسى ، إنى أنا الله (٣) ، وقال هاهنا : (إنى أنا ربك) ، أى : الذى يكلمك ويخاطبك ، (فاخلع نعليك) —

(١) انظر : ٣/٥١٥ — ٥١٧ .
(٢) سورة القصص ، آية : ٢٩ .
(٣) سورة القصص ، آية : ٣٠ .

قال على بن أبي طالب ، وأبوذر ، وأبو أيوب ، وغير واحد من السلف : كانتا من جلد حمار غير ذكي[١] ؛

وقيل : إنما أمره بخلع نعليه تعظيماً للبقعة .

قال سعيد بن جبير : كما يؤمر الرجل أن يخلع نعليه إذا أراد أن يدخل الكعبة ؛

وقيل : ليطأ الأرض المقدسة بقدميه حافياً غير منتعل ؛ وقيل غير ذلك ، والله أعلم ؛

وقوله : (طوى) ، قال على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : هو اسم للوادى[٢] ؛

وكذا قال غير واحد ، فعلى هذا يكون عطف بيان ؛

وقيل : عبارة عن الأمر بالوطء بقدميه[٣] .

وقيل : لأنه قُدّس مرتين ، وطوى له البركة وكررت ؛ والأول أصح ، كقوله : (إذ ناداه ربه بالوادى المقدس طوى[٤]) .

وقوله : (وأنا اخترتك) ، كقوله : (إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى[٥]) ، أى : على جميع الناس الناس مِنَ الموجودين فى زمانه .

وقيل : إن الله تعالى قال : ياموسى ، أتدرى لم خصصتك بالتكليم من بين الناس[قال : لا قال] : لأنى لم يتواضع لى أحد تواضعك .

وقوله : (فاستمع لما يوحى) ، أى : اسمع الآن ما أقول لك وأوحيه إليك (إننى أنا الله لاإله إلا أنا) ؛ هذا أول واجب على المكلفين أن يعلموا أنه لا إله إلا الله ، وحده لاشريك له .

وقوله : (فاعبدنى) ، أى : وحّدنى وقُم بعبادتى من غير شريك ، (وأقم الصلاة لذكرى) ، قيل : معناه صَلِّ لتذكرنى . وقيل : معناه وأقم الصلاة عند ذكرك لى :

ويشهد لهذا الثانى ما قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، حدثنا المثنى بن سعيد ، عن قتادة ، عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إذا رقد أحدكم عن الصلاة ، أوغفل عنها ، فليصلها إذا ذكرها ، فان الله تعالى قال : (وأقم الصلاة لذكرى)[٦] .

وفى الصحيحين عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من نام عن صلاة أونسيها ، فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها ، لاكفارة لها إلا ذلك»[٧] .

---

(١) غير الذكى : مازهقت نفسه ، ولم يذبح .

(٢) تفسير الطبرى : ١٦/١١١ .

(٣) قال الطبرى ١٦/١١١ : « وقال آخرون : بل هو أمر من الله لموسى أن يطأ الوادى بقدميه » وروى عن ابن عباس ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد أن معنى طوى : طأ الوادى .

(٤) سورة النازعات ، آية : ١٦ .

(٥) سورة الأعراف ، آية : ١٤٤ .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٣/١٨٤ .

(٧) البخارى ، كتاب المواقيت ، باب « من نسى صلاة فليصل إذا ذكرها » : ١/١٥٥ . ومسلم ، كتاب المساجد ، باب «قضاء الصلاة الفائتة » : ٢/١٤٢ .

وقوله : (إن الساعة آتية) ، أى : قائمة لامحالة ، وكائنة لابد منها .

وقوله : (أكاد أخفيها) ، قال الضحاك ، عن ابن عباس : أنه كان يقرؤها : « أكاد أخفيها من نفسى[1] » يقول لأنها لاتخفى من نفس الله أبدا .

وقال سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : من نفسه . وكذا قال مجاهد ، وأبو صالح ، ويحيى بن رافع .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (أكاد أخفيها) ، يقول : لا أطلع عليها أحداً غيرى .

وقال السدى : ليس أحد من أهل السموات والأرض إلا قد أخفى الله عنه علم الساعة ، وهى فى قراءة ابن مسعود : « إنى أكاد أخفيها من نفسى » ، يقول : كتمتها من الخلائق ، حتى لو استطعت أن أكتمها من نفسى لفعلت .

وقال قتادة (أكاد أخفيها) ، وهى فى بعض القراءة أخفيها من نفسى ، ولعمرى لقد أخفاها الله من الملائكة المقربين ، ومن الأنبياء والمرسلين .

قلت : وهذا كقوله : (قل لايعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله[2]) ، وقال : (ثقلت فى السموات والأرض لاتأتيكم إلا بغتة[3]) ، أى : ثقل علمها على أهل السموات والأرض .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبوزرعة ، حدثنا منجاب ، حدثنا أبو تُمَيلة ، حدثنى محمد بن سهل الأسدى ، عن وِقاء قال : أقرأنيها سعيد بن جبير (أكاد أَخْفِيها) ، يعنى بنصب الألف وخفض الفاء ، يقول : أظهرها ، ثم أما سمعت قول الشاعر[4] :

دَأَبَ شَهْرَين ، ثم شهراً دَميكاً بأريكَين يَخْفِيان غَمِيرا[5]

وقال الأسدى : الغَمِير : نبت رطب ، ينبت فى خلال يبس . والأريكين : موضع ، والدميك : الشهر التام . وهذا الشعر لكعب بن زهير .

وقوله سبحانه وتعالى : (لتجزى كل نفس بما تسعى) ، أى : أقيمها لامحالة ، لأجزى كل عامل بعمله ، (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره[6]) ، و(إنما تجزون ماكنتم تعملون[7]) .

---

(١) كذا ، ولم نجدها قراءة منسوبة إلى ابن عباس ، ويقول أبو حيان فى البحر المحيط ٦/٢٣٣ : « وقالت فرقة : معناه أكاد أخفيها من نفسى ، إشارة إلى شدة غموضها عن المخلوقين ، وهو مروى عن ابن عباس » ، فيبدو أنه معنى مروى عنه ، لاقراءة .

(٢) سورة النمل ، آية : ٦٥ .

(٣) سورة الأعراف ، آية : ١٨٧ .

(٤) هو كعب بن زهير ، ديوانه : ١٧٤ . وروايته فيه :

دأب شهرين ثم نصفا دميكا • بأريكين يكدمان غميرا

وعليه فلا شاهد فيه . والشطر الأول فى اللسان ، مادة : (دمك) .

(٥) « دأب شهرين » : أى يدأب فى رعى النبات ، و « دميكا » : تاما . و« بأريكين » ، قال الأصمعى : يعنى موضعا يقال له « أريك » ، فضم إليه آخر ، فقال : « بأريكين » . و « الغمير » : نبت تصيبه السماء ، فينبت عنه نبت آخر ، وربما أصاب الإبل منه داء .

(٦) سورة الزلزلة ، آية : ٧ ، ٨ .

(٧) سورة الطور ، آية : ١٦ .

وقوله : (فلا يصدنك عنها من لايؤمن بها ، واتبع هواه فتردى) ، المراد بهذا الخطاب آحاد المكلفين ، أى : لاتتبعوا مَنْ كذب بالساعة ، وأقبل على ملاذه فى دنياه ، وعصى مولاه ، واتبع هواه ، فمن وافقهم على ذلك فقد خاب وخسر ، (فتردى) ، أى : تهلك وتعطب ، قال الله تعالى : (وما يغنى عنه ماله إذا تردى[1]) .

وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾

هذا برهان من الله تعالى لموسى عليه السلام ، ومعجزة عظيمة ، وخرق للعادة باهر ، دال[2] على أنه لايقدر على مثل هذا إلا الله عز وجل ، وأنه لايأتى به إلا نبى مُرسل فقوله : (وما تلك بيمينك ياموسى) ، قال بعض المفسرين : إنما قال له ذلك على سبيل الإيناس له . وقيل : إنما قال له ذلك على وجه التقرير ، أى : أما هذه التى فى يمينك عصاك التى تعرفها ، فسترى ما نصنع بها الآن ، (وما تلك بيمينك ياموسى) ، استفهام تقرير . (قال : هى عصاى أتوكؤ عليها) ، أى : أعتمد عليها فى حال المشى (وأهش بها على غنمى) ، أى : أهز بها الشجرة ليسقط ورقها ، لترعاه غنمى .

قال عبد الرحمن بن القاسم ، عن الإمام مالك : والهش : أن يضع الرجل المحجن[3] فى الغصن ، ثم يحركه حتى يسقط ورقه وثمره ، ولايكسر العود ، فهذا الهش ، ولايخبط[4] . وكذا قال ميمون بن مهران أيضاً[5] .

وقوله : (ولى فيها مآرب أخرى) ، أى : مصالح ومنافع وحاجات أخر غير ذلك .

وقد تكلف بعضهم لذكر شىء من تلك المآرب التى أبهمت ، فقيل : كانت تضىء له بالليل ، وتحرس له الغنم إذا نام ، ويغرسها فتصير شجرة تظله ، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة .

والظاهر أنها لم تكن كذلك ، ولو كانت كذلك لما استنكر موسى صيرورتها ثعباناً ، فما كان يفر منها هارباً ، ولكن كل ذلك من الأخبار الإسرائيلية ، وكذا قول بعضهم : إنها كانت لآدم عليه السلام . وقول الآخر : إنها هى الدابة التى تخرج قبل يوم القيامة . وروى عن ابن عباس أنه قال : كان اسمها ماشا . والله أعلم بالصواب .

وقوله تعالى : (ألقها ياموسى) ، أى : هذه العصا التى فى يدك ياموسى ، ألقها . (فألقاها فإذا هى حية تسعى) ، أى : صارت فى الحال حيّة عظيمة ، ثعباناً طويلا ، يتحرك بحركة سريعة ، فإذا هى تهتز كأنها جان ، وهو أسرع الحيات حركة ، ولكنه صغير ، فهذه فى غاية الكبر ، وفى غاية سرعة الحركة ، (تسعى) ، أى : تمشى وتضطرب .

---

(١) سورة الليل ، آية : ١١ .

(٢) فى المخطوطة : « وخرق عادة باهرة دالة » . والمثبت من الطبعات السابقة .

(٣) المحجن : عصا معقوفة الرأس ، كالصولجان .

(٤) الخبط : ضرب الشجر بالعصا ليتناثر ورقها . والأثر أخرجه ابن أبى حاتم عن مالك . ينظر الدر المنثور : ٤/٢٩٥ .

(٥) الأثر فى الدر المنثور عن عمرو بن ميمون : ٤/٢٩٤ ، ٢٩٥ .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أحمد بن عبدة ، حدثنا حفص بن جُمَيع ، حدثنا سماك ، عن عكرمة ، عن [ابن عباس] (فألقاها فإذا هي حية تسعى) : ولم تكن قبل ذلك حية ، فمرت بشجرة فأكلتها ، ومرت بصخرة فابتلعتها ، فجعل موسى يسمع وقع الصخرة في جوفها ، فولى مدبراً ، فنودي أن : ياموسى ، خذها . فلم يأخذها ، ثم نودي الثانية أن خذها ولاتخف . فقيل له في الثالثة : إنك من الآمنين . فأخذها .

وقال وهب بن مُنَبِّه في قوله : (فألقاها فإذا هي حية تسعى) ، قال : فألقاها على وجه الأرض ، ثم حانت منه نظرة فإذا أعظم ثعبان نظر إليه الناظرون ، فَدَبَّ يلتمس كأنه يبتغي شيئاً يريد أخْذَه ، يمر بالصخرة مثل الخَلِفَة[1] من الإبل فيلتقمها ، ويطعُن بالناب من أنيابه في أصل الشجرة العظيمة فيجتثها ، عيناه توقدان ناراً ، وقد عاد المحْجَن [منها] عُرفاً ، قيل : شعره مثل النيازك[2] ، وعاد الشعبتان منها مثل القَليب[3] الواسع ، فيه أضراس وأنياب ، لها صريف[4] ، فلما عاين ذلك موسى ولى مدبرا ولم يُعَقِّب ، فذهب حتى أمعن ، ورأى أنه قد أعجز الحية ، ثم ذكر ربه فوقف استحياء منه ، ثم نودي : ياموسى أنْ : ارجع حيث كنت : فرجع موسى وهو شديد الخوف ، فقال : (خذها) بيمينك (ولاتخف ، سنعيدها سيرتها الأولى) ، وعلى موسى حينئذ مدْرَعَة من صوف ، فدخلها بخلال من عيدان ، فلما أمره بأخذها أدلى طرف المدرعة على يده ، فقال له ملَك : أرأيت ياموسى ، لو أذن الله بما تحاذر أكانت المدرعة تغني عنك شيئاً ؟ قال : لا ، ولكني ضعيف ، ومن ضَعْف خلقت . فكشف عن يده ثم وضعها على فم الحية ، حتى سمع حسّ الأضراس والأنياب ، ثم قبض فإذا هي عصاه التي عهدها ، وإذا يده في موضعها الذي كان يضعها إذا توكأ بين الشعبتين : ولهذا قال تعالى : (سنعيدها سيرتها الأولى) ، أي : إلى حالها التي تعرف قبل ذلك :

وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى (٢٣) ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ (٢٤) قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى (٢٥) وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى (٢٦) وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى (٢٧) يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى (٢٨) وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى (٢٩) هَٰرُونَ أَخِى (٣٠) ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى (٣٢) كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥)

وهذا بُرهان ثان لموسى عليه السلام ، وهو أن الله أمره أن يدخل يده في جيبه ، كما صرح به في الآية الأخرى ، وهاهنا عبر عن ذلك بقوله : (واضمم يدك إلى جناحك) ، وقال في مكان آخر : (واضمم إليك جناحك من الرَّهب ، فذانك بُرهانان من ربك إلى فرعون وملئه[5]) :

وقال مجاهد : (واضمم يدك إلى جناحك) : كفه تحت عضده :

---

(١) الخلفة ـ بفتح الخاء وكسر اللام ـ : الحامل من النوق .
(٢) العرف ـ بضم فسكون ـ : شعر العنق ، والنيزك : الرمح القصير .
(٣) القليب : البئر .
(٤) الصريف : صوت ناب البعير .
(٥) سورة القصص ، الآية ٣٢ .

وذلك أن موسى عليه السلام كان إذا أدخل يده في جيبه ثم أخرجها ، تخرج تتلألأ كأنها فلقة قمر .

وقوله : (تخرج بيضاء من غير سوء) ، أي : من غير برَص ولا أذى ، ومن غير شين . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، والضحاك ، والسدى ، وغيرهم .

وقال الحسن البصرى : أخرجها — والله — كأنها مصباح ، فعلم موسى أنه قد لقى ربه عز وجل ، ولهذا قال تعالى : (لنريك من آياتنا الكبرى) .

وقال وهب : قال له ربه : ادْنُهْ : فلم يزل يدنيه حتى شدّ ظهره بجذع الشجرة ، فاستقر وذهبت عنه الرعدة ، وجمع يده فى العصا ، وخضع برأسه وعنقه .

وقوله : (اذهب إلى فرعون إنه طغى) ، أى : اذهب إلى فرعون ملك مصر ، الذى خرَجت فاراً منه وهارباً ، فادعه إلى عبادة الله وحده لاشريك له ، ومره فليُحسن إلى بنى إسرائيل ولا يعذبهم ، فإنه قد طغى وبغَى ، وآثر الحياة الدنيا ، ونسى الرب الأعلى .

قال وهب بن منبّه : قال الله لموسى : انطلق برسالتى فإنك بعينى وسمعى ، وإنى معك أيْدى ونَصْرى ، وإنى قد ألبستك جُنَّةً من سلطانى لتستكمل بها القوة فى أمرى ، فأنت جند عظيم من جندى ، بعثتك إلى خلق ضعيف من خلقى ، بَطر نعمتى ، وأمن مكرى ، وغرته الدنيا عنى ، حتى جحَد حقى ، وأنكر ربوبيتى ، وزعم أنه لايعرفنى ، فإنى أقسم بعزتى لولا القدر الذى وضعت بينى وبين خلقى ، لبطشت به بطشة جبار ، يغضب لغضبه السموات والأرض ، والجبال والبحار ، فإن أمرت السماء حصبته ، وإن أمرت الأرض ابتلعته ، وإن أمرت الجبال دمرته ، وإن أمرت البحار غرقته ، ولكنه هان على ، وسقط من عينى ، ووسعه حلمى ، واستغنيت بما عندى ، وحقى إنى أنا الغنى لا غنى غيرى ، فبلّغه رسالتى ، وادعه إلى عبادتى وتوحيدى وإخلاصى ، وذكره أيامى ، وحذره نقمتى وبأسى ، وأخبره أنه لايقوم شىء لغضبى ، وقل له فيما بين ذلك قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى ، وخبّره أنى إلى العفو والمغفرة أسرعُ منى إلى الغضب والعقوبة ولا يَرُوعنّك ماألبستُه من لباس الدنيا ، فإن ناصيته بيدى ، ليس ينطق ولايطرف ولايتنفس إلا بإذنى . وقل له : أجب ربك فإنه واسع المغفرة ، وقد أمهلك أربعمائة سنة ، فى كلها أنت مبارزه بالمحاربة ، تسبّه وتتمثل[1] به ، وتصدّ عباده عن سبيله ، وهو يمطر عليك السماء ، وينبت لك الأرض ، لم تسقم ولم تَهرم ولم تفتقر ولو شاء أن يُعَجّل لك العقوبة لفَعَل ، ولكنه ذوأناة وحلم عظيم . وجاهِدْه بنفسك وأخيك ، وأنتما تحتسبان[2] بجهاده ، فإنى لو شئت أن آتيه بجنود لاقبل له بها لفعلت ، ولكن [ليعلم] هذا العبد الضعيف الذى قد أعجبته نفسُه وجموعه أنّ الفئة القليلة — ولا قليل منى — تغلب الفئة الكثيرة بإذنى ، ولا تعجبنكما زينته ، ولا ما متّع به ، ولا تمدا إلى ذلك أعينكما ، فإنها زهر الحياة الدنيا ، وزينة المترفين . ولو شئت أن أزينكما من الدنيا بزينة ، ليعلم فرعون حين ينظر إليها أن مقدرته تعْجِز عن مثل ما أوتيتما ، فعلت . ولكنى أرغب بكما عن ذلك ، وأزْوِيه[3] عنكما . وكذلك أفعل بأوليائى ، وقديماً

---

(١) أى : تتشبه به .

(٢) الاحتساب : أن ينوى المرء بعمله وجه الله .

(٣) أى : أقبضه .

ما جرت [عادتى] فى ذلك ، فإنى لأذودهم(١) عن نعيمها ورخائها ، كما يذود الراعى الشفيق إبله عن مبارك المعرّة(٢) وماذاك لهوانهم علىّ ، ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتى سالما موفراً لم تكلمه(٣) الدنيا .

واعلم أنه لم يتزين لى العباد بزينة هى أبلغ مما عندى من الزهد فى الدنيا ، فإنها زينة المتقين ، عليهم منها لباس يُعرفون به من السكينة والخشوع ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، أولئك أوليائى حقاً حقاً ، فإذا لقيتهم ، فاخفض لهم جناحك وذلل قلبك ولسانك ، واعلم أنه من أهان لى ولياً أو أخافه ، فقد بارزنى بالمحاربة ، وبادأنى وعرض لى نفسه ودعانى إليها ، وأنا أسرع شىء إلى نصرة أوليائى ، أفيظن الذى يحاربنى أن يقوم لى ، أم يظن الذى يعادينى أن يعجزنى ، أم يظن الذى يبارزنى أن يسبقنى أو يفوتنى . وكيف وأنا الثائر(٤) لهم فى الدنيا والآخرة ، لا أكل مضطرهم إلى غيرى .

رواه ابن أبى حاتم .

(قال : رب ، اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى) : هذا سؤال من موسى عليه السلام لربه عز وجل ، أن يشرح له صدره فيما بعثه به ، فإنه قد أمره بأمر عظيم ، وخطب جسيم . بعثه إلى أعظم ملك على وجه الأرض إذ ذاك ، وأجبرهم ، وأشدهم كفراً وأكثرهم جنوداً ، وأعمرهم ملكاً ، وأطغاهم وأبلغهم تمرداً ، بلغ من أمره أن ادعى أنه لا يعرف الله ، ولا يعلم لرعاياه إلهاً غيره .

هذا وقد مكث موسى فى داره مدة وليداً عندهم ، فى حجر فرعون ، على فراشه ، ثم قتل منهم نفساً فخافهم أن يقتلوه ، فهرب منهم هذه المدة بكمالها . ثم بعد هذا بعثه ربه عز وجل إليهم نذيراً يدعوهم إلى الله عز وجل ، أن يعبدوه وحده لا شريك له . ولهذا قال : (رب ، اشرح لى صدرى ، ويسر لى أمرى) ، أى : إن لم تكن أنت عونى ونصيرى ، وعضدى وظهيرى ، وإلا فلا طاقة لى بذلك .

(واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى) ، وذلك لما كان أصابه من اللثغ ، حين عرض عليه التمرة والجمرة ، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه ، كما سيأتى بيانه . وما سأل أن يزول ذلك بالكلية ، بل بحيث يزول العىّ ، ويحصل لهم فهم ما يريد منه وهو قدر الحاجة . ولو سأل الجميعَ لزال ، ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة ، ولهذا بقيت بقية ، قال الله تعالى إخباراً عن فرعون أنه قال : (أم أنا خير أمن هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين(٥)) ، أى : يفصح بالكلام .

وقال الحسن البصرى : (واحلل عقدة من لسانى) ، قال : حل عُقدة واحدة ، ولو سأل أكثر من ذلك أعطى .

---

(١) أى : أدفعهم .
(٢) المعرّة : الأذى .
(٣) أى : لم تنقصه .
(٤) الثائر : طالب الثأر .
(٥) سورة الزخرف : آية : ٥٢ .

وقال ابن عباس : شكا موسى إلى ربه ما يتخوف من آل فرعون فى القتيل ، وعقدة لسانه ، فإنه كان فى لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام ، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون يكون له ردءًا ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه ، فآتاه سؤله ، فحل عقدة من لسانه .

وقال ابن أبى حاتم : ذُكرَ عن عَمْرو بن عثمان ، حدثنا بقية ، عن أرطاة بن المنذر ، حدثنى بعض أصحاب محمد بن كعب ، عنه قال : أتاه ذو قرابة له ، فقال له : ما بك بأس لولا أنك تلحن فى كلامك ، ولست تُعرب فى قراءتك ؟ فقال القرظى : ياابن أخى ، ألست أفهمك إذا حدثتك ؟ قال : نعم . قال : فان موسى عليه السلام إنما سأل ربه أن يحل عقدة من لسانه كى يفقه بنو إسرائيل كلامه ، ولم يزد عليها . هذا لفظه .

وقوله : (واجعل لى وزيراً من أهلى . هرون أخى) ، وهذا أيضاً سؤال من موسى فى أمر خارجى عنه ، وهو مساعدة أخيه هارون له .

قال الثورى ، عن أبى سعيد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أنه قال : فَنُبِّئَ هارون ساعتئذ حين نبئ موسى عليهما السلام .

وقال ابن أبى حاتم : ذكر عن ابن نمير ، حدثنا أبو أسامة ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة أنَّها خرجتْ فيما كانت تعتمر ، فنزلت ببعض الأعراب ، فسمعت رجلا يقول : أىّ أخ كان فى الدنيا أنفع لأخيه ؟ قالوا : ما ندرى . قال : والله أنا أدرى؟ قالت: فقلت فى نفسى: فى حَلِفه لا يستثنى ، إنه ليعلم أىّ أخ فى الدنيا كان أنفع لأخيه . قال : موسى حين سأل لأخيه النبوة . فقلت : صدق والله . قلت : وفى هذا قال الله تعالى فى الثناء على موسى عليه السلام : (وكان عند الله وجيهاً) .

وقوله : (اشدد به أزرى) ، قال مجاهد : ظهرى : (وأشركه فى أمرى) ، أى : فى مشاورتى ، (كى نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً) ، قال مجاهد : لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً ، حتى يذكر الله قائما وقاعداً ومضطجعاً .

وقوله : (إنك كنت بنا بصيرا) ، أى : فى اصطفائك لنا ، وإعطائك إيانا النبوة ، وبعثتك لنا إلى عدوك فرعون ، فلك الحمد على ذلك .

قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَـٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَـٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّـٰكَ فُتُونًا ۚ

هذه إجابة من الله لرسوله موسى عليه السلام ، فيما سأل من ربه عز وجل ، وتذكير له بنعمه السالفة عليه ، فيما كان ألهم أمَّه حين كانت ترضعه ، وتحذر عليه من فرعون وملئه أن يقتلوه ، لأنه كان قد ولد فى السنة التى يقتلون فيها الغلمان . فاتخذت له تابوتاً ، فكانت ترضعه ثم تضعه فيه ، وترسله فى البحر — وهو النيل — وتمسكه إلى

منزلها بحبل ، فذهبت مرة لتربطه فانفلت منها وذهب به البحر فحصل لها من الغم والهم ما ذكره الله عنها فى قوله : (وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً ، إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها (١)) ، فذهب به البحر إلى دار فرعون ، (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا (٢)) ، أى : قَدَرًا مقدورا من الله ، حيث كانوا هم يقتلون الغلمان من بنى إسرائيل ، حذراً من وجود موسى ، فحكم الله ــ وله السلطان العظيم ، والقدرة التامة ــ أن لا يُرَبى إلا على فراش فرعون ، ويغذى بطعامه وشرابه ، مع محبته وزوجته له ؛ ولهذا قال : (يأخذه عدو لى وعدو له ، وألقيت عليك محبة منى) ؛ [أى : عند عدوك ، جعلته يحبك .

قال سلمة بن كهيل : (وألقيت عليك محبة منى] قال : حببتك إلى عبادى (٣) .

(ولتصنع على عينى) ، قال أبو عمران الجونى : تربى بعين الله .

وقال قتادة : تغذى على عينى .

وقال معمر بن المثنى : (ولتصنع على عينى) ، بحيث أرى .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعنى أجعله فى بيت الملك ، ينعم ويترف ، غذاؤه عندهم غذاء الملك ، فتلك الصنعة .

وقوله : (إذ تمشى أختك فتقول : هل أدلكم على من يكفله ؟ فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها) ، وذلك أنه لما استقر عند آل فرعون ، عرضوا عليه المراضع ، فأباها ؛ قال الله عز وجل : (وحرمنا عليه المراضع من قبل) ، فجاءت أخته وقالت : (هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون (٤)) ، تعنى هل أدلكم على من ترضعه لكم بالأجرة ؟ فذهبتْ به وهم معها إلى أمه ، فعرضت عليه ثديها ، فقبله ، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً ، واستأجروها على إرضاعه ، فنالها بسببه سعادة ورفعة وراحة فى الدنيا،وفى الآخرة أغنم وأجزل ؛ ولهذا جاء فى الحديث : «مثل الصانع الذى يحتسب فى صنعته [الخير] ، كمثل أم موسى ، ترضع ولدها وتأخذ أجرها »(٥) ؛

وقال تعالى هاهنا : (فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن) ، أى : عليك ، (وقتلت نفساً) ، يعنى : القبطى ، (فنجيناك من الغم) ، وهو ما حصل له بسبب عزم آل فرعون على قتله ، ففر منهم هارباً ، حتى ورد ماء مدين ، وقال له ذلك الرجل الصالح : (لا تخف نجوت من القوم الظالمين) .

وقوله : (وفتناك فتونا) ، قال الإمام أبو عبد الرحمن أحمد بن شُعَيب النسائى رحمه الله فى كتاب التفسير من سننه ، قوله : (وفتناك فتونا) :

---

(١) سورة القصص ، آية : ١٠ .
(٢) سورة القصص ، آية : ٨ .
(٣) تفسير الطبرى : ١٦/١٢٢ .
(٤) سورة القصص ، آية : ١٢ .
(٥) أخرج نحوه أبو داود فى مراسيله ، والبيهقى فى سننه عن جبير بن نفير مرسلا . ينظر الجامع الصغير ، الحديث ٨١٤٣ : ٢/٥٤٩ .

حديث الفتون

حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا يزيد بن هارون ، أنبأنا أصبغ بن زيد ، حدثنا القاسم بن أبي أيوب ، أخبرني سعيد بن جُبَير قال : سألت عبد الله بن عباس عن قول الله عز وجل لموسى عليه السلام : (وفتناك فتوناً) ، فسألته عن الفتون ما هو ؟ فقال : استأنف(١)النهار يا ابن جُبير [فان لها] حديثاً طويلا ؛ فلما أصبحت غدوت إلى ابن عباس لأنتجز منه ما وعدني من حديث الفتون ، فقال : تذاكر فرعون وجلساؤه ماكان الله وعد ابراهيم عليه السلام أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكا ، فقال بعضهم : إن بني إسرائيل ينتظرون ذلك ، ما يشكون فيه ، وكانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب ، فلما هلك قالوا : ليس هكذا كان وعد إبراهيم ، فقال فرعون : فكيف ترَون ؟ فائتمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالا معهم الشفار(٢)، يطوفون في بني إسرائيل ، فلا يجدون مولوداً ذكراً إلا ذبحوه ؛ ففعلوا ذلك ، فلما رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون بآجالهم ، والصغار يذبحون ، قالوا : يوشك(٣) أن تفنوا بني إسرائيل ، فتصيروا أن تباشروا من الأعمال والخدمة التي كانوا يكفونكم ، فاقتلوا عاماً كلّ مولود ذكر ، فيقل أبناؤهم ، ودعوا عاماً فلا تقتلوا منهم أحداً ، فيشب الصغار مكان من يموت من الكبار ؛ فانهم لن يكثروا بمن تستحيون منهم فتخافوا مُكاثرتَهم إياكم ، ولن يفنوا بمن تقتلون وتحتاجون إليهم ؛ فأجمعوا أمرهم على ذلك .

فحملت أم موسى بهارون في العام الذي لايذبح فيه الغلمان ، فولدته علانية آمنة ؛ فلما كان من قابل حَمَلت بموسى عليه السلام ، فوقع في قلبها الهَمّ والحزن ، وذلك من الفتون يا ابنَ جُبَير مادخل عليه في بطن أمه ، مما يراد به ؛ فأوحى الله إليها أن : (لاتخافي ولاتحزني ، إنا رادوه إليك ، وجاعلوه من المرسلين) ؛ فأمَرَها إذا ولدت أن تجعله في تابوت ثم تلقيه في اليم : فلما ولدت فعلت ذلك ، فلما توارى عنها ابنُها أتاها الشيطان ، فقالت في نفسها : ما فعلتُ بابني ، لو ذُبح عندي فواريته وكفّنته كان أحبّ إلي من أن ألقيه إلى دَوَابّ البحر وحيتانه .

فانتهى الماء به حتى أوفى به عندفُرْضَة(٤) مستقي جوَاري امرأة فرعون فلما رأينه أخذنه فهممن أن يفتحن التابوت فقال بعضهن : إن في هذا مالا ، وإنا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدنا فيه ، فحملنه كهيئته لم يُخرجن منه شيئاً حتى رَفَعْنَه إليها : فلما فتحته رأت فيه غلاماً ، فألقي عليه منها محبة لم يُلْقَ منها على أحد قط ؛ وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً من ذكر كل شيء ، إلا من ذكر موسى .

فلما سمع الذباحون بأمره ، أقبلوا بشفارهم إلى امرأة فرعون ليذبحوه ؛ وذلك من الفتون يا ابن جبير ، فقالت لهم : أقروه فان هذا الواحد لايزيد في بني إسرائيل حتى آتي فرعون فأستوهبه منه ، فان وهبه لي كنتم قد أحسنتم وأجملتم ، وإن أمر بذبحه لم ألُمْكُم .

---

(١) استأنف الشيء : أخذ أوله ، أي : انتظِ أول النهار .
(٢) الشفار : جمع شفرة ، وهي السكين العريضة .
(٣) في المخطوطة : « يوشكون » . والمثبت من تفسير الطبري . والدر المنثور .
(٤) فرضة النهر : بضم فسكون — : مشرب الماء منه .

فأتت فرعون فقالت (قُرّة(١) عين لى ولك).فقال فرعون : يكون لك ، فأما لى فلاحاجة لى فيه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذى يُحلَف به لو أقر فرعون أن يكون قرة عين له ، كما أقرت امرأته ، لهداه الله كماهداها، ولكن حرمه ذلك . فأرسلت إلى من حولها ، إلى كل امرأة لها لبن لتختار له ظئرا(٢) ، فجعل كلما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يقبل على ثديها حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت ، فأحزنها ذلك ، فأمرت به فأخرج إلى السوق ومجمع الناس ، ترجو أن تجد له ظئرا تأخذه منها ، فلم يقبل ، وأصبحت أم موسى والها ، فقالت لأخته : قُصيّ أثره واطلبيه ، هل تسمعين له ذكرا ، أحيّ ابنى أم قد أكلته الدواب ؟ ونسيت ما كان الله وعدها فيه ، فبصرت به أخته عن جُنُب وهم لايشعرون ــ والجُنُب : أن يسمو بصر الإنسان إلى شىء بعيد ، وهو إلى جنبه ، وهو لايُشعر به ــ فقالت من الفرح حين أعياهم الظؤُورات : أنا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون . فأخذوها فقالوا ما يدريك ؟ ما نصحهم له ؟ هل يعرفونه ؟ حتى شكوا فى ذلك ، وذلك من الفتون يا ابن جبير . فقالت : نُصحهم له وشفقتهم [عليه] رغبتهم فى ظُؤُورة الملك ، ورجاء منفعة الملك . فأرسلوها فانطلقت إلى أمها ، فأخبرتها الخبر . فجاءت أمه ، فلما وضعته فى حجرها نزا إلى ثديها فمصّه ، حتى امتلأ جنباه ريا ، وانطلق البشراء إلى امرأة فرعون يبشرونها : أن قدوجدنا لابنك ظئرا . فأرسلت إليها ، فأتت بها وبه ، فلما رأت ما يصنع بها قالت : امكثى تُرضعى ابنى هذا ؛ فإنى لم أحب شيئاً حبه قط . قالت أم موسى : لا أستطيع أن أدع بيتى وولدى فيضيع ، فإن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتى ، فيكون معى لاآلوه (٣) خيراً [فعلت ، وإلا] (٤) فإنى غيرتاركة بيتى وولدى . وذكرت أم موسى ما كان الله وعدها فيه ، فتعاسرت على امرأة فرعون ، وأيقنت أن الله منجز وعده ، فرجعت به إلى بيتها من يومها ، وأنبته الله نباتاً حسناً ، وحفظه لما قد قضى فيه :

فلم يزل بنو إسرائيل ، وهم فى ناحية القرية ، ممتنعين من السخرة والظلم ماكان فيهم ، فلما ترعرع قالت امرأة فرعون لأم موسى : أتريني ابنى ؟ فوعدتها يوماً تريها إياه فيه ، وقالت امرأة فرعون لخزانها وظُؤُورها [وقهارمتها] : لايبقين أحد منكم إلا استقبل ابنى اليوم بهدية وكرامة لأرى ذلك ، وأنا باعثة أميناً يحصى ما يصنع كل إنسان منكم ، فلم تزل الهدايا والنِّحَل(٥) والكرامة تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى أن دَخل على امرأة فرعون ، فلما دخل عليها نَحلته وأكرمته ، وفرحت به ، ونحلت أمه لحسن أثرها عليه ، ثم قالت : لآتين به فرعون فلَيَنْحلَنّه وليكرمنه ، فلما دخلت به عليه جعله فى حِجْره ، فتناول موسى لحية فرعون بمدها إلى الأرض . فقال الغواة من أعداء الله لفرعون : ألا ترى ما وَعد الله إبراهيم نبيه ، إنه زعم أن يرثك ويعلوك ويصرعك ، فأرسل إلى الذباحين ليذبحوه . وذلك من الفتون يا ابن جبير بعد كل بلاء ابتلى به ، وأريد به .

فجاءت امرأة فرعون فقالت : ما بدالك فى هذا الغلام الذى وهبته لى ؟ [فقال] : ألاترينه يزعم أنه يصرعنى ويعلونى ؛ فقالت : اجعل بينى وبينك أمرا يعرف فيه الحق ، ائت بجمرتين ولؤلؤتين ، فقربهن إليه ، فإن بطش

(١) القرة ــ بضم القاف : ــ كل شىء قرت به عينك ، أى : سرت به وفرحت .
(٢) الظئر ــ بكسر فسكون ــ : المرضعة غير ولدها .
(٣) أى : لا أمنعه خيراً ، ولا أقصر فى أمره .
(٤) ما بين القوسين من تفسير الطبرى : ١٦/١٢٦ ، والدر المنثور : ٤/٢٩٧ .
(٥) النحل ــ بكسر ففتح ــ جمع نحلة ، وهى : العطية .

باللؤلؤتين واجتنب الجمرتين فاعرفت أنه يعقل ، وإن تناول الجمرتين ولم يرد اللؤلؤتين ،علمتَ أن أحداً لايؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل : فقرّب إليه ، فتناول الجمرتين ، فانتزعهما منه مخافة أن يحرقا يده ، فقالت المرأة : ألا ترى ؟ فصرفه الله عنه بعد ماكان قد همّ به ، وكان الله بالغاً فيه أمره .

فلما بلغ أشده وكان من الرجال ، لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بنى إسرائيل معه بظلم ولاسُخْرَة ، حتى امتنعوا كلّ الامتناع ، فبينما موسى عليه السلام يمشى فى ناحية المدينة ، إذا هو برجلين يقتتلان ، أحدهما فرعونى والآخر إسرائيلى ، فاستغاثه الإسرائيلى على الفرعونى ، فغضب موسى غضباً شديداً ؛ لأنه تناوله وهو يعلم منزلته من بنى إسرائيل وحفظه لهم ، لايعلم الناس إلا أنما ذلك من الرضاع ، إلا أم موسى ، إلا أن يكون الله أطلع مُوسى من ذلك على مالم يطلع عليه غيره : فوكز موسى الفرعونى فقتله ، وليس يراهما أحد إلا الله عز وجل والإسرائيلى ، فقال موسى حين قتل الرجل : (هذامن عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين) : ثم قال : (رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى ، فغفر له ، إنه هو الغفور الرحيم) ، فأصبح فى المدينة خائفاً يترقب الأخبار ، فأتى فرعون ، فقيل له : إن بنى إسرائيل قتلوا رجلا من آل فرعون ، فخُذْ لنا بحقنا ولاتُرْخِص لهم : فقال : ابغونى قاتله ، ومن يشهد عليه ، فان الملك وإن كان صَغْوُه(١) مع قومه لايستقيم له أن يُقيد بغير بينة ولا ثَبَت(٢) ، فاطلبوا لى علمَ ذلك آخُذْ لكم بحقكم : فبينما هم يطوفون ولايجدون ثبتاً ، إذا بموسى من الغد قد رأى ذلك الإسرائيلى يقاتل رجلا من آل فرعون آخر ، فاستغاثه الإسرائيلى على الفرعونى ، فصادف موسى قد ندم على ماكان منه وكَره الذى رأى ، فغَضب الإسرائيلى وهو يريد أن يبطش بالفرعونى ، فقال للإسرائيلى لما فعل بالأمس واليوم : (إنك لغوى مبين) : فنظر الإسرائيلى إلى موسى بعد ماقال له ما قال ، فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس الذى قتل فيه الفرعونى ، فخاف أن يكون بعد ما قال له : (إنك لغوى مبين) ، أن يكون إياه أراد ، ولم يكن أراده ، إنما أراد الفرعونى : فخاف الإسرائيلى وقال : (ياموسى ، أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس) ، وإنما قاله مخافة أن يكون إياه أراد موسى ليقتله ، فتتاركا ، وانطلق الفرعونى فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلى من الخبر حين يقول : (أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس) : فأرسل فرعون الذباحين ليقتلوا موسى ، فأخذ رُسُل فرعون فى الطريق الأعظم يمشون على هِينتِهم(٣) يطلبون موسى ، وهم لايخافون أن يفوتهم ، فجاء رجل من شيعة موسى من أقصى المدينة ، فاختصر طريقاً حتى سبقهم إلى موسى ، فأخبره : وذلك من الفتون يا ابن جبير .

فخرج موسى متوجهاً نحو مدين ، لم يلق بلاء قبل ذلك ، وليس له بالطريق علم إلا حسن ظنه بربه عزوجل ؛ فإنه قال : (عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل . ولما ورد ماء مدين ، وجد عليه أمة من الناس يسقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان) ، يعنى بذلك حابستين غنمهما ، فقال لهما : ما خطبكما معتزلتين لاتسقيان مع الناس ؟ قالتا : ليس لنا قوّة نزاحم القوم ، وإنما ننتظر فُضول حياضهم : فسقى لهما ، فجعل يغترف فى الدلو ماء كثيراً ، حتى

---

(١) صغوه — بفتح الصاد وكسرها — : ميله .

(٢) الثبت — بفتح الثاء والباء — الحجة والبينة أيضاً .

(٣) الهينة — بكسر الهاء — : السكون والرفق . أى : يمشون على عادتهم فى ذلك .

كان أول الرّعاء(١) ، فانصرفتا بغنمهما إلى أبيهما ، وانصرف موسى عليه السلام ، فاستظل بشجرة ، وقال : (رب ، إنى لما أنزلت إلى من خير فقير) ، واستنكر أبوهما سرعة صدورهما بغنمهما حُفّلاً(٢) بطاناً فقال: إن لكما اليوم لشأنا ، فأخبرتاه بما صنع موسى ، فأمر إحداهما أن تدْعُوه ، فأتت موسى فدعته ، فلما كلمه قال : (لاتخف ، نجوت من القوم الظالمين) ، ليس لفرعون ولالقومه علينا سلطان ، ولسنا فى مملكته ، فقالت إحداهما : (يا أبت ، استأجره ، إن خيرَ من استأجرت القوىّ الأمين) ، فاحتملته الغيرة على أن قال لها : ما يدريك ما قوته ؟ وما أمانته ؟ قالت : أما قوته فما رأيت منه فى الدلو حين سقى لنا ، لم أر رجلا قطّ أقوى فى ذلك السقى منه ، وأما الأمانة فإنه نظر إلىّ حين أقبلت إليه وشخصت له ، فلما علم أنى امرأة صوّب(٣) رأسه فلم يرفعه ، حتى بلغته رسالتك ، ثم قال لى : امشى خلفى ، وانعتى لى الطريق ، فلم يفعل هذا إلا وهو أمين ، فسُرّى عن أبيها وصدّقها ، وظن به الذى قالت .

فقال له : هل لك (أن أنكحك إحدى ابنتىّ هاتين ، على أن تأجرنى ثمانى حجج ، فان أتممت عشرا فمن عندك ، وما أريد أن أشق عليك ، ستجدنى إن شاء الله من الصالحين) . ففعل ، فكانت على نبى الله موسى ثمان سنين واجبة ، وكانت سنتان عدةٌ منه ، فقضى الله عنه عدته فأتمها عشرا .

قال سعيد ، وهو ابن جبير : فلقينى رجل من أهل النصرانية من علمائهم ، قال : هل تدرى أىَّ الأجلين قضى موسى ؟ قلت : لا ، وأنا يومئذ لا أدرى ، فلقيت ابن عباس ، فذكرت ذلك له ، فقال : أما علمت أن ثمانيا كانت على نبى الله واجبة ، لم يكن لنبى الله أن ينقص منها شيئاً ، ويعلم أن الله كان قاضياً عن موسى عدته التى وَعَده فإنه قضى عشر سنين ، فلقيت النصرانى فأخبرته ذلك ، فقال : الذى سألته فأخبرَك أعلمُ منك بذلك . قلت : أجل ، وأولى .

فلما سار موسى بأهله كان من أمر النار والعصا ويده ما قصّ الله عليك فى القرآن ، فشكا إلى الله تعالى ما يتخوف من آل فرعون فى القتيل وعُقْدَة لسانه ، فإنه كان فى لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام ، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون ، يكون له ردءا ، ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه ، فآتاه الله سُؤْله ، وحل عُقْدَة من لسانه ، وأوحى الله إلى هارون وأمره أن يلقاه ، فاندفع موسى بعصاه حتى لقى هارون عليهما السلام ، فانطلقا جميعاً إلى فرعون ، فأقاما على بابه حيناً لايُؤذن لهما ، ثم أُذِن لهما بعد حجاب شديد ، فقالا : (إنا رسولا ربك) ، قال : فمن ربكما ؟ فأخبره بالذى قصّ الله عليك فى القرآن ؟ قال : فما تريدان ؟ وذكّره القتيل ، فاعتذر بما قد سمعتَ ، قال : أريد أن تؤمن بالله ، وترسل معى بنى إسرائيل ؟ فأبى عليه وقال : (ائت بآية إن كنت من الصادقين) ، فألقى عصاه (فإذا هى)(٤) حيّة تسعى عظيمة فاغرةٌ فاها ، مسرعة إلى فرعون ، فلما رآها فرعون قاصدةً إليه خافها ، فاقتحم عن سريره واستغاث بموسى أن يكفّها عنه ، ففعل ، ثم أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء — يعنى من غير برَص — ثم ردها فعادت إلى لونها الأول ، فاستشار الملأ حوله فيما رأى ، فقالوا له : هذان ساحران (يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ، ويذهبا

(١) الرعاء — بكسر الراء — : جمع راع .
(٢) الحفل : جمع حافل ، أى ممتلئة الضرع . وبطانا : ممتلئة البطون .
(٣) أى : خفضه .
(٤) ما بين القوسين من الطبعات السابقة ، وفى الدر المنثور : «فألقى عصاه فتحولت حية» .

بطريقتكم المثلى) ، يعني : ملكهم الذى هم فيه والعيش ، وأبوا على موسى أن يعطوه شيئاً مما طلب ، وقالوا له : اجمع لهما السحرة ، فإنهم بأرضك كثير حتى تغلب بسحرك سحرهما ؛ فأرسل إلى المدائن فحشر له كل ساحر متعالم ، فلما أتوا فرعون قالوا : بم يعمل هذا الساحر ؟ قالوا : يعمل بالحيات ؛ قالوا فلا والله ما أحد فى الأرض يعمل بالسحر بالحيات والحبال والعصى الذى نعمل ؛ وما أجرنا إن نحن غلبنا ؟ قال لهم : أنتم أقاربى وخاصتى ، وأنا صانع إليكم كل شىء أحببتم ؛ فتواعدوا يوم الزينة ، وأن يحشر الناس ضحى ؛

قال سعيد بن جبير : فحدثنى ابن عباس : أن يوم الزينة الذى أظهر الله فيه موسى على فرعون والسحرة ، هو يوم عاشوراء ؛

فلما اجتمعوا فى صعيد [واحد] قال الناس بعضهم لبعض : انطلقوا فلنحضُرْ هذا الأمر ، (لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين) ، يعنون موسى وهارون استهزاء بهما فقالوا : ياموسى — لقُدْرتهم بسحرهم — (إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين ؛ قال : بل ألقوا ، فألقوا حبالهم وعصيهم ، وقالوا : بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون) ؛ فرأى موسى من سحرهم ما أوجس فى نفسه خيفة ، فأوحى الله إليه أن ألق عصاك ، فلما ألقاها صارت ثعباناً عظيمة فاغرة فاها ، فجعلت العصىّ تلتبس بالحبال حتى صارت جَزَرَاً (١) إلى الثعبان ، تدخل فيه ، حتى ما أبقت عصا ولاحبالا إلا ابتلعته ، فلما عرفت السحرة ذلك قالوا ، لو كان هذا سحراً لم يبلغ من سحرنا كلّ هذا ، ولكنه أمر من الله عزوجل ، آمنا بالله وبما جاء به موسى ، ونتوب إلى الله مما كنا عليه ؛ فكسر الله ظهر فرعون فى ذلك الموطن وأشياعه ، وظهر الحق ، وبطل ماكانوا يعملون ، (فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين) وامرأة فرعون بارزة مُتَبَذِّلة(٢) تدعو الله بالنصر لموسى على فرعون وأشياعه ، فمن رآها من آل فرعون ظن أنها إنما ابتذلت للشفقة على فرعون وأشياعه ، وإنما كان حزنها وهمها لموسى .

فلما طال مكث موسى بمواعيد فرعون الكاذبة ، كلما جاء بآية وعده عندها أن يرسل معه بنى إسرائيل ، فإذا مضت أخلف موعده وقال : هل يستطيع ربك أن يصنع غير هذا ؟ ؛ فأرسل الله على قومه الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات ، كلّ ذلك يشكو إلى موسى ويطلب إليه أن يكفها عنه ، ويواثقه على أن يرسل معه بنى إسرائيل ، فإذا كف ذلك عنه أخلف موعده ، ونكث عهده .

حتى أمر الله موسى بالخروج بقومه فخرج بهم ليلا ، فلما أصبح فرعون ورأى أنهم قد مَضَوا أرسل فى المدائن حاشرين ، فتبعه بجنود عظيمة كثيرة ، وأوحى الله إلى البحر : إذا ضربك عبدى موسى بعصاه فانفلق اثنى عشرة فرقة ، حتى يجوز موسى ومن معه ، ثم التق على من بقى بعدُ من فرعون وأشياعه ؛ فنسى موسى أن يضرب البحر

---

(١) «الجزر» — بفتح الجيم والزاى ، ثم راء — : جمع «جزرة» — بفتح فسكون — وهى الشاة الصالحة لأن تجزر ، أى تذبح للأكل . والكلام على سبيل التمثيل ، وقد يقال فى جمع «جزرة» : «جزر» ، بكسر الجيم وفتح الزاى .
(٢) التبذل : ترك التزين .

بالعصا ، وانتهى إلى البحر وله قصيف[1] ، مخافة أن يضربه موسى بعصاه وهو غافل فيصير عاصياً لله ، فلما تراءى الجمعان وتقاربا ،(قال أصحاب موسى : إنا لمدركون)، افعل ما أمرك به ربك ، فانه لم يكذب ولم تكذب . قال : وعدنى أن إذا أتيت البحر انفرق اثنى عشرة فرقة ، حتى أجاوزه . ثم ذكر بعد ذلك العصا فضرب البحر بعصاه حين دنا أوائل جند فرعون من أواخر جند موسى ، فانفرق البحر كما أمره ربه وكما وعد موسى فلما أن جاز موسى وأصحابه كلهم البحر ، ودخل فرعون وأصحابه ، التقى عليهم البحر كما أمر فلما جاوز موسى البحر [قال أصحابه] : إنا نخاف أن لا يكون فرعون غرق ولانؤمن بهلاكه . فدعا ربه فأخرجه له ببدنه حتى استيقنوا بهلاكه .

ثم مروا بعد ذلك على قوم يعكفون على أصنام لهم (قالوا ياموسى ، اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ، قال : إنكم قوم تجهلون . إن هؤلاء مُتَبَّرٌ ما هم فيه وباطل ماكانوا يعملون) قد رأيتم من العبر وسمعتم ما يكفيكم ومضى . فأنزلهم موسى منزلا وقال : أطيعوا هارون فانى قد استخلفته عليكم ، فانى ذاهب إلى ربى . وأجّلهم ثلاثين يوماً أن يرجع إليهم فيها ، فلما أتى ربه وأراد أن يكلمه فى ثلاثين يوما وقد صامهن ليلهن ونهارهن ، وكره أن يكلم ربه وريح فيه ، ريحُ فم الصائم ، فتناول موسى من نبات الأرض شيئاً فمضغه ، فقال له ربه حين أتاه : لم أفطرت ؟ وهو أعلم بالذى كان؛ قال : يارب ، إنى كرهت أن أكلمك إلا وفمى طيب الريح . قال : أوما علمت ياموسى أن ريح فم الصائم أطيب من ريح المسك ، ارجع فصم عشراً ثم ائتنى . ففعل موسى عليه السلام ما أمر به ، فلما رأى قوم موسى أنه لم يرجع إليهم فى الأجل ، ساءهم ذلك . وكان هارون قد خطبهم وقال : إنكم قد خرجتم من مصر ، ولقوم فرعون عندكم عوارىّ[2] وودائع ، ولكم فيهم مثل ذلك وأنا أرى أنكم تحتسبون[3] مالكم عندهم ، ولا أحل لكم وديعة استودعتموها ولا عارية ، ولسنا برادّين إليهم شيئاً من ذلك ولاممسكيه لأنفسنا ،فحفر حفيرا ، وأمر كل قوم عندهم من ذلك من متاع أوحلية أن يقذفوه فى ذلك الحفير ، ثم أوقد عليه النار فأحرقه ، فقال : لايكون لنا ولالهم .

وكان السامرىّ من قوم يعبدون البقر ، جيران لبنى إسرائيل ، ولم يكن من بنى إسرائيل ، فاحتمل[4] مع موسى وبنى إسرائيل حين احتملوا ، فقضى له أن رأى أثراً[5] فقبض منه قبضة ، فمر بهارون ، فقال له هارون عليه السلام : يا سامرى ، ألا تلقى مافى يدك ؟ وهو قابض عليه ، لا يراه أحد طوال ذلك ، فقال : هذه قبضة من أثر الرسول الذى جاوز بكم البحر ، ولا ألقيها لشىء إلا أن تدعو الله إذا ألقيتها أن يكون ما أريد . فألقاها ، ودعا له هارون ، فقال : أريد أن يكون عجلا . فاجتمع ما كان فى الحفيرة من متاع أو حلية أو نحاس أو حديد ، فصار عجلا أجوف ، ليس فيه روح ، وله خوار .

---

(١) أى صوت هائل يشبه صوت الرعد .
(٢) العوارى جمع عارية ــ بتشديد الياء . وهى ما استعرته من غيرك وقد أجمع العلماء على وجوب رد العارية .
(٣) أى : تصبرون على ما لكم عندهم ، وتطلبون ثواب ذلك من الله .
(٤) ارتحل حين ارتحلوا .
(٥) سيأتى تفسير الأثر عند الآية ٩٦ من هذه السورة .

قال ابن عباس : لا والله ، ما كان له صوت قط ، إنما كانت الريح تدخل فى دبره وتخرج من فيه ، فكان ذلك الصوت من ذلك

فتفرق بنو إسرائيل فِرَقاً ، فقالت فرقة : يا سامرى ، ما هذا ؟ وأنت أعلم به ، قال : هذا ربكم ، ولكن موسى أضل الطريق . وقالت فرقة : لا نكذب بهذا حتى يرجع إلينا موسى ، فان كان ربنا لم نكن ضيَّعناه وعجزنا فيه حين رأيناه ، وإن لم يكن ربنا فانا نتبع قول موسى . وقالت فرقة : هذا عمل الشيطان ، وليس بربنا ولا نؤمن به ولا نصدق ، وَأُشْرِبَ(١) فرقة فى قلوبهم الصدق بما قال السامرى فى العجل ، وأعلنوا التكذيب به ، فقال لهم هارون : (يا قوم ، إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن) . قالوا : فما بال موسى وَعَدَنا ثلاثين يوماً ثم أخلفنا؟ هذه أربعون يوماً قدمضت؟ وقال سفهاؤهم : أخطأ ربَّه فهو يطلبه ويتبعه .

فلما كلم الله موسى وقال له ما قال ، أخبره بما لقى قومُه من بعده ، (فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً) فقال لهم ما سمعتم فى القرآن ، وأخذ برأس أخيه يجره إليه ، وألقى الألواح من الغضب ، ثم إنه عَذَر أخاه بعذره ، واستغفر له ، وانصرف إلى السامرى فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : قبضت قبضة من أثر الرسول ، وفَطِنتُ لها وعُمِّيَت عليكم ، فقذفتها (وكذلك سولت لى نفسى . قال : فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول : لا مساس ، وإن لك موعداً لن تخلفه ، وانظر إلى إلهك الذى ظَلْتَ عليه عاكفا ، لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليمّ نسفا) ، ولو كان إلها لم يُخلَص إلى ذلك منه . فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنة ، واغتبط الذين كان رأيهم فيه مثل رأى هارون ، فقالوا لجماعتهم : ياموسى ، سل لنا (ربك) أن يفتح لنا باب توبة نصنعها ، فيكفّر عنا ما عملنا ، فاختار موسى قومَه سبعين رجلا لذلك ، لا يألو الخيرَ ، خيارَ بنى إسرائيل ، ومن لم يشرك فى العِجل ، فانطلق بهم يسأل لهم التوبة ، فرجفت بهم الأرض ، فاستحيا نبى الله منْ قومه ومن وفده حين فعل بهم ما فعل ، فقال : (ربّ لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى ، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا)(٢) ، وفيهم من كان اطلع الله منه على ما أشرب قلبه من حب العجل وإيمان به ، فلذلك رُجفت بهم الأرض ، فقال : (ورحمتى وسعت كل شىء ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة ، والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبىّ الأمىّ الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل) : فقال : يا رب ، سألتك التوبة لقومى ، فقلت : إن رحمتى كتبتها لقوم غير قومى ، فليتك أخرتنى حتى تخرجنى فى أمة ذلك الرجل المرحومة ؟ فقال له : إن توبتهم أن يَقْتُلَ كلّ رجل منهم مَنْ لقى من والد وولد ، فيقتله بالسيف ، ولا يبالى من قَتَل فى ذلك الموطن ، وتاب أولئك الذين [كان] خفى على موسى وهارون واطلع الله من ذنوبهم فاعترفوا بها ، وفعلوا ما أُمِرُوا ، وغفر الله للقاتل والمقتول .

ثم سار بهم موسى عليه السلام مُتَوَجّهاً نحو الأرض المقدسة ، وأخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب ، فأمرهم بالذى أُمِرَ به أن يبلغهم من الوظائف ، فثقل ذلك عليهم ، وأبوْا أن يُقروا بها ، فنتق(٣) الله عليهم الجبَل كأنه

(١) أى : سقيته قلوبهم كما يسقى العطشان الماء .
(٢) انظر تفسير ذلك فى سورة الأعراف ، الآية ١٥٥ : ٣/٤٧٧ ، ٤٧٨ .
(٣) انظر أيضاً تفسير سورة الأعراف ، الآية ١٧١ : ٣/٤٩٩ ، وما بعدها .

ظلة ، ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم ، فأخذوا الكتاب بأيمانهم وهم مصغون ينظرون إلى الجبل ، والكتاب بأيديهم ، وهم من وراء الجبل مخافةَ أن يقع عليهم . ثم مضوا حتى أتوا الأرض المقدسة ، فوجدوا مدينة فيها قوم جبارون(١) ، خَلْقُهُمْ خَلْقٌ مُنكر ــ وذكروا من ثمارهم أمراً عجيباً من عظمها ــ فقالوا : ياموسى ، إن فيها قوماً جبارين ، لا طاقة لنا بهم ، ولا ندخلها ما داموا فيها ، فإن يخرجوا منها فانا داخلون : قال رجلان من الذين يُخَافون ــ قيل ليزيد : هكذا قرَأه؟ قال : نعم ، من الجبارين ، آمَنَا بموسى . وخرجا إليه ، فقالوا : نحن أعلم بقومنا ، إن كنتم إنما تخافون [ما رأيتم] من أجسامهم وعددهم ، فإنهم لا قلوب لهم ولا مَنَعَة عندهم ، فادخلوا عليهم الباب ، فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ــ ويقول أناس : إنهم من قوم موسى . فقال الذين يَخافُون ، بَنُو إسرائيل : (ياموسى ، إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) : فأغضبوا موسى ، فدعا عليهم وسمَّاهم فاسقين ، ولم يَدْعُ عليهم قبل ذلك ، لما رأى منهم من المعصية وإساءتهم حتى كان يومئذ ، فاستجاب الله له ، وسماهم كما سماهم فاسقين ، فحرّمها عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض ، يصبحون كل يوم فيسيرون ، ليس لهم قرار ؛ ثم ظلل عليهم الغمام فى التيه ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، وجعل لهم ثياباً لا تَبْلَى ولا تتسخ ، وجعل بين ظهرانيهم حَجَراً مُرَبَّعاً ، وأمر موسى فضربه بعصاه ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً(٢) ، فى كل ناحية ثلاث أعين ، وأعلم كل سِبْط عينهم التى يشربون منها ، فلا يرتحلون من مَنْقَلَة(٣) إلا وجدوا ذلك الحجر معهم بالمكان الذى كان فيه بالأمس ؛

رفع ابنُ عباس هذا الحديث إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وصَدَّقَ ذلك عندى أن معاوية سمع ابن عباس يحدث هذا الحديث ، فأنكر عليه أن يكون الفرْعَونى الذى أفشى على موسى أمْرَ القتيل الذى قتل ، فقال : كيف يُفشِى عليه ولم يكن علم به ولا ظَهَرَ عليه إلا الإسرائيلى الذى حضر ذلك ؟ . فغضب ابن عباس ، فأخذ بيد معاوية فانطلق به إلى سَعْد بن مالك الزهرى ، فقال له : يا أبا إسحاق ، هل تذكر يوم حَدَّثنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن قتيل موسى الذى قُتِل من آل فرعون ؟ الإسرائيلى الذى أفشى عليه أم الفرعونى ؟ قال إنما أفشى عليه الفرعونى ، بما سمع من الإسرائيلى [الذى] شَهِد على ذلك وحَضَره .

هكذا رواه الإمام النسائى فى السنن الكبير ، وأخرجه أبو جعفر بن جرير(٤) وابن أبى حاتم فى تفسيرهما ، كلهم من حديث يزيد بن هارون ، به ؛ وهو موقوف من كلام ابن عباس ، وليس فيه مرفوع إلا قليل منه ، وكأنه تلقاه ابن عباس رضى الله عنه مما أبيح نقله من الإسرائيليات عن كعب الأحبار أو غيره ، والله أعلم . وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزّى يقول ذلك أيضاً .

---

(١) انظر تفسير سورة المائدة ، الآيات ٢١ ــ ٢٦ : ٢/٦٧ ، وما بعدها .

(٢) انظر تفسير سورة البقرة ، آية ٦٠ : ١/١٤٣ ، وما بعدها ، وسورة الأعراف ، آية ١٦٠ : ٣/٤٩١ .

(٣) المنقلة : المرحلة من مراحل السفر ، والجمع مناقل .

(٤) تفسير الطبرى : ١٦/١٢٥ ــ ١٢٧ . والدر المنثور : ٤/٢٩٦ ــ ٣٠١ .

﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالى مخاطباً لموسى عليه السلام : إنه لبث مقيما فى أهل « مدين » فاراً من فرعون وملئه ، يرعى على صهره ، حتى انتهت المدة وانقضى الأجل ، ثم جاء موافقاً لقدر الله وإرادته من غير ميعاد ، والأمر كله لله تبارك وتعالى ، وهو المسيّر عباده وخلقه فيما يشاء ، ولهذا قال : (ثم جئت على قدر) ، قال مجاهد : أى على موعد .

وقال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة فى قوله : (ثم جئت على قدر ياموسى) ، قال : على قدر الرسالة والنبوة [١] .

وقوله : (واصطنعتك لنفسى) ، أى : اصطفيتك واجتبيتك رسولا لنفسى ، أى : كما أريد وأشاء .

وقال البخارى عند تفسيرها : حدثنا الصلتُ بن محمد ، حدثنا مهدىّ بن ميمون ، حدثنا محمد بن سيرين ، عن أبى هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « التقى آدم وموسى ، فقال موسى : أنت الذى أشقيتَ الناس وأخرجتهم من الجنة ؟ فقال آدم : أنت الذى اصطفاك الله برسالاته واصطفاك لنفسه ، وأنزل عليك التوراة ؟ قال : نعم . قال : فوجدتَه قد كتب علىّ قبل أن يخلقنى ؟ قال : نعم . فحجّ آدمُ موسى : أخرجاه[٢]

(اذهب أنت وأخوك بآياتى) ، أى : بحُجَجى وبراهينى ومعجزاتى ، (ولا تنيا فى ذكرى) - قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : لا تُبْطئا .

وقال مجاهد ، عن ابن عباس : لا تَضْعُفا[٣] .

والمراد أنهما لا يفتران فى ذكر الله ، بل يذكران الله فى حال مواجهة فرعون ، ليكون ذكرُ الله عوناً لهما عليه وقوة لهما وسلطاناً كاسراً له ، كما جاء فى الحديث : « إنّ عبدى كلّ عبدى للذى يذكرنى وهو مُنَاجِز قِرْنَه »[٤] .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٦/١٢٨ .

(٢) البخارى ، تفسير سورة طه : ٦/١٢٠ . ومسلم ، كتاب القدر ، باب « حجاج آدم وموسى عليهما السلام » : ٨/٤٩ . ومعنى « حج آدم موسى » : غلبه فى الحجة .

(٣) تفسير الطبرى : ١٦/١٢٩ .

(٤) أخرجه الترمذى فى أبواب الدعاء ، ينظر تحفة الأحوذى ، الحديث ٣٦٥١ : ١٠/٤٠ ، وقال الترمذى : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وليس إسناده بالقوى » . ويقول الحافظ أبو العلى صاحب تحفة الأحوذى : وليس إسناده بالقوى : لضعف عفير بن معدان » .

والمناجزة : المقاتلة . ولفظ الترمذى : « وهو ملاق قرنه » . والقرن - بكسر فسكون - : المقارن المكافىء له فى الشجاعة والحرب ، يعنى أنه لا يغفل عن ذكر ربه عز وجل ، حتى فى حال معاينة الهلاك .

هذا وينظر أسد الغابة ، الترجمة ٢٨٠٨ : ٤/١٣٩ بتحقيقنا .

(اذهبا إلى فرعون إنه طغى) ، أى : تمرد وعتا وتجهرم على الله وعصاه ، (فقولا له قولا لينا ، لعله يتذكر أو يخشى) ، هذه الآية فيها عبرة عظيمة ، وهو أن فرعون فى غاية العتو والاستكبار ، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك ، ومع هذا أمر أن لايخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين ، كما قال يزيد الرقاشى عند قوله : (فقولا له قولا لينا) : يامن يتحبب إلى من يعاديه ، فكيف بمن يتولاه ويناديه ؟ .

وقال وهب بن منبه : قولا له : إنى إلى العفو والمغفرة أقرب منى إلى الغضب والعقوبة .

وعن عكرمة فى قوله : (فقولا له قولا لينا) ، قال : لا إله إلا الله . وقال عمرو بن عبيد ، عن الحسن البصرى : (فقولا له قولا لينا) : أعذرا إليه ، قولا له : إن لك رباً ، ولك معادا ، وإن بين يديك جنة ونارا .

وقال بقية ، عن على بن هارون[1] ، عن رجل ، عن الضحاك بن مزاحم ، عن النزال بن سبرة ، عن على فى قوله : (فقولا له قولا لينا) ، قال : كنه .

وكذا روى عن سفيان الثورى : كنه بأبى مرة .

والحاصل من أقوالهم أن دعوتهما له تكون بكلام رقيق لين قريب سهل ، ليكون أوقع فى النفوس وأبلغ وأنجع ، كما قال تعالى : (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن)[2] ... الآية .

(لعله يتذكر أو يخشى) ، أى : لعله يرجع عما هو فيه من الضلال والهلكة ، (أو يخشى) ، أى : يوجد طاعة من خشية ربه ، كما قال تعالى : « لمن أراد أن يذكر أو يخشى »[3] . فالتذكر : الرجوع عن المحذور ، والخشية : تحصيل الطاعة .

وقال الحسن البصرى : (لعله يتذكر أو يخشى) ، يقول : لا تقل أنت ياموسى وأخوك هارون : أهلكه ، قبل أن أعذر إليه[4] .

وهاهنا نذكر شعر زيد بن عمرو بن نفيل ، ويروى لأمية بن أبى الصلت فيما ذكره ابن إسحاق[5] :

---

(١) كذا فى المخطوطة ، ولم نجد « على بن هارون » هذا .

(٢) سورة النحل ، آية : ١٢٥ .

(٣) كذا ، وليست آية . ولعله يعنى الآية التى فى سورة الأعلى ، وهى قوله تعالى : (سيذكر من يخشى) . وأما قوله تعالى (لمن أراد أن يذكر) فى سورة الفرقان ، الآية : ٦٢ ، وتمامها : (أو أراد شكورا) .

(٤) رواية الحسن كما فى الدر المنثور ٣٠١/٤ عن ابن أبى حاتم : (فقولا له قولا لينا) ، قال : أعذرا إليه ، وقولا له : إن لك ربا ، ولك معاداً ، وإن بين يديك جنة ونارا .

(٥) تقدمت الأبيات فى تفسير سورة الرعد : ٣٥١/٤ ، وخرجناها وشرحنا غريبها هنالك .

وَأَنْتَ الذى مِنْ فَضْلِ مَنٍّ وَرَحْمة بَعَثْتَ إلى مُوسَى رَسُولاً مُنَادِيَا
فقلت له : يَا اذهَبْ وَهارُونَ فادعُوَا إلى الله فِرعونَ الذى كانَ بَاغِيا
فَقُولاَ له : هَلْ أَنْتَ سَوَّيتَ هَذه بِلاَ وَتِد حتَّى اسْتَقلَّتْ كَمَا هِيَا ؟
وَقُولا لَه : آ أَنت رَفَّعْتَ هذِهِ بِلا عَمَد ؟ أَرْفِقْ إذا بِكَ بَانِيًا !
وَقولاَ له : آ أَنت سَوَّيت وَسْطَها مُنيرًا إذا ماجَنَّهُ الليلُ هَادِيا ؟
وقولاَ له : مَنْ يُخْرِجُ الشَّمْسَ بُكْرَةً فَيُصْبِحُ مَامَسَّتْ مِنَ الارضِ ضَاحِيًا ؟
وقولاَله : مَنْ يُنْبِتُ الحبَ فِى الثَّرَى فَيُصْبِحُ منه البَقْلُ يَهْتَزُّ رابيا ؟
ويُخْرِجُ منْهُ حَبَّه فى رُءُوسه فَفِى ذَاكَ آيَاتٌ لمَنْ كَانَ وَاعِيَا

قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾

يقول تعالى إخباراً عن موسى وهارون عليهما السلام أنهما قالا مستجيرين بالله تعالى شاكِيَيْن إليه: (إننا نخاف أن يَفْرط علينا أو أن يطغى) ، يعنيان أن يَبْدُر إليهما بعقوبة ، أو يعتدى عليهما ، فيعاقبهما وهما لايستحقان منه ذلك .

قال عبد الرحمن بن زيد : (أن يفرط) : يَعْجَل .

وقال مجاهد : يبسط علينا .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس : (أو أن يطغى) : يعتدى .

(قال : لا تخافا ، إننى معكما أسمع وأرى) ، أى : لا تخافا منه ، فاننى معكما أسمع كلامكما وكلامه ، وأرى مكانكما ومكانه ، لا يخفى علىّ من أمركم شىء ، واعلما أن ناصيته بيدى ، فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبطش إلا باذنى وبعد أمرى ، وأنا معكما بحفظى ونصرى وتأييدى .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا على بن محمد الطنافسى ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن عمرو ابن مُرّة ، عن أبى عبيدة ، عن عبد الله قال : لما بعث اللهُ عزّ وجل موسى إلى فرعون قال : رب ، أىّ شىء أقول ؟ قال : قل : هيا شراهيا (١) . قال الأعمش : فَسَّرُ(٢) ذلك : الحى قبل كل شىء ، والحى بعد كل شىء(٣) .

إسناد جيد ، وشىء غريب .

---

(١) لفظ الدر المنثور : « أهيا شرا هيا » .
(٢) أى : تفسير ذلك وبيانه .
(٣) أخرجه ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم . الدر المنثور : ٣٠١/٤ .

(فأتياه فقولا : إنا رسولا ربك) ، قد تقدم فى حديث « الفتون » عن ابن عباس أنه قال : مكثا على بابه حينا لايؤذن لهما ، ثم أذن لهما بعد حجاب شديد .

وذكر محمد بن إسحاق بن يسار : أن موسى وأخاه هارون خرجا ، فوقفا بباب فرعون يلتمسان الإذن عليه وهما يقولان : إنا رسل رب العالمين ، فآذنوا بنا هذا الرجل . فمكثا فيما بلغنى سنتين يغدوان ويروحان ، لايعلم بهما ولايجترىء أحد على أن يخبره بشأنهما ، حتى دخل عليه بطال(١) له يلاعبه ويضحكه ، فقال له : أيها الملك ، إن على بابك رجلا يقول قولا عجبا ، يزعم أن له إلها غيرك أرسله إليك . قال : ببابى ؟ قال نعم . قال : أدخلوه . فدخل ومعه أخوه هارون وفى يده عصاه ، فلما وقف على فرعون قال : إنى رسول رب العالمين . فعرفه فرعون .

وذكر السدى أنه لما قدم بلاد مصر ، ضاف أمه وأخاه وهما لايعرفانه ، وكان طعامهما ليلتئذ الطعثلل(٢) وهو اللفت ثم عرفاه وسلما عليه ، فقال له موسى : ياهارون ، إن ربى قد أمرنى أن آتى هذا الرجل فرعون فأدعوه إلى الله ، وأمر أن تعاوننى . قال : افعل ما أمرك ربك . فذهبا ، وكان ذلك ليلا ، فضرب موسى باب القصر بعصاه ، فسمع فرعون فغضب وقال : من يجترىء على هذا الصنيع ؟ فأخبره السدنة والبوابون بأن هاهنا رجلا مجنونا يقول : « إنه رسول الله » فقال : على به . فلما وقفا بين يديه قالا وقال لهما ما ذكر الله فى كتابه .

وقوله : (قد جئناك بآية من ربك) ، أى : بدلالة ومعجزة من ربك ، (والسلام على من اتبع الهدى) ، أى : والسلام عليك إن اتبعت الهدى .

ولهذا لما كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل عظيم الروم [كتابا ، كان أوله : بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم] ، سلام على من اتبع الهدى . أما بعد ، [فإنى أدعوك بدعاية الإسلام] ، فأسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين .

وكذلك لما كتب مسيلمة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً صورته : « من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ، سلام عليك . أما بعد ، فإنى قد أشركت فى الأمر معك ، فلك المدر ولى الوبر ، ولكن قريش قوم يعتدون» . فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين(٣)» .

ولهذا قال موسى وهارون عليهما السلام لفرعون : (والسلام على من اتبع الهدى . إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى) ، أى : قد أخبرنا الله فيما أوحاه إلينا من الوحى المعصوم أن العذاب متمحض لمن كذب بآيات الله وتولى عن طاعته ، كما قال تعالى : (فأما من طغى . وآثر الحياة الدنيا . فإن الجحيم هى المأوى(٤)) ، وقال تعالى : (فأنذرتكم

---

(١) البطال ــ كشداد ــ : ذو الباطل ، والشجاع .

(٢) كذا فى مخطوطة الأزهر ، وتحت اللامين نحو النقطتين ، وفى الطبعات السابقة : « الطفيل » ، ولم نجده فيما أتيح لنا من المعاجم .

(٣) سيرة ابن هشام : ٢/٦٠٠ ، ٦٠١ .

(٤) النازعات ، الآيات : ٣٧ ــ ٣٩ .

نارا تلظى : لايصلاها إلا الأشقى : الذى كذب وتولى)(١) ، وقال تعالى : (فلا صدق ولاصلى : ولكن كذب وتولى)(٢)، أى : كذب بقلبه وتولى بفعله .

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ۝﴾

يقول تعالى مخبراً عن فرعون أنه قال لموسى منكراً وجودَ الصانع الخالق ، إله كل شيء وربّه ومليكه ، قال : (فمن ربكما ياموسى) ، أى : الذى بعثك وأرسلك مَنْ هو ؟ فإنى لاأعرفه ، وما علمت لكم من إله غيرى ، (قال : ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : يقول : خلق لكل شيء زَوْجة(٣) .

وقال الضحاك عن ابن عباس : جعل الإنسان إنساناً ، والحمار حماراً ، والشاة شاة .

وقال ليث بن أبى سُلَيم ، عن مجاهد : أعطى كل شيء صورته .

وقال ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد : سَوّى خلق كل دابة .

وقال سعيد بن جبير فى قوله : (أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) ، قال : أعطى كل ذى خَلْق ما يصلحه من خَلْقه ، ولم يجعل للإنسان من خَلْق الدابة ، ولا للدابة من خلق الكلب ، ولا للكلب من خلق الشاة ، وأعطى كل شيء ما ينبغى له من النكاح ، وهيأ كلّ شيء على ذلك ، ليس شيء منها يشبه شيئاً من أفعاله فى الخَلْق والرزق والنكاح .

وقال بعض المفسرين : (أعطى كل شيء خَلْقه ثم هدى) كقوله تعالى : (الذى قدر فهدى)(٤) ، أى : قدر قدرا ، وهدى الخلائق إليه ، أى : كَتَب الأعمال والآجال والأرزاق ، ثم الخلائق ماشون على ذلك ، لايحيدون عنه ، ولايقدر أحد على الخروج منه . يقول : ربنا الذى خلق ، وقدر القَدَر ، وجَبَل الخَليقة على ما أراد .

(قال فما بال القرون الأولى) ، أصح الأقوال فى معنى ذلك أن فرعون لما أخبره موسى بأن ربه الذى أرسله هو الذى خلق ورزق وقدر فهدى ، شرع يحتج بالقرون الأولى ، أى : الذين لم يعبدوا الله ، أى : فمابالهم إذ كان الأمر كما تقول ، لم يعبدوا ربك ، بل عبدوا غيره ؟ فقال له موسى فى جواب ذلك : هم وإن لم يعبدوه فإن عملهم عند الله مضبوط عليهم ، وسيجزيهم بعملهم فى كتاب الله ، وهو اللوح المحفوظ وكتاب الأعمال ، (لايضل ربى ولاينسى) ، أى : لايشذ عنه شيء ، ولا يفوته صغير ولا كبير ، ولا ينسى شيئاً . يصف علمه تعالى بأنه بكل شيء محيط ، وأنه لاينسى شيئاً ، تبارك وتعالى وتقدس ، فإن علم المخلوق يعتريه نقصانان ، أحدهما : عدم الإحاطة بالشيء ، والآخر نسيانه بعد علمه ، فنزه نفسه عن ذلك .

---

(١) الليل ، الآيات : ١٤ — ١٦ .
(٢) القيامة ، آية : ٣١ ، ٣٢ .
(٣) تفسير الطبرى : ١٣١/١٦ .
(٤) سورة الأعلى ، آية : ٣ .

ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ * مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾

هذا من تمام كلام موسى فيما وصف به ربه عز وجل ، حين سأله فرعون عنه ، فقال : (الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) ، ثم اعترض الكلام بين ذلك ، ثم قال : (الذى جعل لكم الأرض مهادا) ، وفى قراءة بعضهم : (مَهْداً)(١) ، أى : قراراً تستقرون عليها [وتقومون وتنامون عليها] وتسافرون على ظهرها ، (وسلك لكم فيها سبلا) ، أى : جعل لكم طرقاً تمشون فى مناكبها ، كما قال تعالى : (وجعلنا فيها فجاجاً سبلا لعلهم يهتدون) (٢) .

(وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى) . أى : ألوان النباتات من زروع وثمار ، من حامض وحلو ، وسائر الأنواع .

(كلوا وارعوا أنعامكم) ، أى : شىء لطعامكم وفاكهتكم ، وشىء لأنعامكم لأقواتها خضرا ويابساً .

(إن فى ذلك لآيات) ، أى : لدلالات وحُجَجاً وبراهين (لأولى النهى) ، أى : لذوى العقول السليمة المستقيمة ، على أنه لاإله إلا الله ، ولا رب سواه .

(منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) ، أى : من الأرض مَبْدَؤكم ، فإن أباكم آدم مخلوق من تراب من أديم الأرض ، (وفيها نعيدكم) ، أى : وإليها تصيرون إذا متم وبليتم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى . (يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا) (٣) .

وهذه الآية كقوله تعالى : (قال : فيها تحيون ، وفيها تموتون ، ومنها تخرجون)(٤) .

وفى الحديث الذى فى السنن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حَضَرَ جنازة ، فلما دفن الميت أخذ قبضة من التراب فألقاها فى القبر ثم قال : (منها خلقناكم) . ثم [أخذ] أخرى وقال : (وفيها نعيدكم) . ثم أخرى وقال : (ومنها نخرجكم تارة أخرى) .

وقوله : (ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى) ، يعنى فرعون ، أنه قامت عليه الحجج والآيات والدلالات ، وعاين ذلك وأبصره ، فكذب بها وأباها كفرا وعنادا وبغيا ، كما قال تعالى : (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين)(٥) .

---

(١) قال أبو حيان ٦/٢٥١ : «وقرأ الأعمش ، وطلحة ، وابن أبى ليلى ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائى : (مهدا) ــ بفتح الميم وإسكان الهاء ــ وباقى السبعة : (مهادا) .

(٢) سورة الأنبياء ، آية : ٣١ .

(٣) سورة الإسراء ، آية : ٥٢ .

(٤) سورة الأعراف ، آية : ٢٥ .

(٥) سورة النمل ، آية : ١٤ .

قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾

يقول تعالى مخبراً عن فرعون أنه قال لموسى حين أراه الآية الكبرى ، وهي إلقاء عصاه فصارت ثعبانا عظيما ، ونزع يده من تحت جناحه فخرجت بيضاء من غير سوء،فقال : هذا سحر ، جئت به لتسحرنا وتستولى به على الناس، فيتبعونك وتكاثرنا بهم ، ولايتم هذا معك ، فإن عندنا سحراً مثل سحرك ، فلا يغرنك ما أنت فيه ، (فاجعل بيننا وبينك موعدا) ، أي : يوما نجتمع نحن وأنت فيه ، فنعارض ما جئت به بما عندنا من السحر في مكان معين ووقت معين . فعند ذلك (قال) لهم موسى : (موعدكم يوم الزينة) ، وهو يوم عيدهم ونَوْرُوزهم[1] وتفرغهم من أعمالهم واجتماعهم جميعهم ، ليشاهد الناس قدرة الله على ما يشاء ، ومعجزات الأنبياء ، وبطلان معارضة السحر لخوارق العادات النبوية ، ولهذا قال : (وأن يحشر الناس) ، أي : جميعهم (ضُحَى) ، أي : ضَحْوَة من النهار ليكون أظهر وأجلى وأبين وأوضح . وهكذا شأن الأنبياء، كل أمرهم واضح بين،ليس فيه خفاء ولا ترويج[2] ؛ ولهذا لم يقل : « ليلا» ، ولكن نهارا ضحى .

قال ابن عباس : وكان يوم الزينة يوم عاشوراء .

وقال السدي ، وقتادة ، وابن زيد : كان يوم عيدهم .

وقال سعيد بن جبير : يوم سوقهم .

ولا منافاة . قلت : وفي مثله أهلك الله فرعون وجنوده ، كما ثبت في الصحيح .

وقال وهب بن منبه : قال فرعون : ياموسى ، اجعل بيننا وبينك أجلا ننظر فيه . قال موسى : لم أومَرْ بهذا ، إنما أمرت بمناجزتك[3] . إن أنت لم تخرج دخلت إليك . فأوحى الله إلى موسى أن اجعل بينك وبينه أجلا ، وقل له أن يجعل هو . قال فرعون : اجعله إلى أربعين يوماً . ففعل .

وقال مجاهد ، وقتادة : (مكاناً سوى) : مَنْصَفاً : وقال السدي : عدلا : وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : (مكاناً سوى) : يتبين الناس ما فيه ، لايكون صَوَب[4] ولا شيء يتغيَّب[5] بعضَ ذلك [عن بعض] مستوحتى يُرَى .

---

(١) النوروز : أول يوم من السنة ، وقد عرب إلى : نيروز .

(٢) روج الشيء وروج به : عجل ، وأمر مروج : مختلط .

(٣) المناجزة : المقاتلة والمخاصمة .

(٤) في المخطوطة والطبعات السابقة : « صوت » والمثبت من تفسير الطبري . والصوب - بضم الصاد وفتح الواو - جمع صوبة - بضم فسكون ، وهي الكثبة من تراب وغيره . (اللسان) .

(٥) كذا في مخطوطة الأزهر ، ومثله في الدر المنثور : ٣/٣٠٣ ، وفي تفسير الطبري : « فيغيب » .

فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن فرعون أنه لما تواعد هو بموسى عليه السلام إلى وقت ومكان معلومَين ، تولى ، أي : شرع فى جمع السحرة من مدائن مملكته ، كل من ينسب إلى سحر فى ذلك الزمان . وقد كان السحر فيهم كثيراً نافقاً جداً ، كما قال تعالى : (وقال فرعون : ائتونى بكل ساحر عليم(١)) .

(ثم أتى) ، أى : اجتمع الناسُ لميقات يوم معلوم وهو يوم الزينة ، وجلس فرعون على سرير مملكته ، واصطف له أكابر دولته ، ووقفت الرعايا يمنة ويسرة ، وأقبل موسى عليه السلام يتوكأ على عصاه ، ومعه أخوه هارون ، ووقف السحرة بين يدى فرعون صفوفاً ، وهو يحرضهم ويحثهم ، ويُرَغِّبهم فى إجادة عملهم فى ذلك اليوم ، وَيَتَمَنَّون عليه ، وهو يعدهم ويمنيهم ، فيقولون : (أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين ؟ قال : نعم ، وإنكم إذا لمن المقربين(٢)) ؛ (قال لهم موسى : ويلكم ، لا تفتروا على الله كذبا) ، أى : لاتُخَيِّلوا للناس بأعمالكم إيجادَ أشياء لاحقائق لها ، وأنها مخلوقة وليست مخلوقة ، فتكونون قد كذبتم على الله ، (فيسحتكم بعذاب) ، أى : يهلككم بعقوبة هلاكا لا [بقية] له ، (وقد خاب من افترى ؛ فتنازعوا أمرهم بينهم) ، قيل : معناه أنهم تشاجروا فيما بينهم ، فقائل يقول : ليس هذا بكلام ساحر ، إنما هذا كلامُ نبى ؛ وقائل يقول : بل هو ساحر ؛ وقيل غير ذلك ، والله أعلم .

وقوله : (وأسروا النجوى) ، أى : تناجوا فيما بينهم، (قالوا : إن هذا لساحران) ــ هذه لغة لبعض العرب ، جاءت هذه القراءة على إعرابها . ومنهم من قرأ : (إن هذين لساحران) ، وهذه اللغةُ المشهورة ؛ وقد توسع النحاة فى الجواب عن القراءة الأولى بما ليس هذا موضعه(٣) .

والغرض أن السحرة قالوا فيما بينهم : تعلمون أن هذا الرجل وأخاه ــ يعنون موسى وهارون ــ ساحران عالمان خبيران بصناعة السحر ، يريدان فى هذا اليوم أن يغلباكم وقومكم ويستوليا على الناس ، وتتبعهما العامة ويقاتلا فرعون وجنوده ، فينتصرا عليه ويخرجاكم من أرضكم .

وقوله : (ويذهبا بطريقتكم المثلى) ، أى : ويستبدا بهذه الطريقة ، وهى السحر ، فإنهم كانوا مُعَظَّمين بسببها ، لهم أموال وأرزاق عليها ، يقولون : إذا غلب هذان أهلكاكم وأخرجاكم من الأرض ، وتفردا بذلك ، وتمحضت لهما الرياسة بها دونكم .

---

(١) سورة القصص ، آية : ٧٩ .

(٢) سورة الشعراء ، آية : ٤١ ، ٤٢ .

(٣) ينظر مغنى اللبيب : « إن» المكسورة المشددة ، الوجه الثانى . و« اللام المفردة» ، لام الابتداء . والباب الرابع فى ذكر أحكام يكثر دورها ، روابط الجملة بما هى خبر عنه . والباب الخامس : الجهة الثامنة ، والجهة العاشرة . والباب الثامن : القاعدة الأولى . والبحر المحيط لأبى حيان : ٦/٢٥٥ .

وقد تقدم فى حديث الفتون عن ابن عباس فى قوله : (ويذهبا بطريقتكم المثلى) ، يعنى : ملكهم الذى هم فيه والعيش

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا نعيم بن حماد ، حدثنا هشيم ، عن عبد الرحمن بن إسحاق، سمع الشعبى، يحدث عن على فى قوله : (ويذهبا بطريقتكم المثلى) ، قال : يصرفا وجوه الناس إليهما .

وقال مجاهد : (ويذهبا بطريقتكم المثلى) : قال : أولى الشرف والعقل والأسنان .

وقال أبو صالح : (بطريقتكم المثلى) : أشرافكم وسرواتكم . وقال عكرمة : بخيركم . وقال قتادة : وطريقتهم المثلى يومئذ بنو إسرائيل ، كانوا أكثر القوم عددا وأموالا ، فقال عدو الله : يريدان أن يذهبا بها لأنفسهما .

وقال عبد الرحمن بن زيد : (بطريقتكم المثلى) ، بالذى أنتم عليه (١) .

وقوله : (فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا) ، أى : اجتمعوا كلكم صفا واحداً ، وألقوا ما فى أيديكم مرّة واحدة ، لتبهروا الأبصار ، وتغلبوا هذا وأخاه ، (وقد أفلح اليوم من استعلى) ، أى : منا ومنه ، أما نحن فقد وعدنا هذا الملك العطاء الجزيل ، وأما هو فينال الرياسة العظيمة .

قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ ۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَـٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾

يقول تعالى مخبرا عن السحرة حين توافقوا هم وموسى عليه السلام أنهم قالوا لموسى : (إما أن تلقى) ، أى أنت أولا ، (وإما أن نكون أول من ألقى . قال : بل ألقوا) ، أى : أنتم أولا ليُرى ماذا تصنعون من السحر ، وليظهر للناس جلية أمرهم ، (فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) . وفى الآية الأخرى أنهم لما ألقوا ، (قالوا : بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون (٢)) ، وقال تعالى : (سحروا أعين الناس واسترهبوهم ، وجاءوا بسحر عظيم (٣)) : وقال هاهنا : (فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) .

وذلك أنهم أودعوها من الزئبق ما كانت تتحرك بسببه وتضطرب وتميد ، بحيث يخيل للناظر أنها تسعى باختيارها ، وإنما كانت حيلة ، وكانوا جما غفيراً وجمعاً كبيرا ، فألقى كل منهم عصا وحبلا ، حتى صار الوادى ملآن حيات يركب بعضها بعضا .

---

(١) انظر تفسير الطبرى : ١٦/١٣٧ ، ١٣٨ .
(٢) سورة الشعراء ، آية : ٤٤ .
(٣) سورة الأعراف ، آية : ١١٦ .

وقوله : (فأوجس فى نفسه خيفة موسى) ، أى : خاف على الناس أن يَفْتَتِنُوا بسحرهم ويغتروا بهم قبل أن يلقى ما فى يمينه ، فأوحى الله تعالى إليه فى الساعة الراهنة أن (ألق ما فى يمينك) — يعنى عصاه — (فإذا هى تلقف ما صنعوا) وذلك أنها صارت تنّيناً (١) عظيما هائلا ذا عيون وقوائم وعنق ورأس وأضراس ، فجعلت تتبع تلك الحبال والعصى حتى لم تبق منها شيئا إلا تلقفته وابتلعته ، والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك عياناً جَهْرَةً ، نهاراً ضحوة . فقامت المعجزة ، واتضح البرهان ، وبطل ما كانوا يعملون . ولهذا قال تعالى : (إنما صنعوا كيدُ ساحرٍ ولا يفلح الساحر حيث أتى) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا محمد بن موسى الشيبانى ، حدثنا حماد بن خالد ، حدثنا ابن معاذ — أحسبه الصائغ — عن الحسن ، عن جُنْدَب بن عبد الله البجلى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أخذتم (٢) — يعنى الساحر — فاقتلوه ، ثم قرأ : (ولا يفلح الساحر حيث أتى) ، قال : لا يؤمن به حيث وجد (٣) » .

وقد روى أصله الترمذىّ موقوفا ومرفوعاً (٤) .

فلما عاين السحرة ذلك وشاهدوه ، ولهم خبرة بفنون السحر وطرقه ووجوهه ، علموا علمَ اليقين أن هذا الذى فعله موسى ليس من قبيل السحر والحيل ، وأنه حق لا مرية فيه ، ولا يقدر على هذا إلا الذى يقول للشىء كن فيكون . فعند ذلك وقعوا سُجَّداً لله ، وقالوا : (آمنا برب العالمين . رب موسى وهرون (٥)) .

ولهذا قال ابن عباس ، وعُبَيد بن عُمَير : كانوا أول النهار سحرة ، وفى آخر النهار شهداء بررة .

قال محمد بن كعب : كانوا ثمانين ألفاً ، وقال القاسم بن أبى بَزَّة : كانوا سبعين ألفا .

وقال السدى : بضعة وثلاثين ألفا .

وقال الثورى : عن عبد العزيز بن رُفَيع ، عن أبى ثُمَامة : كان سحرة فرعون تسعة عشر ألفاً .

وقال محمد بن أبى إسحاق كانوا خمسة عشر ألفاً .

وقال كعب الأحبار : كانوا اثنى عشر ألفاً .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا محمد بن على بن حمزة ، حدثنا على بن الحسين بن واقد ، عن أبيه ، عن يزيد النحوى ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : كانت السحرة سبعين رجلا ، أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء .

---

(١) التنين : الحية العظيمة .

(٢) فى المخطوطة : « إذا أحكم » . والمثبت من الطبعات السابقة والدر المنثور : ٤/٣٠٣ .

(٣) فى الدر المنثور : « ولا يأمن حيث وجد » .

(٤) تحفة الأحوذى ، أبواب الحدود ، باب « ما جاء فى حد الساحر » ، الحديث ١٤٨٥ : ٥/٢٧ ، ٢٨ . من طريق الحسن عن جندب مرفوعاً ، ولفظه : « حد الساحر ضربة بالسيف » . وقال الترمذى : « هذا حديث لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه ... والصحيح عن جندب ، موقوف . والعمل على هذا عند بعض أهل العلم من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وغيرهم ، وهو قول مالك بن أنس . وقال الشافعى : « إنما يقتل الساحر إذا كان يعمل من سحره ما يبلغ الكفر ، فاذا عمل عملا دون الكفر فلم ير عليه قتلا » .

(٥) سورة الشعراء ، آية : ٤٧ ، ٤٨ .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا المسيب بن واضح بمكة ، حدثنا ابن المبارك قال : قال الأوزاعي : لما خرَّ السحرة سُجَّدا رُفعت لهم الجنة حتى نظروا إليها .

قال : وذُكر عن سعيد بن سلام : حدثنا إسماعيل بن عبد الله بن سليمان، عن سالم الأفطس، عن سعيد بن جبير : قوله : (وألقي السحرة سجدا) ، قال : رأوا منازلهم تبنى لهم وهم في سجودهم . وكذا قال عكرمة ، والقاسم بن أبي بزة .

قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾

يقول تعالى مُخبِرا عن كفر فرعون وعناده وبغيه ومكابرته الحقّ بالباطل، حين رأى ما رأى من المعجزة الباهرة والآية العظيمة ، ورأى الذين قد استنصر بهم قد آمنوا بحضرة الناس كلّهم وغُلِب كل الغلَب – شرع في المكابرة والبهت، وعدل إلى استعمال جاهه وسلطانه في السحرة ، فتهددهم وأوعدهم، وقال: (آمنتم له)، أي: صدقتموه (قبل أن آذن لكم)، أي : وما أمرتكم بذلك ، وافتتّم (١) عليّ في ذلك . وقال قولا يعلم هو والسحرة والخلق كلهم أنه بهْت وكذب :(إنه لكبيركم الذي علمكم السحر) ، أي : أنتم إنما أخذتم السحْر عن موسى ، واتفقتم أنتم وإياه عليّ وعلى رعيّتي ، لتظهروه ، كما قال في الآية الأخرى : (إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون (٢)) .

ثم أخذ يتهددهم فقال : (لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبنكم في جذوع النخل) ، أي : لأجعلنكم مثلة [ولأقتلنكم] ولأشهرنكم .

قال ابن عباس : فكان أول من فعل ذلك : رواه ابن أبي حاتم .

وقوله : (ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى) ، أي : أنتم تقولون : إني وقومي على ضلالة ، وأنتم مع موسى وقومه على الهدى . فسوف تعلمون من يكون له العذاب ويبقى فيه .

فلما صال عليهم بذلك وتوعدهم ، هانت عليهم أنفسهم في الله عز وجل ، و (قالوا : لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات) ، أي : لن نختارك على ما حصل لنا من الهدى واليقين .

(والذي فطرنا) : يحتمل أن يكون قسما ، ويحتمل أن يكون معطوفا على البينات .

يعنون : لا نختارك على فاطرنا وخالقنا الذي أنشأنا من العدم، المبتدىء خلقنا من الطين ، فهو المستحق العبادةَ والخضوعَ لا أنت

---

(١) أي : عملتم دون أمري : يقال لكل من أحدث شيئاً في أمرك دونك : « قد افتات عليك فيه » .

(٢) سورة الأعراف ، آية : ١٢٣ .

(فاقض ما أنت قاض) ، أى : فافعل ما شئت وما وصلت إليه يدك ، (إنما تقضى هذه الحياة الدنيا) ، أى : إنما لك تسلط فى هذه الدار ، وهى دار الزوال ، ونحن قد رغبنا فى دار القرار .

(إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا)، أى : ما كان منا من الآثام ، خصوصاً ما أكرهتنا عليه من السحر لنعارض به آية الله تعالى ومعجزة نبيه .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا نُعيم بن حماد ، حدثنا سفيان بن عيينة ، عن أبى سعيد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس فى قوله : (وما أكرهتنا عليه من السحر) ، قال : أخذ فرعون أربعين غلاما من بنى إسرائيل ، فأمر أن يعلموا السحر بالفرَما (١) ، وقال : علموهم تعليا لا يعلمه أحد فى الأرض – قال ابن عباس : فهُم من الذين آمنوا بموسى ، وهم الذين قالوا : (آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا ، وما أكرهتنا عليه من السحر) .
وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (٢) .

وقوله : (والله خير وأبقى) ، أى : خير لنا منك ، (وأبقى) ، أى : أدوم ثوابا مما كنت وعدتنا ومنَّيتنا : وهو رواية عن ابن إسحاق رحمه الله .

وقال محمد بن كعب القرظى : (والله خير) ، أى : لنا منك إن أطيع ، (وأبقى) ، أى منك عذابا إن عُصِى .
وروى نحوه عن ابن إسحاق أيضا .

والظاهر أن فرعون – لعنه الله – صمم على ذلك وفعله بهم رحمهم الله : ولهذا قال ابن عباس وغيره من السلف : أصبحوا سحرة ، وأمسَوا شهداء .

إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾

الظاهر من السياق أن هذا من تمام ما وعظ به السحرةُ لفرعون ، يحذرونه من نقمة الله وعذابه الدائم السرمدى ، ويرغّبُونه فى ثوابه الأبدى المخلد ، فقالوا : (إنه من يأت ربه مجرما) ، أى : يلقى الله يوم القيامة وهو مجرم ، (فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى) . كقوله : (لا يقضى عليهم فيموتوا ، ولا يخفف عنهم من عذابها ، كذلك نجزى كل كفور (٣)) ، وقال : (ويتجنبها الأشقى . الذى يصلى النار الكبرى . ثم لا يموت فيها ولا يحيى (٤)) . وقال تعالى : (ونادوا : يا مالك ، ليقض علينا ربك ، قال : إنكم ماكثون (٥))

---

(١) الفرما بفتح الفاء والراء – : مدينة على الساحل ، من ناحية مصر .
(٢) ينظر تفسير الطبرى : ١٦/١٤٢ .
(٣) سورة فاطر ، آية : ٣٦ .
(٤) سورة الأعلى ، الآيات : ١١ – ١٣
(٥) سورة الزخرف ، آية : ٧٧ .

وقال الإمام أحمد بن حنبل : حدثنا إسماعيل ، أخبرنا سعيد بن يزيد ، عن أبي نَضْرَة ، عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما أهل النار الذين هم أهلها ، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، ولكن [ناس] تصيبهم النار بذنوبهم ، فتميتهم إماتة ، حتى إذا صاروا فحما ، أذن في الشفاعة ، فجيء بهم ضبائر ، ضبائر (١) ، فبُثُّوا(٢) على أنهار الجنة، فيقال : يا أهل الجنة ، أفيضوا عليهم : فينبتُون نبات الحَبَّة تكون في حَمِيل(٣) السيل » فقال رجل من القوم : كأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان بالبادية (٤) .

وهكذا أخرجه مسلم في كتابه الصحيح من رواية شعبة وبشر بن المفضل ، كلاهما عن أبي مَسْلَمة سعيد بن يزيد ، به (٥) .

وقال ابن أبي حاتم : ذُكر عن عبد الوارث بن عبد الصمد بن عبد الوارث قال : حدثنا أبي ، حدثنا حَيَّان ، سمعت سليمان التيمي ، عن أبي نَضْرَة ، عن أبي سعيد : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خَطَب فأتى على هذه الآية : (إنه من يأت ربه مجرما فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيي) ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أما أهلها الذين هم أهلها فلا فلا يموتون فيها ولا يحيون ، وأما الذين ليسوا من أهلها ، فان النار تمسهم ، ثم يقوم الشفعاء فيشفعون ، فتجعل الضبائر ، فيُؤتى بهم نهرا يقال له الحياة — أو : الحيوان — فينبتون كما ينبت القِثَّاء في حَمِيل السيل » .

وقوله : (ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات) ، أي : ومن لقي ربه يوم المعاد مؤمن القلب ، قد صدق ضميره بقوله وعمله ، (فأولئك لهم الدرجات العلى) أي : الجنة ذات الدرجات العاليات ، والغرف الآمنات ، والمساكن الطيبات .

قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، أنبأنا همام ، حدثنا زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن عبادة بن الصامت ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض . والفردوس أعلاها درجة ، ومنها تخرج الأنهار الأربعة ، والعرش فوقها ، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس (٦) » .

ورواه الترمذي ، من حديث يزيد بن هارون ، عن همام ، به (٧) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي . حدثنا سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي ، أخبرنا خالد بن يزيد بن أبي مالك ، عن أبيه قال : كان يقال : الجنة مائة درجة ، في كل درجة مائة درجة ، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، فيهن الياقوت والحلي ، في كل درجة أمير ، يرون له الفضل والسؤدد .

---

(١) أي جماعات في تفرقة ، الواحدة : ضبارة ، مثل عمارة وعمائر ، وكل مجتمع : ضبارة .
(٢) كذا في مسلم . وفي مسند الإمام أحمد : « فنبتوا » .
(٣) تقدم تفسير « حميل السيل » في : ٢٨١/٣ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ١١/٣ .
(٥) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب « إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار » : ١١٨/١ .
(٦) مسند الإمام أحمد : ٣١٦/٥ .
(٧) تحفة الأحوذي ، باب ما جاء في صفة درجات الجنة » ، الحديث ٢٦٤٩ : ٢٣٤/٧ ، ٢٣٥ ، وقال الترمذي : « هذا حديث حسن غريب » .

وفي الصحيحين : « أن أهل عليين ليَتَرون من فوقهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء ، لتفاضل ما بينهم ؛ قالوا : يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء ؟ قال : بلى ، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين »[1] . وفي السنن : « وإن أبا بكر وعمر لمنهم وأنعما »[2] :

وقوله : (جنات عدن) ، أي : إقامة . وهو بدل من الدرجات العلى ، (خالدين فيها) ، أي : ماكثين أبدا ، (وذلك جزاء من تزكى) ، أي : طهر نفسه من الدنس والخَبَث والشرك ، وعبد الله وحده لا شريك له ، وصدق المرسلين فيما جاءوا به من خَبَر وطلب .

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾

يقول تعالى مخبرا أنه أمر موسى عليه السلام ، حين أبى فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل ، أن يُسرى بهم في الليل ، ويذهب بهم من قبضة فرعون . وقد بسط الله هذا المقام في غير هذه السورة الكريمة .[3] وذلك أن موسى لما خرج ببني إسرائيل أصبحوا وليس منهم بمصر لا داع ولا مجيب ، فغضب فرعون غضبا شديدا وأرسَلَ في المدائن حاشرين ، أي : من يجمعون له الجندمن بلدانه ورَساتيقه[4] يقول : (إن هؤلاء لشرذمة قليلون . وإنهم لنا لغائظون[5]) . ثم لما جمع جنده واستوسق[6] له جيشُه ، ساق في طلبهم (فأتبعوهم مشرقين) ، أي : عند طلوع الشمس ، (فلما تراءى الجمعان) أي : نظر كل من الفريقين إلى الآخر ، (قال أصحاب موسى : إنا لمدركون . قال : كلا ، إن معي ربي سيهدين[7]) ، ووقف موسى ببني إسرائيل ، البحرُ أمامهم ، وفرعون وراءهم ، فعند ذلك أوحى الله إليه أن (اضرب لهم طريقا في البحر يبسا) ، فضرب البحر بعصاه ، وقال : « انفلق باذن الله » ، (فانفلق فكان كل فرْق كالطود العظيم[8] أي : الجبل العظيم : وأرسل الله الريح على أرض البحر فلفحته حتى صار يابسا كوجه الأرض ، ولهذا قال : (فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا لا تخاف دركا) ، أي : من فرعون ، (ولا تخشى) ، يعني من البحر أن يُغرق قومك .

ثم قال تعالى : (فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم)،أي: البحر (ما غشيهم) ، أي:الذي هو معروف ومشهور، وهذا يقال عند الأمر المعروف المشهور ، كما قال تعالى : (والمؤتفكة أهوى . فغشاها ما غشى[9]) وكما قال الشاعر :

« أنا أبُو النَّجْم وَشعْري شعْري »

---

(١) البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب « ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة » : ١٤٥/٤ . ومسلم ، كتاب الجنة ، باب تراائي أهل الجنة أهل الغرف ، كما يرى الكوكب في السماء » : ١٤٥/٨ .

(٢) سنن أبي داود ، كتاب الحروف والقراءات ، الحديث ٣٩٨٧ : ٣٤/٤ . وسنن ابن ماجه ، المقدمة ، باب « في فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم » ، الحديث ٩٦ : ٣٧/١ . ومسند الإمام أحمد : ٢٦/٣ ، ٢٧ .

(٣) سورة الشعراء ، آية : ٥٢ . والدخان ، آية : ٢٣ .

(٤) الرساتيق : القرى .

(٥) سورة الشعراء ، الآيات : ٥٣ – ٥٥ .

(٦) أي : اجتمع .

(٧) سورة الشعراء ، الآيات : ٦٠ – ٦٢ .

(٨) سورة الشعراء ، آية : ٦٣ .

(٩) سورة النجم ، آية : ٥٤ ، ٥٥ .

أى : الذى يعرف ، وهو مشهور .

وكما تقدمهم فرعون فسلك بهم فى اليم فأضلهم وما هداهم إلى سبيل الرشاد ، كذلك (يَقْدُمُ قومَه يوم القيامة ، فأوردهم النار ، وبئس الورد المورود [١]) .

يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾

يذكر تعالى نعَمه على بنى إسرائيل العظام ، ومننه الجسام ، حيث نَجَّاهم من عدوهم فرعون ، وأقر أعينهم منه ، وهم ينظرون إليه وإلى جنده قد غرقوا فى صَبيحة واحدة ، لم ينج منهم أحد ، كما قال : (وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون [٢]) .

وقال البخارى : حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا روح بن عبادة ،حدثنا شعبة ، حدثنا أبو بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة واليهودُ تصوم عاشوراء ، فسألهم فقالوا : هذا اليوم الذى أظهر الله فيه موسى على فرعون، فقال : « نحن أولى بموسى ، فصوموه »[٣] رواه مسلم أيضا فى صحيحه[٤] .

ثم إنه تعالى واعد موسى وبنى إسرائيل بعد هلاك فرعون إلى جانب الطور الأيمن ، وهو الذى كلمه تعالى عليه وسأل فيه الرؤية ، وأعطاه التوراة هناك . وفى غُضُون ذلك عَبَد بنو إسرائيل العجل ، كما يقصه تعالى قريبا .

وأما المن والسلوى ، فقد تقدم الكلام على ذلك فى سورة « البقرة [٥] » وغيرها . فالمن : حَلْوى كانت تنزل عليهم من السماء . والسَّلوى : طائر يسقط عليهم ، فيأخذون من كلٍّ ، قدر الحاجة إلى الغد ، لُطْفاً من الله ، ورحمةً بهم ، وإحسانا إليهم . ولهذا قال تعالى : (كلوا من طَيِّبات مارزقناكم ، ولا تطغوا فيه فيحلَّ عليكم غضبى) ، أى : كلوا من هذا الذى رزقتكم ، ولا تطغَوا فى رزقى ، فتأخذوه من غير حاجة ، وتخالفوا ما آمركم به ، (فيحل عليكم غضبى) ، أى : أغضب عليكم ، (ومن يحلل عليه غضبى فقد هوَى) — قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : أى فقد شَقِىَ [٦] .

وقال شُفَىّ بن ماتع : إن فى جهنم قصرا يرمى الكافر من أعلاه ، فيهوى فى جهنم أربعين خريفا قبل أن يبلغ الصَّلصال ، وذلك قوله : (ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى) . رواه ابن ابى حاتم .

---

(١) سورة هود ، آية : ٩٨ .

(٢) سورة البقرة ، آية : ٥٠ .

(٣) البخارى ، تفسير سورة طه : ٦ / ١٢٠ ، ١٢١ .

(٤) مسلم كتاب الصيام ، باب « صوم يوم عاشوراء » : ٣ / ١٤٩ .

(٥) تقدم فى سورة البقرة ، الآية ٥٧ : ١/ ١٣٤ وما بعدها ، سورة الأعراف ، الآيه ١٦٠ : ٣/ ٤٩١ .

(٦) تفسير الطبرى : ١٦ / ١٤٥ .

وقوله : (وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا) ، أى : كلّ من تاب إلى تبتُ عليه من أىّ ذنب كان، حتى إنه تعالى تاب على من عبد العجل من بنى إسرائيل .

وقوله : (تاب) ، أى : رجع عما كان فيه من كفر أو شرك أو نفاق أو معصية .

وقوله : (وآمن) ، أى : بقلبه ، (وعمل صالحا) ، أى : بجوارحه .

وقوله : (ثم اهتدى) ــ قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : أى ثم لم يشكك .

وقال سعيد بن جُبير : (ثم اهتدى) ، أى : استقام على السنة والجماعة . ورُوى نحوه عن مجاهد ، والضحاك ، وغير واحد من السلف .

وقال قتادة : (ثم اهتدى) ، أى : لزم الإسلام حتى يموت .

وقال سفيان الثورى : (ثم اهتدى) ، أى : علم أن لهذا ثوابا .

وثم هاهنا لترتيب الخبر على الخبر ، كقوله : (ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة (١)) .

﴿ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾

لما سار موسى عليه السلام ببنى إسرائيل بعد هلاك فرعون ، وافوا (على قوم يعكفون على أصنام لهم ، فقالوا : يا موسى ، اجعل لنا إلها كما لهم آلهة . قال : إنكم قوم تجهلون . إن هؤلاء متبر ماهم فيه ، وباطل ما كانوا يعملون (٢)) ، وواعده ربه ثلاثين ليلة ثم أتبعها (٣) له عشرا ، فتمت أربعين ليلة ، أى : يصومها ليلا ونهارا . وقد تقدم فى حديث « الفتون » بيان ذلك . فسارع موسى عليه السلام مبادرا إلى الطور ، واستخلف على بنى إسرائيل أخاه هارون ، ولهذا قال تعالى : (وما أعجلك عن قومك يا موسى ؟ قال : هم أولاء على أثرى) ، أى : قادمون ينزلون قريبا من الطور ، (وعجِلت إليك رب لترضى) ، أى : لتزداد عنى رضا . (قال : فإنا قد فتنا قومك من بعدك ، وأضلهم السامرى) .

---

(١) فى تفسير ابن كثير : « كقوله : ثم كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات » . وليست آية ، وما أثبتناه هو الآية ١٧ من سورة البلد .

(٢) سورة الأعراف ، الآية : ١٣٧ ، ١٣٨ .

(٣) فى المخطوطة : « ثم أتمها » . والمثبت عن الطبعات السابقة .

أخبر تعالى لنبيه موسى بما كان بعده من الحدث فى بنى إسرائيل ، وعبادتهم العجل الذى عمله لهم ذلك السامرىّ . وفى الكتب الاسرائيلية : أنه كان اسمه هارون أيضا ، وكتب الله تعالى له فى هذه المُدّة الألواح المتضمنة التوراة ، كما قال تعالى : (وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء ، فخذها بقوة ، وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ، سأريكم دار الفاسقين (١)) ، أى : عاقبة الخارجين عن طاعتى المخالفين لأمرى .

وقوله : (فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا) ، أى : بعد ما أخبره تعالى بذلك ، فى غاية الغضب والحنَق عليهم ، هو فيما هو فيه من الاعتناء بأمرهم ، وتَسَلّم التوراة التى فيها شريعتهم ، وفيها شرف لهم ؛ وهم قوم قد عبدوا غير الله ما يَعْلَمُ كل عاقل له لب بطلان [ماهم (٢) فيه] وسخافة عقولهم وأذهانهم ؛ ولهذا رجع إليهم غضبان أسفا ، والأسف : شدة الغضب .

وقال مجاهد (غضبان أسفا) ، أى : جزعا ؛ وقال قتادة ، والسُّدّى (أسفا) ، أى : حزينا على ما صنع قومه من بعده (٣) .

(قال : يا قوم ، ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا) ، أى : أما وعدكم على لسانى كلّ خير فى الدنيا والآخرة ، وحسن العاقبة كما قد شاهدتم من نصرته إياكم على عدوكم ، وإظهاركم عليه ، وغير ذلك من أياديه عندكم ؟ (أفطال عليكم العهد) ، أى : فى انتظار ما وعدكم الله ، ونسيان ماسلف من نِعَمه ، وما بالعهد من قدم ؛ (أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم) — أم : هاهنا بمعنى بل ، وهى للإضراب عن الكلام الأول ، وعدول إلى الثانى ، كأنه يقول : بل أردتم بصنيعكم هذا أن يَحِلّ عليكم غضب من ربكم (فأخلفتم موعدى : قالوا) ، أى : بنو إسرائيل فى جواب ما أنبهم موسى وقرّعهم : (ما أخلفنا موعدك بملكنا) ، أى : عن قدرتنا واختيارنا .

ثم شرعوا يعتذرون بالعذر البارد ، يخبرون عن تورعهم عما كان بأيديهم من حُلِىّ القبط الذى كانوا قد استعاروه منهم ، حين خرجوا من مصر ، (فقذفناها) ، أى : ألقيناها عنا . وقد تقدم فى حديث « الفتون » أن هارون عليه السلام هو الذى كان أمرهم بالقاء الحلى فى حفيرة فيها نار .

وفى رواية السدّى ، عن أبى مالك ، عن ابن عباس : إنما أراد هارون أن يجتمع الحلى كله فى تلك الحفيرة ، ويجعل حجَرا واحدا ، حتى إذا رجع موسى يرى فيه ما يشاء . ثم جاء ذلك السامرى فألقى عليها تلك القبضة التى أخذها من أثر الرسول ، وسأل هارون أن يدعو الله أن يستجيب له فى دعوته ، فدعا له هارون — وهو لا يعلم ما يريد — فأجيبَ له ، فقال السامرى عند ذلك : أسأل الله أن يكون عجْلاً . فكان عجلا له خُوار ، أى : صوت ، استدراجا وإمهالا ومحنة واختبارا ، ولهذا قالوا : (فكذلك ألقى السامرى . فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عبَادة بن البَخْتَرىّ ، حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا حمّاد ، عن سماك ، عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس : أن هارون مرّ بالسامرى وهو ينحت العجل ، فقال له : ماتصنع ؟ فقال :

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٤٥ .

(٢) فى المخطوطة : « بطلان ما لقيه » . والمثبت عن الطبعات السابقة .

(٣) تفسير الطبرى ١٤٦/١٦ .

أصنع مايضر ولا ينفع ، فقال هارون : اللهم أعطه ما سأل على مافى نفسه . ومضى هارون ، فقال السامرى : اللهم ، إنى أسألك أن يَخُورَ ، فخارَ ، فكان إذا خار سجدوا له ، وإذا خار رفعوا رءوسهم .

ثم رواه من وجه آخر عن حماد ، وقال : [أعمل] ماينفع ولا يضر .

وقال السدى : كان يخور ويمشى .

فقالوا — أى : الضُّلَّال منهم ، الذين افتتنوا بالعجل وعبدوه — : (هذا إلهكم وإله موسى فنسى) ، أى : نسيه هاهنا ، وذهب يتطلبه ، كذا تقدم فى حديث « الفتون » عن ابن عباس ؛ وبه قال مجاهد .

وقال سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : (فنسى) ، أى : نسى أن يذكركم أن هذا إلهكم .

وقال محمد بن إسحاق ، عن حكيم بن جُبَيْر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فقالوا : (هذا إلهكم وإله موسى) ، قال : فعكفوا عليه وأحبّوه حبا لم يحبوا شيئا قط يعنى مثله، يقول الله : (فنسى) ، أى : ترك ما كان عليه من الإسلام ، يعنى السامرى (١) .

قال الله تعالى رَدّاً عليهم ، وتقريعا لهم ، وبيانا لفضيحتهم وسخافة عقولهم فيما ذهبوا إليه : (أفلا يرون أن لا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضراً ولا نفعا) ؟ أى : العجل ، (أفلا يرون) أنه لا يجيبهم إذا سألوه، ولا إذا خاطبوه ، (ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا) ، أى : فى دنياهم ولا فى أخراهم .

قال ابن عباس رضى الله عنه : لا والله ما كان خواره إلا أن يدخل الريح فى دبره فيخرج من فيه ، فيسمع له صوت .

وقد تقدم فى متون الحديث عن الحسن البصرى : أن هذا العجل اسمه بهموت .

وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة أنهم تورعوا عن زينة القبط ، فألقوها عنهم، وعبدوا العجل : فتورعوا عن الحقير وفعلوا الأمر الكبير ، كما جاء فى الحديث الصحيح عن ابن عمر : أنه سأله رجلٌ من أهل العراق عن دَم البعوض إذا أصاب الثَّوبَ — يعنى : هل يصلى فيه أم لا ؟ فقال ابن عمر رضى الله عنه : انظروا إلى أهل العراق ، قتلوا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم — يعنى الحسين — وهم يسألون عن دم البعوض ؟ (٢) .

وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾

يخبر تعالى عما كان من نَهْىِ هارون عليه السلام لهم عن عبادة العجل ، وإخباره إياهم : إنما هذا فتنة لكم ، (وإن ربكم الرحمن) الذى خلق كل شىء فقدره تقديراً ، ذو العرش المجيد ، الفعال لما يريد ، (فاتبعونى) ، أى : فيما آمركم به ، واتركوا ما أنهاكم عنه .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٦ / ١٤٩ .

(٢) البخارى ، كتاب الأدب ، باب « رحمة الولد وتقبيله ومعانقته » : ٨/٨ . ومسند الإمام أحمد : ٢/٩٣ ، ١١٤ .

(قالوا : لن نبرح عليه عاكفين ، حتى يرجع إلينا موسى) ، أى: لا نترك عبادته حتى نسمع كلام موسى فيه . وخالفوا هارون فى ذلك وحاربوه ، وكادوا أن يقتلوه .

قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾

يقول مخبراً عن موسى عليه السلام حين رجع إلى قومه ، فرأى ما قد حدث فيهم من الأمر العظيم ، فامتلأ عند ذلك غيظاً ، وألقى ما كان فى يده من الألواح الإلهية ، وأخذ برأس أخيه يجرّه إليه ، وقد قدمنا فى « الأعراف (١) » بسط ذلك ، وذكرنا هناك حديث : « ليس الخبر كالمعاينة » .

وشرع يلوم أخاه هارون فقال : (ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن) ، أى : فتخبرنى بهذا الأمر أول ما وقع ، (أفعصيت أمرى) ، أى : فيما كنت تقدمت إليك ، وهو قوله : (اخلفنى فى قومى وأصلح ، ولا تتبع سبيل المفسدين (٢)) :

قال : (يا ابن أم) ، تَرَقَّقَ له بذكر الام ،مع أنه شقيقه لأبويه ، لأن ذكر الأم ها هنا أرقّ وأبلغ ، أى : فى الحنو والعطف ، ولهذا قال : (يا ابن أم ، لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى إنى خشيت أن تقول : فرقت بين بنى إسرائيل ، ولم ترقب قولى) .

هذا اعتذار من هارون عند موسى فى سبب تأخره عنه ، حيث لم يلحقه فيخبره بما كان من هذا الخطب الجسيم ، (قال : إنى خشيت) أن أتبعك فأخبرك بهذا ، فتقول لى : لم تركتهم وحدهم وفرقت بينهم (ولم ترقب قولى) ، أى : وما راعيتَ ما أمرتك به حيث استخلفتك فيهم .

قال ابن عباس : وكان هائباً له مطيعا (٣) .

قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾

يقول موسى عليه السلام للسامرى : ما حملك على ما صنعت ؟ وما الذى عرض لك حتى فعلت ما فعلت ؟ .

قال محمد بن إسحاق ، عن حكيم بن جبير ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : كان السامرى رجلا من أهل

(١) ينظر : ٣/٤٧١ – ٤٧٥ .

(٢) سورة الأعراف ، آية : ١٤٢ .

(٣) تفسير الطبرى : ١٦/١٥٠ .

باجَرْما (١) ، وكان من قوم يعبدون البقر ، وكان حُبّ عبادة البقر فى نفسه ، وكان قد أظهر الإسلام مع بنى إسرائيل وكان اسم السامرى : موسى بن ظفر (٢) .

وفى رواية عن ابن عباس : كان من كرمان .

وقال قتادة : كان من قرية اسمها سامرا (٣) .

(قال : بصرت بما لم يبصروا به) ، أى : رأيت جبريل حين جاء لهلاك فرعون ،(فقبضت قبضة من أثر الرسول) أى من أثر فرسه . وهذا هو المشهور عند كثير من المفسرين أو أكثرهم .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عمَّار بن الحارث ، أخبرنا عبيد الله بن موسى ، أخبرنا إسرائيل ، عن السدى ، عن أبى بن عُمَارة ، عن على رضى الله عنه قال : إن جبريل عليه السلام لما نزل فصعد موسى إلى السماء ، بصر به السامرى من بين الناس ، فقبض قبضة من أثر الفرس ، قال : وحمل جبريلُ موسى خلفه ، حتى إذا دنا من باب السماء ، صَعد وكتب الله الألواح وهو يسمع صرير الاقلام فى الالواح . فلما أخبره أن قومه قد فُتنوا من بعده قال نزل موسى ، فأخذ العجل فأحرقه : غريب .

وقال مجاهد : (فقبضت قبضة من أثر الرسول) ، قال : من تحت حافر فرس جبريل . قال : والقبضة ملءُ الكف(٤) ، والقبضة بأطراف الأصابع .

قال مجاهد : لبد السامرىّ ، أى : ألقى ما كان فى يد، على حلية بنى إسرائيل ، فانسبك عجلا جسداً له خوارٌ حفيف الريح فيه ، فهو خواره .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنامحمد بن يحيى ، أخبرنا على بن المدينى ، حدثنا يزيد بن زُرَيع ، حدثنا عمارة ، حدثنا عكرمة : أن السامرى رأى الرسول ، فألقى فى رُوعه أنك إن أخذت من أثر هذا الفرس قبضة فألقيتها فى شئ ، فقلت له «كن فكان » ، فقبض قبضة من أثر الرسول ، فيبست أصابعه على القبضة ، فلما ذهب موسى للميقات ، وكان بنو إسرائيل استعاروا حلى آل فرعون ، فقال لهم السامرى : إنما أصابكم من أجل هذا الحلى ، فاجمعوه . فجمعوه فأوقدوا عليه ، فذاب ، فرآه السامرى فألقى فى رُوعه أنك لو قذفت هذه القبضة فى هذه فقلت «كن » ، كان . فقذف القبضة وقال : «كن » ، فكان عجلا له خوار ، فقال : (هذا إلهكم وإله موسى) .

---

(١) باجرما ـ بفتح الجيم ، وسكون الراء ، وميم ، وألف مقصورة ـ : قرية من أعمال البليخ ، قرب الرقة ، من ارض الجزيرة (مراصد الاطلاع) .

(٢) الأثر فى الدر المنثور : ٤/٣٠٥ .

(٣) سامرا : مدينة كانت بين بغداد وتكريت على شرق دجلة ، وكانت مدينة عتيقة من مدن الفرس ، ثم نزلها الخليفة العباسى المعتصم لما ضاقت بغداد بعسكره . ينظر معجم البلدان لياقوت .

(٤) كذا ، ويبدو أن قوله : « والقبضة ملء الكف . . . » من قول قتادة . ينظر أثر مجاهد وأثر قتادة فى تفسير الطبرى : ١٦/١٥١ ، ١٥٢ ، والدر المنثور : ٤/٣٠٧ .

ولهذا قال : (فنبذتها) ، أى : ألقيتها مع من ألقى ، (وكذلك سولت لى نفسى) ، أى : حسّنته وأعجبها إذ ذاك .

(قال : فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لا مساس) ، أى : كما أخذت ومَسِسْتَ ما لم يكن لك أخذه ومسّه من أثر الرسول ، فعقوبتك فى الدنيا أن تقول « لا مساس » ، أى : لا تماسّ الناسَ ولا يمَسّونك .

(وإن لك موعداً) ، أى : يوم القيامة ، (لن تخلفه) ، أى : لا محيد لك عنه .

قال قتادة : (أن تقول لا مساس) ، قال : عقوبة لهم ، وبقاياهم اليوم يقولون : لا مساس [1] .

وقوله : (وإن لك موعدا لن تخلفه) ، قال الحسن ، وقتادة ، وأبو نَهِيك : لن تغيب عنه .

وقوله : (وانظر إلى إلهك) ، أى : معبودك ، (الذى ظلت عليه عاكفا) ، أى : أقمت على عبادته ، يعنى العجل (لنحرقنه) — قال الضحاك عن ابن عباس ، والسدى : سَحَله [2] بالمبارد ، وألقاه على النار .

وقال قتادة : استحال العجل من الذهب لحما ودما ، فحرقه بالنار ، ثم ألقاه ، أى : رماده فى البحر ، ولهذا قال : (ثم لننسفنه فى اليم نسفا) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبد الله بن رجاء ، أنبأنا إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن عُمَارة بن عبد [3] وأبى عبد الرحمن ، عن على رضى الله عنه قال : إن موسى لما تعجل إلى ربه ، عمد السامرى فجمع ما قدر عليه من حلى نساء بنى إسرائيل ، ثم صوره عجلا ، قال : فعمد موسى إلى العجل ، فوضع عليه المبارد ، فبرده بها ، وهو على شط نهر ، فلم يشرب أحد من ذلك الماء ممن كان يعبد العجل إلا اصفر وجهه مثل الذهب . فقالوا لموسى : ما توبتنا ؟ قال : يقتل بعضكم بعضا .

وهكذا قال السدى : وقد تقدم فى تفسير سورة « البقرة » ، ثم فى حديث الفتون بسط ذلك .

وقوله : (إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شئ علما) ، يقول لهم موسى عليه السلام : ليس هذا إلهكم ، إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو ، أى : لا يستحق ذلك على العباد إلا هو ، ولا تنبغى العبادة إلا له ، فان كل شئ فقير إليه ، عبد لربه .

وقوله : (وسع كل شئ علما) ، نصب على التمييز ، أى : هو عالم بكل شئ ، (أحاط بكل شئ علما [4]) ، (وأحصى كل شئ عددا [5]) ، فلا (يعزب عنه مثقال ذرة [6]) ، (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات

---

(١) تفسير الطبرى : ١٦/١٥٢ .

(٢) أى : قشره ونحته وبرده .

(٣) عمارة بن عبد هذا مترجم فى كتاب الرجال ، وقد تقدم أثر ابن أبى حاتم هذا فى ١/١٨١ ، وفى سنده : « عمارة ابن عبدالله » ، فيصحح .

(٤) سورة الطلاق ، آية : ١٢ .

(٥) سورة الجن ، آية : ٢٨ .

(٦) سورة سبأ ، آية : ٣ .

الأرض ، ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين [١]) ، (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين [٢]) . والآيات في هذا كثيرة جداً .

كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾

يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : كما قصصنا عليك خبر موسى [٣] ، وما جرى له مع فرعون وجنوده على الجلية وبالأمر الواقع ، كذلك نقص عليك الأخبار الماضية كما وقعت من غير زيادة ولا نقص ، هذا (وقد آتيناك من لدنا) ، أي: عندنا (ذكراً) ، وهو القرآن العظيم ، الذي (لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد [٤]) ، الذي لم يعط نبي من الأنبياء [منذ بعثوا إلى أن ختموا [٥]] بمحمد صلى الله عليه وسلم تسليما ، كتابا مثله ولا أكمل منه ، ولا أجمع لخبر ما سبق وخبر ما هو كائن ، وحكم الفصل بين الناس منه . ولهذا قال تعالى : (من أعرض عنه) ، أي : كذب به وأعرض عن اتباعه أمرا وطلبا ، وابتغى الهدى في غيره ، فإن الله يضله ويهديه إلى سواء الجحيم ، ولهذا قال : (من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً) ، أي : إثماً ، كما قال تعالى : (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده [٦]) .

وهذا عام في كل من بلغه القرآن من العرب والعجم ، أهل الكتاب وغيرهم ، كما قال تعالى : (لأنذركم به ومن بلغ [٧]) ، فكل من بلغه القرآن فهو نذير له وداع ، فمن اتبعه هُدى ، ومن خالفه وأعرض عنه ضلّ وشقى في الدنيا ، والنار موعده يوم القيامة . ولهذا قال : (من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا . خالدين فيه) ، أي : لا مَحيد لهم عنه ولا انفكاك ، (وساءلهم يوم القيامة حملا) ، أي : وبئس الحمل حملهم .

يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾

ثبت في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الصور ، فقال : « قرن يُنفخ فيه [٨] » .

---

(١) سورة الأنعام ، آية : ٥٩.
(٢) سورة هود ، آية : ٦ .
(٣) في المخطوطة : « وحى موسى » . والمثبت من الطبعات السابقة .
(٤) سورة فصلت ، آية : ٤٢ .
(٥) ما بين القوسين المعقوفين من الطبعات السابقة ، ومكانه فراغ يسع كلمتين .
(٦) سورة هود ، آية : ١٧ .
(٧) سورة الأنعام ، آية : ١٩ .
(٨) تقدم الحديث في سورة الأنعام من مسند الإمام أحمد ، وخرجناه هنالك ، ينظر : ٣/٢٧٦ ، كما ينظر تفسير سورة الكهف : ٥/١٩٦ .

وقد جاء فى حديث « الصُّور » من رواية أبى هريرة : أنه قرن عظيم ، الدّارة(١) منه بقدر السموات والأرض ، ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام (٢) .

وجاء فى الحديث : « كيف أنعَمُ وصاحب القَرْن قد التقم القرن ، وحنى جبهته ، وانتظر أن يؤذن له » فقالوا : يا رسول الله ، كيف نقول ؟ قال : قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا » (٣) .

وقوله : (ونحشر المجرمين يومئذ زرقا) ، قيل : معناه : زُرْق العيون من شدة ما هم فيه من الأهوال .

(يتخافتون بينهم) ، قال ابن عباس : يتسارّون بينهم . أى : يقول بعضهم لبعض : (إن لبثتم إلا عشرا) ، أى : فى الدار الدنيا ، لقد كان لبثكم فيها قليلا ، عشرةَ أيام أو نحوها .

قال الله تعالى : (نحن أعلم بما يقولون) ، أى : فى حال تناجيهم بينهم ، (إذ يقول أمثلُهم طريقة) ، أى : العاقل الكامل فيهم ، (إن لبثتم إلا يوما) ، أى : لقصر مُدّة الدنيا فى أنفسهم [يوم المعاد ؛ لأن الدنيا كُلَّها وإن تكرّرتْ أوقاتها وتعاقَبَتْ لياليها وأيامها (٤)] وساعاتها كأنها يوم واحد ، ولهذا تُستقصر مُدّةُ الحياة الدنيا يوم القيامة : وكان غرضهم فى ذلك [دَرْء (٤)] قيام الحجة عليهم ، لقصر المدة ، ولهذا قال تعالى : (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون . وقال الذين أوتوا العلم والإيمان : لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث ، فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون (٥)) ، وقال تعالى : (أو لم نعمركم ما يتذكر فيه مَنْ تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير)(٦) ، وقال تعالى : (كم لبثتم فى الأرض عدد سنين . قالوا : لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين . قال : إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون) (٧) ، أى : إنما كان لُبثكم فيها قليلا ، لو كنتم تعلمون لآثرتم الباقى على الفانى ، ولكن تصرفتم فأسأتم التصرف ، قدّمتم الحاضر الفانى على الدائم الباقى .

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾

يقول تعالى : (ويسألونك عن الجبال) ، أى : هل تبقى يوم القيامة أو تزول ؟ (فقل : ينسفها ربى نسفا) ، أى : يذهبها عن أماكنها ويمحقها ويسيرها تسييرا ، (فيذرها) ، أى : الأرض (قاعا صفصفا) ، أى : بساطا واحداً .

والقاع : هو المستوى من الأرض . والصفصف تأكيد لمعنى ذلك ، وقيل : الذى لانبات فيه . والأول أولى ، وإن كان الآخر مرادا أيضا باللازم . ولهذا قال : (لاترى فيها عوجا ولا أمتا) ، أى : لاترى فى الأرض يومئذ

(١) الدارة والدائرة : ما أحاط بالشىء .

(٢) أخرجه الطبرانى ، وقد رواه ابن كثير بطوله فى سورة الأنعام : ٣/٢٧٦ — ٢٨٢ ، وقال : « هذا حديث غريب جداً » .

(٣) تقدم الحديث فى سورة الكهف : ٥/١٩٦ ، وخرجناه هنالك وشرحنا غريبه .

(٤) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة .

(٥) سورة الروم ، آية : ٥٥ ، ٥٦ .

(٦) سورة فاطر ، آية : ٣٧ .

(٧) سورة « المؤمنون » ، الآيات : ١١٢ — ١١٤ .

واديا ولا رابية ، ولا مكانا منخفضا ولا مرتفعا ، كذلك قال ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، والحسن البصرى ، والضحاك ، وقتادة ، وغير واحد من السلف (١) .

(يومئذ يتبعون الداعى لا عوج له) ، أى : يوم يرون هذه الأحوال والأهوال ، يستجيبون مسارعين إلى الداعى ، حيثما أمروا بادروا إليه ، ولو كان هذا فى الدنيا لكان أنفع لهم ، ولكن حيث لا ينفعهم ، كما قال تعالى : (أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا (٢)) ، وقال : (مهطعين إلى الداع يقول الكافرون : هذا يوم عسر (٣)) .

قال محمد بن كعب القُرَظى : يحشر الله الناس يوم القيامة فى ظلمة ، وتطوى السماء ، وتتناثر النجوم ، وتذهب الشمس والقمر ، وينادى مناد ، فيتبع الناس الصوت [يؤمونه (٤)] ، فذلك قوله : (يومئذ يتبعون الداعى لاعوج له)

وقال قتادة : (لاعوج له) ، لا يميلون عنه .

وقال أبو صالح : (لاعوج له) ، لاعوج عنه .

وقوله : (وخشعت الأصوات للرحمن) ، قال ابن عباس : سكنت (٥) : وكذا قال السدى .

(فلا تسمع إلا همسا) ، قال سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : يعنى وطء الأقدام . وكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، والضحاك ، والربيع بن أنس ، وقتادة ، وابن زيد ، وغيرهم .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (فلا تسمع إلا همساً) : الصوت الخفى : وهو رواية عن عكرمة، والضحاك .

وقال سعيد بن جبير : (فلا تسمع إلا همساً) : الحديث ، وسره ، ووطء الأقدام . فقد جمع سعيد كلا القولين وهو محتمل ، أما وطء الأقدام فالمراد سعى الناس إلى المحشر ، وهو مشيهم فى سكون وخضوع . وأما الكلام الخفى فقد يكون فى حال دون حال ، فقد قال تعالى : (يوم يأت لا تكلم نفس إلا باذنه ، فمنهم شقى وسعيد (٦)) .

يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ * وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾

يقول تعالى : (يومئذ) ، أى : يوم القيامة (لاتنفع الشفاعة) ، أى : عنده (إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا) ، كقوله : (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه(٧)) ، وقوله : (وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم

(١) ينظر تفسير الطبرى : ١٦/١٥٥ .
(٢) سورة مريم ، آية : ٣٨ .
(٣) سورة القمر ، آية : ٨ .
(٤) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة ، ومكانه فى المخطوطة بياض ، ولفظ الدر المنثور ٤/٣٠٨ : « فيسمع الناس الصوت يأتونه » .
(٥) تفسير الطبرى : ١٦/١٥٦ .
(٦) سورة هود ، آية : ١٠٥ .
(٧) سورة البقرة ، آية : ٢٥٥ .

شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى [١]) ، وقال : (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى[٢]) ، وقال : (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له [٣]) ، وقال : (يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن، وقال صوابا [٤]) .

وفى الصحيحين ، من غير وجه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو سيد ولد آدم ، وأكرم الخلائق على الله عز وجل أنه قال : « آتى تحت العرش ، وأخر لله ساجدا ، ويفتح على بمحامد لا أحصيها الآن ، فيدعنى ماشاء الله أن يدعنى ، ثم يقول : يا محمد ، ارفع رأسك ، وقل يسمع ، واشفع تشفع . قال : فيحد لى حدا ، فأدخلهم الجنة ، ثم أعود » ، فذكر أربع مرات ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء [٥] .

وفى الحديث : « يقول تعالى : أخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال حبة من إيمان : فيخرجون خلقا كثيرا ، ثم يقول : أخرجوا من النار من كان فى قلبه نصف مثقال من إيمان ، أخرجوا من النار من كان فى قلبه ما يزن ذرة ، من كان فى قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان » الحديث [٦] .

وقوله : (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) ، أى : يحيط علماً بالخلائق كلهم ، (ولا يحيطون به علماً) ، كقوله : (ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء [٧]) .

وقوله : (وعنت الوجوه للحى القيوم) — قال ابن عباس ، وغير واحد : خضعت وذلت واستسلمت [٨] الخلائق لجبارها الحى الذى لا يموت ، القيوم : الذى لا ينام ، وهو قيم على كل شىء ، يدبره ويحفظه ، فهو الكامل فى نفسه ، الذى كل شىء فقير إليه ، لا قوام له إلا به .

وقوله : (وقد خاب من حمل ظلما) ، أى : يوم القيامة ، فإن الله سيؤدى كل حق إلى صاحبه ، حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء [٩] .

وفى الحديث : « يقول الله تعالى : وعزتى وجلالى ، لا يجاوزنى اليوم ظلم ظالم » .

وفى الصحيح : « إياكم والظلم ، فان الظلم ظلمات يوم القيامة[١٠] ، والخيبة كل الخيبة لمن لقى الله وهو مشرك به ، فان الله تعالى يقول : « إن الشرك لظلم عظيم »[١١] .

---

(١) سورة النجم ، آية : ٢٦ .

(٢) سورة الانبياء ، آية ٢٨.

(٣) سورة سبأ ، آية : ٢٣ .

(٤) سورة النبأ ، آية : ٣٨ .

(٥) تقدم الحديث فى سورة الإسراء ، عند الآية ٧٩ ، وخرجناه ، هنالك ، ينظر : ٥/١٠٣ .

(٦) ينظر البخارى ، كتاب التوحيد ، باب كلام الرب عز وجل مع الأنبياء وغيرهم » : ٩/١٧٩ — ١٨١ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « أدنى أهل الجنة منزلة » : ١/١٢٥ — ١٢٧ . ومسند الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى : ٣/٩٤، ٩٥ .

(٧) سورة البقرة آية : ٢٥٥ .

(٨) تفسير الطبرى : ١٦/١٥٨ .

(٩) تقدم الحديث فى ذلك فى سورة النساء : ٢/٢٩٨ ، وخرجناه هنالك .

(١٠) أخرج مسلم عن جابر بن عبدالله أن رسول اللهصلى الله عليه وسلم قال : « اتقوا الظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة .. » ينظر كتاب البر ، باب « تحريم الظلم » : ٨/١٨ .

(١١) سورة لقمان ، آية : ١٣ .

وقوله : (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن ، فلا يخاف ظلما ولا هضما) ، لما ذكر الظالمين ووعيدهم ، ثنى بالمتقين وحكمهم، وهو أنهم لا يُظلَمون ولا يُهضَمون ، أى : لا يزاد فى سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم : قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، والحسن ، وقتادة ، وغير واحد . فالظلم : الزيادة بأن يحمل عليه ذنب غيره[١] والهضم : النقص .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾

يقول : ولما كان يوم المعاد والجزاء بالخير والشر واقعا لا محالة ، أنزلنا القرآن بشيراً ونذيرا ، بلسان عربى مبين فصيح ، لا لبس فيه ولاعىّ ، (وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون) ، أى : يتركون المآثم والمحارم والفواحش ، (أو يحدث لهم ذكرا) ، وهو إيجاد الطاعة وفعل القربات ، (فتعالى الله الملك الحق) أى : تنزه وتقدّس الملك الحق ، الذى هو حق ، ووعده حق ، ووعيده حق ، ورسله حق، والجنة حق ، والنار حق ، وكل شىء منه حق . وعدله تعالى أن لا يعذب أحدا قبل الإنذار وبعثة الرسل والإعذار إلى خلقه ، لئلا يبقى لأحد حجة ولا شبهة .

وقوله : (ولا تَعْجَلْ بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه) ، كقوله تعالى فى سورة « لا أقسم بيوم القيامة » : (لا تحرك به لسانك لتعجل به . إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه)[٢] ، وثبت فى الصحيح عن ابن عباس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعالج من الوحى شدة ، فكان مما يُحرّك لسانه ، فأنزل الله هذه الآية[٣] . يعنى أنه عليه السلام كان إذا جاءه جبريل بالوحى ، كلما قال جبريل آية قالها معه ، من شدة حرصه على حفظ القرآن ، فأرشده الله تعالى إلى ماهو الأسهل الأخف فى حقه ؛ لئلا يشق عليه ، فقال : (لا تحرك به لسانك لتعجل به ؛ إن علينا جمعه وقرآنه) ، أى : أن نجمعه فى صدرك، ثم تقرأه على الناس من غير أن تنسى منه شيئا، (فإذا قرأناه فاتبع قرآنه، ثم إن علينا بيانه) . وقال فى هذه الآية : (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه) ، أى : بل أنصت ، فإذا فرغ الملك من قراءته عليك فاقرأه بعده ، (وقل رب زدنى علما) : أى : زدنى منك علما .

قال ابن عُيَيْنة رحمه الله : ولم يزل صلى الله عليه وسلم فى زيادة ، حتى توَفّاه الله عز وجل .

ولهذا جاء فى الحديث : « إن الله تابع الوحى على رسوله ، حتى كان الوحى أكثر ما كان يوم تُوُفّى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم[٤] » .

---

(١) لفظ المخطوطة : « الزيادة بأن عمل عليه ظلم غيره . . . » .

(٢) سورة القيامة ، الآيات : ١٦ – ١٩ .

(٣) البخارى ، بدء الوحى : ٤/١ . وكتاب التوحيد ، باب قوله تعالى : « لا تحرك به لسانك » : ١٨٨،١٨٧/٩ . ومسلم ، كتاب الصلاة ، باب الاستماع للقراءة : ٣٤/٢ ، ٣٥ . ومسند الإمام احمد : ٣٤٣/١ .

(٤) البخارى ، كتاب فضائل القرآن ، باب « كيف نزل الوحى » : ٦ / ٢٢٤ . ومسلم ، كتاب التفسير : ٢٣٨/٨ . ومسند الإمام أحمد : ٢٣٦/٣ .

وقال ابن ماجه : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا عبد الله بن نُمَيْر ، عن موسى بن عُبَيْدة ، عن محمد ابن ثابت ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم ، انفعني بما علَّمتني وعلِّمني ما ينفعني ، وزدني علما ، والحمد لله على كل حال (١) » .

وأخرجه الترمذي ، عن أبي كريب ، عن عبد الله بن نمير ، به ، وقال : غريب من هذا الوجه (٢) . ورواه البزار عن عمرو بن علي الفلاس ، عن أبي عاصم ، عن موسى بن عُبَيْدة ، به . وزاد في آخره : « وأعوذ بالله من حال أهل النار (٣) » .

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا أسباط بن محمد ، حدثنا الأعمش ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : إنما سمي الإنسان لأنه عهد إليه فنسي (٤) . وكذا رواه علي بن أبي طلحة ، عنه .

وقال مجاهد ، والحسن : تَرَكَ (٥) .

وقوله : (وإذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم) ، يذكر تعالى تشريف آدم وتكريمه ، وما فضله به على كثير ممن خلق تفضيلا .

وقد تقدم الكلام على هذه القصة في سورة « البقرة » ، وفي « الأعراف » ، وفي « الحجْر » ، وفي « الكهف (٦) » .

---

(١) سنن ابن ماجه ، المقدمة ، باب « الانتفاع بالعلم والعمل » ، الحديث ٢٥١ : ١/٩٢ . وكتاب الدعاء ، باب « دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، الحديث ٣٨٣٣ : ٢/١٢٦٠ .

(٢) تحفة الأحوذي ، أبواب الدعوات ، الحديث ٣٦٦٩ : ١٠/٥٦ ، ٥٧ .

(٣) هذه الزيادة ثابتة في رواية ابن ماجه الثانية في كتاب الدعاء ، ولفظه : « وأعوذ بالله من عذاب النار » .

(٤) الأثر في تفسير الطبري : ١٦ / ١٦٠ من طريق الأعمش ، عن مسلم البطين ، عن سعيد بن جبير . والأعمش يروي عن سعيد بن جبير ، ومسلم بن عمران . وينظر التهذيب ، ترجمة سعيد بن جبير : ٤/١٢ ، وترجمة مسلم البطين : ١٠/١٣٤ .

(٥) رواية الطبري ١٦/١٦٠ عن مجاهد : « قال : ترك أمر ربه » .

(٦) ينظر تفسير سورة البقرة ، الآيات ٣٠ – ٣٨ : ١/٩٩ – ١١٧ . وسورة الأعراف ، الآيات ١١ – ٢٤ : ٣/٣٨٦ – ٣٩٥ . وسورة الحجر ، الآيات ٢٨ – ٤٠ : ٤/٤٥٢ ، ٤٥٣ . وسورة الإسراء ، الآيات ٦١ – ٦٥ : ٥/٩٠ – ٩٣ . وسورة الكهف ، الآية ٥٠ : ٥/١٦٣ – ١٦٥ .

وسيأتي في آخر سورة (ص (١)) ، يذكر فيها تعالى خلْقَ آدم وأمْرَه الملائكة بالسجود له تشريفا وتكريما ، ويبين عداوة إبليس لبني آدم ولأبيهم قديما ، ولهذا قال تعالى : (فسجدوا إلا إبليس أبى) ، أي : امتنع واستكبر ، (فقلنا : يا آدم ، إن هذا عدو لك ولزوجك) ، يعني حوّاء عليهما السلام ، (فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى) ، أي : إياك أن يسعى في إخراجك منها ، فتتعب وتَعْنَى وتَشْقَى في طلب رزقك ، فإنك هاهنا في عيش رغيد هنيء ، لا كلفة ولا مشقة .

(إنّ لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى) : إنما قَرَنَ بين الجوع والعُرْي ، لأن الجوعَ ذُلّ الباطن ، والعُرْيَ ذل الظاهر .

(وأنك لا تظمؤ فيها ولا تضحى) : وهذان أيضا متقابلان ، فالظمأ : حر الباطن ، وهو العطش ، والضحى : حر الظاهر .

وقوله : (فوسوس إليه الشيطان قال : يا آدم ، هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) : قد تقدم أنه (دلّاهما بغرور(٢)) ، (وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين (٣)) . وقد تقدم أن الله تعالى أوحى إلى آدم وزوجته أن يأكلا من كل الثمار ، ولا يقربا هذه الشجرة المعينّة في الجنة ، فلم يزل بهما إبليس حتى أكلا منها ، وكانت شجرةَ الخلد - يعني التي من أكل منها خلّد ودام مكثه ، وقد جاء في الحديث ذكر شجرة الخلد ، فقال أبو داود الطيالسي :

حدثنا شعبة ، عن أبي الضحاك ، سمعت أبا هُرَيرة يحدث ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن في الجنة شجرةً يسير الراكب في ظلها مائة عام ، مايقطعها وهي شجرة الخلد (٤) » ، ورواه الإمام أحمد (٥) .

وقوله : (فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما) ، قال ابن أبي حاتم :

حدثنا علي بن الحسين بن إشكاب ، حدثنا علي بن عاصم ، عن سعيد بن أبي عَرُوبة ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن أبيّ بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله خلق آدم رجلا طُوَالا ، كثير شعر الرأس ، كأنه نخلة سَحُوق ، فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه ، فأول ما بدا منه عورته ، فلما نظر إلى عورته جعل يشتدّ في الجنة ، فأخذتْ شعرَه شجرة ، فنازعها ، فناداه الرحمنُ : يا آدم ، منّي تفر ؟ فلما سمع كلام الرحمن قال : يارب لا ، ولكن استحياء ، أرأيتَ إن تبتُ ورجعت ، أعائدي إلى الجنة ؟ قال : نعم » ، فذلك قوله : (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه (٦)) .

---

(١) وذلك في الآيات : ٧١ – ٨٥ .
(٢) سورة الأعراف ، آية : ٢٢ .
(٣) سورة الأعراف ، آية : ٢١ .
(٤) منحة المعبود ، باب « صفة الجنة ونعيم أهلها » ، الحديث ٢٨٤٣ : ٢/٢٤٢ .
(٥) مسند الإمام أحمد : ٢/٤٥٥ ، ٤٦٢ .
(٦) تقدم الحديث في سورة البقرة : ١/١١٤ ، وشرحنا غريبه هنالك .

وهذا منقطع بين الحسن وأبي بن كعب ، فلم يسمعه منه ، وفى رفعه نظر أيضا .

وقوله : (وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) ، قال مجاهد : يرقعان كهيئة الثوب ، وكذا قال قتادة ، والسدّى .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا جعفر ، عن عون ، حدثنا سفيان ، عن ابن أبى ليلى ، عن المنهال ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : (وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) ، قال : ينزعان ورق التين ، فيجعلانه على سوآتهما .

وقوله : (وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) ، قال البخارى :

حدثنا قتيبة ، حدثنا أيوب بن النجار ، عن يحيى بن أبى كثير ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « حاجّ موسى آدم ، فقال له : أنت الذى أخرجتَ الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم ؟ قال آدم : يا موسى ، أنت الذى اصطفاك الله برسالاته وبكلامه ، أتلومنى على أمر قد كتبه الله على قبل أن يخلقنى ــ أو : قدره الله علىّ قبل أن يخلقنى ــ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فحجّ آدمُ موسى [1] » .

وهذا الحديث له طرق فى الصحيحين [2] ، وغيرهما من المسانيد .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرنى أنس بن عياض ، عن الحارث ابن أبى ذُبابَ ، عن يزيد بن هُرمُز قال : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حجّ آدم وموسى عند ربهما ، فحجّ آدمُ موسى ، قال موسى : أنت الذى خلقكَ الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، وأسكنك فى جنته ، ثم أهبطتَ الناس إلى الأرض بخطيئتك . قال آدم : أنت موسى الذى اصطفاك الله برسالته وكلامه ، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شىء ، وقربك نجيًّا ، فبكم وجدتَ الله كتب التوراة [قبل أن أخلق] ؟ قال موسى : بأربعين عاما . قال آدم : فهل وجدتَ فيها (وعصى آدم ربه فغوى) ؟ قال : نعم . قال : أفتلومنى على أن عملتُ عملا كتب الله على أن أعمله قبل أن يخلقنى بأربعين سنة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فحجّ آدم موسى .

قال الحارث : وحدثنى عبد الرحمن بن هُرمُز بذلك ، عن أبى هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾

يقول تعالى لآدم وحواء وإبليس : اهبطوا منها جميعا ، أى : من الجنة كلكم . وقد بسطنا ذلك فى سورة « البقرة » .

(١) البخارى ، تفسير سورة « طه » : ١٢١/٦ .

(٢) ينظر تفسير الآية ٤١ من هذه السورة : ٢٨٧/٥ .

(بعضكم لبعض عدو) ، قال : آدم وذريته ، وإبليس وذريته (١) .

وقوله : (فإما يأتينكم منى هدى) ، قال أبو العالية : الأنبياء والرسل والبيان .

(فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى) ، قال ابن عباس : لا يضل فى الدنيا ، ولا يشقى فى الآخرة .

(ومن أعرض عن ذكرى) ، أى : خالف أمرى ، وما أنزلته على رسولى ، أعرض عنه وتناساه وأخذ من غيره هداه ، (فإن له معيشة ضنكا) ، أى : فى الدنيا ، فلا طمأنينة له ، ولا انشراح لصدره ، بل صدره حرج لضلاله ، وإن تنعم ظاهره ، ولبس ماشاء ، وأكل ماشاء ، وسكن حيث شاء ، فان قلبه مالم يخلص إلى اليقين والهدى ، فهو فى قلق وحيرة وشك ، فلا يزال فى ريبة يتردد ؛ فهذا من ضنك المعيشة .

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : (فإن له معيشة ضنكا) ، قال : الشقاء (٢) .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : (فإن له معيشة ضنكا) ، قال : كل مال (٣) أعطيته عبدا من عبادى ، قل أو كثر ، لا يتقينى فيه ، فلا خير فيه ، وهو الضنك فى المعيشة . ويقال (٤) : إن قوما ضلالا ، أعرضوا عن الحق ، وكانوا فى سعة من الدنيا متكبرين (٥) ، فكانت معيشتهم ضنكا ؛ ذلك أنهم كانوا يرون أن الله ليس مخلفا لهم معايشهم ، من سوء ظنهم بالله والتكذيب ، فاذا كان العبد يكذب بالله ، ويسيء الظن به والثقة به ، اشتدت عليه معيشته ، فذلك الضنك (٦) .

وقال الضحاك : هو العمل السيء ، والرزق الخبيث ؛ وكذا قال عكرمة ، ومالك بن دينار .

وقال سفيان بن عيينة ، عن أبى حازم ، عن أبى سلمة ، عن أبى سعيد فى قوله : (معيشة ضنكا) ، قال : يضيق عليه قبره ، حتى تختلف أضلاعه فيه ؛ وقال أبو حاتم الرازى : النعمان بن أبى عياش : يكنى أبا سلمة .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا صفوان ، حدثنا الوليد ، حدثنا عبد الله بن لهيعة ، عن دراج ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قول الله عز وجل : (فان له معيشة ضنكا) ، قال : ضمة القبر ؛ الموقوف أصح .

وقال ابن أبى حاتم أيضا : حدثنا الربيع بن سليمان ، حدثنا أسد بن موسى ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا ، دراج أبو السمح ، عن ابن حجيرة — اسمه عبد الرحمن — عن أبى هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « المؤمن فى قبره فى روضة خضراء ، ويرحب له فى قبره سبعون ذراعا ، وينور له قبره كالقمر ليلة البدر ، أتدرون فيم أنزلت

---

(١) قال الطبرى عند تفسير هذه الآية ١٦ / ١٦٣ : « يقول : أنتما عدو إبليس وذريته ، وإبليس عدوكما وعدو ذريتكما » .
(٢) تفسير الطبرى : ١٦/١٦٣ .
(٣) لفظ المخطوطة : « كل ما أعطيته . . » . والمثبت عن تفسير الطبرى : ١٦/١٦٤ والدر المنثور : ٤/٣١١ .
(٤) فى تفسير ابن كثير — مخطوطة وطبعات — : « ويقال أيضاً : إن . . » وكلمة « أيضاً » غير ثابتة فى تفسير الطبرى
(٥) فى تفسير الطبرى : « مكثرين » .
(٦) تفسير الطبرى : ١٦/١٦٤ .

هذه الآية : (فإن له معيشة ضنكا) ؟ أتدرون : ما المعيشة الضنك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : عذاب الكافر في قبره ، والذي نفسي بيده إنه ليسلط عليه تسعة وتسعون تِنِّينا ، أتدرون : ما التنين ؟ تسعة وتسعون حية ، لكل حية سبعة رءوس ينفخون(١) في جسمه ، ويلسعونه ويخدشونه إلى يوم يبعثون » .

رفعه منكر جداً .

وقال البزار : حدثنا محمد بن يحيى الأزدي ، حدثنا محمد بن عمرو ، حدثنا هشام بن سعد ، عن سعيد بن أبي هلال ، [عن ابن حُجَيرة](٢) ، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم في قول الله عز وجل : (فإن له معيشة ضنكا) ، قال : المعيشة الضنك الذي قال الله تعالى : أنه يسلط عليه تسعة وتسعون حية، ينهشون لحمه حتى تقوم الساعة » .

وقال أيضاً : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا أبو الوليد ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : (فإن له معيشة ضنكا) قال : عذاب القبر . إسناد جيد .

وقوله : (ونحشره يوم القيامة أعمى) ، قال مجاهد ، وأبو صالح ، والسدي : لا حجة له .

وقال عكرمة : عُمِّيَ عليه كل شيء إلا جهنم .

ويحتمل أن يكون المراد أنه يُحشَر أو يبعث إلى النار أعمى البصر والبصيرة أيضا ، كما قال تعالى : (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما ، مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا (٣)) ، ولهذا يقول : (رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً) ؟ أي : في الدنيا ، (قال : كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى) ، أي : لما أعرضت عن آيات الله ، وعاملْتَها معاملة من لم يذكرها ، بعد بلاغها إليك تناسيتها وأعرضت عنها وأغفلتها ، كذلك نعاملك معاملة مَنْ ينساك ، (فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا (٤)) ، فإن الجزاء من جنس العمل . فأما نسيان لفظ القرآن مع فهم معناه والقيام بمقتضاه ، فليس داخلا في هذا الوعيد الخاص ، وإن كان مُتَوَعداً عليه من جهة أخرى ، فإنه قد وَرَدَت السنة بالنهي الأكيد، والوعيد الشديد في ذلك ، قال الإمام أحمد :

حدثنا خلف بن الوليد ، حدثنا خالد ، عن يزيد بن أبي زياد ، عن عيسى بن فائد ، عن رجل ، عن سعد بن عبادة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مامن رجل قرأ القرآن فنسيه، إلا لقي الله يوم يلقاه وهو أجذم (٥) .

ثم رواه الإمام أحمد من حديث يزيد بن أبي زياد،عن عيسى بن فائد، عن عبادة بن الصامت عن النبي صلى الله عليه وسلم فذكر مثله سواء (٦) .

---

(١) في المخطوطة : « يسبحون في جسمه » . والمثبت من الطبعات السابقة ، وينظر الدر المنثور : ٣١١/٤ .

(٢) ما بين القوسين من الطبعات السابقة .

(٣) سورة الاسراء آية : ٩٧ .

(٤) سورة الأعراف آية : ٥١ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٢٨٥/٥ .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٣٢٣/٥ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ .

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿١٢٧﴾﴾

يقول تعالى : وهكذا نجازى المسرفين المكذبين بآيات الله فى الدنيا والآخرة ، (لهم عذاب فى الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشق ، وما لهم من الله من واق (١)) ، ولهذا قال : (ولعذاب الآخرة أشد وأبقى) ، أى : أشد ألماً من عذاب الدنيا ، وأدوم عليهم، فهم مخلدون فيه ، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للمتلاعنين : « إن عذاب الدنيا أهونُ من عذاب الآخرة (٢) » .

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾

يقول تعالى : (أفلم يهد) لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به : يا محمد ، كم أهلكنا من الأمم المكذبين بالرسل قبلهم ، فبادوا ، فليس لهم باقية ولا عين ولا أثر ، كما يشاهدون ذلك من ديارهم الخالية التى خلفوهم فيها ، يمشون فيها ، (إن فى ذلك لآيات لأولى النهى) ، أى : العقول الصحيحة ، والألباب المستقيمة ، كما قال تعالى : (أفلم يسيروا فى الأرض ، فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تَعمَى الأبصار ، ولكن تَعمَى القلوب التى فى الصدور (٣))، وقال فى سورة « الم السجدة » : (أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم، إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون (٤)) .

ثم قال تعالى : (ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى) ، أى : لولا الكلمة السابقة من الله ، وهو أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، والأجل المسمى الذى ضربه الله تعالى لهؤلاء المكذبين إلى مدة معينة ، لجاءهم العذاب بغتة : ولهذا قال لنبيه مسليا له : (فاصبر على ما يقولون) ، أى : من تكذيبهم لك ، (وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس) ، يعنى صلاة الفجر ، (وقبل غروبها) يعنى صلاة العصر ، كما جاء فى الصحيحين ، عن جرير بن عبد الله البَجَلَى رضى الله عنه قال : كنا جلوساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنظر إلى القمر ليلة البدر ،

---

(١) سورة الرعد آية : ٣٤ .

(٢) مسلم ، كتاب اللعان ٤/٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ومسند أبى داود ، كتاب الطلاق ، باب « فى اللعان » ، الحديث ٢٢٥٥ : ٢٧٧/٣ . وتحفة الأحوذى ، تفسير سورة النور ، الحديث ٣٢٢٨ : ٩ / ١٤ ، ١٥ ، وكتاب الطلاق ، باب « ما جاء فى اللعان » ، الحديث ١٢١٤ : ٤/٣٨٦ – ٣٨٩ ، وقال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح » . ومسند الإمام أحمد : ٣٠٩/١ ، ٣١٥ ، ١٩/٢ .

(٣) سورة الحج ، آية : ٤٦ .

(٤) سورة السجدة ، آية : ٢٦ .

فقال : « إنكم ستَرون ربكم كما ترون هذا القمر ، لا تضامون(١) فى رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، فافعلوا » ، ثم قرأ هذه الآية(٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان بن عُيَيْنة ، عن عبد الملك بن عمير ، عن عمارة بن رُوَيْبَة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لن يَلِجَ النارَ أحدٌ صلى قبل طلوع الشمس ، وقبل غروبها (٣) » .

رواه مسلم من حديث عبد الملك بن عمير ، به(٤) .

وفى المسند والسنن ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أدنى أهل الجنة [منزلة] من ينظر فى ملكه مسيرة ألفى سنة ، ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه ، وإنّ أعلاهم منزلة لَمَنْ ينظُر إلى الله عز وجل فى اليوم مرتين(٥) » .

وقوله : (ومن آناء الليل فسبح) ، أى : من ساعاته فتَهَجّد به : وحمله بعضهم على المغرب والعشاء ، (وأطراف النهار) ، فى مقابلة آناء الليل ، (لعلك ترضى) ، كما قال تعالى : (ولسوف يعطيك ربك فترضى(٦)) .

وفى الصحيح : « يقول الله : يا أهل الجنة فيقولون : لبيكَ ربنا وسعدَيكَ . فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى ، وقد أعطيتنا ما لم تُعط أحداً من خلقك ؟ فيقول : إنى أعطيكم أفضلَ من ذلك . فيقولون : وأىّ شىء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى ، فلا أسخط عليكم بعده أبداً (٧) » .

وفى الحديث يقال : « يا أهل الجنة ، إن لكم عند الله موعدا يريد أن يُنْجِزَكُمُوه . فيقولون : وما هو ؟ ألم يبيض وجوهنا ، ويثقل موازيننا ، ويزحزحنا عن النار ، ويدخلنا الجنة ؟ فيكشف الحجاب ، فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم خيراً من النظر إليه ، وهى الزيادة (٨) » .

---

(١) تضامون ، يروى بتشديد الميم وتخفيفها ، فالتشديد معناه : لا ينضم بعضكم إلى بعض وتزدحمون وقت النظر إليه ، ومعنى التخفيف : لا ينالكم ضيم فى رؤيته ، فيراه بعضكم دون بعض . والضيم : الظلم .

(٢) البخارى ، كتاب المواقيت ، باب « فضل صلاة العصر » : ١/١٤٥ ، وتفسير سورة « ق » : ٦/١٧٣ ، وكتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : (وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة) : ٩/١٥٦ . ومسلم ، كتاب المساجد ، باب « فضل صلاتى الصبح والعصر والمحافظة عليهما » : ٢/١١٣ ، ١١٤ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٤/١٣٦ . وينظر : ٤/٢٦١ .

(٤) مسلم ، كتاب الصلاة ، باب « فضل صلاتى الصبح والعصر والمحافظة عليهما » : ٢/١١٤ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٢/١٣ ، وينظر أيضاً : ٢/٦٤ . وتحفة الأحوذى ، أبواب صفة الجنة ، باب « ماجاء فى رؤية الرب تبارك وتعالى » ، الحديث ٢٦٧٧ : ٧/٢٦٨ — ٢٧٠ ، وتفسير سورة القيامة ، الحديث ٣٣٨٦ : ٩/٢٤٩ ، ٢٥٠ ، وقال الترمذى : « وهذا حديث غريب ، وروى عبد الملك بن أبجر ، عن ثوير ، عن ابن عمر موقوفاً . ورواه عبيد الله الأشجعى عن سفيان عن ثوير ، عن مجاهد ، عن ابن عمر قوله ولم يرفعه » .

(٦) سورة الضحى ، آية : ٥ .

(٧) البخارى ، كتاب الرقاق ، باب « صفة الجنة والنار » : ٨/١٤٢ وكتاب التوحيد ، باب « كلام الرب مع أهل الجنة » ٩/١٨٤ ، ١٨٥ ، ومسلم ، كتاب الجنة ، باب « إحلال الرضوان على أهل الجنة فلا يسخط عليهم أبداً » . ٨/١٤٤ .

(٨) تقدم الحديث فى سورة يونس ، عند الآية ٢٦ ، وخرجناه هنالك . ينظر : ٤/١٩٩ .

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ : لا تنظر إلى هؤلاء المترفين وأشباههم ونظرائهم ، وماهم فيه من النعم ، فانما هو زهرة زائلة ، ونعمة حائلة ، لنختبرهم بذلك ، وقليل من عبادى الشكور .

وقال مجاهد : (أزواجا منهم) ، يعنى الأغنياء ، فقد آتاك خيرا مما آتاهم ، كما قال فى الآية الأخرى : (ولقد آتيناك سبعاً من المثانى والقرآن العظيم ، لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم(١)) ، وكذلكما ادخره تعالى لرسوله فى الدار الآخرةأمر عظيم لا يحد ولا يوصف ، كما قال تعالى : (ولسوف يعطيك ربك فترضى)(٢) ، ولهذا قال : (ورزق ربك خير وأبقى) .

وفى الصحيح أن عمر بن الخطاب لما دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تلك المَشْرُبة التى كان قد اعتزل فيها نساءه ، حين آلى منهن(٣) ، فرآه متوسداً مضطجعاً على رمال(٤) حصير ، وليس فى البيت إلا صُبْرَة من قَرَظ(٥) ، وأَهَب(٦)معلقة فابتدرت عينا عمر بالبكاء، فقال رسول الله ما يبكيك ؟ فقال : يا رسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه ، وأنت صفوة الله من خلقه ؟ فقال : أو فى شك أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم عُجّلت طيباتهم فى حياتهم الدنيا(٧) » .

فكان ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ أزهد الناس فى الدنيا مع القدرة عليها ، إذا حصلت له ينفقها هكذا وهكذا ، فى عباد الله ، ولم يدخر لنفسه شيئاً لغد .

وقال ابن أبى حاتم : أنبأنا يونس ، أخبرنى ابن وهب ، أخبرنى مالك ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ،

---

(١) سورة الحجر ، الآية : ٨٧ ، ٨٨ .
(٢) سورة الضحى ، آية : ٥ .
(٣) أى : حلف لا يدخل عليهن شهراً ، وسيأتى بيان ذلك فى سورة التحريم .
(٤) الرمال ــ بضم الراء ــ ما رمل ، أى : نسج .
(٥) القرظ : بفتحتين ــ : ما يدبغ به . والصبرة ــ بضم الصاد وسكون الباء ، فى الأصل ــ : الطعام المجتمع كالكومة . ولفظ البخارى : « وإن عند رجليه قرظاً مصبوراً » ، أى : مجموعاً قد جعل صبرة كصبرة الطعام .
(٦) فى المخطوطة : « من قرظ واهبة معلقة » . والمثبت من صحيح البخارى . والأهب ــ بفتحتين ــ : جمع إهاب ، على غير قياس ، وهو الجلد من البقر والغنم والوحش ، ما لم يدبغ .
(٧) البخارى ، كتاب المظالم ، باب « الغرفة والعلية المشرفة وغير المشرفة فى السطوح وغيرها » : ٣/١٧٤ – ١٧٧ ، وكتاب التفسير ، تفسير سورة التحريم : ٦/١٩٥ – ١٩٧ . ومسلم ، كتاب الطلاق ، باب « فى الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن » ٤/١٨٨ – ١٩٠ .

عن أبي سعيد : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «إن أخوف ما أخاف عليكم ، ما يفتح الله من زهرة الدنيا» . قالوا : وما زهرة الدنيا يا رسول الله ؟ قال : «بركات الأرض» .

وقال قتادة ، والسدى : زهرة الحياة الدنيا ، يعني : زينة الحياة الدنيا .

وقال قتادة : (لنفتنهم فيه) لنبتليهم[1] .

وقوله : (وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها) ، أي : استنقذهم من عذاب الله بإقام الصلاة ، واصطبر أنت على فعلها ، كما قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا[2]) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أحمد بن صالح ، حدثنا ابن وهب ، أخبرني هشام بن سعد ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه أن عمر بن الخطاب كان يبيت عنده أنا ويَرْفأ[3] . وكان له ساعة من الليل يصلي فيها ، فربما لم يقم ، فنقول : لا يقوم الليلة كما كان يقوم، وكان إذا [استيقظ أقام] — يعني أهله — وقال : (وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها[4]) .

وقوله : (لا نسألك رزقا نحن نرزقك) ، يعني إذا أقمت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحتسب ، كما قال تعالى : (ومن يتق الله يجعل له مخرجا . ويرزقه من حيث لا يحتسب[5]) ، وقال تعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين[6]) ، ولهذا قال : (لا نسألك رزقاً نحن نرزقك) ، قال الثوري : (لا نسألك رزقاً) ، أي : لا نكلفك الطلب .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا حفص بن غياث ، عن هشام ، عن أبيه : أنه كان إذا دخل على أهل الدنيا ، فرأى من دنياهم طرفا فاذا رجع إلى أهله ، فدخل الدار قرأ: (ولا تمدن عينيك) إلى قوله : (نحن نرزقك)، ثم يقول : الصلاة الصلاة ، رحمكم الله [7] .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عبد الله بن أبي زياد القَطَوَاني ، حدثنا سيار ، حدثنا جعفر ، عن ثابت قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أصابه خصاصة نادى أهله : «ياأهلاه، صلوا ، صلوا» . قال ثابت : وكانت الأنبياء إذا نزل بهم أمر ، فزعوا إلى الصلاة .

---

(١) تفسير الطبري : ١٦/١٦٩ .

(٢) سورة التحريم ، آية : ٦ .

(٣) لفظ الطبري ١٦/١٧٠ : «كان يبيت عند عمر بن الخطاب من غلمانه أنا ويرفأ» . وفي تاج العروس مادة (رفأ) : «ويرفأ — كيمنع — مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، يقال : إنه أدرك الجاهلية ، وحج مع عمر في خلافة أبي بكر ...» .

(٤) الأثر في الدر المنثور عن مالك والبيهقي . وينظر الموطأ ، كتاب صلاة الليل ، الحديث ٥ : ١/١١٩ .

(٥) سورة الطلاق ، آية : ٢ ، ٣ .

(٦) سورة الذاريات ، الآيات : ٥٦ — ٥٨ .

(٧) أخرجه الطبري من طريق حفص بن غياث : ١٦/١٧٠ .

وقد روى الترمذى وابن ماجه ، من حديث عمران بن زائدة ، عن أبيه ، عن أبى خالد الوالبىّ ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله : « يا ابن آدم ، تفرّغْ لعبادتى أملأْ صدرك غنى ، وأسدّ فقرك ، وإن لم تفعل ملأتُ صدرك شغلا ، ولم أسد فقرك(١) » .

وروى ابن ماجه من حديث الضحاك ، عن الأسود ، عن ابن مسعود : سمعت نبيكم صلى الله عليه وسلم يقول : « مَنْ جَعَلَ الهموم همّا واحدا ، همّ المعاد ، كفاه الله هم دنياه . ومن تشعبت به الهموم فى أحوال الدنيا ، لم يبال الله فى أىّ أوديته هلك(٢) » .

وروى أيضا من حديث شعبة ، عن عُمَر بن سليمان ، عن عبد الرحمن بن أبان ، عن أبيه ، عن زيد بن ثابت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من كانت الدنيا همّه ، فرّق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتِبَ له ، ومن كانت الآخرة نيّته ، جمع له أمره ، وجعل غناه فى قلبه ، وأتته الدنيا وهى راغمة(٣) » .

(والعاقبة للتقوى) أى وحسن العاقبة فى الدنيا والآخرة وهى الجنة لمن اتقى الله .

وفى الصحيح ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « رأيت الليلة كأنا فى دار عقبة بن رافع ، وأنا أتينا برطب [من رطب] ابن طاب ، (٤) فأولت ذلك أن العاقبة لنا فى الدنيا ، والرفعة(٥) وأن ديننا قد طاب(٦) » .

وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

يقول تعالى مُخْبراً عن الكفار فى قولهم : (لولا) ، أى : هلا (يأتينا) محمد (بآية من ربه) ، أى : بعلامة دالة على صدقه فى أنّه رسول الله ؟ قال الله تعالى : (أو لم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى) ، يعنى : القرآن العظيم الذى أنزله عليه الله وهو أمى ، لا يحسن الكتابة ، ولم يدارس أهل الكتاب ، وقد جاء فيه أخبار الأولين ، بما كان منهم فى سالف الدهور ، بما يوافقه عليه الكتب المتقدمة الصحيحة منها ، فان القرآن مُهَيمن عليها ، يُصدّق الصحيح ،

---

(١) تحفة الأحوذى ، أبواب القيامة ، الحديث ٢٥٨٤ : ٧ / ١٦٦ ، ١٦٧ . قال الترمذى : « هذا حديث حسن غريب » . وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب « الهم بالدنيا » ، الحديث ٤١٠٧ : ٢ / ١٣٧٦ .

(٢) سنن ابن ماجه ، فى الكتاب والباب المتقدمين ، الحديث ٤١٠٦ : ٢/١٣٧٥ .

(٣) سنن ابن ماجه ، فى الكتاب والباب المتقدمين ، الحديث ٤١٠٥ : ٢/١٣٧٥ .

(٤) ابن طاب : رجل من أهل المدينة .

(٥) لفظ مسلم : « فأولت الرفعة لنا فى الدنيا ، والعاقبة فى الآخرة ... » .

(٦) مسلم ، كتاب الرؤيا ، باب رؤيا النبى صلى الله عليه وسلم : ٧/٥٦ ، ٥٧ .

ويُبَيِّن خطأ المكذوب فيها وعليها . وهذه الآية كقوله تعالى فى سورة « العنكبوت » : (وقالوا : لولا أنزل عليه آيات من ربه ، قل : إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين . أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يُتلَى عليهم ، إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون[(١)]) وفى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما من نبي إلا وقد أوتى من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى ، وإنى لأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة[(٢)] » .

وإنما ذكر ها هنا أعظم الآيات التى أعطيها عليه السلام ، وهو القرآن ، وله من المعجزات مالا يحد ولا يحصر ، كما هو مودع فى كتبه ، ومقرر فى مواضعه .

ثم قال تعالى : (ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا : ربنا ، لولا أرسلت إلينا رسولا) ، أى : لو أنا أهلكنا هؤلاء المكذبين قبل أن نرسل إليهم هذا الرسول الكريم ، وننزل عليهم هذا الكتاب العظيم لكانوا قالوا : (ربنا ، لولا أرسلت إلينا رسولا) قبل أن تهلكنا ، حتى نؤمن به ونتبعه ؟ كما[(٣)] قال : (فنتبعَ آياتك من قبل أن نذل ونخزى) ، يبين تعالى أن هؤلاء المكذبين متعنتون معاندون لا يؤمنون (ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب اليم[(٤)]) ، كما قال تعالى : (وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون . أن تقولوا : إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا ، وإن كنا عن دراستهم لغافلين . أو تقولوا : لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم، فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة ، فمن أظلم من كذب بآيات الله وصدف عنها ؟ سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون[(٥)]) ، وقال : (وأقسموا بالله جَهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا[(٦)]) ، وقال : (وأقسموا بالله جهد أيمانهم : لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها، قل : إنما الآيات عند الله، وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون . ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ، ونذرهم فى طغيانهم يعمهون[(٧)]) .

ثم قال تعالى : (قل) ، أى : يا محمد لمن كذبك وخالفك واستمر على كفره وعناده : (كل متربص) ، أى : منَّا ومنكم ، (فتربصوا) ، أى : فانتظروا ، (فستعلمون من أصحاب الصراط السوى) ، أى : الطريق المستقيم ، (ومن اهتدى) ، إلى الحق وسبيل الرشاد . وهذا قوله تعالى : (وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا[(٨)]) ، (سيعلمون غداً من الكذاب الأشر[(٩)]) .

آخر تفسير سورة طه ، ولله الحمد والمنة

---

(١) سورة العنكبوت ، الآية : ٤٩ ، ٥٠ .

(٢) البخارى ، كتاب فضائل القرآن : ٦/٢٢٤ . وكتاب الاعتصام ، باب قول النبى صلى الله عليه وسلم : « بعثت بجوامع الكلم » : ٩/١١٣ .

(٣) كذا ، وهذا من الآية ، وليس من آية أخرى .

(٤) سورة يونس ، آية : ٩٧ .

(٥) سورة الأنعام ، الآيات : ١٥٥ – ١٥٧ .

(٦) سورة فاطر ، آية : ٤٢ .

(٧) سورة الأنعام ، الآية : ١٠٩ ، ١١٠ .

(٨) سورة الفرقان ، آية : ٤٢ .

(٩) سورة القمر ، آية : ٢٦

تفسير سورة الأنبياء

وهي مكية

قال البخاري : حدثنا محمد بن بشار، حدثنا غُنْدَر ، حدثنا شعبة عن أبي إسحاق: سمعت عبد الرحمن بن يزيد ، عن عبد الله قال : بنو إسرائيل ، والكهف ، ومريم ، وطه ، والأنبياء ، هن من العتاق الأول ، وهن من تلادي (١) .

بسم الله الرحمن الرحيم

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٣) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤) بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (٥) مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦)

هذا تنبيه من الله عزوجل على اقتراب الساعة ودنوها ، وأن الناس في غفلة عنها ، أي : لا يعملون لها ، ولا يستعدون من أجلها .

وقال النسائي : حدثنا أحمد بن نصر ، حدثنا هشام بن عبد الملك أبو الوليد الطيالسي ، حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي سعيد ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : (في غفلة معرضون) ، قال : « في الدنيا » .

وقال تعالى : (أتى أمر الله فلا تستعجلوه (٢)) ، وقال : (اقتربت الساعة وانشق القمر . وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) (٣) .

وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة الحسن بن هانىء أبي نُوَاس الشاعر أنه قال : أشعر الناس الشيخ الطاهر أبو العتاهية حيث يقول (٤) :

النَّاس في غَفَلاتِهِمْ ۝ وَرَحا المَنيَّةِ تَطْحَنُ

فقيل له : من أين أخذ هذا ؟ قال : من قوله تعالى : (اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون) .

---

(١) البخاري ، تفسير سورة الأنبياء : ١٢١/٦ . وقد تقدم الحديث في أول سورة الإسراء من وجه آخر : ٣/٥ ، وشرحنا غريبه هناك .

(٢) سورة النحل ، آية : ١ .

(٣) سورة القمر ، آية : ١ ، ٢ .

(٤) ديوانه ، طبعة بيروت : ٤٢٩ .

[وروى فى ترجمة « عامر بن ربيعة » ، من طريق موسى بن عبيد الآمدى ، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه ، عن عامر بن ربيعة : أنه نزل به رجل من العرب ، فأكرم عامر مثواه ، وكلّم فيه رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فجاءه الرجل فقال : إنى استقطعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم واديا فى العرب ، وقد أردت أن أقطعَ لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك . فقال عامر : لا حاجة لى فى قطيعتك ، نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا : (اقترب للناس حسابهم ، وهم فى غفلة معرضون)](١) .

ثم أخبر تعالى أنهم لا يُصغون إلى الوحى الذى أنزله الله على رسوله ، والخطاب مع قريش ومن شابههم من الكفار ، فقال : (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدَث) ، أى : جديد إنزاله (إلا استمعوه وهم يلعبون) ، كما قال ابن عباس : ما لكم تسألون أهل الكتب عما بأيديهم وقد حرّفوه وبدلوه ، وزادوا فيه ونقصوا منه ، وكتابكم أحدث الكتب بالله تقرأونه محضا لم يشب . ورواه البخارى بنحوه(٢) .

وقوله : (وأسروا النجوى الذين ظلموا) ، أى : قائلين فيما بينهم خفيةً : (هل هذا إلا بشر مثلكم) ، يعنونَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، يستبعدون كونه نبيا ، لأنه بَشَرٌ مثلهم ، فكيف اختص بالوحى دونهم . ولهذا قال : (أفتأتون السحر وأنتم تبصرون) ؟ أى : أفتتبعونه فتكونون كمن أتى السحر وهو يعلم أنه سحر . فقال تعالى مجيبا لهم عما افتروه واختلقوه من الكذب : (قال : ربى يعلم القول فى السماء والارض) ، أى : الذى يعلم ذلك ، لا يخفى عليه خافية ، وهو الذى أنزل هذا القرآن المشتمل على خبر الأولين والآخرين ، الذى لايستطيع أحد أن يأتى بمثله ، إلا الذى يعلم السر فى السموات والأرض .

وقوله : (وهو السميع العليم) ، [أى : السميع] لأقوالكم ، (العليم) بأحوالكم . وفى هذا تهديد لهم ووعيد .

وقوله : (بل قالوا : أضغاث أحلام ، بل افتراه) : هذا إخبار عن تعنت الكفار وإلحادهم ، واختلافهم فيما يصفون به القرآن ، وحيرتهم فيه ، وضلالهم عنه . فتارة يجعلونه سحرا ، وتارة يجعلونه شعرا ، وتارة يجعلونه أضغاث أحلام ، وتارة يجعلونه مفترى ، كما قال : (انظر كيف ضربوا لك الأمثال ، فضلوا فلا يستطيعون سبيلا (٣)) .

وقوله : (فليأتنا بآية كما أرسل الأولون) ، يعنون ناقة صالح ، وآيات موسى وعيسى . وقد قال الله تعالى : (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة ، فظلموا بها (٤)) ، ولهذا قال تعالى : (ماآمنت قبلهم من قرية أهلكناها : أفهم يؤمنون) ، أى : ماآتينا قرية من القرى الذين بعث فيهم الرسل آية على يدَىْ نبيها فآمنوا بها ، بل كذبوا ، فأهلكناهم بذلك ، أفهؤلاء يؤمنون بالآيات لو رأَوْها دون أولئك ؟ كلا ، بل (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لايؤمنون : ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم (٥)) .

---

(١) هذا الخبر بتمامه غير ثابت فى مخطوطة الأزهر وقد أثبتناه من الطبعات السابقة ، ولعله سقط نظر .
(٢) البخارى ، كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : (كل يوم هو فى شأن) : ٩/ ١٨٧ .
(٣) سورة الإسراء ، آية : ٤٨ . والفرقان ، آية : ٩ .
(٤) سورة الإسراء ، آية : ٥٩ .
(٥) سورة يونس ، آية : ٩٦ ، ٩٧ .

هذا كله ، وقد شاهدوا من الآيات الباهرات ، والحجج القاطعات ، والدلائل البينات ، على يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ماهو أظهر وأجلى ، وأبهر وأقطع وأقهر ، مما شُوهِدَ مع غيره من الأنبياء — صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

قال ابن أبي حاتم رحمه الله : ذُكر عن زيد بن الحُبَاب ، حدثنا ابن لَهيعة ، حدثنا الحارث بن يزيد الحَضْرمى ، عن على بن رَبَاح اللخمى ، حدثنى من شهد عُبادة بن الصامت يقول : كنا فى المسجد ، ومعنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه يقرىء بعضُنا بعضاً القرآن ، فجاء عبد الله بن أُبَىّ بن سلول ، ومعه نُمرُقة وزِرْبيّة (١) ، فوضع واتكأ ، وكان صَبيحا فَصيحا جَدِلاً ، فقال : يا أبا بكر ، قل لمحمد يأتينا بآية كما جاء الأولون ؟ جاء موسى بالألواح ، وجاء داود بالزبور ، وجاء صالح بالناقة ، وجاء عيسى بالإنجيل وبالمائدة . فبكى أبو بكر رضى الله عنه ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو بكر : قوموا بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم نستغيث به من هذا المنافق . فقال رسول الله : إنه لا يقام لى ، إنما يقام (٢) لله عز وجل . فقلنا : يا رسول الله ، إنا لقينا من هذا المنافق . فقال إن جبريل قال لى : اخرج فأخبر بنعم الله التى أنعم بها عليك ، وفضيلته التى فُضّلت بها ، فبشرنى أنه بعثنى إلى الأحمر والأسود ، وأمرنى أن أنذر الجن ، وآتانى كتابه وأنا أمّىّ ، وغفر ذنبى ما تقدم وما تأخر ، وذكر اسمى فى الأذان ، وأيدنى بالملائكة ، وآتانى النصر ، وجعل الرّعب أمامى ، وآتانى الكوثر ، وجعل حوضى من أعظم الحياض يوم القيامة ، ووعدنى المقام المحمود والناس مهطعون مُقْنِعو (٣) رءوسهم ، وجعلنى فى أول زمرة تخرج من الناس ، وأدخل فى شفاعتى سبعين ألفا من أمّتى الجنة بغير حساب ، وآتانى السلطان والملك ، وجعلنى فى أعلى غرفة فى الجنة فى جنات النعيم فليس فوقى أحد إلا الملائكة الذين يحملون العرش ، وأحل لى الغنائم ، ولم تحل لأحد كان قبلنا .

وهذا الحديث غريب جداً .

وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَـٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَـٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَـٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَـٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾

يقول تعالى راداً على من أنكر بعثة الرسل من البشر : (وما أرسلنا قبلك إلا رجالا يُوحَى (٤) إليهم) ، أى : جميع الرسل الذين تقدموا كانوا رجالا من البشر ، لم يكن فيهم أحد من الملائكة ، كما قال فى الآية الأخرى : (وما أرسلنا

---

(١) النمرقة — بضم النون والراء ، وبكسرهما — الوسادة ، وجمعها نمارق . والزربية — بكسر الزاى ، وضمها ، وفتحها — بساط له قطيفة رقيقة .

(٢) لفظ مخطوطة الأزهر : « إلا بما يقام ... » . والمثبت من الطبعات السابقة .

(٣) ينظر تفسير سورة إبراهيم ، الآية ٤٣ : ٤/٤٣٣ .

(٤) كذا فى مخطوطة الأزهر ، وهى قراءة الجمهور ، وقرأ طلحة وحفص : (نوحى) ، بالنون وكسر الحاء . ينظر البحر المحيط لأبى حيان : ٦/٢٩٨ .

قبلك إلا رجالا يُوحَى (١) إليهم من أهل القرى (٢)) ، وقال تعالى : (قل : ما كنتُ بدعا من الرسل (٣))، وقال تعالى حكاية عمن تقدم من الأمم أنهم أنكروا ذلك فقالوا : (أبشر يهدوننا(٤)) ؟ ولهذا قال تعالى : (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) ، أى : اسألوا أهلَ العلم من الأمم كاليهود والنصارى وسائر الطوائف : هل كان الرسل الذين أتوهم بشراً أو ملائكة ؟ إنما كانوا بشراً ، وذلك من تمام نِعَم الله على خلقه ؛ إذ بعث فيهم رسلا منهم يتمكنون من تناول البلاغ منهم والأخذ عنهم .

وقوله : (وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام) ، أى : بل قد كانوا أجسادا يأكلون الطعام ، كما قال تعالى : (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق (٥)) ، أى : قد كانوا بشرا من البشر ، يأكلون ويشربون مثل الناس ، ويدخلون الأسواق للتكسب والتجارة ، وليس ذلك بضائر لهم ولا ناقص منهم شيئاً ، كما توهمه المشركون فى قولهم : (مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ، أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها ، وقال الظالمون : إن تتبعون إلا رجلا مسحورا (٦)) .

وقوله : (وما كانوا خالدين) ، أى : فى الدنيا ، بل كانوا يعيشون ثم يموتون ؛ (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد (٧)) ، وخاصتهُم أنهم يوحَى إليهم من الله عز وجل ، تنزل عليهم الملائكة عن الله بما يحكم فى خلقه ، مما يأمر به وينهى عنه .

وقوله : (ثم صدقناهم الوعد) ، أى : الذى وعدهم ربهم : (ليُهلكَنّ الظالمين) ، صدقهم الله وعده ، ففعل ذلك ، ولهذا قال : (فأنجيناهم ومن نشاء) ، أى : أتباعهم من المؤمنين ، (وأهلكنا المسرفين) ، أى : المكذبين بما جاءت الرسل به .

لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾

يقول تعالى منبها على شرف القرآن ، ومحرضا لهم على معرفة قدره : (لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم) ، قال ابن عباس : شرَفُكم .

---

(١) كذا فى مخطوطة الأزهر أيضاً . وهى قراءة الجمهور كذلك ، وقرأ أبو عبد الرحمن وحفص وطلحة : (نُوحى) ، بالنون وكسر الحاء . ينظر المرجع السابق : ٥/٣٥٣ .

(٢) سورة يوسف ، الآية : ١٠٩ .

(٣) سورة الأحقاف ، آية : ٩ .

(٤) سورة التغابن ، آية : ٦ .

(٥) سورة الفرقان ، آية : ٢٠ .

(٦) سورة الفرقان ، آية : ٧ ، ٨ .

(٧) سورة الأنبياء آية : ٣٤ .

وقال مجاهد : حديثكم ، وقال الحسن : دينكم(١) .

(أفلا تعقلون) ، أي : هذه النعمة وتتلقونها بالقبول ، كما قال تعالى : (وإنه لذكر لك ولقومك ، وسوف تسئلون) (٢)

وقوله : (وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة) ، هذه صيغة تكثير ، كما قال : (وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح)(٣) .

وقال تعالى : (فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة ، فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد)(٤)

وقوله : (وأنشأنا بعدها قوماً آخرين) ، أي : أمة أخرى بعدهم : (فلما أحسوا بأسنا) ، أي : تيقنوا أن العذاب واقع بهم ، كما وعدهم نبيهم ، (إذا هم منها يركضون) ، أي : يفرّون هاربين ، (لاتركضوا وارجعوا إلى ماأترفتم فيه ومساكنكم) ، هذا تهكم بهم قدَراً : أي : قيل لهم قدَراً : لاتركضوا هاربين من نزول العذاب ، وارجعوا إلى إلى ماكنتم فيه من النعمة والسرور ، والعيشة والمساكن الطيبة .

قال قتادة : استهزاء بهم .

(لعلكم تسئلون) ، أي : عما كنتم فيه من أداء شكر النعمة .

(قالوا ياويلنا ، إنا كنا ظالمين) ، اعترفوا بذنوبهم حين لاينفعهم ذلك ، (فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين) ، أي : مازالت تلك المقالة ، وهي الاعتراف بالظلم ، هِجّيراهم(٥) حتى حصدناهم حصداً ، وخمدت حركاتهم وأصواتهم خموداً .

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾

يخبر تعالى أنه خلق السموات والأرض بالحق ، أي : بالعدل والقسط ، (ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى)(٦) ، وأنه لم يخلق ذلك عبثا ولا لعبا ، كما قال : (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ، ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار)(٧) .

---

(١) تفسير الطبري : ١٧/٦ .
(٢) سورة الزخرف ، آية : ٤٤ .
(٣) سورة الإسراء ، آية : ١٧ .
(٤) سورة الحج ، آية : ٤٥ .
(٥) أي : عادتهم .
(٦) سورة النجم ، آية : ٣١ .
(٧) سورة « ص » ، آية : ٢٧ .

وقوله تعالى : (لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين) ، قال ابن أبي نجيح ، عن مجاهد : (لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا) ، يعني من عندنا . يقول : وما خلقنا جنة ولا نارا ، ولا موتا ولا بعثا ، ولا حسابا .

وقال الحسن ، وقتادة ، وغيرهما : (لو أردنا أن نتخذ لهواً) ، اللهو : المرأة بلسان أهل اليمن (١) .

وقال إبراهيم النخَعيّ (لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه) من الحور العين .

وقال عكرمة والسدى : المراد باللهو هاهنا الولد .

وهذا والذى قبله متلازمان ، وهو كقوله تعالى : (لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق مايشاء سبحانه(٢)) فنزه نفسه عن اتخاذ الولد مطلقا ، لاسيما عما يقولون من الإفك والباطل ، من اتخاذ عيسى ، أو العُزَير ، أو الملائكة ، سبحان الله عما يقولون علوا كبيرا .

وقوله : (إن كنا فاعلين) ، قال قتادة ، والسدّى ، وإبراهيم النخَعي ، ومغيرة بن مِقْسَم : أى ماكنا فاعلين .

وقال مجاهد : كل شيء فى القرآن « إنْ » فهو إنكار .

وقوله : (بل نقذف بالحق على الباطل) ، أى : نبين الحق فيدحضُ الباطل ، ولهذا قال : (فيدمغهُ فإذا هو زاهق) ، أى : ذاهب مضمحل ، (ولكم الويل) ، أى : أيها القائلون : لله ولد ، (مما تصفون) ، أى : تقولون وتفترون .

ثم أخبر تعالى عن عبودية الملائكة له ، ودأبهم فى طاعته ليلا ونهارا ، فقال : (وله من فى السموات والأرض ومن عنده) ، يعنى الملائكة ، (لايستكبرون عن عبادته) ، أى : لايستنكفون عنها ، كما قال : (لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا(٣))

وقوله : (ولا يستحسرون) ، أى : لايتعبون ولا يَمَلّون ، (يسبحون الليل والنهار لايفترون) ، فهم دائبون فى العمل ليلا ونهارا ، مطيعون قصدا وعملا ، قادرون عليه ، كما قال تعالى : (لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون(٤))

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا على بن أبى دُلامة البغدادى ، أنبأنا عبد الوهاب بن عطاء ، حدثنا سعيد ، عن قتادة ، عن صفوان بن مُحرز ، عن حكيم بن حزَام قال : بينا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه ، إذ قال لهم : هل تسمعون ماأسمع ؟ قالوا : مانسمع من شيء . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى لأسمع أطيط السماء ، وما تلام أن تئط ، وما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم » . غريب ولم يخرجوه (٥) .

ثم رواه ابن أبي حاتم من طريق يزيد بن زُرَيع (٦) ، عن سعيد ، عن قتادة مرسلا .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٧/٨ .
(٢) سورة الزمر ، الآية : ٤ .
(٣) سورة النساء ، آية : ١٧٢ .
(٤) سوره التحريم ، آية : ٦ .
(٥) تقدم هذا الحديث فى سورة « براءة » ، وشرحنا غريبه هنالك : ١٦٤/٤ .
(٦) فى المخطوطة : « يزيد بن رافع » . وفى الطبعات السابقة : « يزيد بن أبى زريع » ، وكلاهما خطأ ، وتنظر ترجمة « يزيد بن زريع فى التهذيب » ٣٢٥/١١ .

وقال أبو إسحاق ، عن حسان بن مخارق(١) ، عن عبد الله بن الحارث بن نوفل قال : جلست إلى كعب الأحبار وأنا غلام ، فقلت له : أرأيت قول الله : (يسبحون الليل والنهار لايفترون) ، أما يشغلهم عن التسبيح الكلامُ والرسالة والعمل ؟ فقال : فمن هذا الغلام ؟ فقالوا : من بنى عبد المطلب . قال : فقبل رأسى ، ثم قال لى : يابنى ، إنه جعل لهم التسبيح ، كما جعل لكم النَّفَس ، أليس تتكلم وأنت تتنفس ، وتمشى وأنت تتنفس ؟(٢) .

أَمِ اتَّخَذُوٓا ءَالِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾

ينكر تعالى على من اتخذ من دونه آلهة ، فقال : بل (اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون) ، أى : أهم يحيون الموتى وينشرونهم من الأرض ؟ : أى : لايقدرون على شىء من ذلك ، فكيف جعلوها لله نداً وعبدوها معه .

ثم أخبرَ تعالى أنه لو كان فى الوجود آلهة غيره لفَسَدَت السمواتُ والأرض ، فقال : (لو كان فيهما آلهة) ، أى : فى السماء والأرض ، (لفسدتا) ، كقوله تعالى : (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ، إذاً لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون)(٣) وقال هاهنا : (فسبحان الله رب العرش عما يصفون) ، أى : عما يقولون أن له ولدا أو شريكا ، سبحانه وتعالى وتقدس وتنزه عن الذى يفترون ويأفكون علوا كبيرا .

وقوله : (لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون) ، أى : هو الحاكم الذى لا مُعَقِّب لحكمه ، ولا يعترض عليه أحد ، لعظمته وجلاله وكبريائه ، وعلوه وحكمته وعدله ولطفه ، (وهم يسئلون) ، أى : وهو سائل خلقه عما يعملون ، كقوله : (فوربك لنسألنهم أجمعين . عما كانوا يعملون(٤)) ، وهذا كقوله تعالى : (وهو يجير ولا يجار عليه(٥)) .

أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى : بل (اتخذوا من دونه آلهة ، قل) يا محمد : (هاتوا برهانكم) ، أى : دليلكم على ما تقولون ، (هذا ذكر من معى) ، يعنى القرآن ، (وذكر من قبلى) ، يعنى الكتب المتقدمة على خلاف ما تقولون وتزعمون ، فكل كتاب أنزل على كل نبى أرسل ناطق بأنه لا إله إلا الله ، ولكن أنتم أيها المشركون لا تعلمونَ الحقَّ ، فأنتم معرضون

(١) فى تفسير ابن كثير ــ مخطوطة وطبعات ــ : « وقال محمد بن إسحاق ، عن حسان بن مخارق » . والمثبت من تفسير الطبرى يقول ابن أبى حاتم فى الجرح والتعديل ترجمة حسان بن مخارق ١ / ٢ / ٢٣٥ روى عنه الشيبانى ، والشيبانى هو : سليمان بن أبى سليمان ، أبو إسحاق الشيبانى ، مترجم فى التهذيب : ١٩٧/٤ . وسند الطبرى : « حدثنا القاسم قال : حدثنا الحسين قال : حدثنى أبو معاوية ، عن أبى إسحاق الشيبانى ، عن حسان بن مخارق ... » .

(٢) الأثر فى تفسير الطبرى : ٧٠/١٧ .

(٣) سورة « المؤمنون » ، آية : ٩١ .

(٤) سورة الحجر ، آية : ٩٢ ، ٩٣ .

(٥) سورة « المؤمنون » ، آية : ٨٨ .

عنه : ولهذا قال : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا يُوحَى (١) إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) ، كما قال : (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا ، أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون (٢)) ، وقال : (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت (٣)) ، فكل نبى بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، والفطرة شاهدة بذلك أيضا ، والمشركون لا بُرْهان لهم ، وحجتهم داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ، ولهم عذاب شديد .

وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ * وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾

يقول تعالى رادّا على من زعم أنّ له — تعالى وتقدس — ولدا من الملائكة ، كمن قال ذلك من العرب : إن الملائكة بنات الله ، فقال : (سبحانه ! بل عباد مكرمون) ، أى : الملائكة عباد الله مكرمون عنده ، فى منازل عالية ومقامات سامية ، وهم له فى غاية الطاعة قولا وفعلا . (لا يسبقونه بالقول ، وهم بأمره يعملون) ، أى : لا يتقدمون بين يديه بأمر ، ولا يخالفونه فيما أمَرَ به ، بل يبادرون إلى فعله ، وهو تعالى عِلْمُهُ محيط بهم ، فلا يخفى عليه منهم خافية ، (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) .

وقوله : (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) ، كقوله : (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه (٤)) ، وقوله : (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له (٥)) ، فى آيات كثيرة فى معنى ذلك .

(وهم من خشيته) ، أى : من خوفه ورهبته (مشفقون . ومن يقل منهم : إنى إله من دونه) ، أى : مَن ادعى منهم أنه إله من دون الله ، أى : مع الله ، (فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين) ، أى : كل من قال ذلك ، وهذا شرط ، والشرط لا يلزم وقوعه ، كقوله : (قل : إن كان للرحمن ولد ، فأنا أول العابدين (٦)) ، وقوله : (لئن أشركت ليحبطن عملك (٧)) .

---

(١) كذا فى مخطوطة الأزهر . وهى قراءة ثابتة فى السبعة . ينظر البحر المحيط : ٣٠٧/٦ .
(٢) سورة الزخرف ، آية : ٤٥ .
(٣) سورة النحل ، آية : ٣٦ .
(٤) سورة البقرة ، آية : ٢٥٥ .
(٥) سورة سبأ ، آية : ٢٣ .
(٦) سورة الزخرف ، آية : ٨١ .
(٧) سورة الزمر ، آية : ٦٥ .

أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾

يقول تعالى منبها على قدرته التامة ، وسلطانه العظيم فى خلقه الأشياء ، وقهره لجميع المخلوقات ، فقال : (أو لم ير الذين كفروا) ، أى : الجاحدون لإلهيته العابدون معه غيره ، ألم يعلموا أن الله هو المستقل بالخلق ، المستبد بالتدبير ، فكيف يليق أن يُعبَد غيره أو يشرك به ماسواه ، ألم يروا (أن السموات والأرض كانتا رتقا) أى : كان الجميع متصلا بعضُه ببعض متلاصق متراكم ، بعضه فوق بعض فى ابتداء الأمر ، ففَتَق هذه من هذه ، فجعل السموات سبعا ، والأرض سبعا ، وفصل بين سماء الدنيا والأرض بالهواء ، فأمطرت السماء وأنبتت الأرض ، ولهذا قال : (وجعلنا من الماء كل شىء حى ، أفلا يؤمنون) ، أى : وهم يشاهدون المخلوقات تحدث شيئا فشيئا عياناً ، وذلك دليل على وجود الصانع ، الفاعل المختار ، القادر على مايشاء :

فَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ • تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ (١)

قال سفيان الثورى ، عن أبيه ، عن عكرمة قال : سُئل ابن عباس : الليل كان قبل أو النهار ؟ فقال : أرأيتم السموات والأرض حين كانتا رتقا ، هل كان بينها إلا ظلمة ؟ ذلك لتعلموا أن الليل قبل النهار (٢) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا إبراهيم بن حمزة ، حدثنا حاتم ، عن حمزة بن أبى محمد ، عن عبد الله ابن دينار ، عن ابن عمر : أن رجلا أتاه يسأله عن السموات والأرض (كانتا رتقا ففتقناهما) ؟ قال : اذهب إلى ذلك الشيخ فاسأله ، ثم تعال فأخبرنى ماقال لك ؛ قال : فذهب إلى ابن عباس فسأله ، فقال ابن عباس: نعم ، كانت السمواتُ رتقا لاتمطر ، وكانت الأرض رتقا لاتنبت ، فلما خلق للأرض أهلا فتَق هذه بالمطر ، وفتق هذه بالنبات . فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره ، فقال ابن عمر : الآن قد علمت أن ابن عباس قد أوتى فى القرآن علما ، صدق ــ هكذا كانت. قال ابن عمر ــ قد كنت أقول : مايعجبنى جَرَاءة ابن عباس على تفسير القرآن ، فالآن قد علمت أنه قد أوتى فى القرآن علما .

وقال عطية العوفى : كانت هذه رتقاً لاتمطر ، فأمطرت : وكانت هذه رتقا لاتنبت ، فأنبتت (٢) .

وقال إسماعيل بن أبى خالد : سألت أبا صالح الحَنَفِىّ عن قوله : (أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما) ، قال : كانت السماء واحدة ، ففتق منها سبع سموات ، وكانت الأرض واحدة ففتق منها سبع أرضين (٣) .

وهكذا قال مجاهد ، وزاد : ولم تكن السماء والأرض متماستين (٣) .

---

(١) أبو العتاهية ، ديوانه طبعة بيروت : ١٢٢ .
(٢) ينظر تفسير الطبرى : ١٧/١٥ .
(٣) تفسير الطبرى : ١٧/١٤ .

وقال سعيد بن جُبَيْر : بل كانت السماء والأرض ملتزقتين ، فلما رفع السماء وأبرز منها الأرض ، كان ذلك فتقهما الذى ذكر الله فى كتابه .

وقال الحسن ، وقتادة : كانتا جميعا ، ففصل بينهما بهذا الهواء .

وقوله : (وجعلنا من الماء كل شيء حى) ، أى : أصل كل الأحياء منه .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو الجماهر ، حدثنا سعيد بن بشير ، حدثنا قتادة ، عن أبى ميمونة ، عن أبى هريرة أنه قال : يانبى الله ، إذا رأيتك قرّت عينى ، وطابت نفسى فأخبرنى عن « كل شيء » ، قال : « كل شيء خلق من ماء » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، حدثنا (١) همام ، عن قتادة ، عن أبى ميمونة ، عن أبى هريرة قال : قلت : يارسول الله ، إنى إذا رأيتك طابت نفسى ، وقرت عينى ، فأنبئنى عن كل شيء . قال : كل شيء خلق من ماء قال : قلت : أنبئنى عن أمر إذا عملتُ (٢) به دخلت الجنة . قال : أفْشِ السلام ، وأطعم الطعام ، وصلِ الأرحام ، وقُم بالليل والناس نيام ، ثم ادخل الجنّة بسلام (٣) .

ورواه أيضا عن عبد الصمد (٤) وعفان وبَهْز ، عن همام . تفرد به أحمد ، وهذا إسناد على شرط الصحيحين ، إلا أن أبا ميمونة من رجال السنن ، اسمه سليم ، والترمذى يصحح له . وقد رواه سعيد بن أبى عَرُوبة ، عن قتادة مرسلا . والله أعلم .

وقوله : (وجعلنا فى الأرض رواسى) ، أى : جبالا أرسَى الأرض بها وقررها وثقلها ، لئلا تميد بالناس ، أى : تضطرب وتتحرك ، فلا يحصل لهم عليها قرار لأنها غامرة فى الماء إلا مقدار الربع ، فإنه باد للهواء والشمس ، ليشاهد أهلها السماء وما فيها من الآيات الباهرات ، والحكم والدلالات . ولهذا قال : (أن تميد بهم) ، أى : لئلا تميد بهم .

وقوله : (وجعلنا فيها فجاجا سبلا) ، أى : ثغرا فى الجبال ، يسلكون فيها طرقا من قطر إلى قطر ، وإقليم إلى إقليم ، كما هو المشاهد فى الأرض ، يكون الجبل حائلا بين هذه البلاد وهذه البلاد ، فيجعل الله فيه فجوة — ثغرة — ليسلك الناس فيها من هاهنا إلى هاهنا . ولهذا قال : (لعلهم يهتدون) .

---

(١) فى مخطوطة الأزهر : « وقال الإمام أحمد : حدثنا زيد بن هشام ، عن قتادة » . وفى مسند الإمام أحمد : « حدثنا يزيد ، أنا هشام » ، ويبدو أن الصواب ما أثبتناه ، بدليل قول ابن كثير بعد : « ورواه أيضاً عن عبد الصمد وعفان وبهز ، عن همام » . وهمام هذا هو ابن يحيى بن دينار يروى عن قتادة ، ويروى عنه يزيد بن هارون . ينظر التهذيب : ١١/٦٧، ٦٨ .

(٢) لفظ المسند : « إذا أخذت به » .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٢/٢٩٥ .

(٤) رواية الإمام أحمد عن « عبد الصمد وعفان » فى المسند : ٢/٣٢٣ . وروايته عن « بهز » فى المسند : ٢/٣٢٤ . وفى المسند أيضاً رواية عن عبد الصمد : ٢/٤٩٣ .

وقوله : (وجعلنا السماء سقفا) ، أى : على الأرض ، وهى كالقبة عليها ، كما قال : (والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون[1]) ، وقال : (والسماء وما بناها[2]) ، (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج[3]) ، والبناء هو نصب القبة ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بنى الإسلام على خمس[4] » ، أى : خمس دعائم ، وهذا لا يكون إلا فى الخيام ، على ما تعهده العرب .

(محفوظا) ، أى : عاليا محروسا أن يُنَال ، وقال مجاهد : مرفوعاً .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدَّشْتَكِىّ ، حدثنى أبى ، عن أبيه ، عن أشعث — يعنى ابن إسحاق القُمِّىّ — عن جعفر بن أبى المغيرة ، عن سعيد بن جُبَيْر ، عن ابن عباس قال رجل : يا رسول الله ، ما هذه السماء ، قال : « موج مكفوف عنكم » ، إسناد غريب .

وقوله : (وهم عن آياتها معرضون) ، كقوله : (وكأين من آية فى السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون[5]) ، أى : لا يتفكرون فيما خلق الله فيها من الاتساع العظيم ، والارتفاع الباهر ، وما زينت به من الكواكب الثوابت والسيارات فى ليلها ، و فى نهارها من هذه الشمس التى تقطع الفلك بكماله ، فى يوم وليلة فتسير غاية لا يعلم قدرها إلا الذى قدرها وسخرها وسيرها .

وقد ذكر ابن أبى الدنيا رحمه الله فى كتابه « التفكر والاعتبار » : أن بعض عُبّاد بنى إسرائيل تعبد ثلاثين سنة ، وكان الرجل منهم إذا تعبد ثلاثين سنة أظلته غمامة ، فلم ير ذلك الرجل شيئاً مما كان يرى لغيره ، فشكى ذلك إلى أمه ، فقالت له : يا بنى ، فلعلك أذنبت فى مدة عبادتك هذه ، فقال : لا ، والله ما أعلم ، قالت فلعلك هممت ؟ قال : لا ، ولا هممت، قالت : فلعلك رفعت بصرك إلى السماء ثم رددته بغير فكر ؟ فقال : نعم ، كثيراً ، قالت فمن ها هنا أتيت .

ثم قال منبها على بعض آياته : (وهو الذى خلق الليل والنهار) ، أى : هذا فى ظلامه وسكونه ، وهذا بضيائه وأنسه ، يطول هذا تارة ثم يقصر أخرى ، وعكسه الآخر ، (والشمس والقمر) ، هذه لها نور يخصها ، وفلك بذاته ، وزمان على حدة ، وحركة وسير خاص ، وهذا بنور خاص آخر ، وفلك آخر ، وسير آخر ، وتقدير آخر ، (وكل فى فلك يسبحون) ، أى : يدورون .

---

(١) سورة الذاريات ، آية : ٤٧ .

(٢) سورة الشمس ، آية : ٥ .

(٣) سورة « ق » ، آية : ٦ .

(٤) أخرجاه فى كتاب الإيمان ، ينظر البخارى : ١/٨ ، ٩ ، ومسلم ، باب قول النبى صلى الله عليه وسلم : « بنى الإسلام على خمس » : ١/٣٤ .

(٥) سورة يوسف ، آية : ١٠٥ .

قال ابن عباس : يدورون كما يدور المغزَل فى الفَلْكة ، وكذا قال مجاهد : فلا يدور المغزل إلا بالفلكة ، ولا الفلكة إلا بالمغزل ، كذلك النجوم والشمس والقمر ، لا يدورون إلا به ولا يدور إلا بهن ، كما قال تعالى : (فالق الإصباح ، وجعل الليل سكنا ، والشمس والقمر حسبانا ، ذلك تقدير العزيز العليم(١)) :

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥)

يقول تعالى : (وما جعلنا لبشر من قبلك) ، أى : يا محمد ، (الخلد) ، أى : فى الدنيا ، بل (كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام (٢)) .

وقد استدل بهذه الآية الكريمة مَن ذهب من العلماء إلى أن الخضر عليه السلام مات وليس بحى إلى الآن ، لأنه بشر ، سواء كان وليا أو نبيا أو رسولا ، وقد قال الله تعالى : (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد(٣)) .

وقوله : (أفإن مت) ، أى : يا محمد ، (فهم الخالدون) ؟ ! ، أى : يؤملون أن يعيشوا بعدك ، لا يكون هذا ، بل كل إلى فناء ولهذا قال : (كل نفس ذائقة الموت) ، وقد روى عن الشافعى رحمه الله ، أنه أنشد واستشهد بهذين البيتين(٤) :

تَمَنَّى رجالٌ أن أمُوتَ ، وإن أمُتْ فتلكَ سبيلٌ لستُ فيها بأوْحَد

فقُلْ للذى يبْغِى خلافَ الذى مضى : تهيَّأ لأخرَى مثْلها فكأن قد

وقوله : (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) ، أى : نختبركم بالمصائب تارة ، وبالنعم أخرى ، لننظر من يشكر ومن يكفر ، ومن يصبر ومن يقنط ، كما قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (ونبلوكم) ، يقول : نبتليكم بالشر والخير فتنة ، بالشدة والرخاء ، والصحة والسقم ، والغنى والفقر ، والحلال والحرام ، والطاعة والمعصية والهدى والضلال(٥) .

وقوله : (وإلينا ترجعون) ، أى : فنجازيكم بأعمالكم .

---

(١) سورة الأنعام ، آية : ٩٦ .

(٢) سورة الرحمن ، آية : ٢٦ ، ٢٧ .

(٣) ينظر تفسير سورة الكهف ، الآية ٨٢ : ١٨٤/٥ .

(٤) مناقب الشافعى للبيهقى : ٧٣/٢ .

(٥) تفسير الطبرى : ١٩/١٧ .

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾

يقول تعالى لنبيه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ : (وإذا رآك الذين كفروا) ، يعني : كفار قريش ، كأبي جهل وأشباهه ، (إن يتخذونك إلا هزوا) ، أي : يستهزئون بك وينتقصونك ، يقولون : (أهذا الذي يذكر آلهتكم) ، يعنون : أهذا الذي يسب آلهتكم ويسفه أحلامكم ، قال الله تعالى : (وهم بذكر الرحمن هم كافرون) ، أي : وهم كافرون بالله ، ومع هذا يستهزئون برسول الله ، كما قال في الآية الأخرى : (وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا ، أهذا الذي بعث الله رسولا ، إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها ، وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا(١)) .

وقوله : (خلق الإنسان من عجل) ، كما قال في الآية الأخرى : (وكان الانسان عجولا(٢)) ، أي : في الأمور .

قال مجاهد : خلق الله آدم بعد كل شيء من آخر النهار ، من يوم خلق الخلق فلما أحيا الروح عينيه ولسانه ورأسه ، ولم يبلغ أسفله قال : يارب ، استعجل بخلقي قبل غروب الشمس(٣) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا يزيد بن هارون ، أنبأنا محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثي ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أهبط منها ، وفيه تقوم الساعة ، وفيه ساعة لا يوافقها مؤمن يصلي ـ وقبض أصابعه ، قللها ـ فسأل الله خيراً ، إلا أعطاه إياه» قال أبوسلمة : فقال عبد الله بن سلام : قد عرفت تلك الساعة ، وهي آخر ساعات النهار من يوم الجمعة ، وهي التي خلق الله فيها آدم ، قال الله تعالى : (خلق الإنسان من عجل سأريكم آياتي فلا تستعجلون) .

والحكمة في ذكر عجلة الإنسان ها هنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول ـ صلوات الله عليه ـ وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلت ، فقال الله تعالى : (خلق الإنسان من عجل) ، لأنه تعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، يؤجل ثم يعجل ، وينظر ثم لا يؤخر ، ولهذا قال : (سأريكم آياتي) ، أي : نقمي وحكمي واقتداري على من عصاني ، (فلا تستعجلون) .

---

(١) سورة الفرقان ، آية : ٤١ ، ٤٢ .
(٢) سورة الإسراء ، آية : ١١ .
(٣) ينظر تفسير سورة الإسراء ، آية ١١ : ٥/٤٦ .

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾

يخبر تعالى عن المشركين أنهم يستعجلون أيضاً بوقوع العذاب بهم ، تكذيباً وجحوداً وكفراً وعناداً واستبعاداً ، فقال : (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) ، قال الله تعالى : (لو يعلم الذين كفروا ، حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم) ، أى : لو تيقنوا أنها واقعة بهم لا محالة لما استعجلوا ، ولو يعلمون حين يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، (لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل[١]) ، (لهم من جهنم مهاد ، ومن فوقهم غواش[٢]) ، وقال فى هذه الآية : (حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم) ، وقال : (سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار[٣]) ، فالعذاب محيط بهم من جميع جهاتهم ، (ولا هم ينصرون) ، أى : لا ناصر لهم ، كما قال : (وما لهم من الله من واق[٤]) .

وقوله : (بل تأتيهم بغتة) ، أى : تأتيهم النار بغتة ، أى : فجأة (فتبهتهم) ، أى : تَذْعَرُهم[٥] فيستسلمون لها حائرين ، لا يدرون ما يصنعون ، (فلا يستطيعون ردها) ، أى : ليس لهم حيلة فى ذلك ، (ولا هم ينظرون) ، أى : ولا يُؤَخر عنهم ذلك ساعة واحدة .

وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾

يقول تعالى مسلياً لرسوله عما آذاه به المشركون من الاستهزاء والتكذيب : (ولقد استهزىء برسل من قبلك ، فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون) ، يعنى : من العذاب الذى كانوا يستبعدون وقوعه ، كما قال : (ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا ، وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبإ المرسلين[٦]) .

---

(١) سورة الزمر ، آية : ١٦ .
(٢) سورة الأعراف ، آية : ٤١ .
(٣) سورة إبراهيم ، آية : ٥٠ .
(٤) سورة الرعد ، آية : ٣٤ .
(٥) أى : تفزعهم .
(٦) سورة الأنعام ، آية : ٣٤ .

ثم ذكر تعالى نعمته على عبيده فى حفظه لهم بالليل والنهار ، وكلاءته وحراسته لهم بعينه التى لا تنام ، فقال : (قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن) ، أى : بدل الرحمن ، بمعنى غيره ، كما قال الشاعر(١) :

جَارِيَةٌ لَمْ تَلْبَسِ المُرَقَّقَا * وَلَمْ تَذُقْ مِنَ البُقُولِ الفُسْتُقَا

أى : لم تذق بدل البقول الفستق .

وقوله تعالى : (بل هم عن ذكر ربهم معرضون) ، أى : لا يعترفون بنعمه عليهم وإحسانه إليهم ، بل يعرضون عن آياته وآلائه، ثم قال : (أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا) ؟ استفهام إنكار وتقريع وتوبيخ ، أى : ألهم آلهة تمنعهم وتكلؤهم غيرنا ؟ ليس الأمر كما توهموا ، ولا كما زعموا ، ولهذا قال : (لا يستطيعون نصر أنفسهم) ، أى : هذه [الآلهة] التى استندوا إليها غير الله لا يستطيعون نصر أنفسهم .

وقوله : (ولا هم منا يُصحبون) ، قال العوفى ، عن ابن عباس : (ولا هم منا يصحبون) ، أى : يُجارون . وقال قتادة : لا يصحبون بخير . وقال غيره (ولا هم منا يصحبون) : يمنعون(٢) .

بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين : إنما غرّهم وحَمَلهم على ما هم فيه من الضلال ، أنهم مُتّعوا فى الحياة الدنيا ونعموا وطال عليهم العمر فيما هم فيه ، فاعتقدوا أنهم على شىء .

ثم قال واعظاً لهم : (أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها) ، اختلف المفسرون فى معناه ، وقد أسلفناه فى سورة « الرعد »(٣) ، وأحسن ما فسر بقوله تعالى : (ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى ، وصرفنا الآيات لعلّهم يرجعون(٤)) .

وقال الحسن البصرى : يعنى بذلك ظهورَ الإسلام على الكفر .

والمعنى أفلا يعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه ، وإهلاكه الأمم المكذبة والقرى الظالمة ، وإنجائه لعباده المؤمنين . ولهذا قال : (أفهم الغالبون) ، يعنى : بل هم المغلوبون الأسفلون الأخسرون الأرذلون .

---

(١) هو أبو نخيلة يعمر بن حزن الراجز . والرجز فى الشعر والشعراء : ٦٠٢ ، والمعرب للجواليقى : ٢٨٦ ، ومغنى اللبيب ، طبعة بيروت : ٣٥٥ . واللسان ، مادة : (فستق) .

(٢) تفسير الطبرى : ١٧/٢٣ .

(٣) ينظر : ٣٩٢/٤ ، ٣٩٣ .

(٤) [illegible] : الأحقاف ، آية : ٢٧ .

وقوله : (قل : إنما أنذركم بالوحى) ، أى : إنما أنا مبلغ عن الله ، ما أنذركم به من العذاب والنكال ليس ذلك إلا مما أوحاه الله إلىّ ، ولكن لا يجدى هذا عمن أعمى الله بصيرته ، وختم على سمعه وقلبه ، ولهذا قال : (ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذَرون) :

وقوله : (ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن : يا ويلنا إنا كنا ظالمين) ، أى : ولئن مَسَّ هؤلاء المكذبين أدنى شىء من عذاب الله ، ليعترفُنّ بذنوبهم ، وأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم فى الدنيا .

وقوله : (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئاً) ، أى : ونضع الموازين العدل ليوم القيامة . الأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد ، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه .

وقوله : (فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) ، كما قال تعالى : (ولا يظلم ربك أحداً[1]) ، وقال : (إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ، ويؤت من لدنه أجراً عظيماً[2]) ، وقال لقمان : (يا بنى ، إنها إن تلك مثقال حبة من خرْدَل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله ، إن الله لطيف خبير[3]) .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم[4] » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إبراهيم بن إسحاق الطالقانى ، حدثنا ابن المبارك ، عن ليث بن سعد ، حدثنى عامر بن يحيى ، عن أبى عبد الرحمن الحُبُلى قال : سمعت عبد الله بن عَمْرو بن العاص يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله عز وجل يستخلص رجلا من أمتى ، على رءوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر عليه تسعة وتسعين سِجلاًّ ، كل سجلّ مد البصر ، ثم يقول : أتنكر من هذا شيئاً ؟ أظلمتك كَتَبَتِى الحافظون ؟ قال : لا ، يارب . قال : أفلك عذر أو حسنة ؟ قال : فَيُبْهَتُ الرجل فيقول : لا ، يارب . فيقول : بلى ، إن لك عندنا حسنة واحدة ، لا ظلم اليوم عليك . فيخرج له بطاقة فيها : « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله » ، فيقول : أحضروه . فيقول : يارب ، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول : إنك لا تظلم . قال : فتوضع السجلات فى كفة [والبطاقة فى كفة][5] ، قال : فطاشت [6] السجلات وثقلت البطاقة . قال : ولا يثقل شىء بسم الله الرحمن الرحيم[7] » .

---

(١) سورة الكهف ، آية : ٤٩ .
(٢) سورة النساء ، آية : ٤٠ .
(٣) سورة لقمان ، آية : ١٦ .
(٤) البخارى ، كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى (ونضع الموازين القسط) : ٩/١٩٨ ، ١٩٩ . ومسلم ، كتاب الذكر ، باب « فضل التهليل والتسبيح والدعاء » : ٨/ ٧٠ .
(٥) ما بين القوسين غير ثابت فى المسند ومخطوطة الأزهر ، ومكانه بياض فيها . والمثبت عن الطبعات السابقة ، والترمذى وابن ماجه .
(٦) أى : خفت .
(٧) مسند الإمام أحمد ، ٢/٢١٣ .

ورواه الترمذي وابن ماجه ، من حديث الليث بن سعد ، به ، وقال الترمذي : حسن غريب[1] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة ، حدثنا ابن لَهيعة ، عن عمرو بن يحيى ، عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « توضع الموازين يوم القيامة ، فيؤتى بالرجل ، فيوضع في كفة ، فيوضع ما أحصيَ عليه ، فتمايل به الميزان ، قال : فيبعث به إلى النار ، قال : فإذا أدبر به إذا صائح من عند الرحمن عز وجل يقول : [لا تعجلوا] [2] فإنه قد بقي له . فيؤتى ببطاقة فيها « لا إله إلا الله » فتوضع مع الرجل في كفة ، حتى يميل به الميزان[3] » .

وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا أبو نوح قُرَاد ، أنبأنا ليث بن سعد ، عن مالك بن أنس ، عن الزهري ، عن عروة ، عن عائشة ، أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس بين يديه ، فقال : يارسول الله ، إن لي مملوكين يكذّبونني ويخونونني ويعصونني ، وأضربهم وأشتمهم ، فكيف أنا منهم ؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : يُحْسَب ماخانوك وعصوك وكذبوك وعقابُك إياهم[4] ، إن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلا لك [عليهم[5]] ، وإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم ، كان كفافاً ، لا لك ولا عليك ، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم ، اقتُصَّ لهم منك الفضل الذي يبقى قبلك » . فجعل الرجل يبكي بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ويهتف ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما له أما يقرأ كتاب الله ؟ : (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) . فقال الرجل : يا رسول الله ، ما أجد شيئاً خيراً من فراق هؤلاء — يعني عبيده — إني أشهدك أنهم أحرار كلهم[6] .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾

قد تقدم التنبيه على أن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد — صلوات الله وسلامه عليهما — وبين كتابيهما ، ولهذا قال : (ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان) .

---

(١) تحفة الأحوذي ، أبواب الإيمان ، باب « فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله » ، الحديث ٢٧٧٦ : ٧/٣٩٥ — ٣٩٧ . وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب « ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة » . الحديث ٤٣٠٠ : ٢/١٤٣٧ .

(٢) ما بين القوسين عن المسند .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٢/٢٢١ ، ٢٢٢ .

(٤) لفظ المسند : « ما خانوك وعصوك ويكذبونك وعقابك إياهم ، إن كان ... » . ولفظ الترمذي يوافق مخطوطة الأزهر . والمعنى : يحسب ما خانوك ، ويحسب عقابك إياهم .

(٥) ما بين القوسين عن المسند .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٦/٢٨٠ ، ٢٨١ ، وأخرجه الترمذي في تفسير سورة الأنبياء ، وقال : « هذا حديث غريب ، لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن غزوان (يعني أبا نوح قراداً) . وقد روى أحمد بن حنبل ، عن عبد الرحمن بن غزوان

قال مجاهد : يعني الكتاب . وقال أبو صالح : التوراة . وقال قتادة : التوراة حلالها وحرامها ، وما فرق الله بين الحق والباطل . وقال ابن زيد : يعني النصر[(١)].

وجامع القول فى ذلك أن الكتب السماوية تشتمل على التفرقة بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والغي والرشاد ، والحلال والحرام ، وعلى ما يحصل نوراً فى القلوب ، وهداية وخوفاً وإنابة وخشية ، ولهذا قال : (الفرقان وضياء وذكرا للمتقين) ، أى : [تذكيرا] لهم وعظة .

ثم وصفهم فقال : (الذين يخشون ربهم بالغيب) ، كقوله : (من خشي الرحمن بالغيب ، وجاء بقلب منيب[(٢)]) ، وقوله : (إن الذين يخشون ربهم بالغيب ، لهم مغفرة وأجر كبير[(٣)]) .

(وهم من الساعة مشفقون) ، أى : خائفون وجلون .

ثم قال تعالى : (وهذا ذكر مبارك أنزلناه) ، يعنى القرآن العظيم ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، (أفأنتم له منكرون) ، أى : أفتنكرونه وهو فى غاية [الجلاء] والظهور ؟

* وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾

يخبر تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام ، أنه آتاه رشده من قبل ، أى : من صغره ألهمه الحق والحجة على قومه ، كما قال : (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه[(٤)]) ، وما يذكر من الأخبار عنه فى إدخال أبيه له فى السَّرَب[(٥)] ، وهو رضيع ، وأنه خرج به بعد أيام ، فنظر إلى الكواكب والمخلوقات ، فتبصر فيها وما قصَّه كثير من المفسرين وغيرهم — فعامتها أحاديث بنى إسرائيل ، فما وافق منها الحق مما بأيدينا عن المعصوم ، قبلناه لموافقته الصحيح ، وما خالف شيئاً من ذلك رددناه ، وما ليس فيه موافقة ولا مخالفة لا نصدقه ولا نكذبه ، بل نجعله وقفا ، وما كان من هذا الضرب منها فقد ترخَّص كثير من السلف فى روايتها ، وكثير من ذلك مما لا فائدة فيه ، ولا حاصل له مما ينتفع به فى الدين . ولو كانت فيه فائدة تعود على المكلفين فى دينهم لبينته هذه الشريعة الكاملة الشاملة : والذى [نسلكه[(٦)]] فى هذا التفسير الإعراض عن كثير من الأحاديث الإسرائيلية ، لما فيها من تضييع الزمان ، ولما اشتمل

---

(١) تنظر هذه الآثار فى تفسير الطبرى : ١٧/٢٦ .
(٢) سورة «ق» ، آية : ٥٠ .
(٣) سورة الملك ، آية : ١٢ .
(٤) سورة الأنعام ، آية : ٨٣ .
(٥) ينظر ذلك فى سورة الأنعام : ٣/٢٨٥ .
(٦) فى المخطوطة : «والذى يذكر فى هذا ...» . والمثبت من الطبعات السابقة .

عليه كثير [منها] من الكذب المروج عليهم ، فإنهم لا تفرقة عندهم بين صحيحها وسقيمها ، كما حرره الأئمة الحفاظ المتقنون من هذه الأمة .

والمقصود ها هنا أن الله تعالى أخبر أنه قد آتى إبراهيم رشده من قبل، أى : من قبل ذلك . وقوله : (وكنا به عالمين) ، أى : وكان أهلا لذلك .

ثم قال : (إذ قال لأبيه وقومه : ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون) ، هذا هو الرشدالذى أوتيه من صغره الإنكار على قومه فى عبادة الأصنام من دون الله عز وجل، فقال : (ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون) ، أى أى : معتكفون على عبادتها .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا الحسن بن محمد الصباح ، حدثنا أبو معاوية الضرير ، حدثنا سعد بن طريف ، عن الأصبغ بن نُباتة ، قال : مر علىّ على قوم يلعبون بالشطرنج ، فقال : ماهذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟ لأن يمس صاحبكم جمراً حتى يطفأ خير له من أن يمسّها .

(قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين) ، لم يكن لهم حجة سوى صنيع آبائهم الضلال ، ولهذا قال : (لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين) ، أى الكلام مع آبائكم الذين احتججتم بصنيعهم كالكلام معكم ، فأنتم وهم فى ضلال ، على غير الطريق المستقيم .

فلما سفه أحلامهم ، وضلل آباءهم ، واحتقر آلهتهم (قالوا : أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين) ؟ يقولون : هذا الكلام الصادر عنك تقوله لاعباً أو محقا فيه ؟ فإنا لم نسمع به قبلك . قال : (بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن) ، أى : ربكم الذى لا إله غيره ، هو الذى خلق السموات [والأرض] وما حوت من المخلوقات ، الذى ابتدأ خلقهن ، وهو الخالق لجميع الأشياء (وأنا على ذلكم من الشاهدين) ، أى : وأنا أشهد أنه لا إله غيره ، ولا رب سواه .

وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾

ثم أقسم الخليل قسما أسمعه بعض قومه ليكيدن أصنامهم ، أى : ليحرصن على أذاهم وتكسيرهم بعد أن يُوَلّوا مدبرين ، أى : إلى عيدهم . وكان لهم عيد يخرجون إليه .

قال السدى : لما اقترب وقت ذلك العيد قال أبوه : يا بنى ، لو خرجت معنا إلى عيدنا لأعجبك ديننا ! فخرج فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه إلى الأرض وقال : إنى سقيم . فجعلوا يمرون عليه وهو صريع فيقولون :

مه(١) ! فيقول : إنى سقيم . فلما جاز عامتهم وبقى ضُعَفاؤهم ، قال : (تالله لأكيدن أصنامكم) ، فسمعه أولئك(٢) .

وقال أبو إسحاق ، عن أبى الأحوص ، عن عبد الله قال : لما خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم ، مروا عليه فقالوا : يا إبراهيم ، ألا تخرج معنا ؟ قال : إنى سقيم . وقد كان بالأمس قال : (تالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين) ، فسمعه ناس منهم .

وقوله : (فجعلهم جذاذا) ، أى : حطاما كسرها كلها (إلا كبيراً لهم) ، يعنى إلا الصنم الكبير عندهم ، كما قال : (فراغ عليهم ضرباً باليمين(٣)) .

وقوله : (لعلهم إليه يرجعون) : ذكروا أنه وضع القَدُوم فى يد كبيرهم ، لعلهم يعتقدون أنه هو الذى غارَ لنفسه ، وأنِفَ أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار ، فكسرها .

(قالوا : من فعل هذا بآلهتنا ؟ إنه لمن الظالمين) ، أى : حين رجعوا وشاهدوا ما فعله الخليل بأصنامهم من الإهانة والإذلال الدال على عدم إلهيتها، وعلى سخافة عقول عابديها (قالوا : من فعل هذا بآلهتنا ؟ إنه لمن الظالمين) ، أى : فى صنيعه هذا . (قالوا : سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم) ، أى : قال من سمعه يحلف إنه ليكيدنهم : (سمعنا فتى) ، أى : شاباً (يذكرهم يقال له إبراهيم) .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عوف ، حدثنا سعيد بن منصور ، حدثنا جرير بن عبد الحميد ، عن قابوس [عن أبيه] عن ابن عباس قال : ما بعث الله نبيا إلا شاباً ، ولا أوتى العلم عالم إلا وهو شاب، وتلا هذه الآية : (قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم) .

وقوله : (قالوا فأتوا به على أعين الناس) ، أى : على رءوس الأشهاد فى الملإ الأكبر بحضرة الناس كلهم ، وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم أن يَتَبَيَّنَ فى هذا المحفل العظيم كثرةُ جهلهم وقلة عقلهم فى عبادة هذه الأصنام، التى لا تدفع عن نفسها ضرا ، ولا تملك لها نصرا ، فكيف يُطلَبُ منها شىء من ذلك ؟ .

(قالوا : أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ قال : بل فعله كبيرهم هذا) ، يعنى الذى تركه لم يكسره ، (فاسألوهم إن كانوا ينطقون) . وإنما أراد بهذا أن يبادروا من تلقاء أنفسهم فيعترفوا أنهم لا ينطقون ، فإن هذا لا يصدر عن هذا الصنم ، لأنه جماد .

وفى الصحيحين من حديث هشام بن حسان(٤)، عن محمد بن سيرين، عن أبى هريرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن إبراهيم عليه السلام لم يكذب غير ثلاث، ثنتين فى ذات الله : قوله : (بل فعله كبيرهم هذا) ،

---

(١) أى : ماذا بك ؟

(٢) الأثر فى تفسير الطبرى : ١٧/٢٨ ، ٢٩

(٣) سورة الصافات ، آية : ٩٣ .

(٤) كذا ، والذى أمامنا فى الصحيحين من طريق أيوب السختيانى ، عن محمد بن سيرين . ورواية هشام بن حسان عن ابن سيرين عند النسائى ، والبزار وابن حبان . ينظر فتح البارى ، كتاب الأنبياء ، باب قول الله تعالى : (واتخذ الله إبراهيم خليلا) : ٢٤٦/٦ .

وقوله : (إني سقيم) » . قال : وبينا هو يسير في أرض جبّار من الجبابرة، ومعه سارة، إذ نزل منزلا ، فأتى الجبارَ رجلٌ فقال : إنه نزل بأرضك رجل معه امرأة أحسنُ الناس . فأرسل إليه فجاء ، فقال : ماهذه المرأة منك ؟ قال : هي أختي . قال : فاذهب فأرسل بها إليّ . فانطلق إلى سارة فقال : إن هذا الجبار سألني عنك ، فأخبرته أنك أختي ، فلا تُكذّبيني عنده ، فإنك أختي في كتاب الله ، وإنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك . فانطلق بها إبراهيم ، ثم قام يصلي ، فلما أن دخلت عليه فرآها أهوى إليها ، فتناولها فأُخذَ أخذاً شديدا ، فقال : ادعي الله لي ولا أضرك . فدعت له فأرسل ، فأهوى إليها فتناولها ، فأُخذ بمثلها أو أشدّ . ففعل ذلك الثالثة فأُخذ ، [فذكر] مثل المرتين الأوليين ، فقال : ادعي الله فلا أضرك . فدعت له فأرسل ، ثم [دعا] أدنى حُجّابه فقال : إنك لم تأتني بإنسان ، وإنما أتيتني بشيطان ، أخرجها وأعطها هاجرَ . فأخرجت وأعطيت هاجر ، فأقبلت . فلما أحس إبراهيم بمجيئها انفتل من صلاته ، قال : مَهْيَم (١) . قالت : كفّ الله كيد (٢) الكافر الفاجر ، وأخدمني هاجر . قال محمد بن سيرين : وكان أبو هريرة إذا حدث بهذا الحديث قال : فتلك أمكم يا بني ماء السماء (٣) .

﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن قوم إبراهيم حين قال لهم ما قال : (فرجعوا إلى أنفسهم) ، أي : بالملامة في عدم احترازهم وحراستهم لآلهتهم ، فقالوا : (إنكم أنتم الظالمون) ، أي : في ترككم لها مهملة لا حافظ عندها ، (ثم نكسوا على رءوسهم)، أي : ثم أطرقوا في الأرض فقالوا : (لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) ، [قال قتادة : أدركت القوم حيرة سوء ، فقالوا : (لقد علمت ما هؤلاء ينطقون (٤)] .

وقال السدّي : (ثم نكسوا على رءوسهم) ، أي : في الفتنة .

وقال ابن زيد : أي في الرأي .

وقول قتادة أظهر في المعنى ، لأنهم إنما فعلوا ذلك حيرة وعجزا ، ولهذا قالوا له : (لقد علمت ماهؤلاء ينطقون) ، فكيف تقولُ لنا : سلوهم إن كانوا ينطقون، وأنت تعلم أنها لا تنطق ؟. فعندها قال لهم إبراهيم لما اعترفوا بذلك :

---

(١) أي : ما شأنك ، وما خبرك ؟

(٢) في المخطوطة : « أبي الله » . وفي الطبعات السابقة : « كفى الله » . والمثبت من مسلم . وفي البخاري : « رد الله كيد الكافر » .

(٣) يعني العرب ، لخلوص نسبهم وصفائه ، وقيل : لأن أكثرهم أصحاب مواش ، وعيشهم من المرعى والخصب ، وما ينبت بماء السماء .

والحديث رواه البخاري ، كتاب الأنبياء ، باب قول الله تعالى:(واتخذ الله ابراهيم خليلا) : ١٧١/٤ . وكتاب النكاح ، باب اتخاذ السراري : ٧/٧ . ومسلم ، كتاب الفضائل ، باب « من فضائل ابراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم »: ٩٨/٧ ، ٩٩ .

(أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئاً ولا يضركم) ، أى : إذا كانت لا تنطق وهى لا تضر ولا تنفع ، فلم تعبدونها من دون الله ، (أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون) ، أى : أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الغليظ ، الذى لا يروج إلا على جاهل ظالم فاجر ؟. فأقام عليهم الحجة ، وألزمهم بها ، ولهذا قال تعالى : (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه (١)) ... الآية .

قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾

لما دَحَضت حجتهُم ، وبان عجزهم ، وظهر الحق ، واندفع الباطل ، عدلوا إلى استعمال جاه ملكهم ، فقالوا : (حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين) : فجمعوا حطبا كثيرا جدا — قال السدى : حتى إن كانت المرأة تمرض ، فتَنْذِرُ إن عُوفيت أن تحمل حطباً لحريق إبراهيم — ثم جعلوه فى جَوْبَة(٢) من الأرض ، وأضرموها نارا ، فكان لها شرر عظيم ولهب مرتفع ، لم توقد قط نار مثلها ، وجعلوا إبراهيم عليه السلام فى كفة المنجنيق بإشارة رجل من أعراب فارس من الأكراد — قال شُعَيب الجبائى : اسمه هيزن — فخسف الله به الأرض ، فهو يتجلجل(٣) فيها إلى يوم القيامة ، فلما ألقوه قال : « حسبى الله ونعم الوكيل » : كما رواه البخارى ، عن ابن عباس أنه قال : (حسبى الله ونعم الوكيل) ، قالها إبراهيم حين ألقى فى النار ، وقالها محمد حين قالوا : (إن الناس قد جمعوا لكم ، فاخشوهم [فزادهم إيمانا] : وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل (٤)) .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا أبو هشام ، حدثنا إسحاق بن سليمان ، عن أبى جعفر ، عن عاصم ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما ألقى إبراهيم عليه السلام فى النار قال : اللهم ، إنك فى السماء واحد ، وأنا (٥) فى الأرض واحد أعبدك » .

ويروى أنه لما جعلوا يوثقونه قال : لا إله إلا أنت سبحانك لك الحمد ، ولك الملك ، (لا شريك لك (٦)) .

وقال شعيب الجبائى : كان عمره ست عشرة سنة : فالله أعلم .

وذكر بعض السلف أنه عرض له جبريل وهو فى الهواء ، فقال : ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا ، [وأما من الله فبلى] .

---

(١) سورة الأنعام ، آية : ٩٣ .
(٢) تقدم تفسير « الجوبة » : ٣/٧٨ .
(٣) أى : يغوص . والأثر فى تفسير الطبرى : ١٧/٣٢ .
(٤) تقدم الحديث فى سورة آل عمران ، عند الآية ١٧٣ : ٣/١٤٢ ، وهو بجناه هناك .
(٥) فى المخطوطة : « وإنك فى الأرض » . والمثبت من الطبعات السابقة ، والدر المنثور : ٤/٣٢٢ .
(٦) الأثر فى الدر المنثور عن ابن جرير الطبرى : ٤/٣٢٢ .

وقال سعيد بن جبير — ويروى عن ابن عباس أيضا — قال : لما ألقى إبراهيم ، جعل خازن المطر يقول : متى أومر بالمطر فأرسله ؟ قال : فكان أمر الله أسرع من أمره ، قال الله : (يا نار ، كوني برداً وسلاما على إبراهيم) ، قال : لم يبق نار في الأرض إلا طَفِئَتْ (١) .

وقال كعب الأحبار : لم ينتفع [أحد] يومئذ بنار ، ولم تحرق النار من إبراهيم سوى وثاقه (٢) .

وقال الثورى ، عن الأعمش ، عن شيخ ، عن على بن أبي طالب : (قلنا : يا نار ، كوني بردا وسلاما على إبراهيم) [قال : بَرَدَتْ عليه حتى كادت تقتله ، حتى قيل : (وسلاما (٣)] ، قال : لا تَضُرّيه .

وقال ابن عباس ، وأبو العالية : لولا أن الله عز وجل قال (وسلاما) لآذى إبراهيم بَرْدُها .

وقال جُوَيبر ، عن الضحاك : (كوني برداً وسلاما على إبراهيم) ، قال : صنعوا له حظيرة من حَطَب جَزْل ، وأشعلوا فيه النار من كل جانب ، فأصبح ولم يصبه منها شيء ، حتى أخمدها الله — قال : ويذكرون أن جبريل كان معه يمسح وجهَه من العرق ، فلم يُصبه منها شيء غيرَ ذلك .

وقال السدى : كان معه فيها ملك [الظل] .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا (٤) على بن الحسين ، حدثنا يوسف بن موسى ، حدثنا مهران ، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد ، عن المنهال بن عمرو قال : أخبرت أن إبراهيم ألقى في النار ، فقال : كان فيها إما خمسين وإما أربعين ، قال : ما كنت أياما وليالى قطّ أطيبَ عيشا إذ كنت فيها ، ووددت أن عيشى وحياتى كلها مثل عيشى إذ كنت فيها (٥) .

وقال أبو زرعة بن عمرو بن جرير ، عن أبي هريرة قال : إن أحسن [شيء] قال أبو إبراهيم — لما رفع عنه الطبق وهو في النار ، وجده يرشح جبينه — قال عند ذلك : نِعْمَ الربّ ربك يا إبراهيم .

وقال قتادة : لم يأت يومئذ دابة إلا أطفأت عنه النار ، إلا الوَزَغ (٦) — وقال الزهرى : أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله وسماه فويسقا .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو عبيد الله (٧) ابن أخي ابن وهب ، حدثني عمي ، حدثنا جرير بن حازم ، أن نافعا حدثه قال : حدثتني مولاة الفاكه بن المغيرة المخزومى قالت : دخلت على عائشة فرأيت في بيتها رمحا ، فقلت : يا أم المؤمنين ، ما تصنعين بهذا الرمح ؟ فقالت : نقتل به هذه الأوزاغ ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن

---

(١) تفسير الطبرى : ١٧/٣٣ .

(٢) تفسير الطبرى : ١٧/٣٤ .

(٣) ما بين القوسين سقط من تفسير ابن كثير ، وقد أثبتناه من تفسير الطبرى : ١٧/٣٤ . وهو سقط نظر .

(٤) في المخطوطة : « وقال على بن أبي حاتم » . وهو خطأ ، والصواب ما أثبتناه ، وهو : أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم .

(٥) الأثر في الدر المنثور من الطبرى وابن أبي حاتم : ٤/٣٢٢ .

(٦) الوزغ — بفتح الواو والزاى — : واحده وزغة ، وهى التى يقال لها : سام ابرص .

(٧) في المخطوطة : « حدثنا عبيد الله » ، وهو خطأ ، وقد ترجمنا لأبي عبيد الله هذا في : ٥/٢٦٨ .

إبراهيم حين أُلقي فى النار ، لم يكن فى الأرض دابة إلا تطفىء النار ، غير الوزغ ، فإنه كان ينفخ على إبراهيم ، فأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله .

وقوله : (وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين) ، أى : المغلوبين الأسفلين ، لأنهم أرادوا بنبي الله كيدا ، فكادهم الله ونجاه من النار ، فغلبوا هنالك .

وقال عطية العوفى : لما أُلقِىَ إبراهيم فى النار ، جاء ملكهم لينظر إليه فطارت شرارة فوقعت على إبهامه ، فأحرقته مثل الصوفة .

﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن إبراهيم ، أنه سلمه الله من نار قومه ، وأخرجه من بين أظهرهم مهاجرا إلى بلاد الشام ، إلى الأرض المقدسة منها ، كما قال الربيع بن أنس ، عن أبي العالية ، عن أبيّ بن كعب فى قوله : (إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين) ، قال : الشام ، وما من ماء عذب إلا يخرج من تحت الصخرة . وكذا قال أبو العالية أيضاً .

وقال قتادة : كانا بأرض العراق ، فأنجيا إلى الشام . [وكان يقال للشام عماد دار الهجرة ، وما نقص من الأرض زيد فى الشام (١)] وما نقص من الشام زيد فى فلسطين . وكان يقال : هى أرض المحشر والمنشر ، وبها ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام ، وبها يهلك المسيح الدجال .

وقال كعب الأحبار فى قوله : (إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين) : إلى حران .

وقال السدى : انطلق إبراهيم ولوط قِبَل الشام ، فلقى إبراهيم سارة ، وهى ابنة ملك حران ، وقد طعنت على قومها فى دينهم ، فتزوجها على أن لا يُغَيِّرها (٢) .

رواه ابن جرير (٣) ، وهو غريب [والمشهور أنها ابنة عمه ، وأنه خرج بها مهاجراً من بلاده (٤)] .

وقال العَوْفِيّ ، عن ابن عباس : إلى مكة ، ألا تسمع قوله : (إن أول بيت وُضِع للناس ، للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين (٥)) .

---

(١) ما بين القوسين من تفسير الطبرى : ١٧ / ٣٥ .
(٢) أى : لا يتزوج عليها ، يقال : أغار الرجل أهله ، إذا تزوج عليها .
(٣) تفسير الطبرى : ١٧ / ٣٥ .
(٤) ما بين القوسين من الطبعات السابقة ، ومكانه فراغ يسع أربع كلمات .
(٥) تفسير الطبرى : ١٧ / ٣٥ ، ٣٦ .

وقوله : (ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة) ، قال عطاء ، ومجاهد : عطية .

وقال ابن عباس ، وقتادة ، والحكم بن عُيَيْنة : النافلة ولد الولد . يعنى أن يعقوب ولد إسحاق ، كما قال : (فبشرناها بإسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب) .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : سأل واحدا فقال : (رب ، هب لى من الصالحين) ، فأعطاه الله إسحاق ، وزاده يعقوب نافلة .

(وكلا جعلنا صالحين) ، أى : الجميع أهل خير وصلاح ، (وجعلناهم أئمة) ، أى : يقتدى بهم ، (يهدون بأمرنا) ، أى : يدعون إلى الله بإذنه ، ولهذا قال : (وأوحينا إليهم فعلَ الخيرات ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة) ، من باب عطف الخاص على العام ، (وكانوا لنا عابدين) ، أى : فاعلين لما يأمرون الناس به .

ثم عطف بذكر لوط ـ وهو لوط بن هاران بن آزر (١) ـ كان قد آمن بإبراهيم واتبعه ، وهاجر معه ، كما قال تعالى : (فآمن له لوط وقال : إنى مهاجر إلى ربى (٢)) ، فآتاه الله حكما وعلما ، وأوحى إليه ، وجعله نبيا ، وبعثه إلى سَدُوم (٣) وأعمالها ، فخالفوه وكذبوه ، فأهلكهم الله ودَمَّر عليهم ، كما قص خبرهم فى غير ما موضع من كتابه العزيز ، ولهذا قال : (ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث ، إنهم كانوا قوم سوء فاسقين . وأدخلناه فى رحمتنا إنه من الصالحين) .

وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾

يخبر تعالى عن استجابته لعبده ورسوله نوح عليه السلام ، حين دعا على قومه لما كذبوه : (فدعا ربه أنّى مغلوب فانتصر (٤)) ، (وقال نوح : رب ، لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا : إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً (٥)) ، ولهذا قال هاهنا : (إذ نادى من قبل ، فاستجبنا له فنجيناه وأهله) ، أى : الذين آمنوا به ، كما قال : (وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن ، وما آمن معه إلا قليل) (٦) .

وقوله : (من الكرب العظيم) ، أى : من الشدة والتكذيب والأذى ، فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم

---

(١) تنظر جمهرة أنساب العرب ، النشرة الثانية : ٥٠٤ .
(٢) سورة العنكبوت : ٢٦ .
(٣) قال المدائنى : سدوم هى : سرمين ـ بفتح السين ، وسكون الراء ، وكسر الميم : وهى بليدة مشهورة من أعمال حلب : « مراصد الاطلاع » .
(٤) سورة القمر ، آية : ١٠ .
(٥) سورة نوح ، آية : ٢٦ ، ٢٧ .
(٦) سورة هود آية : ٤٠ .

إلى الله عز وجل ، فلم يؤمن به منهم إلا القليل ، وكانوا يقصدون (١) لأذاه ، ويتواصون قرنا بعد قرن ، وجيلا بعد جيل ، على خلافه .

وقوله : (ونصرناه من القوم) ، أى : ونجيناه وخلصناه منتصرا من القوم (الذين كذبوا بآياتنا ، إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين) ، أى : أهلكهم الله بعامة ، ولم يُبْقِ على وجه الأرض منهم أحداً ، إذ دعا عليهم نبيهم :

وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾

قال أبو إسحاق ، عن مُرّة ، عن ابن مسعود : كان ذلك الحرث كرما قد تَبَتَتْ عناقيده (٢) . وكذا قال شريح .

قال ابن عباس : النَّفْشُ الرعيُ .

وقال شُريح ، والزهرى ، وقتادة : النَّفْشُ بالليل — زاد قتادة : والهَمَلُ بالنهار .

قال ابن جرير : حدثنا أبو كريب وهارون بن إدريسَ الأصم قالا : حدثنا المحاربى ، عن أشعث ، عن أبى إسحاق ، عن مُرّة ، عن ابن مسعود فى قوله : (وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث ، إذ نفشت فيه غنم القوم) ، قال : كرم قد أنْبتَتْ عناقيده ، فأفسدَته — قال : فقضى داود بالغَنَم لصاحب الكَرْم ، فقال سليمان : غيرُ هذا يا نبى الله ! قال : وماذاك ؟ قال : تدفع الكرم إلى صاحب الغنم ، فيقوم عليه حتى يعود كما كان ، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيُصيب منها ، حتى إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه ، ودفعت الغنم إلى صاحبها ، فذلك قوله : (ففهمناها سليمان) (٣) .

وهكذا روى العَوْفى ، عن ابن عباس .

وقال حماد بن سلمة ، عن على بن زيد ، حدثنا خليفة ، عن ابن عباس قال : فحكم داود بالغنم لأصحاب الحرث ، فخرج الرِّعاء معهم الكلاب ، فقال لهم سليمان : كيف قضى بينكم ؟ فأخبروه ، فقال : لو وليت أمركم لقضيتُ بغير هذا ! فأخبر بذلك داود ، فدعاه فقال : كيف تقضى بينهم ؟ قال : أدفع الغنم إلى أصحاب الحرث ، فيكون لهم أولادها وألبانها وسلاؤها(٤) ومنافعها ، ويبذُر أصحاب الغنم لأهل الحرث مثلَ حرثهم ، فإذا بلغ الحرث الذى كان عليه [أخذ] أصحاب الحرث [الحرثَ] ردوا الغنم إلى أصحابها .

---

(١) القصد فى اللغة : إتيان الشىء ؛ تقول : قصدته ، وقصدت له ، وقصدت إليه .

(٢) تفسير الطبرى : ١٧/٣٨ .

(٣) السلاء — بكسر السين — : السمن .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا خديج ، عن أبي إسحاق ، عن مرة ، عن مسروق قال : الحرث الذى نفشت فيه الغنم إنما كان كرماً نفشت فيه الغنم ، فلم تدَع فيه ورقة ولا عنقوداً من عنب إلا أكلته ، فأتوا داود ، فأعطاهم رقابها ، فقال سليمان : لا ، بل تؤخذ الغنم فيعطاها أهلُ الكرم ، فيكون لهم لبنها ونفعها ، ويعطى أهل الغنم الكرم فيصلحوه ويعمروه حتى يعود كالذى كان ليلة نَفَشت فيه الغنم، ثم يُعطَى أهل الغنم غنمهم، وأهلُ الكرم كرمهم .

وهكذا قال شُرَيح ، ومُرّة ، ومجاهد ، وقتادة ، وابن زيد ، وغير واحد .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن أبي زياد ، حدثنا يزيد بن هارون ، أنبأنا أسماعيل ، عن عامر ، قال : جاء رجلان إلى شُرَيح ، فقال أحدهما إن شاة هذا قطعت غزلا لى ، فقال شريح : نهاراً أم ليلا ؟ فإن كان نهاراً فقد برئ صاحب الشاة ، وإن كان ليلا فقد ضَمِن ، ثم قرأ : (وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه (١)) ... الآية .

وهذا الذى قاله شُرَيح شبيه بما (٢) رواه الإمام أحمد (٣) ، وأبو داود، وابن ماجه ، من حديث الليث بن سعد، عن الزهرى ، عن حرَام بن مُحَيِّصه : أن ناقة البراء بن عازب دخلت حائطاً، فأفسدت فيه ، فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهل الحوائط حفظها بالنهار ، وما أفسدت المواشى بالليل ضامن على أهلها (٤) ، وقد عُلّل هذا الحديث (٥) ، وقد بسطنا الكلام عليه في كتاب « الأحكام » ، وبالله التوفيق .

وقوله (ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما) ــ قال ابن أبي حاتم :

حدثنا أبي ، حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا حماد ، عن حميد : أن إياس بن معاوية لما استقضى أتاه الحسن فبكى ، قال : ما يبكيك ؟ قال : يا أبا سعيد ، بلغنى أن القضاة : رجل اجتهد فأخطأ، فهو فى النار ، ورجل مال به الهوى فهو فى النار . ورجل اجتهد فأصاب فهو فى الجنة . فقال الحسن البصرى : إن فيما قص الله من نبأ داود وسليمان عليهما السلام والأنبياء، حُكْماً يرد قول هؤلاء الناس عن قولهم ، قال الله تعالى : (وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث ، إذ نفشت فيه غنم القوم ، وكنا لحكمهم شاهدين)، فأثنى الله على سليمان ولم يلم داود . ثم قال ــ يعنى الحسن ــ : إن الله اتخذ على الحكّام (٦) ثلاثا :

---

(١) تفسير الطبرى : ١٧/٣٩ .

(٢) فى مخطوطة الأزهر : « سببه ما رواه » . والمثبت من الطبعات السابقة .

(٣) الحديث فى المسند من رواية مالك ، وسفيان ، ومعمر عن الزهرى . وفى سنن أبي داود من طريق معمر والأوزاعى عن الزهرى ، أما فى سنن ابن ماجه فمن رواية الليث بن سعد ، عن الزهرى .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٥/٤٣٥ ، ٤٣٦ ، وسنن أبي داود ، كتاب البيوع ، باب « المواشى تفسد زرع قوم » ، الحديث ٣٥٦٩ ، ٣٥٧٠ : ٣/٢٩٨ ، وسنن ابن ماجه ، كتاب الأحكام ، باب « الحكم فيما أفسدت المواشى » ، الحديث ٢٣٣٢ : ٢/٧٨١ .

(٥) المعلل من الحديث ــ ويقال : المعلول ــ : ما ظاهره السلامة ، اطلع فيه بعد التفتيش على قادح ؛ وتدرك العلة بعد جمع الطرق والفحص عنها ، بتفرد الراوى ، وبمخالفة غيره له ، ممن هو أحفظ أو أضبط ، أو أكثر عدداً ، مع قرائن تضم إلى ذلك ، يهتدى الناقد إليها ، إلى اطلاعه على تصويب إرسال فى الموصول ، أو تصويب وقف فى المرفوع ، أو دخل حديث فى حديث ... إلى غير ذلك .

(٦) الحكام : جمع حكيم ، بمعنى الحاكم ، وهو القاضى .

لا يشتروا به ثمنا قليلا ، ولا يتبعوا فيه الهوى ، ولا يخشوا فيه أحدا ، ثم تلا: (يا داود إنا جعلناك فى الأرض خليفة ، فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى) ، وقال : (فلا تخشوا الناس واخشونى) ، وقال : (ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا) .

قلت : أما الأنبياء عليهم السلام فكلهم معصومون مُؤيَّدون من الله عز وجل : وهذا مما لا خلاف فيه بين العلماء المحققين من السلف والخلف ، وأما من سواهم فقد ثبت فى صحيح البخارى ، عن عمرو بن العاص أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر »(١) فهذا الحديث يرد نَصًا ما توهمه « إياس » من أن القاضى إذا اجتهد فأخطأ فهو فى النار ، والله أعلم ، وفى السنن : « القضاة ثلاثة : قاض فى الجنة ، وقاضيان فى النار : رجل علم الحق وقضى به فهو فى الجنة ؛ ورجل حكم بين الناس على جهل فهو فى النار ؛ ورجل علم الحق وقضى بخلافه ، فهو فى النار (٢) .

وقريب من هذه القصة المذكورة فى القرآن ما رواه الإمام أحمد فى مسنده ، حيث قال :

حدثنا على بن حفص ، أخبرنا ورقاء عن أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بينما امرأتان معهما ابنان لهما ، جاء الذئب فأخذ أحد الابنين ، فتحاكمتا إلى داود ، فقضى به للكبرى ، فخرجتا . فدعاهما سليمان فقال : هاتوا السكين أشقه بينهما ، فقالت الصغرى : يرحمك الله هو ابنها ، لا تشقَّه ؛ فقضى به للصغرى (٣) » .

وأخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما(٤) وبوب عليه النسائى(٥) عليه فى كتاب القضاء: « باب الحاكم يوهم خلاف الحكم ليستعلم الحق » .

وهكذا القصة التى أوردها الحافظ أبو القاسم ابن عساكر فى ترجمة « سليمان عليه السلام » من تاريخه ، من طريق الحسن بن سفيان ، عن [صفوان] بن صالح ، عن الوليد بن مسلم ، عن سعيد بن بشير ، عن قتادة ، عن مجاهد ، عن ابن عباس — فذكر قصة مطولة ملخصها — : أن امرأة حسناء فى زمان بنى إسرائيل ، راودها عن نفسها أربعة من رؤسائهم ، فامتنعت على كل منهم ، فاتفقوا فيما بينهم عليها ، فشهدوا عليها عند داود عليه السلام أنها مكَّنت من نفسها كلباً لها ، قد عودته ذلك منها ، فأمر برجمها . فلما كان عشية ذلك اليوم ، جلس سليمان ، واجتمع معه وِلْدانٌ ، مثله ، فانتصب حاكما ، وتزيا أربعة منهم بزىّ أولئك ، وآخر بزىّ المرأة ، وشهدوا عليها بأنها مكنت من نفسها كلبا ، فقال سليمان :

---

(١) البخارى ، كتاب الاعتصام ، باب « أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ » : ١٣٢/٩ ، ١٣٣ . وأخرجه مسلم أيضاً فى كتاب الأقضية ، باب « بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ » : ١٣١/٥ .

(٢) سنن أبى داود ، كتاب الأقضية ، باب « فى القاضى يخطىء » ، الحديث ٣٥٧٣ : ٢٩٩/٣ . وابن ماجه ، كتاب الأحكام ، باب « الحاكم يجهد فيصيب الحق » ، الحديث ٢٣١٥ : ٧٧٦/٢ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٣٢٢/٢ . وينظر : ٣٤٠/٢ .

(٤) البخارى ، كتاب الأنبياء ، باب قول الله تعالى : « ووهبنا لداود سليمان ... » : ١٩٧/٤ ، ١٩٨ . وكتاب الفرائض ، باب « إذا ادعت المرأة ابنا » : ١٩٤/٨ ، ١٩٥ . ومسلم ، كتاب الأقضية ، باب « اختلاف المجتهدين » : ١٣٣/٥ .

(٥) كذا فى الطبعات السابقة وفى المخطوطة « وبوب الثانى عليه » والذى فى كتاب النسائى « المجتبى » ٢٣٦/٨ : « باب السعة للحاكم فى أن يقول للشىء الذى لا يفعله : « افعل » ؛ ليستبين الحق » .

فرقوا بينهم ، فقال لأولهم : ماكان لون الكلب ؟ فقال : أسود . فعزله ، واستدعى الآخر فسأله عن لونه ، فقال : أحمر . وقال الآخر : أغبش ، وقال الآخر : أبيض . فأمر بقتلهم ، فحكى ذلك لداود ، فاستدعى من فوره باولئك الأربعة ، فسألهم متفرقين عن لون ذلك الكلب ، فاختلفوا عليه ، فأمر بقتلهم .

وقوله : (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين) ، وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه الزبور ، وكان إذا ترنم به تقف الطير فى الهواء ، فتجاوبه ، وتَردّ عليه الجبال تأويبا ، ولهذا لمّا مَرّ النبى صلى الله عليه وسلم على أبى موسى الأشعرى ، وهو يتلو القرآن من الليل ، وكان له صوت طيب ، فوقف واستمع لقراءته ، وقال : « لقد أوتى هذا من مزامير آل داود » . قال : يا رسول الله ، لوعلمت أنك تسمع لحبرته(١) لك تحبيرا(٢) .

وقال أبو عثمان النهدى : ما سمعت صوت صَنْج ولا بربط(٣) ولا مزمار مثل صوت أبى موسى رضى الله عنه ، ومع هذا قال : لقد أوتى مزماراً من مزامير آل داود » .

وقوله : (وعلمناه صنعة لبوس لكم ليُحصنكم(٤) من بأسكم) ، يعنى صنعة الدروع :

قال قتادة : إنما كانت الدروع قبله صفائح ، وهو أول من سردها (٥) حلقاً . كما قال تعالى : (وألنا له الحديد : أن اعمل سابغات وقدر فى السرد (٦)) ، أى : لا توسع الحلقة ، فتقلق المسمار ، ولا تغلظ المسمار فتَقُدَّ الحَلْقة ، ولهذا قال : (ليُحصنكم من بأسكم ،) يعنى : فى القتال، (فهل أنتم شاكرون) ، أى : نعم الله عليكم ، لما ألهم به عبده داود ، فعلمه ذلك من أجلكم :

وقوله : (ولسليمان الريح عاصفة) ، أى : وسخرنا لسليمان الريح العاصفة ، (تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها) ، يعنى : أرض الشام ، (وكنا بكل شيء عالمين) . وذلك أنه كان له بساط من خشب ، يوضع عليه

---

(١) أى : حسنته تحسيناً .

(٢) قال الهيثمى فى مجمع الزوائد ، كتاب المناقب ، باب « ما جاء فى أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه » : « رواه الطبرانى، ورجاله على شرط الصحيح ، غير خالد بن نافع الأشعرى ، ووثقه ابن حبان ، وضعفه جماعة » .

هذا ، وينظر البخارى ، كتاب فضائل القرآن ، باب « حسن الصوت بالقراءة » : ٦/٢٤١ ، ومسلم ، كتاب المسافرين ، باب « استحباب تحسين الصوت بالقرآن » : ٢/١٩٢ ، ١٩٣ . والترمذى ، أبواب المناقب ، باب « مناقب أبى موسى الأشعرى » ، الحديث ٣٩٤٦ : ١٠/٣٥٧ ، وابن ماجه ، كتاب إقامة الصلاة ، باب « حسن الصوت بالقرآن » ، الحديث : ١٣٤١ ، ١٣٤٢ : ١/٤٢٥ ، ٤٢٦ . ومسند الإمام أحمد : ٢/٣٦٩ ، ٤٥٠ ، ٥/٣٤٩ ، ٣٥٩ ، ٦/٣٧ ، ١٦٧ .

(٣) الصنج : الدف . وتقدم تفسير البربط فى : ٣/١٧٤ .

(٤) كذا فى مخطوطة الأزهر ، بالياء المثناة من تحت ، وهى قراءة الجمهور ، يقول أبو حيان ٦/٣٣٢ : « وقرأ الجمهور (ليحصنكم) ، بياء الغيبة ، أى : الله ، فيكون التفاتا ؛ إذ جاء بعد ضمير متكلم فى (وعلمناه) .

(٥) تفسير الطبرى : ١٧/٤١ .

(٦) سورة سبأ ، آية : ١٠ ، ١١ .

كل ما يحتاج إليه من أمور المملكة ، والخيل والجمال والخيام والجند ، ثم يأمر الريح أن تحمله فتدخل تحته ، ثم تحمله فترفعه وتسير به ، وتظله الطير من الحر ، إلى حيث يشاء من الأرض ، فينزل وتوضع آلاته وحشبه ، قال الله تعالى : (فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب(١)) ، وقال : (غدوها شهر ورواحها شهر(٢))

قال ابن أبي حاتم : ذكر عن سفيان بن عيينة، عن أبي سنان ، عن سعيد بن جبير قال : كان يُوضَع لسليمان ستمائة ألف كرسي ، فيجلس مما يليه مؤمنو الإنس ، ثم يجلس من ورائهم مؤمنو الجن ، ثم يأمر الطير فتظلهم ، ثم يأمر الريح فتحمله صلى الله عليه وسلم .

وقال عبد الله بن عُبَيد بن عمير : كان سليمان يأمر الريح ، فتجتمع كالطَّود العظيم ، كالجبل ، ثم يأمر بفراشه فيوضع على أعلى مكان منها، ثم يدعو بفَرَس من ذوات الأجنحة، فترتفع حتى تصعد على فراشه، ثم يأمر الريح فترتفع به كُل شَرَف دون السماء ، وهو مطأطىء رأسه ، ما يلتفت يميناً ولا شمالا ، ؛ تعظيما لله عزوجل وشكراً لما يعلم من صغر ما هو فيه فى ملك الله تعالى ، حتى تضعه الريح حيث شاء أن تضعه(٣) .

وقوله : (ومن الشياطين من يغوصون له) ، أى : فى الماء يستخرجون الجواهر واللآلى [وغير ذلك : (ويعملون عملا دون ذلك) ، أى : غير ذلك ، كما قال تعالى : (والشياطين كل بناء وغواص] وآخرين مقرنين فى الأصفاد (٤)) ٥

وقوله : (وكنا لهم حافظين) ، أى : يحرسه الله أن يناله أحد من الشياطين بسوء ، بل كل فى قبضته وتحت قهره لا يتجاسر أحد منهم على الدنو إليه والقرب منه ، بل هو مَحكَّم فيهم، إن شاء أطلق ، وإن شاء حبس منهم من يشاء : ولهذا قال : (وآخرين مقرنين فى الأصفاد) .

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٨٣ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ۝٨٤ ﴾

يذكر تعالى عن أيوب عليه السلام ما كان أصابه من البلاء ، فى ماله وولده وجسده ، وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحرث شيء كثير ، وأولاد كثيرة ، ومنازل مرضية : فابتلى فى ذلك كله ، وذهب عن آخره ، ثم ابتلى فى جسده – يقال بالجذام فى سائر بدنه ، ولم يبق منه سليم سوى قلبه ولسانه ، يذكر بهما الله عزوجل، حتى حتى عافه الجليس ، وأفردَ فى ناحية من البلد ، ولم يبق من الناس أحد يحنو عليه سوى زوجته ، كانت تقوم(٥) بأمره ،

---

(١) سورة « ص » ، آية : ٣٦ .

(٢) سورة سبأ ، آية : ١٢ .

(٣) الأثر فى الدر المنثور عن ابن أبي حاتم : ٤/٣٢٦ ، ٣٢٧ .

(٤) سورة « ص » ، آية : ٣٧ ، ٣٨ .

(٥) فى المخطوطة : « كانت تقيم بأوده » ، والمثبت من الطبعات السابقة .

ويقال: إنها احتاجت فصارت تخدم الناس من أجله، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل»(١) ، وفي الحديث الآخر: «يبتلى الرجل، على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة زيدَ في بلائه (٢)».

وقد كان نبي الله أيوب عليه السلام غاية في الصبر، وبه يضرب المثل في ذلك.

وقال يزيد بن ميسرة: لما ابتلى الله أيوب عليه السلام بذهاب الأهل والمال والولد، ولم يبق له شيء، أحسن الذكر، ثم قال: أحمدك رب الأرباب، الذي أحسنت إلي، أعطيتني المال والولد، فلم يبق من قلبي شعبة، إلا قد دخله ذلك، فأخذت ذلك كله مني، وفرّغت قلبي، ليس يحول بيني وبينك شيء، لو يعلم عدوي إبليس بالذي صنعت، حسدني! قال: فلقي إبليس من ذلك منكراً(٣).

قال: وقال أيوب عليه السلام: يارب، إنك أعطيتني المال والولد، فلم يقم على بابي أحد يشكوني لظلم ظلمته، وأنت تعلم ذلك. وإنه كان يُوَطّأ(٤) لي الفراش فأتركها وأقول لنفسي: يا نفس، إنك لم تخلقي لوطء الفُرُش، ما تركت ذلك إلا ابتغاء وجهك. رواه ابن أبي حاتم.

وقد ذكر عن وهب بن مُنَبّه في خبره قصة طويلة ساقها ابن جرير وابن أبي حاتم بالسند عنه، وذكرها غير واحد من متأخري المفسرين، وفيها غرابة تركناها لحال الطول(٥).

وقد روى أنه مكث في البلاء مدة طويلة، ثم اختلفوا في السبب المهيج له على هذا الدعاء، فقال الحسن وقتادة: ابتلى أيوب عليه السلام سبع سنين وأشهراً، ملقى على كُنَاسَة بني إسرائيل، تختلف الدواب في جسده ففرج الله عنه، وعَظّم له الأجر، وأحسن عليه الثناء.

وقال وهب بن منبه: مكث في البلاء ثلاث سنين، لا يزيد ولا ينقص.

وقال السدي: تساقط لحم أيوب، حتى لم يبق إلا العصب والعظام، فكانت امرأته تقوم عليه وتأتيه بالزاد يكون فيه(٦)، فقالت له امرأته لما طال وَجَعَه: يا أيوب، لو دعوت ربك يفرج عنك؟ فقال: قد عشت سبعين سنة صحيحاً، فهل قليل لله(٧) أن أصبر له سبعين سنة؟ فجزعَت من ذلك فخرجت، فكانت تعمل للناس بأجر وتأتيه

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد، باب «ما جاء في الصبر على البلاء»، الحديث ٢٥٠٩: ٧/ ٧٨، ٧٩، وقال: «هذا حديث حسن صحيح». وابن ماجه في كتاب الفتن، باب «الصبر على البلاء»، الحديث ٤٠٢٤: ٢/ ١٣٣٤، ١٣٣٥. والإمام أحمد في مسنده عن سعد بن أبي وقاص: ١/ ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤، ١٨٠، ١٨٥.

(٢) مسند الإمام أحمد: ١/ ١٧٢.

(٣) الأثر في الدر المنثور ٤/ ٣٢٧ عن ابن أبي حاتم، وأبي نعيم، وابن عساكر، ولفظه: «فلقي إبليس من هذا شيئاً منكراً».

(٤) أي: يهيأ.

(٥) تفسير الطبري: ١٧/ ٤٢ - ٥٠.

(٦) كذا في مخطوطة الأزهر، وفي المخطوطة مكان «فيه» كلمة غير واضحة، وفي الطبعات السابقة: «وتأتيه بالزاد يكون فيه». ولم يقع لنا أثر السدي.

مما تصيب فتطعمه ، وإن إبليس انطلق إلى رجلين من فلسطين كانا صديقين له وأخوين ، فأتاهما فقال : أخوكما أيوب أصابه من البلاء كذا وكذا ، فأتياه وزوراه واحملا معكما من خمر أرضكما ، فإنه إن شرب منه برأ . فأتياه ، فلما نظرا إليه بكيا ، فقال : من أنتما ؟ فقالا : نحن فلان وفلان . فرحب بهما وقال : مرحباً بمن لا يجفوني عند البلاء . فقالا : يا أيوب لعلك كنت تُسر شيئاً وتظهر غيره ، فلذلك ابتلاك الله؟ فرفع رأسه إلى السماء ثم قال : هو يعلم ، ما أسررت شيئاً أظهرت غيره . ولكن ربي ابتلاني لينظر أأصبر أم أجزع ؟ فقالا له : يا أيوب ، اشرب من خمرنا ، فإنك إن شربت منه برأت . قال : فغضب وقال : جاءكما الخبيث فأمركما بهذا ؟ كلامكما وطعامكما وشرابكما على حرام ؟ فقاما من عنده ، وخرجت امرأته تعمل للناس ، فخبزت لأهل بيت لهم صبي ، فجعلت لهم قرصاً(١) ، وكان ابنهم نائماً ، فكرهوا أن يوقظوه ، فوهبوه لها . فأتت به إلى أيوب ، فأنكره وقال : ما كنت تأتيني بهذا ، فما بالك اليوم ؟ فأخبرته الخبر ، قال : فلعل الصبي قد استيقظ ، فطلب القرص فلم يجده ، فهو يبكي على أهله . [فانطلقي به إليه . فاقبلت حتى بلغت درجة القوم ، فنطحتها شاة لهم ، فقالت : تعس أيوب الخطاء ؟ فلما صعدت وجدت الصبي قد استيقظ وهو يطلب القرص ، ويبكي على أهله(٢)] ، لا يقبل منهم شيئاً غيره ، فقالت : رحم الله أيوب ؟ فدفعت القرص إليه ورجعت . ثم إن إبليس أتاها في صورة طبيب ، فقال لها : إن زوجك قد طال سقمه ، فان أراد أن يبرأ فليأخذ ذبابا فليذبحه باسم صنم بني فلان ، فانه يبرأ ويتوب بعد ذلك ؟ فقالت ذلك لأيوب ، فقال : قد أتاك الخبيث ، لله علي إن برأت أن أجلدك مائة جلدة ؟ فخرجت تسعى عليه ، فحظر(٣) عنها الرزق ، فجعلت لا تأتي أهل بيت فيريدونها ، فلما اشتد عليها ذلك وخافت على أيوب الجوع ، حلقت من شعرها قرناً(٤) ، فباعته من صبية من بنات الأشراف ، فأعطوها طعاماً طيباً كثيراً ، فأتت به أيوب ، فلما رآه أنكره ، وقال : من أين لك هذا ؟ قالت : عملت لأناس فأطعموني . فأكل منه ، فلما كان الغد خرجت فطلبت أن تعمل ، فلم تجد ، فحلقت أيضاً قرناً فباعته من تلك الجارية ، فأعطوها من ذلك الطعام ، فأتت به أيوب ، فقال : والله لا أطعمه حتى أعلم من أين هو ؟ فوضعت خمارها ، فلما رأى رأسها محلوقاً جزع جزعاً شديداً ، فعند ذلك دعا ربه عز وجل : ﴿ أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا حماد ، حدثنا أبو عمران الجوني ، عن نوف البكالي : أن الشيطان الذي عرج في أيوب كان يقال له : « سوط(٥) » ، قال : وكانت امرأة أيوب تقول : « أدع

---

(١) القرص – بضم فسكون – : الرغيف . وفي المخطوطة : « قرصة » .

(٢) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة ، وهو ساقط من مخطوطه الأزهر .

(٣) في المخطوطة : « قحط عنها » والمثبت عن الطبعات السابقة .

(٤) أي : ضفيرة .

(٥) كذا في المخطوطة ، وفي الدر المنثور عن ابن أبي حاتم في تفسير سورة « ص » ٥/٣١٦ : « الشيطان الذي مس أيوب يقال له : « مسوط » .

الله فيشفيك ، ، فجعل لا يدعو ، حتى مر به نفر من بنى إسرائيل ، فقال بعضهم لبعض : ما أصابه [ما أصابه] إلا بذنب عظيم أصابه ، فعند ذلك قال : « رب إنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين » .

وحدثنا أبى ، حدثنا أبو سلمة ، حدثنا جرير بن حازم، عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال : كان لأيوب عليه السلام أخوان فجاءا يوماً فلم يستطيعا أن يدنوا منه ، من ريحه ، فقاما من بعيد ، فقال أحدهما للآخر : لو كان الله علم من أيوب خيراً ما ابتلاه بهذا ؟ فجزع أيوب من قولهما جزَعا لم يجزع من شيء قط ، فقال : اللهم، إن كنت تعلم أنى لم أبت ليلة قط شبعان وأنا أعلم مكان جائع، فصدقنى . فصدق من السماء وهما يسمعان . ثم قال : اللهم ، إن كنت تعلم أنى لم يكن لى قميصان قط ، وأنا أعلم مكان عار ، فصَدّقنى فَصدق من السماء وهما يسمعان . اللهم بعزتك ثم خر ساجداً ، ثم قال : اللهم بعزتك لا أرفع رأسى أبداً حتى تكشف عنى . فما رفع رأسه حتى كشف عنه .

وقد رواه ابن أبى حاتم من وجه آخر مرفوعاً بنحو هذا فقال : ، أخبرنا يونس بن عبد الأعلى . أخبرنا ابن وهب ، أخبرنى نافع بن يزيد، عن عُقَيل، عن الزهرى، عن أنس بن مالك . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن نبى الله أيوب لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد، إلا رجلين من إخوانه، كانا من أخص إخوانه ، كانا يغدوان إليه ويروحان ، فقال أحدهما لصاحبه : تَعَلَّم ــ والله ــ لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين : فقال له صاحبه : وما ذاك ؟ قال : منذ ثمانى عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به . فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له ، فقال أيوب عليه السلام : لا أدرى ما تقول ، غير أن الله عز وجل يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله ، فأرجع إلى بيتى فأكفر عنهما ، كراهة أن يذكرا الله إلا فى حق . قال : وكان يخرج فى حاجته ، فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ ، فلما كان ذات يوم أبطأت عليه ، فأوحى إلى أيوب فى مكانه : أن اركض برجلك ، هذا مغتسل بارد وشراب .

رفع هذا الحديث غريب جداً .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا حماد ، أخبرنا على بن زيد، عن يوسف ابن مهران ، عن ابن عباس ، قال : وألبسه الله حلة من الجنة ، فتنحى أيوب فجلس فى ناحية ، وجاءت امرأته فلم تعرفه ، فقالت : يا عبد الله ، أين ذهب هذا المبتلى الذى كان هاهنا ؟ لعل الكلاب ذهبت به أو الذئاب . فجعلت تكلمه ساعة، فقال : ويحك ! أنا أيوب ! قالت : أتسخر منى يا عبد الله ؟ فقال : ويحك ! أنا أيوب، قد رد الله على جسدى .

وبه قال ابن عباس : ورد عليه ماله وولده عيانا ، ومثلهم معهم .

وقال وهب بن منبه : أوحى الله إلى أيوب : قد رددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم ، فاغتسل بهذا الماء ، فان فيه شفاءك ، وقرب عن صاحبتك قرباناً ، واستغفر لهم ، فإنهم قد عصونى فيك . رواه ابن أبى حاتم .

[وقال] أيضاً : حدثنا أبو زرعة، حدثنا عمرو بن مرزوق، حدثنا همام ، عن قتادة ، عن النضر بن أنس ، عن بشير بن نَهيك ، عن أبى هريرة، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لما عافى الله أيوب ، أمطر عليه جرَادا من ذهب، فجعل يأخذ بيده ويجعله فى ثوبه، قال: فقيل له يا أيوب ، أما تشبع؟ قال: يارب، ومن يشبع من رحمتك » .

أصله فى الصحيحين ، وسيأتى فى موضع آخر .

وقوله : (وآتيناه أهله ومثلهم معهم) ، قد تقدم عن ابن عباس أنه قال : ردوا عليه بأعيانهم ؛ وكذا رواه العوفى، عن ابن عباس أيضاً ؛ وروى مثله عن ابن مسعود ومجاهد ، وبه قال الحسن وقتادة .

وقد زعم بعضهم أن اسم زوجته رحمة ، فان كان أخذ ذلك من سياق الآية فقد أبعد النجعة[1] ، وإن كان أخذه من نقل أهل الكتاب ، وصح ذلك عنهم ، فهو مما لا يصدق ولا يكذب ؛ وقد سماها ابن عساكر فى تاريخه — رحمة الله تعالى — قال : ويقال : اسمها ليا ابنة منشا بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، قال : ويقال : ليا بنت يعقوب عليه السلام ، زوجة أيوب كانت معه بأرض البثنية[2] .

وقال مجاهد : قيل له : يا أيوب ، إن أهلك لك فى الجنة ، فإن شئت أتيناك بهم ، وإن شئت تركناهم لك فى الجنة ، وعوضناك مثلهم ؟ قال : لا بل اتركهم لى فى الجنة ؛ فتُركوا له فى الجنة وعوض مثلهم فى الدنيا[3] .

وقال حماد بن زيد ، عن أبى عمران الجونى ، عن نوف البكالى قال : أوتى أجرهم فى الآخرة ، وأعطى مثلهم فى الدنيا — قال : فحدثت به مُطرِّفا ، فقال : ما عرفت وجهها قبل اليوم[4] .

وهكذا روى عن قتادة ، والسدى ، وغير واحد من السلف ، والله أعلم .

وقوله : (رحمة من عندنا) ، أى : فعلنا به ذلك رحمة من الله به ، (وذكرى للعابدين) ، أى : وجعلناه فى ذلك قدوة ، لئلا يظن أهل البلاء إنما فعلنا بهم ذلك لهوانهم علينا ، وليتأسوا به فى الصبر على مقدورات الله وابتلائه لعباده بما يشاء ، وله الحكمة البالغة فى ذلك .

وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾

أما إسماعيل فالمراد به ابن إبراهيم الخليل عليهما السلام، وقد تقدم ذكره فى سورة مريم ، وكذلك إدريس عليه السلام[5] .

وأما ذو الكفل فالظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء إلا وهو نبى ؛ وقال آخرون : إنما كان رجلا صالحاً ، وكان ملكاً عادلا ، وحكماً مقسطاً ، وتوقف ابن جرير فى ذلك ، فالله أعلم .

---

(١) أى : أبعد فى الأخذ والطلب . والنجعة : الذهاب فى طلب الكلأ من موضعه .

(٢) البثنية — بفتح الباء والثاء ، وكسر النون ، وياء مشددة — : قرية كان أيوب عليه السلام بها ، وهى بين دمشق وأذرعات . (مراصد الاطلاع) .

(٣) تفسير الطبرى : ١٧/٥٧ ، ٥٨ .

(٤) الدر المنثور عن ابن أبى حاتم وابن المنذر : ٤/٣٢٨ .

(٥) ينظر تفسير سورة مريم : ٥/٢٣٣ — ٢٣٦ .

وقال ابن جريج ، عن مجاهد فى قوله : (وذا الكفل) ، قال : رجل صالح غير نبى ، تكفل لنبى قومه أن يكفيه أمر قومه ويقيمهم له ويقضى بينهم بالعدل ، ففعل ذلك ، فَسُمّى : ذا الكفل . وكذا رَوَى ابن أبى نجيح ، عن مجاهد أيضاً .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا عفان ، حدثنا وهَيب ، حدثنا داود ، عن مجاهد قال : لما كبر اليسع قال : لو أنى استخلفت رجلا على الناس يعمل عليهم فى حياتى ، حتى أنظر كيف يعمل ؟ فجمع الناس ، فقال : من يتقبل منى بثلاث : أستخلفه يصوم النهار ، ويقوم الليل ، ولا يغضب . قال : فقام رجل تزدريه العين ، فقال : أنا . فقال : أنت تصوم النهار ، وتقوم الليل ، ولا تغضب ؟ قال : نعم ، قال : فردهم ذلك اليوم ، وقال مثلها فى اليوم الآخر ، فسكت الناس ، وقام ذلك الرجل وقال : أنا . فاستخلفه ، قال : وجعل إبليس يقول للشياطين : عليكم بفلان . فأعياهم ذلك ، قال : دعونى وإياه ، فأتاه فى صورة شيخ كبير فقير ، فأتاه حين أخذ مضجعه للقائلة(١) ــ وكان لا ينام الليل والنهار إلا تلك النومة ــ فدق الباب ، فقال : من هذا ؟ قال : شيخ كبير مظلوم . قال : فقام ففتح الباب ، فجعل يقص عليه ، فقال : إن بينى وبين قومى خصومة ، وإنهم ظلمونى ، وفعلوا بى وفعلوا . وجعل يُطَوِّل عليه حتى حضر الرواح(٢) وذهبت القائلة ، فقال : إذا رحت فأتنى آخذ لك بحقك . فانطلق ، وراح . فكان فى مجلسه ، فجعل ينظر هل يرى الشيخ ؟ فلم يره ، فقام يتبعه ، فلما كان الغد جعل يقضى بين الناس ، وينتظره ولا يراه ، فلما رجع إلى القائلة فأخذ مضجعه ، أتاه فدق الباب ، فقال : من هذا ؟ قال : الشيخ الكبير المظلوم . ففتح له فقال : ألم أقل لك : إذا قعدت فأتنى ؟ قال : إنهم أخبث قوم ، إذا عرفوا أنك قاعد قالوا : نحن نعطيك حقك ، وإذا قمت جحدونى . قال : فانطلق ، فاذا رحت فأتنى . قال : ففاتته القائلة ، فراح فجعل ينتظره ولا يراه ، وشق عليه النعاس ، فقال لبعض أهله : لا تدعن أحداً يقرب هذا الباب حتى أنام ، فانى قد شق علىّ النوم . فلما كان تلك الساعة أتاه فقال له الرجل : وراءك وراءك ؟ فقال : إنى قد أتيته أمس ، فذكرت له أمرى . فقال : لا ، والله لقد أمرنا أن لا ندع أحداً يقربه . فلما أعياه نظر فرأى كوة فى البيت ، فتسور منها ، فاذا هو فى البيت ، وإذا هو يدق الباب من داخل ، قال : فاستيقظ الرجل فقال : يا فلان ، ألم آمرك ؟ فقال : أما من قبلى والله فلم تؤتَ ، فانظر من أين أتيت ؟ قال : فقام إلى الباب فاذا هو مغلق كما أغلقه ، وإذا الرجل معه فى البيت ، فعرفه ، فقال : أعدو الله ؟ قال : نعم ، أعييتنى فى كل شىء ، ففعلت ما ترَى لأغضبك . فسماه الله ذا الكفل ؛ لأنه تكفل بأمر ، فوفى به(٣) .

وهكذا رواه ابن أبى حاتم ، من حديث زهير بن إسحاق ، عن داود ، عن مجاهد ، بمثله .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أحمد بن يونس ، حدثنا أبو بكر بن عياش ، عن الأعمش ، عن مسلم قال : قال ابن عباس : كان قاض فى بنى إسرائيل ، فحضره الموت ، فقال : من يقوم مقامى على أن لا يغضب ؟

(١) القائلة : نصف النهار .
(٢) الرواح : يكون آخر النهار .

قال : فقال رجل : أنا ؛ فسمي ذا الكفل . قال : فكان ليله جميعاً يصلي ، ثم يصبح صائماً فيقضي بين الناس – قال : وله ساعة يقيلها – قال : فكان كذلك ، فأتاه الشيطان عند نومته ، فقال له أصحابه : مالك ؟ قال : إنسان مسكين ، له على رجل حق ، وقد غلبني عليه . قالوا : كما أنت حتى يستيقظ – قال : وهو فوق نائم – قال : فجعل يصيح عمداً حتى يوقظه ، قال : فسمع ، فقال : مالك ؟ قال : إنسان مسكين ، له على رجل حق . قال : اذهب فقل له يعطيك . قال : قد أبى . قال : اذهب أنت إليه . قال : فذهب ، ثم جاء من الغد ، فقال : مالك ؟ قال : ذهبت إليه فلم يرفع بكلامك رأساً . قال : اذهب إليه فقل له يعطيك حقك ، قال : فذهب ، ثم جاء من الغد حين قال(١) ، قال : فقال له أصحابه : اخرج ، فعل الله بك ، تجيء كل يوم حين ينام ، لا تدعه ينام ؟ فجعل يصيح : من أجل أني إنسان مسكين ، لو كنت غنيا ؟ قال : فسمع أيضاً ، فقال : مالك ؟ قال : ذهبت إليه فضربني . قال : امش حتى أجيء معك . قال : فهو ممسك بيده ، فلما رآه ذهب معه نَتَر يده منه فَفَرّ .

وهكذا روى عن عبد الله بن الحارث ، ومحمد بن قيس ، وابن حُجَيْرة(٢) الأكبر ، وغيرهم من السلف ، نحو من هذه القصة ، والله أعلم .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو الجماهر ، أخبرنا سعيد بن بشير ، حدثنا قتادة ، عن [أبي](٣) كنانة الأخنس قال : سمعت الأشعري ، وهو يقول على هذا المنبر : ما كان ذو الكفل بنبي ، ولكن كان – يعني من بني إسرائيل – رجل صالح يصلي كل يوم مائة صلاة ، فتكفل له ذو الكفل من بعده ، فكان يصلي [كل يوم] مائة صلاة ، فسمي ذا الكفل .

وقد رواه ابن جرير من حديث عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة قال : « قال أبو موسى الأشعري ... » ، فذكره منقطعا(٤) ، والله أعلم .

وقد روى الإمام أحمد حديثاً غريباً فقال :

حدثنا أسباط بن محمد ، حدثنا الأعمش ، عن عبد الله بن عبد الله ، عن سعد مولى طلحة ، عن [ابن] عمر قال : سمعتُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين – حتى عدّ سبع مرات – ولكن قد سمعتهُ أكثرَ من ذلك ، قال : كان الكفل من بني إسرائيل ، لا يتورّع (٥) من ذنب عمله ، فأتته امرأة فأعطاها ستين دينارا ، على أن يَطَأَها ، فلما قعد منها مَقعدَ الرجل من امرأته ، أرعدَتْ (٦) وبكت ، فقال : ما يبكيك ؟ أكرَهتُكِ ؟

---

(١) أي : في وقت القائلة .

(٢) هو عبد الرحمن بن حجيرة ، مترجم في التهذيب ، وفي المخطوطة : وأبي حجيرة وهو خطأ .

(٣) في المخطوطة : « عن كنانة الأخنس » . وفي الطبعات السابقة : « عن كنانة بن الأخنس » . ولم نجده في كتب الرجال . وقد وجدنا في مسند الإمام أحمد في الرواة عن أبي موسى الأشعري ٤/٣٩٦ أباكنانة ، فرجح عندنا أنه « أبو كنانة » ، وأبو كنانة هذا مترجم في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٤/٢/٤٣٠ ، والتهذيب ١٢/٢١٣ بأنه : « أبو كنانة القرشي ، سمع أبا موسى الأشعري » وقيل فيه : أنه معاوية بن قرة ، ويقول ابن حجر : « ولم يصح هذا . وقال ابن القطان : مجهول الحال » . فالله أعلم .

(٤) تفسير الطبري : ١٧/٦٠ .

(٥) أي : لا يحترز ولا يمتنع .

(٦) أي : زلزلت واضطربت من خشية الله .

قالت : لا ، ولكن هذا عمل لم أعمله قطّ ، وإنما حملني عليه الحاجة . قال : فتفعلين هذا ولم تفعليه قط ؟. فنزل(١) فقال : اذهبي فالدنانير لك ، ثم قال : والله لا يعصى الله الكفلُ أبداً . فمات من ليلته، فأصبح مكتوبا على بابه : قد غفر الله للكفل(٢) .

هكذا وقع فى هذه الرواية « الكفل » ، من غير إضافة ، فالله أعلم . وهذا الحديث لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة(٣) ، وإسناده غريب ، وعلى كل تقدير فلفظ الحديث إن كان « الكفل » ، ولم يقل : « ذو الكفل » ، فلعله رجل آخر ، والله أعلم .

وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

هذه القصة مذكورة هاهنا وفى سورة « الصافات(٤) » وفى سورة « ن(٥) » ، وذلك أن يونس بن مَتّى عليه السلام ، بعثه الله إلى أهل قرية « نينَوَى » ، وهى قرية من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله ، فأبوا عليه وتمادوا على كفرهم ، فخرج من بين أظهرهم مغاضبا لهم ، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث ؛ فلما تحققوا منه ذلك ، وعلموا أن النبى لا يكذب ، خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم ، وفرقوا بين الأمهات وأولادها ، ثم تضرعوا إلى الله عز وجل ، وجأروا إليه ، ورغت الإبل وفُصْلانها ، وخارت البقر وأولادها ، وثغت الغنم وحُملانها(٦) ، فرفع الله عنهم العذاب ، قال الله تعالى : (فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها ، إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ، ومتعناهم إلى حين(٧)) .

وأما يونس عليه السلام ، فإنه ذهب فركب مع قوم فى سفينة فلَجّجت(٨) بهم وخافوا أن يغرقوا(٩) ، فاقترعوا على رجل يلقوله من بينهم يتخففون منه، فوقعت القرعة على يونس ، فأبوا أن يلقوه، ثم أعادوا القرعة فوقعت عليه أيضاً ، فأبوا . ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً ، قال الله تعالى : (فساهم فكان من المدحضين(١٠)) ، أى :

---

(١) لفظ المسند : « ثم نزل » .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٢/٢٣ .

(٣) كذا قال الحافظ ابن كثير ! والحديث أخرجه الترمذى فى أبواب القيامة، ينظر تحفة الأحوذى ، الحديث ٢٦١٤ : ٧/١٩٨ – ٢٠٠ ، من طريق عبيد بن أسباط من أبيه ، بإسناده مثله ، وقال : « هذا حديث حسن ، وقد رواه شيبان وغير واحد ، عن الأعمش ونحوه . ورواه بعضهم عن الأعمش ولم يرفعه ، وعبدالله بن عبدالله الرازى هو كوفى . . . » .
ويقول الحافظ أبو العلى – صاحب تحفة الاحوذى – : وأخرجه ابن حبان فى صحيحه ، إلا أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من عشرين مرة يقول . . . فذكر نحوه ، والحاكم والبيهقى من طريقه وغيرهما ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد .

(٤) سورة الصافات، الآيات : ١٣٩ – ١٤٨ .

(٥) سورة نون ، الآيات : ٤٨ – ٥٠ .

(٦) الحملان – بضم فسكون – : جمع حمل – بفتحتين – وهو الخروف .

(٧) سورة يونس ، آية : ٩٨ .

(٨) لججت السفينة : خاضت اللجة ، ولجة البحر : حيث لا يدرك قعره .

(٩) لفظ المطبوعة : « وخافوا أن يغرق بهم » . والمثبت من الطبعات السابقة .

وقعت عليه القرعة ، فقام يونس عليه السلام ، وتجرد من ثيابه ، ثم ألقى نفسه فى البحر ، وقد أرسل الله سبحانه وتعالى من البحر الأخضر — فيما قاله ابن مسعود — حوتاً يشق البحار ، حتى جاء فالتقم يونس حين ألقى نفسه من السفينة ، وأوحى[1] الله إلى ذلك الحوت أن لا تأكل له لحماً ، ولا تهشم له عظما ؛ فإن يونس ليس لك [رزقا] وإنما بطنك له يكون سجناً .

وقوله : (وذا النون) ، يعنى الحوت ، صحت الإضافة إليه بهذه النسبة .

وقوله : (إذ ذهب مغاضبا) ، قال الضحاك : لقومه ، (فظن أن لن نقدر عليه) [أى : نضيق عليه فى بطن الحوت . يروى نحو هذا عن ابن عباس ، ومجاهد، والضحاك ، وغيرهم ، واختاره ابن جرير ، واستشهد عليه بقوله تعالى : (ومن قُدر عليه رزقُه فلينفق مما آتاه الله ، لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها ، سيجعل الله بعد عُسْر يسرا [2]) .

وقال عطية العوفى : (فظن أن لن نقدر عليه)] ، أى : نقضى عليه ، كأنه جعل ذلك بمعنى التقدير ، فان العرب تقول قَدر وقَدّر بمعنى واحد ، وقال الشاعر [3] :

فَلاَ عَائِدٌ ذَاكَ الزَّمَانُ الذى مَضَى ٭ تباركت : ما تَقْدِرْ يَكُنْ ، فَلَكَ الأَمْرُ

ومنه قوله تعالى : (فالتقى الماء على أمر قد قُدر)[4] ، أى : قُدّر .

وقوله : (فنادى فى الظلمات : أن لا إله إلا أنت ، سبحانك ، إنى كنت من الظالمين) ، قال ابن مسعود : ظلمة بطن الحوت ، وظلمة البحر ، وظلمة الليل . وكذا روى عن ابن عباس ، وعمرو بن ميمون ، وسعيد بن جبير ، ومحمد ابن كعب ، والضحاك ، والحسن ، وقتادة .

وقال سالم بن أبى الجعد : ظلمةَ حُوت فى بطن حوت ، فى ظلمة البحر .

قال ابن مسعود ، وابنُ عباس وغيرهما : وذلك أنه ذهب به الحوتُ فى البحار يَشُقُّها ، حتى انتهى به إلى قرار البحر ، فسمع يونسُ تسبيح الحصى فى قراره ، فعند ذلكَ وهنالكَ قال : (لا إله إلا أنت سبحانك) .

وقال عوف : لما صار يونس فى بطن الحوت ، ظن أنه قد مات ، ثم حرك رجليه فلما تحركت سجد مكانه ، ثم نادى : يا رب ، اتخذت لك مسجدا فى موضع ما اتخذه أحد[5] .

وقال سعيد بن الحسن البصرى : مكث فى بطن الحوت أربعين يوما . رواهما ابن جرير[6] .

---

(١) هذا تصوير لحفظ الله يونس فى جوف الحوت ، أما الوحى بمعناه الحقيقى فليس مقصوداً .

(٢) ينظر تفسير الطبرى : ٦٢/١٧ ، ٦٣ . والآية من سورة الطلاق رقم ٧

(٣) البيت فى تفسير القرطبى ٣٣٢/١١ مع بيت آخر ، ولم يذكر قائلهما بل قال : وأنشد ثعلب .

(٤) سورة القمر ، آية ١٢ .

(٥) تفسير الطبرى : ٦٤/١٧ .

(٦) تفسير الطبرى : ٦٣/١٧ .

وقال محمد بن إسحاق بن يسار ، عمن حدثه ، عن عبد الله بن رافع ــ مولى أم سلمة ــ سمعتُ أبا هريرة يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما أراد الله حَبْسَ يونس فى بطن الحوت ، أوحى الله إلى الحوت أن خذه ، ولا تخدش لحا ولا تكسر عظما ؛ فلما انتهى به إلى أسفل البحر ، سمع يونس حساً ، فقال فى نفسه : ما هذا ؟ فأوحى الله إليه ، وهو فى بطن الحوت : إن هذا تسبيح دواب البحر ، قال : فَسَبَّح وهو فى بطن الحوت ، فسمع الملائكة تسبيحه فقالوا : يا ربنا إنا نسمع صوتا ضعيفا [بأرض غريبة ؟] قال : ذلك عبدى يونس ، عصانى فحبسته فى بطن الحوت فى البحر ؛ قالوا : العبد الصالح الذى كان يصعد إليك منه فى كل يوم وليلة عملٌ صالح ؟ ، قال : نعم . قال : فشفعوا له عند ذلك ، فأمر الحوت فقذفه فى الساحل ، كما قال الله عز وجل : (وهو سقيم) » .

رواه ابن جرير (١) ، ورواه البزار فى مسنده ، من طريق محمد بن إسحاق ، عن عبد الله بن رافع ، عن أبى هريرة ، فذكره بنحوه ، ثم قال : لا نعلمه يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد [وروى ابن عبد الحق (٢)] من حديث شعبة ، عن عمرو بن مرة ، عن عبد الله بن [سَلِمَة (٣)] ، عن على مرفوعاً : « لا ينبغى لعبد أن يقول : « أنا خير من يونس بن متّى » ؛ سبح لله فى الظلمات » .

وقد روى هذا الحديث بدون هذه الزيادة ، من حديث ابن عباس ، وابن مسعود ، وعبد الله بن جعفر ، وسيأتى أسانيدها فى سورة « ن » .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو عبد الله أحمد بن عبد الرحمن بن أخى ابن وهب ، حدثنا عمى ؛ حدثنى أبو صخر أن يزيد الرقاشى حدثه قال : سمعت أنس بن مالك ــ ولا أعلم إلا أن أنسا يرفع الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ أن يونس النبى عليه السلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو فى بطن الحوت ، قال : (اللهم ، لا إله إلا أنت ، سبحانك ، إنى كنت من الظالمين) . فأقبلت هذه الدعوة تحف بالعرش ، فقالت الملائكة : يا رب ، صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة ؟ فقال : أما تعرفون ذاك ؟ قالوا : لا ، يا رب ، ومن هو ؟ قال : عبدى يونس ؛ قالوا : عبدك يونس الذى لم يزل يُرفَع له عَمَلٌ متقبل ، ودعوة مجابة ؟ : [قال : نعم (٤)] . قالوا : يا رب ، أولا ترحم ما كان يصنع (٥) فى الرخاء فتنجيّه من البلاء ؟ قال : بلى . فأمر الحوت فطرحه فى العراء (٦) .

---

(١) تفسير الطبرى : ٦٥/١٧ .

(٢) كذا فى مخطوطة الأزهر . ولم نجد « ابن عبد الحق » هذا ، وهذا الحديث بتمامه إلى قوله : « وفى سورة ن » مما انفردت به مخطوطة الأزهر ، ويبدو ــ والله أعلم ــ أن صواب النص : « وروى عبد بن حميد ، من حديث شعبة . . . » هذا ، ولم نجد هذا الحديث فى سورة « ن » ولا سورة الصافات .

(٣) فى المخطوطة : « عبد الله بن معلم » والصواب من التهذيب : ٢٤١/٥ ، ١٠٢/٨ .

(٤) ما بين القوسين من الدر المنثور .

(٥) فى المخطوطة : « ما كان يصنعه » . والمثبت من الدر والطبعات السابقة . وقد تقع « ما » للعاقل فى بعض الاستعمالات والمعنى أولا ترحم من كان . . . ؟

وقوله : (فاستجبنا له ونجيناه من الغم) ، أى : أخرجناه من بطن الحوت ، وتلك الظلمات ، (وكذلك ننجى المؤمنين) ، أى : إذا كانوا فى الشدائد ودَعَونا منيبين إلينا ، ولا سيا إذا دعَوا بهذا الدعاء فى حال البلاء فقد جاء الترغيب فى الدعاء بها عن سيد الأنبياء ، قال الإمام أحمد :

حدثنا إسماعيل بن عُمَر ، حدثنا يونس بن أبى إسحاق الهمدانى ، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سعد ، حدثنى والدى محمد عن أبيه سعد ، — وهو ابن أبى وقاص — قال : مررتُ بعثمان بن عفان رضى الله عنه فى المسجد، فسلمت عليه فملأ عينيه منى ثم لم يَرْدُدْ علىّ السلام ، فأتيت عمر بن الخطاب فقلت : يا أمير المؤمنين ، هل حدث فى الإسلام شىءٌ ؟ مرتين ، قال : لا ، وما ذاك ؟ قلت : لا ، إلا أنى مررتُ بعثمانَ آنفا فى المسجد ، فسلمت عليه ، فملأ عينيه منى ، ثم لم يَرْدُدْ على السلام ، قال : فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه ، فقال : ما منعك أن لا تكون رَدَدت على أخيك السلام ؟ قال : ما فعلت. قال سعد : قلتُ : بلى ، حتى حلفَ وحلفت ، قال : ثم إن عثمان ذَكَر فقال : بلى ، وأستغفر الله وأتوب إليه ، إنك مررت بى آنفا وأنا أحدِّث نفسى بكلمة سمعتُها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا والله ما ذكرتُها قط إلا تَغْشَّى بصرى وقلبى غِشَاوة ، قال سعد : فأنا أنبئك بها ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر لنا [أول دعوة] ثم ، جاء أعرابى فشغله ، حتى قامَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فاتبعتُه ، فلما أشفقت أن يسبقنى إلى منزله ضربتُ بقدمى الأرض ، فالتفت إلىّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقال : من هذا ؟ أبو إسحاق[1] ؟ قال قلت : نعم ، يا رسول الله ، قال : فمه[2]؟ قلت : لا والله ، إلا أنك ذكرتَ لنا أول دعوة ، ثم جاء [هذا] الأعرابى فشغلك ، قال : نعم ، دعوةُ ذى النون ، إذ هو فى بطن الحوت : (لا إله إلا أنت ، سبحانك ، إنى كنت من الظالمين) ، فإنه لم يدع بها مسلم ربه فى شىء قَطّ إلا استجاب له[3] » .

ورواه الترمذى[4] والنسائى فى « اليوم والليلة » ، من حديث إبراهيم بن محمد بن سعد ، عن أبيه ، عن سعد ، به .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو خالد الأحمر ، عن كثير بن زيد ، عن المطلب[5] بن حنطب — قال أبو خالد : أحسبه عن مصعب ، يعنى ابن سعد — عن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من دعا بدعاء يونس ، استُجيبَ له . قال أبو سعيد : يريد به (وكذلك ننجى المؤمنين) .

وقال ابن جرير : حدثنى عمران بن بكار الكَلاَعى ، حدثنا يحيى بن صالح ، حدثنا أبو يحيى بن عبد الرحمن ، حدثنى بِشْر بن منصور ، عن على بن زيد ، عن سعيد بن المسيب قال : سمعت سعد بن مالك — وهو ابن أبى وقاص — يقول : سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : اسم الله الذى إذا دُعِى به أجاب ، وإذا سُئِل به أعطى ، دعوةُ يونس ابن متى ، قال : قلت : يا رسول الله ، هى ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين ؟ قال : هى ليونس بن متى خاصة والمؤمنين

---

(١) كان سعد ابن أبى وقاص — رضى الله عنه — يكنى أبا إسحاق .

(٢) أى فماذا تريد ؟

(٣) مسند الإمام أحمد : ١/١٧٠ .

(٤) تحفة الأحوذى ، أبواب الدعوات ، الحديث ٣٥٧٢ : ٩/٤٧٩ ، ٤٨٠ . وقال الحافظ أبو العلى ، صاحب تحفة الأحوذى : « وحديث سعد هذا أخرجه أيضاً النسائى والحاكم وقال : صحيح الإسناد

(٥) هو « المطلب بن عبدالله بن المطلب بن حنطب » ، ولعله قد اختصر فنسب إلى

هامة ، إذا دعوا بها ، ألم تسمع قول الله عز وجل : (فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت ، سبحانك ، إنى كنت من الظالمين . فاستجبنا له ، ونجيناه من الغم ، وكذلك ننجى المؤمنين) . فهو شرط من الله لمن دعاه به (١) » .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أحمد بن أبى سُرَيج (٢) ، حدثنا داود بن المُحَبَّر بن قَحْذَم المقدسى ، عن كثير بن معبد (٣) قال : سألت الحسن ، قلت : يا أبا سعيد ، اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى ؟ قال : ابنَ أخى ، أما تقرأ القرآن ؟ قولَ الله : (وذا النون إذ ذهب مغاضبا) إلى قوله : « المؤمنين » ، ابنَ أخى ، ، هذا اسم الله الأعظم ، الذى إذا دُعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى :

وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾

يخبر تعالى عن عبده زكريا ، حين طلب أن يهبه الله ولدا ، يكون من بعده نبيا . وقد تقدمت القصة مبسوطةً فى أول سورة « مريم (٤) » وفى سورة « آل عمران (٥) » أيضا ، وها هنا أخصر منها ؛ (إذ نادى ربه) ، أى : خفية عن قومه : (رب ، لا تذرنى فردا) ، أى : لا ولدَ لى ولا وارثَ يقوم بعدى فى الناس ، (وأنت خير الوارثين) ، دعاء وثناء مناسبه للمسألة .

قال الله تعالى : (فاستجبنا له ، ووهبنا له يحيى ، وأصلحنا له زوجه) أى : امرأته .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جُبَيْر : كانت عاقراً لا تلد ، فولدت .

وقال عبد الرحمن بن مهدى ، عن طلحة بن عمرو ، عن عطاء (٦) : كان فى لسانها طول فأصلحها الله ــ وفى رواية : كان فى خَلْقها شئٌ فأصلحها الله . وهكذا قال محمد بن كعب ، والسدّى . والأظهر من السياق الأول .

وقوله : (إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات) ، أى : فى عمل القُرُبات وفعل الطاعات ، (ويدعوننا رغبا ورهبا) ــ قال الثورى : (رغبا) فيما عندنا ، و (رهبا) مما عندنا ، (وكانوا لنا خاشعين) ــ قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : أى مصدقين بما أنزل الله . وقال مجاهد : مؤمنين حقا (٧) . وقال أبو العالية : خائفين . وقال أبو سنان :

(١) تفسير الطبرى : ١٧/ ٦٥ .

(٢) فى المخطوطة : « شريح » . بالشين والحاء . وهو أحمد بن الصباح ابن أبى شريح ، مترجم فى التهذيب ١/ ٤١ والجرح ١/١/ ٥٦ ، وأما داود الذى يروى عنه فترجم فى التهذيب ٣/ ١٩٩ ، والجرح ١/١/ ٤٢٤ وقيل فيه « الطائى البصرى » . وقد كان فى المخطوطة : « المحبر بن مخدم » . وهو خطأ .

(٣) كذا ولم نجده ، ولعله « كثير بن سعيد » ، المترجم فى الجرح لابن أبى حاتم : ٣/ ٢/ ١٥٢ .

(٤) ينظر تفسير الآيات ٢ ــ ١٥ من سورة مريم : ٥/ ٢٠٥ ــ ٢١٣ .

(٥) ينظر تفسير الآيات ٣٧ ــ ٤١ من سورة آل عمران : ٢/ ٢٨ ــ ٣١ .

(٦) هو عطاء بن أبى رباح . تنظر ترجمة طلحة بن عمرو فى الخلاصة .

(٧) كذا فى الطبعات السابقة : « مؤمنين حقاً » . وفى المخطوطة ، مكان « مؤمنين » كلمة غير واضحة ، وأثر مجاهد كما فى الدر المنثور ٤/ ٣٣٥ من ابن أبى شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ــ هو : (وكانوا لنا خاشعين) ، قال

الخشوع هو الخوف اللازم للقلب ، لا يفارقه أبداً . وعن مجاهد أيضا (خاشعين) ، أى : متواضعين : وقال الحسن ، وقتادة ، والضحاك : (خاشعين) أى : متذللين لله عز وجل . وكل هذه الأقوال متقاربة .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا على بن محمد الطنافسى ، حدثنا محمد بن فضيل ، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق بن(1) عبد الله القرشى ، عن عبد الله بن حكيم (2) قال : خطبنا أبو بكر رضى الله عنه ، ثم قال : أما بعد ، فإنى أوصيكم بتقوى الله ، وتثنوا عليه بما هو له أهل ، وتخلطوا الرغبة بالرهبة ، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة : فإن الله عز وجل أثنى على زكريا وأهل بيته ، فقال : (إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ، ويدعوننا رغبا ورهبا ، وكانوا لنا خاشعين) :

وَالَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾

هكذا قرن تعالى قصة مريم وابنها عيسى عليه السلام بقصة زكريا وابنه يحيى عليهما السلام ، فيذكر أولا قصة زكريا ، ثم يتبعها بقصة مريم ؛ لأن تلك موطئة لهذه ، فإنها إيجاد ولد من شيخ كبير قد طعن فى السن ، ومن امرأة عجوز عاقر لم تكن تلد فى حال شبابها ، ثم يذكر قصة مريم وهى أعجب ، فانها إيجاد ولد من أنثى بلا ذكر . هكذا وقع فى سورة « آل عمران » ، وفى سورة « مريم » ، وها هنا ذكر قصة زكريا ، ثم أتبعها بقصة مريم ، فقوله : (والتى أحصنت فرجها) يعنى مريم عليها السلام ، كما قال فى سورة التحريم : (ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها ، فنفخنا فيه من روحنا(3)) ،

وقوله : (وجعلناها وابنها آية للعالمين) ، أى : دلالة على أن الله على كل شئ قدير ، وأنه يخلق ما يشاء ، و (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون(4)) ، وهذا كقوله : (ولنجعله آية للناس(5)) .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عمرو بن على ، حدثنا أبو عاصم الضحاك بن مخلد ، عن شبيب — يعنى ابن بشر — (6) عن عكرمة ، عن ابن عباس ، فى قوله : (للعالمين) ، قال : العالمين : الجن والإنس :

إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله : (إن هذه أمتكم أمة واحدة) ، يقول : دينكم دين واحد .

---

(1) فى مخطوطة الأزهر : « حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق ، عن عبدالله القرشى » . والصواب : « عبد الرحمن بن إسحاق ابن عبد الله القرشى » ، وهو مترجم فى التهذيب : ٦/١٣٧ .

(2) فى المخطوطة : « عبيد الله بن حكيم » . ولم نجده . وفى الطبعات السابقة : « عبدالله بن حكيم » ولعله « عبد الله بن حكيم ابن حزام القرشى الأسدى » وهو مترجم له فى أسد الغابة برقم ٢٨٩٩ : ٣ / ٢١٥ بتحقيقنا .

(3) سورة التحريم ، آية : ١٢ .

(4) سورة يس ، آية : ٨٢ .

(5) سورة مريم ، آية : ٢١ .

(6) فى المخطوطة : « عن شعيب — يعنى ابن بشر

وقال الحسن البصري ، في هذه الآية : بين لهم ما يتقون وما يأتون ثم قال (إن هذه أمتكم أمة واحدة) أي سنتكم سنة واحدة . فقوله (إن هذه) : إن واسمها ، وأمتكم خبر إن ، أي : هذه شريعتكم التي بينت لكم ووضحت لكم ، وقوله : (أمة واحدة) نصب على الحال ، ولهذا قال : (وأنا ربكم فاعبدون) ، كما قال : (يا أيها الرسل، كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم . وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون (١)) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نحن معشر الأنبياء أولاد علاّت ديننا واحد (٢) ، يعني أن المقصود هو عبادة الله وحده لا شريك له بشرائع متنوعة لرسله ، كما قال تعالى : (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا (٣)) .

وقوله : (وتقطعوا أمرهم بينهم) ، أي : اختلفت الأمم على رسلها ، فمن بين مصدّق لهم ومكذب ، ولهذا قال : (كل إلينا راجعون) ، أي : يوم القيامة ، فيجازَى كلٌّ بحسب عمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، ولهذا قال : (فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن) ، أي : قلبه مصدّق ، وعمل عملا صالحا ، (فلا كفران لسعيه) ، كقوله : (إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا (٤)) ، أي : لا يُكفَر سعيُه ، وهو عمله ، بل [يُشكَر] ، فلا يظلم مثقال ذرة ، ولهذا قال : (وإنا له كاتبون) أي : يُكتب جميعُ عمله ، فلا يَضيع عليه منه شيء .

وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾

يقول تعالى : (وحرام على قرية) ، قال ابن عباس (٥) : وجب . يعني قدراً مُقدّراً أن أهل كل قرية أهلكوا أنهم لا يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيامة . هكذا صرح به ابن عباس ، وأبو جعفر الباقر ، وقتادة ، وغير واحد ،

وفي رواية عن ابن عباس : (أنهم لا يرجعون) ، أي : لا يتوبون .

---

(١) سورة المؤمنون : ٥١ ، ٥٢ .

(٢) تقدم الحديث في : ١/٢٧٠ ، ٢/٤٠٨ ، وشرحنا غريبه ، وخرجناه هنالك .

(٣) سورة المائدة ، آية : ٤٨ .

(٤) سورة الكهف ، آية : ٣٠ .

(٥) أثر عن ابن عباس في هذه الآية قراءات ، أولاها : (حرم) ـ بفتح الحاء ، وكسر الراء ، على أنه فعل ماض . وثانيها : (حرم) بفتح الحاء والراء ، فعلا ماضيا أيضاً ، وقد نسبهما إليه أبو حيان في البحر المحيط : ٦/٣٢٨ . والثالثة : (حرم) بفتح الحاء وضم الراء ، فعلا ماضيا كذلك ، والرابعة (حرم) ـ بفتح الحاء وسكون الراء ، اسما ، وقد نسبهما إليه أبو الفتح ابن جني في المحتسب ٢/٦٥ ، ٦٦ .

ويبدو من رواية الطبري : ١٧/٦٨ أن ابن عباس كان يقرأ أيضاً : (حرم) ـ بكسر الحاء وسكون الراء ، اسما وقد نسبت إليه هذه القراءة في لسان العرب أيضاً ، وأنه كان يقول في تفسيرها : « واجب » .

(أما حرام) فهي قراءة الجمهور ، والنحاة يوجهون هذه القراءة على أن (لا) في قوله تعالى : (لا يرجعون) زائدة

والقول الأول أظهر ، والله أعلم .

وقوله : (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج) : قد قدمنا أنهم من سلالة آدم عليه السلام(١)، بل هم من نسل نوح أيضا ، من أولاد يافث أبى الترك ، والترك شرذمة منهم ، تُركوا من وراء السد الذى بناه ذو القرنين .

وقال : (هذا رحمة من ربى ، فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء ، وكان وعد ربى حقاً ، وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ونُفِخ فى الصُّور فجمعناهم جَمْعاً(٢))،وقال فى هذه الآية الكريمة :(حتى إذا فُتِحت يأجوجُ ومأجوج وهم من كل حَدَب ينسلون) ، أى : يسرعون فى المشى إلى الفساد .

« والحَدَب » : هو المرتفع من الأرض ، قاله ابن عباس ، وعكرمة ، وأبو صالح ، والثورى وغيرهم . وهذه صفتهم فى حال خروجهم ، كأن السامع مشاهد لذلك ، (ولا ينبئك مثل خبير) ، هذا إخبار عالم ما كان وما يكون ، الذى يعلم غيب السموات والأرض ، لا إله إلا هو .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن مثنى حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن عُبَيد الله بن أبى يزيد قال : رأى ابنُ عباس صبيانا ينزو بعضهم على بعض ، يلعبون ، فقال ابن عباس : هكذا يخرج يأجوج ومأجوج (٣) .

وقد ورد ذكر خروجهم فى أحاديث متعددة من السنة النبوية ، فالحديث الأول ، قال الإمام أحمد :

حدثنا يعقوب ، حدثنا أبى ، عن ابن إسحاق ، عن عاصم بن عُمَر بن قتادة ، عن محمود بن لَبِيد ، عن أبى سعيد الخدرى قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يُفتَح يأجوجُ ومأجوجُ ، فيخرجون كما قال (٤) الله عز وجل : (من كل حدب ينسلون) ، فيغشَوْنَ الناس (٥) ، وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم ، ويضمون إليهم مواشيَهم ، ويشربون مياه الأرض ، حتى إن بعضَهم ليمر بالنهر ، فيشربون مافيه حتى يتركوه يَبَساً ، حتى إن مَنْ بعدهم ليمر بذلك النهر فيقول : قد كان هاهنا ماء مرةً ، حتى إذا لم يبقَ من الناس أحد إلا أحدٌ فى حصن أو مدينة قال قائلهم : هؤلاء أهلُ الأرض ، قد فرغنا منهم ، بقى أهلُ السماء ، قال : ثم يهزّ أحدُهم حربته ، ثم يرمى بها إلى السماء ، فترجع إليه مُخْتَضِبَةً دما ، للبلاء والفتنة ، فبينما هم على ذلك إذ بعث الله عز وجل دودا فى أعناقهم كنَغَف (٦) الجراد الذى يخرج فى أعناقه ، فيصبحون موتى لا يسمَع لهم حِس ، فيقول المسلمون : ألا رجل يَشْرى(٧)

---

(١) ينظر : ١٩١/٥ ، ١٩٢ .
(٢) سورة الكهف ، الآية : ٩٨ ، ٩٩ .
(٣) تفسير الطبرى : ٧٠/١٧ .
(٤) كذا فى مخطوطة الأزهر وابن ماجه ، ولفظ المسند : « فيخرجون على الناس كما قال .... » .
(٥) لفظ المسند : « فيغشون الأرض » . وابن ماجه : « فيعمون الأرض » .
(٦) تقدم تفسير هذه الكلمة فى ١٩٣/٥ ، ٤١٥/٢ .
(٧) أى : يبيعها لله عز وجل . وفى المخطوطة : « يشرى لنا » . و« لنا » غير ثابته فى المسند .

نفسه ، فينظر مافعل هذا العدو ؟ قال : فيتجرد رجل منهم محتسبا نفسه ، قد أوطنها (١) على أنه مقتول ، فينزل فيجدهم موتى ، بعضهم على بعض ، فينادى : يا معشر المسلمين ، ألا أبشروا ، إن الله عز وجل قد كفاكم عدوكم ، فيخرجون من مدائنهم وحصونهم ، ويُسَرِّحون مواشيهم ، فما يكون لها رعى إلا لحومهم ، فتَشْكَر عنه كأحسن ما شَكِرَت (٢) عن شيء من النبات أصابته قط (٣) .

ورواه ابن ماجه ، من حديث يونس بن بُكَير ، عن ابن إسحاق ، به (٤) .

الحديث الثاني ، قال أحمد أيضا : حدثنا الوليد بن مسلم أبو العباس الدمشقي ، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر ، حدثني يحيى بن جابر الطائي قاضي حمص ، حدثني عبد الرحمن بن جُبَير بن نُفَير الحضرمي ، عن أبيه ، أنه سمع النَّوَّاس بن سمْعان الكلابي قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدجال ذات غداة ، فخفَّض فيه ورفَّع (٥) ، حتى ظنناه في طائفة النخل (٦) ، [فلما رُحْنا إليه عرف ذلك في وجوهنا ، فسألناه فقلنا : يا رسول الله ، ذكرت الدجال الغداة ، فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل (٧)] . فقال : غير الدجال أخْوَفُنى (٨) عليكم ، فإن يخرج ــ وأنا فيكم ــ فأنا حَجِيجهُ دونكم ، وإن يخرج ــ ولست فيكم ــ فامرؤ حجيج نفسه ، والله خليفتي على كل مسلم ؛ إنه شاب جَعْدٌ قَطَطٌ عينه طافية ، وإنه يخرج خَلَّةً (٩) بين الشام والعراق ، فعاث يمينا وشمالا ، يا عباد الله ، اثبتوا .

قلنا : يا رسول الله ، مالبثه في الأرض ؟ ــ قال : أربعين يوما ، يوم كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعة ، وسائر أيامه كأيامكم .

قلنا : يا رسول الله ، فذلك اليوم الذى هو كسنة ، أتكفينا فيه صلاة يوم وليلة ؟ قال : لا ، اقدروا له قدره .

قلنا : يا رسول الله ، فما إسراعه فى الأرض ؟ قال : كالغيث استدبرته الريح . قال : فيمر بالحى فيدعوهم ، فيستجيبون له ، فيأمر السماء فتمطر ، والأرض فتنبت ، وتروح عليهم سارحتهم وهى أطول ما كانت ذُرًى ، وأمده خواصر ، وأسبغه ضروعا . ويمر بالحى فيدعوهم فيردّون عليه قوله ، فتتبعه أموالهم ، فيصبحون مُمْحِلين ، ليس

---

(١) فى ابن ماجه : « قد وطن نفسه » . وفى المسند : « قد أظنها » .

(٢) ينظر تفسير « الشكر » فى : ١٩٣/٥

(٣) مسند الإمام أحمد : ٧٧/٣ .

(٤) سنن ابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب « فتنة الدجال وخروج يأجوج ومأجوج » ، الحديث ٤٠٧٩ : ١٣٦٣/٢ ، ١٣٦٤ .

(٥) أى : بالغ فى تقريبه ، واستعمل فيه كل فن من خفض الصوت ورفع ، وينظر فيما تقدم : ٤١٤/٢ .

(٦) فى المخطوطة : « فى ناحية المسجد » . والمثبت عن المسند ، ومسلم ، والترمذى ، وابن ماجه .

(٧) ما بين القوسين من كتب السنة المتقدمة ، ونحسب أنه سقط نظر .

(٨) فى المخطوطة : « أخوف منى عليكم » ، ومثله فى المسند ، والمثبت عن مسلم وابن ماجه ، و « أخوفنى » أسم تفضيل من الفعل المبنى للمفعول ، والمعنى : أخوف مخوفاتى عليكم . ثم حذف المضاف وهو « مخوفات » فاتصل اسم التفضيل بالياء ، وجىء بالنون بينهما على قلة . وفى الترمذى : « أخوف لى عليكم » .

لهم من أموالهم شيء : ويمر بالخربة فيقول لها : « أخرجي كنوزك » ، فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل – قال : ويأمر برجل فيُقتل ، فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رَمْيَةَ الغرض ، ثم يدعوه فيقبل إليه [يتهلل وجهه (١)] .

فبينما هم على ذلك ، إذ بعث الله عز وجل المسيح ابن مريم ، فينزل عند المنارة البيضاء ، شرقيّ دمشق ، بين مهرُودتين واضعا يدَه على أجنحة ملكين ، فيتبعه فيدركه ، فيقتله عند باب لُدّ الشرقي .

قال : فبينما هم كذلك ، إذ أوحى الله عز وجل إلى عيسى ابن مريم أني قد أخرجت عبادا من عبادي لا يدان لك بقتالهم ، فحرِّز (٢) عبادي إلى الطور ، فيبعث الله عز وجل يأجوج ومأجوج [وهم (١)] كما قال الله : (من كل حدب ينسلون) ، فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله عز وجل ، فيرسل الله عليهم نَغَفاً في رقابهم ، فيصبحون فَرْسَى ، كموت نفس واحدة.

فيهبط عيسى وأصحابه ، فلا يجدون في الأرض بيتا إلا قد ملأه زَهَمُهم ونَتْنُهم ، فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله ، فيرسل عليهم طيراً كأعناق البُخْت ، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله .

قال ابن جابر : فحدثني عطاء بن يزيد السَّكْسَكيّ ، عن كعب – أو غيره – قال : فتطرحهم بالمَهْبِل (٣) .

[قال ابن جابر : فقلت : يا أبا يزيد ، وأين المَهْبِل (٤) ؟] ، قال : مطلع الشمس .

قال : ويرسل الله مطراً لا يكُنُّ منه بيت مَدَر ولا وبر أربعين يوما ، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزَّلَفَة ، ويقال للأرض : أنبتي ثمرتك ، ورُدّي بركتك . قال : فيومئذ يأكل النفر من الرمانة ويستظلون بقحفها ، ويُبارك في الرِّسْل ، حتى إن اللَّقْحَةَ من الإبل لتكفي الفِئَامَ من الناس ، واللقحة من البقر تكفي الفَخِذ (٥) ، والشاة من الغنم تكفي أهل البيت .

قال : فبينما هم على ذلك ، إذ بعث الله عز وجل ريحا طيبة تحت آباطهم ، فتقبض روح كل مسلم – أو قال : كل مؤمن – ويبقى شرار الناس يتهارجون تَهارج الحمير ، وعليهم تقوم الساعة (٦) .

انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري ، فرواه مع بقية أهل السنن من طرق ، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر ، به ، وقال الترمذي : حسن صحيح .

---

(١) ما بين القوسين عن المسند .

(٢) أي : نحهم وأزلهم عن طريقهم إلى الطور ، ولفظ مسلم : « فحرز » ، فعل أمر من التحريز ، وابن ماجه : « فأحرز » ، وفي الترمذي مثل ما في المسند .

(٣) المهبل – بفتح الميم ، وسكون الهاء ، وكسر الموحدة – : الهوة الذاهبة في الأرض .

(٤) ما بين القوسين سقط من مخطوطة الأزهر ، وقد أثبتناه عن المسند ، وهو سقط نظر .

(٥) الفخذ : الجماعة من الأقارب ، وهم دون البطن ، والبطن دون القبيلة .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٤/١٨١ ، ١٨٢ ، وقد تقدمت في سورة النساء عند الآية ١٥٩ : ٢/٤١٣ – ٤١٥ رواية الإمام مسلم ، وخرجناها هنالك ، وشرحنا غريبها ، كما خرجنا الحديث عن الترمذي وابن ماجه . فانظر هنالك غريب هذا الحديث .

الحديث الثالث ، قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن بشر حدثنا محمد بن عمرو ، [عن] ابن حَرْمَلَة (١) ، عن خالته قالت : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عاصب أصبُعه من لدغة عقرب ، فقال : إنكم تقولون : « لا عدوّ » (٢) ، وإنكم لا تزالون تقاتلون عدواً ، حتى يأتي يأجوج ومأجوج عراض الوجوه صغار العيون ، صُهْبَ الشّعاف (٣) من كل حَدَب ينسلون ، كأن وجوههم المَجَانّ (٤) المُطْرَقة (٥)

وكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث محمد بن عمرو ، عن خالد بن عبد الله بن حرملة المدلجي ، عن خالة له عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فذكره مثله .

الحديث الرابع : قد تقدم في تفسير آخر سورة الأعراف من رواية الإمام أحمد ، عن هشيم ، عن العوام ، عن جبلة ابن سُحَيم ، عن مُؤثِر بن عَفَازَةَ ، عن ابن مسعود ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لقيت ليلة أسرى بي إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ، قال : فتذاكروا أمر الساعة ، فردوا أمرهم إلى إبراهيم ، فقال : لا علم لي بها ، فردوا أمرهم إلى موسى ، فقال : لا علم لي بها ، فردوا أمرهم إلى عيسى ، فقال : أما وَجْبَتُها فلا يعلم بها أحد إلا الله ، وفيما عهد إلى ربي أن الدجال خارج ، قال : ومعي قضيبان ، فاذا رآني ذاب كما يذوب الرصاص ، قال : فيهلكه الله إذا رآني ، حتى إن الحجر والشجر يقول : يا مسلم إن تحتى كافرا ، فتعال فاقتله . قال : فيهلكهم الله ، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم . قال : فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حَدَب يَنْسلون ، فيطئون بلادهم ، لا يأتون على شئ إلا أهلكوه ، ولا يمرون على ماء إلا شربوه . قال : ثم يرجع الناس إليّ يشكونهم ، فأدعوا الله عليهم ، فيهلكهم ويميتهم ، حتى تَجوَى الأرض من نَتْن ريحهم ، وينزل الله المطر فيجترف أجسادهم ، حتى يقذفهم في البحر . ففيما عهد إليّ ربي أن ذلك إذا كان كذلك ، أن الساعة كالحامل المُتِمّ ، لا يدرى أهلها متى تَفْجَؤُهم بولادها ليلا أو نهاراً (٦) .

ورواه ابن ماجه ، عن محمد بن بشار ، عن يزيد بن هارون ، عن العوام بن حوشب ، به ، نحوه وزاد : « قال العوام ، ووجد تصديق ذلك في كتاب الله عز وجل : (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون) » .

---

(١) في المخطوطة : « محمد بن عمرو بن حرملة » . والصواب ما أثبتناه ، ومحمد بن عمرو هو ابن علقمه بن وقاص ، مترجم في التهذيب : ٣٧٥/٩ « يروى عن خالد بن عبدالله بن حرملة » . وقد وقع خلط في المسند كذلك ، فسند الحديث فيه : ثنا محمد ـ يعني ابن عمرو ، حدثنا خالد بن عمرو ، عن ابن حرملة . . . » .

(٢) في المخطوطة : « لا عدو لكم » . و« لكم » غير ثابتة في المسند .

(٣) في المسند : « شهب الشعاف » . وفي النهاية لابن الأثير : « صهب الشعاف » ، أي : صهب الشعور . والصهبة : الشقرة .

(٤) المجان : جمع مجن ـ بكسر ففتح ، وهو الترس الذي يلبسه المحارب ، سمى بذلك لأنه يجنه ويستره ويقيه من عدوه .
وترس مطرق : ما يكون بين جلدين ، أحدهما فوق الآخر ، ومنه طارق النعل : إذا صيرها طاقاً فوق طاق وركب بعضها على بعض ، أراد أنهم عراض الوجوه غلاظها .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٢٧١/٥ .

(٦) تقدمت سياقة الحديث في موضعين ، الأول في سورة النساء ، ٤٠٩/٢ ، ٤١٠ ، وسورة الأعراف ٥٢٥/٣ ، وخرجناه هنالك عن المسند وابن ماجه ، وشرحنا غريبه في الموضع الأول .

ورواه ابن جرير ها هنا من حديث جبلة(١)، به . والأحاديث فى هذا كثيرة جدا، والآثار عن السلف كذلك : وقد روى ابن جرير وابن أبى حاتم ، من حديث معمر ، عن غير واحد ، عن حميد بن هلال ، عن أبى الصيف قال : قال كعب : إذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج ، حفروا حتى يسمع الذين يلونهم قرع فئوسهم، فإذا كان الليل قالوا : « نجيء غدا فنخرج » . فيعيده الله كما كان ، فيجيئون من الغد فيجدونه قد أعاده الله كما كان ، فيحفرون حتى يسمع الذين يلونهم قرع فئوسهم، فإذا كان الليل ألقى الله على لسان رجل منهم يقول: « نجيء غدا فنخرج إن شاء الله » : فيجيئون من الغد فيجدونه كما تركوه ، فيحفرون حتى يخرجوا . فتمر الزمرة الأولى بالبحيرة ، فيشربون ماءها ، ثم تمر الزمرة الثانية فيلحسون طينها، ثم تمر الزمرة الثالثة فيقولون : قد كان هاهنا مرة ماء ، ويفر الناس منهم ، فلا يقوم لهم شئ . ثم يرمون بسهامهم إلى السماء فترجع إليهم مخضّبة بالدماء فيقولون : « غلبنا أهل الأرض وأهل السماء » : فيدعو عليهم عيسى ابن مريم عليه السلام فيقول : « اللهم ، لا طاقة ولا يدين (٢) لنا بهم ، فاكفناهم بما شئت » ، فيسلط الله عليهم دودا يقال له « النغف » ، فيفرس رقابهم (٣)، ويبعث الله عليهم طيرا تأخذهم بمناقيرها فتلقيهم فى البحر ، ويبعث الله عينا يقال لها « الحياة » ، يطهر الله الأرض وينبتها ، حتى إن الرمانة ليشبع منها السكن – قيل : : وما السكن يا كعب ؟ قال : أهل البيت – قال : فبينا الناس كذلك إذ أتاهم الصريخ أن ذا السويقتين(٤) يريده ، قال: فيبعث عيسى ابن مريم طليعة سبعمائة ، أو بين السبعمائة والثمانمائة ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق بعث الله ريحا يمانية طيبة ، فيقبض فيها روح كل مؤمن ، ثم يبقى عجاج (٥) الناس ، فيتسافدون (٦) كما تسافد البهائم ، فمثل الساعة كمثل رجل يطيف حول فرسه [ينتظرها] (٧) متى تضع ؟ قال كعب : فمن [تكلف] بعد قولى هذا شيئا أو : بعد علمى هذا شيئا – فهو المتكلف (٨) .

هذا من أحسن سياقات كعب الأحبار ، لما شهد له من صحيح الأخبار ، وقد ثبت فى الحديث أن عيسى ابن مريم يحج البيت العتيق ، وقال الإمام أحمد :

حدثنا سليمان بن داود ، حدثنا عمران ، عن قتادة ، عن عبد الله بن أبى عتبة ، عن أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لَيُحَجَّنَّ هذا البيت، ولَيُعْتَمَرَنَّ بعد خروج يأجوج ومأجوج (٩) . انفرد بإخراجه البخارى(١٠).

---

(١) تفسير الطبرى : ١٧/٧٢ .
(٢) ينظر تفسير هذه الكلمة فى : ٣/١٢٥ ، ٤/١٨ .
(٣) أى : يكسر أعناقهم .
(٤) السويقة : تصغير الساق ، وهى مؤنثة ، ولهذا ظهرت التاء فى تصغيرها ، وفى الحديث أنه « يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة » . ويقول ابن الأثير : « وإنما صغر الساق ، لأن الغالب على سوق الحبشة الدقة والحموشة » .
(٥) العجاج : الغوغاء والأراذل ومن لا خير فيه .
(٦) السفاد : نزو الذكر على الأنثى .
(٧) ما بين القوسين عن تفسير الطبرى .
(٨) تفسير الطبرى : ١٧/٧١ .
(٩) مسند الإمام أحمد : ٣/٢٧ ، ٢٨ .
(١٠) البخارى ، كتاب الحج ، باب قول الله تعالى (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس ...) : ٢/١٨٢ ، ١٨٣ .

وقوله : (واقترب الوعد الحق) ، يعني يوم القيامة ، إذا وجدت هذه الأهوال والزلازل والبلابل ، أزفت الساعة واقتربت ، فإذا كانت ووقعت قال الكافرون : (هذا يوم عسر (١)) . ولهذا قال تعالى : (فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا) ، أي : من شدة ما يشاهدونه من الأمور العظام : (يا ويلنا) ، أي : يقولون : (يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا) ، أي : في الدنيا ، (بل كنا ظالمين) ، يعترفون بظلمهم لأنفسهم ، حيث لا ينفعهم ذلك :

إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾

يقول تعالى مخاطبا لأهل مكة من مشركي قريش ، ومن دان بدينهم من عبدة الأصنام والأوثان : (إنكم وما تعبدون من دون الله حَصَبُ جهنم) — قال ابن عباس : أي وقودها (٢) ، يعني كقوله : (وقودها الناس والحجارة) (٣) .

وقال ابن عباس أيضا : (حصب جهنم) ، بمعنى شجر جهنم — وفي رواية قال : (حصب جهنم) ، يعني : حطب جهنم ، بالزنجية .

وقال مجاهد ، وعكرمة ، وقتادة : حطبها : وهي كذلك في قراءة علي وعائشة رضي الله عنهما (٤) .

وقال الضحاك : (حصب جهنم) ، أي : ما يرمى به فيها .

وكذا قال غيره . والجميع قريب .

وقوله : (أنتم لها واردون) ، أي : داخلون ، (لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها) ، يعني : لو كانت هذه الأصنام والأنداد التي اتخذتموها من دون الله آلهة صحيحة لما وردوا النار، ولما دخلوها ، (وكل فيها خالدون) ، أي : العابدون ومعبوداتهم ، كلهم فيها خالدون . (لهم فيها زفير) ، كما قال : (لهم فيها زفير وشهيق) (٥) ، والزفير : خروج أنفاسهم ، والشهيق : ولوج أنفاسهم ، (وهم فيها لا يسمعون) .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا علي بن محمد الطنافسي ، حدثنا ابن فُضَيل ، حدثنا عبد الرحمن — يعني المسعودي — عن أبيه قال : قال ابن مسعود : إذا بقي من يخلد في النار ، جُعلوا في توابيت من نار ، فيها مسامير من نار ، فلا يَرَى أحد منهم أنه يعذب في النار غيره ، ثم تلا عبد الله : (لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون) .

---

(١) سورة القمر ، آية ٨ .
(٢) تفسير الطبري : ١٧/٧٤ .
(٣) سورة التحريم ، آية ٦ .
(٤) البحر المحيط لأبي حيان : ٦/٣٤٠ .
(٥) سورة هود ، آية : ١٠٦ .

ورواه ابن جرير ، من حديث حجاج بن محمد ، عن المسعودى عن يونس بن خَبَّاب عن ابن مسعود فذكره (١) .

وقوله : (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى) ، قال عكرمة : الرحمة : وقال غيره : السعادة ، (أولئك عنها مبعدون) ، لما ذكر تعالى أهل النار وعذابهم بسبب شركهم بالله ، عطف بذكر السعداء من المؤمنين بالله ورسُله ، وهم الذين سبقت لهم من الله السعادة ، وأسلفوا الأعمال الصالحة فى الدنيا ، كما قال : (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة(٢)) وقال : (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان)(٣) ، فكما أحسنوا العمل فى الدنيا ، أحسن الله مآلهم وثوابهم ، فنجاهم من العذاب ، وحَصَّل لهم جزيل الثواب ، فقال : أولئك عنها مبعدون ، لا يسمعون حسيسها) ، أى : حريقها فى الأجساد .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا محمد بن عمار ، حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن أبيه ، عن الجريرى(٤) ، عن أبى عثمان : (لا يسمعون حسيسها) ، قال : حيات على الصراط تلسعهم ، فإذا لسعتهم قال : حَس حَس (٥) .

وقوله : (وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون) ، فسلمهم من المحذور والمرهوب ، وحصل لهم المطلوب والمحبوب .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أحمد بن أبى سُرَيج ، حدثنا محمد بن الحسن بن أبى يزيد الهمدانى ، عن ليث بن أبى سليم ، عن ابن عم النعمان بن بشير ، عن النعمان بن بشير قال ـ وسَمَرَ مع علي ذات ليلة ، فقرأ : (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) ، قال : أنا منهم ، وعمر منهم ، وعثمان منهم والزبير منهم ، وطلحة منهم ، وعبد الرحمن منهم ـ أو قال : سعد منهم ـ قال : وأقيمت الصلاة فقام ، وأظنه يجر ثوبه ، وهو يقول : (لا يسمعون حسيسها) .

وقال شعبة ، عن أبى بشر ، عن يوسف المكى ، عن محمد بن حاطب قال : سمعت عليا يقول فى قوله : (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى) ، قال : عثمان وأصحابه

ورواه ابن أبى حاتم أيضاً ، ورواه ابن جرير من حديث يوسف بن سعد ـ وليس بابن ماهك ـ عن محمد بن حاطب ، عن على ، فذكره ولفظه : عثمان منهم(٦) .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٧/٧٥ .

(٢) سورة يونس ، آية : ٢٦ .

(٣) سورة الرحمن ، آية : ٦٠ .

(٤) فى المخطوطة : « حماد بن سلمة ، عن أبيه ، عن أبى عثمان الحديدى ، عن أبى عثمان » ، ومثله فى الطبعات السابقة . ولعل الصواب ما أثبتناه ؛ فالأثر فى الدر المنثور ٤/٣٣٩ عن أبى عثمان النهدى ، ويروى عنه أبو محمد عباس بن فروخ الجريرى ـ بضم الجيم ـ المتوفى سنة ١٢٠ ، وهو مترجم فى التهذيب : ٥/١٢٥ ، وسلمة والد حماد ، هو سلمة بن دينار ، توفى فى حدود سنة ١٤٠ هـ ، وترجمته فى التهذيب : ٤/١٤٤ . ويبدو ـ والله أعلم ـ أن الناسخ الأول قد سها فسبق قلمه إلى « أبى عثمان » قبل أن يذكر « الجريرى » ، ثم ذكر أبا عثمان مرة ثانية .

(٥) حس : بكسر السين مشددة : كلمة يقولها الإنسان إذا أصابه ما مضه وأحرقه غفلة ، كالجمرة والضربة ونحوهما .

(٦) تفسير الطبرى : ١٧/٧٥ .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في قوله : (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) : فأولئك أولياء الله يمرون على الصراط مرًّا هو أسرع من البرق ، ويبقى الكفار فيها جثيًّا .

فهذا مطابق لما ذكرناه ، وقال آخرون : بل نزلت استثناء من المعبودين ، وخرج منهم عُزَير والمسيح : كما قال حجاج بن محمد الأعور ، عن [ابن] جريج وعثمان بن عطاء ، عن عطاء ، عن ابن عباس : (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) ، ثم استثنى فقال : (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى) ، فيقال : هم الملائكة ، وعيسى ، ونحو ذلك مما يعبد من دون الله عز وجل . وكذا قال عكرمة ، والحسن ، وابن جريج .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس في قوله : (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى) ، قال : نزلت في عيسى ابن مريم وعُزَير عليهما السلام .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا الحسن بن عيسى بن مَيْسَرَة ، حدثنا أبو زُهَير ، حدثنا سعد بن طَريف ، عن الأصبغ ، عن عليّ في قوله : (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى) ، قال : كل شيء يعبد من دون الله في النار إلا الشمس والقمر وعيسى ابن مريم . إسناده ضعيف .

وقال ابن أبي نَجيح ، عن مجاهد : (أولئك عنها مبعدون) ، قال : عيسى ، وعُزَير ، والملائكة .

وقال الضحاك : عيسى ، ومريم ، والملائكة ، والشمس ، والقمر[1] . وكذا روى عن سعيد بن جُبَير ، وأبي صالح وغير واحد .

وقد روى ابن أبي حاتم في ذلك حديثاً غريباً جدا فقال : حدثنا الفضل بن يعقوب الرُّخَامي[2] ، حدثنا سعيد ابن مسلمة بن عبد الملك ، حدثنا الليث بن أبي سليم ، عن مُغيث ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) ، قال : عيسى ، وعُزَير ، والملائكة .

وذكر بعضهم قصة ابن الزِّبَعْرَى ومناظرة المشركين ، قال أبو بكر بن مَرْدُوَيه :

حدثنا محمد بن علي بن سهل ، حدثنا محمد بن حسن الأنماطي ، حدثنا إبراهيم بن محمد بن عَرْعَرَة ، حدثنا يزيد بن أبي حكيم ، حدثنا الحكم ــ يعني ابن أبان ــ عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : جاء عبد الله بن الزبعرى إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : تزعم أن الله أنزل عليك هذه الآية : (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) ، فقال ابن الزبعرى : قد عُبدت الشمس والقمر والملائكة ، وعُزَير وعيسى ابن مريم ، كل هؤلاء في النار مع آلهتنا ؟ فنزلت : (ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يَصِدّون . وقالوا : أآلهتنا خير أم هو؟

---

(١) تفسير الطبري : ١٧/٧٦ .

(٢) في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٣/٢/٧٠ : « الرخامي » بالميم . ولم تقع لنا هذه النسبة ، وهي في المخطوطة أقرب إلى « النون » . « ورخان » ــ كما في معجم البلدان لياقوت ــ بضم أوله ، وتشديد ثانيه ، وآخره نون ، من قرى مرو .

ما ضربوه لك إلا جدلا ، بل هم قوم خصمون) ، ثم نزلت : (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) » رواه الحافظ أبو عبد الله فى كتابه « الأحاديث المختارة » .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا قبيصة بن عقبة ، حدثنا سفيان ــ يعنى الثورى ــ عن الأعمش ، عن أصحابه ، عن ابن عباس قال : لما نزلت : (إنكم وما تعبدون من دون الله حَصَبُ جهنم أنتم لها واردون) ، قال المشركون : فالملائكة ، وعُزَيْر ، وعيسى يُعْبَدون من دون الله ؟ فنزلت : (لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها) ، الآلهة التي يعبدون ، (وكل فيها خالدون) .

وروى عن أبي كدينة ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جُبَيْر ، عن ابن عباس مثل ذلك ، وقال ، فنزلت : (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون)(١) .

وقال محمد بن إسحاق بن يسار ، رحمه الله ، فى كتاب « السيرة » : وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ فيما بلغني ــ يوماً مع الوليد بن المغيرة فى المسجد ، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم ، وفى المسجد غير واحد من رجال قريش ، فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرض له النضر بن الحارث ، فكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أفحمه ، وتلا عليه وعليهم : (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) إلى قوله : (وهم فيها لا يسمعون) ، ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقبل عبد الله بن الزِّبَعْرَى السهمى حتى جلس ، فقال الوليد بن المغيرة لعبد الله بن الزبعرى : والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفاً ولا قعد(٢) ، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم . فقال عبد الله بن الزبعرى : أما والله لو وجدته لخَصَمته(٣) ، فسلوا محمداً : كل ما يُعْبَد من دون الله فى جهنم مع من عَبَده ؟ فنحن نعبد الملائكة ، واليهود تعبد عزيراً ، والنصارى تعبد عيسى ابن مريم ؟؟ فعجب الوليد ومن كان معه فى المجلس ، من قول عبد الله بن الزبعرى ، ورأوا أنه قد احتج وخاصم . فَذُكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « كل مَنْ أحَبَّ أن يُعْبَد من دون الله فهو مع من عبده ، إنهم إنما يعبدون الشياطين ومن أمَرَتْهُم بعبادته . وأنزل الله : (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ، أولئك عنها مبعدون . لا يسمعون حسيسها ، وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون) ، أى : عيسى وعزَيْر ومن عُبدوا من الأحبار والرهبان ، الذين مضوا على طاعة الله ، فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة أرباباً من دون الله . ونَزَل فيما يذكرون ، أنهم يعبدون الملائكة ، وأنهم بنات الله : (وقالوا : اتخذ الرحمن ولداً ، سبحانه ، بل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول ، وهم بأمره يعملون) إلى قوله : (ومن يقل منهم : إنى إله من دونه ، فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين) ، ونَزَل فيما ذُكر من أمر عيسى ، وأنه يعبد من دون الله ، وعَجَب الوليد ومن حَضَره من حُجَّته وخصومته : (ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون . وقالوا : أ آلهتنا خير أم هو ؟ ما ضَرَبُوه لك إلا جَدَلا ، بل هم قوم خصمون .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٧/٧٧ .
(٢) هذا كناية عن إفحام رسول الله للنضر ، وأنه لم تكن له مع الرسول محاولة ، بل استسلم غاية الاستسلام .
(٣) لغلبته فى الخصومة ، وكنت صاحب الحجة عليه .

إن هو ألا عبد أنعمنا عليه،وجعلناه مثلا لبني إسرائيل . ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون . وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها) ، أي : ما وضعت على يديه من الآيات من إحياء الموتى وإبراء الأسقام ، فكفى به دليلا على علم الساعة ، يقول : (فلا تمترن بها واتبعون ، هذا صراط مستقيم[١]) .

وهذا الذي قاله ابن الزبعرى خطأ كبير ؛ لأن الآية إنما نزلت خطاباًلأهل مكة في عبادتهم الأصنام التي هي جماد لا تعقل ، ليكون ذلك تقريعاً وتوبيخاً لعابديها ، ولهذا قال : (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) ، فكيف يُورَد على هذا المسيح والعزير ونحوهما ، ممن له عمل صالح ، ولم يَرْضَ بعبادة من عبده : وعوّل ابن جرير في تفسيره في الجواب [على] أن « ما » لما لا يعقل عند العرب[٢] .

وقد أسلم عبد الله بن الزبعرى بعد ذلك ، وكان من الشعراء المشهورين . وكان يهاجي المسلمين أولا ، ثم قال معتذراً[٣] :

يا رَسُولَ المليك ، إنَّ لساني رَاتِقٌ ما فَتَقْتُ إذْ أنا بُورُ[٤]

إذْ أجاري الشَّيطانَ في سَنَنِ الغَيِّ، وَمَنْ مَالَ مَيْلَه مَثْبُور[٥]

وقوله : (لا يحزنهم الفزع الأكبر) ، قيل : المراد بذلك الموت . رواه عبد الرزاق ، عن يحيى بن ربيعة ، عن عطاء .

وقيل : المراد بالفزع الأكبر : النفخة في الصور . قاله العوفي عن ابن عباس ، وأبوسنانسعيد بن سنان الشيباني ، واختاره ابن جرير في تفسيره[٦] .

وقيل : حين يُؤمَر بالعبد إلى النار . قاله الحسن البصري .

وقيل : حين تُطبق النار على أهلها . قاله سعيد بن جُبير ، وابن جُرَيج .

وقيل : حين يُذبح الموت بين الجنة والنار : قاله أبو بكر الهذلي ، فيما رواه ابن أبي حاتم ، عنه .

وقوله : (وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون) ، يعني تقول لهم الملائكة ، تبشرهم يوم معادهم إذا خرجوا من قبورهم : (هذا يومكم الذي كنتم توعدون) ، أي : قابلوا ما يسركم .

---

(١) سيرة ابن هشام : ١/٣٥٨ – ٣٦٠ . وتفسير الطبري : ١٧/٧٦ .
(٢) تفسير الطبري : ١٧/٧٧ .
(٣) سيرة ابن هشام : ٢/٤١٩ ، وأسد الغابة ، الترجمة ٢٩٤٤ : ٣/٢٣٩ بتحقيقنا .
(٤) الراتق : الساد ، تقول : رتقت الشيء ، إذا سددته ، والبور : الهالك .
(٥) المثبور : الهالك .
(٦) تفسير الطبري : ١٧/٧٨ .

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

يقول تعالى : هذا كائن يوم القيامة ، (يوم نَطْوى السماءَ كطيِّ السجلِّ للكتاب [١]) كما قال تعالى : (وماقدَروا الله حقّ قدره ، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون) [٢] ،

وقد قال البخارى :

حدثنا مُقَدَّم بن محمد ، حدثنى عمى القاسم بن يحيى ، عن عُبَيْد الله ، عن نافع ، عن ابن عمر ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « إن الله يقبض يوم القيامة الأرَضِين ، وتكون السموات بيمينه [٣] » .

انفرد به من هذا الوجه البخارى ، رحمه الله .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا محمد بن أحمد بن الحجاج الرقى ، حدثنا محمد بن سلمة ، عن أبى الواصل ، عن أبى المليح الأزدى ، عن أبى الجوزاء الأزدى ، عن ابن عباس قال : يطوى الله السموات السبع بما فيها من الخليقة ، والأرضين السبع بما فيها من الخليقة ، يطوى ذلك كله بيمينه ، يكون ذلك كله فى يده بمنزلة خردلة .

وقوله : (كطى السجل للكتاب) ، قيل : المراد بالسجل [الكتاب . وقيل : المراد بالسجل] هاهنا مَلَكٌ من الملائكة .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا محمد بن العلاء ، حدثنا يحيى بن يمان، حدثنا أبو الوفاء الأشجعى ، عن أبيه ، عن ابن عمر فى قوله تعالى : (يوم نطوى السماء كطى السجل للكتاب) ، قال : السجل مَلَكٌ ، فإذا صعد بالاستغفار قال : اكتبها نوراً .

وهكذا رواه ابن جرير ، عن أبى كريب ، عن ابن يمان [٤] ، به .

قال ابن أبى حاتم : وروى عن أبى جعفر محمد بن على بن الحسين أن السجل ملك .

وقال السدى فى هذه الآية : السجل مَلَكٌ موكل بالصحف ، فإذا مات الإنسان رفع كتابه إلى السجل فطواه ، ورفعه إلى يوم القيامة .

وقيل : المراد به اسم رجل صحابى ، كان يكتب للنبى صلى الله عليه وسلم الوحى .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا نصر بن على الجَهْضَمِىّ ، حدثنا نوح بن قيس ، عن عمرو بن مالك ، عن أبى الجوزاء ، عن ابن عباس : [يوم نطوى السماء كطى السجل للكتاب] ، قال : السجل هو الرجل .

---

(١) كذا فى مخطوطة الأزهر ، وهى قراءة الجمهور ، وقرأ حمزة والكسائى وحفص : (للكتب) ، جمعا ، وسكن الأعمش التاء . البحر المحيط : ٦/٣٤٣ .

(٢) سورة الزمر ، آية : ٦٧ .

(٣) البخارى ، كتاب التوحيد : ٩/١٥٠ .

(٤) تفسير الطبرى ، ١٧/٧٨ .

قال نوح : وأخبرني يزيد بن كعب — هو العَوْذى — عن عمرو بن مالك ، عن أبي الجوزاء ، عن ابن عباس] قال : السجل(١) كاتب للنبي صلى الله عليه وسلم .

وهكذا رواه أبو داود والنسائي عن قتيبة بن سعيد ، عن نوح بن قيس ، عن يزيد بن كعب ، عن عمرو بن مالك ، عن أبي الجوزاء ، عن ابن عباس ، قال : السجل كاتب للنبي صلى الله عليه وسلم .

ورواه ابن جرير عن نصر بن علي الجهضمي ، كما تقدم . ورواه ابن عدى من رواية يحيى بن عمرو بن مالك النُّكْرِيّ عن أبيه ، عن أبي الجوزاء عن ابن عباس قال : كان للنبي صلى الله عليه وسلم كاتب يسمى السجل ، وهو قوله : (يوم نطوى السماء كطى السجل للكتاب) ، قال : كما يطوى السِّجل الكتاب ، كذلك نطوى السماء ، ثم قال : وهو غير محفوظ .

وقال الخطيب البغدادى فى تاريخه : أنبأنا أبو بكر البَرْقَانى ، أنبأنا محمد بن محمد بن يعقوب الحجاجى ، أنبأنا أحمد بن الحسن الكرخى ، أن حمدان بن سعيد حدثهم ، عن عبد الله بن نمير ، عن عبيد الله بن عمر ، عن نافع ، عن ابن عمر ، قال : السِّجِلّ كاتب للنبي(٢) ، صلى الله عليه وسلم .

وهذا منكر جداً من حديث نافع عن ابن عمر ، لا يصح أصلا ، وكذلك ما تقدم عن ابن عباس ، من رواية أبي داود وغيره ، لا يصح أيضاً . وقد صرح جماعة من الحفاظ بوضعه— وإن كان فى سنن أبي داود — منهم : شيخنا الحافظ الكبير أبو الحجاج المِزّى ، فَسّح الله فى عمره ، ونَسّأ فى أجله ، وختم له بصالح عمله ، وقد أفردت لهذا الحديث جزءاً على حدة ، ولله الحمد . وقد تصدى الإمام أبو جعفر بن جرير للإنكار على هذا الحديث ، ورده أتم رد ، وقال : لا يُعرَف فى الصحابة أحد اسمه السجل(٣) ، وكتاب النبي صلى الله عليه وسلم معروفون ، وليس فيهم أحد اسمه السجل ، وَصَدَق رحمه الله فى ذلك ، وهو من أقوى الأدلة على نكارة هذا الحديث . وأما مَنْ(٤) ذكر فى أسماء الصحابة هذا ، فإنما اعتمد على هذا الحديث ، لا على غيره والله أعلم . والصحيح عن ابن عباس أن السجل هى الصحيفة ، قاله على بن أبي طلحة [والعوفى] ، عنه . ونص على ذلك مجاهد ، وقتادة ، وغير واحد . واختاره ابن جرير ؛ لأنه المعروف فى اللغة ، فعلى هذا يكون معنى الكلام : (يوم نطوى السماء كطى السجل للكتاب ،) أى : على الكتاب ، بمعنى المكتوب ، كقوله : (فلما أسلما وتله للجبين(٥)) ، أى : على الجبين ، وله نظائر فى اللغة ، والله أعلم .

وقوله : (كما بدأنا أول خلق نعيده ، وعداً علينا إنا كنا فاعلين) ، يعنى هذا كائن لا محالة ، يوم يعيد الله الخلائق خلقاً جديداً ، كما بدأهم هو القادر على إعادتهم ، وذلك واجب الوقوع ، لأنه من جملة وعد الله الذى لا يخلف ولا يبدل ، وهو القادر على ذلك . ولهذا قال : (إنا كنا فاعلين) ، وقال الإمام أحمد :

---

(١) سنن أبي داود ، كتاب الإمارة ، باب فى اتخاذ الكاتب ، الحديث ٢٩٣٥ : ٣/١٣٢ .
(٢) أخرجه الخطيب فى ترجمة « حمدان بن سعيد » ، ينظر تاريخ بغداد : ٨/١٧٥ .
(٣) تفسير الطبرى : ١٧/٧٩ .
(٤) ترجم له ابن منده وأبو نعيم ، ينظر أسد الغابة لابن الأثير ، الترجمة ٢١٩٤ : ٢/٣٢٦ بتحقيقنا .
(٥) سورة الصافات ، آية : ١٠٣ .

حدثنا وكيع وابن جعفر المعنى (١)، قالا: حدثنا شعبة ،عن المغيرة بن النعمان،عن سعيد بن جبير ،عن ابن عباس قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال : « إنكم محشورون إلى الله عز وجل حفاة [عراة] غرلا كما بدأنا أول خلق نعيده ، وعداً علينا إنا كنا فاعلين » ، وذكر تمام الحديث(٢) ، أخرجاه في الصحيحين من حديث شعبة (٣) ، ورواه البخاري عند هذه الآية في كتابه (٤) .

وقد روى ليث بن أبي سليم ، عن مجاهد ، عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، نحو ذلك .

وقال العوفي ، عن ابن عباس في قوله : (كما بدأنا أول خلق نعيده) ، قال : نهلك كل شيء ، كما كان أول مرة(٥) .

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾

يقول تعالى مخبرا عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين ، من السعادة في الدنيا والآخرة ، ووراثة الأرض في الدنيا والآخرة ، كقوله تعالى : (إن الأرض لله ، يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين (٦)) ، وقال : (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ، ويوم يقوم الأشهاد (٧)) ، وقال : (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ، ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم (٨)) ، الآية .

وأخبر تعالى أن هذا مكتوب مسطور في الكتب الشرعية والقدرية فهو كائن لا محالة ، ولهذا قال تعالى : (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر) ـ قال الأعمش : سألت سعيد بن جبير عن قوله تعالى : (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر) ، فقال الزبور : التوراة ، والإنجيل ، والقرآن .

وقال مجاهد : الزبور الكتاب .

وقال ابن عباس ، والشعبي ، والحسن ، وقتادة ، وغير واحد : الزبور الذي أنزل على داود ، والذكر التوراة .

وعن ابن عباس : الزبور القرآن .

وقال سعيد بن جبير : الذكر الذي في السماء .

---

(١) في المخطوطة : « حدثنا وكيع ، وابن جعفر ، وأبو عفان المعنى ، قالوا » . والمثبت من المسند ، ط الحلبي ، ودار المعارف ، الحديث ٢٠٩٦ : ٣/ ٣٥٠ ، ٣٥١ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ١/ ٢٣٥ .

(٣) تقدم تخريج الحديث في سورة المائدة ، عند الآية ١١٧ ، ١١٨ : ٣/ ٢٢٨ ، وشرحنا غريبه هنالك .

(٤) البخاري ، تفسير سورة الأنبياء : ٦/ ١٢٢ .

(٥) تفسير الطبري : ١٧/ ٨٠ .

(٦) سورة الأعراف ، آية : ١٢٨ .

(٧) سورة غافر ، آية : ٥١ .

(٨) سورة النور ، آية : ٥٥ .

وقال مجاهد : الزبورُ : الكتبُ بعد الذكر ، والذكر : أمّ الكتاب عند الله .

واختار ذلك ابن جرير رحمه الله (١) ، وكذا قال زيدُ بن أسلم : هو الكتاب الأول . وقال الثورى : هو اللوح المحفوظ . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الزبور : الكتب التى نُزّلت على الأنبياء ، والذكر : أم الكتاب الذى يكتب فيه الأشياء قبل ذلك .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : أخبر الله سبحانه فى التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السموات والأرض ، أن يُورثَ أمةَ محمد صلى الله عليه وسلم ، الأرض ويدخلهم الجنة ، وهم الصالحون .

وقال مجاهد ، عن ابن عباس : (أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) ، قال : أرض الجنة . وكذا قال أبو العالية ، ومجاهد ، وسعيد بن جُبَير ، والشعبى ، وقتادة ، والسدى ، و أبو صالح ، و الربيع بن أنس ، والثورى .

وقال أبو الدرداء : نحن الصالحون . وقال السدّى : هم المؤمنون .

وقوله : (إن فى هذا لبلاغا لقوم عابدين) ، أى : إن فى هذا القرآن الذى أنزلناه على عبدنا محمد صلى الله عليه وسلم لَبلاغاً : لَمَنْفعةً وكفاية لقوم عابدين ، وهم الذين عبدوا الله بما شرعه وأحبه ورضيه ، وآثروا طاعة الله على طاعة الشيطان وشهوات أنفسهم .

وقوله : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) : يخبر تعالى أن الله جَعَلَ محمداً صلى الله عليه وسلم رحمةً للعالمين ، أى : أرسله رحمة لهم كلّهم ، فمن قَبِل هذه الرحمةَ وشكَرَ هذه النعمةَ ، سَعِد فى الدنيا والآخرة ، ومن رَدّها وجحدها خسر فى الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى : (ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار . جهنم يصلونها وبئس القرار (٢)) ، وقال الله تعالى فى صفة القرآن : (قل : هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى ، أولئك ينادون من مكان بعيد (٣)) .

وقال مسلم فى صحيحه : حدثنا ابن أبى عمر ، حدثنا مروان الفَزَارىّ ، عن يزيد بن كيسان ، عن ابن أبى حازم ، عن أبى هريرة قال : قيل : يا رسول الله، ادعُ على المشركين . قال : إنى لم أبعَثْ لعَّاناً ، وإنما بُعثْتُ رحمةً . انفرد بإخراجه مسلم (٤) .

وفى الحديث الآخر : « إنما أنا رحمة مهداة » : رواه عبد الله بن أبى عرابة (٥) وغيره ، عن وكيع ، عن الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة مرفوعا . قال إبراهيم الحربى : وقد رواه غيره عن وكيع ، فلم يذكر أبا هريرة (٦) . وكذا قال البخارى ، وقد سئل عن هذا الحديث ، فقال : كان عند حفص بن غياث مرسلا .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٧/٨١ .

(٢) سورة إبراهيم ، آية : ٢٨ ، ٢٩ .

(٣) سورة فصلت ، آية : ٤٤ .

(٤) مسلم ، كتاب البر ، باب النهى عن لعن الدواب وغيرها : ٨/٢٤ .

(٥) كذا ، ولم نجد عبدالله هذا ؟ .

(٦) وكذلك أخرجه الدارمى فى باب كيف كان أول شأن النبى صلى الله عليه وسلم ، الحديث ١٥ من طريق الأعمش عن أبى صالح قال ، كان النبى صلى الله عليه وسلم يناديهم : « يا أيها الناس ، إنما أنا رحمة مهداة » . ينظر ١/١٧ .

قال الحافظ ابن عساكر : وقد رواه مالك بن سُعَيْر بن الخِمْس(١) ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة مرفوعا . ثم ساقه من طريق أبي بكر بن المقرئ وأبي أحمد الحاكم ، كلاهما عن بكر بن محمد بن إبراهيم الصوفي : حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري ، عن أبي أسامة ، عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن قيس بن أبي حازم ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما أنا رحمة مهداة » .

ثم أورده من طريق الصلت بن مسعود ، عن سفيان بن عيينة ، عن مسعر ، عن سعيد بن خالد ، عن رجل ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله بعثني رحمة مهداة ، بُعِثْتُ برفع قوم وخفض آخرين » .

قال أبو القاسم الطبراني : حدثنا أحمد بن محمد بن نافع الطحان ، حدثنا أحمد بن صالح قال : وجدت كتاباً بالمدينة عن عبد العزيز الدراوردي وإبراهيم بن محمد بن عبد العزيز بن عمر بن عبد الرحمن بن عوف (٢) ، عن محمد ابن صالح ، التمار ، عن ابن [شهاب] ، عن محمد بن جُبَيْر بن مطعم، عن أبيه قال : قال أبو جهل حين قدم [مكة](٣) منصرَفه عن حَمْزَة(٤) : يا معشر قريش ، إن محمداً نزل يثرب وأرسل طلائعه، وإنما يريد أن يصيبه منكم شيئا ، فاحذروا أن تمروا طريقه أو [تقاربوه (٥)] ، فانه كالأسد الضاري ، إنه حَنِق عليكم لأنكم نفيتموه نفي القِرْدان(٦) عن المناسم ، والله إن له لَسَحَرَة ، ما رأيته قط ولا أحداً من أصحابه إلا رأيت معهم الشيطان ، وإنكم قد عرفتم عداوة ابني قَيْلَة ــ يعني الأوس والخزرج ــ لهو عدو استعان بعدو ، فقال له مطعم بن عدي : يا أبا الحكم والله ما رأيت أحداً أصدقَ لسانا ، ولا أصدق موعدا ، من أخيكم الذي طردتم ، وإذ فعلتم الذي فعلتم فكونوا أكفَّ الناس عنه . قال [أبو سفيان (٧)] بن الحارث : كونوا أشدَّ ما كنتم عليه ، إن ابنَيْ قيلةَ إن ظفروا بكم لم يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة ، وإن أطعتموني ألجأتموهم خير كنانة (٨) ، أو تخرجوا محمداً من بين ظهرانيهم ، فيكون وحيدا مطرودا ، وأما [ابنا قيلة فوالله ما هما] وأهل [دهلك (٩)] في المذلة إلا سواء وسأكفيكم حدهم ، وقال :

سَأَمْنَحُ جَانِباً مِنِّي غَلِيظاً ... عَلَى مَا كَانَ مِنْ قُرْبٍ وَبُعْدِ
رِجَالُ الخَزْرَجِيَّةِ أَهْلُ ذُلٍّ ... إِذَا مَا كَانَ هَزْلٌ بَعْدَ جِدِّ

(١) مالك بن سعير بن الخمس مترجم في الجرح لابن أبي حاتم : ٢٠٩/١/٤ ، والتهذيب : ١٧/١٠ ، وسعير : بصيغة التصغير ، والخمس بكسر الخاء ، وسكون الميم .

(٢) في المخطوطة : إبراهيم بن محمد بن عمر بن عبد الرحمن بن عبد العزيز بن عمرو بن عوف ، والمثبت عن ترجمته في الجرح ١٢٨/١/١ .

(٣) في المخطوطة : « حين قدم سلمة » .

(٤) يعني سرية حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه . انظر خبرها في البداية والنهاية لابن كثير : ٢٣٤/٣ ، والسيرة النبوية له : ٣٣٨/٢ .

(٥) في المخطوطة : « أو تحاربوه » . والمثبت من الطبعات السابقة .

(٦) القردان : واحدة قراد ــ بضم القاف ــ وهو : دويبة تعض الإبل . والمناسم : جمع منسم ــ بكسر السين ــ وهو طرف خف البعير ، وقيل : منسما البعير ظفراه اللذان في يديه .

(٧) ما بين القوسين في الطبعات السابقة ، ومكانه بياض في المخطوطة .

(٨) كذا في المخطوطة ، ولا ندري ما المراد به .

(٩) في المطبوعة : « وأهل وهل لك » . والمثبت من الطبعات السابقة ، ودهلك ــ كما في ياقوت ــ بفتح أوله ، وسكون ثانية ولام مفتوحة ، وآخره كاف ــ : اسم أعجمي معرب ، وهي جزيرة في بحر اليمن ، وهي مرسى بين بلاد اليمن والحبشة .

فبلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال : والذى نفسى بيده ، لأقتلنهم ولأصلبَنَّهم ولأهدينهم وهم كارهون ، إنى رحمة بعثنى الله ، ولا يَتَوفَّانى حتى يظهر الله دينه ، لى خمسة أسماء : أنا محمد ، وأحمد ، وأنا الماحى الذى يمحى (١) الله بى الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا العاقب » .

[وقال] أحمد بن صالح : أرجو أن يكون الحديث صحيحاً .

وقال الإمامُ أحمد : حدثنا معاوية بن عمرو ، حدثنا زائدة ، حدثنى عَمْرو بن قَيس ، عن عمرو بن أبى قُرَّةَ الكِنْدِىّ قال : كان حذيفةُ بالمدائن ، فكان يذكر أشياء قالها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء حذيفةُ إلى سَلْمانَ فقال سلمان : يا حذيفةَ ، إنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلم [كان يغضب فيقول ، ويرضى فيقول — لقد علمت أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢)] خطَب فقال : أيما رجل من أمتى (٢) سَبَبْتُه [سَبَّةً](٢) فى غَضَبى أو لعنته لعنةً ، فإنما أنا رجل من ولد آدم ، أغضب كما يغضبون ، وإنما بعثنى رحمةً للعالمين ، فاجعلها صلاة عليه يوم القيامة (٣) » .

ورواه أبو داود ، عن أحمد بن يونس ، عن زائدة (٤) .

فإن قيل : فأىّ رحمة حصلت لمن كَفَر به ؟ فالجواب ما رواه أبو جعفر بن جرير : حدثنا إسحاق بن شاهين ، حدثنا إسحاق الأزرق ، عن المسعودى ، عن رجل يقال له:سعيد ، عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس فى قوله : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) ، قال : من آمن بالله واليوم الآخر ، كُتِبَ له الرحمة فى الدنيا والآخرة ، ومن لم يؤمن بالله ورسوله عُوفى مما أصاب الأمم من الخسف والقذف (٥) .

وهكذا رواه ابن أبى حاتم ، من حديث المسعودى ، عن أبى سعد — وهو سعيد بن المرزُبان البقّال — عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس ، فذكره بنحوه ، والله أعلم .

وقد رواه أبو القاسمُ الطبرانى عن عبدان بن أحمد ، عن عيسى بن يونس الرَّمْلى ، عن أيوب بن سُوَيد ، عن المسعودى ، عن حبيب بن أبى ثابت ، عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) ، قال : من تبعه كان له رحمة فى الدنيا والآخرة ، ومن لم يتبعه عُوفِى مما كان يبتلى به سائر الأمم من الخسف والمسخ والقذف .

قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

يقول تعالى آمراً رسوله — صلوات الله وسلامه عليه — أن يقول للمشركين : (إنما يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد ، فهل أنتم مسلمون) ، أى : متبعون على ذلك ، مستسلمون منقادون له . (فإن تولوا) ، أى : تركوا ما دعوتهم إليه،

(١) يقال : محا الشىء يمحوه ويمحاه محوا ومحيا : أذهب أثره .
(٢) ما بين القوسين سقط من تفسير ابن كثير ، أثبتناه عن مسند الإمام أحمد ، وهو سقط نظر .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٥/٤٣٧ .
(٤) سنن أبى داود ، كتاب السنة ، باب « فى النهى عن سب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، الحديث ٤٦٥٩ : ٤/٢١٥ .
(٥) تفسير الطبرى : ١٧ / ٨٣ .

(فقل : آذنتكم على سواء) ، أي : أعلمتكم أنى حرْبٌ لكم ، كما أنكم حرْبٌ لى ، بزىء منكم كما أنكم برآء منى ، كقوله : (وإن كذبوك فقل : لى عملى ولكم عملكم ، أنتم بريئون مما أعمل ، وأنا برىء مما تعملون [(١)]) . وقال : (وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء [(٢)]) ، أى : ليكن علمك وعلمهم بنبذ العهود على السواء . وهكذا هاهنا ، (فإن تولوا فقل : آذنتكم على سواء) ، أى : أعلمتكم ببراءتى منكم ، وبراءتكم منى : لعلمى بذلك .

وقوله : (وإن أدرى أقريب أم بعيد ما توعدون) ، أى : هو واقع لا محالة ، ولكن لا علم لى بقربه ولا ببعده .

(إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون) ، أى : إن الله يعلم الغيب جميعه ، ويعلم ما يظهره العباد وما يسرون ، يعلم الظواهر والضمائر ، ويعلم السر وأخفى ، ويعلم ما العباد عاملون فى أجهارهم وأسرارهم ، وسيجزيهم على ذلك ، على القليل والجليل .

وقوله : (وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين) ، أى : وما أدرى لعل هذا فتنة لكم ومتاع إلى حين .

قال ابنُ جرير : لعلَّ تأخير ذلك عنكم فتنة لكم ، ومتاع إلى أجل مسمى [(٣)] . وحكاه عون ، عن ابن عباس ، والله أعلم .

(قال : ربِّ ، احكم بالحق) ، أى : افصل بيننا وبين قومنا المكذبين بالحق .

قال قتادة : كان الأنبياء عليهم السلام يقولون : (ربنا ، افتح بيننا وبين قومنا بالحق ، وأنت خير الفاتحين) ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول ذلك .

وعن مالك ، عن زيد بن أسلم : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا شهد قتالا قال : (رب احكم بالحق) .

وقوله : (وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون) ، أى : على ما يقولون ويفترون من الكذب ، ويتنوعون فى مقامات التكذيب والإفك ، والله المستعان عليكم فى ذلك .

[آخر تفسير « سورة الأنبياء » عليهم السلام ، ولله الحمد والمنة]

---

(١) سورة يونس ، آية : ٤١ .
(٢) سورة الأنفال ، آية : ٥٨ .
(٣) تفسير الطبرى ، ١٧/٨٤ .

تفسير سورة الحج

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾

يقول تعالى آمراً عباده بتقواه ، ومخبراً لهم بما يستقبلون من أهوال يوم القيامة وزلازلها وأحوالها . وقد اختلف المفسّرون في زلزلة الساعة : هل هي بعد قيام الناس من قبورهم يوم نشورهم إلى عرَصات القيامة ؟ أو ذلك عبارة عن زلزلة الأرض قبل قيام الناس من أجداثهم ؟ كما قال تعالى : (إذا زلزلت الأرض زلزالها . وأخرجت الأرض أثقالها (١)) ، وقال تعالى : (وحُملت الأرضُ والجبال فدُكَّتا دكة واحدة . فيومئذ وقعت الواقعة (٢)) . وقال تعالى : (إذا رجت الأرض رجا . وبست الجبال بساً فكانت هباء منبثا (٣)) .

فقال قائلون : هذه الزلزلة كائنة في آخر عمر الدنيا ، وأول أحوال الساعة .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن بشار ، حدثنا يحيى ، حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن علقمة في قوله : (إن زلزلة الساعة شيءٌ عظيم) ، قال : قبل الساعة (٤) .

ورواه ابن أبي حاتم من حديث الثوري ، عن منصور والأعمش ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، فذكره ، قال : ورُوي عن الشعبي ، وإبراهيم ، وعُبَيد بن عُمَير ، نحو ذلك .

وقال أبو كدينة ، عن عطاء ، عن عامر الشعبي : (يا أيها الناس ، اتقوا ربكم) ، الآية ، قال : هذا في الدنيا قبل يوم القيامة .

وقد أورد الإمام أبو جعفر بن جرير مُستنَدَ مَن قال ذلك في حديث الصُّور ، من رواية إسماعيل بن رافع قاضي أهل المدينة ، عن يزيد بن أبي زياد ، عن رجل من الأنصار ، عن محمد بن كعب القُرَظي ، عن رجل ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصّور ، فأعطاه إسرافيل ، فهو واضعه على فيه ، شاخصٌ ببصره إلى العرش ، ينتظر متى يؤمر » . قال أبو هريرة : يا رسول الله ، وما الصّور ؟

---

(١) سورة الزلزلة ، آية ١ ، ٢ .
(٢) سورة الحاقة ، آية ١٤ ، ١٥ .
(٣) سورة الواقعة ، آية ٤ – ٦ .
(٤) تفسير الطبري ١٧ / ٨٥ .

قال : قَرْن . قال : فكيف هو ؟ قال : قرن عظيم ينفخ [فيه] ثلاث نفخات ، الأولى نفخة الفزع ، والثانية نفخة الصَّعْق ، والثالثة نفخة القيام لرب العالمين ، يأمر الله إسرافيلَ بالنفخة الأولى فيقول : انفخ نفخة الفزع : فيفزعُ أهل السموات وأهل الأرض ، إلا من شاء الله ، ويأمره فيمدها ويطوّلها ولا يَفْتُر ، وهي التي يقول الله تعالى : (وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة مالها من فواق) فَيُسَيِّر الله الجبال ، فتكون سرابا وتُرَجّ الأرض بأهلها رجا ، وهي التي يقول الله تعالى : (يوم ترجف الراجفة . تتبعها الرادفة . قلوب يومئذ واجفة) ، فتكون الأرض كالسفينة المُوبَقَة (١) في البحر ، تضربها الأمواج تكفؤها بأهلها (٢) ، وكالقنديل المعلق بالعرش ترجحه الأرواح . فيمتد الناس على ظهرها ، فتذهل المراضع ، وتضع الحوامل ، ويشيب الولدان ، وتطير الشياطين هاربة ، حتى تأتي الأقطار ، فتلقاها الملائكة فتضرب وجوهها ، فترجع ، ويولي الناس مدبرين ، ينادي بعضهم بعضا ، وهو الذي يقول الله تعالى : (يوم التناد . يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم ،ومن يُضْلِل الله فماله من هاد)(٣)، فبينما هم على ذلك إذا انصدعت الأرض من قطر إلى قطر ، فرَأوا أمرا عظيما ، فأخذهم لذلك من الكرب ما الله أعلم به ، ثم نظروا إلى السماء فاذا هي كالمهل (٤) . ثم خسف شمسها وخُسِفَ قمرها ، وانتثرت نجومها ، ثم كُشِطت عنهم ــ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والأموات لايعلمون بشيء من ذلك . قال أبو هريرة : فمن استثنى الله حين يقول : (ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله)(٥) ؟ قال : أولئك الشهداء ، وإنما يصل الفَزَعُ إلى الأحياء ، أولئك أحياء عند ربهم يرزقون،وقاهم الله شرّ ذلك اليوم وآمنهم ، وهو عذاب الله يبعثه على شرار خلقه ، وهو الذي يقول الله : (يا أيها الناس ، اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم . يوم ترونها تَذهَل كلّ مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سُكارى وما هم بسُكارى ، ولكن عذاب الله شديد) .

وهذا الحديث قد رواه الطبراني، وابن جرير (٦) ، وابن أبي حاتم ، وغير واحد ، مطولا جداً . والغرض منه أنه دل على أن هذه الزلزلة كائنة قبل يوم الساعة ، وأضيفت إلى الساعة لقربها منها ، كما يقال : أشراط الساعة ، ونحو ذلك ، والله أعلم .

وقال آخرون : بل ذلك هول وفزع وزلزال وبَلبال ، كائن يوم القيامة في العَرَصات ، بعد القيام من القبور ، واختار ذلك ابن جرير ، واحتجوا بأحاديث :

الأول ، قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى ، عن هشام ، حدثنا قتادة ، عن الحسن ، عن عمران حُصَيْن : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو في بعض أسفاره ، وقد تفاوت بين(٧) أصحابه السير ، رَفَع بهاتين الآيتين صوته : (يا أيها الناس اتقوا ربكم ، إن زلزلة الساعة شيء عظيم . يوم تَرَوْنها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حَمل حملها ،

(١) أوبقه حبسه ، ومنه قوله تعالى : (أو يوبقهن بما كسبوا) ، أي : يحبسهن ، يعني الفلك وركبانها ، فيهلكون غرقاً .
(٢) كفأ الشيء والإناء يكفؤه : قلبه .
(٣) سورة غافر آية : ٣٢ ، ٣٣ .
(٤) المهل : دردي الزيت . والكشط : الكشف والرفع والإزالة .
(٥) سورة النمل : آية ٨٧ .
(٦) تفسير الطبري : ٨٥/١٧ ، ٨٦ . وتنظر رواية الطبراني لحديث الصور ، وقد تقدمت في سورة الأنعام : ٢٧٦/٣ - ٢٨٢ .
(٧) أي : وقع التفاوت والبعد .

وترى الناس سكارى ، وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد) ، فلما سمع أصحابه بذلك حثّوا (١) المَطِى ، وعرفوا أنه عند قول يقوله (٢) ، فلما تأشّبوا (٣) حوله قال: أتدرون أىّ يوم ذاك ؟ ذاك يوم يُنادى آدم عليه السلام ، فيناديه ربّه عز وجل ، فيقول : يا آدم ، ابعث بعثك إلى النار ، فيقول : يا رب ، وما بَعث النار ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون فى النار ، وواحد فى الجنة . قال : فأبلس أصحابه (٤) حتى ما أوضحوا بضاحكة (٥) فلما رأى ذلك قال : أبشروا واعملوا ، فو الذى نفسُ محمد بيده ، إنكم لمع خليقتين (٦) ما كانتا مع شىْ قط إلا كثرتاه : يأجوج ومأجوج ، ومن هلك من بنى آدم وبنى إبليس قال : فسُرّى (٧) عنهم ، ثم قال : اعملوا وأبشروا ، فو الذى نفسُ محمد بيده ، ما أنتم فى الناس إلا كالشامة (٨) فى جنب البعير ، أو الرقمة (٩) فى ذراع الدابة » .

وهكذا رواه الترمذى والنسائى فى كتاب التفسير من سننيهما ، عن محمد بن بشار ، عن يحيى — وهو القطان — عن هشام — وهو الدستوائى — عن قتادة ، به بنحوه . وقال الترمذى : حسن صحيح (١٠) .

طريق أخرى لهذا الحديث ، قال الترمذى : حدثنا ابن أبى عمر ، حدثنا سفيان بن عُيَيْنة ، حدثنا ابن جُدْعان ، عن الحسن ، عن عمران بن حُصَيْن أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لما نزلت : (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىْ عظيم) إلى قوله : (ولكن عذاب الله شديد) ، قال : أنزلت عليه هذه ، وهو فى سفر ، فقال : أتدرون أىُّ يوم ذلك ؟ فقالوا : الله ورسوله أعلم . قال : ذلك يوم يقول الله لآدم : ابعث بعثَ النار . قال : يارب ، وما بعثُ النار ؟ قال : تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار ، وواحد إلى الجنة . فأنشأ المسلمون يبكون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قاربوا (١١) وسدّدوا ، فإنها لم تكن نبوة قط إلا كان بين يديها جاهليّة ، قال : فيؤخَذُ العددُ من الجاهلية ، فإن تَمَّتْ وإلا كُمِّلَتْ من المنافقين ، وما مثلكم والأمم إلا كمثل الرَّقْمة فى ذراع الدابة ، أو كالشامة فى جَنب البعير — ثم قال : إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة فكبروا ، ثم قال : إنى لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة . فكبروا ، ثم قال : إنى لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة . فكبروا ، قال : ولا أدرى أقال الثلثين أم لا (١٢) .

---

(١) أى : حضوها ودفعوها ، والمطى — بضم الميم — جمع مطية ، وهى الدابة تمطو فى سيرها ، أى : تسرع .

(٢) أى : يريد أن يقول قولا .

(٣) أى اجتمعوا إليه وأطافوا به ، والأشابة — بضم الهمزة — : أخلاط الناس ، تجتمع من كل أوب ومكان .

(٤) الإبلاس : الحيرة . وأبلسوا — بالبناء للمجهول — : أسكتوا .

(٥) أى : ما طلعوا بضاحكة ولا أبدوها . والضاحكة : إحدى ضواحك الأسنان التى تبدو عند الضحك .

(٦) أى : مخلوقين .

(٧) أى : كشف وأزيل عنهم .

(٨) أى : الخال فى الجسد .

(٩) الرقمة — بفتح الراء ، وسكون القاف — : الدائرة الناتئة فى ذراع الدابة من داخل ، وهما رقمتان فى ذراعيها .

(١٠) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة الحج ، الحديث ٣٢١٨ : ٩/١٢ ، ١٣ .

(١١) أى : اقتصدوا فى الأمور كلها ، واتركوا الغلو فيها والتقصير ، يقال : قارب فلان فى أموره إذا اقتصد ، وسددوا : أى : اطلبوا بأعمالكم السداد والاستقامة ، وهو القصد فى الأمر والعدل فيه .

(١٢) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة الحج ، الحديث ٣١١٧ : ٩/٩ — ١٢ .

وكذا رواه الإمام أحمد عن سفيان بن عيينة (١) ، به ثم قال الترمذي أيضا : هذا حديث حسن صحيح .

وقد روى عن [سعيد بن (٢) أبي] عروبة عن الحسن ، عن عمران بن الحصين . وقد رواه ابن أبي حاتم من حديث سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة ، عن الحسن والعلاء بن زياد العدوي ، عن عمران بن الحصين ، فذكره .

وهكذا روى ابن جرير عن بندار ، عن غُنْدَر ، عن عوف ، عن الحسن قال : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قفل من غزوة العسرة ومعه أصحابه بعد ما شارف المدينة قرأ : (يا أيها الناس ، اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيءٌ عظيم) ... وذكر الحديث (٣) ، فذكر نحو سياق ابن جُدعان ، فالله أعلم .

الحديث الثاني : قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا ابن الطباع (٤) ، حدثنا أبو سفيان المعمري (٥) ، عن معمر ، عن قتادة ، عن أنس قال نزلت : (إن زلزلة الساعة شيءٌ عظيم) ... وذكر يعني نحو سياق الحسن عن عمران ، غير أنه قال : « ومن هلك من كفرة الجن والإنس » .

رواه ابن جرير بطوله ، من حديث معمر (٦) .

الحديث الثالث : قال ابنُ أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا عباد ـ يعني ابن العوام ـ حدثنا هلال بن خَبَّاب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ... فذكر نحوه ، وقال فيه : « إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ، ثم قال : إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة ، ثم قال : إني لأرجو أن تكونوا شَطر أهل الجنة . ففرحوا ، وزاد أيضاً : وإنما أنتم جزء من ألف جزء » .

الحديث الرابع : قال البخاري عند هذه الآية : حدثنا عمر بن حفص ، حدثنا أبي ، حدثنا الأعمش ، حدثنا أبو صالح ، عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى يوم القيامة : يا آدم . فيقول : لبَّيك ربنا وسعدَيك . فينادَى بصوت : إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار . قال : يا رب ، وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف ـ أراه قال ـ تسعمائة وتسعة وتسعين . فحينئذ تضع الحامل حَملها ، ويشيب الوليد ، (وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد) . فشَقَّ ذلك على الناس حتى تغيَّرت وجوهُهم قال النبي صلى الله عليه وسلم : مِنْ يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعةٌ وتسعين ، ومنكم واحد ، ثم أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض ، أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود ، وإني لأرجو أن تكونوا رُبُع أهل الجنة . فكبرنا ثم قال : ثلث أهل الجنة . فكبرنا ثم قال : شطر أهل الجنة . فكبرنا (٧)

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٤/٤٣٢ .

(٢) زدنا ما بين القوسين على ما في المخطوطة . وسعيد بن أبي عروبة يروى عن الحسن . انظر ترجمته في التهذيب : ٤/٦٣ .

(٣) تفسير الطبري : ١٧/٨٦ .

(٤) هو أبو جعفر محمد بن عيسى بن الطباع ، مترجم في التهذيب : ٩/٣٩٢ ، والجرح لابن أبي حاتم : ٤/١/٣٨ .

(٥) هو محمد بن حميد اليشكري ، مترجم في التهذيب : ٩/١٣١ ، ١٣٢ وقد كان في المخطوطة : « حدثنا ابن سفيان » ، وهو خطأ .

(٦) تفسير الطبري : ١٧/٨٧ .

(٧) البخاري : تفسير سورة الحج : ٦/١٢٢ ، ١٢٣ .

وقد رواه البخارى أيضاً فى غير هذا الموضع ، ومسلم ، والنسائى فى تفسيره ، من طرق ، عن الأعمش ، به [(١)] .

الحديث الخامس : قال الإمام أحمد : حدثنا عمّار بن محمد – ابن أخت سفيان الثورى – وعبيدة المعنى ، كلاهما عن إبراهيم بن مسلم ، عن أبى الأحوص ، عن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يبعث يوم القيامة منادياً [ينادى [(٢)]] : يا آدم ، إن الله يأمرك أن تبعث بعثاً من ذريتك إلى النار ، فيقول آدم : يارب من هم ؟ فيقال له : من كل مائة تسعة وتسعين فقال رجل من القوم : من هذا الناجى منا ، بعد هذا يا رسول الله ؟ قال : هل تدرون ما أنتم فى الناس إلا كالشّامة فى صدر البعير »[(٣)] .

انفرد بهذا السند وهذا السياق الإمامُ أحمد .

الحديث السادس : قال الإمام [أحمد] : حدثنا يحيى ، عن حاتم بن أبى صَغِيرةَ ، حدثنا ابن أبى مليكة : أن القاسم ابن محمد أخبره ، عن عائشة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إنكم تحشرون يوم القيامة حُفاةً عُراة غُرْلاً [(٤)] . قالت عائشة : يا رسول الله ، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ؟: قال : يا عائشة ، إن الأمر أشد من أن يهمهم ذاك [(٥)] .

أخرجاه فى الصحيحين [(٦)] .

الحديث السابع : قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن إسحاق ، حدثنا ابن لَهيعة ، عن خالد بن أبى عمْران ، عن القاسم بن محمد ، عن عائشة قالت : قلت : يا رسول الله ، هل يذكر الحبيبُ حبيبَه يوم القيامة ؟ قال : يا عائشة ، أما عند ثلاث فلا ، أما عند الميزان حتى يثقل أو يخف ، فلا ، وأما عند تطاير الكتب فإما يعطى بيمينه أو يعطى بشماله ، فلا ، وحين يخرج عُنُق [(٧)] من النار فينطوى عليهم ، ويتغيظ عليهم ، ويقول ذلك العنق : وُكّلت بثلاثة ، وُكّلت بثلاثة ، وُكّلت بثلاثة : وكلت بمن ادعى مع الله إلهاً آخر ، ووكلت بمن لا يؤمن بيوم الحساب ، ووكلت بكل جبار عَنيد – قال : فينطوى عليهم ، ويرميهم [(٨)] فى غَمَرات ، ولجهنم جسر أدَقّ من الشعر وأحدّ من السيف ، عليه كلاليب [(٩)] وحَسَك يأخُذْنَ من شاء الله ، والناس عليه كالطَّرْف [(١٠)] وكالبرق وكالريح ، وكأجاويد

---

(١) البخارى ، كتاب الرقاق ، باب قوله عز وجل : (إن زلزلة الساعة شىء عظيم) : ٨/ ١٣٧ ، وكتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : (ولا تنفع الشفاعة عنده . . .) : ٩ / ١٧٣ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب قوله : يقول الله لآدم : « أخرج بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين » : ١/ ١٣٩ ، ١٤٠ .

(٢) ما بين القوسين عن المسند .

(٣) مسند الإمام أحمد : ١/ ٣٨٨ .

(٤) تقدم تفسير هذه الكلمة فى : ٣/ ٢٢٨ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٦/ ٥٣ .

(٦) البخارى ، كتاب الرقاق ، باب « كيف الحشر » : ٨/ ١٣٦ . ومسلم ، كتاب الجنة ، باب « فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة » : ٨/ ١٥٦ .

(٧) تقدم تفسير هذه الكلمة فى : ٣/ ٢٧٩ ، ٤/ ٤٢٤ .

(٨) لفظ المسند : « ويرمى بهم » .

(٩) الكلاليب : جمع كلاب – بضم الكاف وتشديد اللام مفتوحة – وهى حديدة معوجة الرأس . والحسك : بفتحتين – واحدها حسكة ، وهى : شوكة صلبة .

(١٠) الطرف – بفتح فسكون – : طرف العين .

الخيل والركاب ، والملائكة يقولون : رب ، سلم ، سلم . فناج مُسلَّم ، ومخدوش مسلَّم ، ومكوّر فى النار على وجهه (١) .

والأحاديثُ فى أهوال يوم القيامة والآثارُ كثيرةٌ جداً ، لها موضع آخر . ولهذا قال تعالى : (إن زلزلة الساعة شىء عظيم) ، أى : أمر كبير ، وخطب جليل ، وطارق مفظع ، وحادث هائل ، وكائن عجيب .

والزلزال : هو ما يحصل للنفوس من الفزع ، والرعب كما قال تعالى : (هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا (٢)) .

ثم قال تعالى : (يوم ترونها) : هذا من باب ضمير الشأن ، ولهذا قال مفسراً له : (تذهل كلُّ مرضعة عما أرضعت) أى : تشتغل لهول ما ترى عن أحب الناس إليها ، والتى هى أشفق الناس عليه ، تدهش عنه فى حال إرضاعها له ، ولهذا قال : (كلّ مرضعة) ، ولم يقل : موضع (٣) : وقال : (عما أرضعت) ، أى : عن رضيعها قبل فطامه .

وقوله : (وتضع كل ذات حمل حملها) ، أى : قبل تمامه لشدة الهول ، (وترى الناس سكارى) ــ وقرىء : (سكْرَى (٤)) ، أى : من شدة الأمر الذى صاروا فيه قد دَهِشت عقولهم ، وغابت أذهانهم ، فمن رآهم حسبه أنهم سُكارى ، (وماهم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد) .

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾

يقول تعالى ذاماً لمن كذّب بالبعث ، وأنكر قدرة الله على إحياء الموتى ، مُعرضاً عما أنزل الله على أنبيائه ، متبعاً فى قوله وإنكاره وكفره كلّ شيطان مَريد ، من الإنس والجن ، وهذا حال أهل الضلال والبدع ، المعرضين عن الحق ، المتبعين للباطل ، يتركون ما أنزله الله على رسوله من الحق المبين ، ويتبعونّ أقوالّ رؤوس الضلالة ، الدعاة إلى البدع بالأهواء والآراء . ولهذا قال فى شأنهم وأشباههم : (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم) ، أى : علم صحيح ، (ويتبع كل شيطان مريد . كتب عليه) ــ قال مجاهد : « يعنى الشيطان (٥) » ، يعنى كتب عليه كتابة قدَرية (أنه من تولاه) ، أى : اتبعه وقلده ، (فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير) ، أى : يضله فى الدنيا ، ويقوده فى الآخرة إلى عذاب السعير ، وهو الحار المؤلم المزعج المقلق .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٦/١١٠ .

(٢) سورة الأحزاب ، آية : ١١ .

(٣) فى اللسان (رضع) وقال أبو زيد : المرضعة : التى ترضع وثديها فى ولدها ــ أى : فى فمه ــ والمرضع : التى معها الصبى الرضيع . . وهذا معنى قول الأخفش : : أدخل الهاء فى المرضعة ، لأنه أراد ــ والله أعلم ــ الفعل ، ولو أراد الصفة لقال : مرضع . . وقد نقل الطبرى فى تفسيره ١٧/٨٨ هذا القول عن بعض نحويى الكوفة.

(٤) تفسير الطبرى : ١٧/٨٨ ، والبحر المحيط : ٦/٣٥٠ .

(٥) تفسير الطبرى : ١٧/٨٩ .

وقد قال السدّى ، عن أبى مالك : نزلت هذه الآية فى النضر بن الحارث . وكذلك قال ابن جُريج .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا عمرو بن سلم [1] البصرى ، حدثنا عمرو بن المحرم أبو قتادة ، حدثنا المعمر ، حدثنا أبو كعب المكى قال : قال خبيث من خبُثاء قريش : أخبرنا عن ربكم ، من ذهب هو ، أو من فضة هو ، أو من نحاس هو ؟ فقعقعت السماء قعقعة — والقعقعة فى كلام العرب : الرعد — فإذا قِحْفُ [2] رأسه ساقط بين يديه [3] .

وقال ليث بن أبى سليم ، عن مجاهد : جاء يهودى فقال : يا محمد ، أخبرنى عن ربك : من أى شىء هو ؟ من دُرّ أم من ياقوت ؟ قال : فجاءت صاعقة فأخذته .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾

لما ذكر تعالى المخالفَ للبعث ، المنكر للمعاد ، ذكر تعالى الدليل على قدرته تعالى على المعاد ، بما يشاهد من بدئه للخلق ، فقال : (يا أيها الناس ، إن كنتم فى ريب) ، أى : فى شك (من البعث) ، وهو المعاد وقيام الأرواح والأجساد ، يوم القيامة — (فإنا خلقناكم من تراب) أى : أصل برْئه لكم من تراب ، وهو الذى خُلِق منه آدم عليه السلام : (ثم من نطفة) ، أى : ثم جعل نسله من سلالة من ماء مَهين ، (ثم من علقة ، ثم من مضغة) : وذلك أنه إذا استقرت النطفة فى رَحِم المرأة ، مكثَت أربعين يوما كذلك ، يضاف إليه ما يجتمعُ إليها ، ثم تنقلب عَلَقة حمراء بإذن الله ، فتمكث كذلك أربعين يوما ، ثم تستحيل فتصير مضغة : قطعة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط ، ثم يشرع فى التشكيل والتخطيط ، فيصور منها رأس ويدان ، وصدر وبطن ، وفخذان ورجلان ، وسائر الأعضاء : فتارة تُسقِطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط ، وتارة تلقيها وقد صارت ذات شكل وتخطيط ، ولهذا قال تعالى : (ثم من مضغة مخلَّقة وغير مخلقة) ، أى : كما تشاهدونها ، (لنبين لكم ، ونقرّ فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى) أى : وتارة تستقر فى الرحم لا تلقيها المرأة ولا تسقطها ، كما قال مجاهد فى قوله تعالى : (مخلَّقة وغير مخلقة) ، قال : « هو السِّقط مخلوق وغير مخلوق [4] » . فإذا مضى عليها أربعون يوما ، وهى مُضْغَة ، أرسل الله تعالى إليها ملكا فنفخ فيها الروح ، وسواها كما يشاء الله عز وجل ، من حسَن وقبيح ، وذكر وأنثى ، وكتب رزقها وأجلها ، وشقىّ أو سَعيد ،

---

(١) فى المخطوطة « عمرو بن مسلم » . والمثبت من ترجمته فى الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٣/١/٢٣٧ .

(٢) تقدم تفسير هذه الكلمة فى : ٤/٣٦٤ .

(٣) أخرجه أبو يعلى بنحوه عن أنس ، ينظر فيما تقدم : ٤/٣٦٤ .

(٤) تفسير الطبرى ١٧/٩٠ .

كما ثبت فى الصحيحين ، من حديث الأعمش ، عن زيد بن وهب ، عن ابن مسعود قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ وهو الصادق المصدوق « إن خلق أحدكم يُجمَع فى بطن أمه أربعين ليلة ، ثم يكون عَلَقة مثل ذلك ، ثم يكون مُضْغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات ، بكتب عمله وأجله ورزقه ، وشقي أو سعيد ، ثم يُنفخُ فيه الرّوحُ [1] » .

وروى ابن جرير ، وابن أبى حاتم من حديث داود بن أبى هند ، عن الشعبى ، عن علقمة ، عن عبد الله قال : النطفة إذا استقرت فى الرحم ، [أخذها [2]] مَلَك بكفه قال : يا رب ، مخلَّقة أو غير مخلقة ؟ فإن قيل : « غير مخلقة » لم تكن نسَمة ، وقذفتها الأرحام دما ، وإن قيل : « مخلقة » ، قال : أىْ ربّ ، ذكر أو أنثى ؟ شقي أو سعيد ؟ ما الأجل ؟ وما الأثر ؟ وبأىّ أرض يموت ؟ قال : فيقال للنطفة : من ربك ؟ فتقول : الله . فيقال : من رازقك ؟ فتقول : الله فيقال له : اذهب إلى [أم [3]] الكتاب ، فإنك ستجد فيه قصة هذه النطفة . قال : فتخلّق فتعيش فى أجلها ، وتأكل رزقها وتطأ أثرها [4] ، حتى إذا جاء أجلها ماتت ، فدفنت فى ذلك [المكان [5]] ثم تلا عامر الشعبى : (يا أيها الناس ، إن كنتم فى ريب من البعث ، فإنا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة) . فإذا بلغت مضغة نكست فى الخلق الرابع فكانت نسمة ، فإن كانت غير مخلقة قذفتها الأرحام دما ، وإن كانت مخلقة نكست فى الخلق .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرىء ، حدثنا سفيان ، عن عمرو بن دينار ، عن أبى الطفيل ، عن حذيفة بن أسيد ــ يبلغ به النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر فى الرحم بأربعين أو خمس وأربعين ، فيقول : أىْ ربّ ، أشقي أم سعيد ؟ فيقول الله ، ويكتبان ، فيقول : أذكر أم أنثى ؟ فيقول الله ويكتبان ، ويكتب عمله وأثره ورزقه وأجله ، ثم تطوى الصحف ، فلا يزاد على مافيها ولا ينتقص » .

ورواه مسلم من حديث سفيان بن عُيَينة ، ومن طُرُق أخَر ، عن أبى الطّفَيل ، بنحو معناه (٥) .

وقوله : (ثم نخرجكم طفلا) ، أى : ضعيفا فى بدنه ، وسمعه وبصره وحواسه ، وبطشه وعقله . ثم يعطيه الله القوة شيئا فشيئا ، ويلطف به ، ويُحنّن عليه والديه فى آناء الليل وأطراف النهار . ولهذا قال : (ثم لتبلغوا أشدكم) ، أى : يتكامل القوىّ ويتزايد ، ويصل إلى عنفوان الشباب وحسن المنظر . (ومنكم من يُتَوفّى) ، أى : فى حال شبابه وقواه ، (ومنكم من يرد إلى أرذل العمر) ، وهو الشيخوخة والهَرَم ، وضعف القوة والعقل والفهم ، وتناقص الأحوال من الخَرَف وضعف الفكر ، ولهذا قال : (لكيلا يعلم من بعد علم شيئا) ، كما قال تعالى : (الله الذى خلقكم

---

(١) البخارى ، كتاب الأنبياء : ٤/١٦١ ، وكتاب القدر : ٨/١٥٢ . ومسلم ، كتاب القدر ، باب « كيفية الخلق الآدمى » ٨/٤٤ .

(٢) فى المخطوطة : « جاءها ملك » . والمثبت عن الدر المنثور .

(٣) مابين القوسين عن الدر المنثور .

(٤) فى المخطوطة : « وتأكل فى رزقها وتعطى أثرها » . والمثبت عن الطبعات السابقة . وفى الدر المنثور : ٣/٣٤٥ : « وتطأ فى أثرها » .

(٥) مسلم ، كتاب القدر ، باب « كيفية الخلق الآدمى » : ٨/٤٥ ، ٤٦ .

من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة : يخلق ما يشاء ، وهو العليم القدير) (١).

وقد قال الحافظ أبو يعلى بن على بن المثنى الموصلى فى مسنده : حدثنا منصور بن أبى مزاحم ، حدثنا خالد الزيات ، حدثنى داود أبو سليمان ، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن مَعْمَر بن حَزْم الأنصارى ، عن أنس بن مالك — رَفَع الحديث — قال : المولود حتى يبلغ الحِنْث (٢) ، ما عمل من حسنة ، كتبت لوالده أو لوالدته ، وما عمل من سيئة لم تكتب عليه ولا على والديه فإذا بلغ الحنث جرى الله عليه القلم أمر الملكان اللذان معه أن يحفظا وأن يشددا فإذا بلغ أربعين سنة فى الإسلام أمَّنه الله من البلايا الثلاث : الجنون ، والجذام ، والبرص . فإذا بلغ الخمسين ، خفف الله حسابه . فإذا بلغ ستين رزقه الله الإنابة إليه بما يحب ، فإذا بلغ السبعين أحبه أهل السماء ، فإذا بلغ الثمانين كتب الله حسناته وتجاوز عن سيئاته ، فإذا بلغ التسعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وشفعه فى أهل بيته ، وكان أسير الله فى أرضه ، فإذا بلغ أرذل العمر (لكيلا يعلم من بعد علم شيئا) ، كتب الله له مثل ما كان يعمل فى صحته من الخير ، فإذا عمل سيئة لم تكتب عليه » .

هذا حديث غريب جدا ، وفيه نكارة شديدة . ومع هذا قد رواه الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده مرفوعا وموقوفا فقال :

حدثنا أبو النضر ، حدثنا الفرج ، حدثنا محمد بن عامر ، عن محمد بن عبد الله العامرى (٣) ، عن عمرو بن جعفر ، عن أنس قال : إذا بلغ الرجلُ المسلم أربعين سنة ، أمَّنه الله من أنواع البلايا ، من الجنون والجذام والبرص . فإذا بلغ الخمسين ليَّن الله حسابه ، وإذا بلغ الستين رزقه الله إنابة يحبه عليها . وإذا بلغ السبعين أحبه الله ، وأحبه أهل السماء . وإذا بلغ الثمانين تقبل الله حسناته ، ومحا عنه سيئاته . وإذا بلغ التسعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وسمى أسير الله فى الأرض ، وشُفِّع فى أهله (٤).

ثم قال : حدثنا هاشم (٥) ، حدثنا الفرج ، حدثنى محمد بن عبد الله [العامرى ، عن محمد بن عبد الله] بن عمرو ابن عثمان ، عن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، مثله (٦) .

ورواه الإمام أحمد أيضا : حدثنا أنس بن عياض ، حدثنى يوسف بن أبى بردة الأنصارى ، عن جعفر بن عمرو ابن أمية الضمرى ، عن أنس بن مالك : أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : مامن مُعمَّر يُعمَّر فى الإسلام أربعين سنة ، إلا صَرَف الله عنه ثلاثة أنواع من البلاء : الجنون والجذام والبرص ... وذكر تمام الحديث ، كما تقدم سواء (٧) .

---

(١) سورة الروم ، آية : ٥٤ .

(٢) أى : حتى يبلغ مبلغ الرجال .

(٣) فى المخطوطة : « محمد بن عبدالله العامل » . وفى المسند مكانه : « محمد بن عبيدالله » . ولعل صوابه « العامرى » . وانظر ترجمته فى التهذيب : ٩/ ٦٩ .

(٤) مسند الإمام أحمد ، فى أثناء حديث عبدالله بن عمر : ٢/ ٨٩ .

(٥) فى المخطوطة : « حدثنا هشام » . والمثبت من المسند ولعله « هاشم بن القاسم » المترجم فى التهذيب : ١١/ ١٨ .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٢/ ٨٩ .

(٧) مسند الإمام أحمد : ٣/ ٢١٧ ، ٢١٨ .

ورواه الحافظ أبو بكر البزار ، عن عبد الله بن شبيب ، عن أبي شيبة ، عن عبد الله بن عبد الملك ، عن أبي قتادة العُذْرىّ ، عن ابن أخي الزهرى ، عن عمه ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مامن عبد يُعمَّر فى الإسلام أربعين سنة ، إلا صَرَف الله عنه أنواعا من البلاء: الجنون والجذام والبرص ، فإذا بلغ خمسين سنة لَيَّن الله له الحساب ، فإذا بلغ ستين سنة رزقه الله الإنابة إليه بما يحب ، فإذا بلغ سبعين سنة غَفَر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وسمى أسير الله ، وأحبه أهلُ السماء ، فإذا بلغ الثمانين تقبل الله منه حسناته وتجاوز عن سيئاته ، فإذا بلغ التسعين غَفَر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وسُمى أسير الله فى أرضه ، وشُفِّع فى أهل بيته » .

وقوله : (وترى الأرض هامدة) : هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى ، كما يحيي الأرض الميتة الهامدة ، وهى القَحِلة التى لا نبت فيها ولا شىء .

وقال قتادة : غبراء متهشمة . وقال السدّى : ميتة .

(فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج) ، أى : فإذا أنزل الله عليها المطر (اهتزت) ، أى : تحركت بالنبات وحَيِيت بعد موتها ، (وربت) ، أى : ارتفعت لما سكن فيها الثرى ، ثم أنبتت ما فيها من الألوان والفُنُون ، من ثمار وزروع ، وأشتات النباتات فى اختلاف ألوانها وطعومها ، وروائحها وأشكالها ومنافعها . ولهذا قال تعالى : (وأنبتت من كل زوج بهيج) ، أى : حسن المنظر طيب الريح .

وقوله : (ذلك بأن الله هو الحق) ، أى : الخالق المدبر الفعال لما يشاء ، (وأنه يحيي الموتى) ، [أى : كما أحيا الأرض الميتة وأنبت منها هذه الأنواع ؛ (إن الذى أحياها لمحيى الموتى)] ، إنه على كل شىء قدير [١] ، (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون [٢]) .

(وأن الساعة آتية لاريب فيها) ، أى : كائنة لا شك فيها ولامرْية ، (وأن الله يبعث من فى القبور) ، أى : يعيدهم بعد ما صاروا فى قبورهم رِمَماً ، ويوجدهم بعد العدم ، كما قال تعالى : (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ، قال : من يحيي العظام وهى رميم ؟ قل : يحييها الذى أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم . الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون [٣]) ... والآيات فى هذا كثيرة .

وقال الإمام أحمد : حدثنا بَهْز ، حدثنا حماد بن سلمة قال : أنبأنا يعلى بن عطاء ، عن وكيع بن حُدُس [٤] ، عن عمه أبي رَزين العقيلي ــ واسمه لَقيط بن عامر ــ أنه قال ، يارسول الله ، أكلنا يرى ربه عز وجل يوم القيامة ؟ وما آية ذلك فى خلقه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أليس كلكم ينظر إلى القمر مُخْلياً [٥] به ؟ قلنا : بلى قال : فالله أعظم . قال : قلت : يا رسول الله ، كيف يحيي الله الموتى ، وما آية ذلك فى خلقه ؟ قال : أما مررت بوادى

---

(١) سورة فصلت ، آية : ٣٩ .
(٢) سورة « يس » ، آية : ٨٢ .
(٣) سورة « يس » ، آية : ٧٨ — ٨٠ .
(٤) فى المخطوطة : « وكيع بن عدى » . والصواب من المسند . والتهذيب : ١٣١/١١ ، ويقال : « عدس أيضاً » .
(٥) أى : منفرداً به . ويقال : « خلوت به ، ومعه ، وإليه وأخليت به : إذا انفردت به » .

أهلك متحلاً (١) قال : بلى ، قال : ثم مررت به يهتز خضراً ؟ قال : بلى ، قال : فكذلك يحيي الله الموتى ، وذلك آيته في خلقه (٢) .

ورواه أبو داود وابن ماجه ، من حديث حماد بن سلمة ، به (٣)

ثم رواه الإمام أحمد أيضا : حدثنا علي بن إسحاق ، أنبأنا ابن المبارك ، أنبأنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر ، عن سليمان بن موسى ، عن أبي رزين العُقَيلي قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله ، كيف يحيي الله الموتى ؟ قال : أمررت بأرض من أرضك مُجْدِبة ، ثم مررت بها مخصبة ؟ قال : نعم . قال : كذلك النشور (٤) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عُبَيْس (٥) بن مرحوم ، حدثنا بكير بن [أبي (٦)] السميط عن قتادة ، عن أبي الحجاج ، عن معاذ بن جبل قال : من علم أن الله هو الحق المبين ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور — دخل الجنة .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ ﴾

لما ذكر تعالى حال الضلاّل الجهال المقلّدين في قوله : (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد) ، ذكر في هذه حال الدعاة إلى الضلال من رءوس الكفر والبدع ، فقال : (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) ، أي بلا عقل صحيح ، ولا نقل صحيح صريح ، بل بمجرد الرأي والهوى .

وقوله : (ثاني عطفه) — قال ابن عباس وغيره : مستكبراً عن الحق إذا دُعي إليه .

وقال مجاهد ، وقتادة ، ومالك عن زيد بن أسلم : (ثاني عطفه) ، أي : لاويَ عنقه (٧) ، وهي رقبته : يعني يعرض عما يدعى إليه من الحق رقَبته استكباراً ، كقوله تعالى : (وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين . فتولى بركنه وقال : ساحر ، أو مجنون (٨)) ، وقال تعالى : (وإذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ،

---

(١) المحل — في الأصل — : انقطاع المطر ، ويقال : أرض محل ، وزمن محل وماحل . وفي المخطوطة : « محلا » . والمثبت من المسند .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٤/١١ .

(٣) سنن ابن ماجه ، المقدمة ، الحديث ١٨٠ : ١/٦٤ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٤/١١ .

(٥) في المخطوطة : « عنبس » . وهو عبيس بن مرحوم بن عبد العزيز العطار المدني البصري : تنظر ترجمته في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ٣/٢/٣٤ .

(٦) ما بين القوسين من ترجمة « بكير » في الجرح : ١/١/٤٠٦ .

(٧) تفسير الطبري : ١٧/٩٢ .

(٨) سورة الذاريات ، آية : ٣٨ ، ٣٩ .

رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً (١)) ، وقال : (وإذا قيل لهم : تعالوا يستغفر لكم رسول الله ، لوّوا رءوسهم ، ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون (٢)) ، وقال لقمان لابنه : (ولا تُصعّر خدك للناس (٣)) ، أى : تميله عنهم استكباراً عليهم . وقال تعالى : (وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كأن لم يسمعها [كأن فى أذنيه وقراً] ، فبَشّرْه بعذاب أليم) (٤)

وقوله : (ليضل عن سبيل الله) ، قال بعضهم : هذه لام العاقبة ، لأنه قد لا يقصد ذلك ، ويحتمل أن تكون لام التعليل ، ثم إما أن يكون المراد بها المعاندين ، أو يكون المراد بها أن هذا الفاعل لهذا إنما جبلناه على هذا الخلق الذى يجعله ممن يضل عن سبيل الله .

ثم قال تعالى : (له فى الدنيا خزى) ، وهو الإهانة والذل ، كما أنه لما استكبر عن آيات الله لقّاه الله المذلة فى الدنيا ، وعاقبه فيها قبل الآخرة ، لأنها أكبر همّه ومبلغ علمه ، (ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ، ذلك بما قدمت يداك) ، أى : يقال له هذا تقريعاً وتوبيخا ، (وأن الله ليس بظلام للعبيد) ، كقوله تعالى : (خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم . ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم . ذق إنك أنت العزيز الكريم . إن هذا ما كنتم به تمترون (٥)) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أحمد بن الصّباح ، حدثنا يزيد بن هارون ، أنبأنا هشام ، عن الحسن قال : بلغنى أن أحدهم يُحرَق فى اليوم سبعين ألف مرة .

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾

قال مجاهد ، وقتادة ، وغيرهما : (على حرف) : على شك .

وقال غيرهم : على طرف : ومنه حرف الجبل ، أى : طرفه ، أى : دخل فى الدين على طرف ، فإن وجد [ما يحبه] استقر ، وإلا انشمر (٦) .

وقال البخارى : حدثنا إبراهيم بن الحارث ، حدثنا يحيى بن أبى بُكَير ، حدثنا إسرائيل ، عن أبى حَصين ، عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس قال : (ومن الناس من يعبد الله على حرف) ، قال : كان الرجل يقدم المدينة ، فإن ولدت امرأته غلاما ، ونُتِجت خيلُه ، قال : هذا دين صالح . وإن لم تلد امرأته ، ولم تُنتَج خيله قال : هذا دين سوء (٧) .

---

(١) سورة النساء ، آية : ٦١ .
(٢) سورة « المنافقون » آية : ٥ .
(٣) سورة لقمان ، آية : ١٨ .
(٤) سورة لقمان ، آية : ٧
(٥) سورة الدخان ، الآيات : ٤٧ — ٥٠ .
(٦) الانشمار والاشمار : المضى والنفوذ .
(٧) البخارى ، تفسير سورة الحج : ٦/١٢٣ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن ، حدثني أبي ، عن أبيه ، عن أشعث ابن إسحاق القمّي ، عن جعفر بن أبي المغيرة ، عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس قال : كان ناس من الأعراب يأتون النبي صلى الله عليه وسلم فيسلمون ، فإذا رجعوا إلى بلادهم فإن وجدوا عام غَيث وعام خصب وعام ولاد حسن ، قالوا : « إن ديننا هذا لَصَالح ، فتمسّكوا به » . وإن وجدوا عام جُدوبة وعام ولاد سَوء وعام قحط ، قالوا : « ما في ديننا هذا خير » ، فأنزل الله على نبيه : (ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه) .

وقال العوفي ، عن ابن عباس : كان أحدهم إذا قَدم المدينة ، [وهي أرض وبيئة [1]] ، فإن صح بها جسمه ، ونُتجت فرسه مهراً حسنا ، وولدت امرأته غلاماً ، رضي به واطمأن إليه ، وقال : « ما أصبت منذ كنتُ على ديني هذا إلا خيرا » ، وإن أصابته فتنة — والفتنة : البلاء — أي : وإن أصابه وجع المدينة ، وولدت امرأته جارية ، وتأخرت عنه الصدقة ، أتاه الشيطان فقال : « والله ما أصبت منذ كنت على دينك هذا إلا شراً » ، وذلك الفتنة [2] .

وهكذا ذكر قتادة ، والضحاك ، وابن جُرَيج ، وغير واحد من السلف ، في تفسير هذه الآية .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هو المنافق ، إن صلحت له دنياه أقام على العبادة ، وإن فسدت عليه دنياه وتغيّرت ، انقلب فلا يقيم على العبادة إلا لِمَا صَلَح من دنياه ، فإن أصابته فتنة أو شدة أو اختبار أو ضيق ، ترك دينه ورجع إلى الكفر [3] .

وقال مجاهد في قوله : (انقلب على وجهه) ، أي : ارتد كافراً .

وقوله : (خسر الدنيا والآخرة) ، أي : فلا هو حَصّل من الدنيا على شيء ، وأما الآخرة فقد كفر بالله العظيم ، فهو فيها في غاية الشقاء والإهانة ؛ ولهذا قال : (ذلك هو الخسران المبين) ، أي : هذه هي الخسارة العظيمة ، والصفقة الخاسرة .

وقوله : (يدعو من دون الله مالا يضره ومالا ينفعه) ، أي : من الأصنام والأنداد ، يستغيث بها ويستنصرها ويسترزقها ، وهي لا تنفعه ولا تضره ، (ذلك هو الضلال البعيد . يدعو لمن ضره أقرب من نفعه) ، أي : ضرره في الدنيا قبل الآخرة أقرب من نفعه فيها ، وأما في الآخرة فضرره محقق متيقن .

وقوله : (لبئس المولى ولبئس العشير) ، قال مجاهد : يعني الوثن [3] ، يعني بئس هذا الذي دعا به من دون الله مولى ، يعني ولياً وناصراً ، (وبئس العشير) ، وهو المخالط والمعاشر .

واختار ابن جرير أن المراد لبئس ابنُ العم والصاحبُ [4]) من يعبد على حرف ، (فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه) .

(١) ما بين القوسين من تفسير الطبري ، والدر المنثور ، ومكانه في المخطوطة « وهي أرض دونه » .
(٢) تفسير الطبري : ١٧/ ٩٣ ، الدر المنثور : ٤/ ٣٤٦ .
(٣) تفسير الطبري : ١٧/ ٩٤ .
(٤) تفسير الطبري : ١٧/ ٩٥ .

وقول مجاهد إن المراد به الوثن أولى وأقرب إلى سياق الكلام ، والله أعلم .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ ﴾

لما ذكر اهل الضلالة الأشقياء ، عطف بذكر الأبرار السعداء ، من الذين آمنوا بقلوبهم ، وصدقوا إيمانهم بأفعالهم ، فعملوا الصالحات من جميع أنواع القربات ، [وتركوا المنكرات] ، فأورثهم ذلك سكنى الدرجات العاليات ، فى روضات الجنات .

ولما ذكر أنه أضل أولئك ، وهدى هؤلاء ، قال : (إن الله يفعل ما يريد) .

﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾

قال ابن عباس : من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً صلى الله عليه وسلم فى الدنيا والآخرة ، (فليمدد بسبب) : أى : بحبل (إلى السماء) ، أى : سماء بيته ، (ثم ليقطع) ، يقول : ثم ليختنق به : وكذا قال مجاهد ، وعكرمة ، وعطاء ، وأبو الجوزاء ، وقتادة ، وغيرهم .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : (فليمدد بسبب إلى السماء) ، أى : ليتوصل إلى بلوغ السماء ، فإن النصر إنما يأتى محمداً من السماء ، (ثم ليقطع) ذلك عنه ، إن قدر على ذلك .

وقول ابن عباس وأصحابه أولى وأظهر فى المعنى ، وأبلغ فى التهكم ؛ فإن المعنى من ظن أن الله ليس بناصر محمداً وكتابه ودينه ، فليذهب فليقتل نفسه ، إن كان ذلك غائظه فان الله ناصره لا محالة ، قال الله تعالى : (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ، ولهم سوء الدار [1]) . ولهذا قال : (فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ) .

قال السدى : يعنى من شأن محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال عطاء الخراسانى : فلينظر هل يشفى ذلك ما يجد فى صدره من الغيظ .

وقوله : (وكذلك أنزلناه) ، أى : القرآن (آيات بينات) ، أى : واضحات فى لفظها ومعناها ، حجة من الله على الناس (وأن الله يهدى من يريد) ، أى : يضل من يشاء ، ويهدى من يشاء ، وله الحكمة التامة والحجة القاطعة فى ذلك ، (لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون [2]) ، أما هو فلحكمته ورحمته وعدله ، وعلمه وقهره وعظمته ، لا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب .

---

(١) سورة غافر ، آية : ٥١ ، ٥٢ .
(٢) سورة الأنبياء ، آية : ٢٣ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧)﴾

يخبر تعالى عن أهل هذه الأديان المختلفة من المؤمنين ، ومن سواهم من اليهود والصابئين — وقد قدمنا فى « سورة البقرة[1]» التعريفَ بهم، واختلافَ الناس فيهم — والنصارى والمجوس، والذين أشركوا فعبدوا غير الله معه ؛ فانه تعالى (يفصل بينهم يوم القيامة) ، ويحكم بينهم بالعدل ، فيدخل من آمن به الجنة ، ومن كفر به النارَ ، فانه تعالى شهيد على أفعالهم ، حفيظ لأقوالهم ، عليم بسرائرهم ، وماتُكِنّ ضمائرهم :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨)﴾ ۩

يخبر تعالى أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له ؛ فإنه يسجد لعظمته كلُّ شيء طوعا وكرها وسجود [كل شيء مما][2] يختص به ، كما قال : (أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء ، يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون[3]).

وقال هاهنا : (ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض) ، أى : من الملائكة فى أقطار السموات ، والحيوانات فى جميع الجهات ، من الإنس والجن والدواب والطير ، (وإن من شيء إلا يسبح بحمده[4]).

وقوله : (والشمس والقمر والنجوم) ، إنما ذكر هذه على التنصيص ؛ لأنها قد عُبِدت من دون الله ، فبيّن أنها تسجد لخالقها ، وأنها مربوبة مسخرة (لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون[5]) .

وفى الصحيحين عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أتدرى أين تذهب هذه الشمس ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإنها تذهب فتسجد تحت العرش ، ثم تستأمر فيوشك أن يقال لها : ارجعى من حيث جئت»[6] .

وفى المسند وسنن أبى داود ، والنسائى ، وابن ماجه ، فى حديث الكسوف : « إن الشمس والقمر خَلْقان من خَلْق الله ، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ، ولكن الله عز وجل إذا تجلّى لشىء من خلقه خشع له »[7] .

---

(١) ينظر تفسير الآية ٦٢ من سورة البقرة : ١/١٤٨ ، ١٤٩ .

(٢) فى المخطوطة : « وسجود كل يختص به » . والمثبت من الطبعات السابقة .

(٣) سورة النحل ، آية : ٤٨ .

(٤) سورة الإسراء ، آية : ٤٤ .

(٥) سورة فصلت ، آية : ٣٧ .

(٦) البخارى ، كتاب بدء الخلق ، باب « صفة الشمس والقمر بحسبان » . ٤/١٣١ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « بيان الزمن الذى لا يقبل فيه الإيمان » : ١/٩٦ ، ٩٧ .

(٧) سنن أبى داود ، كتاب الصلاة ، باب « صلاة الكسوف » ، الحديث ١١٧٧ : ١/٣٠٦ والنسائى ، كتاب الكسوف ، ٣/١٤١ ، وابن ماجه ، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب « ما جاء فى صلاة الكسوف » ، الحديث ١٢٦٢ : ١/٤٠١ . ومسند الإمام أحمد عن النعمان بن بشير : ٤/٢٦٧ — ٢٦٩ .

وقال أبو العالية : مافى السماء نجم ولا شمس ولا قمر ، إلا يقع لله ساجداً حين يغيب ، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له ، فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعه [١].

وأما الجبال والشجر فسجودهما بفىء ظلالها عن اليمين والشمائل . وعن ابن عباس قال : جاء رجل فقال : يا رسول الله ، إنى رأيتنى الليلة وأنا نائم ، كأنى أصلى خلف شجرة ، فسجدتُ فسجدَت الشجرة لسجودى ، فسمعتُها [وهى] تقول : اللهم ، اكتب لى بها عندك أجراً ، وضع عنى بها وزراً ، واجعلها لى عندك ذُخراً ، وتقبلها منى كما تقبلتَها من عبدك داود . قال ابن عباس : فقرأ النبى صلى الله عليه وسلم : سجدةً ثم سَجَد ، فسمعته [وهو] يقولُ مثلَ ما أخبره الرجل عن قول الشجرة .

رواه الترمذى ، وابن ماجه ، وابن حبّان فى صحيحه [٢] .

وقوله : (والدواب) ، أى : الحيوانات كلها .

وقد جاء فى الحديث عن الإمام أحمد : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن اتخاذ ظهور الدواب منابر [٣] » ، « فربّ مركوبة خير وأكثر ذكرا لله من راكبها » .

وقوله : (وكثير من الناس) ، أى : يسجد لله طوعا مختاراً متعبداً بذلك ، (وكثير حق عليه العذاب) ، أى : ممن امتنع وأبى واستكبر ، (ومن يهن الله فما له من مكرم ، إن الله يفعل ما يشاء) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن شيبان الرملى ، حدثنا القداح ، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن على قال : قيل لعلى : إن هاهنا رجلا يتكلم فى المشيئة . فقال له على : يا عبد الله ، خلقك الله كما يشاء أو كما شئت ؟ قال : بل كما شاء [قال] : فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت ؟ قال : بل إذا شاء . قال : فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت ؟ قال : بل إذا شاء . قال : فيدخلك حيث شئت أو حيث يشاء ؟ قال : بل حيث يشاء . قال : والله لو قلتَ غير ذلك لضربتُ الذى فيه عيناك بالسيف .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا قرأ ابنُ آدم السجدةَ اعتزل الشيطان يبكى ، يقول : ياويله . أُمِر ابن آدم بالسجود فسجد ، فله الجنة . وأُمِرتُ بالسجود فأبيتُ ، فلى النار . رواه مسلم [٤] » .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٧/ ٩٨ .

(٢) تحفة الأحوذى ، أبواب السفر ، باب « ما جاء ما يقول فى سجود القرآن » ، الحديث ٥٧٦ : ٣/ ١٨١ - ١٨٢ . وقال الترمذى : « وفى الباب عن أبى سعيد . قال أبو عيسى : هذا حديث غريب من حديث ابن عباس ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه » . وأخرجه الترمذى أيضاً فى أبواب الدعوات ، باب « ما جاء ما يقول فى سجود القرآن » ، الحديث ٣٤٨٤ : ٩/ ٣٨٣ . وابن ماجه ، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب « سجود القرآن » ، الحديث ١٠٥٣ : ١/ ٣٣٤ .

(٣) وقع لنا هذا الحديث فى سنن أبى داود ، كتاب الجهاد ، باب « فى الوقوف على الدابة » ، الحديث ٢٥٦٧ : ٣/ ٢٧ ، ولعلنا نخرجه من المسند فيما بعد .

(٤) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب « بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة » : ١/ ٦١ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم وأبو عبد الرحمن المقرىء قالا : حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا مِشْرَح بن هاعان أبو مُصعَب المَعَافرى قال : سمعت عقبة بن عامر يقول : قلت : يا رسول الله ، أفُضِّلت سورةُ الحج على سائر القرآن بسجدتين ؟ قال : «نعم ، فمن لم يسجد بهما فلا يقرأهما» (١) .

ورواه أبو داود والترمذى ، من حديث عبد الله بن لهيعة ، به : وقال الترمذى : «ليس بقوى (٢) » . وفى هذا نظر ؛ فإن ابن لَهيعة قد صرّح فيه بالسماع ، وأكثر ما نقَموا عليه تدليسُه (٣) .

وقد قال أبو داود فى المراسيل : حدثنا أحمد بن عمرو بن السَّرح ، أنبأنا ابن وهب ، أخبرنى معاوية بن صالح ، عن عامر بن جَشِيب ، عن خالد بن مَعْدان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « فُضِّلت سورة الحج على القرآن بسجدتين » .

ثم قال أبو داود : وقد أُسنِدَ هذا ؛ يعنى من غير هذا الوجه ، ولا يصح .

وقال الحافظ أبو بكر الإسماعيلى (٤) : حدثنا ابن أبى داود ، حدثنا يزيد بن عبد الله ، حدثنا الوليد ، حدثنا أبو عمرو ، حدثنا حفص بن عنان حدثنى نافع ، حدثنى أبو الجهم أن عمر سجد سجدتين فى الحج ، وهو بالجابية ، وقال : إن هذه فضلت بسجدتين .

وروى أبو داود وابن ماجه ، من حديث الحارث بن سعيد العُتَقىّ ، عن عبد الله بن مُنَيْن ، عن عمرو بن العاص : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأه خمس عشرة سجدة فى القرآن ، منها ثلاث فى المُفَصّل (٥) ، وفى سورة الحج سجدتان (٦) . فهذه شواهد يَشُدّ بعضها بعضا .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ١٥١/٤ ، ١٥٥ .

(٢) سنن أبى داود ، كتاب الصلاة ، باب « تفريع أبواب السجود » ، الحديث ١٤٠٢ : ٥٨/٢ . وتحفة الأحوذى ، أبواب السفر ، باب « فى السجدة فى الحج » ، الحديث ٥٧٥ : ١٧٨/٣ — ١٨٠ . ولفظ الترمذى : « هذا حديث ليس إسناده بالقــوى » .

(٣) المدلس — بفتح اللام — : ما سقط من إسناده راو لم يسمه من حدث عنه ، موهماً سماعه للحديث ممن لم يحدثه ، بشرط معاصرته له ، فإن لم يكن عاصره فليست الرواية عنه تدليساً على المشهور . ومن التدليس أن يسقط الراوى شيخ شيخه أو أعلى منه لكونه ضعيفاً وشيخه ثقة أو صغيراً ؛ تحسينا للحديث . ومن التدليس أيضاً أن يسمى شيخه أو يكنيه أو ينسبه أو يصفه بما لا يعرف . ثم إن كان الحامل للراوى على التدليس تغطية الضعيف فجرح ؛ لأن ذلك حرام وغش ، وإلا فلا .

هذا وقد قال ابن حبان عن ابن لهيعة : « كان صالحاً ، لكنه يدلس على الضعفاء » ينظر ميزان الاعتدال للذهبى : ٤٨٢/٢ .

(٤) هو الإمام الحافظ أبو بكر بن إبراهيم بن إسماعيل الجرجانى الشافعى ، صاحب التصانيف الكبار فى الحديث والفقه . وكان ثقة حجة . توفى فى سنة ٣٨١ . انظر العبر للذهبى : ٣٥٨/٢ ، ٣٥٩ .

(٥) المفصل : من الحجرات إلى آخر القرآن ، وسمى مفصلا ، لقصر سوره .

(٦) سنن أبى داود ، كتاب الصلاة ، باب « تفريع أبواب السجود » ، الحديث ١٤٠١ : ٥٨/٢ . وابن ماجه ، كتاب إقامة الصلاة ، باب « عدد سجود القرآن » ، الحديث ١٠٥٧ : ٣٣٥/١ .

* هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾

ثبت فى الصحيحين ، من حديث أبى مِجْلَز ، عن قيس بن عُبَاد ، عن أبى ذر : أنه كان يقسم قسما أن هذه الآية : (هذان خصمان اختصموا فى ربهم) نزلت فى حمزة وصاحبيه ، وعتبة وصاحبيه ، يوم برزوا فى بدر [1] .

لفظ البخارى عند تفسيرها ، ثم قال البخارى .

حدثنا حجاج بن منهال ، حدثنا المعتمر بن سليمان ، [سمعت أبى] ، حدثنا أبو مِجْلَز عن قيس بن عُبَاد ، عن على بن أبى طالب أنه قال : أنا أول من يَجثُو بين يدى الرحمن للخصومة يوم القيامة . قال قيس : وفيهم نزلت : (هذان خصمان اختصموا فى ربهم) ، قال هم الذين بارزوا يوم بدر : علىّ وحمزة وعبيدة ، وشيبة بن ربيعة وعتبة ابن ربيعة والوليد بن عتبة . انفرد به البخارى [2] .

وقال سعيد بن أبى عَرُوبة ، عن قتادة فى قوله : (هذان خصمان اختصموا فى ربهم) ، قال : اختصم المسلمون وأهل الكتاب ، فقال أهل الكتاب : نبينا قبل نبيكم ، وكتابنا قبل كتابكم ، فنحن أولى بالله منكم . وقال المسلمون : كتابنا يقضى على الكتب كلها ، ونبينا خاتم الأنبياء ، فنحن أولى بالله منكم . فأفلج [3] الله الإسلامَ على من ناوأه ، وأنزل : (هذان خصمان اختصموا فى ربهم [4]) . وكذا روى العوفى ، عن ابن عباس [5] .

وقال شعبة ، عن قتادة فى قوله : (هذان خصمان اختصموا فى ربهم) ، قال : مُصدّق ومكذب .

وقال ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد فى هذه الآية : مثل الكافر والمؤمن اختصما فى البعث . وقال — فى رواية هو وعطاء فى هذه الآية — : هم المؤمنون والكافرون .

وقال عكرمة : (هذان خصمان اختصموا فى ربهم) ، قال : هى الجنة والنار ، قالت النار : اجعلنى للعقوبة ، وقالت الجنة : اجعلنى للرحمة .

وقولُ مجاهد وعطاء إن المراد بهذا الكافرون والمؤمنون يشمل الأقوال كلها ، وينتظم فيه قصة يوم بدر وغيرها ؛ فإن المؤمنين يريدون نصرة دين الله ، والكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان وخذلانَ الحق وظهور الباطل . وهذا اختيار ابن جرير [6] ، وهو حسَن . ولهذا قال : (فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار) ، أى : فصلت لهم مقطعات من نار ،

---

(١) البخارى ، تفسير سورة الحج : ٦/١٢٣ . ومسلم ، كتاب التفسير ، باب قوله تعالى : (هذان خصمان اختصموا فى ربهم) : ٨/٢٤٥ ، ٢٤٦ .

(٢) البخارى ، تفسير سورة الحج : ٦/١٢٣ ، ١٢٤ .

(٣) أى : نصره وأعلاه .

(٤) انظر تفسير سورة النساء ، عند الآية ١٢٣ : ٢/٣٦٩ .

(٥) تفسير الطبرى : ١٧/٩٩ .

(٦) تفسير الطبرى : ١٧/١٠٠ .

قال سعيد بن جبير : من نحاس وهو أشد الأشياء حرارة إذا حمى :

(يصب من فوق رءوسهم الحميم ، يصهر به مافى بطونهم والجلود) ، أى : إذا صب على رءوسهم الحميم ، وهو الماء الحار فى غاية الحرارة .

وقال سعيد : هو النحاس المذاب ، أذاب مافى بطونهم من الشحم والأمعاء . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وغيرهم . وكذلك تذوب جلودهم ، وقال ابن عباس وسعيد : تساقط .

وقال ابن جرير : حدثنى محمد بن المثنى ، حدثنا إبراهيم أبو إسحاق الطالَقانى (١) ، حدثنا ابن المبارك عن سعيد ، ابن زيد ، عن أبى السَّمح ، عن ابن حُجَيرة ، عن أبى هُرَيرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إن « الحميم ليُصَبّ على رءوسهم ، فينفُذ الجمجمةَ (٢) حتى يخلص إلى جوفه ، فيسلتَ (٣) مافى جوفه ، حتى يبلغ قدميه ، وهو الصهر (٤) ، ثم يعاد كما كان (٥) » .

ورواه الترمذى من حديث ابن المبارك ، وقال : «حسن صحيح (٦) » ، وهكذا رواه بن أبى حاتم ، عن أبيه ، عن أبى نعيم ، عن ابن المبارك ، به ثم قال ابن أبى حاتم :

حدثنا على بن الحسين ، حدثنا أحمد بن أبى الحوارى ، سمعت عبد الله بن السرى قال : يأتيه الملك يحمل الإناء بكَلْبتَين من حرارته ، فإذا أدناه من وجهه تكرهه ، قال : فيرفع مِقْمَعَة (٧) معه فيضرب بها رأسه ، فيُفرغ دماغه ، ثم يُفرغ الإناء من دماغه ، فيصل إلى جوفه من دماغه ، فذلك قوله : (يُصهر به مافى بطونهم والجلود) ، وقوله : (ولهم مقامع من حديد) ، قال الإمام أحمد .

حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا درّاج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لو أن مِقْمَعا من حديد وُضع فى الأرض، فاجتمع [له] الثقلان ماأقَلُّوه (٨) من الأرض (٩) » :

وقال الإمام أحمد : حدثنا موسى بن داود ، حدثنا بن لَهيعة ، حدثنا درّاج ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد الخدرى

---

(١) فى تفسير الطبرى : « إبراهيم بن إسحاق » ، وإبراهيم هذا يكنى أبا إسحاق . وهو مترجم فى كتب الرجال .

(٢) كذا فى تفسير الطبرى . وفى الترمذى : « فينفذ الحميم » . ويقول الحافظ أبو العلى عن المنذرى إن البيهقى رواه إلا أنه قال : « فيخلص فينفذ إلى الجمجمة حتى يخلص إلى وجهه » .

(٣) السلت : القطع ، أى يقطع الحميم أمعاءه .

(٤) الصهر : الإذابة .

(٥) تفسير الطبرى : ١٧/١٠٠ .

(٦) تحفة الأحوذى ، أبواب صفة جهنم ، باب « ما جاء فى صفة شراب أهل النار » ، الحديث ٢٧٠٨ : ٧/٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ولفظ الترمذى : « هذا حديث غريب حسن » .

(٧) المقمعة – بكسر الميم – : واحدة المقامع ، وهى سياط تعمل من حديد رءوسها معوجه . والكلبتان – بفتح الكاف – الحديدة التى تكون مع الحداد يأخذ بها الحديد المحمى .

(٨) أقلوه – رفعوه .

(٩) مسند الإمام أحمد : ٣/٢٩ ، من حديث طويل .

قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو ضُرِب الجبلُ بمِقْمَع من حديد ، لتفتت ثم عاد كما كان ، ولو أن دلوا من غَسَّاق(١) يُهَرَاق فى الدنيا لأنتن أهل الدنيا (٢) .

وقال ابن عباس فى قوله : (ولهم مقامع من حديد) ، قال : يضربون بها ، فيقع كل عضو على حياله (٣) ، فيدعون بالثبور (٤) .

وقوله : (كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها) ، قال الأعمش ، عن أبى ظبيان ، عن سلمان قال : النار سوداء مظلمة ، لايضىء لهبها ولا جمرها ، ثم قرأ : (كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها) .

وقال زيد بن أسلم فى هذه الآية : (كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها) ، قال : بلغنى أن أهل النار فى النار لايتنفسون .

وقال الفُضَيل بن عياض : والله ماطمعوا فى الخروج ، إن الأرجل لمقيدة ، وإن الأيدى لموثقة ، ولكن يرفعهم لهبها ، وتردهم مقامعها .

وقوله : (وذوقوا عذاب الحريق) ، كقوله : (وقيل لهم : ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون) ، ومعنى الكلام أنهم يهانون بالعذاب قولا وفعلا .

إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾

لما أخبر تعالى عن حال أهل النار ، عياذاً بالله من حالهم ، وما هم فيه من العذاب والنكال والحريق والأغلال ، وما أعد لهم من الثياب من النار ، ذكر حال أهل الجنة — نسأل الله من فضله وكرمه أن يدخلنا الجنة — فقال : (إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار) ، أى : تتخرّق فى أكنافها وأرجائها وجوانبها ، وتحت أشجارها وقصورها ، يصرفونها حيث شاءوا وأين شاءوا ، (يحلون فيها) ، من الحلية ، (من أساور من ذهب ولؤلؤا) ، أى : فى أيديهم ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق عليه : « تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء (٥) » .

وقال كعب الأحبار : إن فى الجنة ملكا لو شئت أن أسميه لسميتُه ، يصوغ لأهل الجنة الحلى منذ خلقه الله إلى يوم القيامة ، لو أبرز قُلْبٌ منها — أى : سوار منها — لرد شعاع الشمس ، كما ترد الشمس نور القمر .

---

(١) الغساق — بتخفيف السين ، وتشديدها — : ما يسيل من صديد أهل النار وغسالتهم .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٣/٨٣ .

(٣) الأثر فى تفسير الطبرى ، والدر المنثور ٤/٣٤٩ عن سعيد بن جبير ، ولفظ الدر : « حتى يقوم كل عضو بحياله » .

(٤) الثبور : الهلاك . والمعنى أنهم يقولون : واثبوراه ، أى : ياثبور هذا أوانك .

(٥) مسلم ، كتاب الطهارة ، باب « تبلغ الحلية حيث يبلغ الوضوء » : ١/١٥١ . والنسائى ، كتاب الطهارة : باب « حلية الوضوء » : ١/٩٣ . ومسند الإمام أحمد عن أبى هريرة ٢/٣٧١ ، وينظر أيضاً : ٢/٢٣٢ .

وقوله : (ولباسهم فيها حرير) ، في مقابلة ثياب أهل النار التي فصلت لهم ، لباس هؤلاء من الحرير ، إستبرقه وسندسه ، كما قال : (عاليهم ثياب سندس خُضْر وإستبرق ، وحلوا أساور من فضة ، وسقاهم ربهم شرابا طهورا ، إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا (١)) ، وفي الصحيح : « لا تلبسوا الحرير ولا الديباج في الدنيا ، فإنه من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة (٢) » .

قال عبد الله بن الزبير : ومن لم يلبس الحرير في الآخرة ، لم يدخل الجنة ، قال الله تعالى : (ولباسهم فيها حرير) .

وقوله : (وهدوا إلى الطيب من القول) ، كقوله : (وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها بإذن ربهم ، تحيتهم فيها سلام (٣)) ، وقوله : (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب : سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار (٤)) ، وقوله : (لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما : إلا قيلاً سلاما سلاما (٥)) ، فهدوا إلى المكان الذي يسمعون فيه الكلام الطيب ، (ويلقون فيها تحية وسلاما (٦)) ، لا كما يهان أهل النار بالكلام الذي يُرَوَّعون به ويقرعون به ، يقال لهم : (ذوقوا عذاب الحريق) .

وقوله : (وهدوا إلى صراط الحميد) ، أي : إلى المكان الذي يحمدون فيه ربهم ، على ما أحسن إليهم وأنعم به وأسداه إليهم ، كما جاء في الصحيح : إنهم يلهمون التسبيح والتحميد ، كما يلهمون النَّفَس (٧) .

وقد قال بعض المفسرين في قوله : (وهدوا إلى الطيب من القول) ، أي : القرآن : وقيل : لا إله إلا الله : وقيل : الأذكار المشروعة ، (وهدوا إلى صراط الحميد) ، أي : الطريق المستقيم في الدنيا : وكل هذا لا ينافي ما ذكرناه ، والله أعلم .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥)

يقول تعالى منكراً على الكفار في صدّهم المؤمنين عن إتيان المسجد الحرام ، وقضاء مناسكهم فيه ، ودعواهم أنهم أولياؤه (وما كانوا أولياءه ، إن أولياؤه إلا المتقون ، ولكن أكثرهم لا يعلمون (٨)) .

---

(١) سورة الإنسان ، آية : ٢١ ، ٢٢ .

(٢) أخرجاه في كتاب اللباس ، ينظر مسلم : ٦/١٣٧ ، ١٤٣ ، والبخاري ، باب « لبس الحرير وافتراشه للرجال وقدر ما يجوز منه » : ٧/١٩٣ ، ١٩٤ .

(٣) سورة إبراهيم ، آية : ٢٣ .

(٤) سورة الرعد ، آية : ٢٣ ، ٢٤ .

(٥) سورة الواقعة ، آية : ٢٥ ، ٢٦ .

(٦) سورة الفرقان ، آية : ٧٥ .

(٧) مسلم ، كتاب الجنة ، « باب في صفات الجنة وأهلها وتسبيحهم فيها بكرة وعشيا » : ٨/١٤٧ . ومسند الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله : ٣/٣٤٩ ، ٣٥٤ ، ٣٨٤ .

(٨) سورة الأنفال ، آية : ٣٤ .

وفي هذه الآية دليل أنها مدنية ، كما قال في « سورة البقرة » : (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل : قتال فيه كبير ، وصدّ عن سبيل الله ، وكفرٌ به والمسجد الحرام ، وإخراجُ أهله منه أكبر عند الله (١)) ، وقال هاهنا : (إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام) ، أي : ومن صفتهم مع كفرهم أنهم يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام ، أي : ويصدون عن المسجد الحرام من أراده من المؤمنين الذين هم أحق الناس به في نفس الأمر ، وهذا التركيب في هذه الآية كقوله تعالى : (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب (٢)) أي : ومن صفتهم أنهم تطمئن قلوبهم بذكر الله .

وقوله : (الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد) [أي ، يمنعون الناس عن الوصول إلى المسجد الحرام ، وقد جعله الله شرعا سواء ، لا فرق فيه بين المقيم فيه والنائي عنه البعيد الدار منه ، (سواء العاكف فيه والباد)] ومن ذلك استواء الناس في رباع مكة وسكناها ، كما قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في قوله : (سواء العاكف فيه والباد) ، قال : ينزل أهل مكة وغيرهم في المسجد الحرام (٣) .

وقال مجاهد : (سواء العاكف فيه والباد)، أهل مكة وغيرهم فيه سواء في المنازل . وكذا قال أبو صالح ، وعبد الرحمن بن سابط ، وعبد الرحمن بن زيد .

وقال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة : (سواء فيه أهله وغير أهله) .

وهذه المسألة اختلف فيها الشافعي وإسحاق بن راهَوَيه بمسجد الخيف (٤) ، وأحمد بن حنبل حاضر أيضاً ، فذهب الشافعي رحمه الله إلى أن رباع مكة تملك وتورث وتؤجر ، واحتج بحديث الزهري ، عن علي بن الحُسَين ، عن عمرو ابن عثمان ، عن أسامة بن زيد قال : قلت : يا رسول الله ، أتنزل غداً في دارك بمكة ؟ فقال : وهل ترك لنا عقيل من رباع (٥) ؛ ثم قال : لا يرث الكافر المسلم ، ولا المسلم الكافر . وهذا الحديث مُخَرَّج في الصحيحين (٦) [وبما (٧) ثبت أن عمر بن الخطاب اشترى من صفوان بن أمية دارا بمكة ، فجعلها سجنا بأربعة آلاف درهم ؛ وبه قال طاوس ، وعمرو بن دينار .

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٢١٧ .

(٢) سورة الرعد ، آية : ٢٨ .

(٣) تفسير الطبري : ١٧/١٠٢ .

(٤) الخيف ــ بفتح فسكون ــ : ما انحدر من غلظ الجبل وارتفع من مسيل الماء ، ومنه سمي مسجد الخيف من منى (ياقوت) .

(٥) بعده في البخاري : « أو دور . وكان عقيل ورث أبا طالب هو وطالب ، ولم يرثه جعفر ولا علي ــ رضي الله عنهما ــ شيئاً ؛ لأنهما كانا مسلمين ، وكان عقيل وطالب كافرين ، فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : لا يرث المؤمن الكافر » . والربع : المنزل ودار الإقامة .

(٦) أخرجاه في كتاب الحج ، انظر البخاري ، باب « توريث دور مكة وبيعها وشرائها » : ٢/١٨١ ، ومسلم ، باب « النزول بمكة للحاج وتوريث دورها » : ٤/١٠٨ . وأخرجه ابن ماجه في كتاب الفرائض ، باب « ميراث أهل الإسلام من أهل الشرك » ، الحديث ٢٧٣٠ : ٢/٩١٣ . وفيه بعد قول عمر المتقدم : « وقال أسامة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يرث المسلم الكافر ، ولا الكافر المسلم » .

(٧) من هنا إلى قوله : « وما تدعى رباع مكة إلا » . اضطرب النص في مخطوطة الأزهر ، والمثبت من الطبعات السابقة .

وذهب إسحاق بن راهويه إلى أنها لا تورث ولا تؤجر ، وهو مذهب طائفة من السلف ، ونص عليه مجاهد وعطاء ، واحتج إسحاق بن راهويه بما رواه ابن ماجه ، عن أبي بكر بن أبي شيبة ، عن عيسى بن يونس ، عن عمر بن سعيد ابن أبي حسين ، عن عثمان بن أبي سليمان ، عن علقمة بن نضلة قال : تُوُفّي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر ، وما تدعى رباع مكة إلا] السوائبَ (١) ، من احتاج سكن ، ومن استغنى أسكن (٢) .

وقال عبد الرزاق عن ابن مجاهد ، عن أبيه ، عن عبد الله بن عمرو أنه قال : لا يحل بيع دور مكة ولا كراؤها .

وقال أيضا عن ابن جريج : كان عطاء ينهى عن الكراء في الحرم ، وأخبرني أن عمر بن الخطاب كان ينهى أن تُبوّب دور مكة ، لأن ينزل الحاج في عرَصاتها ، فكان أول من بوّب داره سُهَيل بن عمرو ، فأرسل إليه عمر بن الخطاب في ذلك ، فقال : أنظرني يا أمير المؤمنين ، إني كنت امرأ تاجرا ، فأردت أن أتخذ بابين يحبسان لي ظهري(٣) قال : فذلك إذاً .

وقال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن منصور ، عن مجاهد : أن عمر بن الخطاب قال : يا أهل مكة ، لا تتخذوا لدوركم أبوابا لينزل البادي حيث يشاء .

[قال : وأخبرنا معمر ، عمن سمع عطاء يقول : (سواء العاكف فيه والباد) ، قال : ينزلون حيث شاءوا .

وروى الدارقطني من حديث ابن أبي نجيح ، عن عبد الله بن عمرو موقوفا : من أكل كراء بيوت مكة أكل نارا] .

وتوسط الإمام أحمد فقال : تملك وتورث ولا تؤجر ، جمعا بين الأدلة ، والله أعلم .

وقوله : (ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) ، قال بعض المفسرين من أهل العربية : الباء هاهنا زائدة ، كقوله : (تُنبِتُ بالدهن (٤)) ، أي : تُنْبِتُ الدهن وكذا قوله (ومن يرد فيه بإلحاد) تقديره إلحاداً وكما قال الأعشى (٥) :

ضَمِنَتْ برزق عيالنا أرْماحُنا * بين المَراجِل ، والصَّريحَ الأجْرَدا (٦)

---

(١) سيب الشيء ــ بتشديد الياء ــ : تركه . والسوائب : جمع سائبة ، كأنها سيبت وتركت لله عز وجل .

(٢) سنن ابن ماجه ، كتاب المناسك ، باب « أجر بيوت مكة » ، الحديث ٣١٠٧ : ٢/١٠٣٧ .

(٣) الظهر ــ بفتح فسكون ــ : الإبل التي يحمل عليها وتركب ، يقال : عند فلان ظهر ، أي : إبل .

(٤) سورة المؤمنون ، آية : ٢٠ . وقد قرأ الجمهور « تنبت » ، بفتح التاء وضم الباء . والباء حينئذ باء الحال ، أي : تنبت مصحوبة بالدهن ، أي : ومعها الدهن . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وآخرون (تُنبت) ، بضم التاء وكسر الباء ــ وهذا موطن الشاهد، فقيل (بالدهن) مفعول ، والباء زائدة ، والتقدير : تنبت الدهن . ينظر البحر المحيط لأبي حيان : ٦/٤٠١ .

(٥) البيت في ديوانه طبعة بيروت : ٥٧ ، وتفسير الطبري : ١٦/١٠٣ ، وشرح القصائد السبع للأنباري : ٤٦٠ ، ولسان العرب (جرد) . ورواية الديوان :

ضمنت لنا أعجازهن قدورنا * وضروعهن لنا الصريح الأجردا

(٦) قال الأنباري : « أراد : ضمنت رزق عيالنا . ولبن أجرد : لا رغوة له . وفي شرح القصائد السبع : والمسان : « ملء المراجل » . والمراجل : جمع مرجل ــ بكسر فسكون ــ وهو : القدر .

وقال الآخر (١) :

بِوَادٍ يَمَانٍ يُنْبِتُ الشَّثَّ صَدْرُهُ ۝ وَأَسْفَلُهُ بِالمَرْخِ والشَّبَهَانِ (٢)

والأجود أنه ضمن الفعل هاهنا معنى (يهم) ، ولهذا عداه بالباء ، فقال : (ومن يرد فيه بإلحاد) ، أي : يَهُمّ فيه بأمر فظيع من المعاصي الكبار .

وقوله : (بظلم) ، أي : عامدا قاصدا أنه ظلم ليس بمتأول ، كما قال ابن [جريج] ، عن ابن عباس : هو [التعمد (٣)] .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (بظلم) : بشرك .

وقال مجاهد : أن يعبد فيه غير الله . وكذا قال قتادة ، وغير واحد .

وقال العَوفي ، عن ابن عباس : (بظلم) هو أن تَستحِلّ من الحرام ما حَرّم الله عليك من لسان (٤) أو قتل ، فتظلم من لا يظلمك ، وتقتل من لا يقتلك ، فإذا فَعَل ذلك فقد وَجَب العذاب الأليم .

وقال مجاهد : (بظلم) ، يعمل فيه عملا [سيئا] .

وهذا من خصوصية الحرم أنه يعاقَب البادي فيه الشر ، إذا كان عازماً عليه ، وإن لم يوقعه ، كما قال ابن أبي حاتم في تفسيره :

حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا يزيد بن هارون ، أنبأنا شعبة ، عن السّدّي : أنه سمع مُرّة يحدث عن عبد الله — يعني ابن مسعود — في قوله : (ومن يرد فيه بإلحاد بظلم) ، قال : لو أن رَجُلا أراد فيه بإلحاد بظلم ، وهو بعدن أبيَنَ (٥) ، أذاقه الله من العذاب الأليم .

قال شعبة : هو رفعه لنا ، وأنا لا أرفعه لكم . قال يزيد : هو قد رفعه . ورواه أحمد ، عن يزيد بن هارون ، به (٦)

[قلت : هذا الإسناد] صحيح على شرط البخاري ، ووقفه أشبه من رفعه ، ولهذا صَمّم شعبة على وَقْفه من كلام ابن مسعود . وكذلك رواه أسباط ، وسفيان الثوري ، عن السدي ، عن مُرّة ، عن ابن مسعود موقوفا (٧) ، والله أعلم .

---

(١) البيت في تفسير الطبري : ١٧/١٠٣ ، واللسان (شثث) غير منسوب . وفي اللسان (شبه) ومنسوباً إلى رجل من عبد القيس ويقول ابن منظور : « قال ابن بري : قال أبو عبيدة : البيت للأحول اليشكري ، واسمه يعلى ؛ قال : وتقديره : وينبت أسفله المرخ ، على أن تكون الباء زائدة » .

(٢) الشث — بفتح الشين — : ضرب من الشجر . وقيل : شجر طيب الريح مر الطعم ، يدبغ به . والمرخ — بفتح فسكون — شجر النار : والشبهان — بفتح الشين والباء ، وبضمهما — : ما عظم من شجر الشوك .

(٣) ما بين الأقواس من الطبعات السابقة . وانظر الأثر في تفسير الطبري : ١٧/١٠٤ .

(٤) يعني باللسان : الغيبة وتناول الأعراض . وانظر الأثر في تفسير الطبري ١٧/١٠٤ .

(٥) أبين : أبعد .

(٦) مسند الإمام أحمد : ١/٤٢٨ .

(٧) في مخطوطة الأزهر : « عن ابن مسعود مرفوعاً » . والمثبت من الطبعات السابقة .

وقال الثورى ، عن السدى ، عن مرة ، عن عبد الله قال : مامن رجل يهم بسيئة فتكتب عليه ، ولو أن رجلا بعدن أبينَ همّ [أن يقتل (١)] رجلا بهذا البيت ، لأذاقه الله من العذاب الأليم (٢) . وكذا قال الضحاك بن مزاحم .

وقال سفيان ، عن منصور ، عن مجاهد « إلحاد فيه » : لا والله ، وبلى والله (٣) . وروى عن مجاهد ، عن عبد الله ابن عمرو ، مثله .

وقال سعيد بن جُبَير : شتم الخادم ظلم فما فوقه .

وقال سفيان الثورى ، عن عبد الله بن عطاء ، عن ميمون بن مهران ، عن ابن عباس فى قوله : (ومن يرد فيه بإلحاد بظلم) ، قال : تجارة الأمير فيه .

وعن ابن عمر : بيع الطعام إلحاد .

وقال حبيب بن أبى ثابت : (ومن يرد فيه بإلحاد بظلم) ، قال : المحتكر بمكة . وكذا قال غير واحد .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبد الله بن إسحاق الجوهرى ، أنبأنا أبو عاصم ، عن جعفر بن يحيى ، عن عمه عمارة بن ثوبان ، حدثنى موسى بن باذان ، عن يعلى بن أمية : أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : احتكار الطعام بمكة إلحاد .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير ، حدثنا ابن لَهيعة ، حدثنى عطاء بن دينار ، حدثنى سعيد بن جبير قال : قال ابن عباس فى قول الله : (ومن يرد فيه بإلحاد بظلم) ، قال : نزلت فى عبد الله ابن أنيس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه مع رجلين ، أحدهما مهاجر والآخر من الأنصار ، فافتخروا فى الأنساب ، فغضب عبد الله بن أنيس ، فقتل الأنصارىّ ثم ارتد عن الإسلام ، وهَرَب إلى مكة ، فنزلت فيه : (ومن يرد فيه بإلحاد بظلم) ، يعنى من لجأ إلى الحرم بإلحاد يعنى بميل عن الإسلام .

وهذه الآثار ، وإن دلت على أن هذه الأشياء من الإلحاد ، ولكنْ هُو أعم من ذلك ، بل فيها تنبيه على ماهو أغلظ منها ، ولهذا لما هم أصحاب الفيل على تخريب البيت أرسل الله عليهم طيراً أبابيل : (ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول (٤)) ، أى : دمَّرهم وجعلهم عبرة ونكالا لكل من أراده بسوء . ولذلك ثبت فى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يغزو هذا البيتَ جيش ، حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض خُسِف بأولهم وآخرهم (٥) » ... الحديث .

---

(١) ما بين القوسين عن الطبرى والطبعات السابقة . ومكانه فى المخطوطة : « أرسل » .

(٢) تفسير الطبرى : ١٧/١٠٤ .

(٣) أى : أن يحلف المرء : « لا والله » و« بلى والله » ، ونحو هذا مما يعد لغواً فى غير المسجد الحرام ؛ يقول الطبرى ١٧/١٠٥ : « وقال آخرون : بل ذلك كل ما كان منهياً عنه من الفعل حتى قول : لا والله ، وبلى والله » .

(٤) سورة الفيل ، الآيات : ٤ ، ٥ .

(٥) مسلم ، كتاب الفتن ، باب « الخسف بالجيش الذى يؤم البيت » : ٨/١٦٧ ، والبخارى ، كتاب البيوع ، باب « ما ذكر فى الأسواق » : ٣/٨٦ .

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن كُناسة، حدثنا إسحاق بن سعيد، عن أبيه قال: أتى عبدُ الله بن عمر عبدَ الله ابن الزبير، فقال: يا ابن الزبير، إياك والإلحاد فى حرَم الله، فإنى سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول. «إنه سيُلحدُ فيه رجل من قريش، لو تُوزَن (١) ذنوبه بذنوب الثقلين لرجحت، فانظر لا تكن هو (٢)».

وقال أيضا: حدثنا هاشم، حدثنا إسحاق بن سعيد، حدثنا سعيد بن عمرو قال: أتى عبد الله بن عمرو ابنَ الزبير، وهو جالس فى الحجْر فقال: يا ابن الزبير، إياك والإلحادَ فى الحرم، فإنى أشهد لَسمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم [يقول]: يحلها ويحل به رجل من قريش، لو وُزنت ذنوبه بذنوب الثقلين لوزنتها: قال: فانظر لا تكن هو (٣).

ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب من هذين الوجهين.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧)﴾

هذا فيه تقريع وتوبيخ لمن [عبد] غير الله، وأشرك به من قريش، فى البقعة التى أُسِّستْ من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لاشريك له، فذكر تعالى أنه بوّأ إبراهيم مكانَ البيت، أى: أرشده إليه، وسلمه له، وأذن له فى بنائه.

واستدل به كثير ممن قال: «إن إبراهيم عليه السلام هو أول من بنى البيت العتيق، وأنه لم يبن قبله»، كما ثبت فى الصحيح عن أبى ذر قلت: يارسول الله، أى مسجد وُضعَ أولُ؟ قال: المسجد الحرام. قلت: ثم أىّ؟ قال: بيت المقدس. قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة (٤).

وقد قال الله تعالى: (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين. فيه آيات بينات مقام إبراهيم (٥)) ... الآية، وقال تعالى: (وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود) (٦).

وقد قدمنا ذكر ما ورد فى بناء البيت من الصحاح والآثار، بما أغنى عن إعادته هاهنا (٧).

وقال تعالى هاهنا: (أن لاتشرك بى شيئا)، أى: ابنه على اسمى وحدى، (وطهر بيتى) قال مجاهد وقتادة: من الشرك، (للطائفين والقائمين والركع السجود)، أى: اجعله خالصا لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لاشريك له،

---

(١) لفظ المسند: «لو وزنت».
(٢) مسند الإمام أحمد: ٢/١٣٦.
(٣) مسند الإمام أحمد: ٢/٢١٩.
(٤) تقدم الحديث فى سورة آل عمران عند الآية ٩٦: ٢/٦٣، وخرجناه هنالك.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ٩٦، ٩٧.
(٦) سورة البقرة، آية: ١٢٥.
(٧) انظر: ١/٢٤٢ - ٢٤٧، ٢/٩٣، ٩٤.

فالطائف به معروف ، وهو أخص العبادات عند البيت ، فإنه لايفعل ببقعة من الأرض سواها ، (والقائمين) ، أى : فى الصلاة ، ولهذا قال : (والركع السجود) ، فقرن الطواف بالصلاة ، لأنهما لايشرعان إلا مختصين بالبيت ، فالطواف عنده ، والصلاة إليه فى غالب الأحوال ، إلا مااستثنى من الصلاة عند اشتباه القبلة وفى الحرب ، وفى النافلة فى السفر ، والله أعلم .

وقوله : (وأذن فى الناس بالحج) ، أى : ناد فى الناس داعيا لهم إلى الحج إلى هذا البيت الذى أمرناك ببنائه فَذُكِرَ أنه قال : يارب ، وكيف أبلغ الناس وصوتى لاينفذهم ؟ فقيلَ : ناد وعلينا البلاغ . فقام على مقامه ، وقيل : على الحجر ، وقيل : على الصفا ، وقيل : على أبى قُبَيْس ، وقال : ياأيهاالناس ، إن ربكم قد اتخذ بيتا فحجوه ، فيقال : إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض ، وأسمعَ مَنْ فى الأرحام والأصلاب ، وأجابه كلّ شىء سمعه من حَجَر ومدر وشجر ، [ومن] كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة : « لبيك اللهم لبيك » .

هذا مضمون ماروى عن ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جُبَيْر ، وغير واحد من السلف والله أعلم ، أوردها ابن جَرير [1] ، وابن أبى حاتم مُطَوّلة .

وقوله : (يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق) ، قد يَستدلّ بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الحج ماشيا ، لمن قدر عليه ، أفضلُ من الحج راكبا ، لأنه قدمهم فى الذكر ، فدل على الاهتمام بهم وقوة هممهم وشدة عزمهم والذى عليه الأكثرون أن الحج راكبا أفضلُ ؛ اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه حج راكبا مع كمال قوته عليه السلام .

وقوله : (يأتين من كل فج) ، يعنى طريق ، كما قال : (وجعلنا فيها فجاجا سبلا [2]) .

وقوله : (عميق) ، أى : بعيد . قاله مجاهد ، وعطاء ، والسدى ، وقتادة ، ومقاتل بن حَيّان ، والثورى ، وغير واحد .

وهذه الآية كقوله تعالى إخبارا عن إبراهيم ، حيث قال فى دعائه : (فاجعل أفئدة من الناس تَهوى [3] إليهم) ، فليس أحد من أهل الإسلام إلا وهو يَحِنّ إلى رؤية الكعبة والطواف ، فالناس يقصدونها من سائر الجهات والأقطار .

لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾

قال ابن عباس : (ليشهدوا منافع لهم) ، قال : منافع الدنيا والآخرة ؛ أما منافع الآخرة فرضوان الله ، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البُدْن والربح والتجارات . وكذا قال مجاهد ، وغير واحد : إنها منافع الدنيا والآخرة ، كقوله : (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من [4] ربكم) .

---

(١) انظر تفسير الطبرى : ١٧/١٠٦ — ١٠٧ .
(٢) سورة الأنبيــاء ، آية : ٣١ .
(٣) سورة إبراهيم ، آية : ٣٧ .
(٤) سورة البقرة ، آية : ١٩٨ .

وقوله : (ويذكروا اسم الله [فى أيام معلومات] على مارزقهم من بهيمة الأنعام) ، قال شعبة [وهشيم] عن [أبى بشر عن سعيد] عن ابن عباس : « الأيام المعلومات أيام العشر » ، وعلقه البخارى عنه بصيغة الجزم به ، ويروى مثله عن أبى موسى الأشعرى ، ومجاهد ، ، وعطاء ، وسعيد بن جبير ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك ، وعطاء الخراسانى ، وإبراهيم النخعى ، وهو مذهب الشافعى ، والمشهور عن أحمد بن حنبل .

وقال البخارى : حدثنا محمد بن عرْعرة ، حدثنا شعبة ، عن سليمان ، عن مسلم البطين ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ماالعمل فى أيام أفضلَ منها فى هذه ، قالوا : ولا الجهادُ فى سبيل الله ؟ قال : ولا الجهاد فى سبيل الله ، إلا رجل ، يخرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع [بشىء [(١)]]

ورواه الإمام أحمد ، وأبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه ، وقال الترمذى : « حديث حسن غريب صحيح » وفى الباب عن ابن عمر ، وأبى هريرة ، وعبد الله بن عمرو ، وجابر [(٢)] » .

قلت : وقد تقصيت هذه الطرق ، وأفردت لها جزءاً على حدته ، فمن ذلك ماقال الإمام أحمد :

حدثنا عفّان ، أنبأنا أبو عوانة ، عن يزيد بن أبى زياد ، عن مجاهد ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مامن أيام أعظَم عند الله ولا أحبّ إليه العملُ فيهن ، من هذه الأيام العشر ، فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميد [(٣)] ، وروى من وجه آخر ، عن مجاهد ، عن ابن عمر ، بنحوه [(٣)] .

وقال البخارى : وكان ابن عمر ، وأبو هريرة يخرجان إلى السوق فى أيام العشر ، فيكبران ويكبر الناس بتكبيرهما [(٤)]

وقد روى أحمد عن جابر مرفوعا : أن هذا هو العشْر الذى أقسم الله به فى قوله : (والفجر ، وليال عشر) .

وقال بعض السلف : إنه المراد بقوله : (وأتممناها [(٥)] بعشر) .

وفى سنن أبى داود : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصوم هذا العشر [(٦)] .

وهذا العشر مشتمل على يوم عرفة الذى ثبت فى صحيح مسلم عن أبى قتادة قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صيام يوم عرفة ، فقال : أحتسب على الله أن يكفر السنة الماضية والآتية [(٧)] .

ويشتمل على يوم النحر الذى هو يوم الحج الأكبر ، وقد ورد فى حديث أنه أفضل الأيام عند الله [(٨)] .

---

(١) البخارى ، كتاب العيدين ، باب « فضل العمل فى أيام التشريق » : ٢/ ٢٤ ، ٢٥ .

(٢) تحفة الأحوذى ، أبواب الصوم ، باب « ما جاء فى العمل فى أيام التشريق » ، الحديث ٧٥٤ : ٣/ ٤٦٣ ، ٤٦٤ . وابن ماجه ، كتاب الصوم ، باب « صيام العشر » ، الحديث ١٧٢٧ : ١/ ٥٥٠ . وسنن أبى داود ، كتاب الصوم ، باب « فى صوم العشر » ، الحديث ٢٤٣٨ : ٢/ ٣٢٥ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٢/ ٧٥ ، ١٣١ ، ١٣٢ .

(٤) البخارى ، كتاب العيدين ، باب « فضل العمل فى أيام التشريق » : ٢/ ٢٤ .

(٥) سورة الأعراف ، آية : ١٤٢ .

(٦) سنن أبى داود ، كتاب الصوم ، باب « فى صوم العشر » ، الحديث ٢٤٣٧ : ٢/ ٣٢٥

(٧) مسلم ، كتاب الصيام ، باب « استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر ، صوم يوم عرفة ... » : ٣/ ١٦٧ .

(٨) مسند الإمام أحمد عن عبد الله بن قرط : ٤/ ٣٥٠ .

وبالجملة فهذا العشر قد قيل : إنه أفضل أيام السنة ، كما نطق به الحديث ، ففضله كثير على عشر رمضان الأخير ، لأن هذا يشرع فيه ما يشرع فى ذلك ، من صيام وصلاة وصدقة وغيره ، ويمتاز هذا باختصاصه بأداء فرض الحج فيه ،

وقيل : ذاك أفضل لاشتماله على ليلة القدر ، التى هى خير من ألف شهر .

وتوسط آخرون فقالوا : أيام هذا أفضل ، وليالى ذاك أفضل . وبهذا يجتمع شمل الأدلة ، والله أعلم .

قول ثان فى الأيام المعلومات ، قال الحكم ، عن مقسم ، عن ابن عباس : الأيام المعلومات : يوم النحر وثلاثة أيام بعده . ويروى هذا عن ابن عمر ، وإبراهيم النخعى ، وإليه ذهب أحمد بن حنبل فى رواية عنه .

قول ثالث ، قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا على بن المدينى ، حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا ابن عجلان ، حدثنى نافع : أن ابن عمر كان يقول : الأيام المعلومات والمعدودات هن جميعهن أربعة أيام ، فالأيام المعلومات يوم النحر ويومان بعده ، والأيام المعدودات ثلاثة أيام بعد يوم النحر .

هذا إسناد صحيح إليه ، وقاله السدى : وهو مذهب الإمام مالك بن أنس ، ويعضد هذا القولَ والذى قبله قولُه تعالى : (على ما رزقهم من بهيمة الأنعام) ، يعنى به ذكر الله عند ذبحها .

قول رابع : إنها يوم عرفة ، ويوم النحر ، ويوم آخر بعده : وهو مذهب أبى حنيفة .

وقال ابن وهب : حدثنى ابن زيد بن أسلم ، عن أبيه أنه قال : المعلومات يوم عرَفة ، ويوم النحر ، وأيام التشريق .

وقوله : (على ما رزقهم من بهيمة الأنعام) ، يعنى الإبل والبقر والغنم ، كما فصَّلها تعالى فى سورة الأنعام وأنها (ثمانية[1] أزواج) الآية .

وقوله : (فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير) ، استدل بهذه الآية مَن ذهب إلى وجوب الأكل من الأضاحى وهو قول غريب ، والذى عليه الأكثرون أنه من باب الرخصة أو الاستحباب ، كما ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نحر هديه أمر من كل بدنه ببَضْعة[2] فتطبخ ، فأكل من لحمها ، وحسا من مرَقها [3]

وقال عبد الله بن وهب : [قال لى مالك : أحبّ أن يأكلَ من أضحيته ، لأن الله يقول (فكلوا منها) ، قال ابن وهب] : وسألت الليث ، فقال لى مثل ذلك .

وقال سفيان الثورى ، عن منصور ، عن إبراهيم : (فكلوا منها) ، قال : كان المشركون لا يأكلون من ذبائحهم ، فرخّص للمسلمين ، فمن شاء أكل ، ومن شاء لم يأكل . وروى عن مجاهد ، وعطاء ، نحو ذلك .

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : ١٤٣ .

(٢) أى : قطعة .

(٣) مسلم ، كتاب الحج ، باب « حجة النبى صلى الله عليه وسلم » : ٤٢/٤ . وسنن أبى داود ، كتاب المناسك ، باب « صفة حجة النبى صلى الله عليه وسلم » الحديث ١٩٠٥ : ١٨٦/٢ . وتحفة الأحوذى ، أبواب الحج ، باب « ما جاء : كم حج النبى صلى الله عليه وسلم » ، الحديث ٨١٢ : ٥٤٥/٣ . وابن ماجه ، كتاب المناسك ، باب حجة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الحديث ٣٠٧٤ : ١٠٢٦/٢ وكتاب الأضاحى ، باب « الأكل من لحوم الضحايا » ، الحديث ٣١٥٨ : ١٠٥٥/٢ .

قال هشيم ، عن حصين ، عن مجاهد فى قوله (فكلوا منها) : هى كقوله : (فإذا حللتم فاصطادوا) ، (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض[١]) .

وهذا اختيار ابن جرير فى تفسيره ، واستدل من نصر القول بأن الأضاحى يتصدق منها بالنصف بقوله فى هذه الآية (فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير) ، فجزأها نصفين : نصف للمضحى ، ونصف للفقراء ؛

والقول الآخر أنها تجزأ ثلاثة أجزاء ، ثلث له ، وثلث يهديه ، وثلث يتصدق به ، لقوله فى الآية الأخرى : (فكلوا منها وأطعموا القانع[٢] والمعتر) . وسيأتى الكلام عليها عندها ، إن شاء الله ، وبه الثقة ؛

وقوله : (البائس الفقير) ، قال عكرمة : هو المضطر الذى عليه البؤس ، [والفقير] : المتعفف ؛

وقال مجاهد : هو الذى لايبسط يده . وقال قتادة : هو الزَّمِنُ[٣] . وقال مقاتل بن حيّان : هو الضرير ؛

وقوله : (ثم ليقضوا تفثهم) ، قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : هو وضع [الإحرام] ، من حلق الرأس ولبس الثياب وقص الأظفار ، ونحو ذلك[٤] ؛ وهكذا روى عطاء ومجاهد ، عنه ؛ وكذا قال عكرمة ، ومحمد بن كعب القرظى .

وقال عكرمة ، عن ابن عباس : (ثم ليقضوا تفثهم) ، قال : التفث : المناسك ؛

وقوله : (وليوفوا نذورهم) ، قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : يعنى نحر مانذر من أمر البُدْن ؛

وقال ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : (وليوفوا نذورهم) : نذر الحج والهدى وما نذر الإنسان من شىء يكون فى الحج ؛

[وقال] إبراهيم بن ميسرة ، عن مجاهد : (وليوفوا نذورهم) ، قال : الذبائح ؛

وقال ليث بن أبى سليم ، عن مجاهد : (وليوفوا نذورهم) : كل نذر إلى أجل ؛

وقال عكرمة : (وليوفوا نذورهم) ، قال : نذر الحج ، فكل من دخل الحج فعليه من العمل فيه : الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة ، وعرفة ، والمزدلفة ، ورمى الجمار ، على ماأمروا به ؛ ورُوى عن مالك نحو هذا ؛

وقوله : (وليطوفوا بالبيت العتيق) ، قال مجاهد : يعنى الطواف الواجب يوم النحر ؛

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا حماد ، عن أبى حمزة قال : قال لى ابن عباس أتقرأ سورة الحج ؟ يقول الله : (وليطوفوا بالبيت العتيق) ، فإن آخر المناسك الطواف بالبيت ؛

قلت : وهكذا صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه لما رجع إلى منى يوم النحر بدأ برمى الجمرة ، فرماها بسبع حصيات ، ثم نحر هديه ، وحلق رأسه ، ثم أفاض فطاف بالبيت ؛ وفى الصحيح عن ابن عباس أنه قال : أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت الطواف[٥] ، إلا أنه خفف عن المرأة الحائض ؛

---

(١) تفسير الطبرى : ١٧/١٠٩ .

(٢) سورة الحج ، آية : ٣٦ .

(٣) الزمن : هو المصاب بآفة لازمة .

(٤) تفسير الطبرى : ١٧/١١٠ .

(٥) سنن أبى داود ، كتاب المناسك ، باب « الوداع » ، الحديث ٢٠٠٢ : ٢/٢٠٨ . والموطأ ، كتاب الحج ، باب « وداع البيت » ، الحديث ١٢٢ : ١/٣٧٠ . ومسند الإمام أحمد : ٣/٤١٦ ، ٤١٧ ، ٦/٤٣١ .

وقوله : (بالبيت العتيق) ، فيه مستدل لمن ذهب إلى أنه يجب الطواف من وراء الحجر ، لأنه من أصل البيت الذى بناه إبراهيم ، وإن كانت قريش قد أخرجوه من البيت ، حين قصرت بهم النفقة ؛ ولهذا طاف رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء الحجر ، وأخبر أن الحجر من البيت ، ولم يستلم الركنين الشاميين ، لأنهما لم يتمما على قواعد إبراهيم العتيقة ، ولهذا قال ابن أبي حاتم :

حدثنا أبى ، حدثنا [ابن] أبى عمر العدنى ، حدثنا سفيان ، عن هشام بن حجير ، عن رجل ، عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية : (وليطوفوا بالبيت العتيق) ، طاف رسول الله صلى الله عليه وسلم من ورائه .

وقال قتادة ، عن الحسن البصرى فى قوله : (وليطوفوا بالبيت العتيق) : لأنه أول بيت وضع للناس . وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

وعن عكرمة أنه قال : إنما سمى البيت العتيق ، لأنه أعتق يوم الغرق زمان نوح .

وقال خصيف : إنما سمى البيت العتيق ، لأنه لم يظهر عليه جبار قط .

وقال ابن أبى نجيح وليث عن مجاهد : أعتق من الجبابرة أن يسلطوا عليه . وكذا قال قتادة .

وقال حماد بن سلمة ، عن حميد ، عن الحسن بن مسلم ، عن مجاهد : لأنه لم يرده أحد بسوء إلا هلك .

وقال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الزهرى عن [ابن] الزبير قال : إنما سمى البيت العتيق لأن الله أعتقه من الجبابرة .

وقال الترمذى : حدثنا محمد بن إسماعيل وغير واحد ، حدثنا عبد الله بن صالح ، أخبرنى الليث ، عن عبد الرحمن ابن خالد ، عن ابن شهاب ، عن محمد بن عروة ، عن عبد الله بن الزبير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما سمى البيت العتيق ، لأنه لم يظهر عليه جبار (١) .

وكذا رواه ابن جرير ، عن محمد بن سهل النجارى ، عن عبد الله بن صالح ، به . وقال : إن كان صحيحا (٢) وقال الترمذى : « هذا حديث حسن غريب » ، ثم رواه من وجه آخر عن الزهرى ، مرسلا .

ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾

يقول تعالى : هذا الذى أمرنا به من الطاعات فى أداء المناسك ، وما لفاعلها من الثواب الجزيل .

(ومن يعظم حرمات الله) ، أى : ومن يجتنب معاصيه ومحارمه ويكون ارتكابها عظيما فى نفسه ، (فهو خير له عند ربه) ، أى : فله على ذلك خير كثير وثواب جزيل ، فكما على فعل الطاعات ثواب جزيل وأجر كبير ، كذلك على ترك المحرمات والمحظورات .

---

(١) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة الحج ، الحديث ٣٢١٩ : ١٤/٩ .

(٢) تفسير الطبرى : ١١١/١٧ .

قال ابن جريج : قال مجاهد فى قوله : (ذلك ومن يعظم حرمات الله) ، قال : الحرمة : مكة والحج والعمرة ، وما نهى الله عنه من معاصيه كلها . وكذا قال ابن زيد (١) .

وقوله : (وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم) ، أى : أحللنا لكم جميع الأنعام ، وما جعل الله من بحيرة ، ولا سائبة ، ولا وصيلة ، ولا حام .

وقوله : (إلا ما يتلى عليكم) ، أى : من تحريم الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة ، والمتردية ، والنطيحة وما أكل السبع ... الآية ، قال ذلك ابن جرير ، وحكاه عن قتادة (١) .

وقوله : (فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور) : « من » هاهنا لبيان الجنس ، أى : اجتنبوا الرجس الذى هو الأوثان . وقرن الشرك بالله بقول الزور ، كقوله ، (قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والإثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله مالا تعلمون(٢)) ، ومنه شهادة الزور . وفى الصحيحين عن أبى بكرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا : بلى ، يا رسول الله . قال : « الإشراك بالله وعقوق الوالدين — وكان متكئا فجلس ، فقال : — ألا وقول الزور ، ألا وشهادة الزور . فما زال يكررها ، حتى قلنا : ليته سكت (٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا مروان بن معاوية الفزارى، أنبأنا سفيان بن زياد ، عن فاتك بن فضالة، عن أيمن ابن خريم قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيباً فقال : يا أيها الناس ، عدلت شهادة الزور إشراكا بالله، ثلاثا ، ثم قرأ : (فاجتنبوا الرجس من الأوثان ، واجتنبوا قول الزور (٤)) .

وهكذا رواه الترمذى ، عن أحمد بن منيع ، عن [مروان] بن معاوية ، به . ثم قال : « غريب ، إنما نعرفه من حديث سفيان بن زياد . وقد اختلف عنه فى رواية هذا الحديث ، ولا نعرف لأيمن بن خريم سماعا من النبى صلى الله عليه وسلم (٥) » .

وقال الإمام أحمد أيضا : حدثنا محمد بن عبيد ، حدثنا سفيان العصفرى ، عن أبيه ، عن حبيب بن النعمان الأسدى ، عن خريم بن فاتك الأسدى قال : صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح ، فلما انصرف قام قائما فقال : عدلت شهادة الزور الإشراك بالله، عز وجل، ثم تلا هذه الآية : (فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور . حنفاء لله غير مشركين به (٦)) .

وقال سفيان الثورى ، عن عاصم بن أبى النجود ، عن وائل بن ربيعة ، عن ابن مسعود أنه قال : تعدل شهادة الزور بالشرك بالله ، ثم قرأ هذه الآية (٧) .

---

(١) تفسير الطبرى : ١١٢/١٧ .
(٢) سورة الأعراف ، آية : ٣٣ .
(٣) البخارى ، كتاب استتابة المرتدين : ١٧/٩ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « بيان الكبائر وأكبرها » : ٩٤/١ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ١٧٨/٤ ، ٢٣٣ .
(٥) تحفة الأحوذى ، أبواب الشهادات ، الحديث ٢٤٠٢ : ٥٨٥/٦ — ٥٨٦ .
(٦) مسند الإمام أحمد : ٣٢١/٤ .
(٧) تفسير الطبرى : ١١٢/١٧ .

وقوله : (حنفاء لله) ، أي : مخلصين له الدين ، منحرفين عن الباطل قصدا إلى الحق ، ولهذا قال (غير مشركين به) .

ثم ضرب للمشرك مثلا في ضلاله وهلاكه وبعده عن الهدى فقال : (ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء) ، أي : سقط منها ، (فتخطفه الطير) ، أي : تقطعه الطيور في الهواء ، (أو تهوى به الريح في مكان سحيق) ، أي : بعيد مُهلك لمن هوَى فيه ؛ ولهذا جاء في حديث البراء : إن الكافر إذا توفته ملائكة الموت ، وصعدوا بروحه إلى السماء ، فلا تفتح له أبواب السماء ، بل تطرح روحه طرحا من هناك . ثم قرأ هذه الآية ، وقد تقدم الحديث في « سورة إبراهيم[1] » بحروفه وألفاظه وطرقه .

وقد ضرب تعالى للمشرك مثلا آخر في « سورة الأنعام » ، وهو قوله : (قل : أندعو من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ، ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله ، كالذى استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا ، قل : إن هدى الله هو الهدى[2]) ... الآية .

ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾

يقول تعالى : هذا (ومن يعظم شعائر الله) ، أي : أوامره ، (فإنها من تقوى القلوب) . ومن ذلك تعظيم الهدايا والبُدْن ، كما قال الحكم ، عن مقسم ، عن ابن عباس : تعظيمها : استسمانها واستحسانها[3] .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا حفص بن غياث ، عن ابن أبي ليلى ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس : (ذلك ومن يعظم شعائر الله) قال : الاستسمان والاستحسان والاستعظام .

وقال أبو أمامة بن سهل : كنا نسمن الأضحيّة بالمدينة ، وكان المسلمون يسمّنون . رواه البخاري[4] .

وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : دم عفراء أحب إلى الله من دم سوداوين . رواه أحمد[5] ، وابن ماجه .

قالوا : والعفراء هي البيضاء بياضاً ليس بناصع : فالبيضاء أفضل من غيرها ، وغيرها يجزىء أيضا ؛ لما ثبت في صحيح البخاري ، عن أنس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحى بكبشين أملحين أقرنين[6] .

---

(١) انظر تفسير الآية ٢٧ من سورة إبراهيم : ٤/٤١٣ - ٤١٥ .

(٢) سورة الأنعام ، آية : ٧١ .

(٣) تفسير الطبري : ١٧/١١٣ .

(٤) البخاري ، كتاب الأضاحي ، باب « في أضحية النبي صلى الله عليه وسلم » : ٧/١٣٠ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٢/٤١٧ . ولم يقع لنا حديث ابن ماجه

(٦) البخاري ، كتاب الحج ، باب « التحميد والتسبيح والتكبير قبل الإهلال عند الركوب على الدابة » : ٢/١٧٠ - ١٧١ ، وباب « نحر البدن قائمة » : ٢/٢١٠ . ومسلم ، كتاب الأضاحي ، باب « استحباب الضحية وذبحها مباشرة بلا توكيل ، والتسمية والتكبير » : ٦/٧٧ ، ٧٨ .

وعن أبي سعيد : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحى بكبش أقرن فحيل(١) يأكل في سواد ، وينظر في سواد ، ويمشي في سواد .

رواه أهل السنن ، وصححه الترمذي(٢) — أي : بكبش أسود(٣) في هذه الأماكن .

وفي سنن(٤) ابن ماجه ، عن أبي رافع : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحى بكبشين عظيمين سمينين أقرنين أملحين موجوءين ، قيل : هما الخصيان ، وقيل : اللذان رُضّ(٥) خُصياهما ، ولم يقطعهما ، والله أعلم .

وكذا روى أبو داود(٦) وابن ماجه عن جابر : ضحى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكبشين أقرنين أملحين موجوءين .

وعن علي رضي الله عنه قال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نستشرف العين والأذن(٧) ، وأن لا نضحي بمقابَلة ، ولا مدابَرة ، ولا شرقاء ، ولا خرقاء(٨) .

رواه أحمد ، وأهل السنن ، وصححه الترمذي(٩) .

ولهم عنه ، قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نُضحّي بأعضب القرن والأذن(١٠) .

وقال سعيد بن المسيب : العضبُ : النِّصْف فأكثر(١١) .

---

(١) أقرن : ذي قرنين . فحيل : كامل الخلقة لم تقطع أنثياه . ويأكل في سواد : في بطنه سواد . ويمشي في سواد : في رجليه سواد . وينظر في سواد : أي مكحول ، في عينيه سواد .

(٢) سنن أبي داود ، كتاب الأضاحي ، باب « ما يستحب من الضحايا » ، الحديث ٢٧٩٦ : ٩٥/٣ . وابن ماجه ، كتاب الأضاحي ، باب « مايستحب من الأضاحي » ، الحديث ٣١٢٨ : ١٠٤٦/٢ . وتحفة الأحوذي ، أبواب الأضاحي ، باب « ما يستحب من الأضاحي » ، الحديث ١٥٢٩ : ٨٠/٥ . والنسائي ، كتاب الضحايا ، باب « الكبش » ، ٢٢١/٧ .

(٣) في المخطوطة : « وصححه الترمذي ، أبي قتيبة ، بكبش سواد في هذه الأماكن » . ولعل الصواب ما أثبتناه .

(٤) كذا في الطبعات السابقة . وفي المخطوطة : « أي سنن ابن ماجه ، عن أبي رافع » . والحديث أخرجه ابن ماجه عن عائشة وعن أبي هريرة . انظر كتاب الأضاحي ، الحديث ٣١٢٢ : ١٠٤٣/٢ ، ١٠٤٤ . وحديث أبي رافع في المسند : ٣٩١،٨/٦ .

(٥) الرض : الدق .

(٦) سنن أبي داود ، كتاب الأضاحي ، الحديث ٢٧٩٥ : ٩٥/٣ .

(٧) أي : ننظر إليهما ، ونتأمل في سلامتهما من آفة تكون بهما ، كالعور ، والجدع .

(٨) المقابلة — بفتح الباء — : التي قطع من قبل أذنها شيء ، ثم ترك معلقاً من مقدمها . والمدابرة : هي التي قطع من دبر أذنها وترك معلقاً من مؤخرها . والشرقاء : المشقوقة الأذن طولا ، من الشرق وهو : الشق ، ومنه أيام التشريق ، فإن فيها تشرق لحوم القرابين . والخرقاء : المثقوبة الأذن ثقباً مستديراً ، وقيل : الشرقاء ما قطعت أذنها طولا ، والخرقاء ما قطعت أذنها عرضاً .

وانظر في تفسير ذلك أيضاً مسند الإمام أحمد : ١٤٩/١ . وتحفة الأحوذي ، الحديث ١٥٣٣ : ٨٣/٥ .

(٩) مسند الإمام أحمد : ٨٠/١ ، ١٠٨ ، ١٢٨ ، ١٤٩ . وسنن أبي داود وكتاب الأضاحي ، باب ما يكره من الضحايا ، الحديث ٢٨٠٤ : ٩٧/٣ ، ٩٨ . والنسائي ، كتاب الضحايا ، باب « الشرقاء وهي : مشقوقة الأذن » : ٢١٧/٧ . وابن ماجه ، كتاب الأضاحي ، باب « ما يكره أن يضحى به » ، الحديث ٣١٤٢ : ١٠٥٠/٢ . وتحفة الأحوذي ، أبواب الأضاحي ، باب « ما يكره من الأضاحي » ، الحديث ١٥٣٢ : ٨٣/٨٢/٥ .

(١٠) مسند الإمام أحمد : ٨٣/١ ، ١٠٩ ، ١٢٧ . وتحفة الأحوذي ، أبواب الأضاحي ، باب « في الاشتراك في الأضحية » ، الحديث ١٥٤٠ : ٨٩/٥ ، ٩٠ وقال الترمذي : « هذا حديث حسن صحيح » . وسنن أبي داود ، كتاب الأضاحي ، باب « ما يكره من الضحايا » ، الحديث ٢٨٠٥ : ٩٨/٣ . والنسائي ، كتاب الضحايا ، باب « العضباء » ، ٢١٧/٧ ، ٢١٨ . وابن ماجه ، كتاب الأضاحي ، باب « ما يكره أن يضحى به » ، الحديث ٣١٤٥ : ١٠٥١/٢ .

(١١) انظر قول سعيد بن المسيب في مسند الإمام أحمد : ١٢٧/١ ، وسنن أبي داود عند الحديث المتقدم ، وكذلك الترمذي ، والنسائي . وفي النهاية لابن الأثير ، الأعضب القرن ، هو المكسور القرن ، وقد يكون في الأذن أيضاً إلا أنه في القرن أكثر .

وقال بعض أهل اللغة : إن كُسِر قرنها الأعلى فهي قصماء ، فأما العضب فهو كسر الأسفل ، وعضب الأذن قطع بعضها :

وعند الشافعي أن التضحية بذلك مجزئة ، لكن تكره .

وقال أحمد : لا تجزىء الأضحية بأعضب القرن والأذن ، لهذا الحديث .

وقال مالك : إن كان الدم يسيل من القرن لم يجزىء ، وإلا أجزأ ، والله أعلم .

وأما المقابلة : فهي التي قطع مقدم أذنها ، والمدابرة : مَن مؤخر أذنها . والشرقاء : هي التي قطعت أذنها طولا ، قاله الشافعي . والخرقاء : هي التي خرقت السِّمَةُ أذنها خرقا مُدَوَّرا ، والله أعلم .

وعن البراء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أربع لا تجوز في الأضاحي : العوراء البيِّن عَوَرها ، والمريضة البيِّن مَرَضها ، والعرجاء البين ظَلَعها (١) ، والكسيرة التي لا تُنقِى (٢) .

رواه أحمد ، وأهل السنن ، وصححه الترمذي (٣) .

وهذه العيوب تنقص اللحم ، لضعفها وعجزها عن استكمال الرعي ، لأن الشاء يسبقونها إلى المرعى ، فلهذا لا تجزىء التضحية بها عند الشافعي وغيره من الأئمة ، كما هو ظاهر الحديث . واختلف قول الشافعي في المريضة مرضا يسيرا ، على قولين .

وروى أبو داود ، عن عُتبة بن عبد السُّلَمى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن المُصْفَرة ، والمستأصَلة ، والبخقاء ، والمُشيَّعة ، والكسراء (٤) .

فالمصفرة قيل : الهزيلة . وقيل : المستأصلة الأذن . والمستأصلة : المكسورة القرن . والبخقاء : هي العوراء (٥) . والمشيعة : هي التي لا تزال تُشيَّع خَلفَ الغنم (٦) ، ولا تَتْبَع لضعفها . والكسراء : العرجاء .

فهذه العيوب كلها مانعة [من الإجزاء ، فإن طرأ العيب] بعد تعيين الأضحية فإنه لا يضر عيبه عند الشافعي خلافا لأبي حنيفة .

---

(١) الظلع ـ بفتحتين ـ : العرج .

(٢) يقال : أنقت الناقة : إذا صارت ذات نِقى ـ بكسر فسكون ـ وهو مخ العظام ، فالتي لا تنقى هي المهزولة .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٢٨٤/٤ ، ٢٨٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ . والنسائي ، كتاب الضحايا ، باب « العرجاء » : ٢١٥/٧ ، وابن ماجه كتاب الأضاحي ، باب « ما يكره من الأضاحي ، الحديث ٣١٤٤ : ١٠٥٠/٢ ـ ١٠٥١ وتحفة الأحوذي ، باب « ما لا يجوز منه الأضاحي » ، الحديث ١٥٣٠ ، ١٥٣٢ : ٨١/٥ ـ ٨٢ ، والموطأ ، كتاب الضحايا ، باب « ما ينهى عنه من الضحايا » : ٤٨٢/٢ .

(٤) سنن أبي داود ، كتاب الأضاحي ، باب « ما يكره من الضحايا » ، الحديث ٢٨٠٣ : ٩٧/٣ . ومسند الإمام أحمد ١٨٥/٤ . وفي المخطوطة : « والمشيعة والكسيرة » . والمثبت من المرجعين السابقين .

(٥) في النهاية : البخق ـ بفتحتين ـ : أن يذهب البصر وتبقى العين قائمة منفتحة .

(٦) أي : تحتاج إلى من يشيعها ، أي يسوقها ، لتأخرها عن الغنم .

وقد روى الإمامُ أحمد ، عن أبي سعيد قال : اشتريت كبشا أضحي به ، فعدا الذئب فأخذ الألية (١) ؛ فسألت النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : ضَحِّ به (٢) :

ولهذا في الحديث : « أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نستشرف العين والأذن » ، أي : أن تكون الهدية أو الأضحية سمينة حسنة ثمينة ، كما رواه الإمام أحمد وأبو داود ، عن عبد الله بن عمر قال : أهدى عمر نَجيباً (٣) ، فأعطِيَ بها ثلاثمائة دينار ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إني أهدَيت نجيباً ، فأعطِيتُ بها ثلاثمائة دينار ، أفأبيعها وأشتري بثمنها بُدْناً ؟ قال : لا ، انحرها إياها (٤) .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس : البدن من شعائر الله :

وقال محمد بن [أبي] موسى : الوقوف ومزدلفة والجمار والرمي والبدن والحلق : من شعائر الله (٥) :

وقال ابن عمر : أعظم الشعائر البيت .

وقوله : (لكم فيها منافع) ، أي : لكم في البدن منافع ، من لبنها ، وصوفها وأوبارها وأشعارها ، وركوبها ، (إلى أجل مسمى) ، قال مِقْسَم ، عن ابن عباس : (لكم فيها منافع إلى أجل مسمى) ، قال : ما لم يُسَمَّ بُدناً (٦) .

وقال مجاهد في قوله : (لكم فيها منافع إلى أجل مسمى) ، قال : الركوب واللبن والولد ، فإذا سُمِّيت بَدَنَةً أو هَدياً ، ذهب ذلك [كله ؛ وكذا] قال عطاء ، والضحاك ، وقتادة ، وعطاء الخراساني ، وغيرهم :

وقال آخرون : بل له أن ينتفع بها وإن كانت هديا ، إذا احتاج إلى ذلك ، كما ثبت في الصحيحين عن أنس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يسوق بدَنَةً ، قال : اركبها ؛ قال : إنها بَدَنَة ؛ قال : اركبها ، ويحك ، في الثانية أو الثالثة (٧) :

وفي رواية لمسلم ، عن جابر ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : اركبها بالمعروف إذا ألجئتَ إليها (٨) .

وقال شعبة ، عن زهير بن أبي ثابت الأعمى ، عن المغيرة بن حَذَف ، عن علي أنه رأى رجلا يسوق بدنة ومعها ولدها ، فقال : لا تشرب من لبنها إلا ما فضل عن ولدها ، فإذا كان يوم النحر فاذبحها وولدَها ،

---

(١) الألية : طرف الشاة .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٣٢/٣ .

(٣) النجيب من الأبل : القوى منها ، الخفيف السريع . والنجيب : الفاضل من كل حيوان . و « نجيباً » هكذا في ابن كثير ، ومثله في إحدى نسخ أبي داود ، وفي نسخة أخرى والمسند « بختيا » ، بالباء والخاء ، وهو الواحد من الأبل الخراسانية .

(٤) مسند الإمام أحمد : ١٤٥/٢ ، وسنن أبي داود ، كتاب المناسك ، باب « تبديل الهدى » ، الحديث ١٧٥٦ : ٢ ، ١٤٦ ، ١٤٧ .

(٥) تفسير الطبري : ١١٣/١٧ ، ١١٤ .

(٦) تفسير الطبري : ١١٤/١٧ . والمعنى : ما لم يسمها هديا إلى بيت الله تعالى في الحج ، فلا تركب حينئذ .

(٧) البخاري ، كتاب الحج ، باب « ركوب البدن » : ٢٠٥/٢ ، ومسلم ، كتاب الحج ، باب « جواز ركوب البدنة المهداة لمن احتاج إليها » : ٩١/٤ .

(٨) مسلم ، في الكتاب والباب المتقدمين : ٩٢/٤ .

وقوله : (ثم محلها إلى البيت العتيق) ، أى : مَحِل الهدى وانتهاؤه إلى البيت العتيق ، وهو الكعبة ، كما قال تعالى : (هديا بالغ الكعبة (١)) : وقال (والهدى معكوفا أن يبلغ محله (٢)) :

وقد تقدم الكلام على معنى البيت العتيق قريبا ، ولله الحمد :

وقال ابن جريج ، عن عطاء : كان ابن عباس يقول : كل من طاف بالبيت ، فقد حل ، قال الله تعالى : (ثم محلها إلى البيت العتيق) :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه لم يزل ذبحُ المناسك وإراقةُ الدماء على اسم الله مشروعاً فى جميع الملل .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (لكل أمة جعلنا منسكا) ، قال : عيداً (٣) .

وقال عكرمة : ذبحا . وقال زيد بن أسلم فى قوله : (لكل أمة جعلنا منسكا) : إنها مكة ، لم يجعل الله لأمة قط منسكا غيرها .

[وقوله] : (ليذكروا اسم الله على مارزقهم من بهيمة الأنعام) ، كما ثبت فى الصحيحين عن أنس قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكبشين أملحين أقرنين ، فسمَّى وكبر ، ووضع رجله على صِفَاحِهما (٤) .

وقال الإمام أحمد بن حنبل : حدثنا يزيد بن هارون ، أنبأنا سَلاّم بن مسكين ، عن عائذ الله المجاشعى ، عن أبى داود ــ وهو نُفَيع بن الحارث ــ عن زيد بن أرقم قال : قلت ــ أو : قالوا ــ : يا رسول الله ، ماهذه الأضاحى ؟ قال سنة أبيكم إبراهيم . قالوا : ما لنا منها ؟ قال : بكل شعرة حسنة . قالوا : فالصوف ؟ قال : بكل شعرة من الصوف حسنة (٥) .

وأخرجه الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه فى سننه ، من حديث سلام بن مسكين ، به (٦) .

---

(١) سورة المائدة ، آية : ٩٥ .

(٢) سورة الفتح ، آية : ٢٥ .

(٣) أخرجه ابن أبى حاتم ، ينظر الدر المنثور : ٣٦٠/٤ .

(٤) البخارى ، كتاب الأضاحى ، باب « من ذبح الأضاحى بيده » ١٣١/٧ ، وباب « وضع القدم على صفح الذبيحة » ، وباب « التكبير عند الذبح » : ١٣٣/٧ . ومسلم ، كتاب الأضاحى ، باب « استحباب الضحية وذبحها مباشرة . . » : ٧٧/٦ .
والصفاح ــ بكسر الصاد ــ : جمع صفح ــ بفتح فسكون ــ وهو : الجنب ، وقيل : جمع صفحة ، وهو عرض الوجه ، وقيل : نواحى عنقها .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٣٦٨/٤ .

(٦) سنن ابن ماجه ، باب « ثواب الأضحية » ، الحديث ٣١٢٧ : ١٠٤٥/٢ .

وقوله : (فإلهكم إله واحد فله أسلموا) ، أى : معبودكم واحد ، وإن تنوّعت شرائع الأنبياء ونَسخَ بعضها بعضا ، فالجميع يدعون إلى عبادة الله وحده ، لا شريك له ، (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه : أنه لا إله إلا أنا ، فاعبدون [١]) . ولهذا قال : (فله أسلموا) ، أى : أخلصوا واستسلموا لحُكْمه وطاعته .

(وبشر المخبتين) ، قال مجاهد : المطمئنين . وقال الضحاك ، وقتادة : المتواضعين . وقال السدى : الوجلين . وقال عمرو بن أوس : المخبتون : الذين لا يَظلمون ، وإذا ظُلموا لم ينتصروا [٢] .

وقال الثورى : (وبشر المخبتين) ، قال : المطمئنين الراضين بقضاء الله ، المستسلمين له .

وأحسن ما يفسَّر بما بعده وهو قوله : (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) ، أى : خافت منه قلوبُهم ، (والصابرين على ما أصابهم) ، أى : من المصائب .

قال الحسن البصرى : والله لتصبرنّ أو لتهلكنّ .

(والمقيمى الصلاة) — قرأ الجمهور بالإضافة — السبعةُ ، وبقيةُ العشرة أيضا . وقرأ ابن السَّمَيْقَع [٣] : (والمقيمينَ الصلاةَ) بالنصب .

وقال الحسن البصرى : (والمقيمى الصلاةَ) ، وإنما حذفت النون هاهنا تخفيفا ، ولو حذفت للإضافة لوجب خفض الصلاة ، ولكن على سبيل [التخفيف [٤]] فنصبت .

أى : المؤدين حق الله فيما أوجب عليهم من أداء فرائضه ، (ومما رزقناهم ينفقون) ، أى : وينفقون ما آتاهم الله من طيب الرزق على أهليهم وأرقائهم وقراباتهم ، وفقرائهم ومحاويجهم ، ويحسنون إلى خلق الله مع محافظتهم على حدود الله . وهذه بخلاف صفات المنافقين ، فإنهم بالعكس من هذا كله ، كما تقدم تفسيره فى « سورة براءة [٥] » .

---

(١) سورة الأنبياء ، آية : ٢٥ .

(٢) تفسير الطبرى : ١١٧/١٧ .

(٣) السميقع ، بالقاف ، كما فى اللسان . وهو محمد بن عبد الرحمن بن السميقع أبو عبدالله اليمانى : مترجم فى طبقات القراء لابن الجزرى : ١٦١/٢ .

(٤) قرأ الحسن ، وابن أبى إسحاق ، وأبو عمرو — فى رواية عنه — : (الصلاة) ، بالنصب ، مع حذف النون . وقد وجه حذف النون بأنه للتخفيف لا للإضافة ، يقول أبو الفتح بن جنى فى المحتسب ٨٠/٢ : أراد (المقيمين) ، فحذف النون تخفيفا ، لا لتعاقبها الإضافة ، وشبه ذلك باللذين والذين فى قوله :

فان الذى حانت بفلج دماؤهم * هم القوم كل القوم يا أم خالد

حذفت النون من (الذين) تخفيفاً ؛ لطول الاسم ، فأما الإضافة فساقطة هنا ، وعليه قول الأخطل :

أبنى كليب ، إن عمى اللذا * قتلا الملوك وفككا الأغلالا

حذف نون (اللذان) ؛ لما ذكرنا .

(٥) انظر تفسير الآية : ٦٧ من سورة براءة : ١١٣/٤ ، والآية ٧٥ — ٧٩ : ١٢٤/٤ — ١٢٨ .

﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) ﴾

يقول تعالى ممتنا على عباده فيما خلق لهم من البدن ، وجعلها من شعائره ، وهو أنه جعلها تهدى إلى بيته الحرام ، بل هي أفضل ما يهدى ، كما قال تعالى : (لا تحلوا شعائر الله ، ولا الشهر الحرام ، ولا الهدى ولا القلائد(١)) : الآية .

قال ابن جُرَيج : قال عطاء في قوله : (والبدن جعلناها لكم من شعائر الله) ، قال : البقرة ، والبعير (٢) .
وكذا رُوى عن ابن عمر ، وسعيد بن المسيب ، والحسن البصرى .

وقال مجاهد : إنما البدن من الإبل .

قلت : أما إطلاق البدَنة على البعير فمتفق عليه ، واختلفوا في صحة إطلاق البدنة على البقرة ، على قولين ، أصحهما أنه يطلق عليها ذلك شرعا كما صح في الحديث .

ثم جمهور العلماء على أنه تُجزىء البدنة عن سبعة ، والبقرة عن سبعة ، كما ثبت به الحديث عند مسلم ، من رواية جابر بن عبد الله ، قال : أمرنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أن نشتركَ في الأضاحى ، البدنةُ عن سبعة ، والبقرة عن سبعة (٣) .

[وقال إسحاق بنُ رَاهَوَيه وغيره : بل تُجزىء البقرة [عن سبعة] والبعيرُ عن عشرة (٤)] وقد ورد به حديث في مسند الإمام أحمد (٥) ، وسنن النسائى ، وغيرهما : فالله أعلم .

وقوله : (لكم فيها خير) ، أى : ثواب في الدار الآخرة .

وعن سليمان بن يزيد الكعبى ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما عَمِل ابنُ آدم يوم النحر عملاً أحبَّ إلى الله من هِرَاقة (٦) دم ، وإنه ليأتى يوم القيامة بقرونها (٧) وأظلافها

---

(١) سورة المائدة ، آية : ٢ .

(٢) تفسير الطبرى : ١٧ / ١١٧ .

(٣) مسلم ، كتاب الحج ، باب « الاشتراك في الهدى وإجزاء البقرة والبدنة ، كل منهما عن سبعة » : ٤ / ٨٧ - ٨٩ .

(٤) ما بين القوسين من الطبعات السابقة . والزيادة التى فيه ، وهى « عن سبعة » ، أثبتناها عن الترمذى ، انظر التعليق التالى بتمامه .

(٥) الذى وقع لنا في مسند الإمام أحمد عن ابن عباس ١ / ٢٧٥ ، وهو قوله : « كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم في سفر ، فحضر النحر ، فذبحنا البقرة عن سبعة ، والبعير عن عشرة » . ورواه ابن ماجه في كتاب الأضاحى ، باب « عن كم تجزىء البدنة والبقرة » ، الحديث ٣١٣١ : ٢ / ١٠٤٧ . والنسائى باب « ما تجزىء عنه البدنة في الضحايا » : ٧ / ٢٢١ .

وقد ساق الترمذى حديث جابر المتقدم ، وهو « أن البقرة عن سبعة ، والبدنة عن سبعة » ثم قال : « وروى عن ابن عباس ، عن النبى صلى الله عليه وسلم : « أن البقرة عن سبعة والجزور عن عشرة » . وهو قول إسحاق ، واحتج بهذا الحديث ، وحديث ابن عباس إنما نعرفه من وجه واحد » . تحفة الأحوذى ، أبواب الحج ، الحديث ٩٠٦ : ٣ / ٦٤٧ ، ٦٤٨ .

(٦) أى : صبه .

(٧) و « إنه ليأتى » ، أى : المذبوح والمضحى به . وقوله : « بقرونها » ، بتأنيث الضمير ، باعتباره أضحية . كذا ورد لفظ الحديث في مخطوطة الأزهر ، وابن ماجه ، والترمذى .

وأشعارها ، وإن الدم ليقع من الله بمكان ، قبل أن يقع على الأرض ، فطيبوا بها نفساً» : رواه ابن ماجه ، والترمذى وحسّنه (١) .

وقال سفيان الثورى : كان أبو حاتم يستدين ويسوق البُدْن ، فقيل له : تستدين وتسوق البدن ؟. فقال : إنى سمعت الله يقول : (لكم فيها خير) .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنفقت الوَرِقَ (٢) فى شىء أفضلَ من نحيرة فى يوم عيد . رواه الدارقطنى فى سننه (٣) .

وقال مجاهد : (لكم فيها خير) ، قال : أجر ومنافع (٤) .

وقال إبراهيم النخعى : يركبها ويحلبها إذا احتاج إليها .

وقوله : (فاذكروا اسم الله عليها صواف) ، وعن [المطلب بن عبد الله بن حنطب ، عن] جابر بن عبد الله قال : صليتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عيدَ الأضحى ، فلما انصرف أتى بكبش فذبحه ، فقال : «باسم الله والله أكبر ، اللهم هذا عنى وعمن لم يُضَحِّ من أمتى » .

رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذى (٥) .

وقال محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن أبى حبيب ، عن ابن عباس ، عن جابر قال : ضحَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكبشين فى يوم عيد ، فقال حين وجههما : وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً مسلماً ، وما أنا من المشركين ، إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له ، وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين ، اللهم منك ولك ، وعن محمد وأمته . ثم سمى الله وكَبَّر وذبح(٦) .

وعن على بن الحسين ، عن أبى رافع : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا ضحى اشترى كبشين سمينين أقرنين أملحين ، فإذا صلى وخطب الناس أُتِى بأحدهما وهو قائم فى مصلاه فذبحه بنفسه بالمدية ، ثم يقول : «اللهم هذا عن أمتى جميعها ، مَنْ شهد لك بالتوحيد وشهد لى بالبلاغ » . ثم يُؤتى بالآخر فيذبحه بنفسه ، ثم يقول : «هذا عن محمد وآل محمد » فيُطعمهما جميعاً المساكين ، [ويأكل] هو وأهله منهما .

---

(١) سنن ابن ماجه ، كتاب الأضاحى ، باب «ثواب الأضحية» ، الحديث ٣١٢٦ : ١٠٤٥/٢ . وتحفة الأحوذى ، أبواب الأضاحى ، باب «ما جاء فى فضل الأضحية» ، الحديث ١٥٢٦ : ٧٣/٥ - ٧٥ .

(٢) الورق - بكسر الراء ، وقد يسكن تخفيفاً - : المال من الدراهم .

(٣) سنن الدارقطنى ، كتاب الأشربة وغيرها ، باب «الصيد والذبائح والأطعمة وغير ذلك» ، الحديث ٤٣ : ٢٨٢/٤ .

(٤) تفسير الطبرى : ١١٧/١٧ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٣٥٦/٣ ، ٣٦٢ . وسنن أبى داود ، أبواب الأضاحى ، باب «فى الشاة يضحى بها عن جماعة» ، الحديث ٢٨١٠ : ٩٩/٣ . وتحفة الأحوذى ، أبواب الأضاحى ، الحديث ١٥٥٨ : ١١٢/٥ - ١١٣ .

(٦) أخرجه ابن أبى حاتم ، وقد تقدم فى سورة الأنعام عند الآية ١٦٢ ، ١٦٣ : ٣٧٧/٣ . وأخرجه ابن ماجه فى كتاب الأضاحى ، باب «أضاحى رسول الله صلى الله عليه وسلم» ، الحديث ٣١٢١ : ١٠٤٣/٢ .

[رواه أحمد ، وابن ماجه (١)]

وقال الأعمش ، عن أبي ظبيان ، عن ابن عباس في قوله : (فاذكروا اسم الله عليها صوافّ) ، قال : قياما على ثلاث قوائم ، معقولة يدُها اليسرى ، يقول : « باسم الله والله أكبر ، اللهم منك ولك » (٢) ؛ وكذلك روى مجاهد ، وعلي بن أبي طلحة ، والعوفي ، عن ابن عباس ، نحو هذا .

وقال ليث ، عن مجاهد : إذا عُقلت رجلها اليسرى قامت على ثلاث ؛ ورَوَى ابن أبي نَجيح ، عنه ، نحوه .

وقال الضحاك : تُعقل رجل واحدة فتكون على ثلاث .

وفي الصحيحين عن ابن عمر : أنه أتى على رجل قد أناخ بَدَنَته وهو ينحرها ، فقال : ابعثها قياماً مقيَّدة ، سنة أبي القاسم صلى الله عليه وسلم (٣) .

وعن جابر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابَه كانوا ينحَرون البُدْنَ معقولةَ اليسرى ، قائمة على مابقي من قوائمها ؛ رواه أبو داود (٤) .

وقال ابن لَهيعة : حدثني عطاء بن دينار ، أن سالم بن عبدالله قال لسليمان بن عبد الملك : قفْ من شقها الأيمن ، وانحرْ من شقها الأيسر .

وفي صحيح مسلم ، عن جابر ، في صفة حجة الوَداع ، قال فيه : « فنحر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بيده ثلاثاً وستين بَدَنَة ، جعل يَطعُنُها بحَربة في يده (٥) » .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن قتادة قال : « في حرف ابن مسعود (٦) : (صوافن) ، أي : مُعَقَّلة قياما (٧) .

وقال سفيان الثوري ، عن منصور ، عن مجاهد : مَن قرأها (صوافن) ، قال : معقولة ؛ ومن قرأها (صوافَّ) ، قال : تصف بين يديها .

وقال طاوس ، والحسن ، وغيرهما : (فاذكروا اسم الله عليها صَوافِيَ) ، يعني خالصة لله عز وجل ؛ وكذا رواه مالك ، عن الزهري (٨) .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٦/٨ ، ٦/٣٩١ ، ٣٩٢ . والحديث في ابن ماجه عن أبي هريرة ، انظر كتاب الأضاحي ، باب « أضاحي رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، الحديث ٣١٢٢ : ٢/١٠٤٣ ، ١٠٤٤ .

(٢) تفسير الطبري : ١٧/١١٨ .

(٣) البخاري ، كتاب الحج ، باب « نحر الإبل مقيدة » : ٢/٢١٠ . ومسلم كتاب الحج ، باب « نحر البدن مقيدة » : ٤/٨٩ .

(٤) سنن أبي داود ، كتاب المناسك ، باب « كيف تنحر البدن ؟ » ، الحديث ١٧٦٧ : ٢/١٤٩ .

(٥) لفظ مسلم — كما في كتاب الحج ، باب « حجة النبي صلى الله عليه وسلم » ٤/٤٢ — : « (فنحر ثلاثا وستين بيده) » ولم نجد فيه : « جعل يطعنها بحربة في يده » .

(٦) أي : قراءته .

(٧) تفسير الطبري : ١٧/١١٩ .

(٨) انظر المحتسب لابن جني : ٢/٨١ ، ٨٢ .

وقال عبد الرحمن بن زيد : (صوافيَ) ، ليس فيها شرك كشرك الجاهلية لأصنامهم .

وقوله : (فإذا وجبت جنوبها) ، قال : ابن أبي نجيح ، عن مجاهد : يعني سقطت إلى الأرض . وهو رواية عن ابن عباس ، وكذا قال مقاتل بن حيان :

وقال العوفي ، عن ابن عباس : (فإذا وجبت جنوبها) ، يعني نحرت .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : (فإذا وجبت جنوبها) ، يعني ماتت .

وهذا القول هو مُرَادُ ابن عباس ومجاهد ، فإنه لا يجوز الأكل من البَدَنة إذا نُحرت حتى تموت وتَبْرُدُ حركتها : وقد جاء في حديث مرفوع : ولا تُعجلُوا النفوسَ أن تَزْهَق : وقد رواه الثوري في جامعه ، عن أيوب ، عن يحيى ابن أبي كثير ، عن فَرافصة الحنفي ، عن عمر بن الخطاب أنه قال ذلك : ويؤيده حديث شَدّاد بن أوس في صحيح مسلم : « إن الله كتب الإحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبح ، وليُحِدَّ أحدكم شَفْرَته ، وليرح ذَبِيحته (١) :

وعن أبي واقد الليثي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما قطع من البهيمة وهي حية ، فهو ميتة » : رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذي وصحّحه (٢) :

وقوله : (فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر) ، قال بعض السلف : قوله : (فكلوا منها) ، أمر إباحة .

وقال مالك : يستحب ذلك : وقال غيره : يَجِبُ : وهو وَجْه لبعض الشافعية : واختلف في المراد بالقانع والمعتر ، فقال العوفي ، عن ابن عباس : القانع : المستغني بما أعطيته ، وهو في بيته : والمعترّ : الذي يتعرض لك ، ويُلِمّ بك أن تعطيه من اللحم ، ولا يسأل(٣) : وكذا قال مجاهد ، ومحمد بن كعب القرظي :

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : القانع : المتعفف : والمعتر : السائل : وهذا قولُ قتادة ، وإبراهيم النخعي ، ومجاهد في رواية عنه :

وقال ابن عباس ، وزيد بن أسلم وعكرمة ، والحسن البصري ، وابن الكلبي ، ومقاتل بن حَيّان ، ومالك ابن أنس : القانع هو الذي يَقْنَع إليك (٤) ويسألك. والمعتر : الذي يعتريك ، يتضرع ولا يسألك : وهذا لفظ الحسن :

وقال سعيد بن جبير : القانع هو السائل ، ثم قال : أما سمعت قول الشَّمَّاخ (٥) :

لَمَالُ المَرْءِ يُصْلِحُه فَيُغْني * مَفَاقِرَهُ أعفّ من القُنُوع (٦)

---

(١) مسلم ، كتاب الصيد ، باب « الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة » : ٦/٧٢ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٥/٢١٨ . وسنن أبي داود ، كتاب الصيد ، باب « في صيد قطع منه قطعة » ، الحديث ٢٨٥٨ : ٣/١١١ . وتحفة الأحوذي ، أبواب الصيد ، باب « ما جاء : ما قطع من الحي فهو ميت » ، الحديث ١٥٠٨ ، ١٥٠٩ : ٥/٥٥ . وقد أخرجه ابن ماجه عن ابن عمر ، في كتاب الصيد ، باب « ما قطع من البهيمة وهي حية » ، الحديث ٣٢١٦ : ٢/١٠٧٢ .

(٣) تفسير الطبري : ١٧/١٢٠ .

(٤) في اللسان : « وقنعت إلى فلان : يريد خضعت له ، والتزقت به ، وانقطعت إليه » .

(٥) ديوانه : ٢٢١ . وانظر مراجع أخر هناك .

(٦) المفاقر : وجوه الفقر .

قال : يغنى من السؤال : وبه قال ابن زيد :

وقال زيد بن أسلم : القانع : المسكين الذى يطوف ; والمعتر : الصديق والضعيف الذى يزور : وهو رواية عن عبد الله بن زيد أيضا (١) :

وعن مجاهد أيضا : القانع : جارك الغنى [الذى يبصر ما يدخل بيتك (٢)] والمعتر الذى يعتريك من الناس .—

وعنه أن القانع : هو الطامع . والمعتر : هو الذى يَعْتَسّرَ (٣) بالبُدْن من غنى أو فقير :

وعن عكرمة نحوه ، وعنه القانع : أهل مكة .

واختار ابنُ جرير أنّ القانع : هو السائل ؛ لأنه من أقنع بيده إذا رفعها للسؤال ، والمعتر من الاعترار ، وهو : الذى يتعرض لأكل اللحم :

وقد احتج بهذه الآية الكريمة مَن ذهب من العلماء إلى أن الأضحية تجزأ ثلاثة أجزاء ، فثلث لصاحبها يأكله ، وثلث يهديه لأصحابه ، وثلث يتصدق به على الفقراء ، لأنه تعالى قال : (فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر) . وفى الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للناس : « إنى كنت نهيتكم عن ادخار لحوم الأضاحى فوق ثلاث ، فكلوا وادخروا مابدالكم » : وفى رواية : «فكلوا وادخروا وتصدقوا» : وفى رواية : «فكلوا وأطعموا وتصدقوا» (٤) .

والقول الثانى : أن المضحى يأكل النصف ويتصدق بالنصف ، لقوله فى الآية المتقدمة : (فكلوا منها ، وأطعموا البائس الفقير (٥)) ، ولقوله فى الحديث : « فكلوا وادخروا وتصدقوا » :

فإن أكل الكل فقيل : لا يضمن شيئا : وبه قال ابن سُرَيج (٦) من الشافعية :

وقال بعضهم : يضمنها كلها بمثلها أو قيمتها : وقيل : يضمن نصفها : وقيل : ثلثها : وقيل : أدنى جزء منها : وهو المشهور من مذهب الشافعى :

وأما الجلود ففى مسند أحمد عن قتادة بن النعمان فى حديث الأضاحى . [فكلوا] وتصدقوا ، واستمتعوا بجلودها ، ولا تبيعوها (٧) :

---

(١) كذا فى مخطوطة الأزهر . وفى الطبعات السابقة : «وهو رواية عن ابنه عبد الرحمن بن زيد» . وعبد الرحمن وعبد الله مترجمان فى كتب الرجال ، يرويان عن أبيهما زيد بن أسلم ، فالله أعلم أيهما المراد ؟ .

(٢) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة . وأثر مجاهد كما فى تفسير الطبرى ١٧/١٢١ : « القانع : جارك وإن كان غنيا . والمعتر : الذى يعتريك » .

(٣) أى : يطيف بها .

(٤) البخارى ، كتاب الأضاحى : ٧/١٢٤ . ومسلم ، كتاب الأضاحى ، باب « بيان ما كان من النهى عن أكل لحوم الأضاحى بعد ثلاث فى أول الإسلام ، وبيان نسخه وإباحته إلى متى شاء » : ٦/٨٠ ، ٨١ . وسنن أبى داود ، كتاب الأضاحى ، باب « فى حبس لحوم الأضاحى » ، الحديث ٢٨١٢ : ٣/٩٩ .

وتحفة الأحوذى ، أبواب الأضاحى ، باب « فى الرخصة فى أكلها بعد ثلاث » ، الحديث ١٥٤٦ : ٥/٩٩ . والنسائى ، كتاب الضحايا ، باب « الادخار من الأضاحى » : ٧/٢٣٥ ، ٢٣٦ . وابن ماجه ، كتاب الأضاحى ، باب « ادخار لحوم الأضاحى » ، الحديث ٣١٦٠ : ٢/١٠٥٥ . ومسند الإمام أحمد عن أبى سعيد : ٣/٢٣ ، ٤٨ ، ٥٧ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ٨٥ ، ومن جابر : ٣/٣٨٨ . ومن نبيشة الهذلى : ٥/٧٥ ، ٧٦ . ومن بريدة : ٥/٣٥٥ ، ٣٥٦ . ومن عائشة : ٦/٥١ .

(٥) سورة الحج ، آية : ٢٨ .

(٦) فى المخطوطة : « ابن شريح » ، بالشين والحاء ، والصواب ما أثبتناه . انظر المشتبه للذهبى : ٣٩٥ .

(٧) مسند الإمام أحمد : ٤/١٥ .

ومن العلماء من رخص [في ذلك] ومنهم من قال : يقاسم الفقراء ثمنها ، والله أعلم .

[مسألة]

عن البراء بن عازب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أول ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلي ، ثم نرجع فننحر . فمن فعل [ذلك] فقد أصاب سنتنا ، ومن ذبح قبل الصلاة فإنما هو لحم [عجله] (١) لأهله ، ليس هو من النسك في شيء . أخرجاه (٢) .

فلهذا قال الشافعي وجماعة من العلماء : إن أول وقت الأضحى إذا طلعت الشمس يوم النحر ، ومضى قدر صلاة العيد والخطبتين ــ زاد أحمد : وأن يذبح الإمام بعد ذلك ، لما جاء في صحيح مسلم : « وأن لا تذبحوا حتى يذبح الإمام (٣) ».

وقال أبو حنيفة أما أهل السواد من القرى ونحوهم ، فلهم أن يذبحوا بعد طلوع الفجر ، إذ لا صلاة عيد عنده لهم ، وأما أهل الأمصار فلا يذبحوا حتى يصلي الإمام ، والله أعلم .

ثم قيل : لا يشرع الذبح إلا يوم النحر وحده . وقيل : يوم النحر لأهل الأمصار ، لتيسر الأضاحي عندهم ، وأما أهل القرى فيوم النحر وأيام التشريق بعده ، وبه قال سعيد بن جبير . وقيل : يوم النحر ، ويوم بعده للجميع . وقيل : ويومان بعده ، وبه قال أحمد . وقيل : يوم النحر وثلاثة أيام التشريق بعده ، وبه قال الشافعي ، لحديث جبير بن مطعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « وأيام التشريق كلها ذبح » . رواه أحمد (٤) وابن حبان .

وقيل : إن وقت الذبح يمتد إلى آخر ذي الحجة ، وبه قال إبراهيم النخعي ، وأبو سلمة بن [عبد الرحمن] (٥) . وهو قول غريب .

وقوله : (كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون) ، يقول تعالى : من أجل هذا (سخرناها لكم) ، أي : ذللناها لكم ، أي : جعلناها منقادة لكم خاضعة ، إن شئتم ركبتم ، وإن شئتم حلبتم ، وإن شئتم ذبحتم ، كما قال تعالى : (أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون . وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون . ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون) (٦) ، وقال في هذه الآية الكريمة : (كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون) .

---

(١) ما بين القوسين عن البخاري ، ومكانه في المخطوطة : « يبديه » .

(٢) البخاري ، كتاب العيدين ، باب « التبكير إلى العيد » ، ٢/٢٤ ، وباب « استقبال الإمام الناس في خطبة العيد » : ٢/٢٦ . ومسلم ، كتاب الأضاحي ، باب « وقتها » : ٦/٧٤ ، ٧٥ .

(٣) لم يقع لنا هذا في صحيح مسلم ، ولعلنا نقول فيه قولا فيما بعد .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٤/٨٢ .

(٥) في المخطوطة : « وأبو سلمة بن حمزة » . ولم نجده في الرجال ، والمثبت عن الطبعات السابقة .

(٦) سورة « يس » ، الآيات : ٧١ - ٧٣ .

لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى : إنما شرع لكم نحر هذه الهدايا والضحايا ، لتذكروه عند ذبحها، فإنه الخالق الرازق لا أنه يناله شيء من لحومها ولا دمائها ، فإنه تعالى هو الغني عما سواه

وقد كانوا في جاهليتهم إذا ذبحوها لآلهتهم وضعوا عليها من لحوم قرابينهم ، ونضحوا عليها من دمائها ، فقال تعالى : (لن ينالَ الله لحومُها ولا دماؤُها) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا محمد بن أبي حماد ، حدثنا إبراهيم بن المختار ، عن ابن جريج قال : كان أهل الجاهلية ينضحون البيت بلحوم الإبل ودمائها ، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : فنحن أحقّ أن ننضح ، فأنزل الله : (لن ينالَ الله لحومُها ولا دماؤُها ، ولكن يناله التقوى منكم) ، أي : يتقبل ذلك ويجزي عليه .

كما جاء في الصحيح : «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» (١). وما جاء في الحديث : إن الصدقة لتقع في يد الرحمن قبل أن تقع في يد السائل . وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع على الأرض . كما تقدم الحديث رواه ابن ماجه ، والترمذي وحسّنه عن عائشة مرفوعا . فمعناه أنه سيق لتحقيق القبول من الله لمن أخلص في عمله ، وليس له معنى يتبادر عند العلماء المحققين سوى هذا ، والله أعلم .

وقال وكيع ، عن [يحيى] بن مسلم(٢) أبي الضحاك : سألت عامراً الشعبي عن جلود الأضاحي، فقال : (لن ينال الله لحومها ولا دماؤُها) ، إن شئت فبع ، وإن شئت فأمسك ، وإن شئت فتصدق .

وقوله : (كذلك سخرها لكم) ، أي : من أجل ذلك سخّر لكم البُدن ، (لتكبروا الله على ما هداكم) ، أي : لتعظموه كما هداكم لدينه وشرعه وما يحبه ، وما يرضاه ، ونهاكم عن فعل مايكرهه ويأباه .

وقوله : (وبشر المحسنين) ، أي : وبشر يا محمد المحسنين ، أي : في عملهم، القائمين بحدود الله ، المتبعين ما شرّع لهم ، المصدقين الرسولَ فيما أبلغهم وجاءهم به من عند ربه عز وجل .

[مسألة]

وقد ذهب أبو حنيفة ومالك والثوري إلى القول بوجوب الأضحية على من ملك نصابا ، وزاد أبو حنيفة اشتراط الإقامة أيضاً . واحتج لهم بما رواه أحمد وابن ماجه بإسناد رجالُه كلّهم ثقات ، عن أبي هريرة مرفوعا : « من وجد سعة فلم يضحّ ، فلا يقربن مصلانا (٣) » على أن فيه غرابة ، واستنكره أحمد بن حنبل .

---

(١) مسلم ، كتاب البر ، باب «تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره» : ١١/٨ . وابن ماجه، كتاب الزهد ، باب «القناعة» ، الحديث ٤١٤٣ : ١٣٨٨/٢ . ومسند الإمام أحمد عن أبي هريرة : ٢٨٥/٢ ، ٥٣٩ .

(٢) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة ، وترجمة يحيى في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ١٨٧/٢/٤ . وقد كان في المخطوطة : «مسلم بن الضحاك» . وما أثبتناه عن الجرح .

(٣) مسند الإمام أحمد عن أبي هريرة : ٣٢١/٢ ، وابن ماجه ، كتاب الأضاحي ، باب «الأضاحي واجبة هي أم لا ؟» ، الحديث ٣١٢٣ : ١٠٤٤/٢ .

وقال ابن عمر : أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين يضحي ، رواه الترمذي (١) .

وقال الشافعي ، وأحمد : لا تجب الأضحية ، بل هي مستحبة لما جاء في الحديث : « ليس في المال حق سوى الزكاة(٢) » . وقد تقدم أنه عليه السلام ضحى عن أمته فأسقط ذلك وجوبها عنهم .

وقال أبو سَرِيحَة : كنت جاراً لأبي بكر وعمر ، فكانا لا يضحيان خشية أن يقتدي الناس بهما .

وقال بعض الناس : الأضحية سنة كفاية ، إذا قام بها واحد من أهل دار أو محلة ، سقطت عن الباقين ، لأن المقصود إظهار الشعار .

وقد روى الإمام أحمد ، وأهل السنن — وحسنه الترمذي — عن مخنف بن سليم أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بعرفات : « على كل أهل بيت في كل عام أضحاة وعَتِيرة (٣) ، هل تدرون ما العتيرة ؟ هي التي تدعونها الرَّجَبِيَّة(٤) . وقد تكلم في إسناده .

وقال أبو أيوب : كان الرجل في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحي بالشاة الواحدة عنه وعن أهل بيته ، فيأكلون ويُطعمون [حتى تباهى] الناس فصار كما ترى(٥) .

رواه الترمذي وصححه ، وابن ماجه (٦) .

وكان عبد الله بن هشام يضحي بالشاة الواحدة عن جميع أهله . رواه البخاري (٧) .

وأما مقدار سن الأضحية فقد روى مسلم عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تذبحوا إلا مُسِنَّة(٨) ، إلا أن يَعسُر عليكم ، فتذبحوا جَذَعة من الضأن (٩) » .

ومن هاهنا ذهب الزهري إلى أن الجَذَع لا يجزئ . وقابله الأوزاعي فذهب إلى أن الجَذَع يجزئ من كل جنس . وهما غريبان . وقال : الجمهور : إنما يجزئ الثَّنِي من الإبل والبقر والمعز ، والجذع من الضأن ، فأما الثني من الإبل فهو : الذي له خمس سنين ، ودخل في السادسة . ومن البقر ما له [سنتان] ودخل في [الثالثة] ، وقيل [ما له] ثلاث [ودخل في]

---

(١) تحفة الأحوذي ، أبواب الأضاحي ، الحديث ١٥٤٣ : ٩٦/٥ ، وقال الترمذي : « هذا حديث حسن » .

(٢) سنن ابن ماجه ، كتاب الزكاة ، باب « ما أدى زكاته ليس بكنز » ، الحديث ١٧٨٩ : ٥٧٠/٢ .

(٣) العتيرة : شاة تذبح في رجب .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٢١٥/٤ ، ٧٦/٥ . وتحفة الأحوذي ، أبواب الأضاحي ، الحديث ١٥٥٥ : ١١٠/٥ وقال الترمذي : « هذا حديث حسن غريب ، لا نعرف هذا الحديث إلا من هذا الوجه ، من حديث ابن عون » . وانظر ترجمة مخنف ابن سليم في أسد الغابة ، الترجمة ٤٧٩٧ : ١٢٨/٥ بتحقيقنا .

(٥) أي : مباهاة .

(٦) تحفة الأحوذي ، أبواب الأضاحي ، باب « ما جاء أن الشاة الواحدة تجزىء عن أهل البيت » ، الحديث ١٥٤١ : ٩٠/٥ — ٩٣ ، وقال الترمذي : « هذا حديث حسن صحيح » . وسنن ابن ماجه ، كتاب الأضاحي ، باب « من يضحي بشاة عن أهله » ، الحديث ٣١٤٧ : ١٠٥١/٢ .

(٧) لم يقع لنا هذا الحديث في صحيح البخاري ، ولعلنا نستدركه فيما بعد .

(٨) المسنة : هي الثنية . وسيأتي تفسير ابن كثير لها .

(٩) مسلم ، كتاب الأضاحي ، باب « سن الأضحية » : ٧٢/٦ .

الرابعة . ومن المعز ما له سنتان . وأما الجذع من الضأن فقيل : ماله سنة ، وقيل : عشرة أشهر . وقيل : ثمانية أشهر . وقيل ستة أشهر وهو أقل ما قيل فى سنه ، وما دونه فهو حَمَل ، والفرق بينهما أن الحمل شعر ظهره قائم ، والجذع شعر ظهره نائم . قد انعدل صدعين ، (١) والله أعلم .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴾ (٣٨)

يخبر تعالى أنه يدفع عن عباده الذين توكلوا عليه وأنابوا إليه شرّ الأشرار وكيد الفجار ، ويحفظهم ويكلؤهم وينصرهم ، كما قال تعالى : (أليس الله بكاف عبده (٢)) ، وقال : (ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شئ قدراً (٣)) .

وقوله : (إن الله لا يحب كل خوان كفور) ، أى : لا يحب من عباده من اتصف بهذا ، وهو الخيانة فى العهود والمواثيق ، لا يفى بما قال . والكفر : الجحد للنعم ، فلا يعترف بها :

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ (٣٩) ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (٤٠)

قال العوفى ، عن ابن عباس : نزلت فى محمد وأصحابه حين أخرجوا من مكة (٤) .

وقال غيرُ واحد من السلف : هذه أول آية نزلت فى الجهاد ، واستدل بهذه الآية بعضهم على أن السورة مدنية وقاله مجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، وغير واحد .

وقال ابن جرير : حدثنى يحيى بن داود الواسطى ، حدثنا إسحاق بن يوسف ، عن سفيان ، عن الأعمش ، عن مسلم ـ هو البطين ـ عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس قال : لما أخرج النبى صلى الله عليه وسلم من مكة قال أبو بكر : أخرجوا نبيهم . إنا لله وإنا إليه راجعون ، ليهلكُنّ . قال ابن عباس : فأنزل الله عز وجل : (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير) ، قال أبو بكر رضى الله تعالى عنه : فعرفت أنه سيكون قتال (٥) .

---

(١) انظر تفسير هذه الكلمة فى : ٢٩٤/٤ .
(٢) سورة الزمر ، آية : ٣٦ .
(٣) سورة الطلاق ، آية : ٣ .
(٤) تفسير الطبرى : ١٢٢/١٧ ، ١٢٣ .
(٥) تفسير الطبرى : ١٢٣/١٧ .

ورواه الإمام أحمد ، عن إسحاق بن يوسف الأزرق ، به وزاد : قال ابن عباس : وهي أول آية نزلت في القتال .
ورواه الترمذي ، والنسائي في التفسير من سننيهما ، وابن أبي حاتم من حديث إسحاق بن يوسف — زاد الترمذي : ووكيع ، كلاهما عن سفيان الثوري ، به . وقال الترمذي : « حديث حسن ، وقد رواه غير واحد ، عن الثوري ، وليس فيه ابن عباس (١) » .

وقوله : ﴿ وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ ، أي : هو قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قتال ، ولكن هو يريد من عباده أن يبلوَ (٢) جهدهم في طاعته ، كما قال : ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فإما منا بعد وإما فداء ، حتى تضع الحرب أوزارها ، ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليبلو بعضكم ببعض ، والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم . سيهديهم ويصلح بالهم . ويدخلهم الجنة عرّفها لهم (٣) ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين . ويذهبْ غيظَ قلوبهم ، ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم (٤) ﴾ ، وقال : ﴿ أم حسبتم أن تُتركوا ولمّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجةً والله خبير بما تعملون (٥) ﴾ ، وقال : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين (٦) ﴾ وقال : ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم (٧) ﴾ . والآيات في هذا كثيرة . ولهذا قال ابن عباس في قوله : ﴿ وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ : وقد فعَل (٨) .

وإنما شرع تعالى الجهادَ في الوقت الأليق به ، لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عدداً ، فلو أمَر المسلمين ، وهم أقل من العشر ، بقتال الباقين (٩) لشقّ عليهم . ولهذا لما بايع أهلُ يثرب ليلة العقبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانوا نيفا وثمانين ، قالوا : يا رسول الله ، ألا نميل على أهل الوادي — يعنون أهل منى — ليالي منى فنقتلهم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني لم أومر بهذا (١٠) . فلما بغَى المشركون ، وأخرجوا النبي صلى الله عليه وسلم من بين أظهرهم ، وهموا بقتله ، وشردوا أصحابه شَذَرَ مَذَرَ ، فذهب منهم طائفة إلى الحبشة ، وآخرون إلى المدينة ، فلما استقروا بالمدينة ، ووافاهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، واجتمعوا عليه ، وقاموا بنصره ، وصارت لهم دار

---

(١) مسند الإمام أحمد : ١/٢١٦ . وتحفة الأحوذي ، تفسير سورة الحج ، الحديث ٣٢٢١ : ٩/١٥ .
(٢) أي : يختبر .
(٣) سورة محمد ، الآيات : ٤ — ٦ .
(٤) سورة التوبة ، آية : ١٤ ، ١٥ .
(٥) سورة التوبة ، آية : ١٦ .
(٦) سورة آل عمران ، آية : ١٤٢ .
(٧) سورة محمد ، آية : ٣١ .
(٨) تفسير الطبري : ١٧/١٢٣ .
(٩) في المخطوطة : « بقتال المنافقين » . وأثبتنا ما في الطبعات السابقة ، لأنه لم يكن بمكة نفاق وقتئذ .
(١٠) مسند الإمام أحمد : ٣/٤٦٢ وسيرة ابن هشام : ١/٤٤٨ .

إسلام ومعقلا يلجئون إليه ــ شرع الله جهاد الأعداء ، فكانت هذه الآية أول ما نزل فى ذلك ، فقال تعالى : (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق) :

قال العوفى ، عن ابن عباس : أخرجوا من مكة إلى المدينة بغير حق ، يعنى محمداً وأصحابه : (١)

(إلا أن يقولوا ربنا الله) ، أى : ما كان لهم إلى قومهم إساءة ، ولا كان لهم ذنب إلا أنهم عبدوا الله وحده لا شريك له : وهذا استثناء منقطع بالنسبة إلى ما فى نفس الأمر ، وأما عند المشركين فهو أكبر الذنوب ، كما قال تعالى : (يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم (٢)) ، وقال تعالى فى قصة أصحاب الأخدود : (وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد (٣)) : ولهذا لما كان المسلمون يرتجزون فى بناء الخندق ، ويقولون (٤) :

لاَهُمَّ لَوْلاَ أنتَ ما اهتَدَيْنا ولاَ تَصدَّقْنَا ولاَ صَلَّيْنَا
فَأنْزِلَنْ سَكِينَةً علَيْنَا وَثَبِّت الأقْدَامَ إنْ لاقَيْنَا
إنَّ الأُلَى قد بَغَوا علَيْنَا إذَا أرَادُوا فِتْنَةً أبَيْنَا

فيوافقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقول معهم آخر كل قافية ، فإذا قالوا : « إذا أرادوا فتنة أبينا » ، يقول : « أبينا » ، يمد بها صوته :

ثم قال تعالى : (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض) ، أى : لولا أنه يدفع عن قوم بقوم ، ويكشفُ شَرَّ أناس عن غيرهم ، بما يخلقه ويقدره من الأسباب ، لفسدت الأرض ، وأهلك القوى الضعيف :

(لهدمت صوامع) ، وهى المعابد الصغار للرهبان ، قاله [ابن عباس] ، ومجاهد ، وأبو العالية ، وعكرمة ، والضحاك ، وغيرهم ،

وقال قتادة : هى معابد الصابئين : وفى رواية عنه : صوامع المجوس .

وقال مقاتل بن حيّان : هى البيوت التى على الطرق :

(وبيع) ، وهى أوسع منها ، وأكثر عابدين فيها : وهى للنصارى أيضاً : قاله أبو العالية ، وقتادة ، والضحاك ، وابن صخر ، ومقاتل بن حيان ، وخُصَيف ، وغيرهم .

وحكى ابن جبير عن مجاهد وغيره : أنها كنائس اليهود : وحكى السدى ، عمن حدّثه ، عن ابن عباس : أنها كنائس اليهود : ومجاهد إنما قال : هى الكنائس : والله أعلم :

وقوله : (وصلوات) ، قال العوفى ، عن ابن عباس : الصلوات الكنائس (٥) : وكذا قال عكرمة ، والضحاك ، وقتادة : إنها كنائس اليهود : وهم يسمونها صَلُوتا (٦) :

---

(١) تفسير الطبرى : ١٢٢/١٧ ، ١٢٣ .
(٢) سورة الممتحنة ، آية : ١ .
(٣) سورة البروج ، آية : ١٥ .
(٤) الرجز لعامر بن سنان الأكوع . وهى منسوبة إليه فى سيرة ابن هشام : ٣٢٨/٢ فى ذكر المسير إلى خيبر . وانظر ترجمته فى أسد الغابة : ١٢٤/٣ ، ١٢٥ بتحقيقنا .
(٥) تفسير الطبرى : ١٢٥/١٧ .
(٦) تفسير الطبرى : ١٢٦/١٧ . وانظر المعرب للجواليقى : ٢٥٩ . وتفسير القرطبى : ٧١/١٢ .

وحكى السدّى ، عمن حدثه ، عن ابن عباس : أنها كنائس النصارى .

وقال أبو العالية ، وغيره : الصلوات : معابد الصابئين .

وقال ابن أبي نجيح ، عن مجاهد : الصلوات : مساجد لأهل الكتاب ولأهل الإسلام بالطرق : وأما المساجد فهى للمسلمين .

وقوله : (يذكر فيها اسم الله كثيرا) ، فقد قيل الضمير فى قوله : (يذكر فيها) عائد إلى المساجد لأنها أقرب المذكورات .

وقال الضحاك : الجميع يذكر فيها اسم الله كثيرا .

وقال ابن جرير : الصوابُ لهدّمت صوامع الرهبان وبِيَعُ النصارى وصلوات اليهود ، وهى كنائسهم ، ومساجد المسلمين التى يذكر فيها اسم [الله] كثيرا ، لأن هذا هو المستعمل المعروف فى كلام العرب (١) .

وقال بعض العلماء : هذا ترقٍّ من الأقل إلى الأكثر إلى أن ينتهى إلى المساجد ، وهى أكثر عُمّارا وأكثر عبادا ، وهم ذوو القصد الصحيح .

وقوله : (ولينصرن الله من ينصره) ، كقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا ، إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ، والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم (٢)) .

وقوله : (إن الله لقوى عزيز) وَصَفَ نفسه بالقوة والعزة ، فبقوته خلق كل شيء فقدره تقديرا ، وبعزته لا يقهره قاهر ، ولا يغلبه غالب ، بل كل شيء ذليل لديه ، فقير إليه . ومن كان القويّ العزيز ناصرَه فهو المنصور ، وعدوه هو المقهور ، قال الله تعالى : (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنهم لهم المنصورون . وإن جندنا لهم الغالبون (٣)) ، وقال تعالى : (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ، إن الله لقوى عزيز) (٤) .

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ (٤١)

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو الربيع الزهرانى ، حدثنا حماد بن زيد ، عن أيوب وهشام ، عن محمد قال : قال عثمان بن عفان : فينا نزلت : (الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر) ، فأخرجنا من ديارنا بغير حق ، إلا أن قلنا : « ربنا الله » ، ثم مُكّنّا فى الأرض ، فأقمنا الصلاة ، وآتينا الزكاة ، وأمرنا بالمعروف ، ونهينا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور ، فهى لى ولأصحابى .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٧/١٢٦ .

(٢) سورة محمد ، الآية : ٧ ، ٨ .

(٣) سورة الصافات ، الآيات : ١٧١ - ١٧٣ .

(٤) سورة المجادلة ، آية : ٢١ .

وقال أبو العالية : هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال الصباح بن سوادة الكندى : سمعت عمر بن عبد العزيز يخطب وهو يقول : (الذين إن مكناهم فى الأرض) ... الآية ، ثم قال : ألا إنها ليست على الوالى وحده ، ولكنها على الوالى والمولىّ عليه ، ألا أنبئكم بما لكم على الوالى من ذلكم ، وبما للوالى عليكم منه ؟ إن لكم على الوالى من ذلكم أن يؤاخذكم بحقوق الله عليكم ، وأن يأخذ لبعضكم من بعض ، وأن يهديكم للتى هى أقوم ما استطاع ، وإن عليكم من ذلك الطاعة غير المبزوزة (١) ولا المستكرهة ، ولا المخالف سرها علانيتها .

وقال عطية العوفى : هذه الآية كقوله : (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض (٢)) .

وقوله : (ولله عاقبة الأمور) ، كقوله تعالى : (والعاقبة للمتقين (٣)) .

وقال زيد بن أسلم : (ولله عاقبة الأمور) : وعند الله ثواب ما صنعوا .

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾

يقول تعالى مسليا لنبيه محمدا صلى الله عليه وسلم فى تكذيب من خالفه من قومه : (وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح) إلى أن قال : (وكذب موسى) ، أى : مع ما جاء به من الآيات البينات والدلائل الواضحات .

(فأمليت للكافرين) ، أى : أنظرتهم وأخرتهم ، (ثم أخذتهم ، فكيف كان نكير) ، أى : فكيف كان إنكارى عليهم ومعاقبتى لهم ؟ !

ذكر بعض السلف أنه كان بين قول فرعون لقومه : (أنا ربكم الأعلى) ، وبين إهلاك الله له أربعون سنة .

وفى الصحيحين عن أبى موسى ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ، ثم قرأ : (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة) [إن أخذه أليم شديد (٤)] .

ثم قال تعالى : (فكأين من قرية أهلكناها) ، أى : كم من قرية أهلكتها (وهى ظالمة)] أى : مكذبة لرسولها ، (فهى خاوية على عروشها) — قال الضحاك : سقوفها ، أى : قد خربت منازلها وتعطلت حواضرها .

(وبئر معطلة) ، أى : لا يستقى منها ، ولا يردها أحد بعد كثرة واردها والازدحام عليها .

---

(١) بزه يبزه بزاً : غلبه وغصبه . وبز الشىء : انتزعه . يقول : لا ألزمكم الطاعة قسراً .
(٢) سورة النور ، الآية : ٥٥ .
(٣) سورة القصص ، آية : ٨٣ .
(٤) تقدم الحديث من هذه الآية من سورة هود : ٢٢٨/٤ ، ٢٢٩ ، وخرجناه هناك .

(وقصر مَشِيد) ، قال عكرمة : يعنى المُبَيَّض بالجص .

وروي عن على بن أبي طالب ، ومجاهد ، وعطاء ، وسعيد بن جبير ، وأبي المليح ، والضحاك ، نحو ذلك .

وقال آخرون : هو المُنيف المرتفع .

وقال آخرون : الشديد المنيع الحصين .

وكل هذه الأقوال متقاربة ، ولا منافاة بينها ، فإنه لم يحم أهله شدة بنائه ولا ارتفاعه، ولا إحكامه ولا حصانته ، عن حلول بأس الله بهم ، كما قال تعالى : (أينما تكونوا يدرككم الموت ، ولو كنتم فى بروج مشيدة (١)) .

وقوله : (أفلم يسيروا فى الأرض) ، أى : بأبدانهم وبفكرهم أيضا ، وذلك كاف ، كما قال ابن أبي الدنيا فى كتاب التفكر والاعتبار :

حدثنا هارون بن عبد الله ، حدثنا سيار ، حدثنا جعفر (٢) ، حدثنا مالك بن دينار قال : أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : أن يا موسى ، اتخذ نعلين من حديد وعصا ، ثم سِح فى الأرض واطلب الآثار والعبر ، حتى تتخرق النعلان وتكسر العصا .

وقال ابن أبي الدنيا : قال بعض الحكماء (٣) : أحْيِ قلبك بالمواعظ ، ونَوِّره بالفكر ، وموِّته بالزهد ، وقوِّه باليقين ، وذلِّله بالموت (٤) وقرِّره بالفناء (٥) ، وبصره فجائع الدنيا (٦) ، وحذِّره صولة الدهر وفحشَ تقلُّب الأيام ، واعرض عليه أخبار الماضين وذكِّره ما أصاب (٧) من كان قبله ، وسِرْ فى ديارهم وآثارهم ، وانظر ما فعلوا ، وأين حلوا ، وعم انقلبوا .

أى : فانظروا ما حلَّ بالأمم المكذبة من النقم والنكال ، (فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها) ، أى : فيعتبرون بها ، (فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) ، أى : ليس العمى عمى البصر ، وإنما العمى عمى البصيرة ، وإن كانت القوة الباصرة سليمة فإنها لا تنفذ إلى العبر ، ولا تدرى ما الخبر . وما أحسن ما قاله بعض الشعراء فى هذا المعنى ، وهو أبو محمد عبد الله بن محمد بن سارة (٨) الأندلسى الشَّنْتَرِينى ، وقد كانت وفاته سنة سبع عشرة وخمسمائة :

---

(١) سورة هود ، آية : ١٠٢ .

(٢) فى المخطوطة : « حدثنا سيار بن جعفر » . والصواب ما أثبتناه . وسيار هو ابن حاتم العنزى أبو سلمة ، يروى عن جعفر بن سليمان . مترجم فى الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٢/١/٢٥٧ .

(٣) انظر هذه الموعظة فى نهج البلاغة المنسوب إلى الإمام على ، الوصية الحادية والثلاثين : ٣٠٨ بتحقيقنا .

(٤) فى المخطوطة : « وذلله بالقرب » والمثبت عن الطبعات السابقة . وفى نهج البلاغة : « وذلله بذكر الموت » .

(٥) فى المخطوطة : « وتدبره بالثناء » . والمثبت عن نهج البلاغة . والمعنى : « سكنه وثبته بذكر الموت » .

(٦) فى المخطوطة : « وبصره بمجامع » . والمثبت عما سبق .

(٧) فى المخطوطة : « وذكره بأم كتاب من كان ... » والمثبت أيضاً عما سبق .

(٨) فى المخطوطة : « محمد بن جبارة » . والمثبت عن ترجمته فى العبر للذهبى : ٤/٤٠ . والمغرب فى حلى المغرب : ١/٤١٩ ، وانظر الأعلام : ٤/٢٦٨ .

يا مَنْ يُصبِحُ إلى داعي الشَّقَاء ، وَقَد نَادَى به الناعيَان : الشيبُ والكِبَرُ
إن كُنتَ لا تَسْمَعِ الذكْرَى ، ففيم تَرَى في رَأسك الوَاعيان : السمعُ والبَصَرُ؟
ليسَ الأصَمّ ولا الأعمَى سوَى رَجُل لم يَهْدِه الهَاديان : العَيْنُ والأثَرُ
لاَ الدَّهرُ يَبْقَى وَلاَ الدّنيا ، وَلاَ الفَلَكُ الـ أعلى وَلا النَّيِّرَان : الشَّمْسُ وَالقَمَرُ
لَيَرْحَلَنَّ عَنِ الدّنيا ، وَإن كَرِها فراقها ، الثاويَان : البَدْوُ والحَضَرُ

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ ﴾

يقول تعالى لنبيه ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ : (ويستعجلونك بالعذاب) ، أى : هؤلاء الكفار الملحدون المكذبون بالله وكتابه ورسوله واليوم الآخر ، كما قال تعالى : (وإذ قالوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ، فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم (١)) ، (وقالوا : ربنا ، عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب)(٢) .

وقوله : (ولن يخلف الله وعده) ، أى : الذى قد وَعَد ، من إقامة الساعة والانتقام من أعدائه ، والإكرام لأوليائه :

قال الأصمعى : كنت عند أبى عمرو بن العلاء ، فجاءه عمرو بن عبيد ، فقال : يا أبا عمرو ، وهل يخلف الله الميعاد ؟ فقال : لا ، فذكر آيةَ وعيد ، فقال له : أمن العجم (٣) أنت ؟ إن العرب تَعُد الرجوع عن الوعد لؤما ، وعن الإيعاد كرما ، أو ما سمعتَ قول الشاعر (٤) :

لا يُرْهِبُ ابنَ العم منّى سَطْوَتِى ولا أختتى من سَطْوَة المُتَهَدِّد (٥)
فإنّى وَإن أوْعَدْتُه أوْ وَعَدْتُه لَمُخْلِفُ إيعَادى ومُنْجِزُ مَوْعِدى

وقوله : (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) ، أى : هو تعالى لا يَعجَل ، فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حكمه ، لعلمه بأنه على الانتقام قادر ، وأنه لا يفوته شئ ، وإن أجّلَ وأنظَر وأملى . ولهذا قال بعد هذا : (وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ، ثم أخذتها وإلى المصير) :

---

(١) سورة الأنفال ، آية : ٣٢ .
(٢) سورة « ص » ، آية : ١٦ .
(٣) اضطرب النص فى مخطوطة الأزهر من قوله : « أمن العجم أنت ؟ » إلى « عن الوعد لؤما » ، والمثبت عن الطبعات السابقة .
(٤) هو عامر بن الطفيل ، والبيتان فى ديوانه ، ط . بيروت : ٥٨ ، واللسان (ختأ) ، والثانى فى اللسان (وعد) مع خلاف يسير .
(٥) فى المخطوطة : « ابن العم والجار » ، « ولا يتى عن سطوة » ، والمثبت عن الديوان . واختتأ الشيء : اختطفه . واختتأ منه : اختبأ واستتر خوفا وحياء ، وترك الهمز ضرورة ، فأصله « أختتئ » .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا الحسن بن عرفة ، حدثني عبدة بن سليمان ، عن محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم ، خمسمائة عام » :

ورواه الترمذي والنسائي ، من حديث الثوري ، عن محمد بن عمرو ، به ؛ وقال الترمذي : حسن صحيح (١) ؛ وقد رواه ابن جرير ، عن أبي هريرة موقوفا ، فقال :

حدثني يعقوب ، حدثنا ابن عُلَيَّة ، حدثنا سعيد الجُرَيري ، عن أبي نضرة ، عن سُمَير بن نَهار قال : قال أبو هريرة : يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بمقدار نصف يوم ؛ [قلت : وما نصف يوم ؟] قال : أوَ ما تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى ؛ قال : (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) (٢) :

وقال أبو داود في آخر كتاب الملاحم من سننه : حدثنا عمرو بن عثمان ، حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا صفوان ، عن شُرَيح بن عُبَيد ، عن سعد بن أبي وقاص ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إني لأرجو أن لا تعجِزَ أمتي عند ربها ، أن يؤخرهم نصف يوم ؛ قيل لسعد : وما نصف يوم ؟ قال : خمسمائة سنة (٣) ؛

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، عن إسرائيل ، عن سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) ، قال : من الأيام التي خلق الله فيها السموات والأرض ؛

رواه ابن جرير ، عن ابن بشار ، عن ابن مهدي (٢) ؛ وبه قال مجاهد ، وعكرمة ، ونص عليه أحمد بن حنبل في كتاب « الرد على الجهمية » ؛

وقال مجاهد : هذه الآية كقوله : (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ، ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون (٤)) ؛

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عارم – محمد (٥) بن الفضل – حدثنا حماد بن زيد ، عن يحيى بن عتيق ، عن محمد بن سيرين ، عن رجل من أهل الكتاب أسلم قال : إن الله تعالى خلق السماوات والأرض في ستة أيام ، (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) ، وجعل أجل الدنيا ستة أيام ، وجعل الساعة في اليوم السابع ، (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) ، فقد مضت الستة الأيام ، وأنتم في اليوم السابع ؛ فمثل ذلك كمثل الحامل إذا دخلت شهرها ، ففي أية لحظة ولدت كان تماما (٦) .

---

(١) تحفة الأحوذي ، أبواب الزهد ، باب « ما جاء في فضل الفقر » ، الحديث ٢٤٥٨ : ٧/٢١ ، ٢٢ .

(٢) تفسير الطبري : ١٧/١٢٩ .

(٣) سنن أبي داود ، كتاب الملاحم ، باب « قيام الساعة » ، الحديث ٤٣٥٠ : ٤/١٢٠ .

(٤) سورة السجدة ، آية : ٥ .

(٥) في المخطوطة : « عارم بن محمد بن الفضل » . وعارم لقب محمد بن الفضل . انظر الجرح لابن أبي حاتم : ٤/١/٥٨ ، ٥٩ ، والتهذيب : ٩/٤٠٢ .

(٦) الأثر في الدر المنثور : ٤/٣٦٥ ، عن عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم .

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾

يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم حين طلب منه الكفار وقوع العذاب واستعجلوه به : (قل : يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين) ، أي : إنما أرسلنى الله إليكم نذيراً لكم بين يدى عذاب شديد ، وليس إلى من حسابكم من شىء ، أمركم إلى الله ، إن شاء عجل لكم العذاب ، وإن شاء أخره عنكم ، وإن شاء تاب على من يتوب إليه ، وإن شاء أضل من كتب عليه الشقاوة ، وهو الفعال لما يشاء ويريد ويختار ، (لا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب (١)) و (إنما أنا لكم نذير مبين . فالذين آمنوا وعملوا الصالحات) ، أى : آمنت قلوبهم وصدقوا إيمانهم بأعمالهم ، (لهم مغفرة ورزق كريم) ، أى : مغفرة لما سلف من سيئاتهم ، ومجازاة ، حسنة على القليل من حسناتهم .

قال محمد بن كعب القرظى : إذا سمعت الله تعالى يقول : (ورزق كريم) ، فهو الجنة .

وقوله : (والذين سعوا فى آياتنا معاجزين) ، قال مجاهد : يثبطون الناس عن متابعة النبى صلى الله عليه وسلم (٢) .

وكذا قال عبد الله بن الزبير : مثبطين .

وقال ابن عباس : (معاجزين) : مراغمين .

(أولئك أصحاب الجحيم) ، وهى النار الحارة الموجعة الشديد عذابها ونكالها ، أجارنا الله منها . قال الله تعالى : (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ، زدناهم عذابا فوق العذاب ، بما كانوا يفسدون (٣)) .

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾

قد ذكر كثير من المفسرين هاهنا قصة الغرانيق (٤) ، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة ، ظنا منهم أن مشركى قريش قد أسلموا ، ولكنها من طرق كلها مرسلة (٥) ، ولم أرها مسندة من وجه صحيح ، والله أعلم .

---

(١) سورة الرعد ، آية : ٤١ .

(٢) تفسير الطبرى : ١٧/١٣١ .

(٣) سورة النحل ، آية : ٨٨ .

(٤) الغرانيق : الأصنام . وهى فى الأصل : الذكور من طير الماء ، واحدها : غرنوق ــ بضم ، فسكون ، فضم النون ، وغرنيق ــ بضم فسكون ، ففتح النون ــ سمى الطائر به لبياضه . وقد كان العرب يزعمون أن الأصنام تقربهم من الله وتشفع لهم ، فشبهت بالطيور التى تعلو فى السماء وترتفع .

(٥) المرسل : ما سقط منه الصحابى ، كقول نافع : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا ، أو فعل كذا ، أو فعل بحضرته كذا .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا يونس بن حبيب ، حدثنا أبو داود ، حدثنا شعبة ، عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة «النجم» فلما بلغ هذا الموضع : (أفرأيتم اللات والعزّى ، ومناة الثالثة الأخرى) ، قال : فألقى الشيطان على لسانه : « تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن ترتجى » ، قالوا : ماذكر آلهتنا بخير قبل اليوم ، فسجدَ وسجدوا ، فأنزل الله عز وجل هذه الآية : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته) .

رواه ابن جرير ، عن بُندار ، عن غُنْدَر ، عن شعبة ، به نحوه (١) ؛ وهو مرسل ، وقد رواه البزار في مسنده ، عن يوسف بن حماد ، عن أمية بن خالد ، عن شعبة ، عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس — فيما أحسب ، الشك في الحديث — أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ بمكة سورة النجم ، حتى انتهى إلى : (أفرأيتم اللات والعزى) ، وذكر بقيته ، ثم قال البزار : « لايُروى متصلا إلا بهذا الإسناد ، تفرد بوصله أمية بن خالد ، وهو ثقة مشهور ، وإنما يُروى هذا من طريق الكلبي ، عن أبي صالح ، [عن ابن عباس] (٢) » .

ثم رواه ابن أبي حاتم ، عن أبي العالية ، وعن السدى ، مرسلا ، وكذا رواه ابن جرير ، عن محمد بن كعب القرظي ، ومحمد بن قيس ، مرسلا أيضا (٣) .

وقال قتادة : كان النبي صلى الله عليه وسلم عند المقام إذ نَعَس ، فألقى الشيطان على لسانه « وإن شفاعتها لترتجى ، وإنها لمع الغرانيق العلى » ، فحفظها المشركون ، وأجرى الشيطان أن نبيّ الله قد قرأها ، فزَلّت بها ألسنتهم ، فأنزل الله : (وما أرسلنا من قبلك من رسول) الآية ، فدحر الله الشيطان .

ثم قال ابن أبي حاتم : حدثنا موسى بن أبي موسى الكوفي ، حدثنا محمد بن إسحاق المسيبي (٤) ، حدثنا محمد بن فليح ، عن موسى بن عقبة ، عن ابن شهاب قال : أنزلت سورة النجم ، وكان المشركون يقولون : لو كان هذا الرجلُ يذكر آلهتنا بخير أقررناه وأصحابه ، ولكنه لا يذكر من خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذي يذكر آلهتنا من الشتم والشر — وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اشتد عليه ماناله وأصحابه من أذاهم وتكذيبهم ، وأحزنه ضلالُهم ، فكان يتمنى هُداهم ، فلما أنزل الله سورة النجم قال : (أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، ألكم الذكر وله الأنثى) ، ألقى الشيطان عندها كلمات حين ذكر الله الطواغيت ، فقال : « وإنهن لهن الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لهي التي ترتجى » ، وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته ، فوقعت هاتان الكلمتان في قلب كل مشرك بمكة ، وزلت بها ألسنتهم ، وتباشروا بها ، وقالوا : إن محمدا قد رجع إلى دينه الأول ، ودين قومه ، فلما بلغ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم [آخر النجم] (٥) ، سجدَ وسجد كلّ من حَضَره من مسلم أو مشرك ، غير أن الوليد بن المغيرة كان رجلا كبيرا ،

---

(١) تفسير الطبرى : ١٧/١٣٣ .

(٢) انظر الشفاء للقاضي عياض : ٢/١٠٨ .

(٣) تفسير الطبرى : ١٧/١٣١ .

(٤) انظر ترجمة محمد بن إسحاق هذا في الجرح لابن أبي حاتم : ٣/٢/١٩٤ .

(٥) ما بين القوسين عن الدر المنثور : ٤/٣٦٧ ، والطبعات السابقة .

فرفع على كفه ترابا ، فسجد عليه . فعجب الفريقان كلاهما من جماعتهم فى السجود ، لسجود رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأما المسلمون فعجبوا لسجود المشركين معهم على غير إيمان ولا يقين ــ ولم يكن المسلمون سمعوا الآية التى ألقى الشيطان فى مسامع المشركين ــ فاطمأنت أنفسهم لما ألقى الشيطانُ فى أمنيّة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحدثهم به الشيطان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قرأها فى السورة ، فسجدوا لتعظيم آلهتهم . ففشت تلك الكلمة فى الناس ، وأظهرها الشيطان، حتى بلغت أرض الحبشة ومَن بها من المسلمين ، عثمانَ بن مظعون وأصحابَه ، وتحدثوا أن أهل مكة قد أسلموا كلّهم ، وصلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبلغهم سجود الوليد بن المغيرة على التراب على كفه ، وحدّثوا أن المسلمين قد أمنوا بمكة . فأقبلوا سراعا وقد نسخ الله ما ألقى الشيطان ، وأحكم الله آياته ، وحفظه من الفرية ، وقال : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ، فينسخ الله ما يلقى الشيطان، ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم . ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفى شقاق بعيد) ، فلما بين الله قضاءه ، وبرّأه من سجع الشيطان ، انقلب المشركون بضلالهم وعداوتهم للمسلمين ، واشتدوا عليهم . وهذا أيضاً مرسل .

وفى تفسير ابن جرير عن الزهرى ، عن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، نحوه (١) . وقد رواه الإمام أبو بكر البيهقى فى كتابه « دلائل النبوة » فلم يَجُزْ به موسى بن عقبة ، ساقه فى مغازيه بنحوه ، قال : وقد روينا عن ابن إسحاق هذه القصة .

قلت : وقد ذكرها محمد بن إسحاق فى السيرة (٢) بنحو من هذا ، وكلها مرسلات ومنقطعات ، فالله أعلم . وقد ساقها البغوى فى تفسيره مجموعة من كلام ابن عباس ، ومحمد بن كعب القرظى ، وغيرهما بنحو من ذلك ، ثم سأل هاهنا سؤالا : كيف وقع مثل هذا مع العصمة المضمونة من الله لرسوله ــ صلوات الله وسلامه عليه ؟ ثم حكى أجوبة عن الناس ، من ألطفها : أن الشيطان أوقعَ فى مسامع المشركين ذلك ، فتوهموا أنه صدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس كذلك فى نفس الأمر ، بل إنما كان من صنيع الشيطان لا من رسول الرحمن صلى الله عليه وسلم ، والله أعلم .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٧/ ١٣٣ .

(٢) لم يورد ابن هشام قصة الغرانيق فى روايته عن ابن إسحاق . ونتقل هنا ما علق به العلامة السهيلى فى الروض الأنف ٢٢٩/١ عند حديث ابن هشام عن عودة مهاجرى الحبشة ، قال السهيلى : « وسببه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ سورة النجم ، فألقى الشيطان فى أمنيته ــ أى : فى تلاوته ــ عند ذكر اللات والعزى : « وإنهن لهن الغرانقة العلى . وإن شفاعتهن لترتجى » . فطار ذلك بمكة ، فسر المشركون وقالوا : قد ذكر آلهتنا بخير ، فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى آخرها وسجد المشركون والمسلمون ، ثم أنزل الله تعالى : (فينسخ الله ما يلقى الشيطان) ... الآية . فمن ها هنا اتصل بهم فى أرض الحبشة أن قريشاً قد أسلموا ، ذكره موسى بن عقبة وابن إسحاق ، فى غير رواية البكائى . وأهل الأصول يدفعون هذا الحديث بالحجة ، ومن صححه قال فيه أقوالا ، منها :

أن الشيطان قال ذلك وأشاعه ، والرسول لم ينطق به . وهذا جيد لولا أن فى حديثهم أن جبريل قال لمحمد : « ما أتيتك بهذا » .

ومنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قالها من قبل نفسه ، وعنى بها الملائكة أن شفاعتهم لترتجى .

ومنها : أن النبى ــ عليه السلام ــ قاله حاكيا عن الكفرة وأنهم يقولون ذلك ، فقالها متعجبا من كفرهم .

والحديث ــ على ما خيلت ــ غير مقطوع بصحته ، والله أعلم » .

وهكذا تنوعت أجوبة المتكلمين عن هذا بتقدير صحته . وقد تعرض القاضي عياض رحمه الله في كتاب « الشفاء » هذا ، وأجاب عما حاصله (١) :

وقوله : (إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته) ، هذا فيه تسلية له - صلوات الله وسلامه عليه - أي : لا يَهِيدَنَّكَ (٢) ذلك ، فقد أصاب مثلَ هذا مَن قبلك من المرسلين والأنبياء :

قال البخاري : قال ابن عباس : (في أمنيته) : إذا حَدَّثَ ألقى الشيطانُ في حَدِيثه ، فيبطل الله ما يلقي الشيطان ويحكم الله آياته (٣) .

قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (إذا تمنى [ألقى الشيطان في أمنيته) ، يقول : إذا حَدَّثَ ألقى الشيطان في حديثه .

وقال مجاهد : (إذا تمنى] ، يعني إذا قال (٤) :

ويقال : (أمنيته) : قراءته ، (إلا أماني) ، يقولون ولا يكتبون (٥) .

قال البغوي : وأكثر المفسرين قالوا : معنى قوله : (تمنى) ، أي : تلا وقرأ كتاب الله ، (ألقى الشيطان في أمنيته) ، أي : في تلاوته ، قال الشاعر في عثمان حين قتل (٦) :

تَمَنَّى كِتَابَ اللهِ أَوَّلَ لَيْلَةٍ . وَآخِرَهَا لَاقَى حِمَامَ المَقَادِرِ

وقال الضحاك : (إذا تمنى) ، إذا تلا .

قال ابن جرير : هذا القول أشبه بتأويل الكلام (٧) .

وقوله : (فينسخ الله ما يلقي الشيطان) ، حقيقة النسخ لغة : الإزالة والرفع .

قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : أي فيبطل الله سبحانه وتعالى ما ألقى الشيطان .

---

(١) كذا في المخطوطة ، وبعده في الطبعات السابقة : « أنها كذلك لثبوتها » . ولا نشك أنه مقحم على نص ابن كثير . ولفظ القاضي عياض ٢/١٠٧ : « ... فاعلم - أكرمك الله - أن لنا في الكلام على مشكل هذا الحديث مأخذين ، أحدهما في توهين أصله ، والثاني على تسليمه . أما المأخذ الأول فيكفيك أن هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل ، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب ... » ، ثم قال ٢/١١١ : « وأما المأخذ الثاني فهو مبني على تسليم الحديث لو صح - وقد أعاذنا الله من صحته - ولكن على كل حال فقد أجاب عن ذلك أئمة المسلمين ... » . انظر هذه الأجوبة في الشفاء : ٢/١١١ - ١١٤ .

(٢) انظر تفسير هذه الكلمة في : ١/٣٢١ .

(٣) البخاري ، تفسير سورة الحج : ٦/١٢٢ .

(٤) تفسير الطبري : ١٧/١٣٣ .

(٥) انظر تفسير الآية ٧٨ من سورة البقرة : ١/١٦٧ .

(٦) البيت في اللسان (مني) غير منسوب .

(٧) تفسير الطبري : ١٧/١٣٤ .

وقال الضحاك : نسخ جبريلُ بأمر الله ما ألقى الشيطان ، وأحكم الله آياته .

وقوله : (والله عليم) ، [أى : بما يكون من الأمور والحوادث ، لا تخفى عليه خافية] ، (حكيم) ، أى : فى تقديره وخلقه وأمره ، له الحكمة التامة ، والحجة البالغة . ولهذا قال : (ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض) ، أى : شك وشرك وكفر ونفاق ، كالمشركين حين فرحوا بذلك ، واعتقدوا أنه صحيح ، وإنما كان من الشيطان .

قال ابن جريج : (الذين فى قلوبهم مرض) هم : المنافقون ، (والقاسية قلوبهم) : المشركون .

وقال مقاتل بن حيان : هم اليهود .

(وإن الظالمين لفى شقاق بعيد) ، أى : فى ضلال ومخالفة وعناد بعيد ، أى : من الحق والصواب .

(وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به) ، أى : وليعلم الذين أوتوا العلم النافع الذى يفرقون به بين الحق والباطل ، المؤمنون بالله ورسوله ، أن ما أوحيناه إليك هو الحق من ربك ، الذى أنزله بعلمه وحفظه وحرسه أن يختلط به غيره ، بل هو كتاب حكيم ، (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد) .

وقوله : (فيؤمنوا به) ، أى : يصدقوه وينقادوا له ، (فتخبت له قلوبهم) ، أى : تخضع وتذل ، (وإنّ الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم) ، أى : فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فيرشدهم إلى الحق واتباعه ، ويوفقهم لمخالفة الباطل واجتنابه ، وفى الآخرة يهديهم الصراط المستقيم الموصل إلى درجات الجنات ، ويزحزحهم عن العذاب الأليم والدركات .

﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار : أنهم لا يزالون فى مرية ، أى : فى شك وريب من هذا القرآن ، قاله ابن جريج ، واختاره ابن جرير(١) .

وقال سعيد بن جُبَيْر ، وابن زيد : (منه) ، أى : مما ألقى الشيطان .

(حتى تأتيهم الساعة بغتة) ، قال مجاهد : فجأة . وقال قتادة : (بغتة) ، بغت [القوم(٢)] أمرُ الله ، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم ، فلا تغتروا بالله ، إنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون .

وقوله : (أو يأتيهم عذاب يوم عقيم) ، قال مجاهد : قال أبى بن كعب : هو يوم بدر ، وكذا قال عكرمة ، وسعيد بن جبير ، وقتادة وغير واحد . واختاره ابن جرير .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٧/١٣٥ .

(٢) فى المخطوطة : « بغت الله : أمر الله » . والمثبت من الطبعات السابقة . ولم يقع لنا أثر قتادة .

وقال عكرمة، ومجاهد [في رواية عنهما] : هو يوم القيامة لا ليلة له ، وكذا قال الضحاك ، والحسن البصرى .

وهذا القول هو الصحيح ، وإن كان يوم بدر من جملة ما أوعدوا به ، لكن هذا هو المراد ، ولهذا قال : (الملك يومئذ لله يحكم بينهم) ، كقوله : (مالك يوم الدين) وقوله : (الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً(١)) .

(فالذين آمنوا وعملوا الصالحات) ، أى : آمنت قلوبهم ، وصدّقوا بالله ورسوله ، وعملوا بمقتضى ما علموا ، وتوافق قلوبهم وأقوالهم وأعمالهم .

(فى جنات النعيم) ، أى : لهم النعيم المقيم ، الذى لا يحول ولا يزول ولا يبيد .

(والذين كفروا وكذبوا بآياتنا) ، أى : كفرت قلوبهم بالحق ، وجحدوا به وكذبوا به ، وخالفوا الرسل ، واستكبروا عن اتباعهم . (فأولئك لهم عذاب مهين) ، أى : مقابلة استكبارهم وإعراضهم عن الحق ، كقوله تعالى : (إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين(٢)) ، أى : صاغرين .

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ * ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾

يخبر تعالى عمّن خرج مهاجراً فى سبيل الله ابتغاء مرضاته ، وطلبا لما عنده ، وترك الأوطان والأهلين والخلاّن ، وفارق بلاده فى الله ورسوله ، ونُصرة لدين الله ، (ثم قتلوا) ، أى : فى الجهاد ، (أو ماتوا) ، أى : حتف(٣) أنفهم ، أى : من غير قتال على فُرُشهم ، فقد حصلوا على الأجر الجزيل ، والثناء الجميل ، كما قال تعالى : (ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ، ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله(٤)) .

وقوله : (ليرزقنهم الله رزقا حسنا) ، أى : ليُجْرِيَنّ عليهم من فضله ورزقه من الجنة ما تقَرّ به أعينهم ، (وإن الله لهو خير الرازقين . ليدخلنهم مدخلا يرضونه) ، أى : الجنة . كما قال تعالى : (فأما إن كان من المقربين . فروح وريحان وجنة نعيم(٥)) ، فأخبر أنه يحصل له الراحة والرزق وجنة نعيم ، كما قال هاهنا : (ليرزقنهم الله رزقاً حسناً) ، ثم قال : (ليدخلنهم مدخلا يرضونه ، وإن الله لعليم) ، أى : بمن يهاجر ويجاهد فى سبيله ، وبمن يستحق ذلك ، (حليم) ، أى : يحلم ويصفح ويغفر لهم الذنوب ويكفرها عنهم بهجرتهم إليه ، وتوكلهم عليه . فأما

(١) سورة الفرقان ، آية : ٢٦ .
(٢) سورة غافر ، آية : ٦٠ .
(٣) الحتف : الهلاك ، كانوا يتخيلون أن روح المريض تخرج من أنفه ، فإن جرح خرجت من جراحته .
(٤) سورة النساء ، آية : ١٠٠ .
(٥) سورة الواقعة ، آية : ٨٨ ، ٨٩ .

من قُتل فى سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر، فإنه حى عند ربه يرزق ، كما قال تعالى : (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون(١)) والأحاديث فى هذا كثيرة، كما تقدم(٢) : وأما مَنْ تُوُفى فى سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر ، فقد تضمنت هذه الآية الكريمة مع الأحاديث الصحيحة إجراء الرزق عليه ، وعظيم إحسان الله إليه .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا المسيب بن واضح ، حدثنا ابن المبارك ، عن عبد الرحمن بن شريح ، عن ابن الحارث ــ يعنى عبد الكريم ــ عن ابن عقبة ــ يعنى أبا عبيدة بن عقبة ــ قال : حدثنا شرحبيل بن السِّمط : طال رباطنا وإقامتنا على حصن بأرض الروم ، فمر بى سلمان ــ يعنى الفارسى ــ رضى الله عنه فقال : إنى سمعت رسول الله يقول : من مات مرابطاً ، أجرى الله عليه مثل ذلك الأجر ، وأجرى عليه الرزق ، وأمن من الفَتّانين ، واقرءوا إن شئتم : (والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ، ليرزقهم الله رزقاً حسناً، وإن الله لهو خير الرازقين ، ليدخلنهم مدخلا يرضونه ، وإن الله لعليم حليم) .

وقال أيضاً : حدثنا أبو زُرْعة ، حدثنا زيد بن بشر ، أخبرنى همام ، أنه سمع أبا قبيل وربيعة بن سيف المَعَافرى يقولان : كنا برُودس ، ومعنا فضالة بن عُبَيد الأنصارىّ ــ صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ فمر بجنازتين ، إحداهما قتيل والأخرى متوفى ، فمال الناس على القتيل ، فقال فضالة : مالى أرى الناس مالوا مع هذا ، وتركوا هذا ؟ ! فقالوا : هذا قتيل فى سبيل الله تعالى . فقال : والله ما أبالى من أىّ حفرتيهما بُعثتُ ، اسمعوا كتاب الله : (والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا) حتى آخر الآية .

وقال أيضاً : حدثنا أبى ، حدثنا عبدة بن سليمان ، أنبأنا ابن المبارك ، أنبأنا ابن لهيعة ، [حدثنا] سلامان بن عامر الشعبانى ، أن عبد الرحمن بن جحدم الخولانى حدثه : أنه حضر فضالة بن عبيد فى البحر مع جنازتين ، أحدهما أصيب بمنجنيق والآخر توفى ، فجلس فضالة بن عبيد عند قبر المتوفى ، فقيل له : تركت الشهيد فلم تجلس عنده ؟ فقال : ما أبالى من اىّ حفرتيهما بعثتُ ، إن الله يقول : (والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا) إلى قوله : (يرضونه) ، فما تبتغى أيها العبد إذا أدخلت مدخلا تَرضاه ورزقتَ رزقاً حسناً ، والله ما أبالى من أىّ حفرتيهما بعثتُ .

ورواه ابن جرير ، عن يونس بن عبد الأعلى ، عن ابن وهب ، أخبرنى عبد الرحمن بن شريح ، عن سلامان (٣) ابن عامر قال : كان فضالة برُودس أميراً على الأرباع ، فخرج بجنازتى رجلين ، أحدهما قتيل والآخر متوفى ... فذكر نحو ما تقدم .

وقوله : (ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بُغِىَ عليه لينصرنه الله) ، ذكر مقاتلُ بن حيَّان وابن جُرَيج أنها نزلت فى سرية من الصحابة ، لقُوا جمعاً من المشركين فى شهر محرم ، فناشدهم المسلمون لئلا يقاتلوهم فى الشهر الحرام ، فأبى المشركون إلا قتالهم وبغوا عليهم ، فقاتلهم المسلمون ، فنصرهم الله عليهم ، (إن الله لعفو غفور) .

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٦٩ .

(٢) انظرها عند الآية المتقدمة فى سورة آل عمران : ٢/١٣٩ – ١٤٣ .

(٣) فى المخطوطة : « أخبرنى عبد الرحمن بن شريح وسلامان ... » . والمثبت عن تفسير الطبرى : ١٧/١٣٦ .

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ۝﴾

يقول تعالى منبها على أنه الخالق المتصرف فى خلقه بما يشاء ، كما قال : (قل : اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شىء قدير * تولج الليل فى النهار) ، الآية ، ومعنى إيلاجه الليل فى النهار ، والنهار فى الليل : إدخاله من هذا فى هذا ، ومن هذا فى هذا ؛ فتارة يطول الليل ويقصر النهار ، كما فى الشتاء ، وتارة يطول النهار ويقصر الليل ، كما فى الصيف .

وقوله : (وأن الله سميع بصير) ، أى : سميع بأقوال عباده ، بصير بهم ، لا يخفى عليه منهم خافية فى أحوالهم وحركاتهم وسكناتهم .

ولما بيّن أنه المتصرف فى الوجود ، الحاكم الذى لا معقب لحكمه ، قال : (ذلك بأن الله هو الحق) ، أى : الإله الحق الذى لا تنبغى العبادة إلا له ، لأنه [ذو] السلطان العظيم ، الذى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، و كل شىء فقير إليه ، ذليل لديه ، (وأن ما يدعون من دونه هو الباطل) ، أى : من الأصنام والأنداد والأوثان ، وكل ما عبد من دونه تعالى فهو باطل ، لأنه لا يملك ضراً ولا نفعاً .

وقوله : (وأن الله هو العلى الكبير) ، كما قال : (وهو العلى العظيم(١)) ، وقال : (الكبيرُ المتعال(٢)) ، فكل شىء تحت قهره وسلطانه وعظمته ، لا إله إلا هو ، ولا رب سواه ، لأنه العظيم الذى لا أعظمَ منه ، العلى الذى لا أعلى منه ، [الكبير] الذى لا أكبر منه ، تعالى وتقدس وتنزه ، وعز وجل عما يقول الظالمون علوا كبيراً .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۝ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ۝﴾

وهذا أيضاً من الدلالة على قدرته وعظيم سلطانه ، فإنه يرسل الرياح ، فتثير سحابا ، فيُمطر على الأرض الجُرُز التى لا نبات فيها ، وهى هامدة يابسة سوداء قَحلة ، (فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت(٣)) ؛

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٢٥٥ .

(٢) فى المخطوطة : « وهو الكبير المتعال » . وانظر الآية ٩ من سورة الرعد .

(٣) سورة الحج ، آية : ٥ .

وقوله : (فتصبح الأرض مخضرة) ، « الفاء » هاهنا للتعقيب ، وتعقيب كل شيء بحسبه ، كما قال : (فخلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما) ، وقد ثبت فى الصحيحين : « أن بين كل شيئين أربعين (١) يوماً » ، ومع هذا هو معقب بالفاء ، وهكذا هاهنا قال : (فتصبح الأرض مخضرة) ، أى : خضراء بعد يَبَسِها (٢) ومحولها .

وقد ذكر عن بعض [أهل](٣) الحجاز : أنها تصبح عقب المطر خضراء ، فالله أعلم .

وقوله : (إن الله لطيف خبير) ، أى : عليم بما فى أرجاء الأرض وأقطارها وأجزائها من الحب وإن صغر ، لا تخفى عليه خافية ، فيوصّل إلى كلّ منه قسطه من الماء فينبته به ، كما قال لقمان : (يا بنى ، إنها إن تلك مثقال حبة من خردل ، فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض ، يأت بها الله ، إن الله لطيف خبير)(٤) ، وقال : (ألاّ يسجدوا لله الذى يخرج الخَبْء فى السموات والأرض) (٥) ، وقال تعالى : (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس ، إلا فى كتاب مبين) (٦) ، وقال : (وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة) (٧) ... الآية ، ولهذا قال أمية بن [أبى] الصلت ــ أو : زيد بن عمرو بن نُفَيل ــ فى قصيدته :

وَقُولاَ لَهُ : مَنْ يُنْبِتُ الحَبَّ فى الثَّرَى فَيُصبِحَ منْهُ البَقْلُ يَهْتَزُّ رَابِيا ؟
وَيُخْرِجُ منْهُ حَبَّه فى رُءُوسه فَفِى ذَاكَ آيات لِمَنْ كَانَ وَاعِيا(٨)

وقوله : (له ما فى السموات وما فى الأرض وإن الله لهو الغنى الحميد) ، أى : مُلكه جميعُ الأشياء ، وهو غنى عما سواه ، وكل شيء فقير إليه ، عبد لديه .

وقوله : (ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض) ، أى : من حيوان ، وجماد ، وزروع ، وثمار ، كما قال : (وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه) (٩) ، أى : من إحسانه وفضله وامتنانه ، (والفلك تجرى فى البحر بأمره) ، أى : بتسخيره وتسييره ، أى : فى البحر العَجَّاج ، وتلاطم الأمواج ، تجرى الفلك بأهلها ، بريح طيبة ، ورفق وتؤدة ، فيحملون فيها ما شاءوا من تجائر وبضائع ومنافع ، من بلد إلى بلد ، وقطر إلى قطر ، ويأتون بما عند أولئك إلى هؤلاء ، كما ذهبوا بما عند هؤلاء إلى أولئك ، مما يحتاجون إليه ، ويطلبونه ويريدونه .

---

(١) انظر لفظ الحديث عند الآية الخامسة من هذه السورة : ٥ / ٣٩١ .

(٢) فى المخطوطة : « بعد يباسها » . ولم نجده فى المصادر . وفى اللسان : « يبس الشيء ييبس [بكسر الباء] وييبس [بفتحها] يبساً [بفتح فسكون ويبسا [بضم فسكون] ، وعن ابن سيده : « واليبس [بفتح فسكون]، واليبس [بفتحتين] اسمان » .

(٣) فى المخطوطة : « عن بعض أرض الحجاز » . والمثبت عن الطبعات السابقة .

(٤) سورة لقمان ، آية : ١٦ .

(٥) سورة النمل ، آية : ٢٥ .

(٦) سورة الأنعام ، آية : ٥٩ .

(٧) سورة يونس ، آية : ٦١ .

(٨) تقدمت أبيات زيد بن عمرو بن نفيل فى سورة الرعد : ٤/٣٥١ ، وسورة طه : ٥/٢٨٩ . وخرجناها هنالك .

(٩) سورة الجاثية ، آية : ١٣ .

(ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه) ، أى : لو شاء لأذن للسماء فسقطت على الأرض، فهلك من فيها ، ولكن من لطفه ورحمته وقدرته ، يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، ولهذا قال : (إن الله بالناس لرءوف رحيم) ، أى : مع ظلمهم . كما قال فى الآية الأخرى : (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ، وإن ربك لشديد العقاب(١)) .

وقوله : (وهو الذى أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ، إن الإنسان لكفور) ، كقوله : (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ، ثم يميتكم ثم يحييكم ، ثم إليه ترجعون(٢)) ، وقوله : (قل : الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه(٣)) ، وقوله : (قالوا : ربنا ، أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين(٤)) : ومعنى الكلام : كيف تجعلون لله أنداداً وتعبدون معه غيره ، وهو المستقل بالخلق والرزق والتصرف ، (وهو الذى أحياكم) ، أى : خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً يذكر ، فاوجدكم ، (ثم يميتكم ثم يحييكم) ، أى يوم القيامة ، (إن الإنسان لكفور) ، أى : جحود .

لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾

يخبر تعالى أنه جعل لكل قوم منسكا .

قال ابن جرير : « يعنى لكل أمة نبى منسكا » : قال : « وأصل المنسك فى كلام العرب هو الموضع الذى يعتاده الإنسان ، ويتردد إليه ، إما لخير أو شر » . قال : ولهذا سميت مناسك الحج بذلك ، لتردد الناس إليها وعكوفهم عليها(٥) » .

فإن كان كما قال من أن المراد : « لكل أمة نبى جعلنا منسكا » ، فيكون المراد بقوله : (فلا ينازعنك فى الأمر) ، أى : هؤلاء المشركون ، وإن كان المراد : « لكل أمة جعلنا منسكا جعلاً قدريا — كما قال : (ولكل وجهة هو موليها(٦)) ، ولهذا قال هاهنا : (هم ناسكوه) ، أى : فاعلوه — فالضمير هاهنا عائد على هؤلاء الذين لهم مناسك وطرائق ، أى : هؤلاء إنما يفعلون هذا عن قدر الله وإرادته ، فلا تتأثر بمنازعتهم لك ، ولا يصرفك ذلك عما أنت عليه من الحق . ولهذا قال : (وادع إلى ربك ، إنك لعلى هدى مستقيم) ، أى : طريق واضح مستقيم موصل إلى المقصود .

---

(١) سورة الرعد ، آية : ٦ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ٢٨ .
(٣) سورة الجاثية ، آية : ٢٦ .
(٤) سورة غافر ، آية : ١١ .
(٥) انظر لفظ الطبرى : ١٧/١٣٨ .
(٦) سورة البقرة ، آية : ١٤٨ .

وهذه كقوله : (ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك ، وادع إلى ربك(١)) .

وقوله : (وإن جادلوك ، فقل : الله أعلم بما تعملون) ، كقوله : (وإن كذبوك ، فقل : لى عملى ولكم عملكم ، أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون(٢)) .

وقوله : (الله أعلم بما تعملون) تهديد شديد ، ووعيد أكيد ، كقوله : (هو أعلم بما تفيضون فيه ، كفى به شهيداً بيني وبينكم(٣)) ، ولهذا قال : (الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون) .

وهذه كقوله : (فلذلك فادع واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل : آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا وإليه المصير(٤)) .

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ (٧٠)

يخبر تعالى عن كمال علمه بخلقه ، وأنه محيط بما فى السموات وما فى الأرض ، فلا يعزب عنه مثقال ذرّة فى الأرض ولا فى السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ــ وأنه تعالى علم الكائنات كلّها قبل وجودها ، وكتب ذلك فى كتابه اللوح المحفوظ ، كما ثبت فى صحيح مسلم ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله قدّر(٥) مقادير الخلائق قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء (٦) .

وفى السنن ، من حديث جماعة من الصحابة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أول ما خلق الله القلم ، قال له : اكتب . قال : وما أكتب ؟ قال : اكتب ما هو كائن . فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة » (٧) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعة ، حدثنا ابن بُكَير ، حدثنى ابن لَهيعة ، حدثنى عطاء بن دينار ، حدثنى سعيد بن جُبَير قال : قال ابن عباس : خلق الله اللوح المحفوظ مَسيرة مائة عام ، وقال للقلم قبل أن يخلق الخلق ــ وهو على العرش تبارك وتعالى ــ : اكتب . فقال القلم : وما أكتب ؟ قال : علمى فى خلقى إلى يوم تقوم الساعة . فجرى القلم بما هو كائن فى علم الله إلى يوم القيامة ، فذلك قوله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم : (ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء والأرض) .

---

(١) سورة القصص ، آية : ٨٧ .
(٢) سورة يونس ، آية : ٤١ .
(٣) سورة الأحقاف ، آية : ٨ .
(٤) سورة الشورى ، آية : ١٥ .
(٥) لفظ مسلم : « كتب الله مقادير ... » .
(٦) مسلم : كتاب القدر ، باب « حجاج آدم وموسى عليهما السلام » : ٨/٥١ .
(٧) سنن أبى داود : كتاب السنة ، باب « فى القدر » ، الحديث ٤٧٠٠ : ٤/٢٢٥ ، ٢٢٦ . وتحفة الأحوذى ، أبواب القدر ، الحديث ٢٢٤٤ : ٦/٣٦٨ ــ ٣٧٠ ، وقال الترمذى : « هذا حديث غريب » . وتفسير سورة « نون » ، الحديث ٣٣٧٥ : ٩/٢٢٢ ، ٢٢٣ ، وقال : « هذا حديث حسن صحيح غريب » . ومسند الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت : ٥/٣١٧ .

وهذا من تمام علمه تعالى أنه علم الأشياء قبل كونها ، وقدرها وكتبها أيضاً ، فما العباد عاملون قد علمه تعالى قبل ذلك ، على الوجه الذى يفعلونه ، فيعلم قبل الخلق أن هذا يطيع باختياره ، وهذا يعصى باختياره ، وكتب ذلك عنده ، وأحاط بكل شيء علما ، وهو سهل عليه ، يسير لديه ، ولهذا قال تعالى : (إن ذلك فى كتاب ، إن ذلك على الله يسير) :

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾

يقول تعالى مخبرا عن المشركين فيما جهلوا وكفروا ، وعبدوا من دون الله ما لم ينزل به سلطانا ، يعنى : حجة وبرهانا ، كقوله : (ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به ، فإنما حسابه عند ربه ، إنه لا يفلح الكافرون(١)) ، ولهذا قال هاهنا : (ما لم ينزل به سلطانا ، وما ليس لهم به علم) ، أى : ولا علم لهم فيما اختلقوه وائتفكوه ، وإنما هو أمر تلقوه عن آبائهم وأسلافهم ، بلا دليل ولا حجة ، وأصله مما سوّل لهم الشيطان وزينه لهم ، ولهذا توعدهم تعالى بقوله : (وما للظالمين من نصير) ، أى : من ناصر ينصرهم من الله ، فيما يحل بهم من العذاب والنكال .

ثم قال : (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات) ، أى : وإذا ذكرت لهم آياتُ القرآن والحججُ والدلائل الواضحات على توحيد الله ، وأنه لا إله إلا هو ، وأن رسله الكرام حق وصدق ، (يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا) ، أى : يكادون يبادرون الذين يحتجون عليهم بالدلائل الصحيحة من القرآن ، ويبسطون إليهم أيديهم وألسنتهم بالسوء ! (قل) ، أى : يا محمد لهؤلاء : (أفأنبئكم بشر من ذلكم ، النار وعدها الله الذين كفروا) ، أى : النار وعذابها ونكالها أشد وأشق وأطم وأعظم مما تخوفون به أولياء الله المؤمنين فى الدنيا ، وعذاب الآخرة على صنيعكم هذا أعظم مما تنالون منهم ، إن نلتم بزعمكم وإرادتكم .

وقوله : (وبئس المصير) ، أى : وبئس النار منزلا ومقيلا ومرجعا وموئلا ومقاما ، (إنها ساءت مستقراً ومقاماً(٢)) .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾

يقول تعالى منبهاً على حقارة الأصنام وسخافة عقول عابديها : (يا أيها الناس ، ضرب مثل) ، أى : لما يعبده الجاهلون بالله المشركون به ، (فاستمعوا له) ، أى : أنصتوا وتفهموا ، (إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا

(١) سورة « المؤمنون » ، آية : ١١٧ .
(٢) سورة الفرقان ، آية : ٦٦ .

ذباباً ، ولو اجتمعوا له) ، أي : لو اجتمع جميع ما تعبدون من الأصنام والأنداد على أن يقدروا على خلق ذباب واحد ، ما قدروا على ذلك ، كما قال الإمام أحمد :

حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا شريك ، عن عُمَارة بن القعقاع ، عن أبي زُرعَة ، عن أبي هريرة — رفع الحديث — قال : « ومن أظلم ممن خلق [خلقا (١)] كخلقي ؛ فليخلقوا مثل خلقي ذَرّة ، أو ذبابة ، أو حَبّة(٢) » .

وأخرجه صاحبا الصحيح ، من طريق عُمَارة ، عن أبي زُرعة ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : قال الله عز وجل : ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي ؟ فليخلقوا ذرة ، فليخلقوا شعيرة) (٣) .

ثم قال تعالى أيضاً : (وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه) ، أي : هم عاجزون عن خلق ذباب واحد، بل أبلغ من ذلك عاجزون عن مقاومته والانتصار منه ، لو سلبها(٤) شيئاً من الذى عليها من الطيب ، ثم أرادت أن تستنقذه منه ، لما قدرت على ذلك . هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها ولهذا [قال : (ضَعُفَ الطالب والمطلوب)] .

قال ابن عباس : الطالب : الصنم ، والمطلوب : الذباب . واختاره ابن جرير(٥) ، وهو ظاهر السياق . وقال السدّيّ وغيره : الطالب : العابد ، والمطلوب : الصنم .

ثم قال : (ما قدروا الله حق قدره) ، أي : ما عرفوا قدر الله وعظمته حين عبدوا معه غيره ، من هذه التي لا تقاوم الذباب لضعفها وعجزها ، (إن الله لقوى عزيز) ، أي : هو القوى الذى بقدرته وقوته خلق كل شيء ، (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه(٦)) ، (إن بطش ربك لشديد . إنه هو يبدئ ويعيد(٧)) ، (إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) (٨) .

وقوله : (عزيز) ، أي : قد عَزّ كلّ(٩) شيء فقهره وغلبه ، فلا يمانع ولا يغالب ، لعظمته وسلطانه ، وهو الواحد القهار .

---

(١) ما بين القوسين عن مسند الإمام أحمد .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٢/٣٩١ .
(٣) أخرجاه فى كتاب اللباس . انظر البخارى ، باب « نقض الصور » : ٧/٢١٥ ، ومسلم ، باب « لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة » : ٦/١٦٢ .
(٤) أى : الأصنام والأوثان والآلهة .
(٥) تفسير الطبرى : ١٧/١٤١ .
(٦) سورة الروم ، آية : ٢٧ .
(٧) سورة البروج ، آية : ١٢ ، ١٣ .
(٨) سورة الذاريات ، آية : ٥٨ .
(٩) يقال : « عزه يعزه عزا : قهره وغلبه ، وفى التنزيل العزيز : وعزنى فى الخطاب ، أى : غلبنى فى الاحتجاج » . (لسان العرب) .

ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾

يخبر تعالى أنه يختار من الملائكة رسلا فيما يشاء من شرعه وقدَره ، ومن الناس لإبلاغ رسالاته ، (إن الله سميع بصير) ، أى : سميع لأقوال عباده ، بصير بهم ، عليم بمن يستحق ذلك منهم ، كما قال : (الله أعلم حيث يجعل رسالاته(١)) .

وقوله : (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، وإلى الله ترجع الأمور) ، أى : يعلم ما يفعل برسله فيما أرسلهم به ، فلا يخفى عليه من أمورهم شىء ، كما قال : (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول) ، إلى قوله : (وأحصى كل شىء عددا(٢)) ، فهو سبحانه رقيب عليهم ، شهيد على ما يقال لهم ، حافظ لهم ، ناصر لجنابهم ؛ (يا أيها الرسول ، بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس (٣)) الآية .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ ۩ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

اختلف الأئمة رحمهم الله فى هذه السجدة الثانية من سورة الحج : هل هى مشروعٌ السجودُ فيها أم لا ؟ على قولين ، وقد قدمنا عند الأولى حديث عقبة بن عامر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : فُضِّلت سورة الحج بسجدتين ، فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما(٤) .

وقوله : (وجاهدوا فى الله حق جهاده) ، أى : بأموالكم وألسنتكم وأنفسكم ، كما قال تعالى : (اتقوا الله حق تقاته (٥)) .

وقوله : (هو اجتباكم) ، أى : يا هذه الأمة ، الله اصطفاكم واختاركم على سائر الأمم ، وفضلكم وشرفكم وخصكم بأكرم رسول ، وأكمل شرع .

---

(١) سورة الأنعام ، آية : ١٢٤ . وانظر تعريفنا بهذه القراءة هناك .
(٢) سورة الجن ، آية : ٢٨ .
(٣) سورة المائدة ، آية : ٦٧ .
(٤) انظر : ٥ / ٤٠٠ .
(٥) سورة آل عمران ، آية : ١٠٢ .

(وما جعل عليكم فى الدين من حرج) ، أى : ما كلفكم ما لا تطيقون ، وما ألزمكم بشىء فشقّ عليكم إلا جعل الله لكم فرجا ومخرجا ، فالصلاة ــ التى هى أكبر أركان الإسلام بعد الشهادتين ــ تجب فى الحَضَر أربعاً ، وفى السفر تُقْصَر إلى ثنْتَين ، وفى الخوف يصليها بعض الأئمة ركعة ، كما ورد به الحديث ، وتُصلّى رجالا وركبانا ، مستقبلى القبلة وغير مستقبليها . وكذا فى النافلة فى السفر إلى القبلة وغيرها ، والقيام فيها يسقط بعذر المرض ، فيصليها المريض جالسا ، فان لم يستطع فعلى جنبه ، إلى غير ذلك من الرخص والتخفيفات ، فى سائر الفرائض والواجبات . ولهذا قال عليه السلام : « بُعِثْتُ بالحنيفيَّة السَّمحة(١) » ، وقال لمعاذ وأبى موسى ، حين بعثهما أميرَين إلى اليمن : « بَشّرا ولا تنفرا ، ويَسّرا ولا تعسرا(٢) » . والأحاديث فى هذا كثيرة . ولهذا قال ابن عباس فى قوله : (وما جعل عليكم فىالدين من حرج) ، يعنى من ضيق(٣) .

وقوله : (ملة أبيكم إبراهيم) ، قال ابن جرير : نصب على تقدير : (ما جعل عليكم فى الدين من حرج) ، أى : من ضيق ، بل وَسّعه عليكم كملة أبيكم إبراهيم . [قال : ويحتمل أنه منصوب على تقدير : الزموا ملة أبيكم إبراهيم](٤) .

قلت : وهذا المعنى فى هذه الآية كقوله : (قل : إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا (٥)) الآية .

وقوله : (هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا) ، قال الإمام عبد الله بن المبارك ، عن ابن جريج ، عن عطاء ، عن ابن عباس فى قوله : (هو سماكم المسلمين من قبل) ، قال : الله عزوجل . وكذا قال مجاهد ، وعطاء ، والضحاك ، والسدى ، وقتادة ، ومقاتل بن حَيَّان .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : (هو سماكم المسلمين من قبل) ، يعنى : إبراهيم ، وذلك لقوله : (ربنا ، واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك(٦)) .

قال ابن جرير : وهذا لا وجه له ؛ لأنه من المعلوم أن إبراهيم لم يسمّ هذه الأمة فى القرآن مسلمين ، وقد قال الله تعالى : (هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا) ، قال مجاهد : الله سماكم المسلمين من قبل فى الكتب المتقدمة ، وفى الذكر ، (وفى هذا) ، يعنى القرآن . وكذا قال غيره(٧) .

قلت : وهذا هو الصواب ، لأنه تعالى قال : (هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج) ، ثم حثهم وأغراهم على ما جاء به الرسول ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ بأنه ملة أبيهم إبراهيم الخليل ، ثم ذكر منته تعالى على

---

(١) أخرجه الإمام أحمد عن أبى أمامة : ٥/٢٦٦ ، وعن عائشة : ٦/١١٦ ، ٢٣٣ .

(٢) البخارى ، كتاب الجهاد ، باب « ما يكره من التنازع والاختلاف فى الحرب ، وعقوبة من عصى إمامه » : ٤/٧٩ ومسلم ، كتاب الجهاد ، باب « فى الأمر بالتيسير وترك التنفير » : ٥/١٤١ .

(٣) تفسير الطبرى : ١٧/١٤٢ .

(٤) تفسير الطبرى : ١٧/١٤٣ . وانظر البحر المحيط لأبى حيان : ٦/٣٩١ .

(٥) سورة الأنعام ، آية : ١٦١ .

(٦) سورة البقرة ، آية : ١٢٨ .

(٧) تفسير الطبرى : ١٧/١٤٤ .

هذه الأمة بما نوّه به من ذكرها والثناء عليها فى سالف الدهر وقديم الزمان ، فى كتب الأنبياء ، يتلى على الأحبار والرهبان ، فقال : (هو سماكم المسلمين من قبل) ، أى : من قبل هذا القرآن (وفى هذا) ، وقد قال النسائى عند تفسير هذه الآية :

أنبأنا هشام بن عمار ، حدثنا محمد بن شعيب ، أنبأنا معاوية بن سلام ، أن أخاه زيد بن سلام أخبره ، عن أبى سلام أنه أخبره قال : أخبرنى الحارث الأشعرى ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جثىّ جهنم . قال رجل : يا رسول الله ، وإن صام وصلى ؟ قال : نعم ، وإن صام وصلى . فادعوا بدعوة الله التى سماكم بها المسلمين المؤمنين عباد الله .

وقد قدمنا هذا الحديث بطوله عند تفسير قوله : (يا أيها الناس ، اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون) من سورة البقرة(١) ، ولهذا قال : (ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس) ، أى : إنما جعلناكم هكذا أمة وسطا عدولا خيارا ، مشهودا بعدالتكم عند جميع الأمم ، لتكونوا يوم القيامة (شهداء على الناس) لأن جميع الأمم معترفة يومئذ بسيادتها وفضلها على كل أمة سواها ، فلهذا تقبل شهادتهم عليهم يوم القيامة ، فى أن الرسل بلغتهم رسالة ربهم ، والرسول يشهد على هذه الأمة أنه بلغها ذلك . وقد تقدم الكلام على هذا عند قوله : (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا(٢)) ، وذكرنا حديث نوح وأمته بما أغنى عن إعادته .

وقوله : (فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) ، أى : قابلوا هذه النعمة العظيمة بالقيام بشكرها ، وأدوا حق الله عليكم فى أداء ما افترض ، وطاعة ما أوجب ، وترك ما حرم . ومن أهم ذلك إقامُ الصلاة وإيتاءُ الزكاة ، وهو الإحسان إلى خلق الله ، بما أوجب للفقير على الغنى ، من إخراج جزء نزر من ماله فى السنة للضعفاء والمحاويج ، كما تقدم بيانه وتفصيله فى آية الزكاة من « سورة التوبة » (٣) .

وقوله : (واعتصموا بالله) ، أى : اعتضدوا بالله ، واستعينوا به ، وتوكلوا عليه ، وتأيّدوا به ، (هو مولاكم) ، أى : حافظكم وناصركم ومُظفركم على أعدائكم ، (فنعم المولى ونعم النصير) ، يعنى [نعم] الولى ونعم الناصر من الأعداء .

قال وهيب بن الورد(٤) يقول الله تعالى : ابن آدم ، اذكرنى إذا غضبتَ أذكرك إذا غضبتُ ، فلا أمحقك فيمن أمحق ، وإذا ظُلمتَ فاصبر ، وارض بنصرتى ، فإن نصرتى لك خير من نصرتك لنفسك . رواه ابن أبى حاتم .

والله تعالى أعلم وله الحمد والمنة ، والثناء الحسن والنعمة ، وأسأله التوفيق والعصمة ، فى سائر الأفعال والأقوال .

هذا آخر تفسير « سورة الحج » ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم وشرف وكرم ، ورضى الله تعالى عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين(٥) .

---

(١) انظر تفسير الآية ٢١ من سورة البقرة : ١/٨٧ ، ٨٨ . فقد أورد ابن كثير هناك الحديث عن الإمام أحمد ، وهو فى مسنده : ٤/٢٠٢ .

(٢) سورة البقرة ، آية : ١٤٣ ، وانظر : ١/٢٧٥ — ٢٧٧ .

(٣) انظر تفسير الآية ٦٠ من سورة براءة : ٤/١٠٥ — ١١٠ .

(٤) هو أبو عثمان وهيب بن الورد المكى ، ويقال : عبد الوهاب ... مترجم فى الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٤/٢/٣٤ ، والتهذيب : ١١/١٧٠ — ١٧١ . قال ابن معين والنسائى : ثقة .

(٥) هذا وقد وقع فى مخطوطة الأزهر فى نهاية المجلد الرابع : « وهذا آخر الجزء الرابع ، يتلوه فى الخامس — إن شاء الله تعالى — سورة « المؤمنون » . والحمد لله وحده ، وحسبنا الله ونعم الوكيل » .

تفسير سورة المؤمنون

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١)

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرني يونس بن سُلَيم قال : أملى عليّ يونس بن يزيد الأيلي ، عن ابن شهاب ، عن عُروة بن الزبير ، عن عبد الرحمن بن عَبْد القاريّ قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : كان إذا نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحيُ ، يسمع عند وجهه كدويّ (١) النحل فمكثنا ساعة ، فاستقبل القبلة ورفع يديه ، فقال : اللهم ، زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر [علينا ، وارض عنا](٢) وأرضنا ، ثم قال : لقد أنزلت على عشر آيات ، مَنْ أقامهن دخل الجنة ، ثم قرأ : (قد أفلح المؤمنون) حتى ختم العَشْر (٣) .

وكذا روى الترمذي في تفسيره ، والنسائي في الصلاة ، من حديث عبد الرزاق ، به . وقال الترمذي : « منكر : لا نعرف أحدا رواه غير يونس بن سليم ، ويونس لا نعرفه (٤) » .

وقال النسائي في تفسيره : أنبأنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا جعفر ، عن أبي عمران عن يزيد بن بابَنُوس قال : قلنا لعائشة : يا أم المؤمنين ، كيف كان خُلُق رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : كان خلُق رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآنَ ، فقرأت : (قد أفلح المؤمنون) ، حتى انتهت إلى : (والذين هم على صلواتهم يحافظون) ، قالت : هكذا كان خلُق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) الدوى : صوت لا يفهم منه شيء . وهذا الصوت إما صوت الوحي ، أو ما كانوا يسمعونه من النبي صلى الله عليه وسلم من شدة تنفسه ، من ثقل الوحي . والأول اظهر ، لأنه قد وصف الوحي بأنه كان تارة مثل صلصلة الجرس .

(٢) ما بين القوسين عن المسند ، ومكانه بياض بقدر كلمتين .

(٣) مسند الإمام أحمد : ١/٣٤ .

(٤) لم نجد هذا القول في تحفة الأحوذي عند هذا الحديث في تفسير سورة « المؤمنون » . انظر الحديث ٣٢٢٢ ، ٣٢٢٣ : ٩/١٦ – ١٨ .

وقد رُوى عن كعب الأحبار ، ومجاهد ، وأبي العالية ، وغيرهم : لـمَّا خلقَ الله جنةَ عدن ، وغرسها بيده ، نظر إليها وقال لها : تكلمى . فقالت : (قد أفلح المؤمنون) : قال كعب الأحبار : لِمَا أعدَّ لهم فيها من الكرامة . وقال أبو العالية : فأنزل الله ذلك فى كتابه (١) .

وقد رُوى ذلك عن أبي سعيد الخدرى مرفوعا ، فقال أبو بكر البزار :

حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا المغيرة بن سلمة ، حدثنا وهيب ، عن الجُرَيْرى ، عن أبي نَضْرة ، عن أبي سعيد قال : خلق الله الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة ، وغرسها ، وقال لها : تكلمى . فقالت : (قد أفلح المؤمنون) . فدخلتها الملائكة فقالت : طوبى لك ، منزلَ الملوك !

ثم قال : وحدثنا بشر بن آدم ، وحدثنا يونس بن عبيد الله العُمَرى ، حدثنا عَدِىّ بن الفضل ، حدثنا الجريرى ، عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : خلق الله الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة ، وملاطها المسك — قال أبو بكر : ورأيت فى موضع آخر فى هذا الحديث — : [حائط] الجنة لبنة ذهب ولبنة فضة ، وملاطها المسك (٢) . فقال لها : تكلمى . فقالت : (قد أفلح المؤمنون) . فقالت الملائكة : طوبى لك ، منزلَ الملوك !

ثم قال البزار : « لا نعلم أحداً رفعه إلا عَدِىّ بن الفضل ، وليس هو بالحافظ ، وهو شيخ متقدم الموت (٣) » .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا أحمد بن على ، حدثنا هشام بن خالد ، حدثنا بقية ، عن ابن جريج ، عن عطاء ، عن ابن عباس قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : لما خلق الله جنة عدن ، خلق فيها مالا عين رأت ، [ولا أذن سمعت] ، ولا خطر على قلب بشر . ثم قال لها : تكلمى . فقالت : (قد أفلح المؤمنون) .

بَقِيةُ : عن الحجازيين ضعيفٌ .

وقال الطبرانى : حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة ، حدثنا منجابُ بن الحارث ، حدثنا حماد بن عيسى العَبْسى ، عن إسماعيل السدى ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس يرفعه : لما خلق الله جنة عدن بيده ، ودَلَّى فيها ثمارها ، وشق فيها أنهارها ، ثم نظر إليها فقال (٤) : (قد أفلح المؤمنون) — قال : وعزتى لا يجاورنى فيك بخيل .

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثنا محمد بن المثنى البزار ، حدثنا محمد بن زياد الكلبي ، حدثنا يعيش بن حسين ، عن سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة ، عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خلق الله جنة عدن بيده ، لبنة من دُرّة بيضاء ، ولبنة من ياقوتة حمراء ، ولبنة من زَبَرجَدَة خضراء ، ملاَطُها المسك ، وحصباؤها اللؤلؤ ، وحشيشها الزعفران ، ثم قال لها : انطقى . قالت : (قد أفلح المؤمنون) ، فقال الله : وعزتى

---

(١) تفسير الطبرى : ١٨/٢ .
(٢) انظر معنى هذه الكلمة فى : ٤/١١٧ .
(٣) قال ابن أبي حاتم فى الجرح ٣/٢/٤ : « سئل يحيى بن معين عن عدى بن الفضل : يكتب حديثه ؟ قال : لا ، ولا كرامة ، ليس بشىء » . انظر ترجمته فى التهذيب : ٧/١٦٩ — ١٧٠ .
(٤) كذا فى مخطوطة الأزهر والطبعات السابقة .

وجلالى لا يجاورنى فيك بخيل» ثم تلا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : (ومن يُوقَ شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون(١)) :
فقوله تعالى : (قد أفلح المؤمنون) ، أى : قد فازوا وسُعِدوا وحصّلوا على الفلاح ، وهم المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف :

(الذين هم فى صلاتهم خاشعون) ، قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (خاشعون) : خائفون ساكنون ؛ وكذا (٢) روى [عن] مجاهد ، والحسن ، وقتادة ، والزهرى .

وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه : الخشوعُ : خشوعُ القلب . وكذا قال إبراهيم النَّخَعى .

وقال الحسن البصرى : كان خشوعهم فى قلوبهم ، فغضوا بذلك أبصارهم ، وخفّضوا الجناح .

وقال محمد بن سيرين : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفعون أبصارهم إلى السماء فى الصلاة ، فلما نزلت هذه الآية : (قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون) ، خفضوا أبصارهم إلى موضع سجودهم .

قال ابن سيرين : وكانوا يقولون : لا يجاوز بصره مصلاه ، فإن كان قد اعتاد النظر فَلْيُغمِضْ . رواه ابن جرير (٣) وابن أبى حاتم .

ثم رَوَى ابنُ جرير عنه ، وعن عطاء بن أبى رباح أيضاً مرسلا : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يفعل ذلك ، حتى نزلت هذه الآية .

والخشوع فى الصلاة إنما يحصل لمن فرّغ قلبه لها ، واشتغل بها عما عداها ، وآثرها على غيرها ، وحينئذ تكون راحة له وقرة عين ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم ، فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد والنسائى ، عن أنس ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « حُبِّبَ إلىّ الطيب والنساء(٣) ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة » (٤) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا مسعر ، عن عمرو بن مرة ، عن سالم بن أبى الجعد ، عن رجل من أسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يابلال ، أرحنا بالصلاة (٥) .

وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، حدثنا إسرائيل ، عن عثمان بن المغيرة ، عن سالم ابن أبى الجعد ، أن محمد بن الحنفية قال : دخلت مع أبى على صهر لنا من الأنصار ، فحضرت الصلاة ، فقال : ياجارية ، ائتنى بوَضوء لعلى أصلى فأستريح . فرآنا أنكرنا عليه ذلك ، فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قم يابلال ، فأرحنا بالصلاة(٦) .

---

(١) سورة الحشر : آية : ٩

(٢) تفسير الطبرى : ١٨/٣ .

(٣) هذا الحب حب رحمة لا حب شهوة ولذة ؛ فان النساء كن مهيضات الجناح فى الجاهلية ، يتأذى بهن الرجال إذا ولدن ، وربما وأدوهن خشية العار ، فوقف الرسول إلى جوارهن ، رأفة منه ورحمة ، ووصى بهن فى حجة الوداع .

(٤) مسند الإمام أحمد : ١٢٨/٣ ، ١٩٩ ، ٢٨٥ . وانظر تفسير الآية ١٤ من سورة آل عمران : ١٤/٢ ، والنسائى ، كتاب عشرة النساء ، باب حب النساء : ٦١/٧ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٣٦٤/٥ .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٣٧١/٥ .

وقال : (والذين هم عن اللغو معرضون) ، أى : عن الباطل ، وهو يشمل الشرك ــ كما قاله بعضهم ــ والمعاصى ــ كما قاله آخرون ــ ومالا فائدة فيه من الأقوال والأفعال ، كما قال تعالى : (وإذا مروا باللغو مروا كراما) (١) .

قال قتادة : أتاهم والله من أمر الله ما وقفهم(٢) عن ذلك .

وقوله : (والذين هم للزكاة فاعلون) ــ الأكثرون على أن المراد بالزكاة هاهنا زكاة الأموال ، مع أن هذه [الآية] مكية ، وإنما فرضت الزكاة بالمدينة فى سنة اثنتين من الهجرة . والظاهر أن التى فرضت بالمدينة إنما هى ذات النُّصُب والمقادير الخاصة ، وإلا فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجبا بمكة ، كما قال تعالى فى سورة الأنعام، وهى مكية : (وآتوا حقه يوم حصاده) (٣) .

وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة هاهنا زكاة النفس من الشرك والدنس ، كقوله : (قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها) (٤) ، وكقوله : (وويل للمشركين . الذين لا يؤتون الزكاة) (٥) ،على أحد القولين فى تفسيرها .

وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مرادا ، وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال ؛ فإنه من جملة زكاة النفوس ، والمؤمن الكامل هو الذى يتعاطى هذا وهذا ، والله أعلم .

وقوله : (والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) ، أى : والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام ، فلا يقعون فيما نهاهم الله عنه من زنا أو لواط ، ولا يقربون سوى أزواجهم التى أحلها الله لهم ، وماملكت أيمانهم من السرارى، ومن تعاطى ما أحله الله له فلا لوم عليه ولا حرج ، ولهذا قال : (فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك) ، أى : غير الأزواج والإماء ، (فأولئك هم العادون) ، أى : المعتدون .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا عبد الأعلى ، حدثنا سعيد ، عن قتادة : أن امرأة اتخذت مملوكها(٦) ، وقالت : تأولت آية من كتاب الله : (أو ما ملكت أيمانهم) ، فأتى بها عمر بن الخطاب فقال له ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : تأولت آية من كتاب الله على غير وجهها . قال : فغرب العبد وجز رأسه(٧) ، وقال : أنت بعده حرام على كل مسلم .

هذا أثر غريب منقطع ، ذكره ابن جرير فى أول تفسير سورة المائدة(٨) ، وهو هاهنا أليق ، وإنما حرمها على الرّجال معاملة لها بنقيض قصدها ، والله أعلم .

---

(١) سورة الفرقان ، آية : ٧٢ .
(٢) أى : ما منعهم عن الباطل . وانظر الأثر فى الدر المنثور : ٥/٤ .
(٣) سورة الأنعام ، آية : ١٤١ .
(٤) سورة الشمس ، آية : ٩ ، ١٠ .
(٥) سورة فصلت ، الآية : ٦ ، ٧ .
(٦) أى : أمكنته من نفسها ، وتسرت به كأنه زوج لها .
(٧) التغريب : النفى ، وجز رأسه : قص شعره .
(٨) تفسير الطبرى ، الأثر ١١٢٧٧ : ٥٨٦/٩ ط . دار المعارف .

وقد استدل الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ ومن وافقه على تحريم الاستمناء باليد بهذه الآية الكريمة : (والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم) ، قال : فهذا الصنيع خارج عن هذين القسمين ، وقد قال : (فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) . وقد استأنسوا بحديث رواه الإمام الحسن بن عرفة في جزئه المشهور حيث قال :

حدثني علي بن ثابت الجزري ، عن مسلمة بن جعفر ، عن حسان بن حميد ، عن أنس بن مالك ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولا يجمعهم مع العاملين ، ويدخلهم النار أول الداخلين ، إلا أن يتوبوا ، فمن تاب تاب الله عليه : الناكح يده ، والفاعل ، والمفعول به ، ومدمن الخمر ، والضارب والديه حتى يستغيثا ، والمؤذي جيرانه حتى يلعنوه ، والناكح حليلة جاره » .

هذا حديث غريب ، وإسناده فيه من لا يُعرف ؛ لجهالته ، والله أعلم .

وقوله : (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) ، أي : إذا اؤتمنوا لم يخونوا ، بل يؤدونها إلى أهلها ؛ وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك ، لا كصفات المنافقين الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان » (١) .

وقوله : (والذين هم على صلواتهم يحافظون) ، أي : يواظبون عليها في مواقيتها ، كما قال ابن مسعود : سألت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت : يارسول الله ، أيّ العمل أحبّ إلى الله ؟ قال : الصلاة على وقتها . قلت : ثم أي ؟ قال : برّ الوالدين . قلت : ثم أيّ ؟ قال : الجهادُ في سبيل الله .

أخرجاه في الصحيحين(٢) . وفي مستدرك الحاكم قال : الصلاة في أول وقتها(٣) .

وقال ابن مسعود ، ومسروق في قوله : (والذين هم على صلواتهم يحافظون) ، يعني : مواقيت الصلاة(٤) . وكذا قال أبو الضحى ، وعلقمة بن قيس ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة .

وقال قتادة : على مواقيتها وركوعها وسجودها .

وقد افتتح الله ذكر هذه الصفات الحميدة بالصلاة ، واختتمها بالصلاة ، فدل على أفضليتها ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : استقيموا ولن تحصوا ، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن(٥) .

---

(١) البخاري ، كتاب الشهادات ، باب « من أمر بانجاز الوعد » : ٢٣٦/٣ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « بيان خصال المنافق » : ٥٦/١ .

(٢) البخاري ، كتاب مواقيت الصلاة ، باب « فضل الصلاة لوقتها » : ١٤٠/١ . وكتاب الجهاد ، باب « فضل الجهاد والسير » : ١٧/٤ . وكتاب الأدب ، باب قول الله تعالى : (ووصينا الإنسان بوالديه) : ٢/٨ . وكتاب التوحيد ، باب « وسمى النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة عملا » : ٢٩١/٩ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال » : ٦٣/١ .

(٣) المستدرك ، كتاب الصلاة ، باب « في مواقيت الصلاة » : ١٨٨/١ ، وقال الحاكم : « فقد صحت هذه اللفظة باتفاق الثقتين : بندار بن بشار والحسن بن مكرم على روايتهما عن الحسن بن عمر . وهو صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه » .

(٤) تفسير الطبري : ٥/١٨ .

(٥) سنن ابن ماجه ، كتاب الطهارة وسننها ، باب « المحافظة على الوضوء » ، الحديث ٢٧٨ : ١٠٢/١ . ومسند الإمام أحمد عن ثوبان : ٢٧٦/٥ – ٢٧٧ ، ٢٨٢ ومعنى استقيموا ولن تحصوا : استقيموا في كل شيء حتى لا تميلوا ، ولن تطيقوا الاستقامة .

ولما وصفهم تعالى بالقيام بهذه الصفات الحميدة والأفعال الرشيدة قال : (أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) .

وثبت فى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس ، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ، ومنه تفجّر أنهار الجنة ، وفوقه عرش الرحمن (١) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مامنكم من أحد إلا وله منزلان : منزل فى الجنة ومنزل فى النار ، فإن مات فدخل النار ورثَ أهل الجنة منزله ، فذلك قوله : (أولئك هم الوارثون) (٢) .

وقال ابن جريج ، عن ليث ، عن مجاهد : (أولئك هم الوارثون) ، قال : ما من عبد إلا وله منزلان : منزل فى الجنة ، ومنزل فى النار ، فأما المؤمن فيُبنَى بيته الذى فى الجنة ، ويُهدَم بيته الذى فى النار ، وأما الكافر فيُهدَم بيته الذى فى الجنة ، ويُبنى بيته الذى فى النار . وروى عن سعيد بن جُبَيْر نحو ذلك .

فالمؤمنون يرثون منازل الكفار ، لأنهم خلقوا لعبادة الله تعالى ، فلما قام هؤلاء المؤمنون بما وجب عليهم من العبادة ، وترَك أولئك ما أُمِرُوا به مما خُلقوا له — أحرزَ هؤلاء نصيب أولئك لو كانوا أطاعوا ربهم عز وجل ، بل أبلغ من هذا أيضاً ، وهو ما ثبت فى صحيح مسلم ، عن أبى بُردَةَ ، عن(٣) أبيه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «يجىء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال ، فيغفرها الله لهم ، ويضَعُها على اليهود والنصارى » (٤) .

وفى لفظ له قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذاكان يوم القيامة دَفَع الله لكل مسلم يهودياً أو نصرانياً ، فيقال : هذا فَكَاكُكَ من النار : فاستحلف عُمر بن عبد العزيز أبا بُردةَ بالله الذى لا إله إلا هو ، ثلاث مرات ، أن أباه حدّثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فحلف له(٥) . قلت : وهذه الآية كقوله تعالى : (تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا(٦)) ، وكقوله : (وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون) (٧) : وقد قال مجاهد ، وسعيد بن جُبير : الجنة بالرومية هى الفردوس .

وقال بعض السلف : لا يسمى البستان فردوساً إلا إذا كان فيه عنب (٨) فالله أعلم .

---

(١) البخارى ، كتاب الجهاد ، باب « درجات المجاهدين فى سبيل الله » : ١٩/٤ — ٢٠ ، وكتاب التوحيد : ١٥٣/٩ .

(٢) ورواه ابن ماجه فى آخر كتاب الزهد من سننه ، باب « صفة الجنة » ، الحديث ٤٣٤١ من هذه الطريق عينها ، انظر : ١٤٥٣/٢ . وكذلك أخرجه ابن جرير الطبرى عن أبى السائب عن أبى معاوية باسناده : ٥/١٨ .

(٣) فى مخطوطة الأزهر ، «عن أبى بردة ، عن أبى موسى ، عن أبيه» . وهذه الزيادة ، وهى «عن أبى موسى» غير ثابتة فى صحيح مسلم . ولعل موضعها فى الحديث الذى يليه ، فهو فى الصحيح «عن أبى بردة ، عن أبى موسى» .

(٤) مسلم ، كتاب التوبة ، باب «قبول توبة القاتل وإن كثر قتله» : ١٠٥/٨ .

(٥) مسلم ، فى الكتاب والباب المتقدمين : ١٠٤/٨ ، ١٠٥ .

(٦) سورة مريم ، آية : ٦٣ .

(٧) سورة الزخرف ، آية : ٧٢ .

(٨) انظر المعرب للجواليقى : ٢٨٨ — ٢٨٩ .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن ابتداء خلق الإنسان من سلالة من طين ، وهو ادم عليه السلام ، خلقه الله من صلصال من حمإ مسنون .

وقال الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن أبي يحيى ، عن ابن عباس : (من سلالة من طين) ، قال صفوة الماء(١) .

وقال مجاهد : (من سلالة) ، أي : من مَنِيّ آدم .

قال ابن جرير : وإنما سمي آدم طيناً لأنه مخلوق منه(١) .

وقال قتادة : استُلَّ آدمُ من الطين . وهذا أظهر في المعنى ، وأقرب إلى السياق ، فإن آدم عليه السلام خلق من طين لازب(٢) ، وهو الصلصال من الحمإ المسنون ، وذلك مخلوق من التراب ، كما قال تعالى : (ومن آياته أن خلقكم من تراب ، ثم إذا أنتم بشر تنتشرون (٣)) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا عوف ، ، حدثنا قسامة بن زهير ، عن أبي موسى ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قَدْر الأرض ، جاء منهم الأحمر والأسود والأبيض ، وبين ذلك ، والخبيث والطيب ، وبين ذلك »(٤) .

وقد رواه أبو داود والترمذي ، من طرق ، عن عوف الأعرابي ، به نحوه . وقال الترمذي : حسن صحيح(٥) .

(ثم جعلناه نطفة) : هذا الضمير عائد على جنس الإنسان ، كما قال في الآية الأخرى : (وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين (٦)) ، أي : ضعيف ، كما قال : (ألم نخلقكم من ماء مهين ، فجعلناه في قرار مكين) ، يعني : الرحمُ مُعَدّ لذلك مهيأ له ، (إلى قدر معلوم . فقدرنا فنعم القادرون)(٧) ، أي : مدة معلومة وأجل معين حتى استحكم وتنقّل من حال إلى حال ، وصفة إلى صفة ، ولهذا قال هاهنا : (ثم خلقنا النطفة علقة) ، أي : ثم صيرنا النطفة ، وهي الماء الدافق الذي يخرج من صلب الرجل ــ وهو ظهره ــ وترائب المرأة ــ وهي عظام صدرها ما بين الترقوة إلى الثندوة(٨) ، فصارت علقة حمراء على شكل العلقة مستطيلة ــ قال عكرمة : وهي دم .

---

(١) تفسير الطبري : ١٨/٧ .

(٢) اللازب : اللاصق الصلب .

(٣) سورة الروم ، آية : ٢٠ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٤/٤٠٠ ، ٤٠٦ .

(٥) سنن أبي داود ، كتاب السنة ، باب في القدر ، الحديث ٤٦٩٣ : ٤/٢٢٢ . وتحفة الأحوذي ، تفسير سورة البقرة ، الحديث ٤٠٣١ : ٨/٢٩٠ ــ ٢٩١ .

(٦) سورة السجدة ، آية : ٧ ، ٨ .

(٧) سورة المرسلات ، آية : ٢٠ ، ٢١ .

(٨) الثندوة ــ بضم الثاء وفتحها ــ : لحم الثدي .

(فخلقنا العلقة مضغة) ، وهى قطعة كالبَضعة من اللحم ، لا شكل فيها ولا تخطيط ، (فخلقنا المضغة عظاما) يعنى : شكلناها ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصبها وعروقها .

وقرأ آخرون : (فخلقنا المضغة عظماً (١)) .

قال ابن عباس : وهو عظم الصلب .

وفى الصحيح ، من حديث أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كل جسد ابن آدم يبلى إلا عَجْبُ(٢) الذَّنَب ، منه خلق ومنه يركب(٣) .

(فكسونا العظام لحماً) ، أى : وجعلنا على ذلك ما يستره و يشده ويقويه،(ثم أنشأناه خلقاً آخر) ، (أى : ثم نفخنا فيه الروح،فتحرك وصار خلقاً آخر) ذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب (فتبارك الله أحسن الخالقين) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا جعفر بن مسافر ، حدثنا يحيى بن حسان ، حدثنا النضر — يعنى ابن كثير ، مولى بنى هاشم — حدثنا زيد بن على ، عن أبيه ، عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : إذا تمت النطفة أربعة أشهر ، بعث إليها ملك فنفخ فيها الروح فى الظلمات الثلاث ، فذلك قوله : (ثم أنشأناه خلقا آخر) ، يعنى : نفخنا فيه الروح .

ورُوى عن أبى سعيد الخدرى أنه نَفْخُ الروح .

قال ابن عباس : (ثم أنشأناه خلقاً آخر) ، يعنى به الروح . وكذا قال مجاهد ، وعكرمة ، والشعبى ، والحسن ، وأبو العالية ، والضحاك ، والربيع بن أنس ، والسدّى ، وابنُ زيد . واختاره ابنُ جرير(٤) .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : (ثم أنشأناه خلقاً آخر) ، يعنى : ننقله من حال إلى حال ، إلى أن خرج طفلا ، ثم نشأ صغيراً ، ثم احتلم ، ثم صار شاباً ، ثم كهلا ، ثم شيخاً ، [ثم] ، هرما .

وعن قتادة ، والضحاك نحو ذلك . ولا منافاة ، فإنه من ابتداء نفخ الروح شَرَعَ فى هذه التنقلات والأحوال ، والله أعلم .

قال الإمام أحمد فى مسنده : حدثنا أبومعاوية ، حدثنا الأعمش ، عن زيد بن وهب ،عن عبد الله — هو ابن مسعود — قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الصادق المصدوق : « إن أحدكم ليَجمع [خلقُه] فى بطن أمه فى أربعين يوماً ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات: رزقه ، وأجله ، وعمله ، وهل هو شقى أوسعيد(٦) . فوالذى لا إله غيره ، إن أحدكم ليعمل بعمل

---

(١) قال الطبرى ١٨/٨ : « وكان عاصم وعبد الله بن عامر يقرآن ذلك (عظما) فى الحرفين ، على التوحيد » .

(٢) عجب الذنب : أصله .

(٣) البخارى ، تفسير سورة « عم يتساءلون » : ٢٠٥/٦ . ومسلم ، كتاب الفتن ، باب « ما بين النفختين » : ٢١٠/٨ . وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب « ذكر القبر والبلى » ، الحديث ٤٢٦٦ : ١٤٢٥/٢ . ومسند الإمام أحمد : ٣١٥/٢ ، ٤٢٨ ، ٤٩٩ .

(٤) الدر المنثور عن ابن أبى حاتم : ٧/٥ .

(٥) انظر تفسير الطبرى : ٨/١٨ — ٩ .

(٦) لفظ المسند : « وشقى أم سعيد » .

أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيختم له بعمل أهل النار فيدخلها . وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيختم له بعمل أهل الجنة ، فيدخلها .(١)

أخرجاه من حديث سليمان بن مهران الأعمش (٢) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أبو معاوية عن الأعمش ، عن خيثمة قال : قال عبد الله – يعني ابن مسعود – إن النطفة إذا وقعت في الرحم ، طارت في كل شعر وظفر ، فتمكث أربعين يوما ، ثم تتحدر في الرحم فتكون علقة .

وقال الإمام أحمد أيضا : حدثنا حسين بن الحسن ، حدثنا أبو كُدَينة ، عن عطاء بن السائب عن القاسم بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن عبد الله قال : مَرّ يهودي برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحدث أصحابه ، فقالت [قريش] : يا يهودي ، إن هذا يزعم أنه نبي . فقال : لأسألنه عن شيء لا يعلمه إلا نبي . قال : فجاءه حتى جلس فقال : يا محمد ، مم يخلق الإنسان ؟ فقال : يا يهودي ، من كلٍّ يُخلَقُ من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة ، فأما نطفة الرجل فنطفة غليظة منها العظم والعَصَب ، وأما نطفة المرأة فنطفة رقيقة منها اللحم والدم . [فقام اليهودي] فقال : هكذا كان يقول من قبلك] (٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان عن(٤) عمرو ، عن أبي الطُّفَيل ، عن حُذَيفة بن أسيد الغفاري قال : سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : يدخل المَلَك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين ليلة ، فيقول : يارب ، ماذا ؟ أشقي أم سعيد ؟ أذكر أم أنثى ؟ فيقول الله ، فيكتبان . [فيقولان : ماذا ؟ أذكر أم أنثى ؟ فيقول الله عز وجل ، فيكتبان(٥) ويُكتَبُ عمله ، وأثره ، ومصيبته ، ورزقه ، ثم تطوى الصحيفة ، فلا يُزاد على ما فيها ولا ينقص](٦) .

وقد رواه مسلم في صحيحه ، من حديث سفيان بن عيينة ، عن عمرو – وهو ابن دينار – به نحوه . ومن طُرُق أخرى ، عن أبي الطفيل عامر بن واثلة ، عن حُذَيفة بن أسيد أبي سريحة الغفاري بنحوه ، والله أعلم (٧) .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا أحمد بن عَبْدة ، حدثنا حماد بن زيد ، حدثنا عبيد الله بن أبي بكر ، عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله وَكَّل بالرحم ملكاً فيقول : أيْ ربِّ ، نطفة . أيْ ربِّ ، علقة . أيْ ربِّ ، مضغة . فإذا أراد الله خلقها قال : يارب ، ذكر أو أنثى ؟ شقي أو سعيد ؟ فما الرزق والأجل ؟ قال : فذلك يكتب في بطن أمه .

أخرجاه في الصحيحين من حديث حماد بن زيد(٨) به .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ١/٣٨٢ . وانظر أيضاً : ١/٤١٤ ، ٤٣٠ .

(٢) البخاري ، كتاب الأنبياء ، باب قول الله تعالى : (وإذ قال ربك للملائكة : إني جاعل في الأرض خليفة ...) : ٤/١٦١ – ١٦٢ . وكتاب بدء الخلق ، باب «ذكر الملائكة» : ٤/١٣٥ . وكتاب التوحيد ، باب (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين) : ٩/١٦٥ – ١٦٦ . ومسلم ، كتاب القدر ، باب «كيفية خلق الآدمي في بطن أمه» : ٨/٤٤ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ١/٤٦٥ . وما بين القوسين المعقوفين عنه .

(٤) في المخطوطة : «سفيان بن عمرو» . وهو خطأ ، وسفيان هو ابن عيينة يروي عن عمرو بن دينار .

(٥) ما بين القوسين عن المسند ، وهو سقط نظر .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٤/٦ – ٧ .

(٧) مسلم ، كتاب القدر ، باب «كيفية الخلق الآدمي» : ٨/٤٥ – ٤٦ .

(٨) البخاري ، كتاب الحيض ، باب «مخلقة وغير مخلقة» : ١/٨٧ . وكتاب الأنبياء ، باب قول الله تعالى : (وإذ قال ربك للملائكة : إني جاعل في الأرض خليفة) : ٤/١٦٢ . ومسلم ، كتاب القدر ، باب «كيفية الخلق الآدمي» : ٨/٤٦ .

وقوله : (فتبارك الله أحسن الخالقين) ، يعني : حين ذكر قدرته ولطفه في خلق هذه النطفة من حال إلى حال ، وشكل إلى شكل ، حتى تصورت إلى ما صارت إليه من الإنسان السَّوِيّ الكامل الخلق ، قال : (فتبارك الله أحسن الخالقين) .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا يونس بن حبيب ، حدثنا أبو داود ، حدثنا حماد بن سلمة ، حدثنا على بن زيد ، عن أنس ، قال : قال عمر – يعني ابن الخطاب رضي الله عنه – : وافقت ربي ووافقني في أربع : نزلت هذه الآية (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) الآية ، قلت أنا : فتبارك الله أحسن الخالقين : فنزلت : (فتبارك الله أحسن الخالقين) (١) .

وقال أيضاً : حدثنا أبي ، حدثنا آدم بن أبي إياس ، حدثنا شيبان ، عن جابر الجعفي ، عن عامر الشعبي ، عن زيد بن ثابت الأنصاري قال : أملى عليَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) إلى قوله : (خلقاً آخر) ، فقال معاذ : (فتبارك الله أحسن الخالقين) ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال له معاذ : مم ضحكت يارسول الله ؟ قال : بها ختمت (فتبارك الله أحسن الخالقين) .

جابر بن يزيد الجُعْفى ضعيف جداً ، وفي خبره هذا نكارة شديدة ، وذلك أن هذه السورة مكية ، وزيد ابن ثابت إنما كتب الوحي بالمدينة ، وكذلك إسلام معاذ بن جبل إنما كان بالمدينة أيضاً ، فالله أعلم .

وقوله : (ثم إنكم بعد ذلك لميتون) ، يعني بعد هذه النشأة الأولى من العدم تَصيرون إلى الموت ، (ثم إنكم يوم القيامة تبعثون) ، يعني النشأة الآخرة ، (ثم الله ينشيء النشأة الآخرة) ، يعني يوم المعاد ، وقيام الأرواح والأجساد ، فيحاسب الخلائق ، ويوفى كلَّ عامل عمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ (١٧)

لما ذكر تعالى خَلْق الإنسان ، عطف بذكر خلق السماوات السبع . وكثيراً ما يذكر تعالى خَلْق السماوات والأرض مع خلق الإنسان ، كما قال تعالى : (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس (٢)) : وهكذا في أول (آلم) السجدة ، التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها صبيحة يوم الجمعة ، في أولها خَلْق السماوات والأرض ، ثم بيان خلق الإنسان من سلالة من طين ، وفيها أمر المعاد والجزاء ، وغير ذلك من المقاصد(٣) .

فقوله : (سبع طرائق) – قال مجاهد : يعني السماوات السبع . وهذه كقوله تعالى : (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن)(٤) ، (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا) (٥) ، (والله الذي خلق سبع سموات ومن

(١) انظر الأثر بتمامه في الدر المنثور : ٥/٧ .
(٢) سورة غافر ، آية : ٥٧ .
(٣) انظر سورة السجدة ، الآيات : ٤ – ١٢ ، ١٧ – ٢٢ .
(٤) سورة الإسراء ، آية : ٤٤ .
(٥) سورة نوح ، الآية : ١٥ .

الأرض مثلهن ، يتنزل الأمر بينهن ؛ لتعلموا أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علما) (١) ؛ وهكذا قال هاهنا : (ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين) ، أى : ويعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعملون بصير ؛ وهو — سبحانه — لا يحجب عنه سماء سماء ، ولا أرض أرضا ، ولا جبل إلا يعلم ما فى وعره ، ولا بحر إلا يعلم ما فى قعره ، يعلم عدد ما فى الجبال والتلال والرمال ، والبحار والقفار والأشجار ، (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين (٢) ؛

وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾

يذكر تعالى نعمه على عبيده التى لا تعد ولا تحصى ، فى إنزاله القطر من السماء (بقدر) ، أى : بحسب الحاجة ، لا كثيراً فيفسد الأرض والعمران ، ولا قليلا فلا يكفى الزروع والثمار ، بل بقدر الحاجة إليه من السقى والشرب والانتفاع به ، حتى إن الأراضى التى تحتاج ماء كثيراً لزرعها ولا تحتمل دمنتها(٣) إنزال المطر عليها ، يسوق إليها الماء من بلاد أخرى ، كما فى أرض مصر ، ويقال لها : « الأرض الجرز » ، يسوق الله إليها ماء النيل معه طين أحمر يجترفه من بلاد الحبشة فى زمان أمطارها ، فيأتى الماء يحمل طيناً أحمر ، فيسقى أرض مصر ، ويقر الطين على أرضهم ليزدرعوا فيه ، لأن ارضهم سباخ يغلب عليها الرمال ، فسبحان اللطيف الخبير الرحيم الغفور ؛

وقوله : (فأسكناه فى الأرض) ، أى : جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد فى الأرض ، وجعلنا فى الأرض قابلية له ، تشربه ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى ؛

وقوله : (وإنا على ذهاب به لقادرون) ، أى : لو شئنا أن لا تمطر لفعلنا ، ولو شئنا لصرفناه عنكم إلى السباخ والبرارى والقفار لفعلنا ، ولو شئنا لجعلناه أجاجاً لا ينتفع به لشرب ولا لسقى لفعلنا ، ولو شئنا لجعلناه لا ينزل فى الأرض ، بل ينجر على وجهها لفعلنا ؛ ولو شئنا لجعلناه إذا نزل فيها يغور إلى مدى لا تصلون إليه ولا تنتفعون به لفعلنا ؛ ولكن بلطفه ورحمته ينزل عليكم الماء من السحاب عذباً فراتاً زلالا ، فيسكنه فى الأرض ويسلكه ينابيع فى الأرض ، فيفتح العيون والأنهار ، فيسقى به الزروع والثمار ، وتشربون منه ودوابكم وأنعامكم ، وتغتسلون منه وتتطهرون وتتنظفون ، فله الحمد والمنة :

(١) سورة الطلاق ، الآية : ١٢ .
(٢) سورة الأنعام ، آية : ٥٩ .
(٣) يريد بها هنا التربة . والدمنة فى الأصل ، ما تلمته الإبل والغنم بأبوالها وأبعارها ، أى : تلبده فى مرابضها .

وقوله : (فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب) ، يعني فأخرجنا لكم بما أنزلنا من الماء (جنات) ، أي : بساتين وحدائق ذات بهجة ، أي : ذات منظر حسن .

وقوله : (من نخيل وأعناب) ، أي : فيها نخيل وأعناب . وهذا ما كان يألف أهل الحجاز ، ولا فرق بين الشيء وبين نظيره ، وكذلك في حق كل أهل إقليم ، عندهم من الثمار من نعمة الله عليهم ما يعجزون عن القيام بشكره .

وقوله : (لكم فيها فواكه كثيرة) ، أي : من جميع الثمار ، كما قال : (ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ، ومن كل الثمرات) (١) .

وقوله : (ومنها تأكلون) كأنه معطوف على شيء مقدر ، تقديره : تنظرون إلى حسنه ونضجه ، ومنه تأكلون .

وقوله : (وشجرة تخرج من طور سيناء) ، يعني الزيتونة . والطور : هو الجبل . وقال بعضهم : إنما يسمى طوراً إذا كان فيه شجر ، فإن عرّى عنها سمي جبَلا لا طوراً ، والله أعلم . وطور سيناء : هو طور سينين ، وهو الجبل الذي كُلِّم عليه موسى بن عمران عليه السلام ، وما حوله من الجبال التي فيها شجر الزيتون .

وقوله : (تنبت بالدهن) — قال بعضهم : الباء زائدة ، وتقديره : تنبت الدهن ، كما في قول العرب : ألقى فلان بيده ، أي : يده . وأما على قول من يضمن الفعل فتقديره : تخرج بالدهن ، أو تأتي بالدهن(٢) . ولهذا قال : (وصبغ) ، أي : أدْم ، قاله قتادة . (للآكلين) ، أي : فيها ما ينتفع به من الدهن والاصطباغ ، كما قال الإمام أحمد :

حدثنا وكيع ، عن عبد الله بن عيسى ، عن عطاء الشامي ، عن أبي أسيد — واسمه مالك بن ربيعة الساعدي الأنصاري — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كلوا الزيت وادهنوا به ؛ فإنه من شجرة مباركة » (٣) .

وقال عبد بن حميد في مسنده وتفسيره : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ائتدموا بالزيت وادهنوا به ؛ فإنه يخرج من شجرة مباركة » .

ورواه الترمذي وابن ماجه من غير وجه ، عن عبد الرزاق ، قال الترمذي : ولا يعرف إلا من حديثه ، وكان يضطرب فيه ، فربما ذكر فيه عمر ، وربما لم يذكره(٤) .

قال أبو القاسم الطبراني : حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ، حدثنا أبي ، حدثنا سفيان بن عيينة ، حدثني الصعب بن حكيم بن شريك بن نملة(٥) ، عن أبيه عن جده قال : ضفت عمر(٦) بن الخطاب ليلة عاشوراء ، فأطعمني من رأس بعير بارد ، وأطعمنا زيتاً ، وقال : هذا الزيت المبارك الذي قال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم .

وقوله : (وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ، ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون . وعليها وعلى الفلك تحملون) ، يذكر تعالى ما جعل لخلقه في الأنعام من المنافع ، وذلك أنهم يشربون من ألبانها الخارجة من بين

---

(١) سورة النحل ، آية : ١١ .

(٢) انظر تعليقنا فيما سبق على الآية ٢٥ من سورة الحج : ٥/٤٠٦ . والبحر المحيط لأبي حيان : ٦/٤٠١ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٣/٤٩٧ .

(٤) أخرجاه في الأطعمة ، انظر تحفة الأحوذي ، باب « ما جاء في أكل الزيت » ، الحديث ١٩١١ : ٥/٥٨٤ . وابن ماجه ، باب « الزيت » ، الحديث ٣٣١٩ : ٢/١١٠٣ .

(٥) المخطوطة : « نميلة » . والمثبت عن الجرح لابن أبي حاتم : ٢/١/٤٥٥ ، وميزان الاعتدال : ٢/٣١٥ .

(٦) أي : نزلت به ضيفاً .

فرْث ودم ، ويأكلون من حُمْلانها ، ويلبسون من أصوافها وأوبارها وأشعارها ، ويركبون ظهورها ، ويحملونها الأحمال الثقال إلى البلاد النائية عنهم ، كما قال تعالى : (وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشقّ الأنفس ، إن ربكم لرءوف رحيم (١)) ، وقال تعالى : (أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون . وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون . ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون (٢)) .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ ﴾

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام حين بعثه إلى قومه ، لينذرهم عذاب الله وبأسه الشديد ، وانتقامه ممن أشرك به ، وخالف أمره وكذب رسله ، (فقال : ياقوم ، اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، أفلا تتقون) ، أى : ألا تخافون من الله فى إشراككم به ؟ ! فقال الملأ — وهم السادة والأكابر منهم — : (ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم) ، يعنون : يترفّع عليكم ويتعاظم بدعوى النبوة ، وهو بشر مثلكم ، [فكيف] أوحى إليه دونكم ؟ (ولو شاء الله لأنزل ملائكة) ، أى : لو أراد أن يبعث نبياً ، لبعث ملَكاً من عنده ولم يكن بشراً ! (ما سمعنا بهذا) ، أى : ببعثه البشر فى آبائنا الأولين . يعنون بهذا أسلافهم وأجدادهم والأمم الماضية .

وقوله : (إن هو إلا رجل به جنة) ، أى : مجنون فيما يزعمه ، من أن الله أرسله إليكم ، واختصه من بينكم بالوحى ، (فتربصوا به حتى حين) ، أى : انتظروا به ريب المنون ، واصبروا عليه مدة حتى تستريحوا منه .

﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام انه دعا ربه يستنصره على قومه ، كما قال تعالى مخبراً فى الآية الأخرى : (فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر (٣) ، وقال هاهنا : (رب انصرنى بما كذبون) ، فعند ذلك أمره الله تعالى بصنعة السفينة وإحكامها وإتقانها ، وأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين ، أى : ذكرا وأنثى من كل صنف من الحيوانات

---

(١) سورة النحل ، آية : ٧ .

(٢) سورة يس ، الآيات : ٧١ — ٧٣ .

(٣) سورة القمر ، آية : ١٠ .

والنباتات والثمار ، وغير ذلك ، وأن يحمل فيها أهله (إلا من سبق عليه القول منهم) ، أى : سبق فيه القول من الله بالهلاك ، وهم الذين لم يؤمنوا به من أهله ، كابنه وزوجته ، والله أعلم .

وقوله : (ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون) ، أى : عند معاينة إنزال المطر العظيم ، لا تأخذنَّك رأفة بقومك ، وشفقة عليهم ، وطمع فى تأخيرهم لعلهم يؤمنون ، فإنى قد قضيت أنهم مغرقون على ما هم عليه من الكفر والطغيان . وقد تقدمت القصة مبسوطة فى « سورة هود(١) » بما يغنى عن إعادة ذلك هاهنا .

وقوله : (فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك ، فقل : الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين) ، كما قال : (وجعل لكم من الفلك والأنعام ماتركبون * لتستووا على ظهوره ، ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه ، وتقولوا : سبحان الذى سخر لنا هذا ، وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون) (٢) . وقد امتثل نوح عليه السلام هذا ، كما قال تعالى : (وقال : اركبوا فيها ، بسم الله مجراها ومرساها) (٣) . فذكرَ اللهَ تعالى عند ابتداء سيره وعند انتهائه ، وقال تعالى : (وقل رب أنزلنى منزلا مباركاً وأنت خير المنزلين) .

وقوله : (إن فى ذلك لآيات) ، أى : إن فى هذا الصنيع — وهو إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين — (لآيات) ، أى : لحججاً ودلالات واضحات على صدق الأنبياء فيما جاءوا به عن الله تعالى ، وأنه تعالى فاعل لما يشاء ، وقادر على كل شىء ، عليم بكل شىء .

وقوله : (وإن كنا لمبتلين) ، أى : لمختبرين للعباد بإرسال المرسلين .

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾

يخبر تعالى أنه أنشأ بعد قوم نوح قرناً آخرين — قيل : المراد بهم عاد ؛ فإنهم كانوا مستخلفين بعدهم ؛ وقيل : المراد بهؤلاء ثمود ، لقوله : (فأخذتهم الصيحة بالحق)(٤) — وأنه تعالى أرسل فيهم رسولا منهم ، فدعاهم إلى عبادة

(١) انظرها فى : ٤/٢٤٩ — ٢٦١ .

(٢) سورة الزخرف ، الآيات : ١٢ — ١٤ .

(٣) سورة هود ، آية : ٤١ .

(٤) هذان احتمالان ، والآية أعم من ذلك ؛ فان الله لم يدع أمة إلا وأرسل فيها رسولا ، وهو لم يقص علينا فى كتابه غير أخبار بعض الأنبياء . وهذه الآية تتحدث عن أحدهم الذين لم يصرح القرآن بأسمائهم . ولو كان المراد به هوداً أو صالحا ، لصرحت الآية بذلك ، والله أعلم .

الله وحده لا شريك له، فكذبوه وخالفوه ، وأبوا من اتّباعه(١) لكونه بشراً مثلهم ، واستنكفوا عن اتباع رسول بشري ، فكذبوا بلقاء الله في القيامة ، وأنكروا المعاد الجثماني ، وقالوا : (أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون ، هيهات هيهات لما توعدون) ، أي بعيد بعيد ذلك . (إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا) ، أي : فيما جاءكم به من الرسالة والنذارة والإخبار بالمعاد ، (وما نحن له بمؤمنين ، قال : رب انصرني بما كذبون) ، أي : استفتح عليهم الرسول واستنصر ربّه عليهم ، فأجاب دعاءه ، (قال : عما قليل ليصبحن نادمين) ، أي : بمخالفتك وعنادك فيما جئتهم به ، (فأخذتهم الصيحة بالحق) ، أي : وكانوا يستحقون ذلك من الله لكفرهم وطغيانهم .

والظاهر أنه اجتمع عليهم صيحة مع الريح الصَّرْصر العاصف القويّ الباردة ، (تدمر كلَّ شيء بأمر ربها ، فأصبحوا لا يُرَى إلا مساكنهم (٢)) .

وقوله : (فجعلناهم غثاء) ، أي : صرعى هلكى كغثاء السيل ، وهو : الشيء الحقير التافه الهالك [الذي] لا ينتفع بشيء منه : (فبعداً للقوم الظالمين) ، كقوله : (وما ظلمناهم ، ولكن كانوا هم الظالمين (٣)) ، أي: بكفرهم وعنادهم ومخالفة رسول الله ؛ فليحذر السامعون أن يكذبوا رسولهم .

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾

يقول تعالى : (ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين) ، أي : أمما وخلائق : (ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون) ، يعني : بل يُؤخذون حسب ما قدّر لهم تعالى في كتابه المحفوظ وعلمه قبل كونهم ، أمة بعد أمة ، وقرنا بعد قرن ، وجيلا بعد جيل ، وخلفاً بعد سلف .

(ثم أرسلنا رسلنا تترى) ، قال ابن عباس : يعني يتبع بعضهم بعضاً(٤) ؛ وهذه كقوله تعالى : (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ، فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة (٥)) ، وقوله : (كلما جاء أمة رسولها كذبوه) ، يعني : جمهورهم وأكثرهم ، كقوله تعالى : (ياحسرة على العباد ! ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون (٦)) .

وقوله : (فأتبعنا بعضهم بعضاً) ، أي : أهلكناهم ؛ كقوله : (وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح (٧)) .

---

(١) كذا ، والفعل يتعدى بنفسه . تقول : أبيت الشيء : إذا كرهته .
(٢) سورة الأحقاف ، آية : ٢٥ .
(٣) سورة الزخرف ، آية : ٧٦ .
(٤) تفسير الطبري : ١٨/١٨ .
(٥) سورة النحل ، آية : ٣٦ .
(٦) سورة « يس » ، آية : ٣٠ .
(٧) سورة الإسراء ، آية : ١٧ .

(وجعلناهم أحاديث) ، أى : أخباراً وأحاديث للناس ، كقوله : (فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ، إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) (١) .

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾

يخبر تعالى أنه بعث رسوله موسى عليه السلام وأخاه هارون إلى فرعون وملئه ، بالآيات والحجج الدامغات ، والبراهين القاطعات ، وأن فرعون وقومه استكبروا عن اتباعهما ، والانقياد لأمرهما ، لكونهما بشرين كما أنكرت الأمم الماضية بعثة الرسل من البشر ، تشابهت قلوبهم ، فأهلك الله فرعون وملأه ، وأغرقهم فى يوم واحد أجمعين ، وأنزل على موسى الكتاب ، وهو التوراة — فيها أحكامه وأوامره ونواهيه ، وذلك بعد ما قصم الله فرعون والقبط ، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر . وبعد أن أنزل الله التوراة لم يهلك أمة بعامة ، بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين ، كما قال تعالى : (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى ، بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون) (٢) .

ثم قال تعالى :

وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليهما السلام ، أنه جعلهما آية للناس ، أى : حجة قاطعة على قدرته على ما يشاء ، فإنه خلق آدم من غير أب ولا أم ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر ، وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى .

وقوله : (وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين) — قال الضحاك ، عن ابن عباس : الربوة : المكان المرتفع من الأرض ، وهو أحسن ما يكون فيه النبات . وكذا قال مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وقتادة .

قال ابن عباس : وقوله : (ذات قرار) ، يقول : ذات خصب (ومعين) ، يعنى ماء ظاهراً .

وقال مجاهد : ربوة مستوية .

وقال سعيد بن جبير : (ذات قرار ومعين) ، استوى الماء فيها .

وقال مجاهد ، وقتادة : (ومعين) : الماء الجارى .

ثم اختلف المفسرون فى مكان هذه الربوة فى أى أرض هى ؟ فقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ليس الربى إلا بمصر ، والماء حين يرسل يكون الربى عليها القرى ، ولولا الربى غرقت القرى(٣) .

(١) فى المخطوطة : « إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون » . والآية من سورة سبأ : ١٩ .

(٢) سورة القصص ، آية : ٤٣ .

(٣) هذا الأثر فى تفسير الطبرى مروى عن سعيد بن المسيب . انظر ١٨/٢٠ .

وروى عن وهب بن منبه نحو هذا ، وهو بعيد جداً .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ ، حدثنا سفيان ، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد ابن المسيب في قوله تعالى : (وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين) ، قال : هي دمشق .

قال : وروى عن عبد الله بن سلام ، والحسن ، وزيد بن أسلم ، وخالد بن معدان نحو ذلك .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا وكيع ، عن إسرائيل ، عن سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : (ذات قرار ومعين) ، قال : أنهار دمشق .

وقال ليث بن أبي سليم ، عن مجاهد : (وآويناهما إلى ربوة) ، قال : عيسى ابن مريم وأمه ، حين أويا إلى غوطة دمشق وما حولها .

وقال عبد الرزّاق ، عن بشر بن رافع ، عن أبي عبد الله بن عم أبي هريرة ، قال : سمعت أبا هريرة يقول : في قوله : (إلى ربوة ذات قرار ومعين) ، قال : هي الرملة من فلسطين .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا إبراهيم بن محمد بن يوسف الفريابي ، حدثنا روّاد بن الجراح ، حدثنا عباد بن عباد الخواص أبو عتبة ، حدثنا السيباني(١) ، عن ابن وعلة(٢) ، عن كريب السحولي(٣) ، عن مرة البهزي قال : سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول لرجل : إنك ميت بالربوة . فمات بالرملة . وهذا حديث غريب جداً .

وأقرب الأقوال في ذلك ما رواه العوفي ، عن ابن عباس في قوله : (وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين) ، قال : المعين الماء الجاري ، وهو النهر الذي قال الله تعالى : (قد جعل ربك تحتك سرياً (٤)) .

وكذا قال الضحاك ، وقتادة : (إلى ربوة ذات قرار ومعين) هو بيت المقدس . فهذا والله أعلم هو الأظهر ؛ لأنه المذكور في الآية الأخرى ، والقرآن يفسر بعضه بعضاً . وهو أولى ما يفسّر به ، ثم الأحاديث الصحيحة ، ثم الآثار .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾

يأمر تعالى عباده المرسلين عليهم الصلاة والسلام اجمعين بالأكل من الحلال ، والقيام بالصالح من الأعمال ، فدل هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح ، فقام الأنبياء عليهم السلام بهذا أتم القيام ، وجمعوا بين كل خير ، قولا وعملا ودلالة ونصحاً ، فجزاهم الله عن العباد خيراً .

---

(١) السيباني – بالمهملة – : هو يحيى بن أبي عمرو . انظر الجرح لابن أبي حاتم : ٨٣/١/٣ ، ١٧٧/٢/٤ .

(٢) هو عبد الرحمن بن وعلة المصرى ، مترجم في الجرح لابن أبي حاتم : ٢٩٦/٢/٢ .

(٣) هو كريب بن أبرهة أبو رشدين ، مترجم في الجرح : ١٦٨/٢/٣ .

(٤) تفسير الطبري : ٢١/١٨ .

قال الحسن البصرى فى قوله : (يا أيها الرسل ، كلوا من الطيبات) ، قال : أما والله ما أمروا بأصفركم ولا أحمركم ، ولا حلوكم ولا حامضكم ، ولكن قال : انتهوا إلى الحلال منه .

وقال سعيد بن جبير ، والضحاك : (كلوا من الطيبات) ، يعنى : الحلال .

وقال أبو إسحاق السبيعى ، عن أبى ميسرة عمرو بن شرحبيل : كان عيسى ابن مريم يأكل من غزل أمه(١) .

وفى الصحيح : ما من نبى إلا رعى الغنم ، قالوا : وأنت يارسول الله ؟ قال : نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة(٢) .

وفى الصحيح : إن داود عليه السلام كان يأكل من كسب يده(٣) .

وفى الصحيحين : إن أحب الصيام إلى الله صيام داود ، وأحب القيام إلى الله قيام داود ، كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه وينام سدسه ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، ولا يفر إذا لاقى(٤) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع ، حدثنا أبو بكر بن أبى مريم ، عن ضمرة بن حبيب : أن أم عبد الله ، أخت (٥) شداد بن أوس بعثت إلى النبى صلى الله عليه وسلم بقدح لبن عند فطره وهو صائم ، وذلك فى أول النهار وشدة الحر ، فرد إليها رسولها : أنّى كانت لك الشاة(٦) ؟ فقالت : اشتريتها من مالى ؛ فشرب منه ، فلما كان من الغد أتته أم عبد الله أخت(٥) شداد فقالت : يا رسول الله، بعثتُ إليك بلبن مرثيةً(٧) لك من طول النهار وشدة الحر ، فرددت إلىّ الرسول فيه ؟ فقال لها : بذلك أمرت الرسل ، [أن] لا تأكل إلا طيبا ولا تعمل إلا صالحا (٨) .

وقد ثبت فى صحيح مسلم ، وجامع الترمذى ، ومسند الإمام أحمد — واللفظ له — من حديث فضيل بن مرزوق، عن عدى بن ثابت عن أبى حازم ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أيها الناس ،

---

(١) تفسير الطبرى : ١٨/٢٢ .

(٢) البخارى ، كتاب الإجارة ، باب « رعى الغنم على قراريط » ٣/١١٥ ، ١١٦ .

(٣) البخارى ، كتاب البيوع ، باب « كسب الرجل وعمله بيده » . : ٣/٧٤ .

(٤) البخارى ، كتاب الصوم ، باب « صوم داود عليه السلام » : ٣/٥٢ ، ٥٣ . وكتاب الأنبياء ، باب « أحب الصلاة إلى الله صلاة داود » : ٤/١٩٥ ، ١٩٦ . ومسلم ، كتاب الصوم ، باب « النهى عن صوم الدهر لمن تضرر به ... » : ٣/١٦٤ ، ١٦٥.

(٥) فى المخطوطة : « أم عبد الله بنت شداد » . والمثبت عن ترجمها فى أسد الغابة : ٥/٥٩٨ ط الوهبية . والدر المنثور للسيوطى : ٥/١٠.

(٦) أى : على أية حالة تملكتها.

(٧) أى : توجعاً لك وإشفاقاً ، من رثى له إذا رق وتوجع .

(٨) فى مخطوطة الأزهر : « لا يأكلن إلا طيباً ، ولا يعملن إلا صالحاً » . وهو استعمال لم أجد من أجازه من أهل العربية ، والمعروف أنه يعامل جمع التكسير لغير العاقل معاملة جمع النسوة ، فيقال : « الجمال تسير ، والجمال يسرن » . وأما جمع التكسير للعاقل فلا يكون بهذه المثابة ، بل يقال : « الرجال تعمل ، ويعملون » . وانظر المقتضب للمبرد : ٢/١٨٥ .

هذا وقد أخرج الحديث ابن الأثير فى أسد الغابة ، عن مسند المعافى بن عمران : ٥/٥٩٨ .

إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال : (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات ، واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم) ، وقال : (يا أيها الذين آمنوا ، كلوا من طيبات ما رزقناكم) ، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغُذى بالحرام ، يمد يديه إلى السماء : يا رب يارب فأنّى يستجاب لذلك (١) » .

وقال الترمذى : « حسن غريب ، لا نعرفه إلا من حديث فُضَيل بن مرزوق » .

وقوله : (وإن هذه أمتكم أمة واحدة) ، أى : دينكم ــ يا معشر الأنبياء ــ دين واحد ، وملة واحدة ، وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له ؛ ولهذا قال : (وأنا ربكم فاتقون) ، وقد تقدم الكلام على ذلك فى سورة الأنبياء ، وأن قوله (أمة واحدة) منصوب على الحال (٢) .

وقوله : (فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا) ، أى : الأمم الذين بُعث إليهم الأنبياء ، (كل حزب بما لديهم فرحون) ، أى : يفرحون بما هم فيه من الضلال لأنهم يحسبون أنهم مهتدون ولهذا قال متهدداً لهم ومتوعداً (فذرهم فى غمرتهم) أى : فى غيهم وضلالهم (حتى حين) ، أى : إلى حين حَيْنهم وهلاكهم ، كما قال تعالى : (فمهل الكافرين أمهلهم رويدا (٣)) ، وقال تعالى : (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل ، فسوف يعلمون (٤)) .

وقوله : (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين . نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون) ، ــ يعنى : أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا ومعزتهم عندنا ؟ كلا ، ليس الأمر كما يزعمون فى قولهم : (نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين) (٥) ، لقد أخطأوا فى ذلك وخاب رجاؤهم ، بل إنما نفعل بهم ذلك استدراجا وإنظارا وإملاء ، ولهذا قال : (بل لا يشعرون) ، كما قال تعالى : (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم ، إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون) (٦) ، وقال تعالى : (إنما نملى لهم ليزدادوا إثماً (٧)) وقال تعالى : (فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث ، سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملى لهم إن كيدى متين)(٨) وقال : (ذرنى ومن خلقت وحيدا . وجعلت له مالا ممدودا . وبنين شهودا . ومهدت له تمهيدا . ثم يطمع أن أزيد . كلا إنه كان لآياتنا عنيداً) (٩) ، وقال تعالى : (وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى ، إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا ، وهم فى الغرفات آمنون) (١٠) ، والآيات فى هذا كثيرة .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٣٢٨/٢ . ومسلم ، كتاب الزكاة ، باب « قبول الصدقة من الكسب الطيب » : ٨٥/٣ ، ٨٦ ، وتحفة الأحوذى ، تفسير سورة البقرة ، الحديث ٤٠٧٤ : ٣٣٣/٨ ــ ٣٣٥ .

(٢) انظر تفسير الآية ٩٢ من سورة الأنبياء : ٣٦٦/٥ .

(٣) سورة الطارق ، آية : ١٧ .

(٤) سورة الحجر ، آية : ٣ .

(٥) سورة سبأ ، آية : ٣٥ .

(٦) سورة التوبة ، آية : ٥٥ .

(٧) سورة آل عمران ، آية : ١٧٨ .

(٨) سورة القلم ، آية : ٤٤ ، ٤٥ .

(٩) سورة المدثر ، الآيات : ١١ ــ ١٦ .

(١٠) سورة سبأ ، الآية : ٣٧ .

قال قتادة فى قوله : (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين . نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون)، قال : مكر والله بالقوم فى أموالهم وأولادهم ، يا ابن آدم ، فلا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم ، ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن عُبَيد ، حدثنا أبان بن إسحاق ، عن الصباح بن محمد ، عن مُرَّة الهَمْدانى ، حدثنا عبد الله(١) بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله قسم بينكم أخلاقكم ، كما قسم بينكم أرزاقكم . وإن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الدين إلا لمن أحب ، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه ، والذى نفسى بيده ، لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه — قالوا : وما بوائقه يا نبى الله ؟ قال : غشمه وظلمه — ولا يكسب عبد مالا من حرام فينفق منه فيبارك له فيه ، ولا يتصدق به فيقبل منه ، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار ، إن الله لا يمحو السيء بالسيء ، ولكن يمحو السيء بالحسن ، إن الخبيث لا يمحو الخبيث . (٢) .

إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾

يقول تعالى : (إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون) ، أى : هم مع إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح ، مشفقون من الله خائفون منه ، وجلون من مكره بهم ، كما قال الحسن البصرى : إن المؤمن جمع إحسانا وشفقة ، وإن المنافق جمع إساءة وأمناً .

(والذين هم بآيات ربهم يؤمنون) ، أى : يؤمنون بآياته الكونية والشرعية ، كقوله تعالى إخباراً عن مريم عليها السلام : (وصدقت بكلمات ربها وكتبه (٣)) ، أى : أيقنت أن ما كان إنما هو عن قدر الله وقضائه ، وما شرعه الله فهو إن كان أمراً فمما يحبه ويرضاه ، وإن كان نهيا فهو مما يكرهه ويأباه ، وإن كان خيراً فهو حق ، كما قال الله تعالى : (والذين هم بربهم لا يشركون أى : لا يعبدون معه غيره ، بل يوحدونه ويعلمون أنه لا إله إلا الله أحداً صمداً ، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وأنه لا نظير له ولا كفء له .

وقوله : (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون) ، أى : يعطون العطاء وهم خائفون أن لا يتقبل منهم ، لخوفهم أن يكونوا قد قصروا فى القيام بشروط الإعطاء . وهذا من باب الإشفاق والاحتياط ، كما قال الإمام أحمد :

---

(١) ما بين القوسين عن مسند الإمام أحمد .
(٢) مسند الإمام أحمد : ١ / ٣٨٧ .
(٣) سورة التحريم ، آية : ١٢ .

حدثنا يحيى بن آدم ، حدثنا مالك بن مغول، حدثنا عبدالرحمن بن سعيد بن وهب ، عن عائشة أنها قالت : يا رسول الله ، (الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة) ، هو الذى يسرق ويزنى ويشرب الخمر ، وهو يخاف الله عز وجل؟ قال : لا يا بنت أبي بكر ، يا بنت الصديق ولكنه الذى يصلى ويصوم ويتصدق ، وهو يخاف الله عز وجل(١)

وهكذا رواه الترمذى وابن أبي حاتم ، من حديث مالك بن مغول ، به بنحوه . وقال : لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون وهم يخافون ألا يقبل منهم ، (أولئك يسارعون فى الخيرات) — قال الترمذى : « وروى هذا الحديث من حديث عبد الرحمن بن سعيد ، عن أبي حازم ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم نحو هذا (٢) » .

وهكذا قال ابن عباس ، ومحمد بن كعب القرظى ، والحسن البصرى فى تفسير هذه الآية .

وقد قرأ آخرون هذه الآية : (والذين يأتون ما أتوا وقلوبهم وجلة(٣)) ، أى : يفعلون ما يفعلون وهم خائفون . وروى هذا مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ كذلك :

قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا صخر بن جويرية ، حدثنا إسماعيل المكى ، حدثنى أبو خلف مولى بنى جمح : أنه دخل مع عبيد بن عمير على عائشة — رضى الله عنها — فقالت : مرحباً بأبي عاصم ، ما يمنعك أن تزورنا أو : تلم(٤) بنا — ؟ فقال : أخشى أن أملك . فقالت : ما كنت لتفعل ؟ قال : جئت لأسأل عن آية فى كتاب الله عز وجل ، كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها ؟ قالت : أية آية ؟ فقال : (الذين يؤتون ما آتوا) أو (الذين يأتون ما أتوا) ؟ فقالت أيتها أحب إليك ؟ فقلت : والذى نفسى بيده، لإحداهما أحب إلىّ من الدنيا جميعاً — أو : الدنيا وما فيها — قالت : وما هى ؟ فقلت : (الذين يأتون ما أتوا) . فقالت : أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك كان يقرؤها ، وكذلك أنزلت ، ولكن الهجاء حرف (٥) .

إسماعيل بن مسلم المكى ، وهو ضعيف .

والمعنى على القراءة الأولى — وهى قراءة الجمهور السبعة وغيرهم — أظهر ، لأنه قال : (أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون) ، فجعلهم من السابقين . ولو كان المعنى على القراءة الأخرى لأوشك أن لا يكونوا من السابقين ، بل من المقتصدين أو المقصرين ، والله تعالى أعلم .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ١٥٩/٦ . وانظر أيضاً : ٢٠٥/٦ .

(٢) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة « المؤمنون » ، الحديث ٣٢٢٥ : ١٩/٩ ، ٢٠ .

(٣) قال أبو حيان فى البحر المحيط ٤١٠/٦ : « وقرأ الجمهور (يؤتون ما آتوا) ... وقرأت عائشة ، وابن عباس ، وقتادة ، والأعمش ، والحسن ، والنخعى : (يأتون ما أتوا) ، من الإتيان ، أى : يفعلون ما فعلوا » . وانظر تفسير الطبرى : ٢٦/١٨ .

(٤) أى : تنزل بنا .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٩٥/٦ . وقد اختصر ابن كثير متنه .

وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن عدله في شرعه على عباده في الدنيا : أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها، أي : إلا ما تطيق حمله والقيام به ، وأنه يوم القيامة يحاسبهم بأعمالهم التي كتبها عليهم في كتاب مسطور لا يضيع منه شيء ، ولهذا قال : (ولدينا كتاب ينطق بالحق) ، يعني : كتاب الأعمال ، (وهم لا يظلمون) ، أي : لا يبخسون من الخير شيئا ، وأما السيئات فيعفو ويصفح عن كثير منها لعباده المؤمنين :

ثم قال منكرا على الكفار والمشركين من قريش : (بل قلوبهم في غمرة) ، أي: غفلة وضلالة (من هذا) ، أي : القرآن الذي أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم .

وقوله : (ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون) — قال الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : (ولهم أعمال) ، أي : سيئة من دون ذلك ، يعني الشرك ، (هم لها عاملون) ، قال : لا بد أن يعملوها . وكذا روى عن مجاهد ، والحسن ، وغير واحد :

وقال آخرون: (ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون) ، أي: قد كُتب عليهم أعمال سيئة لابد أن يعملوها قبل موتهم لا محالة ، لتحق عليهم كلمة العذاب . ورُوي نحو هذا عن مقاتل بن حيّان والسدي ، وعبد الرحمن بن زيد ابن أسلم : وهو ظاهر قوي حسن : وقد قدّمنا في حديث ابن مسعود : « فو الذي لا إله غيره ، إن الرجل يعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار ، فيدخلها (١) » .

وقوله : (حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون) ، يعني حتى إذا جاء مترفيهم وهم السعداء المنعمون في الدنيا عذابُ الله وبأسه ونقمته بهم (إذا هم يجأرون) أي : يصرخون ويستغيثون ، كما قال تعالى : (ذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا. إن لدينا أنكالا وجحيما . وطعاما ذا غصة وعذابا أليما (٢)) وقال تعالى : (كم أهلكنا من قبلهم من قَرْن فنادَوا ولاتَ حين مناص (٣)) .

وقوله : (لا تجأروا اليوم ، إنكم منا لا تنصرون) ، أي : لا يجيركم مما حلّ بكم ، سواء جأرتم أو سكتّم ، لا محيدَ ولا مناص ولا وَزَرَ (٤) لزم الأمر ووجب العذاب .

---

(١) انظر تفسير الآية ١٤ من هذه السورة : ٤٦٢/٥
(٢) سورة المزمل ، الآيات : ١١ — ١٣ .
(٣) سورة « ص » ، آية : ٣ .
(٤) الوزر — بفتحتين — : الملجأ .

ثم ذكر أكبر ذنوبهم فقال : (قد كانت آياتى تتلى عليكم ، فكنتم على أعقابكم تنكصون) ، أى : إذا دُعيتم أبيتم ، وإن طُلِبتم امتنعتم ؛ (ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم ، وإن يشرك به تؤمنوا ، فالحكم لله العلى الكبير (١)) .

وقوله : (مستكبرين به سامراً (٢) تهجرون) ، فى تفسيره قولان ، أحدهما : أن مستكبرين حال منهم حين نكوصهم عن الحق وإبائهم إياه ، استكباراً عليه واحتقاراً له ولأهله. فعلى هذا الضمير فى (به) فيه ثلاثة أقوال :

أحدها أنه الحرَم بمكة ، ذموا لأنهم كانوا يسمرون به بالهُجْر من الكلام .

والثانى : أنه ضمير القرآن ، كانوا يسمرون ويذكرون القرآن بالهُجْر من الكلام : « إنه سحر ، إنه شعر ، إنه كهانة » : إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة .

والثالث : أنه محمد صلى الله عليه وسلم ، كانوا يذكرونه فى سَمَرهم بالأقوال الفاسدة ، ويضربون له الأمثال الباطلة ، من أنه شاعر ، أو كاهن ، أو ساحر ، أو كذاب ، أو مجنون . وكل ذلك باطل ، بل هو عبد الله ورسوله ، الذى أظهره الله عليهم ، وأخرجهم من الحرم صاغرين أذلاء .

وقيل : المراد بقوله : (مستكبرين به) ، أى : بالبيت ، يفتخرون به ويعتقدون أنهم أولياؤه ، وليسوا (٣) بهم ، كما قال النسائى فى التفسير من سننه :

أخبرنا أحمد بن سليمان ، أخبرنا عبيد الله ، عن إسرائيل ، عن عبد الأعلى ، أنه سمع سعيد بن جبير يحدث عن ابن عباس أنه قال : إنما كره السمر حين نزلت هذه الآية : (مستكبرين به سامراً تهجرون) ، فقال : مستكبرين بالبيت ، يقولون : نحن أهله ، (سامراً) ، قال : يتكبرون [ويسمرون فيه ولا] يعمرونه ، ويهجرونه (٤) .

وقد أطنب ابن أبى حاتم ها هنا بما ذا حاصله .

---

(١) سورة غافر ، آية : ١٢ .

(٢) قال ابن جرير ١٨/٣٠ : « وقوله (سامرا) ، يقول : تسمرون بالليل . ووحد قوله (سامرا) ؛ لأنه وضع موضع الوقت . ومعنى الكلام : تهجرون ليلا ، فوضع « السامر » موضع الليل ، فوحد لذلك . وقد كان بعض البصريين يقول : وحد ومعناه الجمع ، كما قيل : طفل فى موضع أطفال . ومما يبين عن صحة ما قلنا فى أنه وضع موضع الوقت فوحد لذلك ، قول الشاعر :

من دونهم إن جئتهم سمــــراً * عزف القيـــان ومجلس غمر

فقال : سمراً ، لأن معناه : إن جئتهم ليلا وهم يسمرون . وكذلك قوله : (سامرا) .

هذا و (سامراً) هى قراءة الجمهور . وقرأ بعضهم (سمرا) ، بضم السين وتشديد الميم مفتوحة ، جمع سامر . انظر البحر المحيط : ٦/٤١٣ ، ولسان العرب (سمر) .

(٣) فى المخطوطة : « ولستم بهم » . وفى الطبعات السابقة : « وليسوا به » .

(٤) الأثر فى الدر المنثور عن النسائى وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه : ٥/١٣ .

أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾ * وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾

يقول تعالى منكرا على المشركين فى عدم تفهمهم للقرآن العظيم وتدبرهم له وإعراضهم عنه ، مع أنهم قد خصّوا بهذا الكتاب الذى لم ينزل الله على رسول أكمل منه ولا أشرف ، لا سيا وآباؤهم الذين ماتوا فى الجاهلية ، حيث لم يبلغهم كتاب ولا أتاهم نذير ، فكان اللائق بهؤلاء أن يقابلوا النعمة التى أسداها الله إليهم بقبولها ، والقيام بشكرها وتفهمها ، والعمل بمقتضاها آناء الليل وأطراف النهار ، كما فعله النجباء منهم ممن أسلم واتبع الرسول – صلوات الله وسلامه عليه – ورضى عنهم .

وقال قتادة : (أفلم يدبروا القول) : إذاً والله يجدون فى القرآن زاجرا عن معصية الله لو تدبره القوم وعقلوه ، ولكنهم أخذوا بما تشابه ، فهلكوا عند ذلك .

ثم قال منكرا على الكافرين من قريش : (أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون) ، أى : أفهم لا يعرفون محمداً وصدقه وأمانته وصيانته التى نشأ بها فيهم ، أفيقدرون على إنكار ذلك والمباهتة فيه ؟ ; ولهذا قال جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه للنجاشى ملك الحبشة : أيها الملك : إن الله بعث إلينا رسولا نعرف نسبه وصدقه وأمانته . وهكذا قال المغيرة بن شعبة لنائب كسرى حين بارزهم ، وكذلك قال أبو سفيان صخر بن حرب لملك الروم هرقل ، حين سأله وأصحابه عن صفات النبى صلى الله عليه وسلم ونسبه وصدقه وأمانته ، وكانوا بعد كفاراً لم يسلموا ، ومع هذا ما أمكنهم إلا الصدقُ فاعترفوا بذلك .

وقوله : (أم يقولون به جنة) ، يحكى قولَ المشركين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه تقوّل القرآن ، أى : افتراه من عنده أو أن به جنونا لا يدرى ما يقول . وأخبر عنهم أن قلوبهم لا تؤمن به ، وهم يعلمون بطلان ما يقولونه فى القرآن ، فإنه قد أتاهم من كلام الله ما لا يُطاق ولا يدافَع ، وقد تحدّاهم وجميعَ أهل الأرض أن يأتوا بمثله ، فما استطاعوا ولا يستطيعون أبد الآبدين ، ولهذا قال : (بل جاءهم بالحق ، وأكثرهم للحق كارهون) : يحتمل أن تكون هذه جملة حالية ، أى : فى حال كراهة أكثرهم للحق ، ويحتمل أن تكون خبرية مستأنفة ، والله أعلم .

وقال قتادة : ذُكِر لنا أن نبىّ الله صلى الله عليه وسلم لقى رجلا فقال له : أسلم . فقال الرجل : إنك لتدعونى إلى أمر أنا له كاره . فقال نبى الله صلى الله عليه وسلم : وإن كنت كارها . وذُكر لنا أنه لقى رجلا فقال له : أسلم فتصعّده ذلك وكبُر عليه ، فقال له نبى الله : أرأيت لو كنتَ فى طريق وَعْر وَعْث ، فلقيت رجلا تعرف وجهه ، وتعرف نسبه ،

فدعاك إلى طريق واسع سهل ، أكنت متّبعه ؟ قال : نعم . فقال : فو الذى نفس محمد بيده ، إنك لفى أوعرَ من ذلك الطريق لو قدكنت عليه ، وإنى لأدعوك إلى أسهل من ذلك لو دعيت إليه وذُكر لنا أن نبى الله صلى الله عليه وسلم لقى رجلا ، فقال له : أسلم ، فتصعّده ذلك ، فقال له نبى الله صلى الله عليه وسلم : أرأيت فتييك ، أحدهما إذا حدّثك صدقك ، وإذا ائتمنته أدّى إليك أهو أحبُّ إليك ، أم فتاك الذى إذا حدثك كذبك وإذا ائتمنته خانك ؟ ! قال بل فتاى الذى إذا حدثنى صدقنى ، وإذا ائتمنته أدى إلى ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : كذاكم [أنتم] عند ربكم (١) » .

وقوله : (ولو اتبع الحق أهواءهم ، لفسدت السموات والأرض ومن فيهن) ــ قال مجاهد ، وأبو صالح والسدى : الحق هو الله عز وجل ، والمراد لو أجابهم الله إلى ما فى أنفسهم من الهوى ، وشرّع الأمور على وفق ذلك ، (لفسدت السموات والأرض ومن فيهن) ، أى : لفساد أهوائهم واختلافها، كما أخبر عنهم فى قولهم : (لولا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) ، ثم قال : (أهم يقسمون رحمة ربك (٢)) ، وقال تعالى : (قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذا لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتورا (٣)) . وقال : (أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا (٤)) ، ففى هذا كله تبيين عجز العباد واختلاف آرائهم وأهوائهم ، وأنه تعالى هو الكامل فى جميع صفاته وأقواله وأفعاله ، وشرعه وقدره ، وتدبيره لخلقه ــ تعالى وتقدس ــ فلا إله غيره ، ولا رب سواه .

ثم قال : (بل أتيناهم بذكرهم) ، يعنى القرآن ، (فهم عن ذكرهم معرضون) .

وقوله : (أم تسألهم خرجا) ــ قال الحسن : أجرا . وقال قتادة : جعلا ــ (فخراج ربك خير) ، أى : أنت لا تسألهم أجرة ولا جعلا ولا شيئا على دعوتك إياهم إلى الهدى ، بل أنت فى ذلك تحتسب عند الله جزيل ثوابه ، كما قال : (قل : ما سألتكم من أجر فهو لكم ، إن أجرى إلا على الله (٥)) ، وقال : (قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين (٦)) ، وقال : (قل : لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى (٧)) ، وقال تعالى : (وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال : يا قوم ، اتبعوا المرسلين . اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون (٨)) .

وقوله : (وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم ، وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون) ، قال الإمام أحمد :

حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن على بن زيد بن جدعان ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه ــ فيما يرى النائم ــ ملكان ، فقعد أحدهما عند رجليه ، والآخر عند رأسه ، فقال الذى عند رجليه للذى عند رأسه : اضرب مثل هذا ومثل أمته . فقال : إن مثله ومثل أمته ، كمثل قوم سفْر

---

(١) الأثر فى الدر المنثور عن عبد بن حميد وابن ابى حاتم : ٥/١٣ .
(٢) سورة الزخرف ، آية : ٣١ ، ٣٢ .
(٣) سورة الإسراء ، آية : ١٠٠ .
(٤) سورة النساء ، آية : ٥٣ .
(٥) سورة سبأ ، آية : ٤٧ .
(٦) سورة « ص » ، آية : ٨٦ .
(٧) سورة الشورى ، آية : ٢٣ .
(٨) سورة « يس » ، آية : ٢٠ ، ٢١ .

انتهوا إلى رأس مفازة ، فلم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ولا ما يرجعون به ، فبيناهم كذلك إذ أتاهم رجل في حلة حبِرَة ، فقال : أرأيتم إن وردت بكم رياضا مُعشبة ، وحياضا رِواء تتبعوني؟ فقالوا: نعم . قال : فانطلق بهم ، فأوردهم رياضا مُعشبة وحياضا رواء ، فأكلوا وشربوا وسمنوا . فقال لهم : ألم ألفكم على تلك الحال ، فجعلتم لي إن وردت بكم رياضا معشبة وحياضا رواء أن تتبعوني ؟ قالوا : بلى . قال : فإن بين أيديكم رياضا أعشب من هذه ، وحياضا هي أروى من هذه ، فاتبعوني . قال : فقالت طائفة : صدق والله ، لنتبعنّه . وقالت طائفة : قد رضينا بهذا نقيم عليه(١) .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي : حدثنا زهير ، حدثنا يونس بن محمد، حدثنا يعقوب بن عبد الله الأشعري ، حدثنا حفص ابن حميد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني ممسك بحُجَزِكم(٢) : هلُمّ عن النار ، هلُمّ عن النار وتغلبوني وتقَاحَمُون فيها تقَاحُم الفراش والجنَادب(٣) ، فأوشك أن أرسل حُجَزَكم وأنا فرَطكم (٤) على الحوض ، فتردون عليّ معا وأشتاتا ، أعرفكم بسياكم وأسمائكم ، كما يعرف الرجلُ الغريبَ من الإبل في ابله ، فيُذْهَب بكم ذات اليمين وذات الشمال ، فأناشد فيكم ربّ العالمين : أي رب ، قومي ، أي ربّ أمتي . فيقال : يا محمد ، إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، إنهم كانوا يمشون بعدك القهقرى على أعقابهم ، فلأعرفَنّ أحدَكم يأتي يوم القيامة يحمل شاة لها ثغاء ينادي يا محمد ، يا محمد ، فأقول : لا أملك لك شيئاً قد بلغت ، ولأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل بعيرا له رغاء ، ينادي : يا محمد ، يا محمد ، فأقول : لا أملك شيئا ، قد بلغت . ولأعرفَنّ أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل فرسا لها حَمْحَمَة ، فينادي : يا محمد ، يا محمد ، فأقول : لا أملك لك شيئا ، قد بلغت . ولأعرفَنّ أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل سقاء من أدَمٍ (٥) ، ينادي : يا محمد ، يا محمد ، فأقول : لا أملك لك شيئا قد بلغت .

وقال على بن المديني : هذا حديث حسن الإسناد ، إلا أنّ حفص بن حميد مجهول ، لا أعلم روى عنه غير يعقوب ابن عبد الله الأشعري القمي .

قلت : بل قد روى عنه أيضا أشعث بن إسحاق ، وقال فيه يحيى بن معين : صالح . ووثقه النسائي وابن حبّان .

وقوله : (وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون) ، أي : لعادلون جائرون منحرفون . تقول العرب : نكب فلان عن الطريق : إذا زاغ عنها.

وقوله : (ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون) : يخبر تعالى عن غلظهم في كفرهم ، بأنه لو أزاح عللَهم وأفهمهم القرآن ، لما انقادوا له ، ولاستمروا على كفرهم [وعنادهم] وطغيانهم ، كما قال تعالى : (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون (٦)) ، وقال : (ولو ترى إذ وقفوا على

---

(١) تقدم الحديث في سورة براءة ، عند الآية ١٢٨ : ٤/١٧٨ ، ١٧٩ وخرجناه هنالك ، وشرحنا غريبه .

(٢) انظر تفسير هذه الكلمة في : ٣/٢٧٩ .

(٣) الجنادب : جمع جندب - بجيم مضمومة ، فنون ساكنة ، فدال مفتوحه أو مضمومة - : وهو نوع من الجراد .

(٤) أي : متقدمكم إليه . يقال : فرط يفرط - بكسر الراء - فهو فارط وفرط - بفتحتين - : إذا تقدم وسبق القوم ليرتاد لهم الماء ، ويهيء لهم الدلاء .

(٥) أي : جلد .

(٦) سورة الأنفال ، آية : ٢٣ .

النار ، فقالوا : يا ليتنا نُرَدّ ولا نكذبَ بآيات ربنا ، ونكون من المؤمنين . بل بدالهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون : وقالوا : إن هى إلا حياتنا الدنيا ، وما نحن بمبعوثين (١)) ، فهذا من باب علمه تعالى بما لا يكون ، لو كان كيف يكون :

قال الضحاك ، عن ابن عباس : كل ما فيه « لو » ، فهو مما لا يكون أبدا :

وَلَقَدْ أَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَـٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَـٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾

يقول تعالى : (ولقد أخذناهم بالعذاب) ، أى : ابتليناهم بالمصائب والشدائد ، (فما استكانوا لربهم وما يتضرعون) ، أى : فما ردهم ذلك عما كانوا فيه من الكفر والمخالفة ، بل استمروا على ضلالهم وغيهم . (فما استكانوا) أى ما خشعوا ، (وما يتضرعون) ، أى : ما دعوا ، كما قال تعالى : (فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ، ولكن قست قلوبهم ، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون (٢)) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا محمد بن حمزة المروزى ، حدثنا على بن الحسين ، حدثنا أبى ، عن يزيد ــ يعنى النحوى ــ عن عكرمة ، عن ابن عباس أنه قال : جاء أبو سفيان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد ، أنشدك الله والرحم ، فقد أكلنا العِلْهِز (٣) ــ يعنى الوَبَر والدم ــ فأنزل الله : (ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون) .

وهكذا رواه النسائى عن محمد بن عقيل ، عن على بن الحسين ، عن أبيه ، به . وأصل هذا الحديث فى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا على قريش حين استعصوا فقال : اللهم ، أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف (٤) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا سلمة بن شبيب ، حدثنا عبد الله بن إبراهيم بن عمر بن كيسان ، عن وهب بن عمر بن كيسان قال : حبس وهب بن منبه ، فقال له رجل من الأبناء : ألا أنشدك بيتا من شعر يا أبا عبد الله ؟ فقال وهب : نحن فى طرف من عذاب الله ، والله تعالى يقول : (ولقد أخذناهم بالعذاب ، فما استكانوا لربهم وما يتضرعون

(١) سورة الأنعام ، الآيات : ٢٧ ــ ٢٩ .
(٢) سورة الأنعام ، آية : ٤٣ .
(٣) انظــــر : ٤/٥٢٧ .
(٤) البخارى ، كتاب الدعوات ، باب « الدعاء على المشركين » : ٨/١٠٤ . وانظر فيما تقدم تفسير الآية ١٢٨ من سورة آل عمران : ٢/٩٦ ، ٩٧ . والحديث أخرجه مسلم فى كتاب المساجد ، باب « استحباب القنوت فى جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة » : ٢/١٣٤ .

قال : وصام وهبٌ ثلاثا متواصلة ، فقيل له : ماهذا الصوم يا أبا عبد الله ؟ قال : أحدَثَ لنا فأحدَثْنا ؛ يعنى أحدث لنا الحبس ، فأحدثنا زيادة عبادة .

وقوله : (حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد ؛ إذا هم فيه مبلسون) ، أى : حتى إذا جاءهم أمر الله وجاءتهم الساعة بغتة وأخذهم من عقاب الله ما لم يكونوا يحتسبون ، فعند ذلك أبْلَسُوا (١) من كل خير ، وأيسوا من كل راحة ، وانقطعت آمالهم ورجاؤهم .

ثم ذكر تعالى نعمته على عباده فى أن جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة ، وهى العقول والفهوم ، التى يدركون بها الأشياء ، ويعتبرون بما فى الكون من الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى ، وأنه الفاعل المختار لما يشاء .

وقوله : (قليلا ما تشكرون) ، أى : وما أقل شكركم لله على ما أنعم به عليكم ، كقوله : (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) (٢) .

ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة وسلطانه القاهر ، فى بَرْئه الخليقة وذَرْئه (٣) لهم فى سائر أقطار الأرض ، على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم ، ثم يوم القيامة يجمع الأولين منهم والآخرين لميقات يوم معلوم ، فلا يترك منهم صغيرا ولا كبيرا ، ولاذكرا ولا أنثى ، ولا جليلا ولا حقيرا ، إلا أعاده كما أبدأه (٤) ، ولهذا قال : (وهو الذى يحيى ويميت) ، أى : يحيى الرمم ويميت الأمم ، (وله اختلاف الليل والنهار) ، أى : وعن أمره تسخير الليل والنهار ، كل منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا ، يتعاقبان لا يفتران ، ولا يفترقان بزمان غيرهما ، كقوله تعالى : « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون (٥) » .

وقوله : (أفلا تعقلون) ، أى : أفليس لكم عقول تدلكم على العزيز العليم ، الذى قد قهر كل شىء ، وعزّ كلّ شىء (٦) ، وخضع له كل شىء .

ثم قال مخبرا عن منكرى البعث ، الذين أشبهوا من قبلهم من المكذبين : (بل قالوا مثل ما قال الأولون ؛ قالوا : أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما ، أئنا لمبعوثون) ؟ يعنى : يستبعدون وقوع ذلك بعد صيرورتهم إلى البلَى ، (لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل، إن هذا إلا أساطير الأولين) ، يعنون : الإعادة محالٌ ، إنما يخبر بها من تلقاها عن كتب الأولين واختلاقهم . وهذا الإنكار والتكذيب منهم كقوله تعالى إخبارا عنهم : (أئذا كنا عظاما نَخِرَة ؛ قالوا : تلك إذا كرة خاسرة . فإنما هى زجرة واحدة . فإذا هم بالساهرة (٧)) ، وقال تعالى : (أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا

---

(١) أى : يئسوا .

(٢) سورة يوسف ، آية : ١٠٣ .

(٣) البرء : الخلق ، وفى أسماء الله تعالى « البارئ » ، وهو الذى خلق الخلق لا عن مثال . ولهذه اللفظة من الاختصاص بخلق الحيوانات ما ليس لها بغيرها من المخلوقات ، وقلما تستعمل فى غير الحيوان ، فيقال : « برأ الله النسمة » ، و « خلق الله السموات والأرض » .

وأما « الذرء » — بفتح فسكون ، فيقول ابن الأثير فى النهاية : « وكأن الذرء مختص بخلق الذرية » .

(٤) يقال : « بدأ وأبدأ » ، أى : خلق . وفى التنزيل : (الله يبدؤ الخلق) . وفيه : (كيف يبدىء الله الخلق) .

(٥) سورة « يس » ، آية : ٤٠ .

(٦) أى : غلبه .

(٧) سورة النازعات ، الآيات : ١١ — ١٤ .

هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ، قال : من يحيى العظام وهى رميم . قل : يحييها الذى أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم) (١) .

قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾

يقرّر تعالى وحدانيّته ، واستقلاله بالخلق والتصرف والملك ؛ ليرشد إلى أنه الذى لا إله إلا هو ، ولا تنبغى العبادة إلا له وحده لا شريك له ؛ ولهذا قال لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين العابدين معه غيره ، المعترفين له بالربوبية ، وأنه لا شريك له فيها ، ومع هذا فقد أشركوا معه فى الإلهية ، فعبدوا غيره معه ، مع اعترافهم أن الذين عبدوهم لا يخلقون شيئا ، ولا يملكون شيئا ، ولا يستبدّون بشىء ، بل اعتقدوا أنهم يقربونهم إليه زلفى : (مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى (٢)) ـ فقال : (قل : لمن الأرض ومن فيها) ؟ أى : مَن مالكها الذى خلقها ومَن فيها من الحيوانات والنباتات والثمرات ، وسائر صنوف المخلوقات (إن كنتم تعلمون . سيقولون لله) ، أى : فيعترفون لك بأن ذلك لله وحده لا شريك له ، فإذا كان ذلك (قل : أفلا تذكرون) أنه لا تنبغى العبادة إلا للخالق الرازق لا لغيره .

(قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم) ؟ أى : من هو خالق العالم العُلْوىّ بما فيه من الكواكب النيّرات ، والملائكة الخاضعين له فى سائر الأقطار منها والجهات ، ومن هو رب العرش العظيم ، يعنى الذى هو سقف المخلوقات ، كما جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : شأن الله أعظم من ذلك ، إن عرشه على سماواته هكذا . وأشار بيده مثل القبة (٣) .

وفى الحديث الآخر : ما السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن فى الكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وإن الكرسى بمافيه بالنسبة إلى العرش كتلك الحلقة فى تلك الفلاة (٤) . ولهذا قال بعض السلف : إن مسافة مابين قطرى العرش من جانب إلى جانب مسيرة خمسين ألف سنة ، [وارتفاعها عن الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة (٥)] ؛

وقال الضحاك ، عن ابن عباس : إنما سمى عرشاً لارتفاعه .

---

(١) سورة « يس » ، الآيات : ٧٧ - ٧٩ .

(٢) سورة الزمر ، آية : ٣ .

(٣) سنن أبى داود ، كتاب السنة ، باب « فى الجهمية » .

(٤) تقدم هذا الحديث فى سورة الرعد ، عند تفسير الآية الثانية منها ، انظر : ٣٥١/٤ . وانظر أيضاً تفسير الآية الخامسة من سورة « طه » : ٢٦٨/٥ ، ٢٦٩ .

(٥) انظر أيضاً هذا الأثر فى الموضعين المتقدمين .

وقال الأعمش عن كعب الأحبار : إن السموات والأرض فى العرش ، كالقنديل المعلق بين السماء والأرض .

وقال : مجاهد : ما السموات والأرض فى العرش إلا كحلقة فى أرض فلاة .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا العلاء بن سالم ، حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان الثورى ، عن عمار الدّهْنى ، عن مسلم البَطِين ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس قال : العرش لا يقدر أحد قدره — وفى رواية : إلا الله عز وجل .

وقال بعض السلف : العرش من ياقوتة حمراء .

ولهذا قال هاهنا : (ورب العرش العظيم) ، يعنى الكبير . وقال فى آخر السورة : (رب العرش الكريم) ، أى : الحسن البَهِى . فقد جمع العرش بين العظمة فى الاتساع والعلو ، والحسن الباهر . ولهذا قال من قال : إنه من ياقوتة حمراء .

وقال ابن مسعود : إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار ، نور العرش من نور وجهه .

وقوله : (سيقولون لله قل أفلا تتقون) ، أى : إذا كنتم تعترفون بأنه رب السموات ورب العرش العظيم ، أفلا تخافون عقابه وتحذرون عذابه ، فى عبادتكم معه غيره وإشراككم به ؟ .

قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى الدنيا القُرَشى فى كتاب « التفكر والاعتبار » : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، أخبرنا عبد الله بن جعفر ، أخبرنى عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يحدث عن امرأة كانت فى الجاهلية على رأس جبل ، معها ابن لها يرعى غنما ، فقال لها ابنها : يا أمّاه ، من خلَقك ؟ قالت : الله . قال : فمن خلق أبى ؟ قالت : الله . قال : فمن خلقنى ؟ قالت : الله . قال : فمن خلق السماء ؟ قالت : الله . قال : فمن خلق الأرض ؟ قالت : الله . قال : فمن خلق الجبل ؟ قالت : الله . قال : فمن خلق هذه الغنم ؟ قالت : الله . قال : فإنى أسمع لله شأنا . ثم ألقى نفسه من الجبل فتقطع .

قال ابن عمر : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يحدثنا هذا الحديث .

قال عبد الله بن دينار : كان ابن عمر كثيرا ما يحدثنا بهذا الحديث .

قلت : فى إسناده عبد الله بن جعفر المدينى ، والد الإمام على بن المدينى ، وقد تكلموا فيه ، فالله أعلم .

(قل : من بيده ملكوت كل شىء) : أى : بيده الملك ، (مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها) ، أى : متصرّف فيها . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا ، والذى نفسى بيده » ، وكان إذا اجتهد فى اليمين قال : « لا ، ومقلب القلوب » ، فهو سبحانه الخالق المالك المتصرف ، (وهو يجير ولا يُجَار عليه ، إن كنتم تعلمون) — كانت العرب إذا كان السيد فيهم فأجار أحداً ، لا يُخْفَر (١) فى جواره ، وليس لمن دونه أن يجير عليه ، لئلا يفتات عليه (٢) ،

---

(١) أى لا ينقض عهده .

(٢) أى ، يحكم عليه ، يقال : « افتات عليه فى الأمر » حكم ، وكل من أحدث دونك شيئاً فقد فاتك به ؛ وافتات عليك فيه .

ولهذا قال الله : (وهو يجير ولا يجار عليه) ، أى : وهو السيد العظيم الذى لا أعظم منه ، الذى له الخلق والأمر ، ولا معقب لحكمه ، الذى لا يُمانَع ولا يُخالَف ، وما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وقال الله : (لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون (١)) ، أى : لا يسئل عما يفعل ؛ لعظمته وكبريائه ، وقهره وغلبته ، وعزته وحكمته ، والخلق كلهم يُسئلون عن أعمالهم ، كما قال تعالى : (فوربك لنسألنهم أجمعين . عما كانوا يعملون (٢)) .

وقوله : (سيقولون لله) ، أى : سيعترفون أن السيدَ العظيم الذى يجير ولا يجار عليه ، هو الله تعالى ، وحده لا شريك له ، (قل : فأنَّى تسحرون) أى : فكيف تذهَبُ عقولكم فى عبادتكم معه غيره مع اعترافكم وعلمكم بذلك .

ثم قال تعالى : (بل أتيناهم بالحق) ، وهو الإعلام بأنه لا إله إلا الله ، وأقمنا الأدلة الصحيحة الواضحة القاطعة على ذلك ، (وإنهم لكاذبون) ، أى : فى عبادتهم مع الله غيره ، ولا دليل لهم على ذلك ، كما قال فى آخر السورة (ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به ، فانما حسابه عند ربه ، إنه لا يفلح الكافرون) ، فالمشركون لا يفعلون ذلك [عن دليل قادهم إلى ماهم فيه من الإفك والضلال ، وإنما يفعلون ذلك] اتباعا لآبائهم وأسلافهم الحيارى الجهال ، كما قالوا : (إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون (٣)) .

مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾

ينزه تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك فى الملك ، فقال : (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض) ، أى : لو قُدِّر تعدّد الآلهة ، لانفرد كل منهم بما يخلق ، فما كان ينتظم الوجود . والمشاهد أن الوجود منتظم متسق ، كلٌ من العالم العلوى والسفلى مرتبط بعضه ببعض ، فى غاية الكمال ، (ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت (٤)) . ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه ، فيعلو بعضهم على بعض . والمتكلمون ذكروا هذا المعنى وعبروا عنه بدليل التمانع ، وهو أنه لو فرض صانعان فصاعداً ، فأراد واحد تحريك جسم وأراد الآخر سكونه ، فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين ، والواجب لا يكون عاجزاً ، ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد . وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد ، فيكون محالا ، فأما إن حَصَل مراد أحدهما دون الآخر ، كان الغالب هو الواجب ، والآخر المغلوب ممكناً ؛ لأنه لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقهورا ، ولهذا قال : (ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون) ، أى : عما يقول الظالمون المعتدون فى دعواهم الولد أو الشريك عُلُوّا كبيراً .

---

(١) سورة الأنبياء ، آية : ٢٣ .
(٢) سورة الحجر : ٩٢ ، ٩٣ .
(٣) سورة الزخرف ، آية : ٢٣ .
(٤) سورة الملك ، آية ٣ .

(عالم الغيب والشهادة) ، أي : يعلم ما يغيب عن المخلوقات وما يشاهدونه ، (فتعالى عما يشركون) ، أي : تقدس وتنزه وتعالى وعز وجل [عما يقول الظالمون والجاحدون] .

قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾

يقول تعالى آمراً [نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم] أن يدعو بهذا الدعاء عند حلول النقم : (رب ، إما تريني مايوعدون) أي : إن عاقبتهم — وإني شاهدُ ذلك — فلا تجعلني فيهم ، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والترمذي — وصححه — : « وإذا أردتَ بقوم فتنةً فتوفّني إليك غيرَ مفتون (١) » .

وقوله : (وإنا على أن نريك مانعدهم لقادرون) ، أي : لو شئنا لأريناك مانحلُّ بهم من النقم والبلاء والمحن .

ثم قال مرشداً له إلى الترياق النافع (٢) في مخالطة الناس ، وهو الإحسان إلى من يسيء ، ليستجلب خاطره ، فتعود عداوته صداقة وبغضُه محبة ، فقال : (ادفع بالتي هي أحسن السيئة) . وهذا كما قال في الآية الأخرى : (ادفع بالتي هي أحسن ، فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم . وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم (٣)) ، أي : ما يلهم هذه الوصية أو الخصلة أو الصفة (إلا الذين صبروا) ، أي : على أذى الناس ، فعاملوهم بالجميل مع إسدائهم إليهم القبيحَ ، (وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) ، أي : في الدنيا والآخرة .

وقوله : (وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين) ، أمره أن يستعيذَ من الشياطين ، لأنهم لا تنفع معهم الحيل ، ولا ينقادون بالمعروف .

وقد قدمنا عند الاستعاذة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، من هَمْزه ونَفْخه ونَفْثه (٤) » .

وقوله : (وأعوذ بك رب أن يحضرون) ، أي : في شيء من أمري . ولهذا أمر بذكر الله في ابتداء الأمور — وذلك مَطْرَدَةٌ للشياطين — عند الأكل والجماع والذبح ، وغير ذلك من الأمور . ولهذا روَى أبو داود أن رسول الله

(١) تحفة الأحوذي ، تفسير سورة « ص » ، الحديث ٣٢٨٨ : ١٠٦/٩ — ١٠٩ . وقال الترمذي : « هذا حديث حسن صحيح . ومسند الإمام أحمد عن معاذ بن جبل : ٢٤٣/٥ .

(٢) الترياق : ما يستعمل لدفع السم ، من الأدوية والمعاجين . ويقال فيه : « درياق » ، بالدال . وفي المعرب للجواليقي ١٩٠ أنه رومي معرب .

(٣) سورة فصلت ، الآية : ٣٤ ، ٣٥ .

(٤) انظر : ٢٨/١ . والحديث أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة ، باب « ما يستفتح به الصلاة من الدعاء » ، والترمذي في أبواب الصلاة ، باب « ما يقول عند افتتاح الصلاة » ، الحديث ٢٤٢ : ٤٧/٢ — ٥٠ . والإمام أحمد عن عبدالله بن مسعود : ٤٠٣/١ ، ٤٠٤ ، وعن أبي سعيد الخدري : ٥٠/٣ ، وعن أبي أمامة الباهلي : ٢٥٣/٥ ، وعن عائشة رضي الله عنها : ١٥٦/٦ .

صلى الله عليه وسلم كان يقول : اللهم إنى أعوذ بك من الهرم ، وأعوذ بك من الهدْم ومن الغرق ، وأعوذ بك أن يتخبطنى الشيطان عند الموت (١) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، أخبرنا محمد بن إسحاق ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا كلمات يقولهن عند النوم ، من الفزع : باسم الله ، أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه ، ومن شر عباده ، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون . قال : فكان عبد الله بن عمرو يعلمها من بلغ من ولده أن يقولها عند نومه ، ومن كان منهم صغيرا لا يعقل أن يحفظها ، كتبها له ، فعلقها فى عنقه (٢) .

ورواه أبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، من حديث محمد بن إسحاق ، قال : الترمذى حسن غريب (٣) .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) ﴾

يخبر تعالى عن حال المحتضر عند الموت ، من الكافرين أو المفرطين فى أمر الله تعالى ، وقيلهم عند ذلك ، وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا ، ليصلح ما كان أفسده فى مدة حياته ، ولهذا قال : (رب ، ارجعون ، لعلى أعمل صالحا فيما تركت كلا) ، كما قال الله تعالى : (وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول : رب ، لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ، ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون (٤)) ، وقال تعالى : (وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا : ربنا ، أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أولم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال (٥)) ، وقال تعالى : (يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل : قد جاءت رسل ربنا بالحق ، فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ، أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل(٦)) ، وقال تعالى : (ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم : ربنا ، أبصرنا وسمعنا ، فارجعنا نعمل صالحا ، إنا موقنون (٧)) ، وقال تعالى : (ولو ترى إذ وقفوا على النار ، فقالوا : يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ، بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون (٨)) ، وقال تعالى : (وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون : هل إلى مرد من سبيل (٩)) ، وقال تعالى : (قالوا : ربنا ، أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ،

---

(١) سنن أبى داود ، كتاب الوتر ، باب « فى الاستعاذة » .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٢/١٨١ .
(٣) سنن أبى داود ، كتاب الطب ، باب « كيف الرقى » ، وتحفة الأحوذى ، أبواب الدعوات ، الحديث ٣٥٩٠ : ٩/٥٠٧ .
(٤) سورة « المنافقون » آية : ١٠ ، ١١ .
(٥) سورة إبراهيم ، آية : ٤٤ .
(٦) سورة الأعراف ، آية : ٥٣ .
(٧) سورة السجدة ، آية : ١٢ .
(٨) سورة الأنعام ، آية : ٢٧ ، ٢٨ .
(٩) سورة الشورى ، آية : ٤٤ .

فاعترفنا بذنوبنا ، فهل إلى خروج من سبيل . ذلكم بانه إذا دعى الله وحده كفرتم ، وإن يُشرك به تؤمنوا ، فالحكم لله العلى الكبير (١)) وقال تعالى : (وهم يصطرخون فيها : ربنا ، أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل ، أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير ، فذوقوا فماللظالمين من نصير (٢)) ـ فذكر تعالى أنهم يسألون الرجعة ـ فلا يجابون ، عند الاحتضار ، ويوم النشور ، ووقت العرض على الجبار ، وحين يعرضون على النار ، وهم فى غمرات عذاب الجحيم .

وقوله : هاهنا : (كلا إنها كلمة هو قائلها) ، كلا : حرف ردع وزجر ، أى : لا نجيبه إلى ما طلب ، ولا نقبل منه .

وقوله : (إنها كلمة هو قائلها) ، قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم : أى لا بد أن يقولها لا محالة كلّ محتضر ظالم (٣) ، ويحتمل أن يكون ذلك علة لقوله « كلا » ، أى : لأنها كلمة ، أى : سؤاله الرجوع ليعملَ صالحا هو كلام منه ، وقول لا عمل معه ، ولو رد لما عمل صالحا ، ولكانَ يكذبُ فى مقالته هذه ، كما قال تعالى : (ولو رُدّوا لعادوا لما نُهوا عنه ، وإنهم لكاذبون) .

وقال محمد بن كعب القُرَظى : (حتى إذا جاء أحدهم الموت قال : رب ، ارجعون : لعلى أعمل صالحا فيما تركت) ، قال : فيقول الجبار : (كلا ، إنها كلمة هو قائلها) .

وقال عُمَر بن عبد الله مولى غُفْرَة : إذا سمعت الله يقول : (كلا) ، فانما يقول : كَذَبَ :

وقال قتادة فى قوله تعالى : (حتى إذا جاء أحدهم الموت) ، قال : كان العلاء بن زياد يقول : لِيُنْزِلْ أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت ، فاستقال ربه فأقاله (٤) ، فليعمل بطاعة الله عز وجل .

وقال قتادة : والله ما تمنى أن يرجع إلى أهل ولا إلى عشيرة ، ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله ، فانظروا أمنية الكافر المفرّط فاعملوا بها ، ولا قوة إلا بالله . وعن محمد بن كعب القرظى نحوه .

وقال محمد بن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أحمد بن يوسف ، حدثنا فضيل ـ يعنى ابن عياض ـ عن ليث ، عن طلحة بن مصرف ، عن أبى حازم ، عن أبى هريرة قال : إذا وضع ـ يعنى الكافر ـ فى قبره ، فيرى مقعده من النار ـ قال : فيقول : رب ، ارجعون أتوب وأعمل صالحا ـ قال : فيقال : قد عُمّرت ما كنت مُعَمّرا ـ قال : فيضيق عليه قبره ، قال : فهو كالمنهوش ، ينام ويفزع ، تهوى إليه هَوَامّ الأرض وحياتها وعقاربها (٥) .

وقال أيضاً : حدثنا أبى ، حدثنا عَمْرو بن على ، حدثنى سلمة بن تمام ، حدثنا على بن زيد ، عن سعيد بن المسيب ، عن عائشة أنها قالت : ويل لأهل المعاصى من أهل القبور ! ! تدخل عليهم فى قبورهم حيات سُودُ ـ أو : دُهْمٌ (٦) حية

(١) سورة غافر ، آية : ١١ ، ١٢ .
(٢) سورة فاطر ، آية : ٣٧ .
(٣) تفسير الطبرى : ١٨ / ٤١ .
(٤) استقاله : طلب إليه أن يقيله ، والمعنى هنا : أنه يطلب منه تعالى أن يعيده إلى الدنيا للعمل الصالح ، فأجابه الله إلى طلبه .
(٥) الأثر فى الدر المنثور عن ابن أبى الدنيا فى ذكر الموت ، وابن أبى حاتم : ٥ / ١٤ .
(٦) الدهم ـ بضم فسكون ـ جمع أدهم ، وهو الأسود .

عند رأسه ، وحية عند رجليه ، يقرصانه حتى يلتقيا فى وسطه ، فذلك العذاب فى البرزخ الذى قال الله تعالى : (ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) .

وقال أبو صالح وغيره فى قوله تعالى : (ومن ورائهم) : يعنى أمامهم .

وقال مجاهد : البرزخ : الحاجز مابين الدنيا والآخرة .

وقال محمد بن كعب : البرزخ : مابين الدنيا والآخرة ، ليسوا مع أهل الدنيا يأكلون ويشربون ، ولا مع أهل الآخرة يجازون بأعمالهم .

وقال أبو صخر : البرزخ : المقابر ، لاهم فى الدنيا ، ولا هم فى الآخرة ، فهم مقيمون إلى يوم يبعثون .

وفى قوله : (ومن ورائهم برزخ) تهديد لهؤلاء المحتضرين من الظلمة بعذاب البرزخ ، كما قال : (من ورائهم جهنم (١)) ، وقال : (ومن ورائه عذاب غليظ (٢)) .

وقوله : (إلى يوم يبعثون) ، أى : يستمر به العذاب إلى يوم البعث ، كما جاء فى الحديث : « فلا يزال معذبا (٣) فيها » ، أى : فى الأرض .

فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾

يخبر تعالى أنه إذا نفخ فى الصور نفخة النشور ، وقام الناس من القبور ، (فلا أنساب بينهم) ، أى : لاتنفع الأنساب يومئذ ، ولا يرثى والد لولده ، ولا يلوى عليه ، قال الله تعالى : (ولا يسأل حميم حميما . يبصرونهم (٤)) ، أى : لايسأل القريب قريبه وهو يبصره ، ولو كان عليه من الأوزار ماقد أثقل ظهره ، وهو أعز الناس عليه — كان — فى الدنيا ، ماالتفت إليه ولا حمل عنه — وزن جناح بعوضة ، قال الله تعالى : (يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه . لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه (٥)) .

وقال ابن مسعود : إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين ثم نادى مناد : ألا من كان له مظلمة فليجئ فليأخذ حقه ، قال : فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته وإن كان صغيرا ، ومصداق ذلك فى كتاب الله : (فإذا نفخ فى الصور ، فلا أنساب بينهم يومئذ ، ولا يتساءلون) . رواه ابن أبى حاتم .

---

(١) سورة الجاثية ، آية : ١٠ .

(٢) سورة إبراهيم ، آية : ١٧ .

(٣) تحفة الأحوذى ، أبواب الجنائز ، باب « ماجاء فى عذاب القبر » ، الحديث ١٠٧٧ عن أبى هريرة : ٤/ ١٨١ — ١٨٤ .
وقال الترمذى : « حديث أبى هريرة حديث حسن غريب » .

(٤) سورة المعارج ، آية : ١٠ ، ١١ .

(٥) سورة عبس ، الآيات : ٣٤ — ٣٧ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو سعيد — مولى بنى هاشم — حدثنا عبد الله بن جعفر ، حدثتنا أم بكر بنت المِسْوَر ابن مخرمة ، عن عُبَيد الله بن أبي رافع ، عن المِسْوَر — هو ابن مَخْرَمَة — رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فاطمة بَضْعَةٌ منى ، يَقْبِضُنى مايَقبِضُها ، ويَبْسُطُنى ما يَبْسُطُها(١) ، وإن الانساب تنقطع يوم القيامة غير نسبي وسَبَبي (٢) وصِهْرى (٣) » .

هذا الحديث له أصل فى الصحيحين عن المِسْوَر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فاطمة بَضعة منى ، يَريبُنى ما رابها ، ويؤذينى ما آذاها (٤) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو عامر ، حدثنا زهير ، عن عبد الله بن محمد ، عن حمزة بن أبى سعيدالخدرى ، عن أبيه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على هذا المنبر : ما بال رجال يقولون : إن رَحِمَ رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تنفع قومه ؟ بلى ، والله إن رحمى موصولة فى الدنيا والآخرة ، وإنى — أيها الناس — فَرَطٌ (٥) لكم ، إذا جئتم(٦) قال رجل : يا رسول الله ، أنا فلان بن فلان ، [وقال أخوه : أنا فلان بن فلان (٧)] . فأقول لهم (٨) : أما النسب فقد عرفتُ ، ولكنكم أحدثتم بعدى وارتددتم القهقرى (٩) .

وقد ذكرنا فى مسند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، من طرق متعددة عنه — رضى الله عنه — : أنه لما تزوج أم كلثوم بنت على بن أبى طالب رضى الله عنهما قال : أما — والله — مابى إلا (١٠) أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : كل سَبَب ونسب فإنه منقطع يوم القيامة ، إلا سَبَبى ونَسَبى .

رواه الطبرانى ، والبزار ، والهيثم (١١) بن كُلَيب ، والبيهقى ، والحافظ الضياء فى « المختارة » وذكرنا أنه أصدقها

(١) فى المخطوطة : « وينشطنى ما ينشطها » . والمثبت من المسند . وفى النهاية لابن الأثير : « يقبضنى ما قبضها » ، أى : أكره ما تكرهه ، وأتجمع مما تتجمع له » . وقال فى « بسط » : يبسطنى ما يبسطها ، أى يسرنى ما يسرها ؛ لأن الإنسان إذا سر انبسط وجهه واستبشر » .

(٢) النسب بالولادة ، والسبب بالزواج .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٤/٣٢٣ .

(٤) البخارى ، كتاب فضائل أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، باب « مناقب قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومنقبة فاطمة عليها السلام بنت النبى » : ٥/٢٦ . وباب « ذكر أصهار النبى صلى الله عليه وسلم » ٥/٢٨ وباب مناقب فاطمة عليها السلام » : ٥/٣٦ . وكتاب النكاح ، باب « ذب الرجل عن ابنته فى الغيرة والإنصاف » : ٧/٤٧ . ومسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب « فضائل فاطمة بنت النبى عليها الصلاة والسلام » : ٧/١٤٠ — ١٤٢ .

ومعنى « يريبنى ما رابها » : يسوؤنى ما ساءها ، ويزعجنى ما أزعجها ، يقال : رابنى هذا الأمر ، وأرابنى : إذا رأيت منه ما تكره .

(٥) تقدم تفسير « الفرط » من قريب .

(٦) لفظ المسند : « فاذا جئتم . . . » .

(٧) ما بين القوسين سقط من تفسير ابن كثير ، وقد أثبتناه من المسند الإمام أحمد ، وهو سقط نظر .

(٨) فى المسند : « قال لهم » . وما فى تفسير ابن كثير يوافق رواية أخرى فى المسند : ٣/٣٩ .

(٩) مسند الإمام أحمد : ٣/١٨ .

(١٠) أى : ما بى حاجة إلى الزواج .

(١١) هو الحافظ أبو سعيد الهيثم بن كليب الشاشى ، صاحب المسند ، ومحدث ما وراء النهر ، روى عن عيسى بن أحمد البلخى . ثقة . توفى سنة ٣٣٥ . انظر العبر للذهبى : ٢/٢٤٢ .

أربعين ألفا ، إعظاماً وإكراما رضى الله عنه ، فقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة أبى العاص بن الربيع — زوج زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم — من طريق أبى القاسم البَغَوىّ : حدثنا سليمان بن عمر بن الأقطع ، حدثنا إبراهيم بن عبد السلام ، عن إبراهيم بن يزيد ، عن محمد بن عباد بن جعفر ، سمعت ابن عمر يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا نسبى وصهرى » . وروى فيها من طريق عَمّار بن سيف ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عبد الله بن عمرو مرفوعا : سألت ربى عز وجل أن لا أتزوج إلى أحد من أمتى ، ولا يتزوج إلىّ أحد منهم ، إلا كان معى فى الجنة ، فأعطانى ذلك » ، ومن حديث عمار بن سيف ، عن إسماعيل ، عن عبد الله بن [عمرو] .

وقوله : (فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون) ، أى : من رَجَحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة ، قاله ابن عباس .

(فأولئك هم المفلحون) ، أى : الذين فازوا فنجوا من النار وأدخلوا الجنة .

وقال ابن عباس : أولئك الذين فازوا بما طلبوا ، ونَجَوا من شرّ ما منه هَرَبوا .

(ومن خفت موازينه) ، أى : ثقلت سيئاته على حسناته ، (فأولئك الذين خسروا أنفسهم) ، أى : خابوا وهلكوا ، وباءوا بالصفقة الخاسرة .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا إسماعيل بن [أبى] الحارث حدثنا داود بن المُحبر ، حدثنا صالح المرى ، عن ثابت البنانى وجعفر بن زيد ومنصور بن زاذان ، عن أنس بن مالك يرفعه قال : [إن لله] ملكا موكلا بالميزان ، فيؤتى بابن آدم ، فيوقف بين كفّتى الميزان ، فإن ثقل ميزانه نادى ملك بصوت يُسْمِع الخلائق : سَعِد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً ، وإن خف ميزانه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق : شقى فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبداً .

إسناده ضعيف ، فإن داود بن المُحبّر متروك .

ولهذا قال : (فى جهنم خالدون) ، أى : ما كثون فيها ، دائمون مقيمون لا يظعنون .

(تلفح وجوههم النار) ، كما قال تعالى : (وتغشى وجوههم النار [1]) ، وقال : (لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون [2]) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا فروة بن أبى المغراء ، حدثنا محمد بن سليمان بن الأصبهانى ، عن أبى سنان ضرار بن مرة ، عن عبد الله بن أبى الهذيل ، عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم : « إن جهنم لما سيق [لها] أهلها ، يلقاهم لهبها ، ثم تلفحهم لفحة ، فلم يبق [لهم] لحم إلا سقط على العرقوب » .

وقال ابن مَرْدَويه : حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى القزاز ، حدثنا الخضر بن على بن يونس القطان ، حدثنا عمر ابن أبى الحارث بن الخضر القطان ، حدثنا سعد بن سعيد المقبرى ، عن أخيه ، عن أبيه ، عن أبى الدرداء رضى الله

---

(١) سورة إبراهيم ، آية : ٥٠ .
(٢) سورة الأنبياء ، آية : ٣٩ .

عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قول الله : (تلفح وجوههم النار) ، قال : تلفحهم لفحة ، فتسيل لحومهم على أعقابهم .

وقوله : (وهم فيها كالحون) ، قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : يعنى عابسون (١) .

وقال الثورى ، عن أبى إسحاق ، عن أبى الأحوص ، عن عبد الله بن مسعود : (وهم فيها كالحون) ، قال : ألم تر إلى الرأس المُشيَّط (٢) الذى قد بدا أسنانه وقَلَصت (٣) شفتاه (٤) .

وقال الإمام أحمد رحمه الله : أخبرنا على بن إسحاق ، أخبرنا عبد الله — هو ابن المبارك ، رحمه الله — أخبرنا سعيد بن يزيد (٥) ، عن أبى السَّمح ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد الخُدْرى ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (وهم فيها كالحون) ، قال : تَشْويه النار فتَتَقَلَّصُ (٦) شفتهُ العليا حتى تبلغ وَسَطَ رأسه ، وتسترخى شفته السفلى حتى تَضْرب سُرَّته (٧) .

ورواه الترمذى ، عن سويد بن نصر ، عن عبد الله بن المبارك ، به . وقال : حسن غريب (٨) .

أَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾

هذا تقريع من الله تعالى لأهل النار وتوبيخ لهم على ما ارتكبوا من الكفر والمآثم والمحارم والعظائم ، التى أوبقتهم فى ذلك ، فقال : (ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون) ، ؟ أى : قد أرسلت إليكم الرسل ، وأنزلت الكتب ، وأزلت شُبَهكم ، ولم يبق لكم حجة تدلون [بها] كما قال : (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل (٩)) ، وقال : (وما كنا مُعَذّبين حتى نبعث رسولا (١٠)) ، وقال : (كلمَّا ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ! ! قالوا : بلى ، قد جاءنا نذير ، فكذبنا وقلنا : ما نزل الله من شىء ، إن أنتم إلا فى ضلال كبير . وقالوا : لو كنا نسمع

---

(١) تفسير الطبرى : ١٨/٤٣ .
(٢) أى : المحرق بعضه . من قولهم : شيط اللحم — بتضعيف العين — : إذا أحرق بعضه .
(٣) أى : اجتمعتا .
(٤) تفسير الطبرى : ١٨/٤٣ .
(٥) فى المسند : « أنا سعيد بن يزيد ، أنا شجاع » . وهو خطأ ، فسعيد بن يزيد يكنى أبا شجاع ، وهو مترجم فى كتب الرجال
(٦) أى : تنقبض . وأصله تتقلص ، فحذفت إحدى التاءين .
(٧) مسند الإمام أحمد : ٣/٨٨ .
(٨) تحفة الأحوذى ، أبواب صفة جهنم ، باب « ما جاء فى صفة طعام أهل النار » ، الحديث ٢٧١٣ ؛ ٧/٣١٢ . وكتاب التفسير ، تفسير سورة « المؤمنون » ، الحديث ٣٢٢٦ : ٩/٢٠ ، ولفظ الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح غريب » .
(٩) سورة النساء ، آية : ١٦٥ .
(١٠) سورة الإسراء ، آية : ١٥ .

أو نعقل، ماكنا فى أصحاب السعير : فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير(١)) ، ولهذا قالوا:(ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين) ، أى : قد قامت علينا الحجة ، ولكن كنا أشقى من أن نقاد لها ونتبعها ، فضلَلْنا عنها ولم نُرزَقها .

ثم قالوا : (ربنا ، أخرجنا منها ، فإن عدنا فإنا ظالمون) ، أى : رُدّنا إلى الدار الدنيا ، فإن عدنا إلى ما سلف منا ، فنحن ظالمون مستحقون للعقوبة ، كما قالوا : (فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل * ذلكم بأنه إذا دُعى الله وحده كفرتم ، وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلى الكبير (٢)) ، أى : لاسبيل إلى الخروج ، لأنكم كنتم تشركون بالله إذا وحّده المؤمنون :

قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾

هذا جواب من الله تعالى للكفار إذا سألوا الخروجَ من النار والرجعةَ إلى هذه الدار ، يقول : (اخسئوا فيها) ، أى : امكثوا فيها صاغرين مُهَانين أذلاء : (ولا تكلمون) ، أى : لاتعودوا إلى سؤالكم هذا ، فإنه لاجواب لكم عندى .

قال العَوفىّ ، عن ابن عباس : (اخسئوا فيها ولا تكلمون) ، قال : هذا قول الرحمن حين انقطع كلامهم منه :

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبدة بن سليمان المروزى ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، عن سعيد بن أبى عروبة ، عن قتادة ، عن أبى أيوب ، عن عبد الله بن عمرو قال : إن أهل جهنم يدعون مالكا ، فلا يجيبهم أربعين عاما ، ثم يردّ عليهم : إنكم ماكثون ــ قال : هانت دعوتهم ــ والله ــ على مالك وربّ مالك . ثم يدعون ربهم فيقولون : (ربنا ، غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين * ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون) ، قال : فيسكت عنهم قَدْرَ الدنيا مرتين ، ثم يرد عليهم : (اخسئوا فيها ولا تكلمون) ــ قال : والله مانَبَس القوم بعدها بكلمة واحدة ، وما هو إلا الزفير والشهيق فى نار جهنم ــ قال : فشُبهت أصواتهم بأصوات الحمير ، أولها زفير وآخرها شهيق .

وقال أيضاً : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، حدثنا سفيان ، عن سلمة بن كهيل ، حدثنا أبو الزعراء قال : قال عبد الله بن مسعود : إذا أراد الله أن لا يخرج منهم أحداً ــ يعنى من جهنم ــ غَيّر وجوههم وألوانهم ، فيجىء الرجل من المؤمنين ، فيشفع فيقول : يارب . فيقول : من عرف أحداً فليخرجه . فيجىء الرجل فينظر فلا يعرف أحداً فيقول : أنا فلان . فيقول : ماأعرفك . قال : فعند ذلك يقول : (ربنا ، أخرجنا منها ، فإن عدنا فإنا ظالمون) ، فعند ذلك يقول : (اخسئوا فيها ولا تكلمون) : وإذا قال ذلك ، أطبقت عليهم فلا يخرج منهم بشَر .

ثم قال تعالى مذكراً لهم بذنوبهم فى الدنيا ، وما كانوا يستهزئون بعباده المؤمنين وأوليائه ، فقال : (إنه كان فريق من عبادى يقولون : ربنا ، آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين * فاتخذتموهم سخْريّا) ، أى : فسخرتم منهم

(١) سورة الملك ، الآيات : ٨ – ١١ .
(٢) سورة غافر ، آية : ١١ – ١٢ .

فى دعائهم إياى وتضرعهم إلىّ ، (حتى أنسوكم ذكرى) ، أى : حملكم بغضهم على أن نسيتم معاملتى (وكنتم منهم تضحكون) ، أى : من صنيعهم وعبادتهم ، كما قال تعالى : (إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون : وإذا مروا بهم يتغامزون) (١) ، أى : يلمزونهم استهزاء .

ثم أخبر عما جازى به أولياءه وعباده الصالحين ، فقال : (إنى جزيتهم اليوم بما صبروا) ، أى : على أذاكم لهم واستهزائكم منهم ، (أنهم هم الفائزون) ، أى : جعلتهم هم الفائزين بالسعادة والسلامة والجنة ، الناجين من النار .

قَـٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾

يقول تعالى منبها لهم على ما أضاعوه فى عمرهم القصير فى الدنيا من طاعة الله تعالى وعبادته وحده ، ولو صبروا فى مدة الدنيا القصيرة لفازوا كما فاز أولياؤه المتقون ، (قال : كم لبثتم فى الأرض عدد سنين) ؟ أى : كم كانت إقامتكم فى الدنيا ؟ (قالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم ، فاسأل العادين) ، أى : الحاسبين . (قال : إن لبثتم إلا قليلا) ، أى : مدة يسيرة على كل تقدير (لو أنكم كنتم تعلمون) ، أى : لما آثرتم الفانىَ على الباقىَ ، ولما تصرفتم لأنفسكم هذا التصرفَ السيء ، ولا استحققتم من الله سخطه فى تلك المدة اليسيرة ، ولو أنكم صبرتم على طاعة الله وعبادته — كما فعل المؤمنون — لفزتم كما فازوا .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا محمد بن الوزير ، حدثنا الوليد ، حدثنا صفوان ، عن أيفع بن عبد الكلاعى أنه سمعه يخطب الناس فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله إذا أدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، قال : يا أهل الجنة ، كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ؟ قالوا : لبثنا يوما أو بعض يوم . قال : لنعم ما اتجرتم فى يوم أو بعض يوم : رحمتى ورضوانى وجنتى ، امكثوا فيها خالدين مخلدين ؟ ثم يقول : يا أهل النار ، كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ؟ قالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم . فيقول : بئس ما اتجرتم فى يوم أو بعض يوم : نارى وسخطى ، امكثوا فيها خالدين مخلدين .

وقوله : (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً) ، أى : أفظننتم أنكم مخلوقون عبثا بلا قصد ولا إرادة منكم ولا حكمة لنا ، (وأنكم إلينا لا ترجعون) ، أى : لا تعودون فى الدار الآخرة ، كما قال : (أيحسب الإنسان أن يترك سدى (٢)) ، يعنى هملا .

---

(١) سورة « المطففين » ، آية : ٢٩ ، ٣٠ .

(٢) سورة القيامة ، آية : ٣٦ .

وقوله : (فتعالى الله الملك الحق) ، أى : تقدّس أن يخلق شيئا عبثا ، فإنه الملك الحق المنزّه عن ذلك ، (لا إله إلا هو رب العرش الكريم) ، فذكر العرش لأنه سقف جميع المخلوقات ، ووصفه بأنه كريم ، أى : حسن المنظر بهى الشكل ، كما قال تعالى : (وأنبتنا فيها من كل زوج كريم (١)) .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا على بن محمد الطنافسى ، حدثنا إسحاق بن سليمان ــ شيخ من أهل العراق ــ أنبأنا شعيب بن صفوان ، عن رجل من آل سعيد بن العاص قال : كان آخر خطبة خطب عمر بن عبد العزيز أن حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، فإنكم لم تخلقوا عبثا ، ولن تتركوا سدى ، وإن لكم معادا ينزل الله فيه للحكم بينكم والفصل بينكم ، فخاب وخسر مَن خرج من رحمة الله ، وحرم جنة عرضها السموات والأرض ، ألم تعلموا أنه لا يأمن غدا إلا من حذر هذا اليوم وخافه ، وباع نافدا بباق ، وقليلا بكثير ، وخوفا بأمان ، ألا ترون أنكم من أصلاب الهالكين ، وسيكون مَن بعدكم الباقين ، حتى تردون إلى خير الوارثين ؟ ثم إنكم فى كل يوم تُشيّعون غاديا ورائحا إلى الله عز وجل ، قد قضى نحبه ، وانقضى أجله ، حتى تغيبوه فى صَدْع من الأرض ، فى بطن صَدْع غير ممهد ولا موسّد ، قد فارق الأحباب وباشر التراب ، وواجه الحساب ، مُرتَهَن بعمله ، غنى عما ترك ، فقير إلى ماقدم ، فاتقوا الله عباد الله قبل انقضاء مواثيقه ، ونزول الموت بكم ، ثم جعل طرف ردائه على وجهه ، فبكى وأبكى من حوله :

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا يحيى بن نصر الخولانى ، حدثنا ابن وهب ، أخبرنى ابن لَهيعة ، عن أبى هبيرة عن حَنَش بن عبد الله : أن رجلا مصابًا مرّ به عبد الله بن مسعود ، فقرأ فى أذنه هذه الآية : (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لاترجعون ، فتعالى الله الملك الحق) ، حتى ختم السورة فبَرَأ ، [فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم] ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بماذا قرأت فى أذنه ؟ فأخبره ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . والذى نفسى بيده ، لو أن رجلا مُوقنا قرأها على جَبَل لزال .

وروى أبو نُعَيم من طريق خالد بن نزار ، عن سفيان بن عيينة ، عن محمد بن المنكدر ، عن محمد بن إبراهيم ابن الحارث ، عن أبيه قال : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سرية ، وأمرنا أن نقول إذا نحن أمسينا وأصبحنا : (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لاترجعون) ، قال : فقرأناها فغنمنا وسلمنا (٢) .

وقال ابن أبى حاتم أيضاً : حدثنا إسحاق بن وهب العلاف الواسطى ، حدثنا أبو المسيب سلمة بن سلام ، حدثنا بكر ابن خُنَيس ، عن نهشل بن سعيد ، عن الضحاك بن مزاحم ، عن عبد الله بن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمان لأمتى من الغرق إذا ركبوا فى السفن : باسم الله الملك الحق ، (وما قدروا الله حق قدره ، والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون) ، (باسم الله مجراها ومرساها ، إن ربى لغفور رحيم) .

---

(١) سورة « ق » ، آية : ٧ .

(٢) انظر أسد الغابة ، ترجمة « إبراهيم بن الحارث » : ١/٥١ ، بتحقيقنا .

وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾

يقول تعالى متوعدا من أشرك به غيره ، وعَبَد معه سواه ، ومخبراً أن من أشرك بالله (لابُرهان له) ، أى : لادليل له على قوله — فقال : (ومن يدع مع الله إلهاً آخر لابرهان له به) ، وهذه جملة معترضة ، وجواب الشرط فى قوله : (فإنما حسابه عند ربه) ، أى : الله يحاسبه على ذلك .

ثم أخبر :(إنه لايفلح الكافرون) ، أى : لديه يوم القيامة ، لافلاح لهم ولا نجاة .

قال قتادة : ذُكر لنا أن نبى الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل : ماتعبد ؟ قال : أعبدالله،وكذاوكذا — حتى عد أصناما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأيّهم إذا أصابك ضُرّ فدعوته ، كشفه عنك ؟ قال : الله عز وجل : قال : [فأيّهم إذا كانت لك حاجة فدعوتَه أعطاكها ؟ قال : الله عز وجل : قال] : فما يحملك على أن تعبد هؤلاء معه ؟ . قال : أردت شكره بعبادة هؤلاء معه أم حسبت أن يغلب عليه (١) : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «تعلمون ولايعلمون» قال الرجل بعد ماأسلم : لقيت رجلا خصمنى .

هذا مرسل من هذا الوجه ، وقد روى أبو عيسىٰ الترمذى فى جامعه مسنداً عن عمران بن الحصين ، عن أبيه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو ذلك .

وقوله : (وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين) ، هذا إرشاد من الله إلى هذا الدعاء ، فالغَفْرُ — إذا أطلِقَ — معناه محوَ الذنب وستره عن الناس ، والرحمة معناها أن يسدده ويوفقه فى الأقوال والأفعال .

[آخر تفسير سورة المؤمنون]

---

(١) وقعت هذه الفقرة التى بين القوسين المعقوفين فى الطبعات السابقة بعد «فما يحملك على أن تعبد هؤلاء معه ؟» ، ولم نجد أثر قتادة هـذا .

أعلام المفسرين والفقهاء

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ظ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

فهرس القبائل والطوائف

فهرس الأماكن والغزوات

فهرس الشعر

فهـرس اللغــة

(ش)

(ص)

(ض)

(م)

(ن)

(هـ)

فهرس الموضوعات

سورة الإسراء

سورة طه

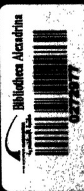
سورة الأنبياء

سورة الحج

سورة المؤمنون

تصويبات

الصفحة	السطر	الخطأ	صوابه
٣	١٢	هو إيلياء	هو بايلياء
٢٩	٤ من التعليق	والسين الساكنة	والراء الساكنة
٧٢	١٣ من التعليق	شواهد الكافية	شواهد الشافية
٨٤	١٩	ازفلة	أزْفَلَة
٩٠	٨	ربالة	زبالة
١٢٠	١٢	القرشي ، عن أبيه ، حدثنا أبو الطفيل	القرشي ، حدثنا أبو الطفيل
١٨٢	١٢	عن حُجيرة	عن ابن حُجيرة
٢٣٨	٦	فيا	فيا
٢٦٣	١٥	يعني : يحب	يعني : يَحسِبُ
٢٦٣	٥ من التعليق	لابن كثير	لابن الأثير
٢٧١	١٠	إني اصطفتيك	إني اصطفيتك
٢٩٤	١٦	إن هذا لساحران	(إن هذان لساحران)
٣٣٠	الثاني من التعليق	يقول ابن أبي حاتم	ويقول ابن أبي حاتم
٣٣٠	» » »	في الجرح رالتعديل	في الجرح والتعديل
٣٤٣	الأول	من !	من ؟
٣٤٤	٩	متهنيم	متهنيم ؟
٣٤٩	١٨	سليمان (٣)	سليمان (٢)
٣٤٩	٢٤	وسلاؤها (٤)	وسلاؤها (٣)
٣٥٦	٧	وهما يسمعان : اللهم بعزتك	وهما يسمعان ، ثم قال : اللهم بعزتك
٣٦٠	١٣ من التعليق	لفظ المطبوعة	لفظ المخطوطة
٣٦١	٢١	سعيد بن الحسن	سعيد بن أبي الحسن
٣٦١	٢١	ابن جبير	ابن جرير
٣٦١	الثالث من التعليق	بل قال : وأنشد	بل قال القرطبي : وأنشد
٣٦٢	١٤	حدثنا أبو عبد الله	حدثنا أبو عبيد الله
٣٦٤	الثالث	المحبر بن قحذم	المحبر بن قحذَم
٣٦٥	آخر الصفحة	صوره طه	سورة طه
٣٦٤	الثاني من التعليق	ابن أبي شريح	ابن أبي سريج
٣٨٦	الثالث	فلما تأشهوا	فلما تأشبوا
٣٩٢	السطر الأول	من بعد قوة ضعف	(من بعد قوة ضعفا)


Bibliotheca Alexandrina